

منتدى مكتبة الإسكندرية

ثلاثية خراطم الروح

الرواية الأولى

خير المدينة

د. أحمد إبراهيم الفقيه



خيز المدينة

الرواية الأولى من خرائط الروح

أحمد إبراهيم الفقيه

alexandra.dalalontada.com
منتدى مكتبة الإسكندرية

ملاحظة تمهيدية¹

وهذا الكتاب مع طوله واتساعه وكثرة فصوله وأبوابه، ما استوفينا فيه

خاطرًا واحدًا من خواطرنا في الطريق

محي الدين بن عربي

ليبيّا تصحّرت. القَيْظ اختلس الرطوبة، فناحت حوريات مهدلات

الشعور، بنعين جفاف الينابيع والبحيرات

أوفيدوس

مفتّح الرواية الأولى

الشيخ عبد ربه التائه هو الرجل الحكيم الذي اختاره الأستاذ نجيب محفوظ ليكون الناطق بأفكاره في رواية أصداء السيرة الذاتية وإكباراً وإجلالاً لعميد الرواية العربية أردت أن أستهل الرواية بهذه الهوامش التي كتبتها تعليقاً على أقوال الشيخ:

رأى الشيخ عبد ربه التائه مجدوباً يضرب الهواء بعصاه. كان يقاتل كائنات غير منظوره، ثم رآه ينهار فوق الأرض من الإنهاك، تأكله الحسرة لأن الناس لا يرون هذا الخطر الداهم ولا يعبأون بما يفعله دفاعاً عنهم ، وليس ببعيد عن هذا العمل تلك الحرب التي خاضها دون كيشوت بطل سيرفانتس ضد طواحين الهواء ، البعض يري في هذا النوع من البشر أناساً مكشوف عنهم الحجاب يرون ما لا يراه الآخرون من مهالك وأخطار ، وآخرون يضيفونهم إلى مجاديب هذا العصر وكل عصر الذين يضربون الهواء ويطلقون صيحات القتال ضد أعداء وهميين ، في حين يهربون من المعارك الحقيقية التي يخوضها أهلهم مع أعداء من لحم ودم وفريق ثالث يرى ان أعداء الخفاء المتلغفين بالاثير هم أكثر خطورة من الاعداء الظاهرين ويرفعون صيحات الحرب على الاثنين.

تحدث الشيخ عبد ربه التائه عن اناس شغلته الحياة ، واخرين شغلهم الموت ، وهو ابلغ واصدق واشمل تقييم للناس ، فهم فعلاً فريقان لا ثالث لهما ، فريق يهب نفسه للحياة ، ويخوض غمارها سلباً وإيجاباً ، يأخذ مه ويضيف اليها ويحتفي بها ، واهل هذا الفريق هم

¹ ثمة ملاحظة تمهيدية يمكن أن يقرأها القارئ قبل بداية قراءته الرواية ويمكنه أن يقرأها بعدها أو في أي وقت يشاء، فهي من النصوص المرافقة للرواية وليست جزءاً أساسياً منها، ولهذا أوردناها في نهاية النص.

الاحياء الاحياء ، والفريق الثاني لا يفعل شيئاً غير الانشغال بالموت ينسج له الاكفان وينجد له التوابيت ويحفر له القبور وهؤلاء هم الاحياء الموتى .

قال الشيخ عبد ربه التائه:

— في الصحراء واحة ، هي امل الضالين .

الهامش :

— طوبى لمن اعطاه الله بصيرة يرى بها تلك الواحة ، فلا يبقى تائها في صحراء الحياة حتى يشرف على الهلاك .

قال الشيخ عبد ربه التائه :

— الحاضر نور يخفق بين ظلمتين .

الهامش :

— هناك ظلمتان اشد قتامة يسير بينهما الانسان ، هما ظلمة الرحم وظلمة اللحد ، فطوبى لمن جعل حياته بيه هاتين الظلمتين ، بقعة نور ، لا ظلمة ثالثة موصولة بظلام البدء والمنتهى .

قال الشيخ عبد ربه التائه:

— بعض أكاذيب الحياة تتجر صدقا .

الهامش:

— ولن يكون غريباً عندئذ أن نرى صدقها يتفجر أحيانا كذباً .

قال الشيخ عبد ربه التائب :

— ما اجمل راحة البال في حدائق الورد .

الهامش :

— حذار ، حذار ، ان تذهب ايها الضائع الى حدائق الورد مثقل القلب بالاحزان ، لان الورود ستري في ذلك اهانة لها واستهتار بجمال الوانها وبهجة اريجها ، وستحل عليك نقمة الورود ولعناتها وهي كما تعلم كائنات اثيرة عند الله .

قال الشيخ عبد ربه التائب :

— انه بطاردني من المهد الى اللحد ، ذلك هو الحب .

الهامش :

— هذا مقام لا يبلغه الا الاصفياء الاتقياء من امثالك ايها الشيخ عبد ربه التائب ، وكاتب سيرتك وسيرته نجيب محفوظ ، ممن يطاردهم الحب اينما ذهبوا ، اما غاية ما يصبوا اليه امثالنا من عامة الناس فهو ان نطار د الحب حتى نعثر عليه .

قال الشيخ عبد ربه التائب :

— حذار ، فانتني لم اجد تجارة هي اريج من بيع الاحلام .

الهامش

— قالها الشيخ بلهجة التخدير والاذار يدق بها نواقيس الفجعة والخطر ، الا ان فرسان هذا العصر ، اعتبروها بشارة ووصية واجبة التنفيذ ، فبنوا للأحلام مصانع ، تتولى تعليلها وبيعها في اشربة مرئية ومسموعة ، وسخروا العلم لإنشاء أقمار صناعية تدور في الفضاء تساعد على إنتاجها وترويج بيعها للحمقى والمساكين، حتى صارت تجارة الأحلام والأوهام أكبر وأعظم وأكثر أنواع التجارة ربحا في عالمنا الحديث.

لا يرى الشيخ عبد ربه التائه الكون إلا في ضوء الحب ، فهو خيط يصل الدنيا بالآخرة ، ويصل الأرض بالسماء ، ويصل الحاضر بالماضي والمستقبل ، ويصل الازل بالابد ، ويعطي للوجود معنى في مواجهة العدم ، وعندما يعود مريضا من اصدقائه يدعو له قائلا — اللهم من عليه بحسن الختام وهو العشق .

رأى الشيخ عبد ربه التائه الحياة تراقص الموت في احدى الصالات، فراعه المشهد ، وهو الذي يعلم أكثر مما نعلم ، انهما مترابطان ، متلازمان ، لا وجود لاحدهما بغير وجود الآخر ، ولكن رهبة الموت شيء متأصل في قلوب البشر ، بمن فيهم عباد الله الصالحون ، الموعودون بنعيم الدنيا والآخرة ، امثال الشيخ الحكيم عبد ربه التائه .

بمثل ما يكتسح الطوفان الاول العالم القديم ، ليهلك اهله الفاسدين ، فلا تنجو الا فئة قليلة من الاخيار ، تباشر بناء عالم افضل بعد الطوفان،

فان الشيخ عبد ربه التائه ، ينتظر طوفانا جديدا ، يكتسح كل هذا الفساد، فلا تبقى الا قلة من الاخيار ، تنشيء للبشرية مدينة جديدة ، وتعيد للعالم ما افقده من نقاء وصفاء ، وما ضاع منه من بهجة وجمال .

(1)

ثريا

هكذا تبدأ أحداث قصتك وهكذا تنتهي رغم أنها لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد فهي بداية تقود إلى نهاية ونهاية تقود إلى بداية جديدة فلا شيء ينتهي دون أن تكون له بداية ولا شيء يبدأ إلا لكي يصل إلى نهاية تكون نقطة انطلاق لأحداث تتعاقب وتصنع صيرورة الحياة بما فيها من بدايات ونهايات وميلاد وموت وإنبعاث ودورة تقود إلى دورة أخرى لتصبح حلقة مفرغة بلا بداية ولا نهاية فلماذا يفزعك أن يعود إليك الماضي ليأخذك أسيرا مغلولاً بالأصفاة إلى أرضه الموحشة الموحلة التي تركتها هاربا ؟

نعم إنه الماضي يعود إلى الحاضر يا عثمان الحبشي يأتي ليحتويك بغياره الكثيف الكريه المحمل بأدخنة البارود ورائحة الدم البشري وأشباح الجثث المقطوعة الرؤوس هاهو الماضي

يعود إليك يا عثمان الحيشي يغمرك بأمواله السوداء كبحر من القار يحاصرك ويبسط نفوذه على ساعات نومك ويقطعتك ويأخذك من أرضك وزمانك إلى أرضه وزمانه هو بمثل ما فعل عندما انتزعك من جذورك وأخذ منك لقبك ونسبك وإعطاك نسبا حبشيا وأنتك شجرة بين أحراج الهضاب الإثيوبية وأنت القادم من عمق الحمادة الحمراء حيث يتجول العجاج حراً بين قيعانها المقفرة المجذبة القاحلة وكضباع الكهوف في الهضبة الإثيوبية التي تنام نهاراً وتستيقظ ليلاً ولا تهاجم ضحاياها إلا غداً تهاجمك ضباع الماضي لتأكل يومك وغدك وتسد أمامك مسالك النجاة

بعد لحظات سيطلع الفجر ويشعل في الأفق حريقاً هائلاً يأكل ظلمة الليل وسيرتفع من المآذن النداء الذي يدعو الناس إلى صلاة هي خير من النوم مصحوباً بالنشيد الأبدي الذي تعزفه جوقة الديكة وهي ترفع رؤوسها باتجاه الشرق انتظاراً لمواكب الشمس حيث تمتلئ سهول السماء بأطياف مضيئة لها ضجيج وحركة ونكهة وألوان صاخبة فتردد صداها قلوب الكائنات وهي تستيقظ على إيقاع أشعتها منبهة بجلال أصواتها وألوانها ويبدأ مشهد الافتتاح ليوم جديد تتطلع نفوس الناس لما يحمله من مستجدات عداك أنت يا عثمان الحيشي لأن الماضي يأتي أن يغادر عقلك وقلبك معلقاً بأهداب عينيك يصادر حقك في أن تحقق إلى المستقبل و يمنعك من أن ترى سواه لقد صار الماضي حاضراً يملأ عليك لحظات النوم واليقظة برعب الكوابيس كنت أنت يا عثمان الحيشي من يصنع الكوابيس للآخرين فما الذي أصابك وأصاب الدنيا لتصبح أنت ضحية الكوابيس أم هو ناموس من نواميس هذه الدنيا يقضي بأن يقع صانع الكوابيس في نهاية المطاف ضحية لها. إنها إحدى المفارقات العجيبة التي صادفتك في حياتك وما أكثرها. كنت تقخر بأن لك حدسا حباك به الله يجعلك ترى الأشياء قبل حدوثها وتألّف الأمكنة الغريبة التي تراها لأول مرة وكأن حياة سابقة عن حياتك هذه قادتك إليها. كان المشهد مفزعا مجللا بالدم ومملوءا بالجثث المقطوعة الرؤوس. تعطل حدسك فما كنت تستطيع أن ترى وتسمع غير شيء واحد خطى السيف وهي تقترب منك محملة بنذر الموت ورأسك مقطوعا بعد قليل مثل رؤوس رفاقك الذين سبقوك منذ دقائق إلى هذا المصير. وبرغم كل العلامات الأكيدة التي تنبئ بقرب النهاية ظل رأسك ثابتا فوق كتفك يمكنك أن تتحسس الآن بعد مرور أعوام كثيرة على ذلك اليوم وتتأكد أنه مازال موجودا في مكانه.

أوثقوا أقدامكم وأيديكم بسلاسل من الحديد، تدمي المعاصم والسيقان. وأسندوكم إلى حائط مصنوع من جذوع الأشجار المشدودة إلى بعضها البعض بالألياف وحبال القنب وسيور مأخوذة من جلود القروود. وقد حشوا الفراغات التي بين الجذوع بالخوص والقش وأغصان وأوراق الأشجار اليابسة وصنعوا منها سورا لفناء مترب واسع تعربد فيه شمس شديدة السطوع النهار ورياح باردة أثناء الليل. وتتأثر فيه مجموعة من الأكواخ يتخذها المحاربون

الأحباش مركزاً من مراكزهم العسكرية في تجويف بين الجبال. كان بالجدع الذي أسندوك إليه نتوء يضغط على ظهرك ويغوص طرفه الحاد بين كتفيك وكان أقصى ما تستطيع عمله هو أن تمنع النتوء من أن يغوص بين فقرات عمودك الفقري تتزاح بجسمك قليلاً ليستقر النتوء في منطقة من كتفك اليمنى، ويؤذيك فتألم وتبكي دون صوت

خرج من أقرب هذه الأكواخ المخصصة لاستعمال الحراس زنجي طويل القامة معصور البدن كأنه هيكل عظمي عار إلا من لحاف مرقط كجلد النمر يخفي محاشمه. وتسطع أسنانه في ضوء الشمس كبيرة بيضاء ناتئة تفصلها فراغات صغيرة عن بعضها البعض فتبدو كأنها أسنان مзраة. ويقف يستعرضكم جميعاً بنظرة بلهاء قبل أن يتحرك بخطى سريعة سائراً أمامكم وهو يتقرس في وجوهكم واحداً واحداً. تضيق عيناه من شدة التركيز ويظل فمه مشدوهاً ومفتوحاً يفرج عن أسنانه الناتئة ذات اللمعان الشديد كأنه لا يصدق أن كل هذا العدد من جند الأعداء أضحى أسيراً لديه، يفعل به ما يشاء

كنتم مجموعة من المجندين مع الجيش الإيطالي ليس بينكم من الإيطاليين غير ضابط الفرقة. أما البقية فهم صوماليون وأريتريون وأحباش واثنان من ليبيا. واختار أن يقف أمام أسير من أبناء قومه يبدو أنه يعرفه وربما كان محارباً معه قبل أن ينضم مع قبيلته لجيش الغزاة. وقد علت وجه الأسير ابتسامة رجاء وأمل وهو يهتف باسم رفيقه القديم قائلاً بلهجة خائفة ذليلة:

— سانكو

إلا أن الرد الذي تلقاه من سانكو لم يكن غير بصقة على وجهه الباسم لم يكن يستطيع مسحها ويديه في الأغلل.

عاد "سانكو" بعد أن أكمل جولته الاستعراضية. ليقف في أول الصف وهو يضحك بشكل هستيري إلى حد ساقه للاستلقاء على قفاه ضحك دون وجود سبب لهذه الضحكة المجنونة. ودون أن يصدر صوت من أحد الحاضرين، عدا طنين الذباب الأخضر الكبير الذي اختارت جيوشه وجوه وأبدان الأسرى مكاناً لأقامتها، حيث لا أحد يستطيع أن يطردها ولا يد تستطيع أن تتحرك لازعاجها عندما تحط فوق أنف أو عين لأن الأيدي مغلولة إلى سلاسل الحديد. سعيدة بوجود أصناف من الغذاء تكفي لإشباع ارتالها التي لا تحصى في غيبة الاغتسال والنظافة

مد سانكو يده في الهواء مفتوحة مبسطة الأصابع بعد أن أكمل ضحكته. وأحكم إقفال ملامح وجهه فما عاد يلمع في وجهه إلا بياض عينيه كبياض أعين الموتى أو حبات عرق تومض فوق سواد جبينه، وصدغه المواجه للشمس. كما تومض الحبايح في الظلام. تقدم جندي يحمل مدية طويلة بحجم السيف وضعها في اليد المبسطة الأصابع. وعاد الجندي ليقف في الركن الذي يقف عنده حراس نصف عراة يحملون الرماح ويحركون أيديهم التي لا تمسك

الرماح شمالاً ويميناً أمام أوجههم يطردون بها الذباب. تحت النظرات الحاقدة للأسرى الذين يشاهدون نعمة أن يحرك الإنسان يده لطرد الذباب وهم محرومون من هذه النعمة. في حين كان الحراس يقفون في صمت ينظرون بدورهم إلى زميلهم الواقف قرب الأسرى وقد مضى يتحسس شفرة المدينة بأطراف أصابعه. ثم التفت بيرطم بكلمات أمهرية غاضبة فحمل إليه الحارس هذه المرة مبرداً أخذ يسن عليه حد المدينة. أصدر احتكاك الحديد بالحديد صريراً حاداً أثار حساسيتك تجاه مثل هذه الأصوات فصرت تركز على أسنانك وتحاول السيطرة على ارتعاشة بدنك حتى توقف الصوت. كان كل شيء يوحي بأن ما تراه الآن هو طقوس بداية المجزرة التي ستكون أنت ضمن ضحاياها ضحى هذا اليوم. كان هذا ما انتظرتموه منذ وقوعكم في الأسر قبل عشرة أيام. أما لماذا تأجل تنفيذ المجزرة كل هذا الوقت فلا بد أنه أمر له صلة باتصالات ومساومات مع قادة الجيش الإيطالي، رفضت فيها القيادة الإيطالية الإستجابة لمطالب الأحياء، كما يقول بعض أصحاب الخبرة من رفاقك الأسرى، وبينهم جندي صومالي حكيم اسمه رضوان هو الذي يمدك بتفسير ما يحدث مما لا تستطيع إدراكه بحكم تجربتك الضئيلة في ميادين القتال

كنت تعرف منذ البداية، أنك في هذه الحرب القاتل والقتيل معا. وإذا كنت قد استطعت أن تؤجل موتك في وقت سابق، فقد جاءت الآن لحظة المواجهة مع الموت التي توقعتها أكثر من مرة. فلماذا الفرع إذن؟

أشار سانكو بيده التي تحمل المدينة الطويلة إلى الحراس أن يبتعدوا قليلاً وكأنه جراح لا يحتمل وجود المتطفلين في غرفة العمليات. ووضع مدينه قبالة عنق الأسير الذي أمامه وجر بها على عنقه في لحظة خاطفة أصدر الرأس المقطوع صرخة رددت أصداءها السماوات السبع. أو هكذا بدا لك ما سمعت وأنت ترفع رأسك إلى قبة الكون حيث كان يدوي رجع الصدى لصرخة الموت التي أطلقها الرأس المقطوع. وأنت تقاوم صرخة فزع امتلأ بها حلقك فمنعتها من الخروج. أسرى كثيرون، يستندون مثلك إلى جذوع الأشجار، لم يستطيعوا كتم صرخاتهم. فانطلقت تصنع غلافا يليق بالمشهد الدموي الاستهلاكي. أغمضت عينيك وتلوت الشهادتين، تنتظر مصيراً كمصير رفيقك الذبيح. أبقيتهما لبرهة طويلة مغمضتين، وعندما فحتهما وسط هستيريا الصراخ. كانت سواقي الدم مازالت تدور. وكان "سانكو"، ممثل ملك الموت، قد استقر على نظام لعمله فهو يذبح أسيراً. ويتخطى الأسير الذي بجواره، يبقيه حياً ليدهام بمديته الطويلة الأسير الثالث. ولم تفهم لماذا اختار هذا النظام الجزافي العشوائي للفتك بضحاياهم. لعله أراد أن يتسلى بإبقاء البعض أحياء، ليعود إليهم بشهية أكبر للقتل، في وجبة ثانية. أو لعله أبقاهم لاستخدامهم في عمليات المساومات مع الطرف الإيطالي، وصفقات تبادل الأسرى التي تتم أحياناً بين الجيشين.

كان همك في هذه اللحظة
هو أن تعرف عدد الأسرى
الذين يقعون في هذه المسافة المربعة
التي تفصل بينك وبين زنجي القتل
لتعرف إن كنت تقف في خانة الأحياء أو الموتى
لم يكن الرجل يفرق بين ليبي أو صومالي أو حبشي
ولا يخضع لأي اعتبار سوى هذه القاعدة التي وضعها لنفسه
وهي أن يقتل واحداً ويترك واحداً
من هؤلاء الأسرى الواقفين في الصف الذي أمامه، حياً
ازداد فزعك وأنت ترى نفسك ضمن خانة الأموات
لعلك أخطأت في العد
قلت لنفسك محاولاً التعلق بأهداب النجاة
فلتقم بعدهم مرة ثانية وثالثة ورابعة
ولكن لا عزاء ولا رجاء ولا نجاة
فأنت هالك هالك هالك
انتهى سانكو من ذبح سبعة أشخاص
وترك سبعة أحياء
وأمامه الآن قتل خمسة أشخاص أنت سادسهم بالتمام والكمال
تاركاً خمسة تأجل موتهم بمحابة خاصة من ملائكة الحظ السعيد
التي لا بد أنها تراقب المشهد بعيون دامعة
لأنها لا تملك حرية إنقاذ الجميع وفقاً للقاعدة الإلهية
"كل يحمل طائره في عنقه"
سينجو هذا الأفريقي الذي على يمينك
والأفريقي الآخر الذي على شمالك
وسيدبحك أنت كما يقول النظام الذي ابتدعه
هذا الزنجي المخضب بدماء القتلى
الذي يجز أعناق الرجال كأنه يقتل نعاجاً لا بشراً
إنه يدنو الآن منك
لم يعد يفصله عنك سوى ثلاثة أشخاص

سذبج أولهم
ويتخطى الثاني إليك أنت
ومرئعشا صرت تتلو سورة يس
العامرة بآيات الرجاء والاسترحام والاستغفار
التي طالما قرأتها على ارواح الموتى في مقابر المسلمين
يرأودك احساس بالخل
لهذا الخوف الذي اعتراك
وجعل العرق يتقصد غزيراً من جبينك
وبدخل عينيك وفمك دون ان تستطيع له دفعا
ولماذا تهتم بدفع الخوف وأنت ترى نهايتك قد أزفت
وتسمع دبيب الفناء قادما إليك
وترقب المشهد الختامي لحياتك
بعينين مفتوحتين سيغلقهما الموت بعد دقائق
حيث سينقطع التيار الكهربائي الذي يمدك بالطاقة والحياة
ليعقبه ظلام الابدية
وترى التطبيق العملي لمقولة أن الحياة ليست إلا باطل الأباطيل
يطبق عليك أنت وليس على أحد سواك
وصل زنجي الموت قريباً منك
حيث ستره لآخر مرة يمارس طقسه الوحشي
لأنه لم يعد بينك وبينه سوى ضحية واحدة
إنه هذا الأسير الذي بدا ميتاً قبل أن يموت
واحد من أبناء جلدتك اسمه عبد الله
جاء معك من طرابلس إلى بر الأحباش
وعاشرته على ظهر السفينة التي أفلتكم إلى هذه البلاد
وعرفت أنه مصاب بصداغ مزمن
لم يزايله رغم مناجل النار
التي تركت اثارها فوق رقبته وفؤديه
لأنه لم يكن هناك في الأرياف التي جاء منها
علاج للعال التي يعاني منها البشر الا الكي
هاهو المسكين يجد علاجاً ناجعاً ونهائياً لاوجاع رأسه

هذا العيد اليائس من عباد الله
عيناه الآن جاحظتان وفمه مفتوح يحيط به الزبد
وكان صاعقة هبطت عليه وجعلته متجمدا مصعوقا بهذا الشكل
أساك على نفسك انساك أي شعور بالاسى نحوه
هكذا علمتك تقاليد الحرب
في أول ما وعيته من دروسها
يطير رأس رفيق يحارب بجوارك
فتتحسس رأسك شاكرًا السماء
لأن الرأس الطائر لم يكن رأسك
الأمر يختلف هذه المرة
رأسك ورأسه سيطيران

مد سانكو يده وأمسك بفروة رأس عيد الله
لكي يتيح لليد الأخرى ان ترفع المديّة وتضرب العنق
أطلق صاحبك المذبوح غرغرة كالخوار
وانبجست من عنقه نوافير الدم
أطبقت فمك تكتم صرختك
وأنت ترى دم صاحبك ينثال على رأسك ويغطي وجهك
ارتطم رأسك ارتطاما موجعا بجذع الشجرة
وأنت تهزه بقوة
من أجل أن تنفض الدم من فوق عينيك
رأيت من خلال قطرات الدم العالقة بأهدابك
القاتل وهو يمسح مديته في ثوب الرجل القتيل
ثم رأيتك يتحرك تاركًا كما هو النظام جارك الافريقي
ليقف أمامك
رأيتك يضع عينيه في عينيك
فاستجمعت شجاعتك ورددت إليه نظرة أكثر قوة وتركيزا
محاولا ان تخفي ضعفك وخوفك
قبل ان تتحول ببصرك عنه
ووجدت نفسك كما هو حالك في لحظات الخطر

تستجد بولي صالح من أولياء بلادك
هو سيدي عبد السلام الاسمر رضوان الله عليه
تكرر اسمه هامسا
ياسيدي عبد السلام يا سيدي عبد السلام
يا سيدي عبد السلام
انه يرقد في ضريحه بمدينة زليطن
تقصل بينك وبينه الاف الفراسخ
من الغابات والصحارى والأنهار والجبال والبحار
ولكن المسافات لن تكون حائلا
دون وصول هذه الاستغاثة إليه
ولا عائقا بينه وبين تليبيتها إذا اراد
رفعت عينيك إلى سماء مفتوحة فوق هذا الفناء
كأنك تتفقد الطريق الذي ستسلكه روحك
إلى عالم الصمت الابدي
ترى ما الذي ينتظرك الان خلف حجب الموت السوداء
انتهى بالنسبة لك عناء الانتظار لمعرفة الجواب عن هذا السؤال
لم يبق غير ثوان حتى تتكشف أمامك
اسرار وطلاسم ذلك العالم المجهول
اصطدمت عينك بأشعة الشمس العمودية
رأيت زنجي الموت يمد يده
ليفعل معك ما فعله مع صاحبك عبد الله
عندما وضع قبضته في فروة رأسه
فأردت ان تعفيه من هذه المهمة
وتعفي نفسك من هذا العناء
فرفعت رأسك واحتيتته إلى الخلف
بأقصى ما تتيحه المسافة الصغيرة بينك وبين السور
الذي تستند إليه
ومددت عنقك بقدر ما تستطيع
متيحا للسكين فرصة
ان يؤدي عمله ببسر وسهولة

دون حاجة من القاتل للامساك بشعر رأسك
واغمضت عينيك هاربا من رعب ما ترى
وقد تجمد الزمان وتجمد المكان وتجمد الهواء وسكنت الحركة
وتوقفت عقارب ساعات العالم على الدقيقة الاخيرة النهائية
التي تقوم فيها قيامتك
دارت الدنيا في رأسك
دورة سريعة تربط بين يوم مجيئك إلى الدنيا
الذي لا تعيه الا من خلال ما سمعته من كبار نساء العائلة
وبين هذه اللحظة وقد آن لك ان تغادرها
لم يزغرد احد زغاريد الفرح يوم ولدت
فقد جاء مولدك متزامنا مع دخول جيش الغزو الإيطالي
إلى قرية أولاد الشيخ
كان دخولهم مصحوبا بحملات انتقامية تداهم البيوت بحثا عن رجال المقاومة
فامتلات الطرقات بصراخ الاطفال
وعويل النساء النائحات
استقبلتك الدنيا بالنواح يوم مولدك
وصار قدرا يصاحبك مثل ظلك على مدى العمر
انك تخجل من قول ان النواح يطربك
باعتبارك لم تسمع اصواتا مبهجة كثيرة في طفولتك
تجعلها مرجعا للاصوات التي تنقض اصوات النائحات
وتنزع من قلبك هذا الفرح المريض بمثل هذه الاصوات
والمفارقة حقا ، هي انك ستموت الان ، دون ان تحظى
ببهجة امرأة تنوح عليك
ولكن لماذا يتأخر الرجل كل هذه المدة في تسديد ضربته القاتلة ؟
لماذا يصبح هذا الجزء من الثانية
الذي يفصل بين ارتفاع السكين وهبوطه فوق العنق ، دهرًا؟
كنت قد لاحظت ان زميلك في الاسر
الذي تخطاه زنجي الموت
يبترسم لأنه نجا من القتل ، بل هو يكاد يضحك
من فرط ابتهاجه بهذه النجاة

ولذلك فقد اذهلك ان تسمع الان صرخة مفزعة ، موحشة،
صادرة عنه

فتحت عينيك لترى ما ذا يحدث
فإذا بالزنجي القاتل ، لأول مرة يخالف النظام الذي بدأ به
يتركك دون سبب مفهوم

ويعود إلى الرجل الافريقي الذي كان يضحك ،
فيمسك بفروة رأسه بدلا منك

أطلق الرجل الذي باعته ما حدث
صيحته المفزعة عندما رأى حد السكين
يلمع في مسقط ضوء الشمس

قبل ان يهبط فوق عنقه

لينجس فيض من دمه

ويغطي أمامك الفضاء وقرص الشمس

شيء كأنه الاغماء اصابك

ادركت لفورك انك قد نجوت

مضت برهة قيل ان تعرف على وجه اليقين

ان الرجل فعلا تراجع عن قتلك

هل هو الفرح ؟ انه هو

ولكن جو المجزرة يخنق مثل هذا الشعور

ويمنعه من الانبثاق

تخطاك " سانكو " القاتل

ومضى يعالج بمديته الطويلة

أعناق ضحايا آخرين

انها وان كانت نجاة مؤقتة

جاء بها موقف عبثي لا تفسير منطقي له

فأنت مازلت ترى فيما حدث معجزة بكل المقاييس

مدركا ان العناية التي ابعدت عن عنقك مدية الجزار

لن تتخلى عنك هذا النهار

وان سيدي عبد السلام الذي استجذبت به

سينجيك من هذه المذبحة

حدس يتناقض مع حقيقة ان حفلة القتل مازالت قائمة
والكأس الطافحة بدماء القتلى
ما زالت دائرة
تتلقحها ايدي كائنات شريرة
تختفي بين موجات الضوء والهواء
في هذا التجويف الجبلي
متعطشة دائما للدم البشري
والرجل الذي يتولى القتل بفرح وحشي
لا تحكمه أية قاعدة
انه حتى وان لم يقتل الجميع ، واحدا تلو الاخر
فما ذلك الا لاضفاء شيء من الاثارة
على اسلوب القتل
بتقسيم ضحاياه إلى وجبتين
لم يكن الاغماء كاملا
فقد كنت تستطيع ان ترى
من خلال إطباقه عينيك التي لم تكتمل
كل ما يدور حولك
كان الدم البشري الذي يلطخ وجهك قد دخل فمك
واستقرت زناخته على طرف لسانك
فاحسست بامعائك تصل إلى حلقك
تقرزا واشمنزرا
وتنبهت إلى ان الشمس تقف تماما فوق رأسك
وكانها اختارتك أنت بالذات هدفا لاشعتها
التي صارت تهبط عليك حارقة لاسعة
كانها صهرج من نار
اعتبرت ان ما يحدث لك الان
ليس الا تمرينا أوليا على حياة أخرى تنتظرك وسط الجحيم
وتابعبت باعصاب تلغها الفزع
مشهد المجزرة التي تدور في الفناء
وانتقال القاتل " سانكو " من اسير إلى آخر حتى اكمل مهمته

ورمي المدينة التي تقطر دما فوق الأرض
وأطلق زغرودة المحاربين
التي سبق ان سمعتها من المقاتلين الأحباش
فرددتها خلفه بقية الحراس
وجاء جنود آخرون من داخل السور وخارجه يشتركون مع الحراس في اطلاق الزغاريد

انتهى ذلك اليوم دون أن تموت
دون أن تتحول إلى جزء من الدم الأسود المتخثر
الذي يختلط بتراب الفناء
ودون ان تعرف حتى هذا اليوم
لماذا ، وفي اللحظة الاخيرة ، وقبل التقاء المدينة بحبال الرقبة،
ابقي عليك ذلك الرجل الذي يشبه هيكلًا عظيمًا،
مطلبًا بقار داكن السواد

انتهت وليمة الدم ذلك النهار
بمثل ما انتهت في نفس الوقت فترة الاسر
اثر عملية انقاذ ناجحة
دون أن ينتهي تأثير احداث ذلك اليوم في نفسك
وما تركته من ندوب في عقلك وقلبك
لقد ظلت نقطة سوداء في الذاكرة
ماكان لشيء يأتي بعد ذلك أن يقدر على محوها
كنت كمن عاد إلى الحياة بعد أن سافر إلى عالم الموتى
لقد افسد مذاق الدم في فمك ذلك اليوم
شهيتك للأكل فيما تلى ذلك من أيام
وغيرت تلك اللحظة نظرتك لاشياء كثيرة في الحياة
تشمل القيم والافكار والمشاعر والانفعالات
وصارت حدا فاصلا في حياتك بين عهد وعهد وعمر وعمر
احسست كأنك كبرت في لحظة واحدة عشرات الاعوام
وتغير تبعًا لذلك تفكيرك واتسعت رؤيتك لمعاني الحياة

كما تبدل فهمك لكل ما يتصل بالهلاك والنجاة والفشل والنجاح والحق والباطل والخير والشر
والسعادة والشقاء والالم والمتعة والحياة والموت،
لأن كل تلك المفاهيم والمعاني والأشياء
ارتدت ثوبا واحدا وصار لها معنى واحد ولون واحد في تلك اللحظة الفارقة الفاصلة الحاسمة
هو ثوب ولون العيب

بدأ الأمر بسيارة شحن تقف في باحة السوق
في هدأة القيلولة
وقد أقفل أصحاب الحوانيت حوانيتهم
تسللت بمساعدة السائق لتنام بين غرائر الفحم
وانتظرت عدة ساعات تنتفس الغبار الأسود
وتنصت آلي طنين الذباب
وتكتوي بقيظ الشمس
وأنت تمسح العرق المخلوط بذرات الفحم
وتتمتع بالادعية والتعاويذ كي لا يكتشف احد امرك
مرددا تلك الآية التي قرأت في كتاب
"الرحمة في الطب والحكمة" للإمام جلال الدين السيوطي
إنها تحجب الإنسان عن يلاحقه إذا ردها
وهي "وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون"
حتى سمعت محرك الشاحنة يدور
ثم أحسست بها تتحرك
وتهبط المرتفع الذي يصل القرية بالطريق العام المتجه نحو العاصمة وانتظرت بضعة لحظات
قبل أن ترفع رأسك من تحت أشولة الفحم
وتنتفس هواء الله الطبيعي
وعندما رفعته ورأيت أبنية القرية وبساتين نخلها تتراجع
أدركت ان فصلا من فصول حياتك قد انقضى
وان فصلا جديدا قد بدأ الآن
مرغما تخرج من القرية، ولست نادما
لأنه من قبل أن يأتي هذا الحادث الذي يرغمك على الهروب
لم تكن سعيدا بحياتك في القرية ، ولا تجد فيها ما يغريك بالبقاء

كنت تتحرق شوقا إلى أن تغادرها قبل أن يقتلك الضجر
وتفتك بك جيوش الذباب وارتال القمل والبراغيث
بلغ عمرك ربع قرن ولا شيء أمامك يعد باي تبدل في حالتك
رعت الأغنام ، وحفظت القرآن في الزاوية السنية
وتحولت بعد ذلك إلى مساعد لمعلم الصبيان
تتبعه بالابريق لتصب على قدميه الماء وهو يتوضأ
وتشتغل خادما له أكثر مما تشتغل معلما للقرآن
ولا زلت تسرح بالشيء في أوقات الفراغ
مثلك مثل أي راع لم ينل تعليما
برغم كل ما نلت من تأنيب وتعزيز
وضرب على قدميك بعصا الفلقة
حتى أكملت حفظ القرآن
مدركا أن عمرك كله سيمضي على هذا المنوال
إذا اخترت البقاء في القرية
وأقصى ما سوف تكسبه من تعليمك هو كلمة الشيخ
التي صار الناس يلحقونها باسمك
فأنت الشيخ عثمان الشيخ
أما أقصى ما يبقى يميزك عن بقية أهل القرية الأميين
فهو التماسهم لك في السوق أو الجامع أو البيت
لنقرأ لهم ما يصلهم من رسائل أو نكتب لهم رسائلهم
دون أن تنسى كتابة سطر في ختام الرسالة تقول فيه:
" و السلام ختام من كاتب الحروف العبد المعروف عثمان الشيخ "
حتى لو كان الذي تخاطبه الرسالة لا تعرفه ولا يعرفك
فهو نوع من إثبات الوجود والتباهي بتقديم هذا الصنيع
لم تكن هناك أوجه استخدام أخرى للعلم الذي حصلت عليه
غير هذا الاستخدام المجاني الذي لا يجلب رزقا
عدا القليل من البيض يجود به عليك الفقير عبد الله
مما يتلقاه من الاطفال مقابل تعليمهم
لأن هذا كل ما تستطيع قرية "أولاد الشيخ" تقديمه لمعلمي أولادها وتدرج جيدا ان أعلى ما
تحلم بالوصول إليه من مراتب

هو ان تحنل مكان الفقي عبد لله إذا غادر قبلك عالم الاحياء
أو تنافس الفقي بركة في كتابة الاحبة بضريح الشيخ الكبير
اما غير ذلك فلا شيء حتى لو قرأت كتب الأولين والآخرين
واكتسبت علومهم
سبقي كما انت، لأنه لا مكان في أولاد الشيخ لذلك العدل القرآني
الذي يحفظ لأهل العلم قدرهم كما امر به الله في كتابه الكريم:
" وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون"
فكلهم سواء لدى أهل أولاد الشيخ
لم تكن تلك أول مرة تلتقي فيها بعزيرة
ابنة بائعة الماء امي نفيسة، تحت جناح البئر المهجور
فقد سبق هذا اللقاء الذي اكتشفك فيه الفقي بركة
لقاءات كثيرة في نفس المكان
انها صبية زنجية ذات ملامح رقيقة
ليست كملامح النساء الزنوجيات الغليظة
تصغرك بعدة اعوام
وكننت تعرفها منذ ان كانت طفلة صغيرة تتبع امها
حين تحمل الماء إلى البيوت
ثم صارت تساعدها وتحمل الماء معها
وقد تكور صدرها وظهرت مؤهلاتها الأنثوية المثيرة
وكانت دائما تنتظر إليك نظرة فيها دعوة واغراء
إلى ان وجدت ذات مرة تسير باتجاه البئر بمفردها ،
فتمشيت معها في الطريق المعزول ، تحت ظلال النخيل
وأبديت رغبتك في ان تلتقي بها وتجلس معها على انفراد
فجاءت للقاءك في البئر المهجور
الذي تم ردمه فيقي جناحاه منتصبين وبينهما فراغ
هيأته ليكون مكانا تختلي فيه بنفسك للمذاكرة والاطلاع والصلاة
احطته بسعف وجريد النخيل فصار كوخا
وضعت فيه حصيرا وابريق ماء
وصرت تذهب إليه عندما تريد استذكار كتاب
أو مراجعة شيء في كتب الشريعة الموجودة

في مكتبة الزاوية السنية
لأن اناسا كثيرين صاروا أحياناً يسألونك أسألة تتصل بالشريعة
بعد ان صرت من زمرة المعلمين
ولم تكن تريد ان تظهر جهلك بمثل هذه الامور
فصرت تراجع هذه الكتب بعيدا عن ضجيج البيت
أو صخب الزاوية التي لا تفرغ من التلاميذ والمصلين
وتؤدى الفروض والنوافل هناك
ثم بعد ان التقيت بعزيزة ، جعلته مكانا للعزلة الغرامية ، إضافة إلى الاغراض الاصلية التي
انشأته من أجلها
ولأنه بئر محاط بأغواط غيطان النخيل ، ويقع في مكان قريب
من البئر التي تستقى منها القرية
فلم يكن صعبا على عزيزة ان تدعي انها قادمة لترد على البئر
ومن هناك تتسلل بين اشجار النخيل إلى هذه الخلوة
ثم تعود مع نفس الطريق إلى البئر
وزلعة الماء فوق رأسها، لتملأها وتعود إلى بيوت القرية
وقد مضت اللقاءات الأولى بينك وبينها
دون أن يحصل خلالها أي تلامس جسدي بينكما
لأنها رغم اعجابها بك وترحيبها بلقائك على أفراد
لم تكن على استعداد للوصول بالعلاقة إلى الاتصال الجسدي
وعندما حدث هذا الاتصال بقي لعدة لقاءات مقتصرًا على القبلات
قبل ان ينتقل إلى شيء أكثر من القبلات
بشرط واحد أساسي هو الا تقوم تقض بكارتها
وفعلا كان الاتصال يتم بكل تقاضيه دون اخلال بهذا الشرط
الذي لم تكن انت أيضاً تحب اختراقه
درا للمشاكل واشفاقا على الفتاة
ولم تكن تراه عائقا دون استمتاعك ولا يسبب ازعاجا لضميرك الديني
باعتباره لا يقع في خانة المواقعة الجنسية الكاملة
التي تعتبرها الشريعة من الكبائر
وعندما جاء الفقّي بركة يرفع الغطاء عن تلك الخلوة

كان يبدو انه وقف وأنصت وأراد ان يمسكك بالجُرم المشهود
وكنتما في حالة غناق ، بجسدين نصف عاريين
فصار يصرخ بالناس يدعوهم للمجيء
ليروا معلم القرآن الشيخ عثمان الشيخ
يمارس الفاحشة الحمراء مع الزنحية عزيزة ابنة امي نفيسة
ولكن قبل ان يصل احد غيره وصاحب له إلى المكان
كنتما قد ارتديتما ملابسكما
ووضعت عزيزة اللحاف على جسدها وهربت بين أغواط — غياطان النخيل
عائدة إلى القرية
وبقيت انت لتواجه الفقير بركة
في حضور من استطاع جمعهم بصراخه،
بمن فيهم المزارع الشيخ الذي كان أول الحاضرين
قائلا لهم وله انه يكذب وانه لم ير الا الفتاة وهي تحضر لك ابريق الماء فظن بعقله المعطوب
ان هناك شيئا غير اخلاقي بينك وبينها
وكان هو طبعاً يصرخ مقسماً باغلظ الايمان
انه رأى تقوم بالفعل الفاحش ، فعل الزنا كاملاً ،
مع هذه الفتاة الزنحية الداعرة
لقد حقق الفقير بركة انتقامه
ترصد لك وسمع من احد الناس خبراً
عن شبهة علاقة بينك وبين عزيزة
فظل يراقب تحركاتها وطريق سيرها
حتى اكتشف موعد مجيئها لخلوة البئر المهجور
وتتبعها حتى دخلت واكمل تنفيذ خطته
المشكلة انه استطاع ان يجد شخصاً يحظى بالاحترام
هو الحاج بدران ، تصادف وجوده قرب الكوخ
ليكون شاهداً معه على ما رأى
فكان صعباً ان تجد من يصدق انكارك ما حدث
ووجدت ان مصيرك لن يكون الا التعزير والطرده من الزاوية
وصب اللعنات على رأسك من افراد عائلتك
بدءاً من والدك وامك وزوج امك

وربما الطرد من البيت
وتحسست جيبك فوجدت فيه بضع فرنكات
وهناك سيارة قادمة من ارياف القرية تقف في باحة السوق
محملة بالفحم لنقله إلى المدينة
فلم تتردد في تنفيذ الفكرة التي تتفذك من هذه الورطة
وهي مغادرة القرية
ساومت سائق الشاحنة على نقلك إلى المدينة
دفعت له حق هذا النقل وطلبت منه ان يجد لك مكانا آمنا
بين اشولة الفحم تختبئ فيه إلى حين وقت المغادرة
لم يكن ما فعلته لتفوز بنقمة الفقير بركة
غير كتابة حجاب واحد لم تتقاض عليه غير بيضتين
كنت ذهبت إلى ضريح الشيخ الكبير تبحث عن كسب اضافي
عن طريق كتابة احبة لطالبي وطالبات العلاج الروحي
تنقل صياغتها من شمس المعارف للشيخ الديربي
وكتاب الحكمة للشيخ السيوطي
ولأن الفقير بركة صاحب شهرة واسعه في هذا المجال
فقد كان كل الناس يذهبون إليه
ولم تجد بعد ساعات من الانتظار غير هذه السيدة العجوز
التي فشلت في الحصول على مكان في الزحام
الذي يحيط بالفقير بركة فرضيت بان يكتب لها حجابا لعلاج الصداع
شاب لا يعرفه احد مثلك انت
وبدل البيضات الاربع التي احضرتها
لتكون ثمنا لحجاب الفقير بركة
اعطتك بيضتين فقط لأنها اعتبرت ان حجابا تكتبه انت
يعادل نصف حجاب يكتبه فقيها المفضل
وهكذا لم يكتف بطردك من روضة الشيخ الكبير
حيث يمارس مهنته ولكن من القرية كلها
ليخلو له الجو دون منافسين
بينما رأيت انت فيما حدث فرصة لأن تترك
اجواء هذه البلدة التي يضيق بها صدرك

بحثاً عن مساحة أكثر رحابة تتجول فيها أحلامك
دون حدود ولا سدود لا تتيحها الا العاصمة
لم تكن قد ذهبت إلى طرابلس من قبل إلا أنك سمعت عنها كثيراً
ورأيت أهل القرية الذين يزورونها ، يعودون منها
وهم في غاية الانبهار والإعجاب
ويذكرون اسمها وكانهم يذكرون تعويذة سحرية تعني الفرح
كما تعني حرية الإنسان في أن يفعل بنفسه ما تشاء
انك حتى وان لم تكن لا تعرفها فيكفي انك تعرف أولاد الشيخ
وما تلقاه فيها من ملل ورتابة وعناء
وما يدخل فمك وعينيك من أثرية نتيجة رياح القبلي
التي تجلدك صيفاً وشتاء إلى حد انك كنت تتسائل مستغرباً
منذ ان كنت صبياً كيف لم يجد ذلك الجد البعيد
الذي كان أول من جاء لهذه البقعة واختارها مكاناً لاقامته
مكاناً اخر بين بقية بقاع الأرض أكثر نضارة واخضراراً
من هذه الشعبة القاحلة الماحلة
مما يدل على انه كان مجرماً يطارده القانون
وأراد أن يهرب إلى مكان لا يقوى احد من اعوان الدولة
على الوصول إليه فاختار هذا المكان الموحش الكئيب
القابع بين الجبال ملجأً له ، يختفي فيه من أعين السلطات
بما فيه من تلال صخرية جرداء وافق اغبر، قاحل ، رملي
لا تكسره الا المزيد من كتبان الرمال
وفي اسفل هذه الشعبة ، حيث تستقر مسارب الماء
التي تصنعها أمطار نادرة الهطول ، زرع ذلك الجد الهارب من العدالة
بعض حبات النوى لينمو غيط النخيل
الذي يشكل القوت الأساسي لجيل أو جيلين من أبنائه
و لكن بعد ان تقادم الزمان وتكاثر النسل
صار مستحيلاً لتمور هذه النخيلات أن تطعم كل الافواه التي تطلب الطعام
رأيت نفسك ذات حلم
جالسا فوق محفة باذخة لها استار من حرير ازرق
يرفعها سبعة رجال سود، اشداء ، فوق اكتافهم

ويصعدون بها جبلا ، تقف على قمته امرأة لها ثياب هفافة
وردية اللون ، يضربها الريح
واستيقظت من نومك فرحا واتقا
من ان هؤلاء العبيد
هم خدم النجاح وحراسه الاقوياء
يصعدون بك إلى مشارف عالية حيث تنتظر ربة الحظ والسعد
ولكن أي حظ واي نجاح يمكن ان تقدمه قرية من قرى الصحراء
تأنف الخرائط من ذكرها
لقد نسيت الحلم ولم تذكره
الا وانت متكئ فوق اشولة الفحم
والشاحنة تعبر بك الطريق إلى طرابلس
متمثلا في هذه الاشولة السوداء عبيد الحلم
وهذه الشاحنة محفة الحرير
وطرابلس التي تلوح في الافق ، ربة الحظ السعيد
التي تنتظرك اعلى الجبل
لأنه ما من مدينة في هذا البلد الصحراوي غير طرابلس
يمكن ان تكون محلا لتحقيق الأحلام
وإذا كانت باضادها تعرف الأشياء
فقد وضعت في ذهنك صورة للحياة في مدينة طرابلس
تتاقض صورة الحياة في القرية
بما فيها من بؤس وصمت وفراغ
دون ان تدري على وجه اليقين ما تخبئ لك الحياة
في طرابلس ، ودون ان تملك خطة للتعامل مع مدينة
تأتي إليها غريبا ولا تعرف فيها احدا
ولا تملك فيها من الموارد غير النذر اليسير
كل ما يملأ رأسك هو الصورة التي صنعها خيال القرية
عن مدينة عامرة باضواء باهرة تحيل الليل فيها نهارا
لا يركب الناس فيها الا السيارات أو عربات انيقة
تجرها خيول لها سروج والجمة مطهمة بالذهب والفضة
وتتبخطر في شوارعها وفوق ارضيتها نساء اجنبيات

متزينات، متبرجات يفوح العطر من اردانهن
سافرات الوجوه ، حاسرات الشعور
تكشف الملابس التي يرتدينها عن الازرع والسيقان
وأحياناً عما هو أكثر من ذلك ، خاصة في المسابح وشواطئ البحر
حيث تتعري اجسادهن الا من ورقة التوت
وتقام في ساحات المدينة وشوارعها حفلات الرقص والغناء
في المناسبات والاعياد، حيث توزع الحكومة الطعام والشراب مجانا كما تقام في ملاعبها
سباقات الخيل والسيارات
ورباضات أخرى لا حصر لها
هذا غير المنتزهات والحدائق والمسارح
ودور العرض السينمائي والاسواق والمتاجر الكبيرة
الحافلة بكل ما تشتهي الأنفس من مطاعم ومشارب
وفواكه في غير موسمها مجلوبة من مشارق الأرض ومغاربها
وحدائق الورد والنوافير التي يزغرد فيها الماء ويخرج في تشكيلات من كل الألوان للترفيه
عن الناس واشاعة البهجة في قلوبهم
ويرسم خيال القرية صورة بهيجة لأهل طرابلس الأغنياء
الذين يسكنون القصور ويرتدون البسة الحرير
ويأكلون بملاعق الذهب
ثم يأتي قبل هذا وذاك البحر الذي صنع أسطورة طرابلس
هذا المدى اللامتناهي من الماء
الذي بهر كل من رآه من أهل قرينك،
الذين يتشوقون لرؤية بركة صغيرة من الماء يصنعها المطر
قبل أن تغور في الأرض ثم يشاهدون هذا البحر الزاخر
بأمواجه العاتية والسفن تخر عيابه
يحضن مدينة طرابلس من ثلاث جهات
وقد كثرت حوله المنتزهات والأحواض المخصصة
لقوارب النزهة والشواطئ المخصصة للسباحة
هذا البحر الذي كان موضوعا لخرافات كنت تسمعها
من سيدات العائلة قبل ان تنام عندما كنت طفلا
فجئت محملا بشوق عارم لكي تراه

كنت وأنت تسمع هذا الكلام عن المدينة
تستطيع ان تفرز الحقيقة من الخيال
وتعرف ان المدينة ليست كلها متنزهات وملاه وقصور
ورقص وغناء واغذية توزع مجانا في الحفلات
وان هناك كدحاً وتعباً ، وفقراً وبؤساً
وهناك عناء وجهد وعمل وذكاء
لمن يريد تحقيق النجاح والثراء
وكنت مستعداً لبذل كل ما تستطيع تقديمه من جهد وكفاح
لتحقيق النجاح في المدينة
مدركا ان مهمتك الأولى التي ستباشرها فور وصولك إليها
هي العثور على عمل تصرف فيه نهارك كله
وتؤمن من خلاله مصدر رزق لك
تؤسس به لنفسك موقعا ، وتصنع به جذورا فيها
لكي لا تطير مع أول هبة ريح
وتبدأ رحلة النمو والارتفاع باتجاه ما تسعى لنيّله من رقي
لم يكن لك قريب انتقل إلى المدينة قبلك
واتخذها موطناً له كي تستطيع ان تذهب إليه
ليكون دليلك ومرشدك وعونك في أيامك الأولى
ومعنى ذلك انه لا عون ولا مرشد لك غير جهدك
كل ما تعرفه ان لمنطقة الواحات وكالة
يقصدها الذاهبون إلى المدينة
ويتخذونها محطة واستراحة
تبدأ عندها وتنتهي إليها كل رحلة بين تلك الواحات والمدينة
اسمها وكالة الشوشان بقرب سوق الثلاثاء
وهي عبارة عن مساحة من الأرض
مسورة بسور خشبي يستخدمونها موقفا للسيارات
ومكانا لتحميل البضائع
وفي ركن منها صنعوا كوخا من الصفيح والاشخاب
ينام فيه من لا مكان لديه يذهب إليه
وكان مهما ان تطمئن منذ اللحظة الأولى

التي أوصلتك فيها الشاحنة إلى وكالة الشوشان
ان هناك موضعا لرأسك اثناء الليل في هذه الوكالة لا يكلفك نقودا
كان أول ما باغتك وانت تبدأ التعرف على مدينة طرابلس
ان الناس هنا يختلفون عن الناس في أولاد الشيخ
يرتدون ازياء افرنجية غير تلك البذلة الشعبية
التي يرتديها الناس في قرينك
ولهم سحنة ليست كسحتهم
مع اختلاف في لون البشرة الذي عهدته لونا اسمر
لدى أهلك فوجدته فاتحا يميل إلى الحمرة هنا
ولم يكن صعبا ان تهتدي منذ اليوم الأول لوصولك لها
ان طرابلس ليست كما كنت تعتقد مدينة عربية ليبية
فهي كما اكتشفت الان مدينة إيطالية بالدرجة الأولى
وهؤلاء الناس الذي صرت تقارن بينهم وبين أبناء قرينك
ظنا منك انه يجمعهم نسب ليبي واحد
ليسو ليبيين وانما إيطاليون
لا يزاحمهم أي عنصر ليبي في ارتياد الشوارع الكبيرة
والجلوس في المقاهي والمطاعم الأنيقة
والتسوق في المتاجرة الفخمة الفاخرة
ويتحدثون في هذه الاماكن بلغتهم الإيطالية
ويصنعون طابعا إيطاليا للحياة لا علاقة له بالنسب العربي
الذي تنتسب إليه مدينة طرابلس
وحائرا طفقت تبحث عن أهل المدينة الليبيين
وانت تعبر هذه الشوارع وتتفحص أوجه الجالسين على مقاهي الرصيف وتطوف بالاسواق
والحوانيت والمتنزهات
دون ان تهتدي بينها إلى شارع عربي أو مقهى عربي
أو مطعم عربي أو حانوت يروده العرب
غير بعض الافراد القليلين الضائعين وسط هذا الزحام الإيطالي
حتى الاذان لم تسمعه الا في اليوم الثاني
بعد ان قضيت ليلتك الأولى في الوكالة
واكتشفت وانت تطوف الشوارع الخلفية

والحواري التي تحيط بالوكالة تبحث عن جامع للصلاة
ان هذه هي الشوارع التي يتوارى فيها الليبيون
بعد ان استولى الإيطاليون على واجهات المدينة
وشوارعها الكبيرة الجميلة المضيئة
اكتشفت أيضاً ان للمدينة عبيرها الخاص
الذي استنشقت منذ اللحظة الأولى لوصولك إليها
وهو أكثر ما يكون وضوحاً في الصباح
دون ان تجد له رائحة معينة تسنده إليها
فهو خليط من روائح كثيرة
بحيث تجد فيه شيئاً من عبق الورد وزهور الحدائق
مع شيء من رائحة الافران التي تصنع الكعك والحلويات
وقد تجد شيئاً من رائحة الزيوت ومصانع الصابون
وشبهاً من دكاكين العطارة واسواق الخضار
مع شيء مما يطهى في المطاعم ويعد في المقاهي
ويتم تحضيره في دكاكين الحجامين وأهل الطب الشعبي
انه أول شيء تنتسمه عندما تستيقظ
وتخرج لاستقبال الحياة فيها
مدركا ان ما يعبق من هذه الاجواء ليس الا عطر الحياة ونكهتها
لأنه لم يعد ينتمي لأي شيء آخر
غير الحياة في زخمها وشمولها وتنوعها
وبمثل ما للبشر والاسواق والشوارع والمنازل والميادين أشكالاً
لا تنتمي الا للمدينة
فان الأشجار أيضاً وسمتها المدينة بميسمها
وجعلتها تظهر بمظهر يختلف عن شكلها في الريف بدءاً
من أشجار النخيل التي تعرفها وتقعها أكثر من أي أشجار أخرى
فوجدتها هنا أشجاراً تختلف كثيراً عن تلك التي تنمو في القرية
لها سعف وجريد يبدو كأنه مصنوع من مادة ورقية
كأشجار الزينة في نوافذ العرض بالمتاجر الإيطالية
حتى جذوعها تبدو فاقدة لذلك اللحاء الخشن
الذي تتميز به أشجار النخيل

انها هنا بلا الياف ولا كرناف وربما بلا ثمار أيضاً
فالهدف من وجودها الذي يستهدف تزيين الشارع
يختلف عن وجودها في القرية كمصدر للرزق
وبعضها و لاسباب لها علاقة بحركة المرور
تظلى جذوعها بظلاء ابيض يحتوى على مادة مشعة
يجعل هذه الجذوع تلمع عندما يسقط عليها نور الشارع
أو نور السيارات ليلاً
اما الأشجار الأخرى التي تسمى أشجار الزينة
فهي مشدبة مهذبة ذات لحاء ناعم
واغصان وأوراق تتماثل وتتشابه وتتوالى بشكل هندسي
تتضح فيه الصنعة والترتيب
وهما صفتان تتعارضان مع زخم الطبيعة وحريتها وفوضويتها
كما تتمثل في أشجار الريف
ولعلهما تتعارضان أيضاً مع كبرياء الأشجار
فهي في الريف وفي البادية موجودة لاداء الوظيفة
المتوخاة من وراء خلقها ، ان تكون ذات نفع
للناس والحيوان بينما الأشجار هنا لم تغرس الا لزيناها
ولأنها كذلك صار تشذيبها وتهذيبها
وقص حوافها واطرافها وأظفارها عملاً مستمراً
يقوم به عمال متفرغون لهذه المهمة
لتبقى رشيقة انيقة جميلة
يضعون فوقها أوراق الزينة
ويلصقون على جذوعها صور الممثلين والمغنين
وإعلانات العروض الفنية والافلام
ويلصقون في اغصانها المصابيح الملونة في الاعياد والافراح
وهذا كل ما تريده المدينة منها
تصادف مجيئك إلى المدينة مع عيد إيطالي
لعله عيد ميلاد ملك من ملوكهم أو عيد وصوله إلى الحكم
فابتهجت بالعيد وجعلته عيداً لوصولك انت إلى مدينة طرابلس
ودخولك مرحلة جديدة في حياتك

ودعت فيها حياة الفتى الريفي وانتقلت إلى حياة
فتى من أبناء المدينة
رأيت في الساحة القريبة من وكالة الشوشان
حشداً يتجمهر حول ألعاب ولاعبين فاتجهت إليه
كان احد اللاعبين يقف فوق منصة عالية وأمامه عجلة الحظ
عجلة كبيرة مثبت فيها سهم ، يدور فوق رقعة مليئة بالارقام
من الواحد إلى المئة، ويأتي الناس يراهنون على هذه الارقام
بربح يصل إلى مئة ضعف
لمن يساعده الحظ بان يكون صاحب الرقم الفائز
الذي يقف عنده السهم
وهناك أناس يحملون سهاماً ويلعبون لعبة التنشين
وفي اطراف الساحة أراجيح وأحصنة خشبية
معروضة للركوب بأسعار زهيدة
ركبت الجياد والاراجيح وشاركت بنصف ليرة في لعبة الحظ
وخسرت دون ان تشعر بأية خيبة
لأنك مستمتع بهذه الاجواء الاحتفالية الفراحية
التي لا عهد لك بها في أولاد الشيخ
ثم ذهبت إلى جامع الباشا ورأيت المسجد العريق الكبير
بابسطته الفاخرة وقبابه العالية ومنبره الجليل الفخيم
والنقوش الجميلة التي تزين الاسقف والجدران
والايات التي كتبت داخل القباب بماء الذهب
فصرت تتعجب كيف ابقى الإيطاليون
بكل ما يتميز به حكامهم من حماقة وعصبية
هذا الصرح الاسلامي المهيب
 فلم تصل إليه يد الايذاء والافساد والتخريب
التي وصلت آلي منارات اسلامية
بما في ذلك زاوية السني بأولاد الشيخ
التي دمروا في احدى المعارك اسوارها
واحرقوا باحدى القذائف مكتبتها
ودخلت سوق الترك وسوق المشير وسوق الرباع

الاسواق الثلاثة الشهيرة التي تشكل عنوان هذه المدينة
ويتحدث بذكرها الركبان جيلا بعد جيل
وعشت بهجة الاشكال والالوان التي يجيد صنعه
الحرفيون من أبناء البلاد كما يجيدون رسمها
فوق الصحون والاطباق والسروج
ورأيت وجها اخر لطرابلس العربية الاسلامية اللببية
أكثر اشراقا من الحوارى الفقيرة التي احزنك منظرها
وجه جميل يتجلى من خلال هذه الفنون والصناعات التقليدية
والمحيط المتميز بطرازه المعماري الرفيع
تزينه أكثر من نافورة يتقعر منها الماء عاليا
ويصنع اقواسا تتماشى مع اقواس أخرى
مرسومة بالوان زرقاء فوق رخام النافورة
ورأيت في الباحات العامة حنفيات الماء التي اقامتها البلدية
وتركتها مفتوحة على الدوام يردها الواردون
من نساء ورجال يأخذون كفايتهم
ثم يتركون الماء ينحدر في صهاريج نحو البحر
ثم وصلت بنفسك إلى البحر
ورأيت وهو يضرب جدران السرايا الحمراء
ورأيت لسانا صخريا محاذيا للسرايا يدخل وسط البحر
فتمشيت معه حتى صرت انت أيضا في عمق البحر
تتراكض من حولك الأمواج
ويصيبك رذاذها بالبلل
وأنت في منتهى الانفعال والاثارة
نعم، لقد سمعت كثيرا عنه
ويأذن صاغية كنت تتلقف حكايات امك عن البحار السبعة
التي اجتازها بطل الخرافة كي يصل إلى بنت السلطان
وحفظت الايات التي تتكلم عن البحر الذي ركب سيدنا الخضر في مراكبه
واذهلك ما حدث لنبي الله يونس الذي التقمه الحوت
وبقي في بطنه لا يحيا ولا يموت
وابتهجت لمصير فرعون وهو يطارد سيدنا موسى

الذي اثشق البحر أمامه ليعبره مع قومه امنا سالما
بينما اطبقت أمواجه على فرعون وجنوده فاغرقهم وأهلكهم
ولكن خيالك لم يستطع ابدا الوصول إلى صورة البحر
كما تراها الان أمامك
ووجدت نفسك تقول لنفسك
انه لم يكن غريبا ذلك الانبهار الذي يرسم في ملامح
وتعابير وأعين أبناء القرية عندما يتحدثون عن البحر
الذي شاهدوه في طرابلس
لأن شعورك الان لم يكن اقل انبهارا وانفعالا منهم
باعتبارك قادما من صحراء القيط و العطش وندرة الماء مثلهم
انك تعرف انه ماء اجاج لا يصلح للشرب ولا لسقي الزرع
ومع ذلك تحس بنشوة وجود هذا الكم الهائل من الماء
وهذا الموج الصاحب الذي يضرب يصنع رذاذاً كرزاذ المطر
وهو يضرب لسان اليايسة التي تقف فوقه
فتحس بجمال ذلك الاحساس الذي يعتريك
عندما كنت تخرج مع اترابك إلى الساحات العامة عند هطول المطر
ترقصون وأنتم تستقبلون على أوجهكم واجسامكم زخاته
وتغنون قائلين:
يا مطر ياخالتي
صبي على قطايتي
قطايتي مدهونة
بالزيت م الزيتون
وقد جاء أهل المدينة يصنعون لأنفسهم
متنزهات على حافة البحر
كورنيش للنزهة ، ومصايف يفرشون أرضها بالرمال
ويستلقون فوقها بعد ان يأخذوا كفايتهم من السباحة
ولامر ما بدا لك كان البحر هو الوجه الاخر للصحراء
ذلك البون الشاسع من الرمال الحمراء
مقابل هذا المدى
من اقواس الموج الازرق المتوج بزبد ابيض

الممتد بلا انتهاء
كلاهما متاهة مخيفة
يؤكدھا القول السائر الذي يقول بانه لا شيء يعادل غدر البحر
الا غدر الصحراء
كان يومك الأول في المدينة هو يوم الدهشة والاكتشاف
وكان اليوم الثاني هو يوم الخوف من المجهول
الذي صار يتنامي مع مجيء اليوم الثالث والرابع
هذا الشعور الذي داهمك
منذ ان بدأت تطرق ابواب المكاتب والوكالات
بحثا عن عمل كتابي تقوم به
لنتكشف بانه لا احد بحاجة لمعارفك في اللغة العربية
فكل المعاملات التجارية التي تتم في الاسواق
والأخرى التي تتم مع الادارات الحكومية
تتم فقط باللغة الإيطالية
ولا وجود لوظائف في مثل هذه الاماكن أو غيرها
لمن لا يجيد هذه اللغة قراءة وكتابة
كان الطعام الذي تستطيع شراؤه في المدينة
هو رغيف خبز مع كؤوس الشاي
لأن أي طعام افضل من هذا ، كان سيقضى على نقودك في يوم واحد
اذ تمضي إلى الباب الجديد
حيث محطة العربات التي تجرها الخيول
وهناك تنتصب حلقة شاربى الشاي
الذين يجلسون في دائرة على الحصران حول رجل
يجلس أمام موقد النار بُعْدُ الشاي في ابريق كبير
ويوزع على الجالسين ثلاث دورات من الشاي الأحمر
في اكواب صغيرة انيقة
تجلس معهم وترتشف كؤوس الشاي مثلهم
وتاتي الكاس الاخيرة مخلوطة بالفلو السوداني المحمص
وتكون قبل ذلك قد اشتريت رغيفا ساخنا من فرن قريب
يتقن صاحبه العربي في صنع انواع فاخرة من الخبز الإيطالي

لا يحلم احد في قرينك بالحصول عليه
فتملاً معدتك بالخبز والشاي الذي لا يكلفك أكثر من فرنك واحد
نصفه للشاي ونصفه الثاني للرغيف

وتستأنف مسيرك في شوارع المدينة باحثاً عن عمل
وتعود أحياناً إلى نفس الشركة أو الوكالة
مدركاً الجواب الذي ينتظرك
ومع ذلك تسعى وتحاول ولا تفقد الأمل
وتنسى نفسك أحياناً أمام مشهد صبية إيطالية
تسير في شارع الملك فيتوريو إيمانويل عارية الذراعين
تتضح اغراء وجنسا

فتمشي بضع خطوات وراءها
ثم تذكر الحال الذي أنت فيه
قائلاً لنفسك إنَّ النظر إلى الجمال بحد ذاته
ترف لا يليق بك قبل تأمين مورد لرزقك
ومكان لاقامتك في هذه المدينة
كان الرعب قد بدا يجتاحك

وأنت تستيقظ في صبيحة يومك الرابع
وتجد انه لم يبق معك من نقود غير فرنكين
يكفيان لشراء رغيف ودورة شاي لوجبتني هذا اليوم
وتضع أمامك سؤالاً له شكل ثعبان يتلوى فاتحاً فمه
يسد عليك الطريق ، وهو ماذا تستطيع أن تفعل غدا
ان لم تجد عملاً منذ الان ؟

ومن سيعطيك الفرنك الذي تشتري به الرغيف أو كأس الشاي
ذهبت تبحث عن مهن أكثر وضاعة راجياً ان تجد فيها مكاناً
بما في ذلك اسواق الحبوب والخضار
راضياً بالعمل حملاً أو عسасاً في مخزن من مخازنها
ولكن دون جدوى

وعدت مع الليل منهكا
تحاول ان تجد مكاناً بين النائمين فوق حصران وكالة الشوشان

وتسللت إليك أشعة شمس اليوم الخامس
من شقوق ألواح الخشب وصفائح الحديد في الوكالة
وأنت لا تملك ليرة واحدة
القميص الذي جئت به جديدا بدأ يتسخ وتسدود ياقته
وعلقت بعض ألواح الطريق بطرف سروالك العربي
فلم يبق غير الصديري يعطيك مظهرا لائقا إلى حد ما
تقابل به أرباب الوكالات والدكاكين
الذين تطلب لديهم عملا
انك لا تدري كيف تجد وقتا تغسل فيه قميصك
الذي لا تملك قميصا سواه اذ تستطيع لو وجدت لغسله وقتا
ان تبقى ملتحفا في العباءة حتى يجف
وهو امر لن يحدث الا بعد ان تطمئن إلى وجود عمل
مهما كان حقيرا
انه افضل من الوقوف أمام الجامع طالبا حسنة الله
يكفي ان يدرك عليك دخلا لشراء رغيف خبز حاف
فهذا كل ما تريده الان
لن يكون صعبا ان تبدأ يومك بلا شاي ولا افطار
ولكن ماذا عن وجبتي الغذاء والعشاء
ان لم تجد عملا
وماذا عن يوم الغد والذي يليه وأنت مزقت الحبال
التي تربطك بالقربة ولا مجال للعودة إليها
وهو أمر لا يعرفه بعض قاطني وكالة الشوشان
ممن أشفقوا عليك وهو يرون الحالة التي
وصلت اليها والتي لا يجدون لها علاجا
إلا أن تعود إلى اهلك في أولاد الشيخ
فيفأتحونك في هذا الموضوع
وعندما يجدون منك اصرار على القاء
في المدينة ، والاستمرار في هذه المعاناة
التي تصادفها كل يوم
ينظرون الى بعضهم بعض

ويهزون رؤؤسهم وهو
يبدنون الاغنية الشعبية التي تقول
— ناديت يا حمد هيه
فات الذكاكين غادي
ومن ضاق خبز المدينة
ما عاد يألف ابادي

دون ان تستطيع ان تشرح لهم ان القضية مختلفة
وانك لست انت الذي يرفض العودة الى القرية
ولكن القرية هي التي لفظتك
وليس مستعدة لاستقبالك من جديد
وعليك ان تواجه مصيرك في المدينة
بابة طريقة وباي اسلوب
لان معنى ان تقول هذا الكلام
ان تقوم بعملية تشهير بنفسك
وانت الذي افرحك ان تجد قصة
خروجك هاربا من القرية
لم تكن معروفة لدى هؤلاء الناس
تحرش بك بعض العتالين عندما ذهبت إلى سوق الثلاثاء
وحاولت ان تمد يدك إلى الاشولة وصناديق البضائع
التي يشحنونها فوق عربة شربول
حتى هؤلاء في مهنتهم الوضيعة
يطردونك و يجدون فيما تفعله اعتداء على رزقهم
وبلهجة قاسية غليظة طلبوا منك ان تبحث عن حظك في مكان آخر
كنت اثناء مرورك بهذه الاسواق الشعبية
تجد اناسا يتحلقون حول قصاص الطعام
فتنظر متحسرا إليهم ثم تغض من بصرك وتمضي
لأن المزيد من النظر لن يزيدك الا جوعا
كان بإمكانك ان تجد حبة طماطم في سوق الثلاثاء
ملقاة فوق الأرض تجعلها افطارا لك

ولكن نفسك عافت النقاط مثل هذه الحبة الممزوجة بالتراب
ومضى النهار كله دون ان تتناول طعاما
وجاء الليل فبدأت تحس بتقلصات في المعدة
فالالام لم يعد الم الاحساس بالجوع فقط
وانما ألماً آخر كأنه كماشة تمسك بالامعاء
يحدث ذلك للحظات قصيرة مؤلمة ثم يختفي
ليعود أكثر إيلاماً، وهكذا فلابد من طعام مهما كان شكله
يوقف هذا العذاب
إلى حد ان فكرت في قطف أوراق أية شجرة
تصادفك من أشجار الطريق المغروسة للزينة
وتمضغها لكي توقف انقباضات المعدة
ولكنك خشيت ان تزيدها سوءا بدل ايقافها
تذكرت ان هذا الالام لا يحدث نتيجة لصيام هذا اليوم فقط
وانما لصيام أيام اربعة قبله
لم يدخل فيها معدتك طعام ساخن أو بارد
غير رغيف الخبز وكوب الشاي
وقد اصبح هذان الاثنان رغم فقرهما من الناحية الغذائية
مطلباً عسير المنال
و مع ذلك اتجهت إلى حلقة الشاي
وإلى الصانع الذي يضيء الان فئارة بجوار موقد النار
يرى على نورها عدة الشاي ويضع فوق رأسه عمامة
يتقي بها ندى الليل
انه شهر ابريل والربيع مازال في أوله
إلا أن الطقس الربيعي الصباحي
لا يصمد أمام أمواج الصقيع الليلي
الذي يحيل الجو إلى شتاء
وقد كنت تشعر به قاسياً مؤلماً اثناء عودتك إلى الوكالة
والارتقاء فوق حصير مهترىء
تضع ركبتيك في صدرك
وتحاول ان تتقي البرد بعباعتك

التي تنتمي إلى النوع الجريدي الخفيف
فلا تفلح مما يرغمك على ان تستعين
بأوراق الكرتون التي تغلف بها البضائع ، تغلف بها جسمك
جئت هذه المرة إلى حلقة الشاي دون نقود
بأمل ان تحصل من صاحبها على كوب شاي بالدفع المؤجل
ولأن احتساء الشاي وحده لن يزيدك الا الما في المعدة
فستسعى لأن يقرضك خمسين بارة تشتري بها رغيفا
يحذوك امل كبير بان يلبي الرجل طلبك
فقد شعرت منذ أول يوم جلست في حلقة
انه يتعاطف معك مما حدا بك لمدائمة المجيء الي هذه الحلقة
دون غيرها من حلقات صانعي الشاي
حتى نما بينكما نوع من المعرفة
وصار يناديك باسمك وهو يمد لك كأس الشاي
في حين تتاديه أنت عمي الشارف
فلماذا تبدو خائفا مرتعبا متهيبا من الموقف
كأنك ستسأله عن يد ابنته وليس عن فرنك ستعيده إليه
انه خيار افضل من الجوع واكرم من التسول
ومع ذلك تجد المهمة صعبة
لأنها أول مرة في حياتك تطلب فيها نقودا من إنسان غريب
بقيت مترددا لفترة من الوقت تنقل بصرك بين الجالسين في الحلقة
قبل ان تتقدم منه زاحفا فوق الأرض
لكي لا تداهمه مداهمة فيفزع منك
ويشعر الناس بمحنتك
صرت تقترب منه ببطء شديد وحركة لا يشعر بها احد
حتى وضعت كتفك بجوار كتفه وفمك بجوار أذنه
وبلعت ريقك ألف مرة وقرأت سورتي الفاتحة والاخلاص في سرك
لكي لا يخيب مسعاك لديه
ثم توكلت على الله مستهلا حديثك بتحيته
إلا أن العمامة التي احاط بها رأسه كانت تغطي اذنية
تمنع الصوت الهامس الذي تكلمت به من الوصول إليه

فاضطرت مرغما إلى رفع صوتك
مجازفا بان يكتشف امرك كل هؤلاء الناس
الذين يتحلقون حوله ويمدون ابصارهم وآذانهم
لمعرفة ما تريده من الرجل
لكن الجوع كافر كما يقولون،
مما جعلك تقول له في كلمات سريعة ما جئت من أجله
فلم يرد عليك بشيء عدا انه رفع رأسه وصاح مناديا:
— يوسف

فاطل من فوق رؤوس الجالسين ابنه الذي يساعده
في توزيع كؤوس الشاي
وهو فتى في منتصف العقد الثاني من عمره
وقال له جملة لم تعرف ما يقصد منها
رغم انك سمعتها كاملة وهي
— خذ الرجل إلى كوشة عبد الله
اخذك الصبي الى الفرن الملتصق بسور المدينة في الجهة المقابلة
كان عبد الله صاحب الفرن قد فرغ لتوه
من وضع ما اعده من ارغفة في معالف أمام الفرن
يعاونه صبي أسود اللون يستقبل الزبائن
ويناولهم الارغفة ويأخذ منهم النقود
ويضعها في درج بجواره
وعند مدخل الكوشة جاء رجل ينوء بحمل ثقل من الحطب والقش
وضعه فوق كومة أخرى من الاحطاب
ومد سحب الفرن يده الى الدرج ليمنح الحطاب بعض النقود
ويسأله ان يبقي لبضع لحظات
ثم التفت إليك يضع بين يديك رغيف خبز ساخن وهو يقول:
— هل أنت حقا تبحث عن عمل
قلت بفم احترق من القضمة الأولى التي اخذتها من الرغيف :
— نعم نعم

وفي اليوم التالي أصبح جمع القش والاحطاب
من الحقائق العامة ومجمعات القمامة و الغابات المحيطة بالمدينة

ونقلها إلى كوشة عبد الله هو عملك اليومي
الذي تؤديه كل صباح
كان رعي الشياه في أودية أولاد الشيخ وشعابها
اهون عليك من ان تتحول إلى بائع قش في المدينة
ولكن الفرق بين هذه وتلك هو ان رعي الاغنام هناك
قدر تبقى في اسره إلى آخر العمر
بينما جمع الاحطاب هنا مجرد محطة
تعينك على اجتياز العتبات الأولى للحياة في المدينة
فمضيت تمارس مهنتك الجديدة بهذا الاحساس
ودون حماس كما يفعل اخرون يجدون فيها فرصة العمر
وبينهم الرجل الذي قادك إلى الغاية لأول مرة
فهو مثلك قادم من الرياف
إلا أنه يجد في هذا العمل فرصة لجمع بعض المال
حتى لو استغرق في جمعه عقدا من الزمان
يعود بعده لفتح دكان بقالة أوفرن في قريته
ولذلك فهو يعمل فترتين
واحدة يقوم لها مع الفجر والثانية يعود لها بعد الظهر
فيقضي فيها وقته حتى حلول الظلام
بينما اكتفيت أنت بفترة واحدة هي فترة الصباح
لأن الهدف هو عمل يسد أودك لمدة مؤقتة
إلى ان تجد عملا يلبق بمستواك التعليمي
الذي لا يملكه هؤلاء الناس
حيث تنهض مع أذان الفجر فتؤدي الصلاة
مع الجماعة في مسجد السنوسية
وتذهب إلى الغابة وماجاورها من مقالب القماقة
فلا تعود الا مع منتصف النهار
لتقبض فرنكاتك الأربعة
ويبقى وقت ما بعد الظهر شاغرا
تستغله في قضاء بعض شئونك ، مثل غسل ملابسك
واستلقت من صاحب الفرن فرنكات إضافية لشراء جلباب

يصلح لمهنتك الجديدة ، حرصا على بقاء الملابس التي جئت بها
من القرية سليمة
كما يتيح لك هذا الوقت الشاعر فرصة للبحث
عن عمل اقل هوانا ومشقة
يكون جديرا برجل يحفظ كتاب الله
لقد ضمنت الان مبلغا يسد حاجاتك الأساسية
ومازال بإمكان وكالة الشوشان ان تقدم لك مكانا للنوم
لبضعة أيام اخرى لأنها ليست مكانا للإقامة الدائمة
وانما هي مأوى لعابري السبيل وكفى
وستجد إذا طال بك المقام لأكثر من أسبوعين
من ينهك إلى ضرورة ان تبحث عن مكان آخر لنومك
تابعت الطواف بالمغازات الكبيرة
لعلها تحتاج إلى عامل حسابات أو معاون في البيع والشراء
وأخذ مقاسات الزبائن
كما ذهبت إلى المطاعم والمقاهي لعلها تحتاج إلى نادل
دون فائدة
ثم رأيت أثناء احدى جولاتك جنازة يتجه بها الناس إلى المقبرة
فتذكرت ان هناك بين الاضرحة وشواهد القبور
عملا لا يتقنه الا قلة من الناس أنت واحد منهم
وماتم تقام من أجل الموتى حديثا
تحتاج لمن يقرأ فيها سورة يس تبركا ورحمة
من حملة كتاب الله مثلك
فذهبت مسرعا إلى مقبرة سيدي منيدر
وبادرت بالجلوس أمام أول قبر رأيتهم يدخلون إليه صاحبه
ودون ان تعرف من هو الذي مات أو تطلب ادنا من أهله
مضيت ترفع عقيرتك بترتيل سورة يس
وانطلق صوتك مجلجلا يضيفي لمسة جلال على الموت
ويزرع في قلوب أهل الميت ورفاقه شيئا من الهدوء والسكينة
وترى الناس ينصتون إليك في صمت واعجاب
فتزداد وثوقا من ان أهل الميت سيجزلون لك العطاء

ولكن طقوس الدفن تنتهي ويخرج مرافقو الميت من المقبرة
ويتركونك وحدك دون ان يكلفوا خاطرهم بوضع فرك في يدك
ويكون كل ما فزت به بعض عبارات الشكر والثناء
التي لا تصحبها أية نقود
تكرر معك الأمر لمرة ثانية وثالثة قبل ان تعرف
ان الناس لا يأخذون ثمنا مقابل قراءة القرآن
وما حسبته مصدرا اضافيا للدخل
لن تنال مقابله غير كلمات يترحم بها أهل الميت
على اسلافك الموتى
عرفت هذا من رجل عثرت عليه صدفة
من أبناء قريتك اسمه عبد المولى
كنت قد خرجت بعد صلاة العصر
مع أهل الميت من جامع ميزران
لكي تذهب مع الجنازة إلى المقبرة
وفوجئت وأنت ترتدي نعليك في عتبة باب الجامع
بهذا الرجل يرتدي جلبابا طويلا مما يرتديه دراويش العيساوية
ويضع حول رأسه عمامة بيضاء
ويمسك بيده عكازا
ويمد يده الأخرى يطلب احسانا من رواد الجامع
اراد عندما رآك ان يخفي وجهه خلف الطرف المتدلي من عمامته
ويدير جسده إلى الحائط بعيدا عنك
لكنك كنت غشما فلم تفهم انه يريد مداراة عار التسول عنك
وقفزت نحوه تأخذ بيده الممدودة لمصافحتها
فرحا بالاهتداء إلى واحد من أهل قريتك
بعد أسبوعين من وجودك في مدينة لا تعرف فيها احدا
متحسرا في نفس الوقت لحاله وهو يقف موقف الشحاذ
بعد ان كان تاجرا كبيرا يفخر به أهله في أولاد الشيخ
وتسأله في فضول وحرقة عما أوصله إلى هذا الحال
فيهز رأسه مؤجلا الاجابة إلى حين آخر
تربطك بالرجل صلة عائلية بعيدة

هي تلك التي تربط كل أهل القرية بعضهم ببعض
فكلهم ينتمون للجذر الأول وهو الشيخ الكبير
صاحب الضريح المشهور في البلدة
ومعنى ذلك ان عبد المولى مثلك ابن من أبناء الشيخ
ما يعيبه يعيبك وما يرفع من مقامه يرفع من مقامك
ولم تكن ابد ا تعلم ولا احد في أولاد الشيخ يعلم
انه موجود في مدينة طرابلس
اذ انه اشاع عن نفسه انه يتاجر بالاقمشة والملابس
و ينقلها من فزان إلى كانو وكانم ومدن افريقية أخرى
يجلب لها العاج وريش النعام وبيضه
وذهب في اذهان الجميع انه في واحدة من اسفاره النائية
في مجاهل القارة الافريقية
وما كان ابدا يخطر ببالك انك ستلاقي هذا التاجر الكبير الكريم
يحترف التسول أمام جامع ميزران
فأنت تعرف أسرته وتعرف ان له زوجة وثلاثة اطفال
يعيشون حياة يسر وهناء
يرتدون في الاعياد البسة جديدة
ويملكون كرة من المطاط يلعبون بها
ويتطلع اطفال القرية لمشاركته اللعب بها
لأنهم لا يملكون غير كرات مصنوعة من الخيش
وعندما تذكر العائلات التي تأكل وجبة باللحم كل أسبوع
تحسب عائلة عبد المولى ضمن هذه العائلات الميسورة المحظوظة
فكيف تراه استطاع ان يجعل أسرته
تعيش حياة الوجهاء والاغنياء
برغم الموقع الدليل الذي يحتله في المدينة
انك تدرك الان انه لم يكن في حياته اسفار ولا تجارة
ولا عاج ولا ريش ولا نعام
وانما هي حيلة يتجنب بها التعزير والاحتقار
فهل تستطيع مهنة التسول حقا ان تجلب لصاحبها مالا
يغذقه على أولاده بهذا الشكل ؟

سار أمامك وأنت خلفه حتى عبر بك المبانى الحديثه
ومنطقة بو مشماشة وبو هريده إلى منطقة سيدي خليفة
ومن بعده الى حزام الاكواخ في بورتا عكاره وإلى حي
من الزرائب وعلب الصفيح حيث ابتنى لنفسه كوخا
من الواح صدئة ، يقيم فيه بمفرده
كان حديد الكوخ عندما وصلتما إليه
مازال ساخنا يختزن قيظ الظهيرة
دخلت مطأطىء الرأس لكي لا يجرح الحديد النائيء رأسك
إلى هذه العلبة الحديدية
وقد احسست بضيقها وحرها يكتمان على قلبك
كنت تريد ان تسأله مرة أخرى لماذا ارتضى لنفسه هذه الحياة
ولكنه بادرك هو بالسؤال متجاهلا ما يتجلى في عينيك من فضول
وما بدا على وجهك من تحفز لطرح الاسئلة قائلا في حدة وغضب :
— لماذا تركت أولاد الشيخ وجئت آلى هذه المدينة؟
قالها وهو يقبض بيديه الاثنتين على كتفيك ويهزهما بعنف
كأنك ارتكبت اثما عظيما
ناسيا ما يتضمنه الموقف من مفارقة
فالأجدر به ان يوجه هذا السؤال إلى نفسه قبل ان يتوجه به إليك
ولكنك تدرك من كل ما رأيته
انه فعلا يتوجه بالسؤال لنفسه أيضاً
ويقول من خلاله انه جاء مرغما إلى هذه المدينة
لينال على يدها المهانة والمذلة
جاء وهو يعرف انه لا مكان له أو لك هنا
انه عالم هؤلاء الوافدين من إيطاليا
يصنعونه لأنفسهم ليلائم مقاسهم ويستمتعون به وحدهم
ولا يقبلون باحد من أهل البلاد معهم
الا في دور العمل أو في دور الخادم أو الشحاذ
جاء عبد المولى إلى طرابلس بعد ان نفق جملته
الذي كان يستخدمه في نقل السلع بين جنوب البلاد وشمالها
ولأنه لم يكن يملك مالا يكفي لشراء جمل آخر

وقع في مأزق لم يجد له حلا الا بالسفر والاختفاء من القرية
لقد تعودت اسرته على حياة الرخاء التي استطاع توفيرها لها
خلال عمله في تجارة الصحراء
وارتحل إلى مدينة طرابلس بحثا عن فرصة
لاستئناف عمله في مجال التجارة
والانخراط في أي عمل مؤقت يؤمن له ثمن الجمل الذي يحتاجه
انتقل بين مهن كثيرة ، لكن هذه المهن
التي كانت تجلب له دخلا يسد الرمق
لم تكن تترك فائضا يرسله لاسرته
فصار يسعى للحصول على هذا الفائض من طريق الاحسان
يشغل في النهار عتالا في الميناء
أو عامل بناء بالاجر اليومي
أو يقطع الحجر في مقلع حجارة الظهرة
ومتلفعا بالظلام يأتي عقب صلاتي المغرب والعشاء
يتربص بالخارجين من المساجد
مستجديا منهم حسنة لله
يرسلها لاطفاله في القرية
وتحت تأثير رجل من أهل البادية جاء إلى المدينة للعمل
وانتهى به المطاف شحاذا
وجد نفسه يذهب إلى مكان آخر
افهمه هذا الرفيق ان به بشرا كثر جودا وكرما مع البؤساء والشحاذين من رواد المساجد هم
رواد النادي الليلي بسوق المشير
ولأن السهر أمام النادي الليلي انتظارا لخروج الزبائن
كان يمتد إلى الساعات الصغيرة من صباح اليوم التالي
فقد صار متعذرا عليه الاستيقاظ لعمل الميناء أو مقلع الحجارة
فتقرغ تقرغا كاملا للتسول بعد ان انسته العادة ما فيه من مذلة وهوان فلا يذكر إلا أنه يدر
رزقا وفيرا دون عناء ولا مشقة
رأيت الرجل ينخرط أمامك في بكاء مرير
قبل ان يكمل سرد قصته فلم تجد شيئا تقوله لمواساته
واكتفيت بالصمت والاسى

لقد اشاع عن نفسه أنه يتاجر في المناطق الصحراوية
الواقعة بين فزان والعمق الافريقي
ناسيا ان وجوده أمام مساجد طرابلس يستجدي المصلين
ليلا ونهارا ، لن يبقى خافيا لمدة طويلة عن أعين أهل قريته
وهو لا يستطيع ان يرجع إليها أو يجد عملا بها
أوبمكان غيرها يدر عليه دخلا كهذا الذي يجنيه من التسول
يواصل عبد المولى الشيخ وهو يخبرك
بانه يثق بك ويعرف انك سوف تنتسّر عليه
ولن تخبر احدا في أولاد الشيخ بالحال الذي وجدته عليه
فتسبب له الفضيحة والاحساس بالخزي لدى أولاده
انك طبعاً لن تفعل ذلك
ولكنك لا تستطيع ان تضمن بان اناسا اخرين
يزورون المدينة سيسترون عليه إذا رأوه في هذا الموقف
لقد رفض لسنوات عديدة ان يدخل شريطا أو جنديا مع الطليان
برغم المرتب المضمون ولكنه الان قد يجد نفسه مرغما
على الذهاب إليهم
فالعامل معهم والانخراط في جيشهم أو شرطتهم
لم يعد يعني خيانة للوطن كما كان الحال في سنوات
المقاومة والاحتراب، عندما كان المواطن يخشى ان يجد نفسه
في الجبهة يرفع السلاح ضد اخوته المجاهدين
اما الان وقد انتهت المقاومة فقد زال هذا الخطر
وما عاد العمل مع الطليان يجلب العار لصاحبه
فأخبرته بان أهل القرية مازالوا
رغم استسلامهم لواقع الحياة تحت الاحتلال
يعتبرون الانخراط في العمل العسكري الإيطالي
شيئاً مرذولاً ومكروها وصاحبه منبوذا مذموماً
وعبرت له عن رأيك في هذا الاختيار الصعب اللعين
الذي يمكن للإنسان ان يجد فيه نفسه
بين مذلة التسول وعار الالتحاق جندياً مع الطليان
فإذا بالرجل ينتفض صارخاً في وجهك

بان هذه اللعنة ستطاردك أنت أيضاً إذا لم تعد فوراً إلى أولاد الشيخ وستجد نفسك في مثل هذا الموقف تواجه خياراً صعباً

بين التسول أو ارتداء الملابس العسكرية الإيطالية
فقلت بلهجة واثقة:

— لعل الموت أهون من كليهما

نطقت بهذه العبارة ثم ندمت عليها

فالموقف حافل بكل معاني البؤس والمهانة

ولم يكن يحتاج لمزيد منهما

ان لم يكن من أجل نفسك

فمن أجل الرجل الذي يتمزق مذلة وتعاسة أمامك

بادر عبد المولى إلى القول:

— بإمكانك ان تقتل نفسك كما تشاء

لأن الانتحار في هذه الحالة عمل لا يقدر عليه الا العزاب امثالك

اما انا فما هي جناية كدس من الصغار

سأتركهم ورائي

انهم لحمي هم أيضاً فكيف اقتل نصفي واترك نصفي يتعذب

كانت العتمة قد بدأت تغزو المكان

ترافقها انسام طرية تبدد حر النهار

فاخرج الرجل حصيرة وطرحها أمام الكوخ

ورش قليلاً من الماء حول الحصيرة لتهدئة التراب

الذي يمكن ان تثيره اقدام عابري الطريق واطفال الجيران

ودعاك إلى الجلوس بجواره

وهو ينشغل بأشغال موقد النار لاعداد الشاي

هدأ الغبار ولكن الماء الذي رش به الأرض صنع غدراناً صغيرة

صار يتناثر رذاذها ويصل آلي وجهك

كلما داسها اطفال يطارد بعضهم بعضاً

ظل الموقد يصنع دخاناً كثيفاً

والرجل ينفخ الموقد مستعيناً بقطعة ورق مقوى على إذكاء النار

وضع سخان الشاي فوق الموقد ودخل إلى الكوخ

وخرج منه يحمل المخلاة التي يستعملها في التسول
أفرغ كل محتوياتها فوق قطعة قماش
فتأثرت حبات تين مجفف وتمر وثلاث قطع من الخبز
ورؤوس بصل وجزر وخياروفلفل وحبتي طماطم مدهوستين
وحفنة فول سوداني غير مقشر
قام بفرز كل صنف على حده
وأحضر صحنًا وسكينا لتقطيع البصل وحبتي الطماطم
وبعض الخيار والفلفل الأخضر يصنع بها طبقًا من السلطة الخضراء
التي يسميها أهل المدينة "شرمولة"
ويجعلونها الطعام المفضل لوجبة العشاء
ووضع أمامك الشاي وناولك قطعة الخبز
وهو يدعوك لتشاركه الطعام قائلاً:
— الخير كثير كما ترى، هيا لا تتكسف، وكل ما تريد.
عافت نفسك طعامه وشرابه، خاصة بعد ان مر قطع شياه
يسوقه راع صغير فاثار بقايا الماء
ووصل رذاذه إليكما و حطت قطرات منه في صحن الشرمولة
لم تطاوعك يدك على ان تمتد لتناول هذا الخير الكثير
كما يسميه عبد المولى
اثار منظر الطعام وطريقة عبد المولى في التهامه
وارتشاف الشاي بصوت عال مع كل لقمة، امعاءك الفارغة
فدارت في جوفك دورة لها صخب عظيم
انها تستغيث وتطلب طعاما غير هذا الطعام
— الخير كثير كما ترى
رنت الجملة رنينا فظيحا في رأسك
بدا وكأن الرجل يتباهى بحصيلة ما جمعه عن طريق التسول
اثار ذلك كله اشمئزازك فنهضت واقفا
تركته وعدت مسرعا إلى وكالة الشوشان
تعرف انك استفدت حقك في استخدام الوكالة للنوم
وقد قالها لك احد سائقي الشاحنات
ممن يتناولون الاشراف على الوكالة

بانك لن تستطيع ان تبقى أكثر من يوم أو اثنين بحد أقصى
وبات محتما عليك ان تجد خلال هذا الوقت القصير
حفرة تأويك أو شقا في جدار من جدران المدينة تقيم فيه
انك لن تكون اهون عزا من الفئران والسحالي والقطط
وسائر الكائنات التي تتخذ من المدينة مقرا لها
ذهبت بعد مشوار الحطب في جولتك اليومية باحثا عن عمل
دون ان تنسى مشكلة السكن
وجدت في كوشة الصفار رجلا كابيا على صنع الاحذية
يرفع رأسه إليك وينظر متقرسا في وجهك بعينين ضيقتين
لحظة ان وقفت أمام دكانه تتأمل جمال النعال الشرقية
ذات الزخارف الكثيرة التي يعرضها فوق رف خشبي أمام الدكان
وتسأل بطريقة روتينية صرت لا ترجو منها طائلا
عما إذا كان لديه عمل لك
وقبل ان يقول لك أي شيء اشتغل حدسك
ورأيت كأن هذا الرجل بنظراته الابوية الحانية
هو من كنت تبحث عنه وستجد عنده حلا لمشاكلك
وتأكد حدسك عندما قال لك وهو يأخذ مسمارا من بين شفتيه
ويده في كعب الحذاء الموضوع داخل قالب القدم الحديدي:
— أنت من اين يا ولد ؟
لأول مرة تسمع ردا لا يحمل معنى الرفض منذ الكلمة الأولى
الرجل يسألك لاي قرية أو مدينة تنتمي فهو اذن مهتم بامرك
ويفتح بابا للحديث والتعارف معك
رأيت أمامه كرسيًا يستخدمه الزبائن
عندما يأخذ لهم مقاس اقدامهم
فاحسست ان من حقك بعد هذا السؤال ان تستخدمه
جلست بعد ان صافحته وقلت ردا على سؤاله:
— اسمي عثمان الشيخ وقريتي هي أولاد الشيخ جنوب الجبل الغربي
— ومن لا يعرف أولاد الشيخ يكفي بلدتكم انها انجبت بطلا هو "الفورتي".
كان هذا هو اللقب الذي أطلقه الناس
على قاطع طريق دوخ الحكومة في السنوات الاخيرة

انتهت حرب الإيطاليين مع المجاهدين
 فإذا بقاطع طريق يشن عليهم حربا يديرها بمفرده
 ويستولى على السيارات المحملة بالسلع الذاهبة إلى الجنوب
 ويوزع بعض هذه السلع التي يسطو عليها
 على فقراء المناطق الصحراوية من أهل عشيرته
 فاعتبره الناس بطلا واسموه باللغة الإيطالية الفورتى
 قبل ان يسقط على ايدي قوة كبيرة من الشرطه
 و يقودونه إلى المحاكمة في المدينة وإلى سجن طويل الامد
 — هل أنت من الجهة القبلية أو البحرية في أولاد الشيخ
 ادركت ان الرجل خبير بالبلدة فلا احد غير أهلها
 أو ممن يعرفونها معرفة وثيقة يدرك ان لهذه البيوت
 الطينية، الجبسية، المندمجة في بعضها البعض
 جهة قبلية وأخرى بحرية
 — من الواضح يا شيخ أنك تعرف أولاد الشيخ جيدا . انني من أهل الجهة البحرية.
 — اذن فأنت من شاربي حليب الحمير .
 في أيام الخصومات التي تنشب بين قسми البلاد أطلق أهل الجهة القبلية
 شائعة تقول بان أهل الجهة البحرية يشربون لبن الحمير
 الذي أورثهم البلادة والحماقة وقلة العقل
 ضحكك عندما رأيته يضحك ويتبسط معك في الحديث
 إلا أن شيئا من الفلق صار يعتريك بسبب هذا الحديث
 الذي يربط بينك وبين قطاع الطرق وأبناء الحمير بالرضاعة
 فهو لا يصلح لتزكيتك في عمل يتطلب الثقة والامانة والذكاء
 ارتحت قليلا عندما سألك ان كنت تعرف القراءة والكتابة
 لأنه يحتاجك في تسجيل اسماء العملاء الذين يداينهم و يداينونه
 وعندما قلت له انك اكملت الدراسة القرآنية
 ظهرت على وجه علامات الرضا والارتياح دون ان يقول شيئا
 و جاء على ذكر بعض التجار المعروفين من أهل البلدة
 الذين سبق ان تعامل معهم فوجدتهم مثالا للامانة والنزاهة
 و اشار إلى اسماء ثلاثة منهم فابلغته بانك تعرفهم
 وان كل أهل القرية هم أبناء عمومة بالنسبة لك

ومعنى ذلك ان حتى هؤلاء التجار هم من اقربائك
— استطيع اذن ان اشتكيك إليهم إذا اهتمت في عملك
لم تقل له ان التجار الثلاثة الذين ذكر اسماءهم
قد انتقلوا إلى رحمة الله
فقد كنت سعيدا إلى حد ان كدت تقوم من مقعدك
وتنكفي على يديه تقبلهما شكرا وامتنانا
لأنه قبل بك عاملا في دكانه دون ان تسأله عن مقدار الاجر
انها دكانة صغيرة بحجم الكف ولكن لا يهم
ستقضي الساعات الطوال وأنت محني الظهر والعنق
تضع المسامير في فمك كما يفعل هذا الرجل
الذي نبتت في ظهره حذبة من كثرة الانحناء
لتدق هذه المسامير الدقيقة في كعوب وحواف الاحذية لايهم
فهذا هو موضع القدم الذي اعياك البحث عنه
حتى جاءت هذه القدم الحديدية
المنتصبة أمام صاحب الدكان ترشدك إليه
عرفت فيما بعد ان الصانع الذي كان معه
واسمه فتحي اكرتري لنفسه دكانة خاصة به في الشارع الغربي
فانعش هذا أحلامك بان تكون أنت نفسك صاحب دكان
لصنع الاحذية تستخدم صانعا معك
تأملت الدكان الصغير، انه انيق جميل
يتخصص صاحبه في صنع نوع من الاحذية الطرابلية
ذات النقوش والزخارف الكثيرة
نسائية ورجالية لها ورود زاهية الألوان
مصنوعة من شاش رقيق شفاف تزينها وتمنحها شكلا متميزا
يعلقها حوله ويغطي بها كل الجدران ويجلس بينها
كانه وسط حديقة ورد وليس داخل دكان احذية
ويضع بعضا منها في رف خشبي ملصق في واجهة الدكان
على يمين الباب ورف آخر على شمال الباب
فيبدو الدكان وكأنه غرفة في متحف المصنوعات التقليدية
وددت لو سألته ان يسمح لك بالعمل في التو واللحظة

لكنه ابلغك وقيل ان تفتح فمك بالكلام
بان بداية العمل ستكون بعد يومين
متوافقة مع بداية الشهر الميلادي الجديد
ومع ذلك فان كلامه لا يثنيك عن عزمك
في مباشرة العمل منذ الغد
قائلا بانك تتمنى ان تباشره حتى دون اجر
وانت تفكر في المأوى أكثر مما تفكر في اجرتك
ومتأثرا بحماسك البالغ هز الرجل رأسه موافقا
خرجت من دكان الاحذية
وانت تنتظر إلى شوارع طرابلس نظرة جديدة
مختلفة عن الطريقة التي نظرت بها إليها قبل اليوم
تنتظر إليها لا نظرة الإنسان الباحث عن عمل كما كنت تفعل
منذ أول دقيقة وصلت فيه إلى طرابلس
وانما نظرة إنسان وجد عملا يرضيه
وصار من حقه ان يمضي في الشوارع كما يمضي الناس
مبتهجا متأملا البشر والابنية والاسواق وواجهات المتاجر
مستمعا بان تتجول بحرية ودون هدف غير هدف الفرجة والتسلية
انك حتى الان لم تأكل وجبة واحدة ساخنة في طرابلس
ولم تأكل وجبة مكتملة حتى بعد ان عملت في جمع الاحطاب
لأنك وضعت الأولوية للجلباب الذي اشتريته
وما تبقى لم يكن يكفي لغير وجبتك الدائمة الشاي والخبز
وتحس في هذه اللحظة بان معدتك فارغة
تتوق لوجبة شبيهة من تلك التي تطهوها المطاعم الشعبية
الفائحة برائحة الثوم والبهارات
إلا أنها تستطيع ان تنتظر
فأنت الان ورغم حاجة المعدة للطعام ، في غاية الابتهاج
بعد ان صار لك عمل ومأوى
وما تتشوق المعدة له من طعام
وما تراه في نوافذ دكاكين الحلويات ويسيل له لعابك
أو ما تراه في واجهات المتاجر

التي تتبع الالبسة وتنتهي ان ترتديه
تحس انه اضحى الان في تناول يدك
وانك لست مستعجلا عليه
فقد صار لديك عمل ثابت يدر نقودا
وسيكون بإمكانك ان تتناول هذه المأكّل وترتدي هذه الملابس
مثل أهل المدينة لأنك تشعر انك أصبحت الان واحدا منهم

وبحماس شديد لمهنتك الجديدة بدأت في صباح اليوم التالي
العمل في دكان الحاج المهدي النعال
اكتشفت ان فوق رأسك سدة يتخذها الحاج المهدي
مخزنا لخاماته من خيوط وجلود
تصنع للدكان سقفا ثانيا غير سقفه الأول
تفصله عنه مسافة نصف متر
فرأيت انها كافية لكي تكون مخدعا لك
تتسلق إليها بضع درجات خشبية
وتدخلها منحنيًا تتلمس لك مكانا بين الجلود والأنوال لتنام
ولم يكن مهما بالنسبة لك ان يكون الدكان خاليا
من المرافق الضرورية لحياة الإنسان
لأن مسجد سيدي محمود القريب كان كفيلا بسد هذه النواقص
فهو مفتوح للمصلين ليل نهار
أما الطعام فان عليك ان تعيش على الاطعمة الناشفة الجافة
وانتظار المناسبات التي يتغذى فيها الحاج داخل الدكانة
فتشاركه الغذاء الذي يأتيه ساخنا من البيت
دون ان تنسى صاحبك "الشارف" صانع الشاي
الذي لا يد من زيارته وفي يدك رغيف الخبز الإيطالي نوع "البانينا"
ولا بأس من ان يمتد طموحك إلى يوم
تؤهلك فيه مواردك إلى وجبة في مطعم البرعي
تتكون من طبق المشويات الذي يشتهر به
هذ المطعم الشعبي الذائع الصيت
كان الحاج يجلسك بجواره لترى كل صغيرة وكبيرة يفعلها

وكانت المهمة الأولى التي اسندتها إليك
هي ان تمسك مقصاً وان تقص الجلد وفقاً للعلامات
التي خطها لك بالقلم الرصاص فوق الجلد
لتصبح سلخاً وسيوراً يصنع بها الحذاء
ولأنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة
معتدداً على صانعه السابق في كتابة أسماء زبائنه
الذين يشترون بالدفع المؤجل
خاصة بعض اصحاب الدكاكين
الذين لا يستطيعون سداد ثمن الحذاء الا بعد بيعه
فقد اسلمك الدفتر لتبدأ بتسجيل من لم يقم بتسجيلهم
من هؤلاء الزبائن ثم تبدأ في تسجيل ما يستجد بعد ذلك
اكتشفت وأنت تراقبه عن كثب
ان الرجل فنان وليس مجرد صانع احذية
انه صاحب موهبة وابداع وخيال
يضع الالوان والزخارف والنقوش على ظهر الحذاء
بحذق ومهارة الفنانين ويرشق زهرة القماش في المكان الذي يضيفي
جمالاً وناقية على الحذاء
بل أنك حاولت اثناء وجودك بمفردك في الدكان
تقليده في وضع هذه الزخارف فلم تستطع نقش خط واحد
وادركت انها مسألة لا يستطيع الإنسان ان يتعلمها بمجرد المحاكاة
كما لا يمكن لمن لا يملك موهبة ان يكون رساماً
ودخلت في ايقاع الحياة بالمركز التجاري
لمدينة طرابلس القديمة باعتبارك واحداً من أبناء السوق
ويذاً من الأيادي التي تنتج السلع والمصنوعات التقليدية
لم تعد مهدداً بالعودة إلى البوادي ورعي الاغنام
ولم تعد خائفاً من مصير كمصير عبد المولى الشحاذ
إلا أن الاثارة التي رافقت حصولك على العمل والمأوى
كانت قد انتهت لتتظر إلى حياتك وهي رهينة مساحة هذا الدكان
التي لا تزيد عن اربعة امتار في اربعة امتار
عليك ان تقضي فيها ليلك ونهارك

وتقوم داخل هذا المربع الضئيل
بعمل روتيني يكرر نفسه مع كل يوم جديد
ومع ذلك فأنت راض عن نفسك تمام الرضا
لأن هذا الدكان بمساحته المحدودة الضيقة
التي لا تغادرها الا للاغتسال والصلاة في المسجد
أو إذا ارسلك الحاج في مشوار صغير للدكاكين المجاورة
يمنحك دائما ذلك الاحساس الجميل بالاستقرار والامان
بل أنت تشعر بالفخر لأنك امتهنت مهنة ارقى كثيرا
من تلك المهن الوضيعة التي سعت إليها في الغابة
أو في سوق الثلاثاء أو بين المقابر تعاشر العتالين
والخطابين وحفاري القبور
ومن موجبات الفخر أيضاً انه بين دكاكين النعال
أكثرها رقياً وشرفاً فهو يتخصص في الاحذية
التي يرتديها العرسان وتنفخ بارتدائها عرائس الطبقة العليا
ويحرص على التعامل معها صفوة القوم
واستطعت خلال أيام قليلة ان ترى برهان ذلك
وتتعرف من خلال عملك في دكان الحاج المهدي
إلى سيدات الطبقة الراقية في مدينة طرابلس
وتدرك انهن شيء آخر غير تلك الكائنات التي ينسبها
أهل أولاد الشيخ لصنف النساء
تأتي السيدة منهن وقد ارتدت فراشيتها الناصعة البياض
محبوكة فوق جسمها حبكة شديدة حتى لتظهر مفاتن الجسد
وما فيه من دوائر ومنحنيات بشكل بالغ الفتنة والإغراء
تأتي وهو تنقر الرصيف بكعب حذاءها
بإيقاع منعوم كأنها تعزف لحناً..
تسبقها رائحة عطرها النفاذة الزكية
وخلفها خادمته السوداء ترتدي جلباباً
وتضع فوق رأسها منديلاً وتحمل في يدها سلة
من السعف الملون لتضع بها ما تشتريه السيدة من أغراض
وما إن تصل إلى عتبة الدكان حتى تكشف الغطاء

عن وجهها وهي تتأمل الاحذية ، فتظهر البشرة النقية
الصفافية كالبلور والعينان السوداوان الواسعتان
باهاذبهما الطويلة التي زادها الكحل جمالا وجاذبية
وفوقهما حاجبان مرسومان بدقة كهلالين يشعان باضواء سوداء
ثم ذلك الفم الجميل الذي يزينه أحمر الشفاه الندي ويجعله
يبدو كوردة بللها ندى الصبح
وغالبا ما تكون به علكة تطرقها السيدة في غنج ودلال
وقد تدلت الأقراط الذهبية من الأذنين
وتحلت اليدان اللتان تخضبهما الحناء بخواتم الذهب
ورنت في الذراعين المصقولين اساور الذهب والعاج
وتكلمت بلهجتها الطرابلسية اللذيذة
مصحوبة بتلك الايماءات والاشارات
وحركات الغنج والاغراء التي تثير غرائز الرجال
وتبعث الرعشة في الجسم والقلب
طبعاً ليست كل امرأة بهذا الجمال
ولكن هذا هو النوع الغالب في نساء الطبقة الغنية
من قاطني المدينة القديمة
يرسلك الحاج المهدي إلى مدبغة الجلود
في منطقة شعبية عربية هي "باب عكاره"
حيث تستقبلك رائحة المدبغة قبل عدة اميال
كانها رائحة قطيع من الكلاب الميتة
وحيث يسكن الناس في عشش واكواخ مصنوعة من الصفيح
وخيام مهترئة صحبة بهائمهم
تغطيهم سحب الذباب وتسوخ اقدامهم في الطرق الموحلة
واطفال كالهياكل العظمية يرتدون الاسمال
ولا يفعلون شيئاً سوى التسول
ويقفون يتبولون أمام هذه الأكواخ
فتعود واحساس بالغثيان والقرف يصاحبك حتى انقضاء النهار
ويرسلك في مشوار آخر إلى متجر بشارع ماترييني
يبيع الخيوط الملونة يملكه رجل إيطالي

يستخدم عاملا ليبيا انيقا في سن الصبا
اسمه نعمان حيث المركز الإيطالي للمدينة
فترى الفرق الهائل بين الحي العربي والإيطالي
انك هنا في منتزه يضوع عطرا وجمالا
عامر بالاضواء والألوان
تقيض بالبهجة حيطانه وأشجاره وليس فقط وجوه قاطنيه
حتى الرصيف يبدو مصقولا لامعا ترى فيه صورتك كالمرآيا
والبشر كلهم إيطاليون الا بعض العاملين العرب
يرتدون بزاتهم الافرنجية الأنيقة النظيفة
يتحلقون حول الموائد المنتشرة على الرصيف
ويتنقلون في الشوارع فرادى او جماعات
ورجل بطوي امرأته في حضنه او يضع يده في يدها
ويسيران عبر احواض الزهور التي تزين الطرقات
ويضرب المدفع الموجود بالسرايا الحمراء اطلاقته التقليدية
لتحية العلم فتقف امتثالا للقانون
وترفع يدك بالتحية للعلم كما يفعل بقية الناس في الشارع
لأنك لو لم تفعل ذلك لاعتبروه اهانة لرمز السيادة الإيطالية
يعاقب عليها القانون
وتحاشيا لاي تحرش يقوم به الإيطاليون ضدك
صرت لا تأتي إلى هذه المناطق
الا وأنت ترتدي الملابس الافرنجية
انيقا، نظيفا ، حاسر الرأس مثل الإيطاليين
وقد حدث اثناء أيامك الأولى في طرابلس
ان رأيت أكثر من شرطي يتجه إليك ويسألك ان تغادر الشارع
لأن ملايسك الشعبية لا تعجبه
فكنت تختفي في أول عطفة ثم تظهر بعد ان يبتعد الشرطي
كان التجوال في الاحياء الإيطالية نزهة للعين والقلب
إلا أنها لم تكن لحظات الفرح الوحيدة في حياتك
وانما هناك لحظة أخرى أكثر بهجة واثارة
عندما تأتي ثريا ابنة الحاج المهدي إلى الدكان

لتكسر روتين العمل البطيء المكرور
تحمل صحن الغذاء لوأدها
فدعوك لمشاركته الطعام الذي غالبا ما يكون طبقا
من المكرونة أو الرشة أو الكسكسي أو طبيخة الفاصوليا أو البازليا
وقد جاء هذا الصحن مرة وفيه قطعتان صغيرتان من اللحم
تؤكد ان أهل البيت عملوا لك حسابا عند اعداد الطبق
ورغم انها تأتي وقد ارتدت فراشيها
واطالت الطرف الذي يسقط على وجهها
إلا أنه لم يكن صعبا عليك ان ترى
انشاء وضعها للطبق ، ملامح هذا الوجه الذي وجدته جميلا
بريئا كوجوه الاطفال
وجها حنطيا مستديرا يتوهج القا وبهجة ويتألا بدلائل النعمة
شيء مبهج مفرح ينطق به الوجه لا تدرك له تفسيرا
لعله هذه الابتسامة التي لا تفارق الوجه
أو هاتان الغمازتان اللتان تضيفان إلى ابتسامة الثغر
ابتسامتين على الخدين
تأتي مبتسمة وتمضي مبتسمة وتلقي تحيتها وهي مبتسمة
دون ان تبقى غير لحظة قصيرة
فهي تترك لكما الطعام ولا تأخذ الصحن الفارغ الا في اليوم التالي
أو في يوم بعده عند احضارها للوجبة التالية
وهناك دائما فضلة اكل تبقى في الصحن
تعود أنت إليها اثناء الليل وتنظف لها الصحن
فتجده ثريا عندما تأتي نظيفا خاليا من بقايا الطعام
لم يكن في حياتك ما يستحق عناء الانتظار
سوى تلك الهنيئات القصيرة العذبة
عندما تأتي ثريا وتشرق ابتسامتها بين النعال
لم تكن في البداية قد انتبهت إلى سر الجاذبية في وجهها
لأنك كنت لا ترفع رأسك نحوها إلا لتضعه في الأرض
خجلا ورهبة من والدها
ثم تدريجيا صرت تطيل النظر إليها

وتهتبل فرصة المرات القليلة التي يكون خلالها
والدها موجودا في الجامع لصلاة الظهر عند مجيئها
فتتبادل معها الحديث وتطيل التأمل في وجهها دون حرج
مما ساعد على نشوء نوع من اللفة بينك وبينها
ثم صرت تستطيع ان تقرأ في ملامحها وعينيها كلاما
لا تستطيع ان تقوله لك بلسانها
صرت تحاول أنت أيضاً ان ترد عليه بكلام صامت مثله
يعبر عن مدى استعطافك لها واعجابك بجمالها
وكان قلبك يخفق فرحاً وأنت تقرأ التجاوب في عينيها
وتقول في نفسك ان الاقدار ساقتك إلى هذا الدكان
وأوجدت لك فيه عملاً ومأوى لسبب واحد
هو ان تلتقي بهذه الفتاة التي لها وحدها تتفتح زهرة القلب
تحول الكدح اليوم المليء بالضجر والتكرار
إلى لحظات انتظار لموعد الفرح
مساحة الدكان ذات الامتار الاربعة
تحولت إلى فضاء رحيب فسيح
يتسع لمسقبل باسم الثغر
ترى فيه نفسك صاحب غرفة في بيت من بيوت المدينة القديمة
وامرأة تشاركك الإقامة في هذه الغرفة
تكون سكناً لك وتكون سكناً لها
كما يقول القرآن في وصفه للحياة الزوجية
امرأة لها ابتسامة نقية صافية كابتسامة هذه الصبية
وعينان لوزيتان كعينيها
وغمازتان تقيضان سحراً مثل غمازتيها
تبادلن جيشان العواطف وقوة هديرها في صدرك
بالغنى في اظهار الولاء والاخلاص لوالد ثرياً
لا تريد ان تكون مجرد صانع في دكانه
وانما تريد ان تكون ابناً له لم يأت من صلبه
وتتمنى ان تنتج هذه المساعي التي تبذلها للاقتراب منه
في خلق تجاوب من طرفه يجعله يقبل بك صهراً له

ويكون فعلا الألب الذي تتمناه
فأنت صادق الإحساس نحوه
وتزداد احتراما ومودة له كلما تقادمت الأيام
فهو رجل صلاح وتقوى دون ادعاء ولا رياء ولا مباهاة ولا افتعال
يؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها
ويؤديها مع الجماعة في جامع شائب العين
وكان يحرص في بداية التحاقك بدكانه
ان يعود سريعا من صلاته لكي لا يترك الزبائن ينتظرونه
ثم صار يعهد إليك بمهمة التعامل مع هؤلاء الزبائن
مستمعا بالحديث مع اصحابه
فوق الدكة الحجرية الموجود بمدخل الجامع
تاركا لك ان تقوم مقامه في الدكان
مؤتمنا لياك على اسراره مع زبائنه
فيما رأيته دليلا اكيدا على ما بلغته من منزلة عالية لديه
وما فزت به من ثقة قوية
كتلك التي لا تكون الا بين الابن وابيه
دون ان ترى منه تقتيرا أو اجحافا في حقك
بل يعاملك بكرم واريحية زادتك اعجابا به
وحدث خلال احدى هذه المرات التي كنت فيها
موجودا بمفردك في الدكان
ان اهتزت الارض هزة عنيفة جعلت كل ما كان موجودا
من جلد وخيوط فوق السدة ينهال فوق راسك
فانتزعت نفسك من مكانك ودفعت عنك الاكداش
التي غطت راسك وخرجت من الدكان
التي تصورت سينهار فوق راسك
فوجدت الاحذية التي تملأ الارفف الخشبية
خارج العتبة قد سقطت كلها تتدحرج
فوق الارض واردت ان تقوم بجمعها وارجاعها
فوجدت الناس يتصايحون في الشارع
يقرأون القرآن في فرع

ويذكرون الشهادتين توقعا للموت في اية لحظة
ورأيهم يتنادون على بعضهم بعضا
وسمعت من يحثك على الاستعجال في
الذهب معهم دون ان تعرف الى اين يذهبون
فعلن هناك ملجا يقصدونه كما كانوا يفعلون
ايام الحرب هروبا من القنابل ورمي المدافع
فتركت الدكان مفتوحا
والاحذية مرمية فوق الارض
وذهبت تركض مثلهم
فاذا بهم يدلفون الى جامع الدروج الذي لم يكن بعيدا
وكان مزدحما الى حافته بالنساء والرجال والاطفال
لكنهم افسحوا مكانا للقادمين الجدد
دون ان تفهم لماذا تكون جدران الجامع وسقوفه
اكثر امانا من المباني الاخرى مع انه اكثر قدما منها
وفهمت ان السبب ليس البحث عن قوة البناء
بقدر ما هو الايمان بان المسجد باعتباره بيت الله
فانه سيكون اكثر حماية من البيوت الاخرى
والنقطة الثانية ان الزلزال اذا وصل لتقويض المساجد
وانهياره فوق رؤوس اللاجئين اليه
فان الموت في مثل هذا المكان
هو اكثر شرفا من الموت في الاماكن الاخرى
ومغفرة الله ورحمته ورضوانه
ستكون من نصيب كل انسان
يلاقي ربه تحت اسقف بيت
من بيوت العبادة التي يذكر فيها
اسمه صباح مساء
لقد انتهى الزلزال وزال خطره وظل ماثلا خطر
الموت الذي يلحق بالانسان وهو مكثوم الانفاس
داخل هذا الزحام
لان الناس كانوا يخشون تجدد الهزة الارضية

ويريدون البقاء مدة من الزمن ، يتأكدون
خلالها من عدم ظهور هزة جديدة قوية
خاصة وان اكثر من هزة بسيطة اعقبت
الهزة الاولى القوية التي افزعت الناس
ولم تكن تنتظر الا ان ترى خروج
بعض الناس الذين اعياهم الزحام فقرروا
المغامرة بالخروج الى الشارع
مجازفين بموت لا تباركه ملائكة الرحمن
التي تسكن المساجد

لتخرج معهم ، فقد كان القلق يأكلك
من اجل الدكان الذي تركته مفتوحا
والاحذية التي كانت تتناثر بعرض الشارع
تركت المسجد وعدت راكضا الى الدكان
وانت اتوقع ان تجد الاحذية المرمية
في الشارع قد اختفت
فاذا بك تجد ان كل شيء موجود في مكانه
رغم ان الحياة كانت قد عادت الى الشارع
والناس صغارا وكبار يمرون امام الدكان
ويجتازون هذه الاحذية دون ان يفكر
احد في سرقتها رغم ان بينهم شحاتون
وصبيان حفاة

ربما لان الهزة ذكرت الناس بالموت وجعلتهم
يفكرون في البعث والحساب
لانك على ثقة من ان هؤلاء الناس لو وجدوا احذية
مرمية في الشارع على هذا النحو
ودكانا في غيبة صاحبه في غير هذا الوقت
لما ترددوا في سرقة
الاحذية ونهب الدكان
وراودتك فكرة سرعان ما طردتها من رأسك
وهي لك لو وضعت في جيبك ثمن

بعض الاحذية التي قمت ببيعها اثناء غيبة الحاج المهدي
وقلت له انها نهبت اثناء حدوث الهزة الارضية
لما وجد سببا لتكذيبك
ولا اعتبارها ثمنا زهيدا لنجاته ونجاة اهله
من شرور هذه الهزة
ولكنك رايت انه سيكون امرا خسيسا
ودنئا ان تكافيء الرجل الذي منحك
كل هذه الثقة بمثل هذ الخيانة
فأعطيت له المبالغ عندما جاء
وابلغته بما حدث لحظة وقوع الزلزال دون ان يضيع
شيئا من رزقه
وتكررت المرات التي جاءت فيها ثريا إلى الدكان
اثناء غيبة والدها لصلاة الظهر في المسجد
وانتقلت العلاقة الصامتة بينك وبينها إلى مرحلة الافصاح والكلام
عندما قلت لها بانك رأيتها في الحلم وكنت سعيدا بهذه الرؤيا
وتتمنى ان يتحول هذا الحلم إلى حقيقة

لم يكن ما قلته كذبا
وما كان باستطاعتك ان تكذب في امر كهذا
فقد رأيتها اثناء نومك تجلس معك وسط قارب
بمضي بكما بعيدا في عمق البحر
أخبرتها بما رأيت دون ان تجرؤ على ابلاغها بنهاية الحلم
وهي انقلاب القارب اثر مداهمة العاصفة له
وكيف وجدتما نفسيكما مرميا بكما وسط الموج الهائج
ولأنك فتى ريفي يجهل السباحة فقد ظللت تصرخ مستنجدا بها
ان تنقذك من الغرق لتصورك ان كل أبناء وبنات المدينة
يعرفون العوم
لم تقل لها شيئا عن عجزك وخيبتك اثناء الحلم

واكتفيت بإبداء تفسير لما رأيته في الحلم
وهو ان القارب والماء يعنيان في كتب تفسير الأحلام
السعادة والهناء ، وكان كل ما قالته ثريا هو :

— اللهم اجعله خيرا

— ولكن هل تعرفين السباحة

وردت ضاحكة :

— انني لا اعرف السباحة، فما سبب السؤال؟

كدت ان تقول لها بانكما قد ضعتما كلاكما ، إلا أن والدها دخل

الدكان عائدا من المسجد ، فتوقفتما عن الكلام

رفع الحاج المهدي الغطاء عن الصحن

وقبل ان يدعوك كما هي عادته

لأن نترك ما في يدك وتتفضل بمشاركته الطعام قال صائحا

وهو ينظر بفرح إلى صحن الكسكسي

وقد علته قطعتان كبيرتان من اللحم:

— لحم ؟ من اين جئتم باللحم وانا لم اشتريه منذ شهر مضى ؟

— جارتنا الحاجة نجمية، عاد إليها ابنها الذي كان مجندا في الجيش

فلنا نصيبنا من الخروف الذي ذبحته بالمناسبة .

— اما كان لاحد ان يقول لنا كي نستعد لمثل هذه الوليمة ونسعد انفسنا قليلا بترقيها قبل ان

نجد صحننا مليئا باللحم تحت انوفنا .

وقبل ان يمد يده إلى قطعة اللحم قال لابنته :

— للإنسان يا ابنتي ملائكة ترافقه وينالها ما يناله من خير وهذه الملائكة تفرحها وتطربها

فترة الانتظار التي تسبق حلول المناسبات السعيدة .

والتفت إليك بالكلام قائلا :

— ما ضر لو عرفنا بامر هذا اللحم قبل يومين ؟ اما كان ذلك سببيل عمر الفرحة ثلاثة أيام

بدل دقيقة واحدة هي هذه الدقيقة التي نضع فيه قطعة اللحم في افواهنا ، هيا مد يدك وامرك

الله.

تبادلتما الضحكات أنت وثريا

ولعل الحاج المهدي قد رأى في هذه الالفة بينكما

ما يوحي بوجود تعارف تم من وراء ظهره

أكثر حميمية من التعارف الذي كان شاهدا عليه يحدث بينكما

إلا أن الرجل قد فتح لك قلبه منذ أول يوم رآك فيه
وصار يرى فيك صورة الابن الثاني
لأن كل ما لديه صبي في مراحل الدراسة الأولى بالكتاب
و ثلاث بنات متزوجات من اقارب له في تاجوراء
وهذه هي آخر واصغر بناته، التي لا تزال تعيش في كنفه
اما الأمر الذي يدعو إلى القلق فهو ان صبية في عمر ثريا
ولها هذا الجمال الفاتن كجمالها
لن تبقى حبيسة بيت ابيها لامد طويل
ولا بد ان يأتي في وقت قريب من يريد لها عروسا له
وهذا العريس المرتقب سيأتي خلال أشهر لا خلال اعوام
فماذا أنت فاعل يا ابن الشيخ ؟
انها الان في سن الثامنة عشرة وهي سن مثالية لتزويج البنات
خاصة إذا كان لهن حظ ثريا من الحسب والنسب والفضيلة والجمال
لعل النظرة المستريية التي رمقك بها الحاج المهدي
ورمق بها ابنته في نفس الوقت
تصلح مناسبة لمفاتحته في الموضوع
وافهامه صراحة بانك تريد لعلاقة الود
التي نشأت بينك وبينه ان تكتمل بالمصاهرة
لن يكون امرا صعبا بالنسبة لك
تدبير غرفة في بيت من بيوت المدينة القديمة
ان لم يكن قريبا من بيت الحاج المهدي
ففي بيوت أخرى خارج السور أكثر تواضعا وارخص ثمنا
انقضت الان أكثر من سبعة اشهر
منذ ان بدأت العمل مع الحاج المهدي
استطاع خلالها ان يختبر خصالك ويعرف إلى أي معدن تنتمي
اذ لا يكاد يمضي يوم دون ان يتحدث فيه
عن نظريته في البشر والمعادن والاقمشة
فهذا رجل اصيل كالذهب الحقيقي
واخر بلا اصالة كالذهب المزيف
وهذا قماشته من حرير

واخر قماشته من كتان وثالث من خيش
وهكذا لا يمر زبون بدكانه الا وعنده تعريف لديه
كان شهر رمضان الماضي فرصة يتبسط خلالها في شرح افكاره
ويطيل الحديث حولها
فالحياة في المدينة تأخذ شكلا اخر في هذا الشهر الكريم
ويفتح الحاج المهدي بيته للضياف
واغلبهم غرباء يدعوهم اثناء التقاته بهم خلال صلاة المغرب
لأنه يكره في رمضان ان يتناول افطاره
دون ان يشاركه ضيوفه الطعام
فهو يدعوك ويدعو بعض زبائنه ممن يأتون من خارج المدينة
أو من ضواحيها ويضيف إلى ذلك بعض من يجدهم في المسجد
ممن لا عائلات لهم في المدينة
وهو في ذلك يتبع تقليدا موجودا لدى العائلات الموسرة
في المدينة ممن يقيمون الولائم الكبيرة للفقراء
ويأتون بها إلى المساجد إذا تعذر نقل الضيوف إلى البيت
وتمتد الجلسات مع ضيوف الحاج المهدي
إلى صلاة العشاء وأحيانا يعود بهم لحياء السهرة
بعد اتمام صلاة العشاء والتراويح في المسجد
لمشاركته في سحور مبكر
وخلال هذه الجلسات يأخذ الحاج المهدي غايته
في شرح افكاره عن معادن الناس وانواع الاقمشة التي ينتمون إليها معززا كلامه بقصص
وحكايات من معاملته معهم
أو رحلاته إلى مدن وبلاد أخرى عندما كان في مرحلة الشباب
اورثته فراسة في معرفة الناس
انك على ثقة من ان ثريا تريدك كما تريدها
ولكن ما باهمية انها تريد أو لا تريد
مادام الأمر أولا واخيرا بيد والدها
وأنت لا تستطيع ان تقاتحه في امور خطبتها بمفردك
فمثل هذه الشؤون لها اصول وقواعد لا بد من مراعاتها
فأنت تحتاج في حالة كهذه إلى ان ترسل له قريبا من اقاربك

يمائله في العمر يطلب لك يد ابنته
لكي لا تبدو أمامه مقطوعا من شجرة
ولكن من اين يمكن ان تأتي بهذا القريب
وأنت لا تعرف لك اقارب في المدينة غير شحاذ بائس
من صالحك ان تباعد عنه قدر ما تستطيع لكي لا يظهر
في حياتك ويفسد علاقة المصاهرة
التي تريد ان تبنيها مع واحد من وجهاء اسواق المدينة
هو الحاج المهدي النعال
لم يكن واردا ولا ممكنا بطبيعة الحال
ان تحضر امك وأباك من الاد الشيخ
بل لعل من الافضل الا يعرف اصهارك ان لك ابا واما
لأنك لا تستطيع حتى ان تأتي على ذكر العلاقة المرتبكة بينك وبينهما
بعد ان خرجت من القرية هاربا منهما
ومن والفضيحة التي سببتها لهما
بل حتى من قبل هذه الفضيحة لم تكن الامور
تمضي حسب النواميس الطبيعية التي تحكم الابن بابويه
ولأنهما مطلقان يعيش كل واحد منهما مستقلا بأسرته
التي سعى إلى تكوينها بعد الطلاق
كنت تنتقل بين البيتين فلا يراك زوج امك
الا ضيفا ثقيل ينتظر متى يغادر البيت
وتذهب إلى بيت ابيك فلا تراك زوجة ابيك
الا متطفلا على بيتها تسعى لطردك منه
ولهذا فقد آثرت قبل سنوات من مغادرة القرية
ان تعيش معتمدا على نفسك
اتخذت من بقايا البناء فوق البئر المهجور قاعدة لبناء كوخ
تختلي فيه بنفسك بين أشجار النخيل
وتعاونت مع رعيان القرية منذ كنت صغيرا
تسرح لهم بالجديان وتنام صحبتها
في الأودية والحفاف القريبة من القرية
فكبرت دون ان تكبر معك اية عاطفة نحوهما

انك لا تكرههما ولكنهما لم يقدما لك شيئا يساعدك على ان تحبهما
ولا تدري ما هو شعورهما الآن وأنت تغادر القرية
هاربا من الفضيحة فلعلهما يشعران بالارتياح لهذه المغادرة
باعتبار انك لن تستطيع ان تخرج احدا منهما أمام شريك حياته
إلا أنك لا تشعر باية رغبة في موقفهما من غيابك
فأنت مشغول عنهما بتدبير حياتك
تحت ظروف لا مجال فيها لأن تعتمد على احد
غير نفسك وجهدك كأنك في يوم الحشر حيث لا ينفع احد احدا
الا من جاء الله بوجه سليم
وإذا كان الله عليماً بالاسرار ، يعرف الحقيقة خلف الوجوه
فاي وجه ستقابل به اليوم والد ثريا وكيف يستطيع
ان يعطيك يد ابنته قبل ان يعرف من أنت وما أصلك وفصلك
ثم حتى لو عرف انك من منبت طيب
هل تراه حقا سيحيد عن الطريق الذي انتهجه سابقا
في تزويج بناته من اقرباء له في تاجوراء
وهل سيراك وأنت الصانع الصغير لديه
أهلا للزواج من ابنته
لعل الاحسن والاريح بالنسبة لك
أن تقتنع بأن ثريا ليست لك
وأنها مجرد طيف يراود أحلامك
وليس لك منها إلا متعة الحلم
وقبل أن تجد وقتا لتختبر حلمك وترى إذا كان حقا قابلا للتحقيق
أم سيبقى حلما معلقا في فضاء الوهم والخيال
داهم عساكر بالبو السوق يبحثون عن شباب
في سن التجنيد
لأخذهم عنوة إلى معسكرات التدريب
فالحملة العسكرية الإيطالية على بلاد الأحباش وشبكة الوقوع
وبالبو وعد رئيسه بالمساهمة في إمداد الحملة
بمحاربين من هذه المستعمرة الافريقية
يجيدون تسلق الجبال والتعامل مع الطرقات الجبلية الوعرة

لأنهم ينتمون لبيئة عامرة بمثل هذه الطرقات
والمسارب التي سبق أن كانت السبب في هزيمتهم أمام الأحباش
في حملات سابقة قام بها الجيش الإيطالي قبل وصول الفاشيين
إلى الحكم ، إلا أن الحال يختلف الآن ، فالشعب المعبأ بالعقيدة الفاشية لن يتراجع عن غزواته
التي قرر القيام بها، مهما كانت العراقيل والصعوبات
ودائرة النفوذ الإيطالي في القارة السمراء لابد أن تزداد اتساعا
لكي تعيد أمجاد الإمبراطورية الرومانية
هكذا كانت تقول الدعاية الإيطالية ، فالحملة على الجبهة لم تكن مفاجأة ،
ولكن المفاجأة هي الحملة على الأسواق والأحياء السكنية لتجنيد الناس
قبل أن تستطيع الهروب
سد الجنود أمامك باب الدكان
وأخذوك وأنت تحاول المقاومة والتملص من قبضتهم
فصاروا يجرونك جراً فوق الأرض
حتى أوصلوك إلى سيارة نقل عسكرية
تقف على رأس الشارع
ألقوك فيها مع شبان آخرين التقطوهم من السوق
وكانوا جميعاً يصيحون ويحتجون ويشتبكون في عراك مع الجنود يريدون الفرار لكن الشاحنة
التي يغطي جنباتها قماش شمعي سميك
ويقف على بابها جنديان مسلحان
لا تدع لهم فرصة الإفلات
تطلعت إلى وجوه هؤلاء الشباب بامل أن تجد أحداً تعرفه
وتستطيع أن تتدبر معه طريقة للهروب فيما بعد
إلا أنك وجدتهم جميعاً أغراباً بالنسبة لك
ورغم أنك سبق أن رأيت بعض الوجوه ممن يعمل أصحابها
صبياناً في دكاكين مجاورة
إلا أنه لم يحدث أي تعارف بينكم
أحسست باليأس والأسى وأنت ترى باب الأمل في الهروب مغلقا
والمصير المحزن الذي ينتظرك ولا تستطيع له دفعا
إلا أن اليأس تبدد فجأة
عندما لاحت فرصة للهروب بشكل عفوي ودون تدبير

فقد وصلت السيارة إلى باب المعسكر
ووقفت بانتظار أن يفتح الحارس البوابة الكبيرة
لحظتها انتهز عدد من الشباب الغاضبين الفرصة
ودفعوا بالحارسين اللذين يسدان مدخل الشاحنة إلى الأرض
وارتمى سلاحهما بعيدا عنهما
فزادته لبعادا ركلات هؤلاء الشباب
الذي قفزوا من الشاحنة وركضوا باتجاه
الغابة المحاذية للمعسكر
فلم تترك الفرصة تضيع منك
وقفزت خلفهم راكضا مثلهم باتجاه الغابة
انطلقت صفارات الجنود وانطلقت الاعيرة
النارية تنز فوق رؤوسكم وأنتم تركضون وسط الغابة
وتحتمون بجذوع أشجارها من من تدفق الرصاص
تدافعت السيارات العسكرية تجري وراء الهاربين
ولكنها لم تستطع ان تمضي في الغابة الا مسافة قليلة
ثم اعترضتها كثافة الغابة وتشابك أشجارها
وتراكم الاتربة والاحجار في بعض مناطقها
ومنعتهما من الاستمرار فهبط الجنود يطاردونكم على الاقدام
ويشهبون بنادقهم أمامهم يطلقون رصاصهم بكثافة وراكم
سمعت أزيز رصاصة تمرق بجوار اذنك
ورأيت زميلا هاربا يسقط أمامك مضرجا بدمه
فواصلت الهروب لأنه لاوقت ولا سبيل لأن ينقذ احد احدا
كل ما فعلته عندما وجدت انك في مرمى الرصاص
هو ان احتميت بجذع شجرة
ثم تسلقت الجذع إلى كثافة الورق باعلاها
تختبئ فيه محتما من أعين ورصاص الجنود
وكننت تستطيع من هذا المخبأ ان ترى الجنود
الذين امتلأ بهم هذا الجزء من الغابة
فقد لحق بالحراس جنود كثيرون من داخل المعسكر
كما كنت تستطيع ان تسمع دوي رصاصهم

وصراخ الهاربين الذين تم الإمساك بهم
فمضوا يجرّونهم باتجاه المعسكر ويُسعونهم ضربا وركلا
كما كان يصل إليك انين زميلك الجريح
دون ان تقدر على القيام بشيء لتخفيف آلامه
حتى جاء من بين الجنود الإيطاليين من قام بنقله خارج الغابة
وكنت خائفا ترتعش كهذه الاغصان التي تختبئ بينها
تدعو الله الا يرفع احد هؤلاء الجنود عينيه فيكتشفك
ثم بدأت الحركة تتناقص إلا أنها لم تنته كلية
فلا تزال اطلاقات رصاص متفرقة ومتباعدة
تدوي في الغابة ، كما كان ممكنا ان تسمع وقع اقدام جندي
يركض عائدا بعد أن انتهت المطاردة
يستعجل العودة إلى المعسكر قبل ان تستحكم حلقات الظلام
فقد بدأت العتمة تهيّط فوق الأشجار
وتضيف إلى غطاء الأوراق غطاء الظلام
يخفيك عن أعين هؤلاء الجنود العائدين
ثم انقطعت اصوات نعال الجنود
كما انقطع دوي اطلاقاتهم وضجيج نداءاتهم
ولم تبق الا أصوات الجنادب وأزيز الحشرات
ونقيق الضفادع في بعض برك الماء القريبة
فبقيت في مكانك زمنا
حتى تيقنت انك في مأمن من قبضات أولئك الجنود
وهبطت من الشجرة تتحسس بعض الخدوش
التي لم تكن تشعر بها وأنت تتسلق الشجرة اثناء شدة المطاردة
وركضت في منتصف الليل تقطع الغابة
باتجاه معاكس لاتجاه المعسكر
حتى خرجت قريبا من ضاحية قرقارش
وسرت متجنباً الطريق الرئيسي
عائداً إلى وسط المدينة ، حتى وصلت قبيل الفجر
إلى وكالة الشوشان
وهناك كانت تقف إحدى الشاحنات

محملة بصناديق الخضار والفاكهة واشولة الدقيق
تنتظر الانطلاق مع بداية النهار نحو أولاد الشيخ
فاتخذت لنفسك مخاباً بين اشولة الدقيق تستششق غبارها الابيض
عائداً إلى البلدة التي هربت منها
مختبئاً بين اشولة الفحم وهوائها الأسود
ولم ترفع جسمك من بين الاشولة
حتى غادرت الشاحنة بوابة المدينة
ودخلت الطريق الصحراوي المؤدي للجبل الغربي
ثم أولاد الشيخ
حمدت الله ان الهروب تم قبل ان يتم تسجيلك
ومعرفة اسمك وعنوانك أو إعطائك رقماً
واعتبارك جندياً في الجيش الإيطالي
لأن الفرار من الجيش يكون عندئذ جريمة تستدعي عقاباً قاسياً
كما انه لا سبيل الآن لأن يعرفوا من أنت أو اين تقيم
أو يجري عليك قانون الهاربين من الجيش
كان منظرك غريباً وأنت تذهب بهذه البذلة الافرنجية إلى القرية
لأنه لم يكن متيسراً لك ان تعود إلى الدكان
لتجلب منه متاعك وبذلك العربية
اذ لا احد من أبناء القرية يجرو على دخولها حاسر الرأس
مرتدياً مثل هذه البذلة التي يعتبرها الناس هنا
لباس الاجانب الكفرة، كما تفعل أنت الان
خاصة وانها بذلة مهترئة ممزقة من اثر المطاردة
والاختباء بين أغصان الشجرة
وفوق جسم مليء بالخدوش
التي لم ينح منها الوجه واليدين والذراعين
وبرغم انك التزمت الحذر والحيلة
لكي لا تلتقي بالحشد الكبير الذي يقف في
ساحة السوق لاستقبال اية سيارة قادمة
وطلبت من السائق ان ينزلك قبل دخول القرية
حيث هبطت صاعداً عبر منحدرات خلفية

تتفض بقايا الدقيق عن وجهك وشعرك وملابسك
متسللا إلى حيث بيت إبيك
إلا أن احد اطفال العائلة رآك فذهب يجري
بقميصه الابيض الطويل الذي نفخته الريح
وصار يخفق كشراع قارب تضربه العاصفة
مناديا اطفال العائلة الاخرين الذين جاءوا يزفونك إلى المنزل
هاتقين " جاء عثمان ، جاء عثمان"
ولكي لا تجعل فرحتهم برويتك تنتهي إلى شعور بالخيبة والحزن
عرجت على دكان بقالة واشتريت علبة من الحلوى وزعتها عليهم
ووصلت إلى بيت إبيك متوجسا من كيفية استقباله لك
فإذا به يقابلك غاضبا لاسباب أخرى
غير التي كنت تخشاه، انه غاضب
لأنك لم تبلغه بسفرك وهربت أمام تهمة باطلة وجهها إليك الفقير بركة
مع ان العيادة الطبية اثبتت سلامة الفتاة الزنجية عزيزة
وانه لم يحدث أي شيء يخل بالشرف بينك وبينها
وابلغك بانه حاول الاتصال بك في المدينة
وارسل الرسل إليك يخبرك بنتيجة الفحص
ويطلب عودتك إلا أنه لم يجد لك عنوانا
ويعاتبك لأنك منذ ان غادرت أولاد الشيخ لم تبعث باية رسالة
أو اشارة إلى عنوانك
فتعللت بانك انشغلت طوال المدة الماضية بالبحث عن عمل
وعندما وجدته وبدأت تشعر بالامان والاستقرار
جاء عساكر الطليان يريدون تجنيديك
فهربت منهم وركبت هذه الشاحنة التي أوصلتك لأولاد الشيخ
تبحث فيها عن مخبأ حتى تنتهي حملة التجنيد
عدت للاقامة في القرية التي كرهت الاقامة بها
في غرفة علوية صغيرة فوق سطح البيت
يتخذون نصفها مخزنا لحبوب القمح والشعير
التي تشكل مصدر الغذاء الأساسي للعائلة
ونصفها يتركونه لاقامتك

مستخدما الحد الأدنى من الاثاث
وهو حشية صوف ووسادة وبطانية
وثلاثة مسامير في الحائط لتعليق الملابس
كنت لا تغادر البيت إلا نادرا
فأولاد الشيخ ليست محصنة ضد حملات التجنيد
وإذا غادرته فلكي تعود امك التي كانت تشكو من نزلة برد
تقضي اغلب وقتك جالسا على مصطبة أمام الغرفة
مستمعا بشمس الشتاء تقرأ كتب الأوراد
وكتب الادعية والتسابيح واحبها إليك " دلائل الخيرات "
متقائلا بما فيه من ادعية الفرج وفك الازمات ورفع الخطوب والكربات
راجيا ان تجد الاستجابة والقبول من خالق الكون
بجوار ترتيل القرآن ومطالعة كتب الحديث
وحل عيد الاضحى فخرجت لصلاة العيد
مع أهل القرية في باحة الزاوية السنية
والتقيت هناك بعيد المولى الشحاذ
وقد عاد من طرابلس لمشاركة اسرته افراح العيد
مرتديا حلة قشبية لا يرتديها الا عليه القوم
الجريدي والزبون والفرملة والحذاء المزين بالنقوش
فاقبل عليك مرحبا وعيناه تمتلآن عرفانا بالجميل
لأنك لم تبح لاحد بالسر الذي عرفته
عندما رأيته يتسول أمام جامع ميزران
والح على ان تزوره في كوخه عندما تكون في طرابلس
ورغم انك لم تكن تحب ان تلتقي به هناك
فانك لم تجد بأسا بوعده بالزيارة نزولا على الحاحه
والتقيت بعد الصلاة بشيخ من شيوخ زاوية السني
الذي قال بان الشائعة التي ربطت اسمك بخطيئة الزنا
تأكد الان انها ليست صحيحة مما يجعل من عودتك
لتدريس القرآن لاطفال القرية في الزاوية امرا ممكنا
فأخبرته بان هذه مرحلة من عمرك تجاوزتها ولن تعود إليها
لأن لديك فرصا افضل في العمل بالعاصمة

التي تتحين الوقت المناسب للعودة إليها
مرت على وجودك في القرية ثلاثة اشهر
تتاقصت خلالها الحملات التي تهاجم الاسواق
والشوارع لتجنيد الشباب لحملة الحبشة
كما تقول الاخبار القادمة من طرابلس
وحل شهر ابريل وهو نفس الشهر الذي غادرت فيه القرية
منذ عام مضى فقررت ان تعتبر السفر في هذا الشهر فالأ طيباً
واستأذنت من امك وأباك هذه المرة
وطابت منهما الا ينسيك بالدعاء اثناء الصلاة
وغادرت القرية إلى طرابلس في احدى الشاحنات أيضاً
ولكن دون ان تخفي نفسك بين اشولة ذات غبار ابيض أو أسود
وانما في مقعد مريح بجوار السائق الذي مضى يندندن بمحفوظاته من الغناء الشعبي طوال
الطريق:

يا غزال القارة
نريد ننشدك عن زول سمح انظاره
لون مضحكة فضة
حزامه ذهب ودبلجه وسواره
حرير ملبسه
وخضاب حنه مشعشعات انواره
نجمات يلمعن
في جبهته وصوبعه ، دايرين فيه اماره
ربيع خاطري وغزالي
وأجمل عبير يفوح بين ازهاره
هايم مثلك في براري الحب ،
وراهو مثلك شاردات افكاره
نريد ننشدك، غير قول تريح
يا غزال القاره
وين سافر المحبوب وين دياره
هللي ذبحني برقيق اشفاره
هللي سحرني بشديد اسحاره

هल्ली شعل في القلب نوره وناره

غير قول بالله

يا غزال القاره

ما أن وصلت الشاحنة إلى وكالة الشوشان

حتى ركضت مسرعا إلى دكان الحاج المهدي النعل

الذي استقبلك معانقا لاعنا الطليان

الذين نشروا حالة فزع في البلاد

اهانوا أهلها وافرغوها من شبابها

قائلا لك بأنه جاء بصانع آخر يحل محلّك في الدكان فأخذه

هو الآخر للتجنيد في إحدى الحملات رغم قدمه العرجاء

ويسألك عن حالك في الجيش وحال التدريب معك

فابلغته بانك لم تدخل الجيش وأنت هربت منذ اليوم الأول

مختبئاً في بيت أهلّك بقرية أولاد الشيخ

ولم تخرج حتى زال الخطر

وها قد جئت الآن لتستأنف العمل في الدكان كسابق عهدك

رأيت الرجل يمد رأسه وعنقه خارج الدكان

و يلتفت مرعوباً شمالاً ويمينا

يتطلع في الرائح والغادي قائلاً لك بأنه يخاف انتقام الطليان

إن هو أعادك للعمل في الدكان

لأن من يهرب من الجيش يدخرون له عقاباً عظيماً

ويلحق العقاب كذلك بمن قام باخفائه وتستر عليه

فلم يبلغ عنه الحكومة

يعتذر بأنه رجل في شتاء العمر لن يقوى على مناكفة الطليان

أو يقدر على تحمل عنفهم وقسوتهم إذا اقتادوه

وهو في هذه السن إلى السجن

ويطلب إليك أن تعفيه من هذه المخاطرة

شرحت للحاج المهدي أن خوفه في غير محله

لأن امرّك يختلف عن امرّ الجندي الهارب

فأنت لا تحمل رقماً ولم يدخل اسمك أي سجل من سجلاتهم

وبالتالي فهم لا يعتبرونك جنديا هاربا
وليس هناك في قانونهم شيء
لكن الحاج يبتسم ساخرا من كلامك
فالطليان في عرفه لا قانون لهم
وهم مثل الجن والمردة ، لاشيء يستطيع ان يخفي
عنهم شيئا ، ويعرفون بالتأكيد انك هارب وملاحق
ويذكرونك عندما اخذوك من هذا الدكان
وإذا لم يذكروك فما أكثر العيون التي ترصد لهم
ما غفلوا عن رصده وتسجيله
ويضيف قائلا بان حملة الطليان لتجنيد الشباب
مازالت مستمرة ومازالوا يواصلون مداهماتهم
للبيوت والدكاكين والاسواق الشعبية
وقد جاءوا إلى كوشة الصفار أكثر من مرة خلال الأيام الماضية
واقفادوا شبابا كثيرين من بيوتهم ومحلاتهم
من بينهم قريبه فتحي ، الذي كان معاونا له في الدكان قبلك
وأصبح له دكانه الخاص ، ومع ذلك اقفلوا له الدكان
واقفادوه آلي المعسكر رغم انه رجل حديث الزواج
لم يمض على زواجه غير أسبوع واحد
ولم تكن زوجته غير ابنته ثريا
التي رجعت الان لتقيم في بيت ابوها
ومازالت حناء العرس تخضب أصابعها
ومضى الحاج المهدي يقول كلاما آخر
وينصحك بالعودة إلى القرية والاختباء هناك لفترة أخرى
فالحملة لن تهدأ قبل مضي عدة اشهر
لكنك لم تكن تنصت إليه أو تستوعب ما يقول
لأن ذهنك وقلبك وجميع حواسك
توقفت عند النقاط كلمة "ثريا"
" الزوجة ثريا " "العروس ثريا"
ها قد ضاعت منك ثريا إلى الابد
صرخت بصوت احتبس داخل حلقك لماذا؟

ولكن من اين للرجل ان يعرف انك تريدها زوجة لك ؟
وأنت لم تقاطحه اطلاقا في هذا الموضوع
وثرىا نفسها ، هل كان بإمكانها ان تفعل شيئا ؟
أو تتقل لوالدها فكرة عن نواياك بشأنها ؟
وهل عرفت منك شيئا واضحا حول تفكيرك
في مصير واحد يجمعكما؟
ثم كيف تريدها ان تنتظر رجلا ذهب ليشارك الطليان
في حروبهم مع الأقباش ولا احد يعرف مصيره الا الله
لعلها لو عرفت على وجه اليقين انك ستتقدم لخطبتها
وانك لم تلتحق بالجيش لتمنعت وماطلت
وسعت لتأجيل الموضوع بعض الوقت
لعلها حقا فعلت ذلك ، فأنت لست واثقا من شيء
كل ما تعرفه الان انك ضائع ضائع ضائع
لاعمل ولا مأوى ولا ثريا
حياتك ذاتها لم يعد لها معنى
تقف الان عاريا من كل غطاء
بلا امس ولا حاضر ولا غد
لا يهم بعد الان ان تبقى أو تذهب ، تحيا أو تموت
استوى لديك الحق والباطل والشك واليقين والامل واليأس
كل شيء صرت تراه نوعا من العبث
عاريا من المعنى ، باطلا وقبض ربح
وبخطى سريعة تركت الحاج المهدى واقفا يتكلم
وغادرت دكانه متجها إلى معسكر الطليان في بومليانه
قادك احد جنود الحراسة إلى الضابط المناوب
فابلغته بانك جئت بغرض الانضمام إلى جيش الحملة
اخفى اندهاشه من هذا الفتى الاحمق
الذي دخل بوابة الجحيم بقدميه
تحت ابتسامة عريضة باهتة زائفة
فلا بد انك أول شاب ليبي يراه يدخل هذا الجيش طواعية
قادك بنفسه إلى طابور المستجدين

وأوصى بك المشرفين خيرا
لأنك تختلف عن الآخرين الذين جاءوا يجرونهم بالسلاسل
ويضربونهم بالعصي ولذلك فإن الواجب يقتضي
ان تلقى معاملة خاصة هكذا قال لهم
وهكذا رآك الإيطاليون كما رآك المجندون الليبيون
رأوك شيئا مختلفا له خصوصيته
فكيف يأتي الإنسان بقدميه لملافة المهانة والعذاب
هذا هو العجب بعينه كما رأيته منعكساً في نظرات المجندين
بل وسمعت بعضهم يتهايمسون به ، مستغربين لهذا الذي يأتي
راضيا طائعا إلى جحر الافاعي
ويلقي بنفسه آلي التهلكة بمحض ارادته
لقد حدث في السنوات التي اعقبت انتهاء المقاومة
ان تقدم بعض الناس للعمل العسكري الإيطالي عسسا وحراسا
ولكن بعد ان بدأ التجنيد لغرض الحملة على بر الأحباش
امتنع الجميع عن دخول السلك العسكري الإيطالي
لأنه لا يمكن لعربي مسلم ان يذهب طواعية
ليموت في حروب الطليان التي يشنونها على شعب افريقي بريء
نصفه من المسلمين
بالنسبة لك فقد كان المجيء إليهم بديلا عن الانتحار
إنه انتحار من نوع آخر
لأنك ستكون منتحرا وناحرا للآخرين
قاتلا وقتيلا في آن
هكذا كانت البداية التي كنت علي يقين
من انها ستقضي بك إلى غابات القتل وأودية الموت والهلاك
لم تكن تعرف غير النذر اليسير عن لغة هؤلاء الإيطاليين
الذين عشت تحت حكمهم طيلة سني عمرك
التي بلغت ستة وعشرين عاما دون ان تقترب منهم كثيرا
فعلت ما أملاه عليك أهلك وما يفعله عادة أبناء قريتك
وهو ورفض التشبه بهم في طعامهم ولباسهم
وتجنب الاختلاط بهم ما امكن ذلك

والامتناع عن الذهاب إلى مدارسهم
التي لا وجود لمدارس غيرها عدا الكتاتيب
وقد ذهبت عاما واحدا للمدرسة الإيطالية
تم اخراجك منها والدك بعد ان افتى احد فقهاء القرية
بتحريم ارسال الاطفال إليها
لأنها تعمل على اخراجهم من دينهم الاسلامي وادخالهم في دين النصارى كما خرج منها
اطفال آخرون لم يرض لهم أهلهم بهذا الحرام
وصرت تتردد على بيت ذلك الفقيه
الذي خصص غرفة في منزله لتدريس القرآن للاطفال مقابل
ما يتلقاه من بيض وتمر وتين مجفف
لأنه لا يجوز ان يأخذ مقابلًا نقديا عن تدريسه للقرآن
لم تعرف الا في وقت متأخر
ان المدارس الإيطالية لم تكن تسعى لاجراج احد من دينه
أو ادخاله في دين جديد وان الفتوى التي قدمها ذلك الفقيه
رحمة الله عليه ، باعتباره يحتاج لمثل هذه الرحمة بعد ان ذهب للقاء ربه
محملا باثم حرمان اطفال القرية من التعليم الحديث
لم يكن دافعه إليها غير التقاط طعامه من هؤلاء الاطفال
في أمانة عز فيها وجود الطعام
كنت نغمرطافيتك وترتدي قميصك الابيض الطويل وسراويلك العربية
ولا ترى شيئا من الطليان الاعلمهم الثلاثي الالوان
معلقا فوق سارية المبنى الذي يتخذة الحاكم مقرا له
تقدم لهذا العمل التحية عندما تسمع نداء البوق
ولا تلتقط من كلامهم الا ما صرت وأنت فتى يافع
تستعين به على قضاء مصالحك في مراكزهم
وبواباتهم ومكاتبهم ومع دورياتهم
محاولا استذكار ما تعلمته في تلك السنة اليتيمة
التي قضيتها وأنت في السادسة من عمرك في مدرستهم
الأمر يختلف الان بعد ان صرت جنديا إيطاليا
يدين بالولاء لمليكهم ويرهن عمره لهم
فأنت مطالب بان تتقن هذه اللغة كواحد من أهلها

إذا اردت ان تضمن لنفسك أي مستوى من النجاح
في العمل والحياة
اعطوك بطانيتك وملابسك العسكرية وزمزية الماء الخاصة بك
وخرج صغير من قماش شمعي
فيه بعض المعدات والادوات التي تحتاجها
عند الذهاب في مناورات أو مهمات خارج المعسكر
مثل الصحن والملعقة والمصباح اليدوي وغيرها
وطلبوا منك ان تتحضر اثناء الليل وسط عدد من المستجدين
في عنبر مستطيل الشكل اشبه بالرواق
يطلق عليه المجندون قبر سيدنا نوح
باعتباره كان عملاقا كما تقول كتب التراث
حيث يتكدس في هذا القبر الاسطوري مئة وخمسون مجندا
لا حماية لك من برد البلاط الاحشية بالية
ارتعشت اطرافك رعبا وأنت ترى جدران العنبر ملطخة بالدماء
ثم ارتحت قليلا عندما سألت فعرفت من زملاء العنبر
انها دماء البق الذي يسحقونه بأصابعهم على الجدار
وسرعان ما غادرك هذا الاحساس الضيئل بالراحة
عندما وجدت نفسك وفي أول ليلة تقضيها في المعسكر
فريسة لاسراب لا حصر لها من البق
مهما اعملت فيها قتلا وسحقا فهي لا تنتهي ولا تنتاقص
كنت تسأل نفسك من اين يأتي كل هذا البق
وقبل ان تعثر على الاجابة وجدت نفسك تواجه جيشا آخر
يستخدم تقنيات أكثر تقدما في التمويه والاختفاء
هو جيش القمل الذي اتخذ شعر رأسك مستوطنة له
منذ ليلتك الأولى في المعسكر
وعرفت عنئذ السر في ان المجندين يحلقون شعر رؤوسهم
حلاقة كاملة لقطع الفرصة على احتكاره من قبل جيش القمل
وتبدي في اليوم التالي انزعاجك واستغرابك
لمن سبقوك إلى حياة لمعسكر
وكيف استطاعوا التعايش مع هذه الحشرات

فيقولون لك ساخرين بانه جزء من التدريب
على مواجهة جيش الاعداء
فهذا البق وهذا القمل وهذه البراغيث لا تقل سطوة
وجبروتا عن اعلى الجيوش
فعمدت أنت أيضاً إلى شعر رأسك تحلقه حلقة كاملة
إلا أن القمل تسرب إلى ملابسك
وصار ينام في كل طية من طياتها
ولم تستغرب ان تجد ان البوق الذي يوقظ المجندين من النوم
يوقظهم ساعة قبل موعد الايقاظ الرسمي
يقضونها في حك وهرش جلودهم
ورأيت الشاويش عنتر المشرف على العنابر يمر على المجندين
يضربهم بعصاه ويوقظهم من نومهم قائلاً :
— هيا قوموا حكوا جلودكم
في الليلة الرابعة أو الخامسة رأيت بين المجندين
النائمين بجوارك من جاء زاحفا في الظلام
ليلتصق بك التصاقاً شديداً
ادركت غرضه فقامت من مرقدك صارخا غاضبا
وأنت ترى نفسك هدفا لعملية اغتصاب جنسي صريحة
اضأت النور وأخذت بخناق الرجل الذي صار يدفعك عنه
محاوفا ان يعود للاختباء تحت البطانية
وأنت تصر على اخراجه من تحتها
ليرى كل من في العنبر بشاعة ما كان يريد ان يفعله بك
رأيتهم جميعا يبدسون رؤوسهم في وسائلهم
ويهمهمون بكلمات احتجاج وتدمير طالين منك
أن تطفىء النور وتعود إلى النوم
أدركت أنك اخترقت قانون التواطؤ الذي يتعامل به أهل هذا العنبر
فليس من حق احد ان يفصح أحدا
يمكنك أن ترفض أن يتحرش بك أحد
ولكن بصمت ودون ضجيج
ولم يكن غريبا أن تصل أخبار هذه الضجة

إلى أسمع الشاويش عنتر الذي جاء ومعه اثنان من مرافقيه
يسألون عن سبب الضجيج وعندما عرف الشاويش ان عراكا
نشب بين اثنين من المتدربين أحدهما أنت
امر بان تقفا وظهريكما إلى الحائط ليجلدكما بالسوط
خمس جلدات على الظهر وهذه هي ادنى عقوبة
في سلم العقوبات التي ينفذها الشاويش عنتر واعوانه
ودون سؤال عن كان الظالم أو المظلوم
عافت نفسك البقاء في هذا العنبر الذي لم يخطيء من اسماء قبرا
فهو قبر مكتمل الشروط والأوصاف بما في ذلك ناكر ونكير
وزبانية الجحيم متمثلين في الشاويش عنتر وجلوزته
بل عافت نفسك البقاء في المعسكر كله
ومرافقة من فيه من عرب وإيطاليين
مدربين ومتدربين فكلهم اسوأ من بعض
يلعبون مباراة يومية فيمن هو أكثر ندالة وقبحا
وبالتالي صرت كارها للخدمة العسكرية كلها التي جئتها بارادتك
لعت لحظة الضعف التي دفعتك للالتحاق بهذا المكان
والمرعب حقا ان مسالك الخروج مقفلة
فلا خلاص ولا منفذ للهروب
ومغادرة المعسكر ممنوعة ولو لساعة واحدة
قبل الانتهاء من التدريب الأساسي
الزيارات أيضا ممنوعة في هذه المرحلة من التدريب
معزولون في ضواحي المدينة
على حافة الغابة المحاذية لبئر بومليانة
— صبب العسل يا بئر بوماليانه
هكذا تقول الاغنية الشعبية التي لم تكن تدري
ان حرم هذا البئر سيكون موقعا لمعسكر يتجرع قاطنوه
عُصاره الحنظل بدلا من عسل النحل
كنت تزدداد مع كل يوم يمر غيظا وقرفا وكراهية
تحول الغيظ بداخلك إلى كرة صارت تتنفخ
وتواصل تضخمها وانتفاخها حتى انفجرت في وجه عريف إيطالي

يتولى الاشراف على قاعة الطعام
اكتشفت جزءا من جسم خنفسة في حساء الفاصوليا
الذي يداومون على تقديمه لكم كل يوم
لم تشأ ان تشكو لأحد من المشرفين العرب باعتبارهم يؤساء مثلك
لا يملكون شيئا يفعلونه وقررت ان تفتح المعركة
مع مندوب القيادة الإيطالية في هذه القاعة
وقفت تحمل صحنك وذهبت إليه وهو يقف في سقيفة المطعم
يرشق يديه في خصره ويضع رأسه في السقف
كانه يملك تقويضا الهيا بادرة الكون نيابة عن خالقه
كنت تعرف انه سيؤثبك إذا تماديت في الاحتجاج ولكن ما الذي تخشاه ؟ فأقصى ما سيفعلونه
معك هو وضعك في الحبس الانفرادي
ليوم أو يومين ستعتبرهما راحة من التدريب
ولذلك تقدمت نحوه بخطوات ثابتة
تسأله ان يرى بنفسه بقايا الخنفسة الكبيرة السوداء
التي انفلقت إلى نصفين نصفها بقي في صحنك
ونصفها الثاني ذهب إلى صحن زميل آخر وربما ذهب إلى معدته
فسألك ان تعود إلى مكانك لكي لا يحدث ما يثير الفوضى
في المطعم ، فقد اخذ علما بالموضوع
وسيصدر تعليماته بضرورة ان يتحرى الطباخون النظافة
ولكنك اظهرا للفرق والاشمئزاز
الذي لم يكن سببه الوحيد الخنفسة المطهورة في قدر الفاصوليا
فدقت بمحتويات الصحن أمام المطعم
باعتباره طعاما لا يليق بالبشر ومرحبا بالسجن الانفرادي
بعد هذا التنقيص عما كان مكبوتا داخل صدرك
وكأن العريف كان يعرف هدفك من هذه المبالغة
في التعبير عن احتجاجك ، فلم يأمر بسجنك
وانما امر بان يصنعوا لك طعاما بديلا لحساء الفاصوليا
حساء مصنوعا من الخنافس فقط
ليكون وجبتك ذلك المساء
ولا تدري كيف استطاعوا جمع كل هذا العدد من الخنافس الكبيرة السوداء

في وقت قصير لا يزيد على نصف ساعة
صنعوا منه طبقاً جاءوا به إليك
ووقف ذات العريف يحمل في يده سوطاً
ويأمرك ان تشرب الحساء وتأكل محتويات الطبق
لم تسطع حتى وهويأمر اثنين من جنوده الامساك بك
ليستطيع ان يهوي بسوطه على ظهرك
وعندما رفضت ان تأكل امر الاثنين باحكام وثاقك
وان يغرفا الخنافس من الصحن ويضعها في فمك
اغمى عليك وعندما استأنفت حياتك في اليوم التالي
بقيت لأكثر من يومين وأنت تتقيأ دون ان تجرؤ
على ابتلاع لقمة طعام واحدة
وكان الأمر مؤلماً لأن معدتك كانت فارغة اثناء هذا القبي
فكنت تشعر بانك تتقيأ امعاءك
ومتألماً تظل ضاغطاً بيدك على موضع الالم في معدتك طوال النهار ادركت وأنت تعاني آثار
موقفك الغاضب
ان عليك ان تكتسب طبيعة أخرى للتعامل مع هذا العالم
الذي دخلته فجأة دون تمهيد ولا ترتيب
ولا معرفة كاملة بطوقسه ونواميسه
انك لا تستطيع ان تكون معه وضده في نفس الوقت
لأنك عندئذ لن تجد سوى الالم الممزوج بالمهانة دائماً
ليس هناك حل وسط
اما أن تبقى بعيداً عن هذا المعسكر كما فعلت في المرة الأولى
عندما جازفت بالهروب تحت وابل الرصاص عائداً إلى الارياض
محتمياً بجدران بيت ذوبك الذي يبعد مئات الاميال
عن اسوار هذا المعسكر وامان تكون بداخله
وتندمج اندماجاً كاملاً فيه تمنحه عقلك كله وقلبك كله
وتقدم واجب الطاعة والولاء لقواعده ونواميسه
وتعرف من هو السيد في هذا المكان فتقوم بخدمته ونيل رضاه
وتعرف ماهو المسكوت عنه فتدير وجهك إلى الناحية الأخرى
حين تراه وتعرف ماهو مطلوب منك فتقوم بأدائه

يحب وحماس شديدين
هذه هي اصول اللعبة في عالم غريب عنك
لا تملك فيه قريبا ولا حبيباً
وما أكثر ما احتجت ان تدفع عن نفسك الظلم وأنت تعيش في قريتك
منتقلاً بين بيت ابيك وبيت امك فكيف بك الان وأنت تعيش
بين جدران معسكر إيطالي عليك ان تتآلف معه
وتعرف نواميسه وتدخل في لعبته
وتدرك جيداً انه لا حماية لك من ظلمه وجوره
الا بما تقدمه من طاعة واستسلام
وإلا أنكسر ظهرك كالعود اليايس الذي يستعصى على النشي
وليكن مثلك الاعلى مواطنك الشاويش عنتر
الذي نسي كيف ينطق اسمه نطقاً عربياً صحيحاً
لأنه منذ ان التحق بالعمل مع الإيطاليين
صار ينطقه كما ينطقونه هم " سيرجيتي انتار"
وهذا ما يفعله باسماء الآخرين كما حدث معك أنت
وهو ينايدك في حضور رئيسه الإيطالي قائلاً " اوسمان"
يجلد أبناء جلدته بأكثر قسوة وشدة مما يفعل أي إيطالي
ويغلظ لهم القول كانهم اعداء شخصيون له
لا يكتفي بالخدمة اثناء ساعات الدوام
وانما يسرق وقتاً من ساعات نومه وراحته
يضيفه إلى وقت العمل فتراه موجوداً جاهزاً
في كامل قيافته العسكرية في اية حالة طارئة
اناء الليل واطراف النهار قبل وبعد واثناء ساعات الدوام
وإذا حدث ان اضطرب النظام قليلاً في أحد العنابر
اثناء الليل فلا أحد يأتي لمعالجة الاختلال
واعادة النظام إلى سياقه الصحيح
غير الشاويش عنتر الذي ينبثق فجأة من لا مكان
يطرق سوطه في الفضاء ويرطن بالإيطالية
هادراً مزمجراً كأنه قد تلبس روح الدوتشي نفسه
ورغم سمرته التي تنبئ بمنبته البدوي

فان عضوا في وجهه صار يكتسب لونا إيطاليا هو انفه
الذي تحولت سمرته إلى لون أحمر كلون بشرة الإيطاليين
وبذلك صار انفه هو الجزء الوحيد الذي استجاب
لرغبته القوية في ان يتحول عن فيزيقته
العربية البدوية الافريقية إلى أخرى ذات ارومة إيطالية
أنت تكره الشاويش عنتر وشخصيته الذائبة في شخصية الغزاة
ولكنك لا تملك غير الاعجاب بما حققه من سطوة
وما يتمتع به داخل المعسكر من نفوذ وسلطان على رقاب
هؤلاء البشر الذين لا يجيدون شيئا غير حك جلودهم
بحكونها دائما بأيديهم باظافرهم وأحيانا يستخدمون العصي
لحك تلك المنطقة من ظهورهم التي لا تصلها الأظفار
ومرة كل أسبوع ترى الشاويش عنتر قادما إلى العنبر
يحمل معه مادة مطهرة لها رائحة الغاز
يرش بها المجندين وهم في مراقدهم
بعد ان يسألهم ان يغمضوا أعينهم
ويغرق اجسادهم وملابسهم وبطاطينهم والجدران التي حولهم
بهذه المادة الكريهة ومع ذلك فان القمل والبق والبراغيث لا تموت
وحصة الهرش لابد ان تقام في موعدها كل صباح
رغم انف صانعي هذه المبيدات الحشرية
كان العناء الذي تلقاه في المعسكر كفيلا
بان ينسبك أي هم آخر
بما في ذلك الهم الكبير الذي استوطن نفسك
منذ ان خطفوا منك الغالية ثريا
فما عدت تذكرها الا في لحظات الهدنة القليلة
التي تتركها لك تدريبات اللياقة العسكرية
وحصص التمرين على استخدام السلاح
وهي تمارين وتدريبات غالبا ما تنتهي بساعة تذنيب
تقضيها واقفا تحت الشمس على قدم واحدة
ورافعا يديك إلى اعلى كالمصلوب بلا صليب حتى تحس بان جسمك
يتقكك عضوا عضوا أو تقضي هذه الساعة زاحفا فوق الأرض

حتى تتسلخ ركبتيك دون ان يتبرع أحد بمرهم تعالج به جراحك
فتضيف هذه الجراح إلى ازعاج البق والقمل ليلا
ازعاج الذباب الذي يصنع من بدنك
مستوطنة يلجأ إليها أثناء النهار
تعذيب هو وليس تدريبا كما يسمونه
آلي حد صرت تشك معه فيما إذا كان الهدف
هو حقا التأهيل العسكري ام انتقام تقوم به المؤسسة العسكرية
الإيطالية من الضربات القاسية التي تلقتها على ايدي المجاهدين
باذلال واهانة وتعذيب من وقع في ايديهم من الليبيين
نسيت أهلك أياما وعندما تذكرتهم وكتبت لهم خطابا اسرعت بتمزيقه
فقد ادركت انه سيمر على جهاز الرقابة العسكرية
وخشيت العقاب الذي يلحقونه بك إذا قرأوا الشتائم
التي وجهتها لهم في الخطاب
وعرفت انهم يمنحون المجند بضع فرنكات كراتب شهري
لا يصرف الا بعد انتهاء الأشهر الثلاثة الأولى
من مرحلة التدريب فانتظرت اكتمال هذه المدة
وأودعت ما قبضته في جواب ارسلته لوالدك
لا يحتوي سوى على أسطر قليلة تبلغه فيها
بان يعطي نصف المبلغ لأموك
وتعلمه بانك موجود في المعسكر الإيطالي بمنطقة بو مليانة
وما أن عرف جنود المعسكر انك تجيد القراءة والكتابة
حتى باتت لحظات الراحة نهارا مخصصة كل يوم
لكتابة رسائل المجندين إلى أهاليهم
اعفاك الخطاب الذي كتبته لأهلك من الانشغال بهم
ولكن ماذا تستطيع ان تفعل لتعفي نفسك من عناء التفكير في ثريا
عينا تحاول ان تتنزع صورتها من خيالك
وتقول لنفسك ان امرها قد انتهى بالنسبة لك
مادامت على ذمة رجل آخر
فامرها لا ينتهي اطلاقا بالنسبة لك
باعتبارها المرأة الوحيدة التي تفتح لها قلبك

كما تتفتح زهرة عباد الشمس لاشعة الشمس
وليس في حياتك امرأة سواها أو طيف انثوي آخر
يمكنك ان تتاجيه في لحظات الوحدة والارق غير طيفها
فكيف تستطيع ان تسلوها؟
بل أنت في حقيقة الأمر تحتاج إليها
تحتاج إلى وجه مثل وجهها يومض كالنجمة في عتمة
هذه الإقامة العسكرية ووسط أجوائها التي تشبه نفقا لا نهاية له
لو لم تكن ثريا موجودة في حياتك
فلاشك ان هذا النوع من الحياة الذي يشبه حياة السجن
يقتضي ان تخرع وجها بهيا مثل وجهها
يونس وحدتك وتفكر فيه و تتحرق شوقا للقاءه
وتذهب إلى هذا الطيف بصيوئك في عنفها وتأججها
تخاطبه وتعاشره وتعيش معه في أحلام النوم واليقظة
انك لن تنسى ثريا ، لن تنساها أبدا
وأنت في اسر هذه الحياة العسكرية
لأن ذكرها ضرورة لعافيتك البدنية والنفسية
انك وان وطنت نفسك على استحالة لقاؤها في هذه الدنيا
فأنت علي يقين بانك ستلقاها وستحقق أمنية القلب بوصالها
في حياة افضل من هذه الحياة ودار أخرى هي دار البقاء والخلود
هكذا يقول كتاب "شمس العارفين في الاحاطة باسرار العاشقين"
لأن الارواح التي اجتمعت على الحب الصافي في الدنيا
وتعذر عليها ان تحظى بنعمة الوصال
لا بد ان تلتقي في النعيم الابدي
هكذا يقول الاسياد العارفون باسرار الوجود من أهل الله
اذ ماهو النعيم ان لم يكن تحقيق الاماني والأحلام التي عجز
الإنسان عن تحقيقها في دار الفناء
وها قد اخترت اقصر طريق يقود إلى تلك الدار
وذلك النعيم باختيارك الانضمام
إلى جيش الحملة الإيطالية على الحبشة
مدركا ان احتمالات الموت في هذه الحرب

أكثر الف مرة من احتمالات النجاة
ولذلك فأنت لم تكذب على نفسك عندما اعتبرت
انضمامك إلى هذا الجيش نوعا من الانتحار
ترتفع صيحات البوق تأمر بالنوم
ويستجيب النوم سريعا كأنه هو الآخر
صار مجندا يطيع أوامر البوق بعد ان كان سلطانا خارج السور
ويشعشع الفجر فترتفع صيحات البوق مرة أخرى
تأمر بالاستيقاظ وسيمر النهار حافلا بعذاب التدريب
الذي يعقبه عذاب التذويب
قبل ان تأتي صيحات البوق ثانية تأمر بالنوم من جديد
روتين يومي مجتر مكرور لا فسحة فيه ولا راحة
غير هدنة صغيرة في نهاية النهار تتيح لك
برغم مدتها القصيرة فرصة ان تعيش قليلا مع نفسك
فتجوس عبر هذا الجزء من الغابة الذي يقع داخل اسوار المعسكر
متأملا أشجار الصنوبر مستمتعا بشذاها الزكي
متحسسا بنوع من المرح جذوعها الناعمة ذات الطابع الأنثوي
مستذكرا بعض مقاطع الدعاء
التي تطيب لها نفسك وتزرع السكينة في قلبك مثل:
اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم
ربنا رب كل شيء ، فالق الحب والنوى
ومنزل التوراة والانجيل والفرقان
اعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته
اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء
وأنت الآخر فليس بعدك شيء
وأنت الظاهر فليس فوقك شيء
وأنت الباطن فليس دونك شيء
اسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي نحوك
وفوضت امري رغبة ورهبة لارادتك
فلا ملجأ منك الا لك
اللهم اني أعوذ بك من يوم سوء ومن ليلة سوء ومن ساعة سوء

ومن صاحب سوء ومن جار سوء
اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت إذا الجلال والإكرام

لم تكن تستطيع ان تنسى خلال الأشهر
التي امضيته في المعسكر
ان هناك سورا يفصلك عن الدنيا
وان فوق السور ابراج مراقبة ومناظير مكبرة
ترقب وترصد كل حركة وهناك بنادق جاهزة
لاطلاق نيرانها على كل من يقترب من السور
ورغم ما تقرأه من أورايد وايات فالهواجس تطاردك
لأنك تعرف انهم هنا يهيئونكم لنوع من الموت ليس كبقية الميئات
انه موت عار من كل شرف أو كرامة فوق أرض غريبة
تحاربون بشرا ابرياء تحت راية يلعنهم أهلهم كل يوم
بسبب ما ارتكب باسمها من مجازر ومذابح في حقهم
وهو امر يعرفه ويشعر به كل إنسان ليبي يضمه هذا المعسكر
مهما اظهر من حماس لعمله أو ولاء لاسياده الطليان
ولذلك فان الشعور بالرعب الممزوج باحتقار الذات
هو ما يجمع كل هؤلاء المجندين
ورغم انهم يختلفون عنك في انهم جاعوا مرغمين
لاداء هذه المهمة القبيحة المهينة
فحقيقة انكم قطع بساق إلى حقول الموت تذيب مثل هذا الفارق
انك بالتأكيد لست أكثر منهم شجاعة أو اقل منهم خوفا
لمجرد انك اخترت هذا المصير بنفسك
فأنت شريكهم في الاحساس بالرعب
وهو احساس لا يفارقك حتى وأنت تنظر إلى السماء
فترى نتف السحب المعلقة في الفضاء
وكأنها الاف المشانق منصوبة في سقف الكون
تنتظر عنقك وأعناق هؤلاء الليبيين الذين معك
كنت تفخر دائما أن اثنين من اعمامك استشهدا في يوم واحد
وهما يقاومان الطليان

كان ذلك عندما هب كل الناس لمواجهة الغزو الإيطالي
في أيامه الأولى في مناطق الهاني والشط بمنشبة طرابلس
اخوة ثلاثة انتقلوا من قريتهم مع الجموع التي زحفت
من مناطق الجنوب إلى الساحل
تلبية لنداء الجهاد لرد الهجمة الإيطالية
ولم يعد من هولاء الاخوة الثلاثة سوى والدك
الذي كان اصغرهم سنا واسندت إليه مهمات في الخطوط الخلفية
انجته من موت اختطف ارواح الاخرين
"التريس ماتوا يوم الهاني "
هكذا يصف المثل الشعبي ذلك اليوم الذي انطلق فيه أهل الشهامة
يهيئون دهمهم للوطن ، حتى نصبت منهم الأرض
وما أن وصلت سن الادراك حتى كانت حرب التحرير قد انتهت
وانكسرت شوكة المقاومة واعلن الجنرال بادوليو
الحاكم الإيطالي لليبيا ان كل مناطق البلاد
تم اخضاعها للسيطرة الإيطالية وحل فيها السلام
ولكن أي سلام هذا الذي يقوم بين شعب من الرهائن والسجناء
وبين جند الاحتلال
وكان لابد لكل مواطن ليبي ان يبحث عن لقمة عيشه
اجيرا في المزارع التي انشأها الإيطاليون
فوق اراض انتزعوها قسراً من أهلها البدو
الذين يستخدمونها للرعي
فلا عمل ولا مورد رزق بقي لابن البلاد
الا ذلك الذي وجود به المستوطنون الإيطاليون
وهم غالبا لا يجودون عليه الا باحقر الاعمال
مثل العمل كناسا أو عتالا أو حارسا ليليا
وإذا اعيتته الحيلة ارغم نفسه على العمل شرطيا أو جنديا في الجيش
مادام احتمال ان يواجه أحد من أهله على أرض المعركة قد انتهى
لقد بدأ الاستعداد للحملة الإيطالية على الحبشة
ورغم ان هذا الحملة لم تبدأ إلا أن حشد القوات

ونقلها إلى المناطق الخاضعة للاحتلال الإيطالي
مثل اريتريا والصومال التي تتأخم الحيشة قائم على قدم وساق
والاخبار تتواتر عن قرب الاجتياح
وهناك قواد كبار سبق ان قادوا الحرب في ليبيا
مثل جرساني ودي بونو وبادوليو قد انتقلوا إلى هناك
لاعداد المسرح للعمليات العسكرية
وبمثل ماجاءوا في زمن مضي بجنود من بر الأحباش
يحاربون بهم الليبيين هاهم الآن يجندون شبابا من ليبيا
يخوضون بهم حربهم ضد الأحباش
خدمة لمبادئ المساواة والعدالة والتواصل بين الشعوب
على الطريقة الاستعمارية
والابواق في معسكر بومليانة للتدريب تواصل النعيق صباح مساء
للنوم بوق وللسيقاظ بوق ولطابور الصباح بوق
ولرفع العلم بوق وللطعام بوق
وللبوق سلطة وقداسة كانه حاش الله
صوت القوة العليا التي تحكم الكون

— افرحوا...

هكذا قال البوق البشري، الشاويش عنتر
عندما جاء في حصّة الهرش يصيح في سكان العنبر :
— افرحوا يا أولاد

كان غريبا ان يصدر عن الرجل امرا يتناقض تماما
مع جبينه المعقود وسحنته الرمادية البائسة
وسمته العابس البائس الغاضب في كل ساعات الليل والنهار
— اليوم فيشطة ، عطلة رسمية .

لماذا؟ لأن اليوم هو الذكرى الثالثة عشرة لوصول
الحزب الفاشيستي إلى الحكم
ولم يكن مقررًا لمثل هذا المعسكر في أزمنة الطوارئ
أن يستمتع بأية عطلات رسمية أو دينية
إلا أنه لأسباب تتصل اهمية هذا العام

صدر في اللحظات الاخيرة قرار بان يستمتع به كل الناس
حتى الذين يعيشون في حالة طوارئ
ثم اضاف ضاحكا كاشفا عن اسنان صفراء لا يراها الناس كثيرا
بسبب ندرة لحظات الابتسام لديه
بعد ان اخذ نفسا عميقا من سباحة البافرا:
— يمكنكم اليوم ان تحكوا جلودكم طوال النهار اذا اردتم
ولكن ماذا تعني فيشطه؟ سأل بعضكم بعضا
وعرفتم ان معناها لا تدريب اليوم ولا تأنيب
وانما عطلة واحتفالات موصولة منذ بداية النهار
إلى حلول الظلام
فضيتم الصباح في تنظيم مباريات
في كرة القدم داخل المعسكر
وجاءت فرقة الموسيقى النحاسية تتجول بين المجندين
وتعزف الالحان العسكرية الإيطالية والأناشيد
التي تمجد الحزب والزعيم واهدوكم مجموعة
خراف تتولون ذبحها وسلخها
وتقومون بشيها وطهيها في اطراف الغابة
ستفرحون حقا وصدقا لا لأنه عيد الفاشست
ولا لأن الشاويش عنتر امركم بذلك
ولكن لأنه اليوم الذي لن تطرّع فيه السياط فوق رؤوسكم
مثل الخيول التي تجر عربات الشحن
ولن تطاردكم فيه الشتائم واللعنات بسبب ودون سبب
حيث انتقل كل أهل العنابر إلى الغابة
يشعلون مواقد نارهم
وينتظمون بعد ان اعياهم الركض
وراء الكرة اثناء المباريات
في حلقات تجلس وسط ادخنة سوداء
وقد مضى بعضهم يصفق ويضرب
على الصناديق
وقصاع الخشب ليقاع الاغنية الرائجة

في اعراس المدينة
التي تقول كلماتها :
آه يا العنب ويا العنب
الله يبارك ع الدالية
سفرة وفناجيل ذهب
وسنيورة من طاليا
تستحضر الاغنية عالما جميلا غنيا عامرا
بالولائم الباذخة
والنساء الجميلات
ليكون بديلا للواقع البائس الفقير
الخالي من هذه الموائد والنساء
وتستحضر أنت صورة ثريا الغائبة
وراء جدران الصمت والفراق
التي تابی إلا أن تبقى مولعا بها رغم ادراكك
انه حب بلا امل
ترى اين اخذوا زوجها فتحي الذي اختلط حظه السعيد
عندما فاز بثريا بضربات الحظ التعيس
عندما داهمه عساكر الطليان يأخذونه من بين احضانها
ويقودونه إلى معسكرات الحرب والموت
لا تدري ان كنت تستطيع التعرف إليه
لأنك لم تره الا خطفا لمرة واحدة
وهو يمرق أمام دكان الحاج المهدي ويطلق السلام
وحاولت فعلا ان تترصد له إلا أنك لم تعثر عليه حتى الان
مع يقينك انه هو أيضاً أحد مجندي هذا المعسكر
وربما يكون يوما احتفاليا كهذا اليوم
يجتمع فيه المجندون جميعا في مكان واحد
هو انسب الأوقات للبحث عنه
ولذلك اخذت تطوف بين الحلقات
التي تتوزع بين أشجار الصنوبر
منقرسا في الوجوه بامل ان تهتدي إليه

إلا أنك لم تجده
بدلاً منه وجدت رفيقاً آخر من أبناء قرينك اسمه سالم
راك قبل أن تراه واثبتق فجأة ياخذك بالاحضان
فكانت مفاجأة جميلة أن تجد زميلاً في المدرسة القرآنية
يزاملك أيضاً في معسكر الحملة الإيطالية على بر الأحباش
سألته باندهاش عما جاء به إلى هذا المكان
وكم مضى من الوقت وهو موجود في هذا المعسكر
دون أن تلتقي به
فأخبرك بأن يد الطليان لم تصل إليه
الا منذ أسبوع مضى
ولأن معسكر التدريب الذي أقاموه لأهل
المنطقة في سفح أبي غيلان
صار عاجزاً عن استيعاب مزيد من المجندين
جاءوا به وبعض المستجدين إلى معسكر بومليانة
اسعدك حقاً أن تلقى رفيقاً قديماً يتقاسم
معك الحياة العسكرية
إنها أول مرة تتحدث فيها مع إنسان
تعرفه منذ أيام الحرية
خارج المعسكر ثم أنه شاب يجمع أهل
أولاد الشيخ على حبه
نتيجة ما يتمتع به من أمانة ونزاهة واتزان
مع قدر من روح الدعابة جاءك صوته ساخراً:
— لولا انتصار موسيليني الذي كان سبب هذه الفيشطة ما كان
بإمكاننا أن نلتقي ، فشكراً لأعياد الفاشست.
— نعم فقد نقضي عاماً كاملاً داخل هذا المعسكر دون
أن يرى أحدنا الآخر .
تخلّيت عن بحثك عن فتحي وقضيت بقية اليوم صحبة سالم
تستذكران عالم أولاد الشيخ ، قال سالم:
— انقطعت أخبارك وجاء من ينعاك إلى أهلك قائلاً بأن الطليان
قتلوك بعد أن حاولت الفرار من المعسكر ، ولم يبطل هذه

الشائعة الا الجواب الذي ارسلته إلى أهلك .
— ربما تكون هذه الشائعة تمرينا مفيدا للعائلة عندما يصل
النعي الحقيقي.

— لا تقل هذا الكلام وتفاعل بالخير تلقه .
مشيتم معا بين حلقات المحتقلين حتى وجدت نفسك قريبا
من جماعتك الذين اكملوا طهو قدر كبير من لحم الخراف
وصاروا يتخاطفون قطع اللحم
اخذت لنفسك واحدة وأعطيت أخرى لزميلك
وعاد الجماعة للغناء منتقلين من اغنية شعبية إلى أخرى
كما عادوا إلى تكوين حلقات راقصة على ايقاع
اغنية الموسم :

— آه يا العنب ويا العنب
الله يبارك ع الدالية
سفرة وفناجيل ذهب
وسنيورة من طاليا

طرق السوط فوق رؤوسكم وجاء الحراس يأمرؤن حلقتم
التي كانت تغني هذه الاغنية بان تعود إلى العنابر
لأنها محرومة من المشاركة في الاحتفال
بسبب ان ضابطا إيطاليا يعرف العربية
وصل إلى اذنه غناء المجموعة واستفزه ان يغني
المجنودون العرب عن النساء الإيطاليات بهذه الطريقة
ورأى في ذلك اهانة لبنات وطنه
فامر بايقاف المجموعة التي تغني الاغنية
قال سالم وقد بأشر الحراس دفعكم وسوقكم كالماعز إلى العنابر :
— هذا جزء من يحتفل بعيد انتصار الفاشست

وفي المساء توافد على نادي الضباط الإيطاليين
الذي يشكل جزءا من المعسكر ضيوف من خارج
الهيئة العسكرية

بينهم نساء في ملابس السهرة
ورجال يحملون الآلات الموسيقية وسيارات
تحمل أطباق الطعام وصناديق المشروبات
واستمر الاحتفال أغلب ساعات الليل
يصل ضجيجهم إلى العنابر يمنع النوم عن أعين الجنود
ويملاً القلوب أسى وحسرة على حياة الحرمان
التي يعيشونها
واصلت الالتقاء بسالم كل مساء
اللحظات التي كنت تقضيها بمفردك أثناء فترة الغروب
عند أطراف الغابة وجدت شريكا يقضيها معك
جاء في اليوم التالي ضاحكا مستبشرا :
— امروني اليوم ان اقف على ساق واحدة لمدة ساعة كاملة
فغافلتهم ووقفت لمدة ساعتين.
— لا ادري متى ينتهي مسلسل المهانة والإذلال؟
أفرحك وجود سالم بجوارك ليقتنك بان وجوده معك
في هذا المكان كان ضروريا لعافيتك النفسية
كما أن وجودك مفيد لعافيته وصحته
كلاكما يعين الآخر على تحمل هذا العناء
حين يجد بجواره إنسانا لا يتحرج في البوح أمامه
بهذه الشحنات الانفعالية العاضبة التي تضغط
على القفص الصدري ويطرح أمامه أسئلة تخنق الحلق
ليس فقط عن معنى وجوده في هذا المكان
ولكن أيضاً عن معنى وجوده في هذه الحياة ذاتها
رأك تسأل عن جدوى هذه المعيشة
فالقى أمامك بسؤاله الحائر باعتبارك
أكبر منه سنا وأكثر علما
لماذا اختار الله بلادنا دون بقية البلدان لابتلائها
بهذه الحلقات المستمرة المتواصلة من حكم الغزاة
منذ فجر التاريخ والغزو يتلوه غزو آخر دون هدنة صغيرة
لأشك ان الله حق فلماذا يرضى بهذا الظلم

ولماذا لا يستجيب للدعاء الذي ترسله القلوب من اعماقها
قلوب هؤلاء البسطاء الأتقياء من ابناء وامهات
يسألون في كل صلاة ان يرفع سخطه وغضبه عنهم
ويبعد هؤلاء القوم الظالمين من طريقهم
وينجيهم من شرهم لكي يعيشوا هانئين آمنين
راضين بالرزق القليل الذي كتبه لهم
ويعبدوه بقلوب خاشعة مؤمنة متقانية في حبه وتقواه
ثم ينامون في انتظار شروق رحمته وعدله
فلا يجدون في اليوم التالي الا مزيدا من الظلم والعذاب والقهر
— فقل لي بالله عليك: اين يذهب كل هذا الدعاء؟

انه سؤال طالما طرحته أنت أيضاً على نفسك
حتى وأنت تقرأ كل صباح تسابيحك وأورادك
باحثاً عن جدوى هذه التسابيح
إلا أنك هنا في هذا الموقف وأمام هذا الفتى الذي يثق في علمك
ويؤمن بانك تملك الاجابات عن الاسئلة الحائرة
التي تدور في ذهنه لا بد ان تقول شيئاً ترد به عليه
غير الوقوف الحائر أمام الاسئلة الحائرة
لا بد ان تسعى للعثور على تفسير يرضيه
أملاً ان يرضيك أنت أيضاً
— كيف يصرفهم عنا ويستجيب لدعائنا فيهم
وهم جزء من ارادته .

وتجد سالم ينظر إليك بعينين تملؤهما الحيرة
فتحاول ان تصل معه إلى رأي أكثر وضوحاً:
— اليس الشيطان رمزا لكل شر في الدنيا ؟
فهل نستطيع ان نسأل الله ان يهلك هذا الشيطان ؟
واذا سألناه ان يهلكه فهل سيستجيب لنا ؟
انه لن يفعل لأن ارادته شاعت منذ الازل ان تكون الحياة الدنيا
صراعاً بين الخير والشر ولا بد من وجود العنصرين
كضرورة لوجود الحياة واستمرارها فأنت لا تستطيع ان تقول

ان الزلازل والبراكين والفيضانات والابوثة
والأمراض التي تقتك بالبشر ليست جزءا من الارادة الالهية

لن يستطيع سالم ان يذهب معك أكثر من ذلك خوف الضلال
ولذلك فهو بطريقته الساخرة يجد معبرا يخرج من الموضوع الشائك:
— الزلازل لا يدوم أكثر من دقيقة أو بضع دقيقة
والفيضانات تأتي يوما وتمضي والطاعون قد يدوم أسبوعا
أو شهرا يحصد أي منهم ما شاء من الارواح ويمضي
اما البلاء الاخير الذي ابتلانا به الله وهو الاستعمار الإيطالي
فعمره الآن أكثر من ربع قرن ولا يزداد الا قوة وعنفا ورسوخا
حاربناه حتى هلك نصف أهلنا كما حاربنا قبله اعاجم آخرين
لا حصر لهم دون فائدة فهل ترانا سنجد هذه الفائدة
عندما نذهب ونحارب تحت راية المحتل كما نفعل الان بدل ان نحاربه ؟

سمعت صوت البوق يأذن بوجبة الطعام التي يعقبها النوم
ويأمر بانتهاء هذه الفسحة فلم تشأ ان تترك الحديث معلقا
عند هذه النقطة ، قلت تواسيه وتواسي نفسك :
— لقد هجا العلماء والفقهاء هذه الحياة الفانية
وما وجدنا في هذا المكان الا هجاء عملي لها .

احلت الموضوع إلى حياة أخرى ستكون أكثر عدلا وانصافا
وما مجيئك إلى هذا المعسكر وانضمامك إلى جيش
يعتزم الذهاب إلى الحرب في مجاهل القارة الافريقية
الا تعجيل بقاء هذا المصير أو هكذا اردت تبرير مجيئك
الاختياري لهذا المعسكر
هاهو العنبر يحتويك كجوف الحوت الذي احتوى النبي يونس
مظلما ، رطباً، ساخناً، كرية الرائحة
ويونس في بطن الحوت لا يحيا، كما يقول النص الديني، ولا يموت
فلتعتبر ان شئت بمعاناة هذا النبي
الذي حباه الله بالنبوة دون ان يعصمه من العذاب

نعم نعم وسواء جئت إلى عالم البق والقمل والبراغيث
بارادتك أو بارادة عليا تسوق البشر الفانين
إلى مصيرهم المحتوم
المقرر منذ الازل في لوح محفوظ
فأنت الآن هنا، في هذا المعسكر المحاط بالحراسات
وابراج المراقبة
هذا هو عالمك الذي لا عالم لك سواه
فلماذا تتكلم كثيرا عن رغبتك في تحقيق الاندماج معه
دون ان تفعل شيئا لتحقيق هذه الرغبة؟
لماذا تبقى ساخطا متذمرا
كان السخط والتذمر سيضعان حدا لمحتنتك ايها الاحمق؟
انك تختلف عن الآخرين الذين جاءوا إلى هنا
مسحوبين بالسلاسل ، تنغرس في ظهورهم سناكي البنادق
الإيطاليون أيضاً يعتبرونك مختلفا عن بقية المجندين
ويضعونك في مكانة اعلى منهم
لأنك جئت إليهم باختيارك واقتناعك
فلتكن في مستوى هذا التقدير
ولتبدأ مسيرة الاندماج مع
الاجواء السائدة في هذا المكان والانسجام مع روحه
وبذل أقصى ما تستطيع من جهد للانتماء إليه
ولتكن منذ هذه اللحظة جزءا أصيلا
من مؤسسة الرعب والموت التي يمثلها هذا المعسكر
هاهو عراك ينشب في عنبرك بين أحد المجندين
وبين المشرف على العنبر
وهاهو الشاويش عنتر يأتي ومعه أحد اعدائه
لتطبيق اللائحة التي تأمر بضرب المتمرّد على النظام
ثلاثين جلدة على قدميه
يزمجر الشاويش عنتر طالبا اثنين من قاطني العنبر يمسكان بالمننب
لكي يستطيع معاونته تطبيق العقوبة عليه
فتتقدم مسرعا لتكون أحد الاثنين اللذين يمسكان به

بيدأ المعاون في الجلد ، إلا أنه جندي بليد، خامل
لا يجيد استخدام السوط
إلى حد أنه أثناء إحدى الضربات رفع السوط عاليا
حتى ضرب ذيله وجه رئيسه الشاويش عنتر
الذي استشاط غيظا وافتك السوط من يده
وضربه به فوق ظهره، وتقدم لكي يباشر بنفسه
تنفيذ العقوبة فوجدتها أنت فرصة لأن تبادر
بعرض خدماتك عليه ،
ترجوه ان يسمح لك بان تتولى أنت المهمة
تأخذ منه السوط وتكمل ضرب زميلك
هامسا لهذا الزميل بانك لم تأخذ السوط
الا رغبة في ان تنقذه من ضربات الشاويش عنتر القاسية
بينما كانت ضرباتك في الحقيقة أكثر قسوة
لأنك كنت تسعى لإرضاء الشاويش عنتر عن طريقها
وكننت تنتظر إليه بعد كل جلدة لترى مدى رضاه عنك
لا يهتمك ان يصدق الزميل قولك أو لا يصدق
فقد قررت ان ترتفع درجات عليه وعلى بقية رفاق العنبر
وتعلو قليلا فوق مستوى القاع الذي يلتصقون به
تريد ان يكون لك شأن مثل شأن الشاويش عنتر
انه هو سبيلك للنجاة من الانسحاق تحت الاقدام
والانضمام إلى عالم النفوذ والسلطة في المعسكر
هاهو ينتسم اعجابا بمهارتك في استعمال السوط
وهاهو يلقاك في اليوم التالي بكلمات الترحيب
وياخذك من ذراعك ليدنيك من رئيسه الإيطالي
اثناء طابور الصباح قائلا له انك عنصر
يمكن الاعتماد عليه
مذكرا اياه بانك الجندي الذي دخل إلى الجيش باختياره
وهاهي النتائج تأتي سريعا في مساء ذات اليوم
عندما تحولت حشية القش التي تنام فوقها
إلى سرير وفراش

في مكان مستقل عن الاجسام المتكدسة
فوق أرض العنبر
بمفردك قرب الباب
فقد اختارك الشاويش عنتر لتكون عريفا للعنبر ومشرفا
على ضبط النظام فيه بعد ان اخذ المشرف السابق
إلى عنبر آخر
كلمتك الان هي الأولى في هذا العنبر الذي
يضم مئة وخمسين مجنذاً وفوق هذا صار
من حقك ان تتال حصّة اكبر من مواد التنظيف
بما في ذلك المطهر المستخدم في قتل
البق والقمل والبراغيث والصراصير
ها قد بدأت أولى خطواتك في تحقيق الاندماج
تضاعلت لحظات التنذير شيئاً فشيئاً حتى اختفت ثم
تضاعلت أيضاً ساعات التدريب نفسها
بعد ان صار الشاويش عنتر يصطفيك لترافقه
في بعض المهمات التأديبية
فأنت وحدك من اظهر مهارة في استخدام السوط
والعصا أيضاً مهارة يحسدك عليها أكثر
الجلوزة خبرة وقسوة
ومكافأة لك على هذه المهارة صار لك
سوط تأخذه معك اينما ذهبت
جاهزا للاستخدام كلما جاء الأمر من الشاويش عنتر بذلك
بل لك حق استخدامه دون الرجوع إلى الشاويش
في بعض المناسبات كذلك اللحظات التي يتأخر
فيها أحد المجندين
في العنبر عن الاستيقاظ في الوقت المناسب لبدء الحك
فتذهب عندئذ إليه وتطرق بالسوط فوق رأسه
أو تجلده على ظهره حتى يقوم
فهو سوط لا يفارقك وتعلقه اثناء النوم فوق رأسك
كانه عنوان وشعار، مثلك في ذلك مثل طاقم الحراسات

دليلا اكيدا على مكانتك المتميزة في هذا المعسكر

قال لك سالم هاز لا :

— ها قد بدأ نجمك يسطع في هذه الربوع فهنيئا لك يا ابن العم .

— على الإنسان ان يختار بين ان يكون الضحية أو الجلاد

وأنت تعرف إلى أي مدى يكره أولاد الشيخ القيام بدور الضحية

لقد اختاروا حياة القحط والجفاف في تلك الصحراء

هروبا من سيطرة الحاكمين في الاراضي الخصيبة .

— لا تجعل ائامك الشخصية ائاما لأهل أولاد الشيخ

فهم مازالوا بشرا ولم يتحولوا إلى وحوش

دعني أر ان كانت قد نبئت لك برائن وانباب

لماذا تكذب على نفسك ؟ لماذا لا تقول ان نفسك

هانئت عليك حتى لم تعد تعرف للهوان حدا ؟

انني افضل الف مرة من اكون ضحية استقبل الضربات

من ان اكون سوطا يستخدمه الطليان في ضرب أبناء بلده.

وكان لا بد ان تواجه اللهجة الغاضبة التي تكلم بها سالم

بلهجة أكثر حدة وغضبا ، عليك ان تلبس دورك الجديد

حتى وأنت تواجه اقرب الناس إليك

وان تمضي متقمصا شخصيتك المستعارة حتى النهاية

اذا اردت تحقيق ما تصبو إليه من نجاح

واي ضعف لن يكون غير شرخ في البناء الذي مازال في بدايته:

— اذا كان في الأمر مهانه يا ابن العم فانها مهانة

من هم على شاكلتك وهي مهانة أكثر فداحة ويؤسا

انها عار لم اعد اقوى على احتماله نعم سأكون

سوطا يضرب ، لا جلدا كجلد البغل أو الحمار أو الكلب

لا يأنف من تحمل الضربات

وغاضبا تركت سالم جالسا تحت أشجار الصنوبر

وعدت للاحتماء بسيدك الذي اصطفاك

معاوننا له: الشاويش عنتر

فأنت بجواره تحس وكأنك لم تعد جزءا
من هذه الكتلة الهلامية
هذه الديدان التي كانت بشرا
للسلطة بريقها ونشوتها ولها قيمتها التي لا يعرفها
بدوي ساذج لا يريد ان يخرج من اقمطته القروية مثل سالم
أنت تعرف ان ما يحدث لك ولبلادك وللدنيا من حولك
هو جزء من ارادة عليا لا تملك لها ردا
دورة من دورات التاريخ لابد ان تمضي
في طريقها حتى النهاية
وانك مهما فعلت فلن تستطيع لارادة الله
تبديلا ولا تغييرا
فما العيب في ان تمضي مع هذا السياق
وان تكون جزءا من هذه الكينونة
أيها الاخ سالم العنيد البليد
وفي اليوم التالي لم تصبر على فراقه
ومقاطعة هذه الجلسة
المسائية معه فذهبت تتجول بين أشجار
الصنوبر تنتظر مجيئه
لكن سالم لا يأتي
ولم تكن تظن وأنت تراه يغيب لمدة اربع
امسيات متواليات
انه يدبر لك مكيدة حتى جاء الشاويش
عنتر يسألك
ان تترك حصاة التمرين على فك السلاح
لتأذيب واحد من العصاة
ولم يكن هذا المجند الذي شق عصا الطاعة
والذي استحق الجلد بالسوط غير صاحبك سالم
لقد افتعل عراكا مع أحد مدربيه ورفض ان يستجيب له
عندما امره ان يقف في طابور المذنبين رافعا يده
يجوار الجدار تحت شمس الظهيرة فحققت

عليه العقوبة الاكبر
التي تنص عليها اللائحة وهي الجلد
وجاء صوت الشاويش عنتر يحرصك
على جلد صاحبك الذي
تبدى ظهره عاريا أمامك يلمع تحت شمس
الظهيرة، قائلا :
— هيا ثلاثون جلدة من جلداتك التي تعيد العقل الغائب لصاحبه.

وقفت حائرا، والسوط في يدك ، لا تدري ماذا تفعل به
نداء القوة والسلطة يأتي هذه المرة متعارضا
مع نداء الشرف والصدقة
انها مهانة لإنسانيتك ورجولتك
فالرجل صاحبك وقريبك
وهي رابطة تدعوك لأن تدفع الاذى عنه
ظالما أو مظلوما لا ان تكون يد البطش التي تفتك به
جاء صوت الشاويش عنتر مزمجا :
— ما الذي تنتظر يا عثمان؟ اذقه من ويلات هذا السوط
حتى يعرف ان الله حق .

انه يتكلم بلسان الشيطان متنكرا في صورة رجل
يعرف الله ويعرف الحق
كانت عينا سالم عندما التقت إليك تمتلئان تحديا وقوة كأنه يقول لك :
— هيا اضرب ايها الحقير ، لتعرف مهانتك وسقوطك .
رفعت يدك بالسوط مغمما بكلمات اردت ان يسمعا سالم فقط:
— اجلدك انا خير من ان يجلدك غيري
فرقع السوط في الهواء دون ان يلامس ظهر الضحية
وعندما لامسه في الضربة الثانية كان لمسا هينا ضعيفا
جعل الشاويش عنتر يتميز غيظا :
— ما هذا الذي تفعله؟ أنت تلاعبه، لا تجلده، هات السوط
اخذ منك السوط وامرك بلهجة حانقة

ان تعود إلى حصّة التمرين على فك وتركيب السلاح
ودون سوطك ذهبت إلى العنبر ليلا
كان الخبر قد انتشر بين سكان عنبرك الذين رأوك
تعود إليهم بلا سوط فصاروا يتضاخكون
ويرمقونك بنظرات الاستهانة والسخرية
عرفوا انك الان مطرود من جنة سيدك
ولن تمضي سوى لحظات حتى يأتي
لينزع الفراش والسرير من تحت عجزتك
ويعيدك دليلا حقيرا إلى حشية القش
وجاء الشاويش عنتر يقف على رأسك
مبديا اعجابه بما يسود العنبر من هدوء ونظام
كان يقولك ذلك بلهجة ساخرة هازئة
فقد كان الصخب والفوضى والمناكفة
القائمة بين المجندين تجعل المعسكر مثالا
لكل ماهو عكس النظام والهدوء والانضباط
كنت قد فشلت فعلا في فرض سيطرتك على الجماعة
وكان صراخك يضيع في فضاء العنبر
واخشى ما كنت تخشاه الان هو ان يأمر
الشاويش عنتر أحدا غيرك بان يتولى الاشراف
على العنبر الذي فشلت في ادارته
ويكون عليك ان تمنحه صاغرا موقعك المتميز
وفراشك ومفرشك وتعود لتصبح جزءا
من الكتلة الهلامية لساكني العنبر
بل أكثر منهم جميعا ضعة وهوانا
انك لن تلومه اذا فعل بك ذلك فالنظام يريد حسما وعزما
وأنت أول من يعترف بتقصيره في ابداء هذا الحسم والعزم
ولكنك لن تستطيع بعد ذلك ان تبقى في المعسكر
الشيء الوحيد الكريم هو ان تقفز هاربا خارج السور
وليأت بعد ذلك رصاص الحراس يرديك قتيلا
فهذا افضل من رعب المهانة التي ستعيشها

بين هذه الحشرات البشرية
هؤلاء الذين عاشروا القمل والبق والبراغيث طويلا
حتى اكتسبوا خصائصها
ادهشك ان الشاويش عنتر لم يفعل شيئا مما كنت تتوقعه
زمر في أهل العنبر أن يدخلوا تحت أغطيتهم
وطرّقع بالسوط فوق رؤوسهم فامتلأوا جميعا لتعليماته
عاد العنبر إلى صمته وغادره الشاويش عنتر
دون أن يقول لك شيئا
في اليوم التالي ذهبت إليه تطلب عفوه ورضاه
تقبل يديه وتساله أن يصفح عنك
وتشرح له كيف ان المذنب الذي ابليت ان تضربه بقسوة
كان ابن عم لك
جاء صوته حاسما:
— الواجب لا يعرف اخا ولا صديقا لا يعرف
ابن عم أوخال أوخاله ، هذا أول درس يجب
ان تتعلمه في مهنتك هذه .

وهو كما يقول لا يصفح عنك إلا لأنك مازلت صغيرا
في طور التدريب والتعليم وقال لك بانه لن يتكلم معك بعد الآن
باللغة العربية لأن أحد مؤهلات النجاح ان تتقن اللغة الإيطالية
التي يجب ان تبذل أقصى ما لديك من جهد لاتقانها
وسيساعدك هو قدر استطاعته
فادعيت انك لا تطمح لشيء إلا أن تكون تلميذاً في مدرسته
تستفيد من خبرته وتجاربه
فأعاد لك السوط واصططبك في مشوار من مشاويره
لتأديب المارقين
استعدت بسرعة سيطرتك على العنبر بعد اليوم
الذي اهتز فيه النظام
اقتضاك الحال أن تكون أكثر قسوة في معاملتهم
فتعمدت جلد كل من أساء إليك ذلك اليوم

مستغلا رخصة الجلد التي تملكها لإيقاظ المجندين الكسالى
فكنت تجلد من تريد حتى لو لم يكن نائما بحجة انك تريد إيقاظه
واستأذنت الشاويش عنتر في حرمانهم لمدة أسبوعين
من رش ملابسهم ومراقدهم بدواء البق والقمل والبراغيث
حتى يستجدوك ويطلبوا العفو منك
وصرت أكثر صرامة في تطبيق النظام
بحيث حرمتهم حتى من تبادل الحديث بعد إطفاء النور
والدخول تحت الاغطية
قال لك سالم بعد ان عاد لصحبتك و انتهاء أيام القطيعة:
— اردت فقط ان اريك كم هي مهينة مهنة الجلاد .
— المهانة داخل هذا المعسكر ليست اختيارا انها اسلوب حياة
مادة اجبارية في منهج العمل والدراسة كما ترى.
— لا ادري كيف تطاوعك نفسك على القيام بهذه الدور
الذي اجده غريبا على شخصيتك التي عرفتھا في القرية ؟
— دعنا لا نعود إلى الحديث عن هذا الموضوع
لكي لا يفسد صداقتنا .
— اعرف انه شيء عارض وليس شيئا اصيلا
في شخصيتك ، والا ما حرصت على هذه الصداقة.

بالغت فيما تلا ذلك من أيام في اظهار الود والولاء
للساويش عنتر بامل ان يبالغ هو أيضاً في الاشادة بك
لدى رؤسائه الطليان في التقارير التي يكتبها لهم
وعرفت فيما بعد انه لم يقصر في تقديم هذه الاشادة
وتعريفهم بانك بين قليلين جدا يجيدون
القراءة والكتابة باللغة العربية
ويجتهد في تعلم اللغة الإيطالية
وجاء الاحتفال بانتهاء مرحلة التدريب الأساسي
في نهاية الشهر السادس مناسبة
لأن تحصد نتائج ما زرعت
وان تحقق هذه المرة اعترافا إيطاليا بمهاراتك

وذلك بنيلك شريطا يضعونه فوق زندك
ينقلك إلى عالم ارقى من عالم المجندين
الذين لا شرائط فوق زنودهم
ويتصافد ان يأتي المارشال بالبو نفسه
الحاكم الإيطالي لليبيا ليحضر الحفل
ويشاء حظك ان تصافحه وتصور معه
وهو يضع لك الشريط
لقد تم تعميدك من اكبر رأس في البلاد
دليلا على ارتفاع مكانتك وعلو شأنك
وانك أصبحت منذ اليوم
عضوا في الدائرة الاعلى التي تحيط
باصحاب السلطة والنفوذ
لم يعد الأمر مجرد سرير فوقه فراش بجوار الباب
وسوط معلق بمسمار فوق رأسك
وسلطة مؤقتة ممنوحة لك من الشاويش عنتر
وانما شريط يمنحك اسبقية على كل هذه الكائنات
التي تزحف على ركبها اثناء ساعات
التدريب والتدريب
ولا أحد يستطيع ان يسلبه منك
ولو كان بالبو نفسه
الا بحكم من محكمة عسكرية
ولم تمض سوى ساعات قليلة
على تقليدك الشريط
حتى اكتشفت ان له مزايا أخرى لم تكن تعلم عنها شيئا
إنه يفتح أمامك عالما كان مغلقا على امثالك
ولا سبيل لدخوله
الا لمن زين ذراعه شريط كهذا الشريط
هو عالم النادي المخصص للضباط وضباط
الصف الإيطاليين
فقد صار بإمكانك الان ان تدخل إليه لا

كعضو من أعضائه
فهذه العضوية حكر على الإيطاليين
ولكن كخادم من الخدم المحظوظين
المسموح لهم بدخول
هذه الأماكن يستمتعون بأجوائها الاحتفالية
ويأكلون من ذات الصحاف التي كان يأكل
منها الأعضاء
ويشاهدون معهم الحفلات الراقصة
والعروض السينمائية
وينعمون مثلهم بانغام الموسيقى واستنشاق
عطور النساء الجميلات اللاتي يزرن النادي
كما أتاح لك الشريط ان تخرج في مهمات
خارج المعسكر، وان تعبر البوابات الكبيرة
لترى الدنيا الفسيحة الرحبية
خلف الاسوار العالية
لقد صار بإمكانك الان ان تتولى مهمات حمل الرسائل
وجلب المؤن والمشاركة في حملات البحث
عن مجندين جدد
وقفت في أول هذه المهمات خارج المعسكر
تستشوق هواء جديدا تعرف ان أحدا
من زملائك لم يستشقه منذ ان اختفى
خلف هذه الاسوار ي
بخالكك احساس بالفرح وكأنك حققت
انعتاقا كاملا من عالم المجندين
وراودتك وأنت ترى نفسك بعيدا عن الحراسات
 واجهزة الرصد والمراقبة أحلام العودة إلى قريتك
وان ترى امك المريضة و تهرب نهائيا
من كوابيس هذا المعسكر
كان ذلك مجرد خاطر عابر
فأنت تريد اليوم ان تكون محل ثقة هؤلاء الاسياد

لأنك تعرف ان لا فائدة من الهروب
وكما كان يقول أحد الشيوخ المتعاونين
مع الطليان لأهل قبيلته
الخارجين عن طوعهم بان الحكومة الإيطالية هي الأرض
وهم مثل الطائر الذي مهما نقلته جناحاه بعيدا في الاجواء العليا
سيعود مرغما إلى الأرض
هكذا نقول حقائق الحياة
مهما كنت شاطرا ونجحت في هروبك لبعض الوقت
فما فائدة ان تقضي أيامك سجين جدران البيت الذي ستختبئ فيه؟
ما فائدة ان تستبدل سجنًا فراديا بسجن جماعي ؟
طردت الفكرة من رأسك
معتزفا بحقيقة انك الان أصبحت داخل المصيدة
مصيدة الحياة العسكرية في جيش المحتلين
حيث لا فكاك ولا نجاة إلى ان تنتهي الحملة
ليكون من حق الذين بقوا على قيد
الحياة بعد الحرب
العودة إلى حياتهم المدنية
وخير وسيلة للتعامل مع هذه الحالة
هو الحرص على تحسين ظروفك المعيشية
دخل هذه البيئة
وتحت هذه الشروط
وها أنت الان تنعم بمكانة افضل من زملائك
وتلقى من الإيطاليين معاملة لا يحلم بها أحد منهم
فلا تجعل الوقت يضيع أكثر من ذلك
وانطلق سريعا لقضاء حوائج الاسياد
كي يزدادوا اعجابا بك
لم يعد الشاويش عنتر هو سيدك
لقد أصبحت من اصحاب الرتب أنت أيضاً
ولغتك الإيطالية تحسنت كثيرا بحيث صارت تسعفك
لفهم ما تسمعه والرد عليه، فلا حاجة لك به

ولا حق له عليك الا اداء واجب الاحترام
لرجل اكبر منك رتبة وسنا
جعلت هذا اليوم الذي عبرت فيه
بوابة المعسكر لأول مرة إلى العالم الخارجي
عيدا من اعياد الحرية
كانت المهمة هي ايصال رسالة إلى مركز المدينة
فسرت مسرع الخطى إلى الشارع الرئيسي
حيث وجدت عربة شريول تستخدم لنقل الركاب
قفزت إلى العربة لتي يجرها حصان يخب خبيا
أوصلتك بسرعة إلى المركز واكسبتك
بعض الوقت الاضافي ، تقضيه في التسرية عن نفسك
القيت الرسالة بسرعة لموظف الاستعلامات
في بنك روما ، ودخلت شارع الكورسو حيث
المحلات الإيطالية
التي تزين واجهاتها الاضواء والمرايا والديكور الجميل
وجدت حانوتا يبيع الجيلاتني
فلم تتردد في دفع عشرين بارة وشراء قالب تعلقه
و أنت تمشي في الشارع بملابسك العسكرية
غير عابىء ان كان ذلك مخالفا للأوامر والنواهي العسكرية
ووقفت أمام سينما الأوديون حيث يعرض فيلم إيطالي
وقد امتلأت الواجهة الزجاجية بصور النساء الجميلات
والمشاهد الغرامية فقررت صرف مزيد من النقود
على مشاهدة الفيلم
انها ساعة القبلولة في المعسكر ولن يكثرث
أحد لحضورك أو غيابك
هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها السينما
التي سمعت عنها دون ان تراها
دخلت وكدت تخرج هاربا صارخا
عندما رأيت قطارا يأتي من عمق الشاشة ليدهمك
قفزت مفزوعا ثم سيطرت على اعصابك

وتسمرت في مقعدك ما نعا نفسك من الهروب
وأنت ترى الناس بجوارك في عتمة السينما
يلعقون الجيلاتني ويقزقزون السامينسا
غير مهتمين بالاندفاع الجنوني للقطار
انهم يعرفون اكثر منك انها مجرد اخيلة على الشاشة
كان الشيء الذي اثار انتباهك أكثر من الفيلم نفسه
النشرة الاخبارية المصورة التي تعرض قبل الفيلم
الدوتشي في روما بملامح وجهه الغليظة
وفكه القاسي الذي يبدو منحوتا من صخر الجرانيت
يقف خطيبا في واحد من ميادين روما الكبيرة
وسط حشود بشرية
تتلاطم كأمواج البحر تصرخ باسمه في حالة هستيرية
وترد على كل فقرة من خطابه بالهتافات
والصياح المجنون
ايتالو بالبو يقود طيارته الصغيرة وبجواره امرأة شقراء
يتفقد المناطق الداخلية في ليبيا
حيث يخرج له في كل منطقة أهلها في جموع كبيرة
مرحبين هاتقين باسمه وهو يلوح لهم بيده
احتفال كبير يقام على رصيف الميناء لسفينة إيطالية
تحمل ثلاثة الاف مهاجر من باليرمو يهبطون من الباخرة
ليجدوا المارشال بالبو واقفا مع رجال السلطة
يرحبون بهم صحبة فرقة موسيقية تعزف الأناشيد
وعدد من سيدات المجتمع الإيطالي في طرابلس
يحملن باقات الأزهار ترحيبا بالوافدين الجدد
هناك بالتأكيد عالم جديد بينيه الإيطاليون لأنفسهم
في هذه البلاد ، تذكرت وأنت تشاهد المواقف الغرامية
التي امتلأ بها الفيلم ثريا ، وندمت لأنك اضعت
هذا الوقت في مشاهدة الصور المتحركة
بدل ان تمضي لزيارتها
تركت الفيلم قبل ان يكتمل

وخرجت من السينما بقصد الذهاب إليها
اكتشفت وأنت في الشارع أنك تأخرت
أكثر من ساعة عن موعد عودتك إلى المعسكر
فأخذت على نفسك عهدا ألا تسمح بانقضاء دقيقة واحدة
من وقتك في المرة القادمة التي تخرج فيها من المعسكر
لا تكون مسخرة لهدف واحد هو زيارة ثريا

كانت مفاجأة وأنت تخدم الإيطاليين
في سهرة نهاية الأسبوع بنادي الضباط
ان تجد بين الجالسين في النادي امرأة ليبية
لم يكن هناك شيء في مظهرها ينبئ بمنبتها العربي الليبي
فهي ترتدي فستانا كثير اللعان يكشف عن جزء من جسمها
أكثر بريقا ولمعانا ، هو ظهرها وكتفيها
وصدرها حتى منبت النهدين
مثلها مثل أكثر النساء الإيطاليات اناقة وتحورا
ذات بشرة بيضاء حمراء شديدة النقاء
لا يملكها الا قلة من أهل البلاد القاطنين بالمدينة
وتصف شعرها الفاحم السواد على شكل تاج
من تيجان ملوك روما وتضع في عنقها قلادة من الذهب
محلاة بفصوص من الاحجار الكريمة
لا تشبه قلائد الذهب الشرقية التقليدية
التي ترتديها النساء الليبيات وفوق هذا وذاك
فقد كانت تفعل شيئا مهولا لم تسمع بان امرأة ليبية
اقدمت عليه من قبل هو احتساء كؤوس النبيذ
وتبادل الانتخاب مع من حولها من الضباط
فكان شيئا مستحيلا رغم جمالها الشرقي
الذي تبدى واضحا في عينيها الواسعتين السوداوين
ان تهتدي إلى هويتها الليبية
كان المحترفون من قدماء الخدم
الذين يعملون طهاة وجرسونات

هم الذين يقومون بخدمة الضيوف وتلبية طلباتهم
وكانت مهمتك اننى من ذلك قليلا
مثل نقل المناضد من مكان إلى آخر
وجلب الكراسي من المخزن واعادتها إليه
والاهتمام بنظافة المكان
وكنت قد جئت إلى حيث تجلس المرأة
تضع شموعا جديدة في الشمعدان الفضي الكبير
الذي يزين ركننا من اركان النادي
تصادف ان جلست المرأة قريبا منه
فقد كان النادي ورغم اضاءة الكهرباء يستعين بالشموع
لتوفير بعض الاركان لخدمة غرضين
الأول اضاءة لمسة شاعرية
رومانسية على هذه الاركان
والثاني انه في حالة هروب الكهرباء
وهي كثيرا ما تهرب في هذه المناطق
يبقى المكان مضاء بالشموع فلا تحدث
حالة فزع بين الزبائن
وجدتها تنظر إليك ووجها يفيض بابتسامة مبهجة
ثم سمعتها تقول لك بلغة عربية ليبية خالية من اية لكنة:
— عربي اليس كذلك ؟
— عربي من أولاد الشيخ واسمي عثمان
كنت قد ظننت في البداية أنها إحدى الإيطاليات
ممن يجدن الحديث باللهجة الليبية
وكانت مفاجأة مذهلة عندما اخذت نفسا من سيجارتها
عبر الميسم الطويل ونفتت الدخان في الهواء
وقد كورت شفيتها بشكل شديد الاغراء
وقالت وهي تضع هباء السجارة في المنفضة بحركة رشيقة:
— وأنا أيضاً عربية من طرابلس
امعنت فيها النظر ترفع بصرك وتهبط به
وكانك لا تصدق ما تقول هذه المرأة

متأملًا إياها من مشبك الذهب في اعلى رأسها
إلى الفصوص البيضاء المتهوجة
تحت مسقط النور
التي ترصع الاساور في معصمها
والخواتم في أصابعها
إلى منطقة السحرو الاغراء
في الجزء العاري من صدرها
إلى الفستان الأسود اللامع الذي تزين
حواشيه خيوط الفضة
كل ما فيها ينبيء بانها امرأة تنتمي إلى ارقى
طبقات المجتمع الإيطالي فكيف تأتى لها
ان تكون امرأة ليبية
تحظى بانحناءات هؤلاء الضباط الذين تسارعوا
لإشعال سيجارتها وهؤلاء الجرسونات الذين يقفون
بانتظار اشارة من اصبعها فيهرعون لخدمتها كأنها ملكة
كيف يمكن لأي كائن ذكر أو أنثى ينتمي
لدنيا العرب الليبيين المساكين أن يصل إلى هذه المراتب
العالية في مجتمع الإيطاليين، بل كان واضحا انها
تتعامل باحتقار
مع كل هؤلاء الضباط الذين قطعت الاستماع إليهم
وانصرفت للحديث معك كأنها تريد ابلاغهم رسالة
بهذه الالتفاتة لعامل الشموع الذي هو أنت
كنت قد ازلت بقايا الشموع المطفأة من الشمعدان
ووضعت بدلا منها شموعا جديدة واشعلتها
وطأطأت رأسك منسحبا وأنت تقول في لهجة هامسة :
— تشرفنا اعظم الشرف يا سيدتي
سألتك السيدة بإشارة من يدها أن تبقى، قبل ان تقول لك :
— إنه شمعدان جميل وأنيق أريد واحدا مثله في بيتي
فهل تعرف كيف أحصل عليه؟
— من المخزن طبعا يا سيدتي.

— إني أتحدث عن السوق أريد أن اشتري واحدا مثله
فهل تعينني على ذلك؟

— بكل فرح

— إذن أعرف لي ثمنه ثم أحضر إلى بيتي لأعطيك النقود
أريد واحدا مثله تماما منزلي بشارع البريد رقم 7
سانتظرك غدا صباحا

— الأمر يحتاج إلى إذن من الضابط المناوب في المعسكر
— أخبرهم فقط أنك ذاهب لاداء خدمة تخص السنيورة حورية
عندما عدت إلى المطبخ لتخبر العرب الآخرين باكتشافك المدهش
وجدت ان امر السنيورة حورية ليس جديدا بالنسبة لهم
فهم جميع يعرفونها لأنها كثيرا ما جاءت لحضور الحفلات
التي تقام بنادي الضباط

وكثيرا ما تبسطت مع العرب الذين يخدمون الطليان في النادي
تسأل عن احوالهم وتوصي بهم رؤساءهم خيرا
وتمنحهم الهبات والعطايا السخية في الاعياد والمناسبات
تأكيدا للصلة التي تجمعها بهم

فهي رغم حياتها مع الطليان وعلو مكانتها بينهم
لا تنكر أهلها واصلاها مما زاد من محبة هؤلاء الخدم لها
وكان اخطر ما ابلغوك به هامسين هو ان السنيورة حورية
ليست الا المحظية الأولى لحاكم البلاد المارشال ايتالو بالبو
ولذلك فان الكثيرين يعتبرونها ثاني اقوى شخصية في البلاد
لأن المارشال لا يرد لها طلبا

ولهذا مضى بعض الخدم الليبيين يهنئونك على هذه الفرصة
التي جعلتك تحظى برضا السيدة حورية إلى حد
ان تطلب خدمة منك وتدعوك للمجيء إلى بيتها
وهي التي يتزاحم على خدمتها كبار القوم
من عرب وإيطاليين

ولو طلبت هذا الشمعدان من جنرال إيطالي
لذهب سعيدا يلبي مطلبها

برغم هذا الكلام الجميل فقد امتأ قلبك كدرا وضيقا

ولم تر في هذه المهمة التي كلفتك بها السيدة سوى مازق جديد
قد يقودك إلى ما هو أكثر شرا
فأنت تعرف مما سمعت وقرأت خطورة
الاقتراب من نساء الحكام
خاصة اذا كانت العلاقة بين الحاكم
وامراته على هذه الدرجة
من التحرر والاباحية
انك وان عشت في المدينة عاما كاملا
قبل التحاقك بالمعسكر
فأنت قروي ما تزال، تحمل ما يحمله أهل قريتك
من احتقار لاي امرأة ترتبط بعلاقة آثمة بالرجال
فكيف وأنت ترى امرأة من لحمك ودمك
ليبية مثلك، تتبع لحمها رخيصةا لرئيس الغزاة الطليان
وعليك بعد ذلك ان تذهب إلى بيتها خادما دليلا
يقدم لها آيات الطاعة والولاء
تمنيت في اليوم التالي وأنت تطلب اذنا
من الضابط الإيطالي المناوب ان يرفض طلبك
ولكنه خيب ظنك ومنحك تصريحاً
تغيب بموجبه عن المعسكر حتى الساعة السادسة مساء
أي انه منحك نهارا كاملا لتقديم هذه الخدمة
التافهة للسنيورة حورية
تركت المعسكر وخرجت إلى فضاءات
العالم الخارجي
بين يديك اثنتا عشرة ساعة بالتمام والكمال
حتى يحين موعد عودتك إلى المعسكر
فما عساك ان تفعل بهذا الوقت كله
وامر السنيورة حورية لا يقتضي
أكثر من ساعة واحدة
ورأيت انه لا قيمة ولا اهمية
لكل هذا القدر من الحرية

ان لم يكن سبيلا للقاء ثريا
قررت ان تعطي الأولوية لثريا
ولم تشأ اضاءة الوقت بالمرور
على دكان الحاج المهدي
تنسقط اخبارها فأنت تعلم علم اليقين
انها تقيم الان في بيت والدها
بعد ان غاب عنها زوجها
واشترت فاكهة من دكان قريب وصعدت الدرج
تحمل قرطاس الفاكهة وتطرق باب البيت
سألت عنها الصبي الذي فتح لك الباب وذكرت له اسمك
فذهب وعاد مسرعا يخبرك بانها قادمة
ثريا قادمة ، اليس هذا في حد ذاته مجلبة للفرح
فلماذا اذن تعذب نفسك بالاسئلة
عن لماذا جئت تركض خلفها
وما الذي تريده منها وما الذي يمكنك ان تقوله لها
وتختلفه كذريعة للسؤال عنها؟
وما حاجتك للعثور على اجوبة لهذه الاسئلة ؟
يكفي ان تراها وتطفئ هذه الحرقه
التي تملأ القلب والوجدان
جاءت ثريا
وأنت لا تكاد تصدق بان المرأة التي ما عشق القلب سواها
هي الان أمامك بقوامها الانسيابي
ووجهها المستدير الجميل وعينيها العسليتين
ترتدي ثوبا قطنيا ينسكب فوق جسمها انسكابا
ويظهر بشكل فائن استدارة نهديها
بضيء وجهها القمحي الابتسام رغم محنتها
كيف لك ان تسكت هذا الهدير
الذي يصنعه جريان الدم في عروقك
هذا الدوي الذي تصنعه دقات القلب في صدرك
انها لا يمكن الا تكون قد سمعت هذا الهدير وهذا الدوي

ولا يمكن ان لا تكون قد رأيت هذه الرعشة
التي تهز بدنك كله
انك مفضوح أمامها ولا شيء يستتر عري عواطفك
كنت غائبا عن الدنيا وراء اسوار
المعسكر لمدة سنة اشهر
حدث خلالها احتقان لهذه العواطف والانفعالات
التي ارادت ان تتجبر لحظة ان رأيت الدنيا
ثريا هي الدنيا
ثريا تلخيص موجز وعبقري لكل ما فيها
من مباهج وملذات وفرح
وما فيها من حسرة واسى وحرمان
ها أنت تمد يدك لتصافح يدها
لكي تكون هذه الملامسة اتصالا سحريا
مع اكسير الحياة الذي يتحول إلى سائل نادر
يجري مجرى الدم في العروق، يصنع
عيدا للجسد والروح
توارت قليلا خلف الباب وهي تخاطبك :
— أهلا عثمان ، امازلت على قيد الحياة ؟
قالتها بطريقة مرحة ، ازالته جهامة الموت المضمّر
داخل الجملة
وبرغم الاندهاش الذي مازال يعقد لسانك وأنت تراها
فقد وجدت نفسك تقول بذات الطريقة
التي تهزأ بالموت :
— وهل جاءكم الناعي يحمل اخبار موتي ؟
قالت مفزوعة:
— ابعد الله عنك الشر .
ثم استأنفت حديثها :
— الناس يقيمون المناحات ويعتبرون كل من شملته حملة التجنيد
في عداد الاموات . كيف استطعت الخروج ؟ هل هربت ؟
— لم اهرب .لاني اكلف أحيانا بأعمال خارج المعسكر .

— ماذا يفعلون بكم هناك؟ هل حقا يضربونكم حتى تشرفوا على الهلاك؟

لم تقل لها انك انتقلت من خانة المضروبين

إلى خانة حاملي السياط لضرب الآخرين

بدلا من ذلك سألتها مستكرا ما قالتة :

— من قال لك هذا الكلام الفارغ ؟

— هذا ما يقوله الناس .

وقبل ان تجد فرصة لتنفيد كلام الناس

سألتك ثريا بشيء من اللهفة :

— هل رأيت فتحي ؟

— لم اره . الا تعرفون أنتم اخباره؟

— غريب انك لم تره ، لأن كل ما نعرفه عنه انه محجوز

بواحد من هذه المعسكرات التي لا يزورها احد

ولا يخرج منها احد.

— هناك معسكر آخر في تاجوراء لعله هناك .

— سأل عنه والدي كثيرا دون فائدة قالوا

بانهم سيسمحون لهم

بالخروج لزيارة أهلهم قبل الرحيل إلى بر الأحباش.

كنت تستطيع ان ترى تشوقها لمعرفة اخبار زوجها

لعلها حقا تحبه ولكنك كنت دائما على يقين

من انها تحمل لك

أنت وحدك عاطفة لا تحملها لاحد سواك

مهما كانت هذه العلاقة التي بينكما قوية

فعلها أصبحت شيئا من الماضي بالنسبة لها

بعد ان ساقتها الاقدار للزواج من هذا الرجل

الزوج يبقى دائما هو الزوج

انه الإنسان الذي ربطتها به علاقة قدر ومصير

هي هذه الرابطة الشرعية التي تباركها

الملائكة في السماء

وتحال بموجبها لية علاقة تربطها برجل

آخر إلى ظلام النسيان

واذا اطلت برأسها فهي علاقة آئمة تنسب
إلى الشيطان والعياذ بالله
هكذا تفهم المرأة الشريفة
في هذا المجتمع الزواج
لم يعد لك مكان في حياتها
وليس من حَقك ان تلومها وهي تفعل ذلك
فلماذا تتعب نفسك بالسير في الطرق المسدودة؟
ما فائدة ان يركض الإنسان خلف جنازة حبه
وهو يعرف انه لن يحصد الا النواح
ولن يزيده الجري الا مزيدا من العذاب
سألته ان كان بإمكانك ان تقدم اية خدمة تحتاجها
فلم تقل ثريا شيئا
اذ ماذا بإمكانك ان تقدم لامرأة تنتظر عودة زوجها
من معسكرات الحرب ؟
دفعته إليها بقرطاس الفاكهة وهبطت الدرج مسرعا
هل هذه آخر مرة ترى فيها ثريا ؟
كان هذا السؤال يملوك فزعا
ولكن هاتفا ظل يهتف بك قائلا لا تفرع
فان كل محنة مهما كانت كبيرة
لا بد ان تصحبها مكافأة ما
وربما كان حجم المكافأة بحجم المحنة نفسها
كان الهائف يقول لك بان ثريا امرأتك أنت
ويجب الا تكون امرأة سواك
مهما قالت موثيق الزواج وعقوده الباطلة الكاذبة
فعقد الزواج لا يمكن ان يكون نهاية المطاف
وما أكثر ما تم اسقاطه وابطاله
لينال المحبان الانصاف الذي حرهما
منه ذاك الزواج الباطل
ويتحقق لهما الوصال بعد ان ظنا كل الظن الا تلاقيا
المشكلة قلت لنفسك

ان ثريا لم تعطك اية اشارة ولو صغيرة
تتبعى بمثل هذا الكلام
انها زوجة لفتحي ومن حقه عليها
وحقها على نفسها
ان تحفظ عهده وتصون نفسها له
بمثل ما تفعل الحرائر من النساء
وأنت لا تطالبها بالتمرد والعصيان
والخروج على هذا العهد
ولكنك كنت تتمنى ان ترى تلك الاشارة
الغائبة لحبكما القديم
ومع ذلك فان الهاتف مازال يلح عليك قائلاً
بان هذا ليس هو نهاية الطريق مع ثريا
لعله يقول ذلك لمجر المواساة والتمني
آه لو كنت متأكداً من ذلك
اذن لجعلت هدفك الوحيد اثناء الحرب
ان تبقى حيّاً حتى تعود إليها
بل إن هذا هو ما ستفعله
لأنك واثق من أن ذلك الحدس
الذي يقول بانكما لم تخلقا الا لبعضكما، لن يخيب.
— ثريا، شكراً لله لأنه أوجدك في هذه الدنيا.
تركت بيت ثريا في الجزء القديم من المدينة
وانطلقت مسرعا إلى بيت السنيورة حورية
في الجزء الجديد منها
وكانك تلقى بنفسك إلى التهلكة
مررت سريعا بمغازة تاجر يهودي يبيع الادوات المنزلية
المصنوعة من الفضة بشارع الكورسو
وعرفت ثمن الشمعدان الذي تريده الهانم
ثم ذهبت دون ابطاء إلى شقتها بشارع البريد
وجدت بباب العمارة سيارة عسكرية وجنودا إيطاليين
يسألك احدهم وهو يراك تهم بدخول العمارة عما تريد

وعندما تخبره يقودك إلى باب الشقة
يفتح الباب صبي أسود
في منتصف العقد الثاني من عمره
يتكلم العربية بلكنة افريقية
يسمع اسمك فيقودك إلى الردهة الواسعة بالداخل
غاصت قدمك في البسط السمكة
التي تغطي أرضية البيت
وأنت تدخل إلى حيث الارائك والكراسي
الفوتيل ذات القماش
الوبري الازرق وقد طليت حوافها
الخشبية بماء الذهب
والمرايا التي تغطي اجزاء كثيرة من الجدران
يؤطرها خشب كثير النقوش والزخارف
واصص الأزهار التي تفوح بروائح زكية والموزعة
في اركان الردهة والصالون
وصورة شمسية كبيرة للمارشال بالبو
بلحيته الصغيرة الأنيقة المدببة
كانها مرسومة بالحبر الصيني الداكن السواد
وبزنته العسكرية المرقشة بالنياشين
معلقة على جدار الصالون
بجوار صورة أخرى له وهو يصافح الدوتشي
ومن وسط السقف تدلت بيضة نعام كبيرة
مشدودة بسيور من الجلد الأحمر
ورأيت عندما جلست
صورا أخرى على الجدار المقابل
تضم حورية وبالبو
في لقطات ذات طابع حميمي تسند
في احداها رأسها على كتفه
وتجلس في الأخرى بجواره وهو في مقعد القيادة
بالطائرة الصغيرة التي يتولى دائما قيادتها بنفسه

متقلا بين بيوته الكثيرة في المدن الليبية
وبين هذه الصور والمرايا تتوزع في ترتيب جميل
مجموعة من جلود الحيوانات
نمر وغزال واسد وحمار وحشي
وفوقها رقعة تحمل سن الفيل معلقة بها قلاند
من العقيق الازرق والأحمر وفاحت في أرجاء البيت
رائحة بخور كالمسك غطت على رائحة الزهور
واضفت على جو البيت شيئا من الالفة
لأنك تحب هذه الرائحة منذ ان تنشقتها لأول مرة
في إحدى الاحتفالات الدينية بالقرية
يعطر بها شيخ الزاوية المحتفلين
إلا أن هذه الرائحة المحببة آلي نفسك
وهذا الجو الحافل بالرموز والتكوينات
الجمالية الشرقية الافريقية
لم تفلح في ازالة شعورك بالقلق والارتباك
ودون ابطاء جاء ت حورية ترتدي
في قدميها خفا له سيور ملونة
تظهر منه أصابع قدميها المخضبة بالحناء
ولف جسمها في روب ابيض ، تجفف شعرها
وتغطي به فوطة الحمام
وقد تساقطت بعض قطرات الماء
فوق وجهها المتورد
فزادها ذلك جمالا وفتنة وجعل وجهها
بأخذ شكل وردة حمراء بللها الندى
وقفت لحظة ظهورها تستقبلها في وضع انتباه
فضحكت حورية ضحكة لها رنين
ارتفع معها رأسها وانتش جسمها إلى الخلف
فيذا صدرها أكثر بروزا
وانحسر الروب عن جيد مصقول
شديد التوهج واللمعان

ادركت انك وقعت في شرا عمالك
وان حالك الان يشبه حال
سيدنا آدم وهو يقف أمام شجرة الفاكهة المحرمة
وبدا واضحا ان بالبو لم يترك نساء الطليان
ويختار هذه المرأة عبثا
لقد عرف كيف ينتقي أجمل جوهرة انجبتها
صحراء الشمس والرمال الحمراء
قالت بعد ان فرغت من الضحك:
— انني لست جنرا الا فلا تقف متخسبا هكذا استرح وانزع عن وجهك هذا القناع العسكري .
جلست حورية ودعتك في مرح وارحية إلى الجلوس
في المقعد الذي يجاورها
انها امرأة تعاشر عسكريا مخضرمًا شارك
في الزحف على روما وتعرف كيف تنفذ بسحرها
إلى قلوب الرجال كبارا وصغارا
جلست على طرف المقعد تستحلب لعابك لترطيب الجفاف
اذي تحس به في حلقك وكأنك في حضرة ساحرة
من ساحرات الاساطير
تستطيع بسحرها ان تقلب الإنسان حجرا
ليس هناك ما تخشاه
فأنت على دراية بما ينتظرك في هذا البيت
ولكن حجم المفارقة كان كبيرا
فهذه السيدة بعد كل شيء امرأة من أهلك
ليبية مثلك تعاشر رجلا كافرا بالحرام
وتعيش في بيت من بيوته
مما يجعلها بحكم التقاليد والاعراف
التي يرجع إليها الناس
في تقييمهم لأبناء وبنات مجتمعاتهم
امرأة سوء لا تستحق سوى الاحتقار
اضف إلى ذلك ان الرجل الذي تعاشره
ليس سوى رئيس

جيش الغزاة وجلاد هذه البلاد
هكذا سيراه الناس دائما حتى لو ظهر
في ثياب المصلحين
ومعنى ذلك انها تستحق احتقارا
أكثر من ذلك الذي تستحقه
النساء الساقطات اللاتي يبعن الهوى
في اكواخ خارج السور
المفارقة ان هذه المرأة الساقطة
التي جئت تخدمها وتقدم لها
فروض الولاء والطاعة
اضحت وبسبب سقوطها هذا اقوى
شخصية عربية في بلادها
بل ان بعض خدم النادي
يتناقلون باكبار واعجاب
مختلف الحكايات عن كرمها
واعمال الخير التي تقوم بها
لصالح المعوزين والفقراء

— اذن فاسمك عثمان وتقول انك من
— أولاد الشيخ منطقة القبلة والحماة الحمراء .
— ايتالو يحب الواحات كثيرا جعلني احبها انا أيضاً
وكثيرا ما نقضي العطلة الأسبوعية في غدامس
لدينا بيت هناك بطل على عين الفرس
أجمل وقت هناك هو الصباح الباكر
شروق الشمس هناك شيء فظيع مدمر مرعب

لم تكن نقصك النباهة لتفهم ان ايتالو الذي نتحدث عنه
ليس الا المارشال بالبو نفسه
فقد اضحت علاقتها به علاقة علنية تعرفها ليبيا كلها
والرجل لا يبالي ان يراها الناس معه اينما ذهب
يدخل بها الاحتفالات ويسافر بها إلى مدن الدواخل

ويتنقل معها في سيارته المكشوفة في شوارع طرابلس
اللكنة التي تتكلم بها تنتمي إلى المدينة
ولكن ما هذا الذي تراه فظيلا ومدمرا ومرعبا في مشهد الشروق ؟
لقد اقتضى الأمر ان تسمع المزيد من حديثها
لتدرك ان هذه هي طريقتها في التعبير عن اعجابها بالاشياء
فلا يعادل فطاعة الشروق في غدامس الا فطاعة
ورعب الغروب في جزيرة فروة من شرفة
الاستراحة التي شيدها المارشال بالبو هناك
وهكذا فان الانتقال بين الصحراء والبحر يتيح للإنسان
فرصة الاستمتاع بتعدد المشاهد الطبيعية
وتنوع الجمال والوانه في بلادنا كما تقول حورية
انها لا تأتي على ذكر الشمعدان الذي من أجله جئت
إلى هذا البيت وكأنه سقط من ذاكرتها
وبرغم الكهرباء التي تنعم بها بيوت الحكام في طرابلس
إلا أن الشموع لم تنقد بعد مكانتها حتى في هذه البيوت
— كنت اتمنى ان اشترى الشمعدان واقدمه هدية إليك
ولكن صاحب المتجر لا يبيع بالدين
سألتك عن الثمن وأنت تقف استعدادا للخروج
فدعتك للبقاء حتى تنتهي من تناول فنجان القهوة
الذي جاء به الصبي الزنجي مرجان
وظلت هي في جلستها الانسيابية
وقد انحسر الروب عن جزء من ساقها
فيدا تحت ضوء النافذة لامعا كالبلور
وجاءت قطعة جميلة مزركشة تنهادى
وتتأعب وتتمسح بها
فقال حورية وهي تتحنى تلتقط القطعة
وتضعها في حجرها
ثم تمرر أصابعها بفروتها وأنت تنتظر في حسد إليها:
— اذن فستكون ضمن المسافرين إلى بر الحبشة
عند نهاية الشهر .

فاجأك ما سمعت فأنت لأول مرة تعرف
ان السفر إلى الحبشة
سيكون في نهاية الشهر ، أي بعد عشرين يوما
وأنت على ثقة من ان احدا في المعسكر لا يعرف
تاريخ السفر، حتى الضباط الإيطاليون انفسهم لا يعرفون
والا ما استطاع احد ان يمنع مثل هذا الخبر
من الانتشار بين المجندين . كل ما يهمك الان
هو ان تعود مسرعا إلى المعسكر لتكون أول
من ينقل الخبر للناس هناك
انه سيضيف اهمية لاهميتك التي اكتسبتها حديثا
انك لا تطيق الانتظار حتى يحين موعد وصولك إلى هناك
لترى كيف سيكون وقع الخبر على الشاويش عنتر
سينسى الاثارة التي يحملها الخبر لأنه سيكون مشغولا
بمعرفة كيف استطعت الوصول قبله
إلى مثل هذه المعلومات الخطيرة
لاحظت المرأة اندهاشك فحسبته شعورا بالرهبة والخوف
من المهمة فقالت بلهجة رقيقة حانية:
— سنتهون مهمتكم العسكرية بنجاح وستعودون
إلى أهلكم سريعا باذن الله .

انها تعتبر الحرب مهمة سريعة ناجحة
لعلك حقا ستعود منها سليما فالحياة تستحق ان تعاش
مادام في الدنيا نساء جميلات كهذه الحورية
من حوريات الأرض
" ولكن يا للخسارة" قلت في نفسك
وأنت تقفل الباب وراءك
ذاهبا لاحضار الشمعدان متأسيا لوضع
هذه الجوهرة الثمينة
في اثناء وضيع

قيل انقضاء ساعة من غيابك عنها ،عدت إليها
صحبة صبي من صبيان المتجر يحمل عنك الشمعدان
في صندوق من الورق المقوى
حرصت على احضاره لأنك رأيت ان وجوده
يحمل الصندوق بدلا منك يجعلك اقل ضعة وهوانا
أمام السيدة حورية
وبسرعة قام الصبي بمهمته في تركيب الشمعدان
ووضعه في مكانه المناسب بالصالة المخصصة للطعام
وانصرف ، واكمالا لمهمتك اخذت الشموع الملونة
التي يقدمها المتجر
هدية مع الشمعدان ، ورشقتها في مواضعها منه
فازداد منظر الشمعدان الفضي بهاء ورونقا
وما كان من حورية إلا أن تناولت عود ثقاب
واضاعت الشموع كلها وهي تضحك
سعيدة بعراجين الذهب
التي تتراقص وتصنع مشهدا مثيرا للبهجة
وتغني معها الاغنية الشعبية التي يغنيها
الصغار في مولد الرسول:
— هذا قنديل وقنديل
فاطمة جابت خليل
هذا قنديك يا حوا
يشعل م المغرب لـ توا

وجدت ان مهمتك قد انتهت
فاردت ان تستاذن وتخرج
ولكنها استوقفتك واتجهت إلى رواق يقود
إلى غرف النوم
تخاطب شخصا هناك باللغة الإيطالية ثم تعود
ولم يكن يخطر ببالك ان هذا الشخص
الذي كان يستعد لمغادرة

جناح النوم في الشقة لم يكن
الا المارشال ايتالو بالبو نفسه
سمعت خطاه قبل ان تراه ثم ظهر الرجل
في كامل الالبهة العسكرية مرتديا بذلة المارشال
في يده القبعة وتحت ابطه عصا المرشالية
بسر اويله المنفوخة وحذاته ذي العنق الطويل
وقد بدا وجهه لامعا
زاده لمعانا هذا التباين الشديد بين بشرته الحمراء
وبين سواد شاربه الأثيق ولحيته
المديبة المدهونة
بمرهم يمنحها بريقا أسود
عيناه تتألقان باشعاعهما الغريب المليء دهاء وذكاء
وقفت أنت وقفة استعداد عسكري
متجمدا مثل عمود من حجر
تقدم نحوك رافعا رأسه
ينظر إليك من عليائه متأملا
ثم يمد يده مبتسما :
— اردت ان اقول لك برفوف فقد عرفت انك التحقت بالجيش متطوعا .

اجهدت نفسك وأنت تحاول ان تحرك شفتيك
بكلمة الشكر الواجبة في مثل هذا المقام
في حين واصل هو حديثه:
— كما عرفت فأنت تجيد القراءة والكتابة وهو امر نادر
بين عساكرنا الليبيين للاسف الشديد .
ارادت حورية ان تعينك على فهم كلماته فصارت تترجمها
إلا أنه أوقفها قائلا :
— لا تستهيني بلغته الإيطالية فهي في تقدم مستمر .
انتظر منك تعليقا لكنك بقيت عاجزا
عن الحديث فواصل هو الكلام :
— اتقان اللغة الإيطالية امر أساسي لمستقبل حياتك العسكرية .

ادركت ان الرجل قد اهتم بامرك وطلب تقريراً عنك
واعتبرت ان هذا الاهتمام مناسبة للفرح
لأنه دليل واضح على نجاحك
ولكنه فرح ناقص فأنت تدرك في ذات الوقت
ان هذا يعني مزيداً من التورط في عالم ملوث
هو عالم الفاشست وسلطات الاحتلال
— هل تراه حب المغامرة الذي ساقك إلى التحاق بالعسكرية؟
ترك الحديث غير المحدد واتجه إلى الاسئلة
المباشرة الأكثر تحديداً
كنت حائراً لا تدري ماذا تقول
ولا يواتيك شيئاً تقوله
وإذا واثاك فأنت لا تقوى على قوله
كتفت بهزة من رأسك فوصل حديثه:
— انك تمتلك روحاً وثابة، هكذا هي عزيمة الشباب
لأنك انك تتطلع بشوق لرؤية ادغال الحبشة وهضابها .
مضت لحظة صمت قبل ان يعاود الحديث
بلهجة أكثر جدية :
— ستسافر بعد اسابيع قليلة مع رفاقك لدعم
الجبهة في اثيوبيا ، وسيكون مفيداً لو ارسلت
إلى مكنتي بين الحين والآخر تقريراً
تخبرني فيه عن احوالكم . أريد أن اطمئن لحسن
معاملتكم من قبل ضباط الجبهة . انه امر في غاية الاهمية
مادمتُ أتولى مسؤولية هذا البلد . فلا بد ان ارى الصورة
من وجهة نظر جندي عربي ، ولا اكتفي بالتقارير
التي يرفعها عنكم ضباط ايطاليون . أريد أن اعرف
كل شيء . اخترتك دون غيرك لأنني اعرف حرصك على الواجب .

عرفت الان السبب الذي ارسلوك من أجله إلى هذا البيت
لم يكن الشمعدان سوى ذريعة لتجنيدك تجنيداً آخر

لاداء مهمة سرية يكلفك بها المارشال باليو نفسه
الذي لابد انه وضع عينه عليك منذ ان رآك
في احتفالات التخرج
واصطفاك لتكون عينا من العيون
التي تراقب له المشهد الاثيوبي
قال كلمته وادار جسمه يلقي نظرة على المرأة
يطمنن بها على هندامه ويضع قبعته فوق رأسه
ثم يتجه نحو الباب قائلا وهويضع يده في الاكرة
ملتفتا إليك :

— ستكتب تقاريرك باللغة العربية طبعاً
احنيت راسك قائلاً بصوت بدا وقعه غريباً عليك
لأنه جاء واهنا متحسراً :

— انه شرف كبير يا سيدي المارشال
كل ما احسست به تلك اللحظة هو انك تريد ان تخرج
من هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة
شيء يضيق به صدرك ، وهواء هذا البيت لا يصلح ابدا
لازالة هذا الضيق ، تريد ان تخرج إلى أرض
فسحة وسماء مفتوحة
لتنفّس بعمق وحرية
جاءت كلمات حورية الحانية ، بصوتها الهامس
تتسكب كالبلسم في حلقك المخنوق :

— هل المهمة صعبة إلى هذا الحد ؟
يبدو هذا واضحاً من اللون الازرق الذي تلون به وجهك
هون على نفسك يا عثمان ، واذا لم تشأ ان تكتب فلا تفعل .

ثم اضافت وهي تضع كأساً من عصير البرتقال في يدك :
— ما احب المارشال ان يقوله لك هو انك موضع اعجابه
وانه لا يريدك ان تتخرج ابدا من الكتابة إليه بكل ما تود
ان تقوله ، قد لا تعلم انه لم يكن يريد ان يرسل احدا
من الليبيين إلى هناك ، خاصة وان احد قادة الحملة هو

الجنرال جرساني الذي لا يحبه بالبو بسبب سجله
الأسود في ليبيا . باودوليو ونائبه في حملة الحبشة
دي بونو وعداه بحسن معاملة الليبيين ، فوافق
ومع ذلك فهو يريد ان يطمئن من الجنود الليبيين
انفسهم على حقيقة الموقف هناك ، واقول لك
شيئا آخر يا عثمان وهو ، ان كنت لا تريد ان تذهب
إلى الحرب فانا استطيع ان اسأل ايتالو ان يلحقك
بالوحدات العسكرية المقيمة في ليبيا .

أكدت لها انك لست خائفا من الحرب
وانك لا تحمل للمارशल
الا التقدير والاحترام ، واتجهت نحو الباب
تبغي الانصراف
فجاءت تضع في يدك بعض العملات الورقية
اردت ان ترفض المنحة ولكنها ارغمتك على اخذها
عاودك الضيق والاختناق وأنت تغلق الباب وراءك
فتحت ازرار قميصك وأنت تستقبل هواء الشارع
عله يزيل بعض هذه الغمة
ما قاله لك الحاكم العام لليبيا حمل اكبر من تحتفظ به لنفسك
ولايد ان تجد احدا يشاركك اعباء هذا الحمل
لكي تريح بعضا منه عن صدرك
توافق وصولك للمعسكر مع وقت الاستراحة
التي تحل في آخر النهار فذهبت مباشرة
لللقاء سالم بين أشجار الصنوبر
مؤجلا ابلاغ بقية الزملاء في المعسكر
بموعد الرحلة البحرية إلى بلاد الأحباش، حتى صباح الغد
قلت لسالم لحظة ان رأيته :
— صدق أو لا تصدق، ولكنه حدث . انني قادم لتوي
من مقابلة المارशल ايتالو بالبو حاكم البلاد .
— وكيف تفوتك فرصة ان تغرس سكيننا في صدره ؟

— اسكت ايها الاحمق لكي لا يسمع مزاحك الثقيل
احد الجواسيس فيقودك ويقودني معك إلى السجن
بتهمة التدبير لاغتال الحاكم العام.
— ما اقوله ليس مزاحاً ولو وجدت فرصة لقتله لفعلت ، ومرحباً
بالموت بعد ذلك .
— لا تنس انه بالبو وليس جرساني ، وهناك فرق
كبير بين الاثنين.
— كلهم مستعمرون مجرمون . هل يمكن ان اعرف
ما الذي ساقك إليه؟
— وما الذي يمكن ان يسوقني إليه غير الصدفة؟

أخبرت صاحبك بامر لقائك بحورية في النادي
وذهابك إليها في شقتها ولقائك هناك بالحاكم العسكري
وكان سالم يتوقد غضبا ، ويكز على اسنانه
ويصف حورية باقبح الأوصاف مسبباً ما تفعله
لأن شرف اية امرأة ليبية من شرف البلاد كما يقول
وأنت تضحك من مثل هذا الفكرة لأنه اذا اعتبرها مومساً
فالمومسات موجودات في كل البلاد بما في ذلك
دولة الخلفاء الراشدين دون ان يسيء
وجودهن الا لأنفسهن
ولا ينسحب على الدول والأوطان
وتسخر من حالة الفزع التي انتابته
والتي تكاد تمنعك من اتمام القصة اشفاقاً عليه
كما أنه يراك قليل الهممة لأنك صبرت على رؤية هذا العار
وكننت شاهداً عليه راضياً بالتعامل معه
وكانه امر عادي طبيعي
كان يقول هذا الكلام قبل ان يسمع بقية القصة
ويعرف ما هو أكثر هولا

— انخر ما لديك من غضب حتى تسمع ما قاله لي المارشال.
— هل اخذته العزة بالاثم فصار يتباهى بانتصارات جنده علينا .

— المارشال بالبو لا يرى هذا الفارق الذي تراه بيننا وبينهم
فهو أوسع افقا من ذلك ، نحن جميعا جنوده
إيطاليين وليبيين على السواء، هكذا ينظر إلى الامور
كان حديثه لي حديثا شخسيا ودودا يحفل بالثناء
على ما أحمله من روح المغامرة
وما برهنت عليه من اخلاص ووفاء
ولذلك فقد اصطفاني لأداء مهمة خاصة
هي أن أنقل له ما يحدث على الجبهة الاثيوبية حال وصولنا إلى هناك.

كنتما تجلسان على بعض جذوع الأشجار المقطوعة
المتناثرة فوق الأرض ، فقفز سالم واقفا وهو يصيح :
— يريدك المجرم ان تكون جاسوسا، اليس كذلك؟
الم تبصق في وجهه؟
— لا تصرخ ودعك من تحريف الكلام الذي تسمعه . انني
لم اكن أتحدث مع إنسان لا اهمية أوحيتها له مثلي ومثلك
كنت أتحدث مع اكبر رأس في هذه البلاد
ولم ارد عليه بغير كلمات الشكر والاكبار .
— يالك من نذل، ليس غريبا ان تبادل بارسال تقاريرك
إليه من الآن بادنا بنقل ما قلته الان من شتائم موجهة إليه .
— لماذا لا تفهم ؟ لم يكن ما يريده شرا
انه فقط يريد ان يطمئن على معاملة الليبيين
باعتبارهم رعاياه .

— دستورايها الاسياد ، اسمعوا وصدقوا ولا تستغربوا ، إذن
فالمسألة مبعثها مشاعر الحب التي يحملها بالبو لاختوته
الليبيين ، اليس كذلك؟
— كان واضحا أنه لا يسعى لاکراهي على ذلك . وأنه يترك
الموضوع لتقدير الشخصى ولذلك فانني
سانسى ما حدث جملة وتفصيلا .

عندما عدت إلى العنبر ورأيت الشاويش عنتر

يأتي في جولته التفتيشية الروتينية
لم تستطع صبرا على الانتظار إلى الصباح لكي تبوح
بالسر الذي تعرفه عن بدء الرحلة إلى الحبشة
فانتحيت به جانبا وسألته ان كانت لديه فكرة
عن موعد السفر إلى بر الأحباش
ابدى الرجل لندهاشه من هذا السؤال المفاجيء
ثم قال بلهجة الوانق من معلوماته وبصوت مرتفع
يصل إلى أسماع نزلاء العنبر جميعا
باعتبار ان مثل هذه المعلومة تهم الجميع :
— ليس قبل ستة اشهر ، هذا على اقل تقدير ولكن لماذا السؤال ؟
وبنفس طبقة الصوت العالية التي تكلم بها رددت عليه :
— لأن لدي معلومات مختلفة
— مختلفة كيف؟ لدينا مستجدون يحتاجون لهذه المدة
لتدريبهم على المبادئ الأولية دعك من التدريب
الأكثر تقدما الذي يحتاجه غير المتسجدين وهو مفتوح
لاي عدد من الاشهر التي تزيد بالتأكيد عن ستة اشهر
فمن اين لك هذه المعلومات المختلفة
وماهو بالضبط هذا الاختلاف؟
قلت بصوت أكثر ارتفاعا :
— اذن فاعلم يا شاويش عنتر اننا سنسافر
بعد عشرين يوما بالضبط .
حذرك بنظرة ساخرة هبط بها إلى اخمص قدميك
ثم صعد بها إلى ما فوق رأسك وكأنه يسألك هازنا
من أنت حتى تقول هذا الكلام
ومبالغة في اظهار نصرعك عليه خاطبته هامسا :
— احتفظ بما قلته لك لنفسك ، فهو مازال سرا عسكريا
ابتسم قبل ان يمضي وهو ينظر نحوك في رثاء
كأنه ينظر الى نسان مخبول
وفي اليوم التالي جاءك في ميدان الرماية
حيث كنت تواصل تدريبك ليستأذن من مدربك لحظة

يحدثك فيها على انفراد ثم انفجر في وجهك قائلاً:
— ما الهدف من تليفك المعلومات الكاذبة التي قلتها لي البارحة؟
— كيف عرفت انها كاذبة؟
— سألت آمر المعسكر نفسه فقال بان تاريخ السفر لم يتحدد بعد
— لقد تحدد وانتهى الأمر .
— من انت حتى تقول هذا الكلام ؟ هل تعرف أكثر
مما يعرفه آمر المعسكر؟

لم تشأ ان تفضح العلاقة التي نشأت بينك وبين سيد هؤلاء القوم
اكتفيت بان قلت له بانه سيري بعد ساعات قليلة
ان ما قلته هو الموعد الصحيح ولم تتردد أو تتحرج
من ان تعلن لكل من تراه من المجندين هذه المعلومة
التي لم يات منتصف النهار حتى صارت معلومة رسمية
يؤكد بها ضباط المعسكر الذين تلقوا بها
تبليغا رسميا من القيادة العليا للجيش
عرفوا من خلاله ان هذا هو الموعد الذي تقرر لسفرهم
وان ثلاث بواخر ستأتي من إيطاليا
إلى الشواطئ الليبية أول الشهر
لتنقل الجنود من موانئ طرابلس ومصراته وبنغازي
ها قد سجلت انتصارا خطيرا على اكبر منافسك
الشاويش عنتر الذي اختلفت نظرتة لك
فصار يتجنب الالتقاء بك والحديث معك
كأنه يخشى ان ترمي عقربا في وجهه
كنت لا تراه الا ساخطا على هذا القرار
لأنه شمل المستجدين أيضا، قائلاً
كأنه يخاطب نفسه :

— ماذا سنفعل لهم؟ اذا لم يجدوا وقتا كافيا للتدريب هنا
فكيف سيجدون هذا الوقت بعد وصولهم لأرض المعركة
ومعنى ذلك انهم سيموتون دون قتال
هكذا كان يقول وكنت تحس لحظة سماعه

ان للرجل ضميرا يتألم
وان له قلبا يرتجف خوفا على المصير
الذي سيلاقيه هؤلاء المستجدون
لم تنته المهمات التي تستوجب ذهابك
إلى خارج المعسكر
وكنت في كل مرة تجد فيها وقتا فائضا
لا تفكر في احد غير ثريا
تود ان تزورها فهي نقطة الاستقطاب
الوحيدة في حياتك
انها المرأة التي لا ينبض القلب
لهفة وشوقا الا لها
تري باي عذر أو ذريعة يمكن ان تذهب
إليها وتطرق بابها
لأن ذهابك بدون هذا العذر سيكون
تطفلا يثير الشبهات
أكثر مما يدعو إلى الاطمئنان والمودة
وأنت تريد ان تبقى صورتك لديها
ولدى اسرتها نقية صافية
اما اخبار أهلك في أولاد الشيخ
فان بإمكانك ان تحصل عليها
من عبد المولى الشحاذ ، إلا أنك لا تجد
في نفسك اية رغبة في زيارة
كوخ الصفيح الذي يعيش فيه لأن منظره
لن يزيدك الا كدرا وتعبا
وليس من الحكمة اهدار هذه اللحظات
الثمينة التي تقضيها
خارج السور في البحث عن رجل
بائس مثل عبد المولى
وجدت نفسك، وأنت تذرع شوارع المدينة
متفرجا على واجهات المتاجر ونوافذها

تمضغ حلوى العلك التي اشتريتها من كشك
أمام سينما الهامبرا
قد وصلت في تجوالك إلى شارع البريد
حيث البناية التي تسكنها السنيورة حورية
لم تكن هناك، كما حدث في المرة الماضية، سيارة
عسكرية وجنود حراسة إيطاليون، تتدلى
من أحزمتهم المسدسات
ولم يكن أمام البناية غير حارس
مدني متقدم في السن
يجلس بمفرده على دكته
وقفت حائرا قريبا من العمارة
تسأل نفسك ان كان من اللائق ان تطرق بابها الان
لم تكن تملك سببا وجيها لزيارتها
ولذلك نفضت الفكرة من رأسك وواصلت المسير
وقبل ان تمضي بضع خطوات لاح لك خادمها مرجان
يحمل في احدى يديه حزمة مجلات
وفي يده الأخرى سلة مليئة بالفاكهة و الخضروات
هرعت إليه تذكره بنفسك وتأخذ منه السلة
لتعينه في حملها حتى باب العمارة
وهناك اراد استردادها ولكنك لم تأبه له
وسرت صاعدا سلالم الطابق الأول وهو وراءك
قلت له وهو يفتح الباب ان يستأذن لك
سيدته في الدخول
انتظرت أمام الباب الموصد حتى فتح من جديد
جاءك الانن وجلست في ذات الصالون تنتظر قدومها
فهي لم تستيقظ من نومها الا منذ لحظات
كان الوقت ظهرا وكان صوت المؤذن
الذي جاء قويا من جامع قريب
يثير في ذهنك شتى التداعيات والشجون
خاصة وهو يتسلل إليك في هذا البيت الذي خصصه

الحاكم الإيطالي للقاء عشيقته اللبية
كنت قد اعددت سببا يعفيك من الحرج ويبرر
هذه الزيارة إلى بيتها
إلا أنك لا تستطيع إلا أن تسأل نفسك
عن لماذا تخلق الاسباب
لرؤيتها ؟ وعما هي الحاجة الحقيقية التي تدعوك
لمثل هذه الزيارة ؟
هل لأنك رأيت في هذا البيت امرأة باهرة الجمال
فاردت ان تكتل عينك برؤيتها مرة أخرى ؟
وهل هذا يكفي لارتكاب هذه المغامرة ؟
انك تعرف خطورة الاقتراب من مثل هذه المناطق
أو لمس الالعب الثمينة التي يتسلى بها الحاكمون
هيا اهرب الان ، اسرع بالخروج وقل للخادم
انك تعذر عن المجيء
في هذا الوقت المبكر الذي يسبق
موعد استيقاظ سيدة البيت
انسحب قبل ان تجلب الضرر لنفسك
ولكنك رغم هذه الخواطر التي تطالبك
بالانسحاب بقيت متسمرًا
في مقعدك، لا تقوى على الحركة ، لقد جئت
وانتهى الأمر
ولا تستطيع اصلاح خطأ الزيارة
بخطأ آخر هو الانسحاب
وجاءت كلمات حورية تزيل ما تحس به
من حرج وندم
— حسنا فعلت عندما جئت فقد كنت فعلا أريد أن اراك .

وقفت لاستقبالها وهي قادمة بقامتها الهيفاء ا
لتي زادتها اناقة
بذلة كاملة رمادية اللون مقلمة بخطوط بيضاء

تضع في يدها حقيبتها وكأنها تستعد للخروج
— اذن فهي الصدفة التي جاءت بك إلى هنا .
— لم ارد ان اتطفل على حياتك بلا سبب ولكن وجود
مرجان في الشارع شجعني على المجيء .
ودون ابطاء دخلت في الموضوع الذي اصطنعته
ليكون سببا لمجيئك:

— تعلمين ان موعد الرحيل لم يعد بعيدا
وقد وجدت نفسي حائرا ، كيف ابعث
هذه الرسائل التي يريد لها سيادة المرشال .
وردت ضاحكة :

— تعرف انك لو كتبت فوق الظرف المارشال بالبو ليبيا
لما تاهت في الوصول إليه .
ومع ذلك اتفقت معك على انها تفصيلية مهمة
يجب ان تعرفها منذ البداية
بسبب الطابع السري لهذه الرسائل ، وابلغتك
بانه لا حاجة بك

لأن تبعث بتقاريرك لاي عنوان لأن المارشال بالبو
سيرسل ضابطا من العاملين في مكتبه إلى الجبهة يكون
حلقة وصل بينه وبين الجيش هناك وهذا الشخص
هو الذي سيتصل بك ويتسلم منك أي تقرير تكتبه
ثم بادرت بالحديث عن بالبو الذي لا يعرفه الناس
وتعرفه هي وتريدك ان تنقل صورة صادقة عنه لزملائك الليبيين :

— لابد ان يعرف كل الليبيين ان بالبو ليس كانيفا ولا فولبي
ولا دي بونو ولا بادوليو ولا جرساني انه يحب ليبيا
ويريدها ان تكون مثل "قبرارا" المدينة الإيطالية التي جاء منها
وكان مسؤولا عن تعميرها وازدهارها
يريد ليبيا ان تكون محلا للعيش السعيد لليبيين والإيطاليين ولذلك
فهو يستحق ان يساعده الليبيون في بناء ليبيا والنهوض بها

اثارت المرأة فضولك أكثر من ذي قبل

تكلمت بحب وحماس عن الرجل
الذي اختارها للحياة معه
انها لا ترى فيه ما يراه المواطنون
من بعيد أي الزعيم الفاشي
الذي جاء لتطبيق سياسة حزبه
ودولته في تثبيت اركان
الاحتلال الاستطاني الإيطالي في ليبيا
وتوطين العاطلين
من أبناء شعبه في أرض الليبيين
لعل الأمر بحاجة إلى إعادة نظر
لأنها ليست حورية وحدها التي تراه
على هذه الصورة
وانما ليبيا آخرون كان بعضهم من زعماء الجهاد
وصاروا يتعاملون مع واقع الاحتلال باعتباره
قدرا لا مهرب منه ، انهم يتعاملون
مع قائد قوات الاحتلال الإيطالية
لا من موقع الرفض ولا من موقع القبول ولكن موقع ثالث
اخترعوه لأنفسهم ووجدوا انه يلائم ظروف الاحتلال
التي تعيشها بلادهم والذي رأوه شرا لا خلاص منه
ولا سبيل للتعامل معه الا بمحاولة استرضائه واسترحامه
لكي يرفع اذاه عن الليبيين
بعض شعراء الوطنية القدامى كتبوا قصائد التمجيد
التي تشبه عرائض الاسترحام لباليو ،
اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه
انهم يتحركون في هذه الدائرة
التي لا تستطيع ان تدعي انك أنت نفسك لا تتحرك فيها الان
ولذلك فانك لا تستطيع ان تلومهم ولا ان تلوم نفسك
اذا تعاملتم مع معطيات الواقع دون أوهام ولا أحلام
ولا تستطيع بطبيعة الحال ان تلوم السنيورة حورية
في ان تتحدث عن عشيقها المارشال من خلال الصورة التي

تراها له في مرابا هذا البيت لا في مرآة البلاد الذي جاء لاحتلالها
خرجت من بيتها لترى بصمات بالبو
ولمساته الجمالية في كل مكان تتجه إليه في مدينة طرابلس
لقد سبقه ولاية إيطاليون في بناء بعض الاجزاء الجديدة
من هذه المدينة لكنه جاء بفهم أكثر تطورا لمسألة التعمير
وأكثر استجابة لمعطيات ومفردات الواقع المحلي
لتبقى طرابلس مدينة ليبية
ذات طابع عربي شرقي ، لا نسخة للمدن الإيطالية
مع اهتمام خاص بابرار الجوانب الجمالية
وقد تجلى هذا واضحا في اهتمامه
بالحدائق العامة ووضع التماثيل فيها وفي الميادين
مراعيا ان تكون اغلب هذه التماثيل ذات علاقة بالبيئة
كتمثال الغزالة وتمثال الجياد الموصولة بنافورة الماء وغيرها
وتزويق الواجهات بالوان اشتهرت بها طرابلس
مثل الابيض والازرق وتنسيق الانارة
ووضع فوانيس ذات طابع شرقي في الشوارع والساحات
والاسراع في بناء المباني الحكومية مثل القصر
الذي وجده جاهزا فاضفى عليه لمسات اخيرة جمالية
واتخذة المقر الرسمي لاقامته
اتجهت إلى الكورنيش الجديد الجميل الذي صار مظهرا بديعا
من مظاهر هذه المدينة في عهد بالبو وتمشيت عبره
حتى وجدت نفسك قريبا من ضريح سيدى الشعاب ومسجده
المطلين على البحر ودخلت لتتوضا وتؤدي صلاة الظهر
فقد آمنت دائما بان هناك سيذا عظيما لهذا الكون
يجب ان تعطيه حقه أولا ثم يأتي حق اسياذ الأرض
انها بقعة جميلة يطل منها هذا الولي الصالح على البحر
جلست على صخرة فوق اعلى الهضبة
ترقب مشهد الأمواج المتلاطمة اسفل الهضبة
لقد تألفت الان مع هذا المدى الممتد
بلا نهاية من زبد وموج

والذي ملأ قلبك بمشاعر الرهبة عندما رأيته لأول مرة
صرت بعد ذلك تحس بالراحة وأنت تلتقي به منفردا
كانك تلامس عند الاقتراب من هذا الكائن الابدي
الذي لا يلحقه التغيير والتحول، جوهر
الحياة وصيرورة الزمن
في دورته التي تصل الازل بالابد
حورية ليست مجرد دمية جميلة
انها امرأة لها حضور قوي ولها رأي ووجهة نظر
انها تحاول ان ترتفع بموقعها المتدني
إلى مرتبة اكبر
كانها تقول بانها ليست مجرد بضاعة
رخيصة للبيع والشراء
وانها هنا في هذا البيت، وصحبة هذا الرجل، لأنها تحبه
وبحذر شديد حاولت، وأنت تعود
إلى المعسكر، ان تتسلل
إلى نادي الضباط وان تعرف المزيد عن هذه المرأة
ذات الشخصية الآسرة
اذ لايمكن ان يكون المارشال قد التقطها من حي البغايا
كما لا يمكن لاية اسرة تنتمي لهذا المحيط الاجتماعي
باساليلية المترتبة في التربية ، ان تسمح لبننت من بناتها
ان تنمو وتصبح لها هذه الشخصية وهذا الكيان
حتى لو اجبرتها الظروف فيما بعد على الانحراف
فاية نبتة هي ؟ وماهي ياترى التربة التي انبتتها؟
وكما عرفت من خدم النادي، فان قصتها
بدأت منذ تسع سنوات
عندما ارسل الوالي دي بونو
جرافاته العملاقة
تداهم مجموعة الأكواخ والزرائب الموجودة
في شارع ماكينة
بقلب طرابلس، تقسح مكانا لبناء

أكبر كاتدرائية في البلاد
وكانت حورية وأمها تسكنان كوخا من هذه الأكواخ
ورأفة بحالهما امر الوالي باحالتهم إلى مقر
سكن الممرضات
بمستشفى كاتانيا العسكري الذي أصبح فيما بعد
مستشفى كانيفا حيث اشتغلت الأم بأعمال التنظيف
بينما أنخرطت ابنتها الصبية في التدريب
على أعمال التمريض مع السوريلات الإيطاليات
وحدث في بداية عهد بالبو منذ عام ونصف مضى
ان دخل المستشفى للعلاج من جروح وكدمات
حدثت له اثر هبوط اضطراري بطائرته في الارياض
والتقى اثناء اقامته في المستشفى بحورية
التي كانت ضمن طاقم التمريض الخاص به
وقد نضجت نوثتها واطهرت الاقامة المريحة في المستشفى
ما اخفاه الفقر من مؤهلات الفتاة والجمال لديها
فاعجب بها ولم يخرج من المستشفى الا وهي برفقته
حيث خصص لها بيتا قريبا من قصر الولاية
ورغم وجود زوجة له مقيمة في إيطاليا
وعشيقات كثيرات يزرنه من خارج البلاد
فان صديقته الدائمة، الثابتة، التي تظهر معه
في حفلات الرقص
بالأندية الإيطالية والمناسبات الخاصة والعامة هي حورية
ولكن لماذا، تسأل نفسك، تبدي هذا الاهتمام البالغ
بامرأة لا تربطك بها اية رابطة
ولا مجال لأن تنشأ بينك وبينها اية علاقة، من أي نوع ؟
وما اهمية ان تعرف أو لا تعرف قصة حياة امرأة
قد لا تلتقي بها بعد اليوم ابدا ؟ انك تحبها وتكرهها
تجلها وتحقرها، فما فائدة ان تعيش مثل هذا الصراع
الذي لا طائل منه ولا جدوى من أجلها؟
انك لا تستطيع فعلا أن تجد دافعا

وضحا لهذا الاهتمام بها
فلعلك وقد فقدت ثريا ولا تعرف في هذه المدينة امرأة
غير حورية تتجه إليها بعواطفك المشنوقة
أردت من حيث لا تدري أن تشغل نفسك
بامرأة بعيدة المنال
لا يشكل التفكير فيها عبئا كبيرا على وجدانك
لأنك حتى لو تعلقت بها فلن يختلف
ذلك عن تعلق متفرج السينما
بصورة الممثلة التي يرى خيالها على الشاشة
أو وجهها مرسوما على لوحة الإعلانات
ولعل التفكير في امرأة مثل حورية يعينك إلى حد ما
على أن تنسى ثريا أو على الأقل تتقل الانشغال بها
إلى الانشغال بمنطقة جذب انثوي أخرى
فلا تتعذب بالتفكير فيها واستحضار صورتها
واستبقائها تضغط على عقلك ووجدانك
وأنت على أعتاب مرحلة جديدة في حياتك
وسفر طويل لا تدري
إن كنت ستعود منه أو لا تعود أبدا
ولكن المناسبة فرضت نفسها
وجاءت تدعوك بالحاح
إلى أن تذهب لرؤية ثريا
كنت قد نسيت خلال انشغالك بالمهمات الجديدة
التي اسندت إليك مسألة البحث عن زوجها فتحي
وعما إذا كان واحدا من أفراد المعسكر الذي يضمك أم لا
بل أنت مازلت غير واثق من أنك تستطيع حقا تمييزه
لو رأيته يقف أمامك، إذ لم يبق في الذاكرة
من ذلك اللقاء العابر
إلا ملامح باهتة لا تكاد تبين
والذي حدث، أن سلطات المعسكر، وقد تحدد نهائيا يوم السفر
وتحت الحاح المجندين الذين كتبوا عرائض الاسترحام

يرجون تمكينهم من رؤية أهلهم قبل الذهاب إلى الحرب
استجابت بشكل ماهر إلى هذا الرجاء
وقررت بدل أن تسمح بخروج المجندين وذهابهم إلى أهلهم
أن تفتح باب زيارة المعسكر أمام عائلات هؤلاء المجندين
لرؤية أبنائهم وتضمن بهذه الطريقة
وجود المجندين تحت إيديها
حتى يتم تسليمهم إلى وحداتهم في الحبشة
فهي تعرف كراهية الليبيين لهذه الحرب
ولا تأمن عودة أي واحد من هؤلاء المجندين
إلى المعسكر بعد خروجهم
مهما كانت العقوبات التي تهدد بها الهاربين
لأن لهم كلهم أهلا في هذه الصحارى
التي يصعب فيها العثور
على كل من يلجأ إليها
ودون صدور إعلان رسمي من أمر المعسكر
صار يتم اعلام المجندين بشكل شخصي
لكي لا يتكدس سكان المدينة كلهم في يوم
واحد أمام المعسكر
ورغم التكتّم على قرار الزيارات
فقد بدأ الناس يتوافدون
على المعسكر بغزارة ويخلقون
زحاما أمام بوابته الرئيسية
ورأيتها أنت فرصة ان تسدي
هذا المعروف لثريا واسرتها
وان تبلغهم الخبر ليسر عوا بزيارة فتحي
قبل ان يقرر الإيطاليون قفل هذا الباب
وما أن جاء وقت خروجك من المعسكر
حتى ذهبت إلى المدينة القديمة وإلى زنقة
بنت الباشا تطرق باب ثريا
التي جاءت بنفسها هذه المرة تفتح الباب

لم تبد هذه المرة تحفظاً كالذي أبدته في المرة السابقة
ولم تر منها اصراراً على الاختباء خلف الباب
أو اخفاء وجهها عنك
بادرتك بالتحية وهي تذكر اسمك وتدعوك للدخول
كأنك واحد من افراد الاسرة
ولم تعرف سبب هذه الدعوة الغريبة للدخول
الا عندما بلغتك بان والدها الحاج المهدي
موجود بالدخل
ادركت على الفور ان الرجل يعاني من وعكة صحية
والا ما كان ليبقى بعيداً عن مكانه
في مثل هذه الساعة من ساعات الصباح
سألته ان كان بخير وعافية فلم ترد على ان قالت:
— الحمد لله ، تفضل .
وسارت أمامك تقودك إلى غرفة والدها وتختفي
هل سينتهي لقاءك بها عند هذا الحد ؟
هل هذه الكلمات القليلة التي قالتها لك كل ما ستعود به
من حصاد هذه الزيارة ؟
كان الحاج مهدي النعال بمفرده في الغرفة
التي تغطي الحصران
كامل أرضيتها وقد تمدد فوق حشية قرب الجدار
علقت فوق رأسه أطباق مزخرفة
ومزاود وفي الجدار المقابل
و أكثر من رف به بعض السلال الصغيرة
المصنوعة من سعف ملون
وسورة " الفلق " مكتوبة بخط الرقعة
في برواز مذهب
برادة الماء بجوار رأسه وفي مكان
ليس بعيد عنه خابية زيت كبيرة
وهناك ستارة تخفي جزءاً من الغرفة
حيث سدة النوم

تحامل الرجل على نفسه وقام من مرقده
حتى استطاع ان يجلس
مستندا إلى الحائط ودهاك بصوت
واهن للجلوس بجانبه
فوق الوسادة التي وضعها على الحصير
كان شديد الانهاك، ذابل الوجه يبدو
وكان عشرة اعوام
اضافها المرض إلى عمره منذ آخر مرة رأيته فيها
وردا على لهفة استفسارك عن حالته وطبيعة المرض
الذي اقعده عن الخروج إلى دكانه قال لك:
— وهل هناك مرض غير هؤلاء الطلبة؟
— وما الذي يريده الطلبة من شيخ مثلك؟
— وهل يتكون احدا في حاله ، كبيرا أو صغيرا؟
وصمت الشيخ وهنا واعيا فشجعتة
على الاقصاد عما حدث قائلا:
— هل حدث شيء للدكان؟
— ليس الدكان ولكنها أرضي بتاجوراء التي تركها
لي ابائي واجدادي .
— تلك التي تزرعها في موسم البطيخ بعد ان يسيل الوادي
— أصبحت تلك الأرض والحقول والمراعي التي تجاورها
ملكا للشروع الاستيطاني للمهاجرين الطلبة
لاحظوها بالاسلاك ووضعوا عليها الحراس .
— ولكن هذا ظلم .
— اخذوها بحجة اننا لا نقوم بزراعتها طول العام
وقالوا سندفع تعويضا وكله كذب وضحك على الناس
والله لو كنت اقوى على حريهم لحاربهم بمفردي
ولكن للعمر احكامه .
— هل رآك الطبيب؟
— سقتني خالتك الحاجة شرابا من مخلوط الاعشاب
فيه الخير والبركة .

— استطيع ان اذهب الان لاحضار ممرض عربي اعرفه .

— لا تتعب نفسك فلا اشكو من أي مرض غير هذا الضيق

الذي لا علاج له لدى الحكماء و لا احتاج لغير الراحة
بضعة أيام حتى يزول .

ومرت لحظة صمت قبل ان يقول بصوت ضعيف
ولهجة يملأها الأسى والقنوط :

— هذه الأرض هي كل ما ا ذخرت له لغير الزمان

انتهت كلمات المواساة وأخبرته وعينك على الوقت

كيف ان السفر إلى بلاد الأحباش بات وشيكا

وكيف ان قيادة المعسكر سمحت لعائلات المجندين

بزيارتهم داخل المعسكر وان بإمكانهم زيارة

صهرهم فتحي اذا ارادوا. ابتهج الشيخ المريض للخبر

فسيتيح له ذلك معرفة

اخبار الصهر الغائب منذ أكثر من ستة اشهر

دون ان يتلقوا أية معلومات عنه

دعا الحاج ابنته وزوجته للتشاور في كيفية ترتيب الزيارة

واتفقوا على الذهاب إليه في زيارة أولى غدا

والبحث عن ينقل رسالة لأهله بتاجوراء

ليرافقهم في زيارة ثانية إليه

— ليتني استطيع الذهاب ولكن امر الله حال دون ذلك .

الاعتماد عليك يا ابني في مصاحبة

العائلة إلى المعسكر .

لم يكن صعبا ان تتدبر في اليوم التالي وقتا وان نكتري

من موقف العربات التي تقودها الجياد، المرصوصة

أمام السرايا كروسة تدخل بها حتى باب بيت الحاج

في زنقة بنت الباشا

وجدت ثريا ترتدي لحافا ابيض فوق ردائها المزركش

وبصحبتها اخيها الصبي في بذلته العربية بينما

تخلفت الام لأنها لم تشأ ان تترك الشيخ المريض
بمفرده في البيت
راودتك افكار كثيرة وأنت تجد نفسك جالسا
بجوارها داخل الكروسة
وقد ادار مندوب العائلة التي يرافقها ظهره لكما
جالسا بجوار الحوذي وثريا متلعة بردائها الابيض
تنظر صامتة إلى الطريق
كان يجب ان تكون هذه المرأة لك، لأنك عرفتها واحببتها
قبل ان يأتي الرجل الاخر ويخطفها منك
ولذلك فأنت لا ترى حرجا من السعي لاسترداد
حق ضائع حتى لو تجرأت في هذه اللحظة
وانتهزت فرصة المرور
بزقاق معتم فارغ وعانقتها واطبقت بفمك
على فمها الشهي الجميل
فلن يكون ذلك خيانة لامانة أوتمنت عليها
أو طعنة في شرف
رفيق سلاح هو زوجها ، وانما استرداد
لحق اخذوه منك
عسفا واغتصابا ، انك لن تفعل ذلك
لأنك لا تريد ان ترعبها
أو تفعل معها شيئا ضد ارادتها
ولكنك لن تدع هذه الفرصة
دون ان تفصح لها عما في قلبك
وترمي لها بكل الاسئلة
التي ما تزال تحرق صدرك ، لماذا تركتك وتخلت عنك
وهي تعرف على وجه اليقين انك تحبها ؟
نعم، لقد أوضحت لها حبك منذ ان شعرت بهذا الحب
يخترق صدرك كسهم من نار، واشعرتك هي أيضاً
بانها تبادللك
حبا بحب، فهل كانت حقاً تحبك ؟ هل اخطأت

في فهم اشاراتها
 وقرأت ما قالته لك قراءة خاطئة
 جعلتك تقتنع بانها تبادلك
 الحب ، في حين انها ليست كذلك
 ولم يكن حبك لها الا حبا من طرف واحد
 سألتها هامسا بانك ترغب بتوجيه سؤال خاص إليها
 لوسمحت بذلك ، وقبل ان تعرف اجابتها، قلت
 لها، وأنت تضع فمك قريبا من انهما، انك كنت
 دائما تحمل لها عاطفة
 متأججة لا تنطفئ ، وتقسح لها مكانا خاصا في قلبك
 منذ ان رأيتها لأول مرة ولم تزد على ان قالت
 بانها تعتبرك الان شقيقا ثانيا لها . ليس هذا ما تريد
 ان تسمعه منها ولذلك وصلت حديثك الذي تحول
 معها إلى مناجاة فردية
 لأنها لم تنبس بحرف واحد ردا عليك أو تعليقا على ما تقول
 — كان هناك امل واحد تمحورت عليه حياتي منذ
 أن عرفتك هو أن أفوز بك زوجة لي، هل تعرفين ذلك؟

 — كنت على يقين من أنك تبادليني عاطفة بعاطفة
 وحباً بحب، فهل تراني كنت واهماً؟

 — قد لا تعلمين انك أنت من دفع بي إلى العسكرية .

 — كنت قد هربت عند القبض على واقتيادي للعسكرية
 ولم يكن بإمكانهم الاهتداء الي ولكنني وجدت ان حياتي
 لم يعد لها معنى بعد زواجك .

 — فكرت في ان اقتل نفسي و لكنني خفت عقاب الله
 الذي اعتبر الانتحار شركا به ووجدت ان البديل
 الوحيد للانتحار هو ان القي بنفسي في معسكرات

ورميت به في اذن الضابط
ظهرت على وجهه علامات الاهتمام والانتباه فابلغته
بان لديها قريبة تريد ان ترى زوجها
نجح الخداع وفتحت الكلمة السحرية باب المعسكر
فدخلت ثريا صحبة اخيها إلى صالة الاستقبال
واجتهد مساعد الضابط في البحث
عن اسم فتحي بين القوائم
حتى استطاع العثور عليه وتحديد فرقته وعنبره ورقمه
وكتب ورقة بهذه المعلومات
ارسل بها جنديا إلى الداخل
وفي القاعة المخصصة للقاء المجندين بأهلهم
كان المشهد عامرا بأقوى الانفعالات والمشاعر، حيث
يعقب اللقاء الحار
الذي لا يدوم سوى بضعة دقائق، انفصال مؤلم موجه
وحيث تواجه العائلة حقيقة انه آخر لقاء مع هذا الابن
قبل سفره لخوض حرب
في بلاد بعيدة قد لا يعود منها ابدا
وكان أكثر هذه المشاهد ايلاما
الام التي ارتمت فوق صدر ابنها تعانقه
وتبكي وترفض ان تتركه
عندما حان موعد انصرافها
مما اضطر جنود الحراسة إلى انتزاعها
بالقوة من حضن ابنها
سألتك ثريا أثناء انتظار المقابلة كيف فاتك
ان ترى فتحي وأنتما تعيشان معا في معسكر واحد
اسعدك ان صوتها جاء صافيا نقيا بلا اية تلوينات
توحي بالغضب نتيجة ما قلته لها
من كلام أثناء الرحلة إلى المعسكر
اذن فهي لا تستكر ما بحث لها به من اعترافات
بل لعلها، دون ان تقصح عن ذلك، ما زالت تحتفظ لك

بعاطفة كالتّي تحملها لها
نظرت في عينيها اللوزيتين تبحث فيهما
عن تأكيد لهذه الظنون
فلم تجد فيهما الا مايوحي بجمال الكون وبهاء الحقول
وصفاء السماء الموشاة بلون الذهب لحظة استقبالها
لأشعة شمس الشروق
انك واثق الان من العاطفة التي شحنت
قلبك بالأحلام الكبيرة
لم تولد من فراغ وانما من عاطفة
جياشة حملتها لك
هذه الأنثى الشبية ، الصغيرة ، الجميلة
قيل ان تأتي الاعراف والتقاليد والصدق العمياء
تختار لها زوجا غير الرجل الذي احبته
 ويفرض عليها هذا الزواج ولاء والتزاما
مناقضا لما يريد قلبها
هذا هو كل ما يهكم من حديثها الان
اما أن تعرف فتحي أو لا تعرفه فهو امر غير ذي
بال بل لئنه كان حقا يعيش في معسكر آخر
اذن لاراحك من عناء رؤيته
وايقاظ مشاعر الحسد والغيرة التي تحملها له

جاء فتحي ليقف قريبا من مدخل الصالة
يبحث بعينه عن زوجته وسط الزحام
لم تستطع ان تعرف انه هو على وجه اليقين
الا بعد ان رأيت ثريا تناديه وتتقدم خطوات باتجاهه
فانتحيت انت جانبا لتترك لهما فرصة الحديث بحرية
بل وجدت من الأنسب ان تداري نفسك عن انظاره
حتى تنتهي الزيارة دون حاجة لأن يعرف
انك احضرت ثريا وشقيقها إلى هنا
أو يعلم بالعلاقة التي تربطك بعائلتها

وهذا ما سألت ثريا أيضاً الا تقوله له
لأنك لا تريد ان تتورط في اية علاقة معه
وطالما أنه لا يعرفك، فليبق الأمر على هذا الحال
لأنه انفع لراحتك وهناء بالك
ولعله انفع لراحته وهناء باله هو أيضاً
وقفت بعيدا تراقبه وهو يأتي مهرولاً يضع يديه
الاثنتين في يدي ثريا
ثم ينتبه إلى وجود الصغير فيأخذه
إلى حضنه ويقبل جبينه
بضيء وجهه الابتسام
يبدو متميزاً بين بقية المجندين الموجودين
بهذه الوسامة التي تبدت في نقاء بشرته
وبياض اسنانه
وما يفيض به حضوره من حيوية ونشاط
فرحاً بلقاء زوجته التي لم ينعم بالحياة
معهما سوى بضعة أيام
لم تكن ابداً تتصور انه على هذه الوسامة وهذا الالق
الذي يشع من وجهه وكأنه لم يعيش تسعة أشهر
تحت سياط وذل الاعتقال
لم تكن قد انتبهت إلى وجوده بالمعسكر
ولو رأيته لما استطعت ان تعرفه
فقد غابت ذكرى مروره السريع أمام دكان النعال
ولم تبق منها الا صورة باهتة لوجه بلا ملامح
رأيت كيف ان ثريا، وفور انتهاء لقاءها مع زوجها
انهمرت في بكاء طويل استمر معها
حتى بعد مغادرة المعسكر
سألته بعد ان توقفت عن البكاء
وأنتما تجلسان تحت
مظلة الكروسة عن الدافع وراء هذا البكاء
الحارق الفاجع

وإذا كان بسبب رحيل فتحي إلى الحبشة
فهي تعرف ذلك منذ اليوم الأول الذي أخذه
فيه إلى معسكر بومليانة
فما الجديد الذي استوجب هذا الشعور
البالغ بالصدمة ؟
اجابت وهي لا تزال تجفف عبراتها :
_____ وهل هناك امرأة في الدنيا جديرة بالبكاء أكثر مني ؟
أنني أبكي الاب المريض والزوج الذاهب للحرب
و الحظ العاثر
الذي بطاردني من مكان إلى مكان
وتوقفت قليلا قبل ان تقول :
_____ سمعتك تتكلم عن زواجنا الذي لم يحدث
فيه حدث فما فائدة ذلك مادمت ذاهبا إلى الحرب ؟ انظر
إلى حالي الان وزوجي الذي لا ادري ان كنت ساراه مرة
أخرى أو لا اراه ، وتسألني بعد ذلك لماذا أبكي؟

عادت ثريا إلى البكاء، وعدت أنت إلى الصمت
ذهبت عندما عدت إلى المعسكر آخر النهار
لللقاء صاحبك سالم
فوجدته يجلس بمفرده متكئا إلى جذع شجرة سرو
و آثار الدموع تبلل عينيه
فبدا كأنك موعود بالدموع هذا اليوم
فما الذي يبكي هذا الصديق ؟
سألته عما اذا كان احد المجندين أو المشرفين اساء إليه
فهز رأسه بالنفي وظل صامتا
واصلت الحاحك لتعرف ما الذي احال طبيعته الساهرة
التي تميل إلى المرح والدعابة إلى لحزن والبكاء
فتردد كثيرا قبل ان يعترف بضعفه
وشعور الاسى الذي انتابه
وهو يرى المجندين من أهل المدينة

والارياف القريية
يقابلون أهلهم ويودعونهم
في حين سيذهب هو إلى حرب
في بر الأحباش قد لا يعود منها
دون ان يمنح فرصة ان يرى
امه وأباه كغيره من المجندين
واضاف بلهجة ومصطلحات أهل أولاد الشيخ
— معذرة ، فقد صغرت بي الدنيا يا ابن العم ، ولم
اعرف ماذا افعل بنفسى غير البكاء ، اليس هذا
ظلما ؟ الا يكفي ظلم التجنيد والاعتقال ليضاف
إليه ظلم حرماننا من ان نرى أهلنا
قبل ان نذهب في رحلة الموت؟
— لا تقل الموت يا اخي ، وابعدن نفسك هذا التشاؤم
والعياذ بالله.
تنبهت إلى ان حاله وحالك يتشابهان
وانك أنت أيضاً لن تستطيع ان ترى احدا من أهلك
قبل الذهاب إلى الحرب غير انك لم تكن تولي
اهمية للموضوع
كما يفعل سالم والا كنت سعيت لترتيب
شي ما ازاءه
كأن تفتح فيه السنيورة حورية وتسألها اعطاء
القادمين من الارياف إننا بزيارة أهلهم لمدة
ساعات قليلة
حتى لو ذهبوا إليهم مخفولين بحراس ضمانا لعدم هروبهم
لأنه لن يكون متيسرا لعائلات بكاملها ان تأتي
من المناطق النائية
لزيارة ابن لها في المدينة بسبب بعد الطريق
وتكاليف الرحلة
لقد تأخر الوقت للقيام بمثل هذه التدابير
طمأنت سالم بانك ستبحث

عن طريقة لابلاغ أهلكما
في "أولاد الشيخ" بخبر رحيلكما القريب إلى الحبشة
فقد يجدون طريقة للحضور إلى طرابلس وإذا لم يجدوا
فيكفي انهم اخذوا علما بما يحدث لكما
طبيعة العلاقة التي تربط سالم بأهله تختلف كثيرا
عن طبيعة العلاقة التي تربطك أنت بأهلك
انك لا تعتقد احدا ولا يفتقدك احد
وكان هذا يحدث منذ ان كنت في القرية
بسبب ما حدث من انفصال بين امك وابيك
فما بالك وأنت بعيد عن أولاد الشيخ
وهذا ما لم يحدث لسالم الذي عاش
ما مضى من عمره في كنف امه وابيه
امك المريضة نفسها ، التي تسبق دموعها
كلماتها كلما رأتك
تعودت على فراقك كما تعودت أنت
على الحياة بعيدا عنها
برغم حبك لها وحبها لك
إلا أن مسألة السفر إلى بر الأبحاش
والمشاركة في حرب الادغال والهضاب هناك
والمصير المجهول الذي ينتظرك في بقاع
تبعد عشرات الاف الاميال عن وطنك
وفي مواجهة محاربين ضربوا
المثل في الشراسة والقسوة
كما يقول تاريخهم ، وسبق ان ابادوا
جيوشا جرارة أرسلها
الإيطاليون في حملات سابقة منذ أول القرن
تجعل الموقف يختلف عن غيره من رحلات سابقة
تركنت فيها القرية إلى طرابلس
أو إلى الشعاب والوادي مع الرعاة قبل ذلك
وتجعلك تنظر خلفك بحنين وحب لكل أولئك الأهل

الذين تركتهم وراءك في أولاد الشيخ صغاراً وكباراً
والذين كنت تضيق بهم وتكره الإقامة بينهم
ومبكراً جداً في اليوم التالي
ذهبت إلى زرائب سيدي خليفة
تبحث عن كوخ عبد المولى الشحاذ
لتلحق به قبل أن يستيقظ
من نومه ويبدأ جولة التسول اليومية
ولم تزد على أن قلت له
عندما وصلت إلى كوخه
أن يبحث عن أول شاحنة مسافرة
إلى أولاد الشيخ ويذهب ليبلغ عائلة سالم وعائلتك
بانكما ستسافران بعد أسبوع إلى الحبشة
نفحته نقوداً يتدبر بها أمر السفر ذهاباً وعودة
ونقوداً أخرى يعطيها لبعض أفراد
عائلتك وعائلة سالم
تعينهما على نفقات السفر إلى المدينة لو شاعوا
ووعده عند اكمال المهمة بتدبير مبلغ له
لأنك استنفذت الآن كل ما معك من مذكرات
اتجهت برفقته إلى مركز المدينة
في أول شربول صادفتماه
وتركته يذهب إلى وكالة الشوشان
وعدت أنت مسرعاً إلى المعسكر لأنه لم يكن معك إذن
بالغياب لأكثر من ساعة واحدة
وما أن وصلت إلى هناك حتى وجدت بانتظارك بلاغا
لدى حارس البوابة يأمرك بأن تتجه
فور عودتك إلى قيادة المعسكر
انقبض قلبك وأنت تسمع الخبر
ما الذي يمكن لقيادة المعسكر
أن تريده من مجند محلي
ضئيل القيمة والرتبة مثلك لن يكون خيراً بطبيعة الحال

والارجح ان احد المجندين وقعت في اذنه كلمة مما يدور
بينك وبين سالم من كلمات ضد سلطات الاحتلال
ففرح بها واراد ان يستخدمها في التزلف للإيطاليين
وتحسين صورته في أعينهم فوشى بك
لقيادة المعسكر

لست غشيمًا بالوسائل الخسيسة التي يمكن
ان تلجأ إليها هذه الحشرات البشرية ، وهو أمر
لا يفاجئك ، ولا يفعل شيئًا أكثر من تأكيد ما
تحمله من قناعات عن خساسة هؤلاء الأوباش
اللبيين الصغار الذين يضمهم المعسكر
ممن صار الهوان والمهانة أسلوب حياة بالنسبة لهم
ليست لديك من وسيلة للتأكد من ظنونك قبل الذهاب
إلى مركز القيادة ، غير البحث عن سالم
ومعرفة ما اذا كان قد تم استدعاؤه
وابلاغه بمثل هذه التهمة قبلك
ولكن الأمر القادم من القيادة
لا يعطيك للأسف مثل هذا الترف ويريد منك
تقديم نفسك للمنسق الإداري للقيادة فور
وصولك للمعسكر

وبخطى بطيئة متناقلة صعدت الدرجات الرخامية
القليلة التي تقود إلى باب المبنى حيث قاعد الحارس
إلى مكتب بالطابق الأول ، وادخلك على ضابط إيطالي
برتبة ملازم ، وكانت دهشتك كبيرة وأنت تجد الضابط
الإيطالي يستقبلك بوجه هادئ باسم لا يحمل
أي معنى من معاني الغضب أو التحقيق أو الاتهام
وابلغك بكلمات مقتضبة أنك ستبشر منذ الغد
دورة في قيادة السيارات وإعطاك ورقة تذهب بها
إلى قسم النقل والليات ، وهابطا الدرج صرت تفكر
في معنى هذا التكليف
انه عمل لا يتولاه عادة الا الإيطاليون

ولم يحدث ان عهدوا لاي واحد من الجنود
اللبيين بمسئولية قيادة السيارات
والاليات العسكرية، فهل هي الحاجة الي كثرة السائقين
في الحرب القادمة ارغمتهم على الاستفادة من الجنود
المحليين ، ولكن الوقت الذي تبقى على موعد السفر
إلى الحبشة لا يكفي لاعدادك وتأهيلك لمثل هذه المهمة
الفنية الصعبة التي لم ينس الضابط الذي اعطاك الورقة
ان يذكرك بما تحتاجه من مثابة واجتهاد ومهارة
وبدا الأمر غامضا وعصيا على الفهم
خاصة وانه جاء بشكل مفاجيء لم يسبقه تمهيد
ولم يحدث ان فاتحك أي واحد من ضباط المعسكر في
مثل هذا الموضوع الذي لا تدري من امر به ولماذا
وعندما حاولت ان تعرف قبل ذهابك في اليوم التالي
إلى الورشة
لم تجد أي استعداد لسماع السؤال
فهو امر عسكري عليك تنفيذه دون نقاش
كان ماريو الذي عهدوا إليه بتعليمك شخصا مرحا
طويل القامة، فوق الاربعين بقليل
اسنانه كبيرة بيضاء كاسنان الحمار، وشفته
العليا بها شق خفيف
تجعله يبتسم بشكل دائم نصف ابتسامة
كان يرتدي الملابس المدنية لأنه ليس عسكريا
وانما فني سيارات مدني استعانت به
ورشة المعسكر للاستفادة من خبرته
وعرفت منه ان هناك فنيين كثيرين مثله
يعملون في معسكرات الجيش بصفاتهم المدنية
ويعمل في أوقات فراغه وأيام العطلات سائقا لسيارة
اجرة يحصل منها على دخل اضافي والسبب كما يقول
هي السنيورة فرانكا زوجته التي ترهقه بطلباتها التي
لا تنتهي والتي ارغمته على التضحية بساعات الراحة

لكي يكفل لها المستوى المعيشي
الذي يزيد على المستوى الطبيعي لامثاله
من الفنانين ، وعندما رآك خائفا مترددا من هذه المهمة
الجديدة ، ربت على ظهرك مطمئنا قائلا لك بأنه سيعلمك
قيادة السيارة في يوم واحد فقط ، ولكن لا تبح بذلك
لاحد فهم يعتبرونها مهمة
تحتاج بحد ادنى إلى اربعة أو خمسة اسابيع
وهو يريد ان يستفيد من جهلهم هذا فيمطط المهمة
لاطول وقت ممكن حتى يتيح لك ولنفسه الاستفادة
من هذا الوقت في المرح واللعب
ومعاكسة النساء واطاف ضاحكا مؤكدا على هذه
النقطة الاخيرة :

— للسيارة عند النساء قوة مغناطيسية لا تقوى اية
امراة على مقاومتها . حلم النساء الازلي عن الفارس
الذي يأتي فوق جواد ابيض ، تحول الان إلى فارس
يمتطي هذا الحصان المعدني اللامع
الذي اسمه السيارة ، هناك وسائل كثيرة تستطيع
ان احقق بها انتقامي من فرانكا ، فلا تحزن من
أجلي يا صديقي .

لم يستوقفك في هذه الترترة غير شيء واحد
هو الاسابيع الاربعة أو الخمسة التي يعتبرونها
حدا ادنى لاتقان القيادة باعتبار ان هذه المدة
تتعارض مع المعلومات ، التي تقول بان موعد
رحيلك إلى الحبشة أنت وبقية المتدربين
سيحين بعد أسبوع واحد
ضحك ماريو عندما أخبرته بذلك وقال بأسلوبه
السريع في الحديث المصحوب دائما بإيماءات
من يديه وتحريك رأسه وكتفيه
بل وجسمه كله في حالات الانفعال طربا أو غضبا :
— يمكنك ان تفرح لأنك لن تكون في الفوج

الأول الذهاب إلى الجبهة والا ما ادخولك
إلى مدرسة القيادة .

وبخطى سريعة توجه إلى سيارة عسكرية صغيرة مكشوفة
خاصة بتعليم السيارات وقفز في مقعد السائق
وامرك ان تركب بجواره حيث توجد عجلة قيادة إضافية
غير تلك التي أمام السائق
حذرك ان تعبث بالعجلة أو تلمس شيئاً آخر من اجهزة السيارة
بيدك أو بقدمك قبل ان تسمع الشرح الذي سيقوله لك
ولا تفعل شيئاً له علاقة بقيادة السيارة دون استئذانه
— بمثل ما هذه البهيمة الحديدية وسيلة عبقرية للانتقال
فهي اداة بارعة للقتل لا تنس ذلك ابدا
تستطيع لو اسأت استخدامها ان تقتل بها نفسك
أو تقتل بها الآخرين ، أو تكون أكثر براعة
فتقتل نفسك والآخرين
حصل هذا مع كثيرين . لقد استطاعت هذه البدعة المعدنية
منذ بدء اختراعها ان تنافس اعلى الحروب
واقبح الأوبئة في اباداة البشر
فاحذر وانتبه ، انك أول عربي اقوم بتعليمه
فارجوك ثم ارجوك الا تخيب ظني بالعرب .

وقبل ان تتمكن من قول أي شيء كان قد انطلق بالسيارة
خارج المعسكر وعبر طريقاً معبداً يشق الغابة باتجاه
مركز المدينة

— ما ينطبق على قيادة السيارة ينطبق على اية
سيارة أخرى، اذا تعلمت كيف تقود هذه السيارة الصغيرة
ذات الدفع الرباعي تعلمت قيادة كل السيارات
بما في ذلك سيارات الشحن العملاقة .

اندفع يقود السيارة بسرعة اكبر :

— اريدك ان تشعر بالحرية التي تمنحها لك السيارة
فهي تمنحك جناحين تنتقل بهما لاي مكان تريد
استطيع ان اطوف بك طرابلس كلها من قلعة قرقارش
إلى عين زاره وانقلك إلى باب تاجوراء والملاحة
عائدا بك إلى شارع الملك فيتوريو ايمانويل في مركز المدينة
لن يستغرق ذلك كله غير ساعة واحدة شكرا للمارشال
بالبو الذي كسا هذه الطرق بالاسفلت في وقت قياسي وقد عملا
لآلاف العاطلين من أبناء جلدتك
— متى نبدأ الدرس ؟

— لقد بدأنا سنيور عثمان . ما نفعله الان هو الدرس .
راقب جيدا ما افعله . أريد أن اجري تعارفا بينك وبين السيارة .
اريدك ان تحس بها ، لكي تستطيع هي أيضاً ان تحس بك
وتتفاعل معك . هذا ما احاول ان افعله الان . انك لا تركب المرأة
قبل ان يحصل تواصل وتعارف بينكما وهكذا السيارة
لابد ان تعرفها وتحس بها لتستمتع بركوبها
السيارة سنيور عثمان تريد الرجل الذي يفهمها ويحبها
لكي تمنح له نفسها ببسر وسهولة ، وتمضي معه بلا
مشاكل ولا مضايقات ، هذه هي لحظة تقديمك إليها
وتقديمها لك ، فلا تقلق واصبر قليلا على ما اقول ، وخذ
هذه القطعة من البسكويت .
— شكرا .

— مشروع بالبو العظيم هو " الليتورانيا " طريق طرابلس بنغازي
لقد بدأ الاعداد له ، وسيكون انجازا عالميا ، انتيرناسيونالي ،
جراندي ، مولتو مولتو جراندي .

ليته يتوقف عن الكلام قليلا ليتيح لك فرصة ان تسأله
عما يعرف عن ترتيبات رفاقه الإيطاليين لحملة الحبشة
انها أول مرة تعرف فيها ان ذهابكم سيكون على افواج
وهو ما يضع حلا للمشكلة التي كانت سببا في غضب
الشاويش عنتر واستغرابه لأخذ المستجدين الذين لم يكملوا

تدريبهم الأساسي لأن معنى ذلك هو انهم
سيجدون وقتا لاتمام هذا التدريب
— الان راقبني جيدا وأنا أهدىء السرعة سأضع قدمي
على المكابح ويدي على صندوق تعشيق التروس
دون أن أحيد ببصري على الطريق ...

كانت هناك مفاجأة بانتظارك عندما عدت إلى المعسكر
بعد انتهاء الدرس ، فقد تم إبلاغ المجندين أثناء
ساعات التدريب بأن الذهاب إلى الحبشة قد تم
إرجاؤه إلى أجل سيحدد فيما بعد
سرت شائعات في البداية بأن السبب هو بعض
التعقيدات التي تواجه الحملة الحبشية ومن بينها
نجاح الامبراطور الحبشي هيللا سلاسي بمساعدة
بريطانيا ، في استنفار الرأي العام العالمي
وتهديد عصبة الامم لإيطاليا
بالمقاطعة الاقتصادية العالمية لها لو قامت
بغزو الحبشة
ثم سرعان ما اتضح أن التأجيل حدث لأسباب ليبية
داخلية محضه ، وهو أن حركة جهادية ظهرت
في الجبل الأخضر تقفقي
خطى عمر المختار هي التي أفرغت الإيطاليين
الذين يخشون اتساعها ولذلك أبقوا
على القوات الليبية المزمع
إرسالها إلى الحبشة بهدف استخدامها في سحق
المقاومة الشعبية إذا دعا الأمر
هذا ما عرفتموه من ضباط إيطاليين بطريقة
غير رسمية ، وما أكده عدد من الناس
الذين جاءوا من خارج المعسكر
لزياره أبنائهم ، وهمسوا لهم بما يدور من كلام عن ظهور
المقاومة من جديد في شرق البلاد

وأحدث هذا التحول في مجرى الأحداث
حالة من الغضب والغليان
داخل المعسكر لدى هؤلاء المجندين
الذين وجدوا أنفسهم فجأة
ينقلون من خط المواجهة
مع الأعباء إلى احتمال الوقوف
على خط النار في حرب ضد مجاهدي بلادهم
لم يكن هناك حديث آخر بين المجندين غير هذا الحديث
يتذكرونه همسا وقد يرتفع الهمس إلى صياح عصبي
لدى البعض ينذر بأوخم العواقب وقد تبدى هذا النوع
من الاندفاع والتهور في ابلغ درجاته عندما التقيت
قبل صلاة المغرب بصاحبيك سالم الذي رأيته يأتي
إلى مكان اللقاء غاضبا وقد اصطحب معه
زميلا من رفاقه في العنبر شديد التوتر والعصبية
يتحدث لا بصوته فقط ولكن ببيديه وعضلات وجهه
وقبل أن يجد سالم فرصة لتقديمه لك بدأ يطلق كلماته
كاطلاقات الرصاص وهو يهز قبضته في الهواء
ويكز على أسنانه وينتفض كالمحموم :
— أجبرونا على دخول الجندية لنحارب أناسا لا نعرفهم
في بلاد لا نعرفها من أجل قضية لا تخصنا فرضينا
بالظلم وامتثلنا لأمر الأسياد وصبرنا على هذا
البلاء باعتباره حكم القوي على الضعيف ولكن
إن نقاد صاغرين إلى خوض حرب ضد أهلنا
وإطلاق النار على المجاهدين المدافعين عن تراب أرضنا
لنقتلهم أو نُقتل على أيديهم كافرين آثمين
فهذا ما لن يحدث أبداً ، وسيحدث العكس بدلا منه
ستكون صدور الإيطاليين هي الهدف لرصاص بنادقنا
ومرحبا بالموت بعد ذلك

كان يتكلم بصوت كأنه الصراخ

وقد احتقنت الدماء في وجهه
 حتى تحولت سمرته إلى سواد
 سألته بحزم أن يصمت
 كنت تدير بصرك شمالاً ويميناً
 وتلفت أحياناً إلى الخلف
 وأنت في حالة رعب من أن يكون أحد الناس
 قد سمع الكلام الذي سمعته من هذا المجند
 إنك لا تدري ما الذي دعا سالم لأن يصطحب
 معه هذا الفتى الاحمق
 وهو يعرف عصبية التي تجلب المهالك
 وهو إذا كان يريد الهلاك لنفسه فلماذا يقحمك سالم
 ويقحم نفسه في مثل هذا الأمر الخطير
 ثم ما الذي تراه يريده منك
 وبأية صفة يقول لك هذا الكلام سواء
 كان هذا الكلام صحيحاً
 أو غير صحيح وسواء أراد تطبيق ما يقوله أو لا يريد
 فالأمر يقتضي أن يعالج بالكتمان لا بهذا الأسلوب المكشوف
 الذي سيجعله بالتالي مكشوفاً أمام الإيطاليين
 ولن يجلب له إلا الكوارث، تدخل سالم قائلاً :
 — إذا كان الآخرون قد أجبروا على التجنيد فأنت الوحيد
 في هذا المعسكر الذي جاءهم متطوعاً
 — هل هو تعزيز؟
 — لا ولكنه توضيح فأنت لم تتطوع لتحارب أهلك .
 — طبعاً لا .
 — إذن فأنت أولى الناس بالاعتراض .
 — مازال الموضوع مجرد شائعات .
 — كلنا نعرف أنها أخبار صحيحة .
 — هل لديك اقتراح محدد ؟
 — نعم يجب أن يعرف الإيطاليون أنهم لن يستطيعوا
 الاعتماد على المجندين الليبيين في هذه الحرب

لأنهم ببساطة سينقلبون ضدهم في الميدان .
— وهل تعتقد أنهم سيعجزون عن الاهتداء إلى وسيلة
يمنعون بها حدوث شيء كهذا وهم يعرفون حقيقة
مشاعر الليبيين ؟
وصاح الفتى الآخر الذي تحول إلى كتلة أعصاب مشتعلة :
— إنني لا أطيق البقاء في هذا المعسكر يجب أن نهرب
ربما نجد فرصة للإلتحاق بالمجاهدين .

فهمته أن الهروب ليس سهلاً
وأن احتمال الموت أثناء الفرار أقرب كثيراً
من احتمال النجاة
ومع ذلك أصر على موقفه الذي
وجد تأييداً من سالم
وكننت تريد أن تقول لهما رداً على عنادهما
بان السور موجود
أمامهما وما عليهما إلا الإلتجاء إليه
منذ الآن وتدبير طريقة
للقفز منه والهروب إذا استطاعا إلى ذلك سبيلاً
ولكنك أثرت الأسلوب الهاديء الذي يتحرى
مصلحة هذين الزميلين فطالبتهما بالانتظار قائلاً لهما
بان كل هذا الكلام سابق لأوانه
وأن زمن الحرب بين الإيطاليين والليبيين قد انتهى
بعد أن ساد التفاهم بين الجانبين
وعرفت البلاد شيئاً من الاستقرار والسلام
واختفت المجاعات والأوبئة التي رافقت الحروب
وأن أية حركة تظهر الآن لن تكون
غير حركة يائسة معزولة لن تدوم لغير أيام معدودة
قبل أن تنطفئ وتموت
قلت هذا الكلام لتبطل مفعول ما قاله سالم
وصاحبه الأرعن

في حالة وجود أحد يتصنت عليكم ولا ترونه
إلا أن كلامك هذا لم يزد صاحبك
إلا تشنجا وعصبية
فانطلقت منهما الكلمات الطائشة
التي تهدد بقتل الإيطاليين
و تستنكر ما قلته لهما عن التفاهم
والسلام الذي يسود بينهم
وبين الليبيين لأنه لا وجود إلا للحقد والكراهية
وانتظار يوم الانتقام
وليس كثيرا على الليبيين أن تتأجج نار
حقدهم وتصنع حالة انبعاث للجهاد
الذي كان قائما على مدى عشرين عاما
لمحت جنديا يمشي بين الأشجار القريبة
فتركت صاحبك يخطبان
وعدت إلى حيث كان بقية المجندين
يستعدون لدخول المطعم
فتناولت طعامك وعدت مسرعا إلى العنبر
وبقيت إلى ساعة متأخرة من الليل
نتقلب في سريرك
لا يواتيك النوم خوف أن يكون ذلك الجندي
عينا من عيون الاجهزة الامنية
يتصنت على الآخرين وينقل كلامهم لرؤسائه
ووجدت سؤالا يولد من حالة الأرق ويتشكل
وسط الظلام الذي يحيط بك
وهو ماذا سيكون موقفك لو ساقوك مع الآخرين
لمحاربة المجاهدين؟
لن يكون هذا التدبير جديدا على جيش
الاحتلال الإيطالي فتاريخ الحرب
الإيطالية الليبية التي انتهت
بشنق عمر المختار تقول بأن الإيطاليين

خاضوا معاركهم
ضد المجاهدين بجيش
من المرتزقة الليبيين الذين التحقوا
بصفوفهم بدافع العوز والفاقة وبحثا
عن رغيغ لا يجدونه
إلا عن هذا الطريق المؤلم المهيئ
إنك لا تريد أن تسلك هذا الطريق
ولا أن تأكل رغيغاً مغموساً
بدم أهلك، وتدعو الله في صلاتك ألا يصل الأمر إلى حد
استخدامكم في الحرب ضد أنفسكم
إنك على يقين من أن النعمة ضد الإيطاليين
ستصل حدها الأقصى
في قلوب هؤلاء المجندين ولن يكون غريباً أن يفعلوا ما فعله
الزعيم رمضان السويحلي منذ أكثر من عشرين عاماً مضت
عندما سار جنوده لمحاربة المجاهدين في معركة القرصابية
ضمن كتائب الجيش الإيطالي ولحظة أن بدأت المعركة
اتجه هو وجنوده ببنادقهم إلى صدور
رؤسائهم وزملائهم الإيطاليين
وطبعاً لن ينتهي الأمر عند هذا الحد
وكما حدث قديماً سيحدث من جديد
لأن الطليان سيأشرون انتقامهم العظيم ضد الليبيين
كما فعلوا إثر تلك المعركة التي حقق فيها الليبيون أعظم
نصر في تاريخهم، و سيتفجر الصراع شرساً عنيفاً مرة أخرى
سيكون حريقاً يكرر وينتشر حتى يعم كل المناطق
وستنتهي حالة الاستقرار التي تعيشها البلاد الآن
هذا ما يجب أن يعرفه الإيطاليون أيضاً
يجب أن يعرفوا حجم النعمة التي صارت تملأ قلوب
جنودهم الليبيين منذ أن عرفوا بفكرة استخدامهم لإخماد حركة
التمرد في الجبل الأخضر

الأخبار تتواتر عن مجابهات بين المجاهدين
وسلطات الاحتلال هناك
وعن إعلان حالة الطوارئ ومنع التجوال
في قرى الجبل
والاحساس بالغضب يتنامى داخل المعسكر
ويتحول إلى غليان
و تمرد ورفض للأوامر ومجاهرة بكرهية الإيطاليين
كثرت حالات التأديب والتذويب
كنت قد ابتعدت أياما عن عملك القديم
في جلد المذنبين
منتظرا ان يتم اغفاؤك نهائيا
من اداء هذه المهمة الثقيلة
وكان الشاويش عنتر قد اختار تابعا بحل محلك
في القيام بهذا العمل
ولكن كثرة حالات التمرد
اقتضت الاستعانة بك مؤقتا
في جلد هؤلاء المتمردين
المهمة الان أكثر صعوبة من أي وقت مضى
كنت تقوم بها في إطار المفهوم الذي يعتبرها جزءا
من عملية تربوية تقتضيها أصول التدريب العسكري
أما الآن والمشاعر في غليانها بسبب
ما يجري في شرق البلاد
فإن الجلد يصبح جزءا من قمع هذا الشعور الوطني
الذي يمور في قلوب المجندين
إنك لا تستطيع أن ترفض مهمة أنت الذي سعى إليها
وبفضلها انتقلت درجة أعلى في سلم الترقيات العسكرية
وتبوأت مكانة أكثر ارتفاعا من بقية المجندين
ولا تقوى الآن على هدم كل ما بنيته
بالهروب من أداؤها
أو التهاون فيها فأنت ستذهب لتنفذ

الأمر الذي صدر إليك
ولكن بقلب أكثر وجعًا وانكسارًا هذه المرة
فتبعات هذا العمل في مثل هذا الوقت ، ليست هينة
وهذا ما لمستّه منذ اللحظات الأولى لعودتك
لرفع السوط على زملائك
فقد شعرت بأنك أصبحت أكثر عزلة وغربة
وأنت ترى المجندين يحاصرونك بنظرات الكراهية والاحتقار
إنهم يصنفونك مع الإيطاليين
وهناك من الليبيين من أعطاك كنية تحمل صفة
أدنى من ذلك ، لأنك سمعت أحدهم ، ممن لم تتبين من يكون
بنعتك بصفة كلب الحطية
والحطية هو الاسم الذي يطلقه بعض المجندين
على ذلك الجزء من الغاية
الذي تقضي به ساعات الفراغ
فلم يتبادر إليك أي شك أن المجند الذي قال هذه الكلمة
يعنيك وأنه وأمثاله من الحشرات البشرية يحملون لك حقًا
واحترارًا يزيد على ذلك الذي يحملونه للإيطاليين
مع أن الإيطاليين لا يدركون معنى التضحيات
التي تقوم بها من أجلهم ولا يرونك كما يراك الحاقدون
من الليبيين واحدًا منهم ومهما كنت قريبًا من موقفهم
متفانيًا في خدمتهم فستبقى دائمًا "الاراباتشو" أو "الأنديجينو"
الذي يقل بدرجة صغيرة واحدة عن مرتبة البشر
وهكذا تجد نفسك وربما دون قصد منك وحيدًا
ومنفصلاً عن الجميع من إيطاليين وليبيين
مقيما في تلك المنطقة التي تجف فيها الموارد الروحية
وتتضاعل فيها مادتي الوداد والدفء الإنساني
وسط بيئة هذا المعسكر التي تقوم العلاقات فيها على
المثلث الهنجي القمع والكراهية والاحتقار
هذه العناصر الثلاثة التي لا بد أن تتوافر
بكميات متساوية لضمان التوازن وتأكيد العلاقة

المتتالية والاطرادية بينهم
فكلما تنامي عنصر تبعه العنصران المتتبيان
بالاطراد والتنامي
فزيادة القمع لا تلد بالضرورة إلا مزيداً
من الكراهية والإحتقار
وهكذا صار المعسكر الآن يشهد إحدى لحظات الذروة في
لعبة التوازنات والتنامي الاطرادي لهذه العناصر
أنت هنا تستقطب مشاعر العداء التي تزيد من تأكيد
وحدتك وانفصالك وكأنهما حصتك من العقاب
الذي يجب ألا ينجو منه كل إنسان يقطن هذا المعسكر
أنه عقاب ينسجم مع تكوينك ولا يتعارض تعارضاً كاملاً
مع رغبتك في التوحد والتميز والإنفرد
أنه حتى وإن بدا وضعا مفروضاً عليك
فإنك لا تستطيع أن تقول أنك لم تلاقه
في منتصف الطريق
لقد كنت دائماً وحيداً حتى وأنت تعيش
بين أهلك في أولاد الشيخ
لم تكن أبداً تشعر بالانتماء لشيء
لا إلى العائلة الكبيرة
التي يرى أهل القرية انهم ينتمون إليها
ولا حتى إلى عائلتك الصغيرة المقسومة نصفين
بقيت وحدك مقيماً في تلك المنطقة التي تفصل بين القسمين
تقف هناك وحيداً منفرداً متحداً بنفسك منفصلاً
عن بقية العائلة وبقية الناس
وعندما تركت القرية لأول مرة تطاردك لعنات
أهلها مختبئاً بين أجولة الفحم في سيارة شحن
كان ذلك تعبيراً عن حقيقة علاقتك المفككة بالأهل
وانعدام تواصلك بظروف الحياة في القرية
التي كنت منذ البداية نافرماً منه متطلعاً على الدوام إلى يوم
انعتاقها منها ولم يخطيء من أسماك المعزة السوداء

المنفصلة عن بقية القطيع
فقد كان شكلك وأنت ترفع جسمك
من بين أجولة الفحم لحظة مغادرة القرية يتطابق تمامًا
مع هذا التوصيف الدقيق الحبيث
— المعزة السوداء .
لعله كان وصفا يلحق بك في تلك البيئة البدوية الرعوية
التي لا تعرف مهنة غير رعي الماعز
ومن حقها أن تقتبس
تشبيهاتها من مفردات ذلك الواقع
إلا أن ما تشعر به الآن يبدو مطابقا
لذلك الشعور فأنت هنا أيضاً
معزة سوداء ولكن في بيئة بلا ماعز ولا مرعي ، تقف في تلك
المنطقة الحدودية العازلة بين الإيطاليين والليبيين
ولا أحد بجوارك غير أستاذك الذي جعلته قدوتك في
الحياة العسكرية الشاويش عنتر ولكنه رفيق لا أمان له
فلا تعجب إن رأيته يمضي ويتركك وحيداً
في هذه المنطقة الرمادية
بل هذا هو بالضبط ما فعله فقد امتنع نهائياً
عن تطبيق العقوبات
على المجندين بنفسه لكي يتحاشى
نقمتهم وزاد على ذلك
بأن جاهر أمامهم بنفوره من فكرة الذهاب
لمحاربة المجاهدين
في الجبل الاخضر قائلاً بلهجته البدوية:
— إنهم يحتمون هناك بواحد من أصحاب رسول الله
صلى الله عليه وسلم سيدي رافع ، ياويل الواحد منا إذا
اقترب منه فسيناله عذاب الدنيا والاخرة أجارنا الله
ماذا لو كانوا يجاهدون بعيداً عن ضريح الصحابي الجليل
لأشك أن الشاويش عنتر سيكون أكثر استعداداً
لتنفيذ أوامر الإيطاليين بقتل المجاهدين

وهو سينفذها طبعاً حتى لو احتّمى
هؤلاء المجاهدون بالكعبة الشريفة نفسها
ولكنه مجرد كلام لتفادي نقمة الليبيين
ومع ذلك فقد أكبرت موقفه هذا
فهذه بلاشك أول مرة في حياته
يقول فيها كلاماً لغير صالح الطليان
ويقوله وسط عنبر فيه عيون كثيرة ترى
وإذان كثيرة تسمع
والسنة يمكن أن تنقل ما يقول، وضمائر فقدت فعاليتها
وأعلنت منذ امد طويل استقالتها فلا تشكل
رادعاً أمام أي عمل خسيس
كنت تستطيع أن ترى نظرات الاحتقار
التي يشيعك بها المجندون
خاصة بعد أن تنتهي من أداء مهمتك
في جلد واحد من المتمردين
على الأوامر العسكرية ودون أن تستطيع فعل شيء إزاءها
وحدثت وانت خارج من قاعة الطعام
أن وجدت مجنّداً لا تعرفه
يعبر عن احتقاره لك بأكثر من مجرد النظر إذ تقدم منك
وألقى كلمة نابية مصحوبة بكلمة " كلب الحطية"
وأعقبها ببصقة ألقى بها على وجهك
فمسحت بطرف كمك
اللعاب من فوق وجهك دون أن ترد عليه
لأنك لم تتشأ أن تخلق
مشهداً يجتنب الزحام وتصنع تظاهرة
لن تكون في صفك
على مستوى الليبيين الذين ربما أكبروا
ما فعله بك هذا الجربوع
وهلّلوا له وصنعوا منه بطلاً ، ولن يترك
الإيطاليون عراقاً كهذا يمر

دون عقاب ينال الظالم والمظلوم
كما جرى بذلك العرف في هذا المعسكر
لم تفكر حتى بتقديم بلاغ ضده لسلطات المعسكر كي تنزل به
العقاب الذي يستحقه والذي قد ينتهي بتغيير
جسمه بجلادات من سوطك،
لن نتردد في أن تجعل كل جلدة منها ، رحلة
في جحيم الألم والعذاب
تركته يمشي ومشيت وراءه حتى بلغ منطقة معزولة
من المعسكر حيث لا أحد يراكما وسحبته فجأة من ذراعه
لاويا الذراع بكل ما لديك من قوة
وضعت وجهه بمواجهة الجدار وبغنف وغيظ
أمسكت بفروة رأسه وضربت به الجدار مرة أولى
وثانية وثالثة حتى صار الدم يشخب من جبينه
أخذته إلى المستوصف بحجة أنه سقط أثناء الهرولة
وصدم رأسه بحرف الرصيف
وافهمته وأنت تسحبه من ذراعه إلى هناك
بأنك لا تقل عنه حبا لوطنك وأنت لا تجلد الناس بمزاجك
وإنما استجابة لأوامر عسكرية
لو خالفتها جلبت الهلاك لنفسك
وأنكم جميعا تعيشون هنا تحت شروط
لم يصنعها أحد منكم
ولم تكن لكم يد في اختيارها وواجبكم
أن تقوموا ببعضكم بعضا
وتقدروا ظروف كل واحد منكم
إذ يكفي ما يفعله الإيطاليون بكم
فلا حاجة لأن تضيقوا إلى ذلك أوجاعا
تصنعونها بأنفسكم لأنفسكم
ثم تركته لدى ممرض المستوصف وانصرفت
لم تذهب اليوم للفاتك اليومي مع سالم
خوف أن يأتي بصاحبه الذي جاء به بالأمس

أو بصاحب آخر أكثر بؤسا منه إذ لم تكن في حالة نفسية
تسمح بسماع مزيد من التعزير منه أو من صاحبه
ذهبت لتتأم مبكراً وصحوت لأخذ درسك
اليومي في قيادة السيارة
وفي ذهنك شيء قررت القيام به
ولو أدى إلى وضعك موضع الشبهات لدى رؤسائك
مدعياً أنك تقول ذلك بدافع الحرص على سلامة العلاقة
بين الإيطاليين والليبيين ورغم تهريج ماريو وبحته
عن المغامرات النسائية نكاية بامرأته فرانكا وانتقاماً منها
واعترافه لك بأنه بصاحب أكثر من امرأة من بائعات الهوى
اللاتي يأخذهن إلى منطقة آمنة دخل الغابة أثناء النهار
وأنه لا مانع أن تكون شريكه في مغامرة اليوم
شرط أن تدفع حصتك من التكاليف
إلا أنك أفهمته بأنك ستكتفي بأخذ درسك فقط
دون مغامرات نسائية في الغابة
لأن لديك مهمة بعد الدرس
مكلفاً بأدائها، ذات طابع عاجل ومهم
دون أن تدخل معه في حوار حول التزامك الديني
الذي يمنعك من ارتكاب هذه المحرمات
ولم تعبأ بثروته عندما صار يزين لك
مغامرة اليوم ومتعة ممارسة
الحب وسط الغابة وما يعنيه ذلك
من انسجام وتواصل مع الطبيعة
ثم قال قافزاً إلى موضوع آخر:
— لماذا أنتم هكذا أيها العرب لماذا بحق الجحيم ؟
— ماذا تعني ؟
— هذا الحجر على النساء وحسبهن بين حيطان البيوت لماذا ؟
ما هو السبب ؟ أية لعنة جلبتموها لأنفسكم رجالاً ونساء
وأية نعمة حرمتن أنفسكم منها أيها الرجال عندما صنعتم
لأنفسكم عالماً خالياً من النساء، كان هذا الموضوع مفاجأة

مذهلة لي عندما جئت إلى بلادكم لأول مرة منذ
عامين، لم أكن أعتقد أن هناك
مكانا في الدنيا مثل هذا، مجتمع خاص بالنساء
خلف الجدران ومجتمع آخر للرجال هذا ضد
الطبيعة ، ضد الإنسانية، ضد الحياة، ضد الله .

ضحكت من كلامه لأن ما يراه غريبا
هو الأمر الطبيعي
الذي يأمر به الدين وتقتضيه
القيم والأصول والأخلاق
فالعيب ليس في صون الحرمات
وتجنب المرأة مناعب العمل
ومشاكل الاختلاط بالرجال
في المكاتب والمحافل والأسواق
لتبقى داخل بيتها معززة مكرمة، العيب، قلت
له، فيما يفعله الإيطاليون الذين يبتذلون نساءهم
ويرغمونه على العمل
في المقاهي والأندية والأسواق وبيع شرفهن في الملاهي والحانات

وعلى طريفته في الفقر من موضوع إلى آخر قال ماريو:

—— إنني أمتلىء فضولا لأن أتعرف على جسد امرأة عربية
جسد المرأة هو أفضل وسيلة للتعرف على شخصية
الشعب الذي تنتمي إليه هذه المرأة ، وفهم ثقافته
الحسية الجنسية ، أريد أن اعرف كيف تتصرف في
السريـر، بعد ان عرفت كثيرا من الجنسيات ، ليس عيـثا
هذا التجانس والتماثل بين الجنس الذي اتكلم عنه
وبين الجنس بمعنى الجنسية كلاهما يشير الى الآخر
ويدل عليه ، لا اعني السرير بمعناه الحرفي
فالله اراد الكرة الأرضية كلها ان تكون سريرا كبيرا
يعاشر فوقه الرجال النساء . اعني اتعرف إليها جنسيا .

اعرف من غير الإيطاليات ، يهوديات ومالطيات ويونانيات
وعجريات ، وساجعلك تعرف من تشاء منهم
من أجل أن تقضي أنت أيضاً لحظات ممتعة في الغابة
بالمقابل فإنني أريدك أن تحضر لي امرأة عربية
يجب ان تكون جميلة وصغيرة ومثيرة لكي لا يخيب ظني
في النساء العربيات. لابد أنهن شبقات، متعطشات للحب
والجنس فالرغبة المكبوتة المحبوسة خلف الأبواب والجدران
لابد ان تتفجر كالبركان عندما تجد الفرصة .

سألته قبل أن يكمل كلامه أن يوقف السيارة لأنك قررت ان
تهبط منها وتهرب من ثرائته الفارغة المملة
وليقبل في تقريره عنك ما شاء ان يقول . لم يكن درس
اليوم قد وصل إلى نهايته
ولكنك وجدت نفسك قريباً من وسط المدينة
حيث لن تحتاج لغير دقائق قليلة حتى تصل
إلى بيت السنيورة حورية
في شارع البريد ، التي قررت زيارتها
كنت واثقا من وجودها في البيت
وانك جئت في وقت يناسب
موعد استيقاظها قياسا بما عرفته في مرات سابقة
دخلت عندما فتح لك مرجان الباب وجلست بانتظارها
في الصالون ، لم تمض غير برهة صغيرة حتى جاءت
يسبقها عطرها ، واشعاع من ضوئها ، للترحيب بك
لم تشأ ان تتركها تطيل التخمين في اسباب هذه الزيارة
ودخلت مباشرة في الموضوع الذي جئت من أجله
قلت لها بانك فخور لأن سيادة المارشال اختارك لكي تزوده
بتقارير دورية عن حالة الليبيين عند وصولهم أرض المعركة
واشراكهم في الحملة الإيطالية لاحتلال الهضاب الاثيوبية
ولذلك فانت لا تشعر باي حرج عندما تبدأ مهمتك منذ الان
وتزوده بتقرير عن حالة جنوده الليبيين قبل ذهابهم إلى هناك

ثم شرحت لها كيف ان معنويات هؤلاء الجنود الذين تريد
إيطاليا الاعتماد عليهم في حروبها، في حالة هبوط بلغ
ادنى درجاته وحالة غضب بلغ أقصى واعنف هذه الدرجات
وقد حصلت لهم هذه الحالة عندما تأجل فجأة موعد الذهاب
إلى الحبشة وعرفوا ان السبب يتصل بحركة
التمرد التي ظهرت في الجبل الأخضر، واعتزام
القيادة اخذهم إلى هناك لاختماد الثورة
ثم وجدت نفسك ودون وجل تقول لها
رأيك بصراحة في هذا التدبير الذي سيخلق
حالة من التأزم في البلاد
ويوقف مشاعر الثأر والنقمة ويعيد العلاقة بين الشعب
الليبي والإيطاليين إلى ما كانت عليه أيام جرساني
بعد ان عرفت عهدا من الاستقرار والازدهار والسلام منذ
ان أصبح المارشال بالبو حاكما يحمد له الليبيون
انه لم يقتل مواطن ليبي واحد في عهده على ايدي الإيطاليين
— ومن قال لكم ان هناك تمردا في الجبل الأخضر ؟
— هذا ما يقوله كل الناس .
وضاحكة اعدت حورية كلمة " كل الناس " ثم اضافت:
— اذا اعتبرتني واحدة من كل هؤلاء الناس فان هناك
استثناء ، هو انا .

وباندهاش سألتها ان كان ما يقولونه
حول هذا التمرد يخالف الحقيقة التي تعرفها هي
فكان جوابها حاسما :
— لا يمكن لاي إنسان يعرف ما فعله ايتالو هناك ان يصدق
مثل هذا الكلام، لقد أجرى منذ ان وصل إلى حكم الولاية
اعادة بناء شملت كل انحاء الجبل الأخضر بما في ذلك
المساجد والمدارس القرآنية وازال الاسلاك الشائكة
وأطلق سراح كل من بقى في السجون والمعسكرات من اعضاء
المقاومة الشعبية وعائلاتهم ومنح العاطلين منهم عملا في

حفر آثار قورينا وبناء فندق الجبل وشق الطرقات الحديثه
في تلك المنطقة، ولقد رأيت بنفسى عندما ذهبت معه منذ اشهر
مضت لزيارة تلك المنطقة مقدار الحب الذي يحمله له الناس هناك
كانوا يستقبلونه بالتصفيق والاهازيح والزغاريد في حشود كبيرة
وهو يطوف بينهم دون حراسات ويمد يده لمصافحة كل من
تصل إليه يده. انه أيضاً يحب تلك المنطقة ، انها ساحرة ،
مرعبة، مدمرة ، فطية ، فطية جدا ، الفندق الذي بينه
ايتالو هناك يطل على أجمل منطقة في العالم حيث البحر والغابة
والجبل واثار قورينا ، ومعابد ابوللو، وايزيس ، وآمون ،وزيوس
التي تنتمي لاعظم الحضارات ، وليس ببعيد عنها منتجع رأس
الهلال وحمام كليوباترا وصخرة القديس مرقص وكهفه ، عالم
ليس من هذا العالم و توليفه عجيبة ، بديعة، مهلكة، خرافة
خيال ، مستحيل .

دق جرس الهاتف فقامت حورية للرد عليه ثم اخذت الجهاز
وانسحبت به إلى اجنحة البيت الداخلية عادت لتقول لك :
— انه ايتالو. يبدو غريباً كيف تتحول الاحداث الصغيرة
إلى حروب في خيال بعض الناس .

ثم أخبرتك بما عرفته للتو من المارشال بالبو نفسه قائلة بان
اشتباكا وقع بين " المهارىستا" وهم حراس ليببون يركبون
المهاري ويراقبون المناطق المتاخمة للحدود
وبين قافلة من البدو، فالمهارىستا ينفذون تعليمات قديمة
تطالب كل من يعبر تلك المناطق متجها صوب الحدود المصرية
بترخيص من الحاكم العسكري، لم يكن هؤلاء البدو يملكونه
مما نتج عنه سوء تفاهم ادى إلى ان يعتصم جماعة القافلة
بكهف في الجبل ويقوموا باطلاق النار على جنود الدورية
وقد اصدر المارشال امره برفع كل الحواجز والغاء الأوامر التي
تطالب بالترخيص ومنح الناس حرية التنقل في هذه المناطق
وامر المهارىستا بالبقاء في النقاط الحدودية

والا يغادروها ابداء، وانتهت الازمة

التي لم تستمر سوى أيام قليلة

تعرف انت ان لأهل الحكم والسياسة اسبابا تدعوهم لتلوين

الحقائق واخفائها في بعض الاحيان ولذلك فانت لا تستطيع

تصديق ولا تكذيب ما قالته حورية أو ما قاله لها المارشال

المهم انك تشعر بارتياح كبير لأنك جئت لهذا البيت

وقلت ما قلته ورفعت عن كأهلك ذلك العبء دون ان

ينالك أذى أو تسبب حرجا لحورية أو تثير غضب

صاحبها الحاكم الإيطالي

وقبل ان تسألها عن السبب الذي ادى إلى تأجيل

رحيلكم إلى الحبشة واصلت هي الحديث قائلة بان

التأجيل حدث لاسباب غير ليبية، ذات علاقة بجبهة القتال

نفسها ويسبب رداءة الطقس تقرر تأجيل بدء العمليات العسكرية

إلى حين انتهاء موسم الامطار مما يتيح فرصة أكثر أمام

المجندين الليبيين لمزيد من التدريب

ثم اضافت شيئا ليقط في نفسك الشكوك حول نفيها

لظهور المقاومة في الجبل الأخضر عندما جاء في حديثها

ذكر الأرض التي ستدور فوقها المعارك في الحبشة

وطبيعتها الجبلية التي تقتضي ان يشمل التدريب المتقدم

انتقال بعض الجنود لاداء بعض التمارين القتالية

في مناطق مشابهة ليسهل عليهم بالتالي تنفيذ العمليات

العسكرية التي يكلفون بها هناك

قالت لك وهي تأخذ من الخادمة كأس عصير البرتقال وتقدمه لك :

_____ وكيف حال الدروس التي تأخذها في قيادة السيارة؟

_____ اذن فلا خبر يخفى على السنيورة حورية

_____ وكيف لا اعرف خبرا كهذا اذا كنت انا من رشحك

لهذه المهمة .

اذلك ما سمعت فقد كنت حائرا لا تدري الجهة

التي اختارتك لهذه المهمة ولا السبب وراء

هذا الاختيار ولا تعرف احدا تسأله

وعندما سألت لم تجد لدى احد ممن سألتهم جوابا سوى
ان هذه هي طبيعة الأوامر العسكرية وها انت الان وجها لوجه
مع المرأة التي كانت وراء ذلك كله، انها أوامر حريمية
وليست أوامر عسكرية كما قالوا فما هي يا ترى المهمة
التي تعدك لها وما الذي سيعود عليها من نفع ما دمت
مندورا لتصبح قربانا لاله الحرب في بر الحبشان
— لدي مشكلة صغيرة مع سائقي عياد

يريد ان يستقيل لأنه منذ اربعة اعوام لم يذهب إلى أهله
في مرزق ولا يعرف ما حدث لأرضه الزراعية هناك
ولأنني تعودت عليه واعجبت بامانته فقد اتفقت معه ان
يذهب لمدة ثلاثة اشهر يقضيها مع أهله ويرتب امر مزرعته
ثم يعود لمواصلة العمل معي وسأحتاج خلال مدة غيابه
لمن يقوم مقامه ويكون محل ثقة مثله .
— سأبذل جهدي كي اكون أهلا لهذه الثقة .

— مهنة كهذه تفيدك كثيرا جدا في حياتك العسكرية .
— ومتى ابدأ العمل؟

— حالما تحصل على رخصة القيادة، عندها نطلق سراح عياد
ونسلمك مفاتيح السيارة .

السيارة السيارة السيارة، جواد العصر الحديث، المصنوع
من اسلاك وصفائح معدنية، رمز القوة والسرعة
والحياة المرفهة الباذخة، كيف لا تطير فرحا
وانت تجد نفسك موعودا بامتطاء إحدى
أبهى وأجمل السيارات

تطوف بها المدينة وتنتقل بها من مكان إلى آخر كما يفعل
اسياد هذه البلاد

كنت تظن يوم ان بدأت التدريب على القيادة
انها مهمة ضمن مهماتك العسكرية
ستؤديها اثناء الحرب

وها انت تعرف الان ان الأمر يختلف، وان السيارة

التي ستقودها بعد أيام ستكون سيارة مدنية
من سيارات حاكم البلاد
الذي لا يجوز لاحد ان يملك سيارة
افخم أو أجمل من سيارته
تؤدي بها بعض المهمات للسنيرة حورية
وفيما تبقى من الوقت ستكون السيارة لك
تتجول بها حيث تشاء دون ان يجرؤ احد على إيقافك
أو مساءلتك أو تغريمك عند ارتكاب المخالفات
الا تحمل الارق الارقام الخاصة بقصر الحاكم العام؟
كنتم خبر المهمة التي تقوم بها خارج المعسكر
ولم تخبر بها احدا من رفاقك المجندين
بمن فيهم صاحبك سالم
الذي لم تنتظر حتى مجيء المساء للقاءه
وانما اخترت موعد الغداء لتبليغه بانك رفعت شكوى
المجندين الليبيين لاعلى سلطة في البلاد
انتحيت به جانبا خارج قاعة الطعام
وأخبرته بان انتبعت المقاومة الشعبية من جديد ليس
الا حلما يداعب قلوب بعض الناس
وما أن سمعوا بان بدويا أطلق النار على بدوي آخر
يعمل حارسا للمناطق الحدودية حتى اعتبروه ميلادا جديدا
لكتائب عمر المختار
— فلنقترح اذا اردت الفرح لأن الإيطاليين لن يأخذوك إلى حرب
في الجبل الأخضر ضد مجاهدين لا وجود لهم .
— وهل تصدق ما قالوه لك ؟
— وما هو السبب الذي يرغب الحاكم العام لليبي على الكذب ؟
— وهل هناك اكذب من هؤلاء الحكام ؟
— اسكت ولا تلقي بنفسك إلى التهلكة. اطمئن انه صادق
مئة في المئة ولعلك غاضب لأنه اضاع عليك فرصة ان تعيد
الحياة العمل البطولي لرمضان السويحلي في القرصاوية .

كنت تريده ان ينقل فحوى هذا الكلام إلى بعض المجندين
كما ستحاول انت أيضاً نقله إلى بعضهم
عند الانضمام إليهم داخل المطعم
ولكنك رأيت فور جلوسك على منضدة الاكل
الشاويش عنتر يقف وسط القاعة ويطلب من الموجودين
الهدوء والاستماع إلى ما يريد ان يقوله
وهو انه لا صحة للشائعات التي تقول بانكم ستذهبون إلى
الجبل الأخضر لمحاربة المتمردين لأنه لا وجود
لمثل هذا التمرد الا في اذهان الحاقدين والموتورين
مما يسود المجتمع من هناء وامان وسلام
والصحيح انهم سيختارون كل يوم
فرقة تذهب إلى جبل غريان للتمرين على حرب الجبال
وستعود في نفس اليوم لتنام في المعسكر

اشاع هذا الكلام القادم من مصدر رسمي جوا من الطمأنينة
بين المجندين الذين انطلقت من صفوفهم كلمات الاستحسان
وعبارات الحمد لله، وحدث انشاء جلوسك بجوار سالم
وانتما تتناولان الغداء وتغمسان الخبز في حساء الفاصوليا
ان سمعتما احد جنود المراسلة ينادي اسمكما عبر البوق
ويطلب منكما الاتجاه إلى البوابة فتركتما الطعام واندفعتما
باتجاه صالة الزوار فقد عرفتما أن هناك زيارة تخصكما
و وجبتما لحظة وصولكما هناك حشدا
من أهلكما في القرية ينتظركما، نساء ورجال
وأطفال يزيد عددهم على عشرة
أشخاص ، فقد جاءت امك تصطحب معها زوجها
وجاء والدك يصطحب زوجته واثنين من أولاده
كما جاء لزيارة سالم والداه
وامه وعدد من اخوته واعمامه يقودهم عبد المولى الشحاذ
و أمام البوابة كانت تنتظرهم سيارة نصف نقل
هي التي جاءوا متكديسين في صندوقها الخلفي

وهي التي ستعود بهم بعد انتهاء
الزيارة، وكان والد سالم مساهما دائما في قيادة
الأنشيد والمدائح النبوية في الاحتفالات بالمولد
النبوي، يحفظ بعض الايات
والتعابير الدينية ولذلك فانه ما أن انتهت الاحضان
والسلامات حتى رفع يديه بالدعاء يطلب من الله
ان يرعاهما ويحفظكما وينجيكما من المهالك
والاخطار ويرد غربتكما في اقرب الاوقات
ومن خلفه بقية الأهل يرددون آمين
بصوت يلونه الانفعال ويختلط بالنشيج والبكاء
وما لبث ان شارك في هذا الطقس كل من كان في الصالة
من زوار ومجدين واتخذ دعاء ابي سالم صفة الجمع بدلا
من صفة المثنى ليشمل بدعائه كل من سيذهب إلى الحرب
من الحاضرين، وانتهى الدعاء فسألكما أن تقتربا منه
ووضع يدا على رأس ابنه، والأخرى فوق رأسك وصار يقرأ
تعويذة "الحصن الحصين" قائلا لام سالم التي انهمكت
في البكاء بان هذه التعويذة ستكفل بارجاع ابنها ورفيقه سالمين
مما ساعد على تخفيف حدة البكاء لديها
ولدى امك التي كانت تبكى بحرقة أكثر منها، بل بدا
البشر على وجهيهما ووجوه
بقية الأهل ، وكان ما قاله الرجل من دعاء
ستسجيب له المشيئة الالهية دون ابطاء
انتهت الزيارة سريعا وعاد الأهل إلى التكدس
في صندوق السيارة التي انطلقت بهم صوب
قريتهم، بعد ان تركوا لكما زادا
تسافرون به إلى بر الأحباش، صرة من السوق
وجرة من القديد، وعلبة من كعك العيد
رغم احساسك بالغبطة وانت تعانق امك واخويك وترتمي في
احضان ابيك فان الزيارة لم تترك أي اثر في نفسك
ولم توظد لديك ما كنت تتوقعه من حنين إلى عالم القرية

ومرابع الطفولة والبراءة بها ، جاءوا اثناء الزيارة
على ذكر حالات وعمات
واخوان واعمام يبعثون إليك بتحياتهم فكنت تحس كأنهم
يتحدثون عن اشباح من ماضٍ سحيق
وبدت القرية في ذهنك مكانا بعيدا كأنك تركتها
منذ عشرات السنين لا منذ اشهر قليلة مضت، و صارت
صورتها وذاكرات الحياة التي
عشتها فيها وصور البشر الذين خالطتهم وكبرت بينهم
تتلاشى في ذهنك حتى تكاد تتمحي

ومع انقضاء ساعات النهار واقتراب موعد النوم
لم يبق في رأسك شيء من الزيارة وعادت تحلله
كلمات ماريو هذا الصباح ووعوده لك بمغامرة
من مغامرات العمر كما يقول، ويبالغ في القول بكلماته
التي تقع في اذنك موقعا غريبا نتيجة
لهجته الجنوبية القوية :

— دوماني سينيور أوسمان دوماني
غدا هو موعد المغامرة النسائية التي يدعوك إليها ماريو
ويلح في الدعوة ، انها ليست المرة الأولى التي تقف فيها
موقفا حائرا أمام غواية الجنس، فقد حدث شيء مماثل اثناء
عملك بدكان الاحذية عندما ارادت زبونة
من نساء شارع سيدي عمران غوايتك
أخبرتكَ دون مواربة بمهنتها وعرضت عليك زيارتها
في بيتها بالشارع الشهير ، واحبت حذاء نسائيا معروضا
بالدكان ارادت ان تأخذه وتمنحك ثمنه جنسا
استنكرت ما قالته واويت إلى فراشك
تلك الليلة وانت مسهد

لا تعرف كيف تنام، كانت امرأة تتقن فنون الاغراء
جاءت إلى الدكان ملفوفة في فراشيتها، كتلة من البياض
لا يظهر منها أي شيء ، وجلست أمامك

على الكرسي الصغير الواطيء الذي لا مساند له
المعد للزبائن اثناء اخذ القياس
لاحذيتهم وتجربتها على اقدامهم، وكشفت أمامك وجهها
الذي استخدمت في تزيينه كل فنون المكياج فبدا مثل وجوه
العرائس، مغريا بالوانه الساطعة
ثم فتحت اللحاف عن صدرها وكشفت لك عن جمال واستدارة
نهديتها، وعندما رأتك ترتعش رهبة ودهشة مما سمعت ورأيت
سألتك وهي تضحك ان تلمسهما اذا اردت
بعد ان حانت منها النقاة إلى اليمين وأخرى
إلى الشمال تطمئن إلى خلو المكان من الفضوليين
تريدك ان تعرف ان هذه النهدين
اللذين ارعشاك وارعاك ليسا وحشين صغيرين سيعضانك
رائك تدير وجهك عنها رافضا عرضها فابدت استغرابها كيف
لشباب في مثل عمرك ان يقاوم اغراء هذين النهدين
ثم نهضت وغادرت الدكان غاضبة ، واثقة
بانك مصاب بمرض ينتقص من رجولتك ، بينما رأيت
انت في امرأة سيدي عمران
صورة مجسدة للشيطان الذي يفسد على الناس ايمانهم
ويقودهم عبر طريق الضلال إلى ابواب الجحيم
لقد عشت قبل ان تخرج من القرية تجربة
مريرة من هذا النوع عندما استجبت لضعفك
ازاء دعوة تلك الصبية السمراء
وجاء عقاب الله عاجلا لا آجلا عندما افتضح سر
وخرجت من بلدتك مطرودا منبوذا
ولا تريد لهذه الخطيئة ان تحدث مرة أخرى
ولا لمثل ذاك العقاب ان يلاحقك في المكان
الذي وجدت فيه ملاذا
أما بعد أيام من العنت والعناء
بقيت لزمان طويل، رغم الامتناع عن ارتكاب الخطيئة
اسير ذينك النهدين وسحرهما ولم تعرف وسيلة

أوطريقا لنسيان صاحبتهما
التي ظلت صورتها وهي مكشوفة الصدر تدس عينيها
الكحيلتين في وجهك، لا تفارق ذاكرتك حتى هذا اليوم
انها لم تترك بعد ذلك ابدا
ولم تمنحك فرصة ثانية تختبر فيها
قدرتك على مقاومة الغواية
وهاهو ماريو الذي يسميه
اصحابه بالورشة ، ماريو العجوز، يقدم
لك عرضا شديد الاغراء
ويدعوك لأن تشاركه احدى ولاثم اللحم الابيض الإيطالي
فما تراك قائل هذه المرة ؟
تحفظك الديني وخوفك من عقاب الله في الدنيا والاخرة
يمنعانك من ولوج هذا الطريق، إلا أنك في دخيلة نفسك
تتمنى ان تجد شيخ دين، متفتح المدارك، يقدر
ظروف شاب في مثل سنك، وصل سن البلوغ
منذ عشرة اعوام ، تتدفق الرغبة في شرايينه
حارقة مؤلمة كلما رأى خيال امرأة
أمامه، وليس بإمكانه الزواج
وهو يتمزق بين ضميره الديني وصراخ الدم في عروقه
لا يمكن لمثل هذا الشيخ ان يفشل في العثور على حل
لمثل هذه الحالة الشائكة، التي كان السلف الصالح
في أوج ازدهار الدولة الاسلامية يعالجونها بنظام الجواري
وما ملكت ايمانكم، اما في العصور الحديثه فقد سمعت انه يكفي
وانت تلتقي بالمرأة الطارئة العابرة
التي تريد ان تعاشرها معاشرة جنسية
ليوم أو يومين فقط ان تضع يدك في يدها
وتقرأ سورة الفاتحة بنية العقد عليها وتعطيها جزءا من اجرها
فيما يمكن اعتباره مقدم الصداق لتصبح المعاشرة بالتالي حلالا
ثم تعطئها بعد ان تفرغ منها مؤخر صداقها وتعتبرها طالقاً
هل يمكن ان يكون الحل سهلا وميسورا إلى هذا الحد

الا يبدو التلاعب واضحاً في مثل هذا الفعل
من افعال المتاجرة بالجنس
استيقظت من نومك وذهبت للقاء ماريو
دون ان تصل إلى قرار
سألك اثناء التدريب ان تتنبه جيداً للدرس لأنه سيعطيك في
حصّة واحدة مايجب ان تأخذه في ثلاث حصص
لتكريس بقية الوقت للمتعة والترفيه عن النفس
فقد واعد امرأتين من الغجر الإيطاليين
لأخذهما بعد ساعتين من منطقة بورتا بينيتو
القرية من الغابة، أو البوسكو كما يسميها هو ، ليدخل بهما
إلى دغل آمن، سبق ان ذهب إليه ماريو في مغامرة سألقة
ووجده انسب مكان لمثل هذه النزهة
فهو بعيد عن الطرقات والمسارب التي تشق الغابة
ولا تستطيع دخوله الا مثل هذه السيارة العسكرية
ذات الدفع الرباعي
لم تعار ضه ولم توافقه، ولم تقل شيئاً عندما انهى
حصّة التدريب واندفع مسرعاً باتجاه المكان
الذي واعد فيه المرأتين
وفي الطريق إليهما وقف أمام متجر
لبيع الخمر واشترى
زجاجة نبيذ أحمر، دون ان ترى حاجة لأن تبدي اعتراضاً
كل ما في الأمر انك ستمتّع عن مشاركته شربها
فهو له دينه وانت لك دينك
وفي ركن منزو من شارع خلفي
غارق في ظلال الأشجار وجدتما المرأتين تنتظران
لم تتبين ملامحهما نتيجة كثافة الظل
وسألها ماريو فور ركوبهما في الكرسي الخلفي
ان يدسا جسميهما بين الكراسي كي لا يراها احد
حتى يدخل بهما الغابة، وسلمت
انت امرك لما يفعله ماريو

تاركاً نفسك لما يمليه الموقف
بلا تعليق، ولا تفكير، ولا شعور
بالاثارة كما يحدث مع ماريو
الذي تزداد ابتسامته اتساعاً
وكلماته سرعة وانفعالا
وهو يقود السيارة داخل الغابة، عبر
طريق مترب تركت فيه السيارات
اثار عجلائها ، قبل ان يترك الطريق
إلى آخر لا اثر فيها لعجلات السيارات ، متوغلا
عبر الأشجار إلى الركن الظليل
الذي تتشابك فيه الاغصان وتصنع مظلة تحميكم
من أعين المتطفلين
أوقف السيارة واخرج من صندوق الامتعة
منضدة مطوية ومجموعة من الكراسي الخشبية
المطوية هي الأخرى، صار يفرد لها ويعد
المكان لجلسة اللهو والمؤانسة، تحت هذه
الخميلة الآمنة ، ويحضر اكوابا للنبيذ
وصحنا وضع فيه شرائح جبن ولانشيون وحبات زيتون
قبل ان يجلس ويدعوها للجلوس
والمشاركة في الشراب والطعام
إلا أن الشيء الذي افسد خطته هو خوف المرأتين من
حراس الغابات، ولهذا فهما تريدان اتمام المهمة بسرعة
قبل حدوث أي شيء طارئ يقلب اللهو غما
ثم يمكن في رأيهما ان تقضيا وقتا في الطعام والشراب
والدردشة بعد ذلك ، وهذا مخالف لنظرية ماريو الذي يريد ان يبدأ
بجلسة تعارف تخلق جوا من المودة والالفة يساعد بعد ذلك في
العبور للحظة الجنس باعتبارها تكملة لما سبق
المشكلة كما فهمت من ماريو انها لم تألفا الحياة في طرابلس
فهما حديثتا عهد بالبلاد، لم يمض على وصولهما غير بضعة اسابيع
لم تكن كافية لخلق علاقات مع ضباط الشرطة لحمايتهما

كما تفعل نساء اخريات ولذلك فهما تمضيان في ممارسة
هذه المهنة دون حماية، كما أنهما تتكلمان الإيطالية
بلهجة القبيلة العجرية التي تنتميان إليها
والتي كان ماريو نفسه يجد صعوبة في فهمها
ولعلمهما تجدان بالتالي صعوبة في التواصل حتى مع أبناء
قومهما الطليان مما اضاف إلى طابع الخوف
والحذر في شخصيتيهما
ولم يملك ماريو في النهاية إلا أن يستجيب لطلبهما
بضرورة ان يكون الجنس أولا وان يتخلى عن النظرية
التي يؤمن بها في ان الجنس يأتي أخيرا
تحرر ماريو بسرعة من ملابسه وبقى عاريا، يحاول تعرية
احدى العجريتتين ويسأل ان تفعل مثله
هربت من منظر الرجل العاري إلى اعماق الدغل
تتبعك المرأة الأخرى حيث وجدت نفسك تتقلب معها
فوق فراش من العشب الأخضر
انهمكت في لعبة الجنس
دون ان تسأل نفسك عن الخطأ والصواب
أو عن الحلال والحرام أو عن الثواب والعقاب
فهي المرة الأولى في حياتك التي تمارس فيها العملية الجنسية
كاملة لأن ما قمت به مع عزيزة كان لعبا بجسمها العاري فقط
لم تكن تعلم سبب اندهاش المرأة العجرية
وهي تراك لا تنتهي من ممارسة جنسية الا لتبدأ ممارسة أخرى
وكررتها كثيرا حتى وصلت عشر مرات
احسست بعدها بالانهاك
فارتفعت على ظهرك عاريا فوق الأرض
العارية الا من غطاء العشب، وقد تبعثرت اطرافك في كل اتجاه
كأن هاتين الساقين وهاتين القدمين وهاتين الذراعين
وهاتين اليدين اعضاء مفصولة عن جسمك
ومفكوكة من بعضها البعض
ونفضت الفتاة العجرية تمسح اطرافها بمنديل اخرجته من حقيبتها

وتعيد ارتداء تنورتها وقميصها وسترتها
وتنادي بأعلى صوتها على صاحبها
وتبلغها العجب الذي رأيته، وكأنها تعرضت لفعل من أفعال السحر
مارسه عليها مشعوذ شرقي
وظلت حتى بعد أن تحركت بكم السيارة تتحدث باندهاش
واستغراب عما فعلته معها، وتقول لزميلتها بأن عدد
الممارسات بلغ رقما قياسيا وانها لو لم تنسحب من تحتك
لما توقفت عن ممارسة الجنس معها حتى بلغت المائة مرة
واعتبرت أن ذلك شيء خارق للمألوف لم تشاهد له مثيلا
بينما كنت تظنه أنت امرأ طبيعيا ، جاء بشكل عفوي
ودون أن نتعمد المبالغة أو اظهار عمل من اعمال
الفضولة الجنسية لظنك أن هذا هو ما يفعله
كل الناس، ولم تعرف الا الآن ، ومما
سمعت من كلامها تعليق صاحبك وصاحبها ، أن ما فعلته
كان حالة خاصة ولحظة تفجر لطاقة انحبست لأكثر من عشر
سنوات منذ وصولك سن البلوغ ، وكأنك اردت في ساعة واحدة
تعويض كل هذه السنوات من الحرمان والكبت الجنسي
لم تجد العجربة الثانية فيما قالت زميلتها
الا فرصة للمطالبة بأجر مضاعف لما تقاضت من ثمن
حسب الاتفاق مع ماريو ، لأن هذا الاتفاق لم يكن قد عمل حسابا
لهذا العدد الكبير من الممارسات الجنسية
وبدلا من أن يأتي الاعتراض منك أو من ماريو
جاء من المرأة نفسها التي اعترفت بانها حصلت
على اجرها متعة خالصة لم تحصل عليها من مضاجعات سابقة
اما ماريو فلم يكن ممكنا لرجل ثرثار محب للمزاح والتكيت مثله
أن يترك فرصة كهذه دون أن يتخذها مناسبة للتعليق :
— انني لا اصدق ان يفعل أي رجل ما فعلت
هل صحيح ما قالته ماريا عن هذا الرقم القياسي الذي يزيد
على عشر مرات ؟ انه مستحيل . انني بكل ما أحمله من شيق
احتاج لشهر كامل كي افعل ما فعلته انت في ساعة واحدة

هل انت بشر من لحم ودم مثلنا؟ لا ، لا ، انت بالتأكيد
هو الجني الازرق نفسه
وسعيا منك لتغيير الموضوع الذي اصابك بالحرج اجبته قائلا:
— وهل للإيطاليين الكفرة معرفة بالجن حتى يمنحهم الوانا زرقاء
أو غير زرقاء .
— بمثل ما هناك الملاك الازرق مثلي انا ، والذي كان موضوعا
للأوبرا المشهورة بهذا الاسم ، فان هناك الجني الازرق
الذي هو انت ، ثم تأتي وتدعي العفة والزهد في الاشياء
لا ، لا ، انك لست الجني الازرق ، وانما الشيطان الأحمر
فهو أكثر خطورة ، ديافلو روسو .

لم تشأ ان تعطي أهمية لاندھاش المرأة العجرية
أو تعليقات ماريو الساخرة أو ترى في ذلك سببا للمباهاة
بما اسمياه فحولة الرجل الشرقي فانت واثق من انها لحظة
استثنائية املتها حالة الكبت والاحتقان التي عانت منها
هذه الطاقة لاعوام طويلة
كنت قد استجبت لضعفك ذات مرة وها انت مرة ثانية
تجد نفسك مخلوقا، مقدوقا به في لجة اللذة المحرمة
بعد ان قهرتك قوة الغريزة
لقد تقلبت ليالي طويلة فوق فراش من الجمر
وانت تحارب هذا الضعف في نفسك
كنت تسمع همسات الشيطان
كفحيح الافاعي في صدرك
وتطرد الشيطان وتصم اننيك
عن سماع همساته
وتتنصر عليه مرة وراء الأخرى
حتى جاء هذا الماريو اللعين
وجاءت هذه الرحلة الآثمة إلى الغابة
لنتهار تلك المقاومة التي واجهت بها
ابليس نفسه لأن ماريو لم يكتف

بالهمس والفحيح
وانما وضع أمامك الأثني مسلحة
بكل مباهاجها ومفانتها
جعلها قريبة، متاحة، كمن يضع لوزة
مقشرة في فمك
فقطع عليك طريق العودة لكنه لن يقطع عليك
طريق التوبة
ويمثل ما استطعت ان تنتشل نفسك
من حالة الضعف في المرة السابقة
فان بإمكانك هذه المرة، رغم ان الخطيئة اكبر
واسوأ، ان تنتشل نفسك من بؤرة السقوط
التي وقعت فيها
ان ما يؤلمك الان ويفسد عليك ما حصلت عليه من متعة
هو هذا الشعور بالاثم الذي لا يريد ان يزول أو يتلاشى
بل يزداد ثقلا ورسوخا ويجعلك تحس بانك مدنس بدنس
لن يزول سريعا لأنك الان في مفترق الطرق
ترى في إحداها ان هذا الاحساس بالاثم والدنس
هو ضمانتك للتوبة والعدول
عن المضي في طريق الخطيئة وترى في ثانيتهما
ان وحش الغريزة الذي استيقظ لديك بهذا العنف
وهذه القوة لن يبقى ساكنا ساكنا
بعد اليوم، وسيحتاج إلى طعام جديد
على الدوام، ولعل الحل الامثل
الذي يوحد هذين الطريقتين في طريق واحد
ويحقق لك الامن والسلام هو الزواج، ففيه
ارضاء لوحش الغريزة
يمثل ما فيه العصمة من الجنس الحرام، وفيه،ربما ، حل
لمسألة ثالثة هي تعلقك المرضي بامرأة
رجل آخر هي ثريا
إلا أن انخراطك ضمن هذا الجيش الذي يعدونه

لحملة الحيشة
يجعل من اختيار الزواج اختيارا
مستحيلا في هذه الفترة
مما يعني ان المأزق سيبقى قائما
والازمة التي تعاني منها
ستبقى مفتوحة على كل الاحتمالات
ومسرعا رجعت إلى المعسكر، لكي تبحث عن طريقة
تحرر فيها ولو قليلا من عبء هذا الدنس
وضعت جسمك، فور وصولك، تحت رشاش الماء
تتطهر وتؤدي طقوس الاغتسال من الجنابة
امضيت وقتا طويلا تحت الماء
حتى ازلت الادران التي خلفها
التمرغ فوق أرض الغابة ولكنك لم تشعر بانك نظيف
من الدنس، أو أنك تخلصت من الشعور بالاثم
انتهيت من الاغتسال والوضوء فارتديت جلبابك
وشرعت في اداء الصلاة التي اطلت خلالها الاستغفار
وقراء التسابيح وتلاوة القرآن
كنت ترى في الحصص التي تأخذها
مع ماريو فضيلة واحدة
هي فضيلة اعفائك من طابور الصباح ثم تدريجيا
ومع زيادة الحصص وتكثيفها التي جاءت اثر تعليمات جديدة
لماريو بمضاعفة حصص التدريب اختصارا للوقت
ظهرت منفعة أخرى هي تحريك من مهمة
جلد المجندين المذنبين
خاصة وان حالة التوتر التي استوجبت كثرة المتمردين
وكثرة التنبيب انتهت بوصول الاخبار التي تنفي أي احتمال
لدخول المجندين في حرب ضد أبناء وطنهم
وبدأوا في المعسكر
يتعودون على غيابك وبالتالي يتخلون
عن اسناد اية مهمات

إليك داخل المعسكر ثم جاءت الفضيلة الثالثة
عندما بدأ إيقاظ
المجندين قبيل الفجر لأخذهم في رحلة كل يوم إلى جبل غريان
لتدريبهم على الحروب الجبلية وبقائك انت مستمتعا
بنومك ، مقابل هذه الفضائل الثلاث ادخلتك
حصص ماريو إلى أرض
الخطيئة الموحلة التي يصعب الخروج منها
ورغم هذا الاحساس
الفادح بالاثم وقوة الوازع الديني لديك
وجدت ان قوة الغريزة هي التي تكسب الجولة
وتجعلك تهفو لمعاودة التجربة وتستجدي ماريو ان يرتب
لكما مغامرة ثانية، لكنه يجد في هذا الاستجداء
حافزا لابتزازك
ووسيلة لتحقيق رغبته في التعرف على امرأة
من بني قومك
فهو يطالب بان تقي انت بحصتك من الصفقة
وزيادة في ابقائك مديونا له وافق على ترتيب
زيارة أخرى إلى قلب الغابة مع امرأتين من عاهراته
في سبيل ان يعطيك وقتا للوفاء بوعدك الذي لم يكن في
الحقيقة وعدا، وانما مجرد اشارة من رأسك بالموافقة على
ثرائته واعتبر هذه الاشارة وعدا منك باحضار
عاهرة عربية له
سحقا لكل هذه المباديل والبداءات
لو كنت في وضع غير وضع الجندي الموفد للحرب
لوجدت الحل الذي يغنيك عن هذا كله
الم تكن عائدا إلى المدينة، بعد هروبك منها، بنية
ان تطلب يد ثريا؟
اذن كنت فعلا تتقصى الطريق الذي ينقذك من الضلال
قبل ان تكتشف انها اختفت في بيت رجل آخر
وتختفى انت أيضاً في هذا النفق الذي سيمضي وقت طويل

حتى يظهر الضوء في آخره ، اذا ظهر على الاطلاق
ومع قوة الصدمة التي تلقيتها ورد الفعل العنيف الذي أوصلك
إلى معسكر بو مليانة، مازلت تشعر بهذا الشعور
الذي لا تملك له تفسيراً ولا تعليلاً، وهو ان هذه المرأة
خلقت لتكون امرأتك انت
لا احد غيرك، وما دام قد حدث انها ذهبت لهذا
الرجل الذي عقد عليها
فهو خطأ ستتكفل الأيام القادمة بتصحيحه
وهذا الحسد أو الاعتقاد هو ما يجعلك تترك
كل المسالك إلى بيتها
مفتوحه وكل الخيوط بينك وبينها موصولة
ولعل واحدا من اسباب سعادتك بتعلم قيادة السيارة
هو انها ستوفر لك وسيلة للتواصل مع ثريا
عندما تراك جالسا
أمام مقود السيارة، وتدعوها إلى ان تركب بجوارك فتأتي
مبهورة بما تراه، فخورة بوجودك في هذا المقعد، فتجلس
متلصقة بك ، وتأخذها بهذه الوسيلة السحرية
في نزهة لم تتل مثلها الا المحظوظات من النساء
وتخطر على بالك الاغنية الجميلة ذات الشعبية الساحقة
التي تغنيها ليليان اليهودية في اعراس طرابلس والتي تقول:
طالعة في كسوة موره
جميلة وحلوة في الصوره
يا لو نعمل بيها دوره
حتى عمري نعطيه
الله الله
حتى عمري نعطيه

و ستكون هذه " الدورة " التي تتوي القيام بها رفقة ثريا
أجمل كثيرا مما تقترحه الاغنية لأنها ستكون داخل سيارة
من احدث وارقى طراز، تحمل لوحاتها الارقام المميزة

الخاصة بسيارات حاكم البلاد
تذكرت انك لم تخبرها بتأجيل السفر إلى الحبشة
وانها مازالت تعتقد ان رحيلك وزوجها فتحي قد تم في موعده
وانكما الان تقفان الاحابش بالنيابة عن الإيطاليين
في مجاهل القارة السوداء
ورأيت ان شيئاً كهذا ليس عدلاً في حقها، قررت ان تذهب في
اقرب فرصة إليها، نطمئنها، وتبلغها بما حدث من تأجيل
وما أن رأتك واقفا خلف عتبة البيت، حتى علت
وجهها علامات الدهشة
تسألك ان كانت هذه صورتك الحقيقية ام صورة
الشبح الذي يظهر بعد غياب صاحبه
لأنها ظنت بانك الان منخرط في حرب الأحباش
أخبرتها بانك شبح مسالم لا يريد ان يؤذي أو يفزع احدا
فدعتك إلى الدخول والجلوس بجوار والدها المريض وبخلاف
المرات السابقة عندما كانت تختفي في الغرف الداخلية
ظلت هذه المرة واقفة قريبا من الباب، تسأل
عما حدث بشأن السفر
الذي كان مقررا منذ أيام مضت للالتحاق بالحرب
وعما اذا كان زوجها لا يزال هو الآخر
موجودا في طرابلس
فطمأنتها بان الجيش كله
مازال موجودا بعد ان تأجل السفر
عدة اسابيع، وانهم ما زالوا
يسمحون بزيارة المجندين
وان جعلوا الزيارة تقتصر
على يومي الخميس والجمعة
وابدبت استعدادك لمرافقة العائلة
يوم الخميس القادم اذا شاءوا
كنت تقول هذا الكلام وانت تملأ بصرك
من بهاء عينيها وجمال وجهها القمري الاستدارة

الذي تركته ثريا سافرا هذه
المرة رغم وجود والدها ، فقد صار طبيعيا
ان تنتظر لك الاسرة
كأنك اخ اكبر لها ولا ترى في ظهورها
أمامك بوجه سافر شيئا
يحمل ادنى شبهة خروج
على الأصول و قواعد الاحتشام
انك تحبها، ذلك الحب الذي يصبح معه نداء الغريزة
بكل حدته وقوته وسيطرته على الجوارح والاحاسيس
شيئا ضئيلا وهامشيا يمكن ان يتواري ويغيب
في زخم هذا التواصل الجميل
والحميم بين روح وروح، حيث يصير الحب
اكبر من ان يكون موضوعا حسيا شهوانيا
يقتصر فيه التخاطب على لغة الاجساد
ويصير مجاله الحيوي أوسع
من تلك الدوائر المغناطيسية التي
تصنعها مفاتن الجسد وذكرورة الرجل
وما يقع بينهما من شد وجذب
انك في شوق دائم لها، يزداد توقدا واشتعالا كلما رأيته
وتتمنى حقا ان تضع رأسك فوق وسادة صدرها
وان تضم بين ذراعيك مخمل جسمها
وتمرغ وجهك في جدائل شعرها وتخلط
انفاسك بعطر وعبير أنفاسها ولكنك لا تتصورها بظلة لنزهة
جنسية في الغابة كما يمكن ان يحدث مع اية امرأة جميلة مثيرة
تقابلها ولا ترضى لنفسك ان تفكر فيها كما تفكر
في نساء ماريو العجوز، ولعل هذا الاحساس
بتصعيد العاطفة نحوها إلى ذراها
الروحانية هو الذي افادك وانت تتقمص دور الاخ الاكبر
الذي اسندته إليك عائلتها. بدا الدور لائقا بك، مقتعا
حتى لغير افراد الاسرة، بما في ذلك الجار الذي يراك

وانت تدخل البيت أو تصطحب افراد الاسرة للقاء صهرهم
وابديت للاب ما تشعر به من اسى واسف لمرضه
واستعدادك الدائم لاداء اية خدمة يحتاجها منك، ويمنعه
المرض من القيام بها، فكان يطلب منك اخذ مفتاح
الدكان لاحضار عدد من
الاحذية النسائية والرجالية
ستحاول زوجته بيعها لبيوت
الجيران والاستعانة بثمنها في مصروف البيت
وكان هذا يزيد من تأكيد صورتك كفرد من افراد العائلة
واخ اكبر للبنت واخيها
ثريا وحدها، تعرف على وجه اليقين، حقيقة
مشاعرك نحوها ، ومدى حبك لها، الذي لا تضعه
الاعراف والنواميس في خانة
المشاعر الاخوية التي يحملها الشقيق لشقيقته
غير انها، مع ذلك، لم تر شيئا في سلوكك يجعلها تخاصمك
أو تخشى على عفتها منك، بمعنى انه حتى وان لم يكن بريئا
فانه لا يشكل خطورة عليها، بل لعله يرضي بشكل من الاشكال
رغبة انثوية، بان ترى حبها معكوسا في مرايا رجل مثلك

حدث ان جاء يوم الخميس، و الولد الصغير في المدرسة القرآنية
والام التي استعدت للذهاب مع ابنتها، وجدت ان نوبة السعال
اشتدت على الاب بحيث صار متعذرا ان تخرج الام وابنتها
وتتركاه بمفرده . كان العدول عن الزيارة امرا محرجا
ولا ضرورة له، بعد ان جئت انت حسب الميعاد ومعك الكروسة
واقفة أمام الباب، وانتهى الرأي بالا تحرم الام ابنتها من زيارة
زوجها الغائب خلف اسوار المعسكر والمتجه في اية لحظة
إلى أرض المعركة وان تتركها تذهب صحبة
الاخ الاكبر الذي هو انت
وجدت نفسك منفردا بها داخل الكروسة، فلم
تشأ ان تنتهي هذه الفرصة بانتهاء الطريق

الذي يقود إلى المعسكر
وان تطيل عمر هذا اللقاء أكثر قليلا من هذه المسافة
فاستأذنتها في عدم الذهاب مباشرة إلى هناك
حتى ينتهي الزحام
الذي تصنعه الافواج الأولى من الزائرين
وقضاء هذه المدة تنتزهان في بعض الربوع
الجميلة التي تزخر بها مدينة طرابلس، ولأنه
لم يكن ممكنا ان تذهب بها إلى السينما
أو الهبوط من العربة والتتزه في الحديقة العامة
أو الجلوس بها في مقهى الميراماري أو غيره من المقاهي
فقد بقيتا طوال النزهة في الكروسة، باعتبارها المكان
الوحيد الآمن، تقضيان فيها الزمن
الذي يسبق الزيارة دون ازعاج
متجاورين فوق مقعد واحد
فيما يشبه الخلوة التي تتيحها لكما
المظلة التي تغطي العربة وبعض الستائر
على جوانبها
وقد اعطاكما الحوذي ظهره منشغلا عنكما بقيادة عربته
عبر شوارع المدينة المزدهمة بالسيارات والدراجات والعربات
التي تجرها الخيول مثل هذه الكروسة
وربما كان الافضل لك ولها ان تنسيها
امر زيارة المعسكر
هذا اليوم وتبحث عن حيلة تجعلها
تعدل عن زيارة زوجها لأنه
لن يرتاح لمجيئها إلى المعسكر
بمفردها، وقد يبادر بسؤالها عن
جاء بها، فيفتح ذلك بابا لمتاعب وشكوك لا حاجة لاحد بها
لم تفصح لثريا عن شيء من هذه الرغبة
وكل ما فعلته هو ان امرت الحوذي بان يمضي بكما
إلى طرابلس الحديثه والتي درج الناس على تسميتها

طرابلس الإيطالية وإلى
اهم معالمها، قصر الحاكم الذي استوى منذ أشهر
قليلة، آية من آيات المعمار الحديث
مثالا للفخامة والبهاء بابوابه العالية
وقبابة المذهبة، وقد احاطت به النوافير
وجداول الماء والأشجار
التي تأوي إليها الطيور وتضيف بغنائها المتواصل
الجميل صوتا يختلط بالاصوات الأخرى
التي تصنع صخب المدينة وتمنح
هذه الأرض الخضراء التي تحيط بالقصر
مساحة ضرورية تمليها هيبة السلطة تفصله
عما حوله من احياء، وفضاء مزهر مونق
يظهر بهاء هذا القصر الذي امتزجت فيه
جماليات البناء العصري
مع روحانية المعمار الشرقي وسموه
وكبريائه، قبل ان تبرز من حوله الابنية الأخرى التي
وان كانت اقل فخامة وبذخا
إلا أنها ليست اقل جمالا واهتماما
بروح البيئة المحلية والوانها ومفرداتها
في مجال المعمار والزخارف
مع انتشار اللون الأخضر حولها وهيمنة لأشجار النخيل
على هذه المساحات الخضراء
بكل ما تمثله من رمز للبيئة الشرقية
البدوية، والتي تبدو أكثر جمالا واناقة
في هذا الحي الإيطالي مما هي
عليه في الضواحي المأهولة بأهل البلاد
وكانهم هنا يغسلون
جذوعها وكرنائفها وسعفها وجريدها بالماء والصابون
كل صباح، كما يفعلون مع الشوارع
كنت تشرح لثريا ما سمعته من ماريو

الذي أخبرك بان هناك فلسفة
لدى المعماريين الإيطاليين وهم يبنون هذه الاحياء الجديدة
بالا تكون نقلا واستنساخا للطراز الإيطالي
وانما استلهم لمعطيات
البيئة العربية الشرقية مع الاستفادة
من تقنيات المعمار الإيطالي
الحديث، ليكون لطرابلس طابع يختلف
عن المدن الإيطالية
ولا يكرر عيوب المدن العربية المعاصرة
التي فقدت هويتها
ويؤكدون على ضرورة انبعاث مدرسة
جديدة في المعمار تستفيد
من الشرق والغرب، تترهن لكل
من يأتي زائرا لطرابلس على
روح التجديد والابتكار لدى هؤلاء المهاجرين
الرواد الذين
يؤسسون لإيطاليا وطنا جديدا
وشاطئا رابعا لبلادهم
سارت بكما العربة عبر شارع الملك فيتوريو ايمانويل
وصولا إلى ميدان الكاتدرائية، حيث يفد الزوار
إلى هذا المعلم المعماري الكبير، والصرح
الديني ، ملتقطين الصور لمواجهة
الكنيسة الحافلة بالنقوش وتساوير المسيح والعذراء
والقديسين ، وقد تبدى الميدان صورة مصغرة
للمجتمع الإيطالي الذي لا تخالطه
اية اخلاط ليبية محلية، اكتظت ارضيته بالموائد
والكراسي التي اخرجتها المطاعم
والمقاهي الكثيرة، تضج باصوات روادها
الإيطاليين من نساء ورجال وباعة جائلين ومصورين
يحملون آلات تصويرهم ويعرضون

استعدادهم لتصوير الناس
وقد احضر بعضهم ديكورا لمن يريد التصوير
مع صورة ممثلة مشهورة
أوفوق كرسي يشبه العرش، يعلوه تاج من الورق المقوى
كما ارتفعت اصوات الموسيقى والغناء من دكاكين تبّيع هذه
الاجاني ومطاعم تستعمل اجواقا موسيقية
للترفيه عن روادها
اما اصحاب المتاجر التي تبّيع الملابس
والتحف والورود و الصحف و الحلويات
فقد اخذوا جانبا من الميدان تغطيه
الاقواس واقاموا أرفف ومصاطب خشبية يعرضون فوقها
بضاعتهم يصنعون بها زخما من الالوان والاشكال
تمنح المكان نكهة خاصة
وطبيعة تختلف عن معظم الاحياء الأخرى
كان المشهد كله جديدا بالنسبة لثريا
التي لم يسبق لها ان جاءت
إلى هذا الجزء من المدينة ، اذ ليس مألوفاً لعرب
الاحياء الشعبية ارتياد هذه الاماكن خوفا
من المضايقات ، فما بالك بإمرأة صغيرة
السن، امضت كل طفولتها داخل بيت اسرتها
بزينة بنت الباشا
لا تغادره الا للعب في ذات الزينة عندما
كانت طفلة ، وعندما احتجبت لا تتركه
الا إلى دكان والدها أو للقيام برحلات
موسمية مع أهلها إلى موطنهم الاصلي
في تاجوراء وبعد ان دارت بكم
الكروسة دورة ثالثة ورابعة في ميدان الكاتدرائية
انتقلتم إلى شارع ماتزيني الذي كان اقل زحاما
فسألت الحوذي ان يقف أمام كشك يبيع المرطبات
واشتريت لها كوبا من الجيلاتى الممزوج باللوز والفسق

وعدداً من أصابع الشيكولاته
واشتريت لنفسك وللسائق قنينتي رجاته
ودفعت النقود للبائع وانت سعيد لأنك
أردت ان تحتقي بوجود ثريا معك
وجلوسها بجوارك فوق هذه المحفة في رحلة اشبه بالحلم
بدا العالم خلالها مكانا مبهما يصاعد منه ايقاع جميل
تصنعه دقات حوافر الجواد فوق الاسفلت وشنشنة اجراس
الزينة المعلقة بالعربة، وضجيج الحياة في هذه الشوارع
والميادين، مختلطاً ومنسجماً مع ايقاع القلب في أكثر حالاته
اثارة وانفعالا وطرباً، كل شي أمام ناظريك يكتسي بلون الفرح
وكل شيء حولك يتكلم لغة الفرح، وقد اختفت من عقلك وقلبك
ومراكز التفكير لديك، كل مصادر الكدر والانزعاج
بما في ذلك حياتك داخل المعسكر، واحاديث
الحرب، وطقوس التأنيب والتعذيب
ما مضى منها وما سيأتي، فلا تذكر شيئاً ولا تستحضر
في ذهنك احدا في الوقت الراهن، غير هذه المرأة
ولا ترى ان للحياة ماضياً أو مستقبلاً غير هذه اللحظة المبهجة
لم تكن متعة ثريا وهي تعلق الجيلاتي ، باقل من متعتك
وانت تراقبها وهي تفعل ذلك بنهم وفرح
منوردة الشفتين منوردة الوجنتين
في اطار تصنعه لها فراشيتها البيضاء، والدهشة
لا تقارق وجهها
الذي تضيئه مشاعر الاثارة والفرح، و تفيض ملامحه بعذوبة
وبراعة تملك عليك مجامع قلبك، وتستقطب أجمل وابهي ما لديك
من احساس ومشاعر، خاصة عندما تنتظر في عينيها العسليتين
وتكتشف ان لهما اشعاعا يخترق الضلوع ويحرق قلب القلب
بناره المباركة، وعذابه اللذيذ ، وتستمتع بشوق ولهفة
لما يصدر عنها بين لحظة وأخرى، من تعليقات
سريعة تعبر عن هذه الدهشة التي
تغطي ملامحها، تقولها بصوتها المخملي ولهجتها

الطرابلسية التي تقطر حلاوة وعذوبة
فتستقر في سمعك كعزف آلة الناي:
— يا ربي يا مولاي، هل هذه طرابلس حقا ، ام هي مدينة
أخرى هبطت من السماء؟ هل هذا حلم ام علم ؟

كانت الكروسة مكانا يناسب امرأة مثلها
يمكن بواسطتها ان ترى المدينة ومظاهر الحياة في احيائها
الجديدة من مكان آمن، تستطيع ان ترى منه الناس
ومظاهر الحياة في الشوارع والميادين
وهي واثقة ان لا احد يستطيع ان يراها
أو يتعرف عليها ، اذ انه ما كان لها ان تجول
على قدميها في هذا الجزء من المدينة، وما
كان لو سيلة أخرى مثل عربة الشريول
المفتوحة التي يركبها الناس في الاحياء الشعبية
ان توفر لها مثل هذا الموقع الامن، وهذه الوقاية
من أعين الناس بما لها من غطاء
يسبل ستره على الراكب دون ان يحجب الرؤية أمامه
وكانت ثريا، وبدافع الفضول الذي تنثيره
مناظر جديدة تراها لأول
مرة، تطل برأسها خارج اطار العربة، ثم تسحبه
وتميل بكامل جسمها
إلى الوراء، وتسحب الرداء فوق
وجهها لحظة ان يتهيأ لها انها
رأت رجلا عربيا وسط زحام هؤلاء
الاجانب، خشية ان يكون
هذا الرجل من معارف أهلها، رغم ان من
تراهم وتظنهم عربا
لم يكونوا في الغالب كذلك، لنذرة وجود
هؤلاء العرب
ليس فقط لأن الإيطاليين لا يحبون ذلك

ولكن لأن أهل البلاد
أنفسهم يتجنبون الاختلاط بهذه البيئة الغريبة عنهم
أو الاختلاط بهؤلاء الإيطاليين مما قد يتسبب
في شجار تكون نتيجته السجن والضرب
للعنصر الوطني بينما يبقى الطرف الإيطالي
فوق الحساب والعقاب
وتتوالى عليكما المناظر التي تنثير قهقهات ثريا
فهذه امرأة إيطالية بدينة جدا، ترتدي قبعة كبيرة مرشوقة
بالريش، تتطاير منها الاشرطة الملونة، وتجر خلفها
كلبا صغيرا في حجم الفأر، فتشير إليها
ثرىا تريدك ان تضحك مثلها
وهذا صبي مالطي يبيع البالونات وينادي
عليها بلغته المالطية التي هى خليط من العربية
والإيطالية المحرفتين، يركب دراجته
بمحاذاة الكروسة التي تقلكما، وقد تأرجحت
فوق راسه اكوام من البالونات الملونة، المنفوخة
والمشدودة إلى خيط في يده
يعرضها للبيع ويدفع بها حتى تلامس وجهيكما
وتمران بمنظر النافورة التي تتوسط ميدان إيطاليا
والتي تنبثق مياهها من طبق تحمله
تمائيل الجياد البحرية الاسطورية ذات الاجنحة
التي تمتد عدة امتار في فضاء الميدان
ورغم انك تمر كل يوم بهذه النافورة وهذا التمثال، لأنهما
يقعان في مفترق الطريق بين المدينة القديمة والجديدة
إلا أنك لم تكن اقل اندهاشا من ثرىا التي تشاهدهما لأول مرة
فقد بدت النافورة أكثر جمالا وجلالا واكبر حجما
كما بدت لك الجياد الحجرية كأنها جياد تملك حياة حقيقية
تستعد للانطلاق باجنحتها السحرية العملاقة
في فضاء الكون الفسيح ، ربما لأنك ترى
هذا المشهد صعبة ثرىا

وتراه هذه المرة من موقع اعلى
من موقعك وانت تمشي فوق الرصيف
وتدس رأسك في الأرض، خائفا من رذاذ الماء فتظهر لك
صورة جديدة، من زوايا مختلفة غير تلك التي كنت تراها سابقا
وثرىا بجوارك سعيدة بهذه النزهة غير المرتقبة
تضحك بسبب ودون سبب، سواء ظهر
المنظر الذي يدعو إلى ذلك
أولم يظهر، وقد غاب عن ذهنها السبب
الأساسي للقيام بهذه الرحلة
فلم تأتي على ذكره أو تحاول تنبيهك إليه
منهمكة تماما في مراقبة ما يتكشف
لها من مشاهد ومناظر
لا تترك فرصة الا وتفصح عن سعادتها
بما اتاحته لها هذه الرحلة
من لحظات نادرة من الحرية والانطلاق
اكتست جدران الشوارع بالملصقات الكبيرة التي تعلن
عن بضائع لا وجود لها في المدينة القديمة، انواع من العطور
والخمور والسجائر وادوات التجميل غير إعلانات الحفلات
الموسيقية التي يقدمها مسرح الميراماري ومسرح الهامبرا
للإيطاليين وإعلانات عن افلام، وأخرى عن سباقات
للسيارات وسباقات للقوارب ومباريات رياضية، وملصقات
كثيرة أخرى ذوات ألوان وجاذبية
تعلن عن دورات لتعليم الرقص أو الموسيقى
تقدمها المنتديات الإيطالية للراغبين من أبناء وبنات الجالية
كلها مكتوبة باللغة الإيطالية، ولكن الصور التي تصحبها
وتشرح محتوياتها، تغنى الناظر عن قراءة الكتابة، وتغريه
بالسعي ليكون واحدا من هذه الطبقة المحظوظة التي تقتني
أو تستخدم أو تمارس ما تروج له هذه الإعلانات
كما ظهرت تصاوير هؤلاء القوم في الملصقات، وقد بلغوا
أرقى شكل للكمال الإنساني جمالا واناقة وصحة

وعافية ، نساء ورجالا
وظهر أمامكما فجأة إعلان كبير يمتد بعرض
الحائط فوق واجهة
سينما الأوديون، عن فيلم إيطالي
يحمل صورة البطل الشاب
الوسيم بشعره المتهدل فوق عينيه
وقد امال رأسه فوق وجه
حبيبته الفاتنة، بهم بطبع قبلة
فوق شفثيها اللتين كانتا في حالة
استعداد لاستقبال قبلة . تأملتما سويا الصورة
الموحية، وقد وقفت بكما العربية عند منعطف
يعود بكما إلى طريق الكورنيش
الذي كان مشروعا بدأه الولاة السابقون لباليو
ولم يتحقق اتمامه
الا عندما جاء هو، مصحوبا
بميزانية ضخمة زوده بها الدوتشي
فاكمله في سرعة قياسية ، ليتباهى به
أمام زواره من أبناء
المدن الأوروبية الساحلية
وبما اضفاه من لمسات جمالية
تمثلت في هذا الدرابزين الجميل، ونظام
الإضاءة الذي لا يظهر
جماله الا ليلا، وما غرسه من شتلات
النخيل على امتداد الشاطئ
جاعت أنسام منعشة رطبة تضرب
وجهيكما وتحمل إليكما رائحة
البحر، وقد ظهرت أمواجه
وهي تتكسر على سور الكورنيش
فيتطاير رذاذها في الهواء
قبل ان تتراجع وهي تصنع خطوطا

متعرجة بيضاء وسط المفازة الزرقاء
حيث لا شيء يظهر على مرمى البصر
غير قوارب شراعية بعيدة
تلوح كأنها نقاط بيضاء
فوق البساط الأزرق الذي لا ينتهي امتداده
الا عندما يلتقي بحافة السماء
طرّقع سوط الحوذي فوق رأس الحصان
عندما وجد نفسه
وسط الطريق الواسع، المسفلت حديثاً، الذي يبدو
تحت انعكاس اشعة الشمس كأنه شريط
من المرايا السوداء ومضى يعدو كأنه
واحد من جياد السباق، رغم أنه لم يكن هناك
شيء يدعو للاستعجال، فان عادة الحوذين
ان يفعلوا ذلك في الشوارع المسفلتة الفسيحة
الخالية من زحمة المرور لخلق
نوع من الإثارة التي تسعد الراكبين معهم
كما فهمت من احد
هؤلاء الحوذين، خاصة وأن الحوذي ه
ذه المرة ، لم يثقل أمراً
منكما بالذهاب الى هدف محدد، فاعتبرها
نزهة حرة لاماكن الفرجة والفسحة
وبسبب الهزة التي حدثت للعربة عند
بداية انطلاق الجواد، اختل توازن المرأة
التي بجوارك ولم تنتبه
الا وثرىا تصبح في احضانك. اذهلنك
المفاجأة عن نفسك
وكننت دون تدبير ولا تفكير وبطريقة عفوية
املتها اللحظة ذاتها ، قد احتويت جسمها بذراعيك
تهصر قدها، وتلصق صدرها بصدرك
لوهلة قصيرة وتستتشق عبير العنبر فواحا

يظهر من بين نهديها
قيل ان تنتبه هي لنفسها فتستعيد توازنها
وتتزعج جسمها
من جسمك عائدة إلى مكانها
احسست في تلك اللحظة القصيرة
التي تشبه ومضة البرق
كأنك وضعت الدنيا بكل كنوزها
بين يديك، واغترفت جرعة من
سحرها وجمال مباهاجها، أشعرتك
بالنشوة والتحقق والامتلاء
وبلغت ما تريده من هذه الحياة
إلى حد اغمضت معه عينيك
بغية ان تقبض لاطول فترة ممكنة على هذه اللحظة الهاربة
اسرع الجواد يجر العربية عبر طريق الكورنيش
حتى انتهاء مناطق
البناء والعمران حيث ينفتح الافق على فضاء أخضر من
المزارع والبساتين يجاور فضاء البحر
عند نقطة شط الهنشير
لم يكن الطريق معبدا ، إلا أنه كان ممهدا
بطريقة لا تعيق الكروسة
عن سيرها الذي ظل مشابها لسيرها
فوق الطريق المعبد
كان المكان خاليا في هذه الساعة
من ساعات الضحى من
الفلاحين و عابري السبيل، غاطس في الهدوء
حيث لا شيء غير
هسيس النجيلة الخضراء وزقزقة اطياف
تتقافز فوق غصون
الأشجار، ومنظر الفراشات ، وهي تتشر اجنحتها
الملونه ، تسبح في اشعة الشمس

صار بامكانكما أن تخرجا من تحت مظلة
العربة وتقفان دون حرج أو خوف
في المساحة المفتوحة خلف
مقعد الحوذي، بعد ان أوقف العربة بناء
على أوامرك، تتأملان المنظر الذي يعبق بالجلال
والجمال والسكينة وثريا التي كانت
تسدل طرف ثوبها فوق وجهها ، وتحكم أحيانا
قبضتها على لحافها
تركت اللحاف ينحسر عن وجهها
وقد صار بسبب لسعات الهواء
البارد، القادم من البحر ، يشتعل
بحمرة مبهجة تتخلل كالسنة
اللهب بشرتها القمحية ، فيتبدى أمامك، شفافا
لامعا يطلق شراراته
التي تلسع الفؤاد، وقد خرجت خصلة
من شعرها الفاحم السواد
من تحت غطاء الرأس، تهفّف فوق جبينها
تحت تأثير الانسجام
القادمة من البحر، فتضيف إلى ألوان
الوجه تكوينا جماليا آخر
وإلى فنتته مزيدا من الفتنة
بقيت هي تتأمل الحقول، وانت تتأمل
وجهها ، تريد ان تختزنه في ذاكرتك
على هذه الصورة، وترحل
به إلى البلاد البعيدة التي ستسافر عما قريب إليها
ليكون زادك في أيام المسغبة
والامحال الروحي والعاطفي، التي ستقضيها
على الجبهة والتي قد تطول اعواما
ظهر بين الحقول رجل يدفع أمامه عربة خضروات
ماضيا باتجاه المدينة، ولم ينتبه احد منكما

إلى وجوده، إلا بعد أن اقترب من الكروسة، والقي
التحية على الحوذي وما أن رأته ثريا
حتى ارتمت بسرعة فوق مقعدها، واسدلت لحافها
فوق وجهها، وانزوت تحت المظلة
قائلة بانفاس متقطعة خائفة
هامسة وهي تضرب صدرها بيدها:

— انه عمي عاشور العاقل، جازنا في شارع بنت الباشا، لابد
انه رأي، فيا ويلي مما سيحدث لي .

كنت واثقا من ان الرجل لم ينتبه لكما، لأنه كان مشغولا
بدفع عربته الثقيلة، وتحية صاحبه

الحوذي، وفوق ذلك فانه حتى

لو رآها، فلن يستطيع من مجرد

نظرة عابرة ان يعرفها، لأنها

لا تمشي في الشارع حاسرة الوجه، ولن يستطيع

اليوم ان يعرف الطفلة التي كان يراها

تلعب في الزقاق قبل أكثر من عشر سنوات

في هذه المرأة الناضجة التي تركب

كروسة تتهدى بها على شاطئ البحر، حتى على

افتراض بعيد انه عرف من تكون فلا

يشكل ذلك خطرا عليها، لأنها لم تخرج

من بيت أهلها خفية وانما

خرجت بامرهم، لكي تذهب بصحبتك لزيارة

زوجها في المعسكر، لكنها لا تقتنع بهذا المنطق

الواضح البسيط ولا تفلق كل الكلمات

المطمئنة التي قلنتها لها ، في اعادة جو البهجة

الذي تبدد بسبب ظهور

هذا الكرارطي المسمى عاشور العاقل

اعدتها إلى بيتها ، لأن هذا ما ارادته

واصررت عليه مع ارجاء زيارة

زوجها إلى يوم آخر، وعدت انت إلى

المعسكر دون ان تدع ما حدث
في آخر النزهة، ينقص ذرة واحدة
من جمال هذه التجربة
أو افساد احساسك الذي يشبه احساس
رجل اكل ثمرة من شجرة
السعادة، وما عاد بإمكان أي شيء يحدث بعد ذلك
ان يسلب منه مذاقها اللذيذ
الذي يستشعره على طرف لسانه
اخذت طريقك إلى المعسكر، مستخدما نفس
الكروسة، لكي لا تتأخر
عن ساعة الدخول إلى قاعة الطعام
حيث يجرون التمام على الجنود
ومن مكانك البعيد في الصالة، رأيت زوجها
فتحي، فانتابك شيء من الضيق . ترى أي بركان
من براكين البؤس والتعاسة
والحظ السيء، قذف بهذا الرجل في طريقك
ليرتمي حاجزا بينك
وبين المرأة الوحيدة في العالم التي احببتها واحبتك
هل هو ظالم ام مظلوم؟ ضحية ام جلاذ؟
انه الزوج الذي تحسده على استحواده
على ثريا، ولكن ليس هو نفسه الزوج
المخدوع ، الذي كنت منذ ساعات تستمتع بصحبة
زوجته، وقد اخذتها من بين افراد عائلتها
بحجة انك ستذهب بها
لزيارته ثم تحابلت عليها لكي تنقيها
معك بدلا من زيارة الزوج ؟
فهل كنت حقا تسرق شيئا هو ملك
لهذا الرجل ام تراه هو الذي سرق
شيئا ثمينا من حقك انت وحدك؟
ثريا لم تكن مجرد شيء ثمين

في حياتك ، وانما كانت تمثل الحياة
التي سلبها منك. نعم انت الطرف
المظلوم في القصة كلها
ومهما فعلت لرفع الظلم الذي وقع عليك، واسترداد
حقوق الضائع فهو جهد تباركه ملائكة السماء، الموكول
إليها مساعدة المظلومين والمعذبين في الأرض
عدت لاستعادة اللحظات الجميلة التي قضيتها صحبتها
كانت ثريا شديدة الفرح بالخروج معك في هذه النزهة
تعاملك بود حقيقي، وترفع الكلفة بينك وبينها
ولا تبدي احتجاجا ولا اعتراضا على تغيير
الخطه، كأنه لا يعنيتها ان زارت
هذا الزوج أو لم تزره، كثيرة الامتنان
لأنك اخرجتها من حالة
الاختناق التي تعيشها داخل البيت، حيث ينام
الاب طريح الفراش
والام تبكي حزنا على زوجها، وخوفا من شبح
الاملاق الذي يهدد
الاسرة ، لا تريد ان تخدع نفسك فتقول
بانك انت مصدر هذا الفرح
الغامر، الذي احسنت به ثريا، يكاد يقفز
من كل كلمة قالتها
وكل حركة صدرت عنها، لأن مصدره الأساسي
هو ان هذه المرأة التي قاربت العشرين
من عمرها، لم تعيش لحظة انطلاق وحرية خلال
هذا العمر، كما حدث معها هذا الصباح، إلا أنها في ذات الوقت
ما كانت لتستمتع بوقتها وهي بصحبتك، ان لم تكن تحتفظ لك
بمنزلة خاصة في قلبها. لم يكن ممكنا ان تسألها عن احساسها
نحو زوجها، فانت تعرف انه لا يمكن لامرأة تنتمي لمجتمع عميق
الايمان والتدين، تحكمه أكثر التقاليد صرامة في صون وحماية
العلاقات الشرعية، ان تطرح على نفسها سؤالا مثل هذا السؤال

خاصة اذا كانت هذه المرأة، كما هو حال الاغلبية
الساحقة من نساء ليبيا، لم تتل أي تعليم ولم تقرأ
في حياتها سطرًا يعزز ملكات
العقل والتفكير ويمنحها القدرة
على مناقشة القوالب الجامدة
المسكوكة المحفوظة التي اعدّها المجتمع
لنساءه الصالحات ، بل لعله لم يكن مفيدا ولا مجديا
لامرأة مثلها ان تحصل على شيء
من التعليم، لأن مثل هذا التعليم لن يفعل شيئا
الا اضاءة مناطق المهانة والاذلال
والعذاب في حياتها، دون ان تملك القدرة
على تغييرها، فكيف لامرأة متعلمة ان تستجيب للمفاهيم
السائدة في معاملة النساء ، وان تتعاش معها ؟ وكيف سترضي
بالألب الذي يقرر تزويجها من رجل لم تره ولم تعرفه
وبعد ان تتزوج ، كيف تستطيع وهي المرأة التي يحجبونها عن
الانظار، ويمنعونها من اظهار اصبع من أصابعها أمام الرجل ، ان
تضع جسمها كاملا عاريا أمام هذا الرجل الغريب الذي لم تره ولم
تعرفه وقد يكون شكله منفرا ومقززًا بالنسبة إليها، ومع ذلك فان
عليها ان تقبل به وان تنام في فراشه كل ليلة ، وهكذا يصبح
بالنسبة إليها، كما هو الحال الان مع ثريا، زوجها بحكم
الشرع والقانون، الذي يربطها به رباط الزوجية المقدس
وصفة المقدس هنا، صفة كاذبة، مزيفة
لأنه في حقيقة الأمر
عقد اذعان وخداع وعبودية ، باطل
بحكم الشرع والقانون أيضاً
لأنه لا يتم بموافقة الطرفين . وقد منحته
هذه الصفة الزائفة
حصانة ، تجعل اية محاولة للخروج عنه ، انحرافا وخيانة
وما فعلته ثريا معك هذا الصباح لم يكن يدل
على ادنى درجة من

درجات التمرد على هذا الرباط أو الخروج عليه
انها حتى وان اظهرت اهتماما بك يزيد عن مجرد اهتمام امرأة
بصديق الاسرة، أو أكثر من مجرد الحنين لطيفات علاقة حب
ناقصة، فليس بالضرورة انها تقصد ذلك، وان هذا التصور
الذي تتصوره عن ميلها إليك، مجرد مبالغات
منك ورغبة تحتمل لديك بان تلقى عندها صدى
واستجابة للعاطفة القوية التي تحملها لها
وأكثر من ذلك فانت لا تريد لهذه الجولة، ان تكون
الأولى والاخيرة ، وانما بداية لمشاوير
وجولات أكثر الفة وحميمية خاصة وانت
الان في طريقك للحصول على اداة تسحر
قلوب النساء، هي هذه السيارة التي تفتح
أمامك الافاق، وتختصر بك المسافات
بما في ذلك المسافة إلى قلب من تحب
لأنه حتى اذا لم يكن الدافع
حبا وراء ما تفعله لك ثريا، كما يحلو لك
ان تتصور بمزاج سوداوي
فسيقع شيء قريب من الحب عند ظهور
السيارة، لأنك ستكبر
دون ريب، في عينيها وستتألم مزيدا من رضاها
عذك واعجابها بك ، وهي تراك تركب هذا الشيء
الذي لا يحظى بامتطائه الا علىه القوم
حرصت حقا على ان تمنح عينيك وانينك
وعقلك كله لالتقاط ما يقوله ماريو العجوز
اثنا ء حصّة التريب، بامل ان تكون في
مستوى الثقة التي وضعتها فيك ثريا
وان تختصر المدة إلى حدها
الادنى استعجالا لليوم الذي تقود فيه السيارة بمفردك
لم يخفف المفعول الساحر لتلك النزهة التي جاءتك
على غير انتظار صحبة المرأة التي يهيم بها القلب

حتى وأنت تعود إلى الجلوس
بجوار ماريو في السيارة العسكرية، في صباح اليوم التالي
منصتا لثرائه المليئة بالإيماءات والعبارات الجنسية
وإذا كانت اللحظات التي قضيتها صحبة ثريا، قد أرضت الجانب
الروحي لديك، بما فيه من سمو ورفعة، فإن السفوح التي
تقطنها الشهوات الترابية، ظلت جائعة، شبة، نهمة، تطلب
مزيداً من ولائم اللحم الرخيص.

انتهت الرواية الاولى وتليها الرواية الثانية من "خرائط الروح"

ملاحظة تمهيدية

يشكل الرقم 12 قاسما مشتركا بين الحضارات والثقافات التي احتفت به وجعلته في احيان كثيرة رقما مقدسا ، فهو عدد اشهر السنة ، وهو عدد الابراج الشمسية والقمرية في دورة زودياك الفلكية سواء بالحسابات البوذية الصينية التي تمنح للسنوات اسماء الحيوانات ، وتقوم بتجديد تسميتها كل اثنتى عشر عاما، او على الطريقة الغربية التي تعتمد على ما الفناه من اسماء النجوم ، وكان لهذا الرقم في بابل وبلاد الرافدين شأو كبير حيث نسبوا الى كبير الهتهم " مردوخ " شرف تأسيس نظام الابراج الاثنى عشري ، واقاموا عيدا لرأس السنة (اكيـتو) يمتد اثنى عشر يوما، يبدأ في اول نيسان وينتهي في الثاني عشرة منه ، وقد تجلى الايقاع الاثنى عشري ، كما يقول كتاب " في ظلال العدد" لصاحبه كمال قنطار ، في الاسلوب الذي كتبت به الملحمة السومرية البابلية "جلجامش" ، وهو يرى ان هذا الايقاع الاثنى عشري يتكرر في ملحمة الاوديسة واساطير يونانية اخرى ، لان التراث اليوناني ايضا احتفى بهذا الرقم الذي يمثل عدد الانباء الذين انجبهم الاتحاد برباط الزوجية بين الهي الارض والسماء ، كما ان زيوس كبير الالهة صنع من دويه مجمعا لها يضم 12 الها، ويجعل هوميروس عدد السفن التي يرحل بها عوليس بطل الاوديسة 12 سفينة ، وهو ايضا عدد الالهة في التراث الروماني بزعامة جوبيتير ، ويتكرر هذا الرقم على مستوى التراث الديني لكل الاناجيل باعتبار هذا الرقم يمثل عدد حواربي السيد المسيح وعدد الاعياد التي تمثل مراحل الخلاص ، كما ان العام الثاني عشر هو عام النضج والاكتمال في حياة السيد المسيح وصعوده الى المذبح ، وفي التراث الاسلامي فان الاثنى عشرية هي الاسم الثاني للمذهب الشيعي الذي يؤمن بنوالي اثنى عشرة اماما ، اولهم الامام علي كرم الله وجهه ، وآخرهم الامام المهدي الملقب بصاحب الزمان الذي لختفى وسيعود لاصلاح العالم ، ويقسم اخوان الصفا الفلك الى اثنى عشر بيتا ويتحدث كتاب في ظلال العدد على تفاصيل كثيرة تتصل بهذا الرقم مثل البركة الاثنى عشرية التي حظي بها سيدنا يوسف ، ويضيف كتاب باللغة الانجليزية عنوانه " اسرار الرقم 12 " لمؤلفه برانيمي بوجال معلومات كثيرة اخرى عن هذا الرقم .

في بحثي عن الروايات المتعددة الاجزاء ، وجدت روايات كثيرة لعل اطولها في الادب العالمي رواية بروست " البحث عن الزمن الضائع " المنشورة في سبعة مجلدات ، وهناك رواية واحدة اثنى عشرية هي رواية الكاتب الانجليزي انتوني باول المسماة

" الرقص على موسيقى الزمان " ورغم انها رواية اجيال وتعاقب ازمة وليست كهذه الرواية التي نتحدث عن لحظات في حياة بطلها عثمان الحبشي ، فان هناك ، برغم هذا الفرق ، الكثير من التشابه التي تربط بين العاملين ، فكلاهما روايات متصلة منفصلة، وهذا الانفصال

والاتصال يتعدد في أشكاله وضعفه وقوته، فهو اتصال وثيق قوي بين كل ثلاث روايات ، تشكل فيما بينها ثلاثية يمكن ان تكتفي بذاتها ، برغم وجود الخيط الذي يربطها ببقية الروايات ، وبذلك تكون " خرائط الروح " اشبه بالاثني عشرة شهرا ضمن العام الواحد التي تشكل كل ثلاثة منها فصلا من فصول هذا العام له شكل ولون ونكهة تميزه عن بقية الفصول ، وبالإضافة تشبيه تقسيماته هذه بالفصول ، يقتبس كاتب "الرقص على موسيقى الزمان " تشبيها آخر من التقسيمات المعتمدة في التأليف السيمفوني ، ويرى ان عمله يشبه سيمفونية من اربع حركات ، باعتبار ان هذا العدد هو الذي تتكون منه السيمفونية في الاغلب والاعم وان لكل حركة ايقاعها وبنائها الذي يجعلها كيانا مكتملا داخل السيمفونية ، تؤدي وظيفة غير معزولة او مفصولة عن السياق العام للعمل السيمفوني في صيغته الاشمال والاكثر ، وهو ما حدا بالكاتب على الارجح ان يجعل كلمة الموسيقى جزءا من عنوان الرواية ، ولا ادري ان كنت استطيع ، ككاتب يخاطب قارئنا عربيا لا تدخل السيمفونيات في تراثه الموسيقى الشرقي ، ان استعير هذا الوصف وادعي وجود قصيدة في تقسيم رواياتي بهذا الشكل السيمفوني ، تاركا للقارئ ان يختار الطريقة التي تناسبه في قراءة هذا العمل ، مكتفيا بان اقول ان فصول العام تمثل اقرب تصور لواقع هذه الحواريات التي تتعرض لفصول من حياة عثمان الحبشي بحلقاتها الاثني عشرة ، وتؤرخ لما طرأ من تحولات على حياته الروحية ، الوجدانية ، العاطفة ، ولم اختر اسم خرائط الروح عنوانا يجمع هذه الرواية الا اشارة الى هذا الاهتمام بالروح وملاحقتها في شتى هذه الدروب والمعارج والمنعطفات والاقانيم التي ترحل عبرها ، وتصويرها في لحظات ضعفها وقوتها وارتفاعها وهبوطها واضمحلالها وتضخمها ، والتأكيد على ان موضوع الروح هو الثيمة الاساسية لمجموع روايات هذه الرواية الملحمة ، من خلال مسيرة الحب والحرب التي خاضها بطل الرواية ، بادنا رحلته من صحراء الحمادة الحمراء ، منتقلا الى عاصمة بلاده طرابلس ، ثم الى بر الاحباش ضمن جنود الحملة الايطالية على الحبشة ، ثم الى القاهرة والصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية عاشا تلك المفارقة التي عاشها كثير من الليبيين الذين بدأوا الحرب مجندين مع المحور بحاربون في صفوفه جيوش الحلفاء ، ثم انتهوا الى محاربيين في جيش الحلفاء ضد قوات المحور ، ، عائدا الى وطنه والى وظيفة قيادية في بلاده خلال فترة الحماية البريطانية لليبيا ، ثم الى الصحراء التي منها بدأ ، لتكتمل الدائرة وتنتهي اجزاء الرواية الاثني عشرية .

انها ملحمة زاخرة بالاتراح والافراح والاحداث الجسيمة ،عاشها ابناء الجيل الذي ينتمي اليه عثمان الحبشي ، حاولت الرواية تقديم اقباس منها بلغة السرد الروائي وتقنياته وجمالياته ، التي لا تكتفي بتسجيل الاحداث ولا تجعل ذلك هما رئيسيا لها ، فمهمتها الاساسية هي خلق عالم سحري يوازي الواقع بدلا من ان تسعى لنقله على الورق ، باعتبار الفن تقطيرا للتجربة

الانسانية وليس تسجيلا لها او ترحيلا لاحداثها سواء باستخدام عامل الانتقاء او بمحاولة نقل هذه الاحداث بعجزها ويجرها الى عالم القصة ، وهي لغة لا تكتفي بالبقاء لغة وصفية نظرية ، وانما تشحن سردها بلغة الشعر وجدل الواقع والاسطورة والحقيقة والافانازيا والحوار والمونولوج والاسترجاع من اجل ان تغلج في خلق عالم زاهر بالدلالات الفلسفية والفكرية ، عامر بالايحاءات والرموز ، تتم معالجته بروية مفتوحة على مكابدات النفس البشرية وسبر اغوارها ورصد الجراح البشرية الانسانية التي تصنعها الحروب والواقع الاستعماري وما تركه من تشوهات وعاهات لدى كثير من ضحاياه ، ومقاربة الاسئلة الازلية في الوجود التي تتصل بالحب والكراهية ، والخير والشر ، والحياة والموت ، والالم واللذة ، والاخفاق والنجاح ، والعدل والظلم ، والشقاء والسعادة ، والقلق والرضا ، عبر احقاب زمنية ، كما هو الحال مع هذه الرواية ، شملت اوقات الحرب والسلم ، وعهود الاحتلال والاستقلال والمقاومة ، وعبر امكنة شملت القرية والمدينة ، والغابة والصحراء ، والجبل وساحل البحر ، محاولا الكاتب القبض على روح هذه الامكنة والازمنة بكل ما تنتج استراتيجيات السرد من بوح وكشف وتعرية وما تملكه من امكانيات البحث والاستقصاء وما تقدر عليه من تجاوز الظاهر الى الباطن ومن اختراق السطح الى عمق الحقائق والوقائع والاحداث ، وبكل ما اسعفته به ملكاته من امانة وصدق في .

لم يكن ممكنا في رواية متعددة الأجزاء بهذا القدر ، ان اكتفي بسارد واحد للأحداث ، او باستخدام وجهة النظر الشخصية الذاتية من زاوية البطل او الراوي العليم بكل شيء ، وانما استعنت بكل ما تنتجه تقنيات واليات السرد الفني من وسائل في عرض الأحداث بدءا من ضمير المخاطب في الروايات الثلاثة الاولى ، ثم ضمير المتكلم في الروايات الاربعة والخامسة والسادسة ، ثم ضمير الغائب في الروايات السادسة والسابعة والثامنة واخترت تعدد الرواة ووجهات النظر في الروايات الثلاثة الاخيرة من الاثنى عشرية ، سيلاحظ القاري ايضا انني كتبت مقتطفات ووضعيتها في مستهل كل رواية ، بدأت باقوال المفكرين والفلاسفة احتفاء بمعاني التواصل في مجالات الفكر الانساني والتواشج بين الاعمال الابداعية والفكرية وتأكيذا لقيمة التراكم في هذا المجال فلاشي يولد من فراغ او بمعزل عما سبقه من انجازات ادبية ، كما وضعت بعض الشذرات في مستهل كل رواية اسميتها مفتتح ، اردت بها ان تكون اشبه بتوصيلات او links بلغة الانترنت ، بين احداث القصة واحداث وافكار اخرى ، بما في ذلك بعض الاحداث المعاصرة فمن قال ان الحادث الارهابي الاجرامي الذي يحدث اليوم في نيويورك او لندن او روما ، معزول عن حادث اجرامي تاريخي مثل غزو الحبشة الذي تدور حوله احدى الروايات .

سأتوقف عند هذا الحد مكتفياً بإبداء هذه الملاحظات الأولية التي أردت تقديمها للقارئ كمدخل لقراءة الرواية ، تاركا له ان يرى النص برويته هو لا رؤية تأتية من خارج النص حتى لو كان صاحبها المؤلف ، وان يتلقى الاجابة من النص مباشرة على ما لديه من اسئلة ، كل ما اضيفه في ختام هذا التمهيد ، الذي اكتبه بعد ان فرغت من كتابة الرواية في نسختها النهائية، هو انني بوصولي الى هذه اللحظة، اكون قد حققت إنجازا بدا في بعض مراحلها انه صعب التحقيق ، خاصة اثناء تلك اللحظات التي تواجه كاتباً ينتمي الى العالم الثالث ، لا بد ان يراوده فيها شيء من الشك في جدوى الكتابة واهميتها ، ويعتره شيء من الوهن بسبب ضالة المردود المادي والمعنوي للكتابة الابداعية ، الذي لا يتكافأ دائما مع حجم الجهد المبذول ، فانفض يدي من الكتابة لبضعة ايام ، قبل ان استجمع قدرا من الهممة والعزيمة يسعفني لاستئناف الكتابة ، وارجو ان يصدقني القارئ عندما اقول انني كتبت اوراقا ومزقتها يبلغ عددها ثلاثة او اربعة اضعاف هذه الاوراق التي بين يديه ، استهلكتها في بدايات لا ارضى عنها واطركها الى بدايات جديدة عبر مراحل كتابة هذه الرواية ، ولهذا كان احساسني بالارتياح كبيرا ، لانني وصلت الى نقطة الختام في هذا العمل ، وانتهاء هذه المهمة التي اخذتها على عاتقي وأنا اكتب اكبر واطول رواية في تاريخ الادب العربي الحديث، مضحيا بساعات الراحة بعد الجهد الذي يأخذه عمل الصباح الذي اكسب منه قوتي ، حيث كنت خلال كتابة هذه الرواية التي اخذت احواما كثيرة، أواصل عملا لم أتأخر يوما واحدا عن الذهاب اليه ، عدا ايام الاجازات ، وها قد قمت باداء ما يخصني في هذه المهمة ، مدركا ان هناك جانبا آخر يخرج عن نطاق سيطرتي وهو مدى ما اصبته فيها من نجاح وتوفيق ، لان ذلك عائد الى الطرف الثاني في هذه العملية وهو القارئ ، الذي من اجله يكتب الكتاب اعمالهم الادبية ويتوجهون بها اليه ، والله من وراء القصد . المؤلف

أحمد إبراهيم الفقيه

أفراح آثمة

الرواية الثانية من خرائط الروح

رأى البرق شرقاً فحن الى الشرق
ولو لاح غرباً لحن الى الغرب
فان غرامي بالبروق ولمحها
وليس غرامي بالاماكن والتراب

محي الدين بن عربي

ما اجمل خطواتك بالخذاء يا بنت الامير
دوائر فخذيك حلي صاغتها يد ماهرة
سرتك كأس مدورة، مزيج خمرها لا ينقص
وبطنك عرمة حنطة، يسيجها السوسن
ثدياك توأما ظبية، بعد صغيران
نشيد الأنشاد

مفتتح الرواية الثانية

* سحرته المرأة ذات الجمال الفاتن. وقع صريع المدى الأزرق في عينيها، وغواية الورد الأحمر في وجنتيها والكرز في شفتيها، وفواكه العنب والتفاح والكمثرى في بستان جسمها، ولمعان جدائل الذهب التي تتهدل في كراديس مبهرة على كتفيها، عندما رآها ترفل في أثوابها الفاخرة، التي تجر فوق الأرض ، وجواهرها التي تزين العنق والصدر والمعصمين وأصابع اليدين، عطرها الفواح الذي يعمم القلب بالفرح والغبطة، ويبدى استعداد لهوضع شبابه وأملاكه وحاضره ومستقبله تحت قدميها، من أجل الفوز بها زوجة له، ولم يكتشف إلا ليلة أن بنى بها، وادخلها مخدع الزوجية السعيد، أن لمعشوقته الفاتنة، ساقا وحافرا حمار .

* الغانية التي سحرت الرجال، وهيات في بيتها سهرة للمفتونين بجمالها ، الراغبين في رضائها، الجاهزين لدفع الثمن من أجل قضاء لحظات معها ، تعودت أن تحتفي بكل ضيف من ضيوفها امام باب مخدعها ، وما إن تحين لحظة

الوصول، وقد تهيأ الضيف السعيد لقطف ثمار الحب ، وتسأله امام عتبة الباب ان يدخل قبلها ، وما ان يدخل حتى يكتشف انه يقف عاريا في الشارع العمومي، وقد اقلعت الغانية الباب خلفه، لان باب المخدع لم يكن إلا خدعة، وبابا يقود إلى الشارع والبرد والظلام والفضيحة .

اختلف الناس في تسمية هذه الغانية ، بعضهم يقول إنها السلطة، وبعضهم يقول إنها الدنيا، اما الكاتب الليبي على مصطفى المصراطي فقد جعلها في حدى قصصه سيدة امريكية واعطاها اسم مارجريت لاوس .

* هناك مجتمعات تتقن فن الحب، ومجتمعات تتقن فن الكراهية .

* هناك مجتمعات تتقن فن الموت ومجتمعات تتقن فن الحياة ، وهناك تعبير جميل يردده الفرنسيون كثيرا ويتناقسون في وضعه موضع التنفيذ هو " فرحة الحياة " .

* كاذب من قال أن حب الحياة والاستمتاع بها، مناقض للعمل والانتاج او الكدح والنضال او التقوى والايمان ، ربما العكس هو الصحيح .

* هناك فرق بين ان نحيا الحياة ، وبين مجرد البقاء على قيد الحياة ، وهي مسألة لا علاقة بها بالفقر والغنى ، فهناك غنى يمكن ان يكون فقيرا معدما ، في فهم الحياة وادراك قيمتها ، وهناك فقير ، يحيا حياة ثرية بفضل وعيه بمعنى الحياة وقدرته على تذوقها .

*امراض العصاب الجماعي ، ليست وهما ، فهي موجودة ، نراها احيانا تصيب جماهير كرة القدم ، وقد يكبر الداء ويصيب شعبا بأكمله ، اذا ابتلاه الله بحاكم يجنح للطرف والطغيان ، هتلر مثالا .

*هناك من يستمد قيمته من خارجه ، وتزول هذه القيمة بزوال السبب الذي غالبا ما يكون منصبا او مالا او علاقة بحاكم او مسئول ، وهناك من يستمد قيمته من ذاته ، وتحل هذه القيمة معه
في كل مكان يحل فيه ، فتكبر به المناصب بدلا من ان يكبر بها ، ويصبح زينة الثروة ، بدلا من ان يكون رجلا زينته الثروة .

*هناك مثل ليبي يقول "عريان من يجعل الايام غطاء له" فالايام لا امان لها ولا صاحب، ولا تعرف عهدا ولا ميثاقا، ولا ثباتا على مبدأ او طريق .
*هناك قاعدة جميلة يحرص المعلمو المدارس على تلقينها للتلاميذ ، تقول ابدأ بنفسك ، ولا ادري لماذا كلما حاولت تطبيقها

وفاء لذكرى معلمي المدرسة الابتدائية ، ظهرت الوان لا حصر لها من العقبات ، تحول بيني وبين هذا التطبيق ، الى ان وجدت نفسي ذات يوم قائظ ، افلح في تطبيق هذه القاعدة ، حيث كنت اجلس خلف مقود السيارة ، فوق احد الجسور وسط طابور السيارات ، وفي وقت الذروة واختناق المرور ، والوقت يمر دون انفراج للازمة ، والشمس تحرق حديد السيارة وتحرقني بداخلها بسبب تعطل جهاز التكييف ، واشتعلت داخل راسي تلك اللقطة القديمة ، تحفزني على المبادرة والعمل الايجابي قائلة " ابدأ بنفسك ، ابدأ بنفسك" ولم اتردد ، بدأت بنفسي وتركت السيارة وسط الطابور ، وخرجت اقطع الجسر مشيا على الاقدام ، ولم تكن دهشتي كبيرة عندما رأيت جميع قائدي السيارات يتركونها واقفة فوق الجسر ، ويتبعونني . لقد نجحت المبادرة .

*ازمة الوصول الى منتصف العمر ازمة يعاني منها الرجال والنساء ، على السواء ، باعتبارها احدى مراحل العمر الحرجة

ومن واقع التجربة الشخصية اقول ان ازمة الدخول الى هذه المرحلة ، اهون كثيرا من ازمة الخروج منها ، لانه خروج يفضي الى اعتاب مرحلة اكثر حرجا وقسوة وصعوبة هي مرحلة الشيخوخة .

*تتحول الدقائق الى ساعات ، والساعات الى ايام ، والايام الى اسابيع واشهر وسنوات ،
ويظل الغد هاربا الى الامام.

* هناك في حياة كل انسان يوم واحد بلا غد ، هو آخر ايام العمر

(2)

حورية

مهووس ماريو باسواق اللحم البشري الرخيص
خبير بدهاليزه واسواقه وغاباته
إلا أنه هذه المرة صار يماطل ويتمنع
بحجة انه يريدك ان تقى
بالعهد الذي قطعت على نفسك ، بتقديم امرأة عربية
من نساء الشارع له، فمن اين لك وانت الذي عاش
بعيدا عن هذه الاجواء
ان تجد له مومسا ترضى فضوله الجنسي
لتذوق اللحم العربي؟
تمنيت لو كنت تستطيع الاهتداء إلى تلك المرأة
التي جاءت تعرض أمامك مفاتها في دكان الاحذية
عندما كنت غشما وصغيرا
ليس فقط لأنها ستحل مشكلتك مع ماريو، ولكن لأنك
انت أيضاً تشتهيها ونادم لأنك اضعت فرصة ان تمسح
وجhek في مخمل نهديها
كم هو مؤسف انك لا تعرف طريقها ، وان عليك ان تبحث
عن امرأة غيرها باية طريقة ، حتى لا تبقى مطرودا
من جنة ماريو المليئة ببائعات الهوى من حوريات
الشاطئ الشمالي للبحر
فكرت في ان تغامر بالذهاب الى سيدي عمران ، لتبحث
داخل بيوت الدعارة الرسمية ، عمن يرضى الخروج
معك ، إلا أنك لا تعرف هذا الشارع
ولم تزره من قبل ، ولا خبرة لك باسلوب التعامل فيه ، وليس
أمامك من حل غير ان تذهب لعبد المولى الشحاذ ، من أجل
ان يعينك في العثور على هذه المرأة ، لأنه سبق ان حكى
لك عن مغامرة له مع إحدى المومسات ، وهو

وحده ، بين معارفك ، من يستطيع ان يكون دليلك لعالم
البيغايا والساقطات ، وعندما عقدت العزم على هذا الرأى سألت ماريو ان يتجه بالسيارة الى
حزام الأكواخ بمنطقة
بورتا عكاره ، حيث كوخ عبد المولى، واثقا من انك ستجده
نائما في عز الضحى كما يفعل الوجهاء والاعيان
لاسباب ترضها طبيعة العمل
الصباح ليس موعدا مناسباً للتسول لأنه لا احد
يحب ان يبدأ نهاره بروية الشحاذين يعرضون أمامه
عاهاتهم واسمالهم المرقعة
ونتانة روائهم وغير ذلك من مؤهلات التسول
عبرت بكما السيارة حي سيدي خليفة ببيوته الملتصقة
بالأرض وشوارعه الضيقة المتربة المزدهمة بالاطفال
ومرت بكم أمام زاوية الكتاني حيث قرأت الفاتحة
على صاحب الروضة ، وانت تشعر بالاشمئزاز
من نفسك لأنك ذاهب تسعى في
مقصد فاسد ، دون ان تأبه لهذا الولي الصالح، سيدي
الكتاني الذي يعترض طريقك ، انك لو كنت تمشي
على قدميك لما تقدمت خطوة واحده
على هذه الطريق ، ولارغمتك قباب الزاوية والروضة
ومئذنة الجامع الذي يتبعها على العدول ، إلا أن للسيارة
سرعتها التي تسبق سرعة التفكير، ولسانها دوافعه
ومنطقه وافكاره التي تختلف
عن افكارك ، ولا يعني له سيدي الكتاني ما يعنيه
لك من معاني الصلاح والتقوى، فمضى بقود السيارة، يعبر
بها الطرقات المتربة ، وهي تنثر زوايع الغبار، ثم سرعان
ما هاجمتك رائحة مدبغة الجلود التي تفصل بين المساكن
العربية وحي الأكواخ
تنثر الغثيان والتقزز ، وتنسبك فكرة العدول
عن هذا المشوار التي شغلت فكرك، لأن الفرار
من هذه الرائحة ، هو أقصى ما تريده

في هذه اللحظة ، ابدى ماريو تأففه من رائحة المدبغة
واستخدم احدي يديه في سد مناخيره حتى تنتهي الرائحة
وزاد في اندفاع السيارة لتخرج سريعا من مجال تأثيرها
إلا أن الرائحة الكريهة لا تنتهي بمجرد اجتياز المدبغة
وانما تزداد قوة بظهور تلال القمامة المنكومة أمام الأكواخ
لأنه لا وجود لاحد يهتم بجمعها وحرقها
واعداد كثيرة من الجردان تتقاذف عند مرور
السيارة ، متجه نحو الأكواخ
كانه صار طبيعيا ان تشارك الناس حياتهم
والمياه القذرة التي لا تجد تصريفا ، تصنع بحيرات
وجداول تعبرها السيارة ، فيتطاير رذاذ مياهها الخضراء
ملطخا حديد السيارة وزجاجها ، وتتطاير في ذات
الوقت ، الشوائم واللعنت من فم ماريو ، ويصيبك
شيئ منها ، عقابا لك لأنك
لم تجد مكانا تصطاد منه النساء غير هذا المكان
الحقير ، فيكون ردك عليه بانه ليس للعرب احياء
يعيشون فيها غير هذه الاحياء ، واذا كان ماريو لا يطيق
رؤية قاطنيها فليعد إلى مومساته
الإيطاليات ، من قاطنات احياء طرابلس النظيفة الراقية
الا ان ماريو يقول ان احتجاجة
ليس على فقر الاحياء ولا اكواخ الصفيح
ولكن على فقر الروح الذي يجعل الناس
لا يفعلون شيئا ازاء هذه القذارة وهذه النتانة
لانه كما يقول عن نفسه
انه ولد وعاش وتربي في افقر احياء باليرمو
لكن الناس كانوا يغرسون اشجار الورد
وسط المساحات الفارغة بين تلك
البيوت المتهالكة القديمة الفقيرة
ولم يكن هناك في حي الاكواخ الا ما يؤيد كلامه
ويحرمني من تقديم أي دليل ادفع به عن بني

وطني تهمة فقر الروح ويؤسها
فعلى جانبي الطريق وبين اكوام القمامة
وجداول المياه القذرة
كان سكان الحي يتحركون في شئون حياتهم اليومية
كانهم لا يرون هذه الاكاداس من القذارة
بعضهم لا يتحركون، وانما يجلسون متجمدين
أمام اكواخهم ، خاصة المتقدمين في السن من رجال
ونساء اشبه بالهياكل العظمية، يتكئون تحت ظلال
الأكواخ وقرب اكاداس القمامة ، تاركين الحركة
والنشاط لسحائب الذباب، تحلق فوق رؤوسهم وتطير
وتحط فوق وجوههم، يتطلعون ببلادة إلى السيارة العسكرية
التي تسللت عبر اقواس اليوس، إلى حياتهم
واقتمت حرمة مزابلهم
ولا ينافس الذباب في نشاطه الا الاطفال
الذين يجرون حفاة باسمالهم المهترئة البالية
التي تحول لونها إلى سواد قائم بسبب
القذارة ، يحاولون ملاحقة السيارة ومجاراتها
في سرعتها وهم
يمدون ايديهم يطلبون حسنة لله
ولايد ان امهاتهم البدويات ما زلن يحملن
تقاليد البادية في الخوف من استهلاك الماء
فلم يجدن داعيا لازالة السواد عن قمصان
هؤلاء الصبيان رغم فائض الماء
في المدينة
تختلط توسلات هؤلاء الصبيان وصيحاتهم بنباح كلب
في هذه الجهة أو ثغاء جدي أو تيس في جهة أخرى
وبرغم انه سبق لك ان زرت
هذا الحي أكثر من مرة ، وبقيت به في كل مرة بعض الوقت
احسست اليوم ، وانت تدخله راكبا سيارة إيطالية
صحبة السنيور ماريو ، كأنك تراه لأول مرة ، وقد جعلته

عينا ماريو المندھشتين، ووجهه الذي تطبعت عليه علامات
الاشمئزاز والقرع، وهو يطلق تعليقاته القاسية ، يبدو عالما
شديد القبح والقذارة يستحق ان تشعر بالخل من انتمائك
للجنس الذي يسكنه

خطر ببالك سؤال وانت تمرق بين هذه الهياكل العظمية
وأكداس القمامة التي يجلس الناس فوقها وحولها، تغطي
وجوههم سحب الذباب هو :

— هل خرجت حورية من مثل هذه البيئة وذقت
طعم هذا البؤس؟

قبل انتقالها مع امها للإقامة في مستشفى كاتانيا
كانت حورية تقطن

حي الأكواخ الواقع على اطراف شارع ما كينه
والذي يمثل صورة

طبق الاصل من هذا الحي ، وبسبب قربه من مركز
المدينة تمت ازالته لبناء حي جديد للإيطاليين ، تتوسطه
الكاتدرائية العملاقة

يصبح أجمل حي في مدينة طرابلس . وكأن ما حدث
لأرض هذا الحي من تحولات نقلتها من بؤس التخلف
والفاقة إلى افق التقدم

والغني والحضارة ، حدث مثله لنبتة انبتتها هذه الأرض
اسمها حورية ، انتقلت من قاع المجتمع
الى مشارفه العالية

انك لا تكاد تصدق الان ان جمالها المتوهج كشمس
الضحى ، المليء بمعاني الشموخ والكبرياء، والذي
يعطيك احساسا بانها ولدت في قصر ملكي، وما رأيته
يحيط بها من اجواء البذخ

واضواء السلطة والجاه والنجاح ، يمكن ان يوحى
بادنى صلة أو علاقة لحورية بهذه البيئة
وهذا المحيط ، فلماذا

اذن يتأفف السيد ماريو قائلا بان نفسه

عافت الاتصال بامرأة تسكن هذه القاذورات ؟
ماذا لو رأى محظية سيده بالبو
وعرف انها خرجت من علبة صفيح
تشبه هذه العلب ؟ هل تراه سيصدق ذلك ؟
ولكن هل لابد لمن اراد
الخروج من عالم الجوع والقدارة إلى العالم السوي
النظيف الذي يتوفر فيه الغذاء والكساء
والسكن اللائق بالبشر ان يمر عبر هذا
الطريق الذي سلخته حورية ؟
اما من طريق أكثر نظافة يمكن ان يسلكه الإنسان
لينجو من حياة الزواحف والديدان؟
سارت بكما السيارة عبر الطرق الموحلة
الضيقة بين اكواخ الصفيح
حتى وصلتما إلى كوخ عبد المولى الشحاذ، وقبل
ان تهبط من السيارة، رأيت راس عبد المولى
يطل عبر انفراجة صغيرة في باب
الكوخ، وقد بدت نظرتة حائرة مرتبكة
يحاول ان يعرف سب الضجة
التي يصنعها الاطفال الذين ظلوا يصيحون
ويركضون خلف السيارة
وقد افزعه دون شك ان يرى سيارة عسكرية
تضع انفها في باب كوخه، اسرعت تناديه
باسمه، قبل ان تذهب به الظنون مذهب
أخرى ، فرد وهو يرفع يده ويبسطها أمام وجهه
ليحمي عينيه من وهج الشمس، يحاول ان يتبين
صاحب الصوت الذي يناديه :
— من ؟ هل هذا انت يا عثمان؟
كانت هناك أوجه كثيرة تطل هي الأخرى
في فضول من الأكواخ المجاورة
— نعم يا عبد المولى اريدك في كلمة سريعة.

اختفى لحظة خلف الباب قبل ان يخرج

وفي يده مكنسة من جريد

النخيل ، يلوح بها في وجوه الصبيان الذين تحلقوا حول

السيارة يمدون ايديهم يريدون صدقة الله، فابتعدوا

مسافة قليلة عن السيارة ، ووقفوا يطلبون

الصدقة من بعيد غير خائفين من

مكنسة عبدالمولى، وجاء هو يتكئ على نافذة السيارة قائلاً:

— هيا ادخلا لتناول الشاي .

— لا نريد شاي .

— اذن ما الذي تريدانه انت وهذا الرومي؟

— ماريو مجرد سائق يعمل معنا في المعسكر .

— انعم واكرم ، وما سبب تشريفكم لحي الأكوخ ببورتا عكار؟

— بصراحة ودون كلام زائد، فقد جئنا للبحث عن امرأة.

— ومن تكون هذه المرأة ؟

— ليست امرأة بعينها.

— وما شأني انا بمثل هذه الامور أو بمثل هذه المرأة ؟

— اقصد امرأة كالتى قلت انك احضرتها لهذا الكوخ.

— وهل وصل بك السقوط إلى هذا الحد ؟

— لا تفهمني خطأ .

— كل ما تقوله خطأ، وجئت للرجل الخطأ، في المكان الخطأ

لأنني لا اعمل قوادا، وبورتا عكار ليس حيا للدعارة . هيا انصرف

قبل ان اضربك بهذه المكنسة .

استغربت لهذه الثورة التي استقبلك

بها عبدالمولى الشحاذ، والتي لم تكن تتوقعها

وحاولت ان تشرح له الموقف إلا أن ماريو العجوز

وقد احس بحرج الموقف، ورأى غضب الرجل

وتهديده لكما بعصا المكنسة، ادار محرك السيارة، واندفع

بها عائدا من نفس الطريق

— بوركا ميزيريا.

أطلق شتائمهم، وضغط بقدمه على دواسة

البنزين، وقاد السيارة بأقصى ما لديها من سرعة، غير
عابىء بالأطفال الذين مضوا
يركضون ويتقاذرون فوق أكדاس
القمامة، يتقادون السقوط تحت
عجلات السيارة، أو الدجاجات التي ارغمها
على ان تستخدم لجنحتها
لأول مرة في الطيران، حتى تنجو
من موت محقق، يهددها به هذا
الوحش الحديدي الذي انتقض عليها
وجاء مسرعا نحوها بهديره
ودخانهِ وغبارهِ . مضى ماريو يقود بك السيارة
عبر الطرق المتربة
وهو يرسل شتائمهِ البذيئة حتى أوصلك
إلى باب المعسكر ، حيث
أوقف لك السيارة كي تهبط ، دون ان يقول لك شيئا
له معنى غير قذائف الشتائم
التي تنتثر من فمه، وعندما سألته وانت تهبط
من السيارة عمن تراه يقصده
بكل هذه الشتائم ، رد باقتضاب:
— لا اقصد احدا غير هذا الحلوف الذي أمامك، الذي هو انا.

في نفس اليوم واثناء استراحة الغداء، جاء
عبد المولى الشحاذ لزيارتك في المعسكر
لم يطق حسب ما قاله ان يراك تترك كوخه
غاضبا هذا الصباح ، فاسرع بالمجيء إليك
لترضيئك قائلا بانه لم يكن بإمكانه، وأعين
الجيران تحاصره، وأطفالهم يلتقطون
ما يدور أمامهم من حديث، إلا أن يتصرف
معك بتلك الطريقة خاصة وانه فوجيء
بما تطلبه منه ، ولم يستطع ان يصبر على شرحك

لما تريد منه ، لأن الموقف لم يكن يسمح
بتبادل الحديث ، ومعرفة الدوافع والاسباب ، فوجود
سيارة جيش إيطالية أمام كوخه
يمثل في حد ذاته شبهة في اذهان قاطني
هذا الحي الشعبي ، فما
بالك بكلمة يلتقطها احد الناس
عن مثل هذا الموضوع ، ليضيف
بذلك شبهة جديدة إلى الشبهة الأولى ، كان لابد ان يطردك
انت وصاحبك ، لينفي عن نفسه الشبهتين
وها قد جاء مسرعا
بطلب منك الا تغضب ، وان تشرح له
في هذه الجلسة الهادئة
ما لم تستطع شرحه اثناء تلك الزيارة
افهمته انك لم تكن غاضبا منه ، لأنك مدرك
ان ماحدث جاء نتيجة
سوء فهم ، وان ليس في الأمر الذي ساقك إلى حي الأكواخ
ما يمس كرامتك أو كرامته ، وان احتياجك
لامرأة من هذا النوع
لا يدخل في دائرة السقوط كما ذهب
في ظنه ، وأوضحت له علاقة
العمل التي تربط بينك وبين ماريو ، والمغامرات
التي قمتم بها مع نساء إيطاليات كان ماريو
هو الذي يتدبر احضارهن وكنت محرجا أمامه
وهو يسألك ان تساهم مثله في ترتيب هذه
الاجواء ومن أجل ذلك ذهبت إلى كوخه بحثا عن امرأة
كتلك التي سبق ان أخبرك عنها
وبدا بان اقسم باغلظ الايمان انه لم يتعامل
بمثل هذه المواضيع مع احد من قبل ، بل انه
لم يسمح لاحد ابدا بان يخوض معه في مثل
هذه الامورحتى من باب الهزل ، ولأنه

يعرفك معرفة وثيقة ويعرف انك صادق
فيما قلته، فانه يعطيك عنوان امرأة تسكن
زنقة صغيرة اسمها زنقة البهلول ، محاذية
لشارع سيدي عمران عند السور الغربي
للمدينة، وحيث ان اغلب البيوت في سيدي
عمران بيوت بغاء علنية، فهو لا ينصحك
بالذهاب إليها لأنها تجلب الشبهة لصاحبها، زيادة
على ان نساء هذه البيوت لا يقدمن
هذه الخدمة الا داخل بيوتهن، ولا يستطعن
الخروج ابدا لأنهن خاضعات لحراسة الشرطة، ولذلك فهو
يعطيك عنوان هذه المرأة
التي تعمل وسيطة في مثل هذه الامور
وفي ذات الوقت فهي تدبر
فرقة من " الزمزمات" وتتفق
باسمهن على احياء الاعراس
رقصا وغناء، اسمها شريفة، ولم ينس
وهو يعطيك عنوان البيت
ان يزودك ببعض النصائح ، اهمها
ان تذهب إليها في زي غير هذا
الزي العسكري لكي لا تعتبرك
مندوبا للحكومة، وان تدعي في البداية
انك قادم للالتحاق معها على احياء حفلة عرس
والا تبوح لها بمطلبك الحقيقي الا بعد ان تعرف
انها اطمأنت إليك
وانتظرت حتى جاء موعد ذهابك إلى ماريو
فاخذت ملابسك المدنية
تحت إبطك لأنك لا تستطيع ان تخرج من المعسكر
مرتديا إياها ، وتخفيها في سيارة ماريو، وما
أن تنتهي حصة التدريب حتى
تبحث عن موقع آمن ، قريبا من سور المدينة

تقود إليه ماريو ليوقف
فيه السيارة كي تنتهي من ارتداء طقم
الملابس العربية الذي ستقابل به مطربة الاعراس
السيدة شريفة ، على ان ينتظر ماريو بالسيارة
في نفس المكان عند خروجك بعد انتهائك من عقد الصفقة
كان البيت واحدا من بيوت المدينة القديمة
ذوات الطراز العربي المؤلف من طابقين
وصحن مفتوح ، ودلفت من الباب الخارجي
إلى سقفة طويلة، تؤدي إلى ذات الفناء
الداخلي، ولكن قبل ان تصل الفناء ، ثمة غرفة
صغيرة اعتتها صاحبة البيت لاستقبال
الضيوف ، حيث جلست على مندار مفروش فوق الأرض
واحتلت بجسمها اليبين العريض نصف الغرفة
انتقلت بسرعة من الحديث عن العرس الوهمي
إلى الغرض الحقيقي الذي جئت من أجله، بعد
ان وجدت تشجيعا منها، واستعدادا جميلا
لتقديم الخدمة التي جئت تطلبها
فاجأتك الاسعار العالية التي تريدها مقابل هذه الخدمة
عرفت منها ان هناك تسعيرة للمدة القصيرة داخل البيت
وتسعيرة اكبر للمدة القصيرة خارجه
وتسعيرة ثالثة لا يقدر عليها الا اصحاب الدخول الكبيرة للمدة
الطويلة التي يقضيها الزبون مع احدى نساء الوقت الجميل
سواء نائما في هذا البيت لليلة كاملة أو مصطحبا اياها إلى بيته
وجدت ان ما بناسيك الان ويتفق مع النقود التي في جيبيك
هو امرأة واحدة تأخذها في نزهة قصيرة خارج البيت
ودون مساومة أو مماطلة اخرجت الفرناكات العشر
واعطيتها لها ، اعجبها حسمك السريع
لهذه المسالة المالية ومبادرتك إلى دفع
ما قالت دون ابطاء، فرفعت صوتها تتادي
نورية وفوزية وخدوجة

لكي تعطيك فرصة للاختيار بينهن ، فاخترت
الأولى لأنها أكثرهن طولا وامتلاء وقلهن تزويقا ومكياجا
عادت نورية إلى غرفتها لكي تهيء نفسها للخروج معك
بعد ان أخبرتها رئيستها بان خروجها
سيكون لمدة ساعتين
وكنت ستواصل الجلوس في غرفة صاحبة البيت
انتظارا لنورية ، ولكن طرقات على الباب
الخارجي ، جعلت السيدة شريفة تسألك
ان تنتقل لانتظار نورية في غرفتها، لأنها لا تعرف من يكون
القادم الجديد ، ولا ترى من الحكمة ان تستقبلك في حضوره
فوجئت بان الغرفة التي صعدت إليها في الطابق الأول غرفة
واسعة، نظيفة، تحتوي على سرير كبير ، ودولاب للملابس
يغطي كامل الجدار ، وطاولة للزينة لها مرآة عريضة
ادركت ان للتسعيرة الغالية اسبابها
وجلست على طرف السرير
في حين جلست نورية أمام مرآتها
تمشط شعرها وتكمل زينتها
قائلة بانها ستمنحك خدمة افضل لو
رضيت بالبقاء داخل البيت
حيث الدفء والامان والنظافة والماء الساخن
وحيت السرير المصنوع من الاسلاك الحديدية
المطاطة "الموللا" التي تجعله
يرتفع وينخفض اثناء العملية الجنسية
ويتحول إلى ارجوحة
تضاعف متعة الجنس، ولم تتردد اثناء ذلك
من استخدام مفاتيحها
لاقناعك بجذوى البقاء في البيت ، ولم تكن
غريزتك الجاهزة للاستفار تحتاج لغير
تلك اللحظة السحرية عندما لامس نهدها كتفك
دون قصد ، وهي تخطف منديلا معلقا فوق

مشجب وراء ظهره
لتؤمن على صحة قولها، وتدرك الحكمة
الكامنة وراء اقتراحها
تبقى المشكلة الوحيدة بينك وبين الامتثال
لما تأمر به نورية هو التزامك مع ماريو، فقد اتفقت
معه بان يعود لانتظارك تحت السور
بعد نصف ساعة، وكان يمكن ان تخلف موعدك
معه لولا ان بذلتك العسكرية موجودة الان
في سيارته ، ولا سبيل لدخول المعسكر
الا بها، وتفتق ذهنك عن فكرة ترضي المرأة
وتطفيء نداء الغريزة لديك
دون ان تخلف موعدك مع ماريو. كان كل ما تبقى من
نقود في جيبك هو خمس فرنكات بسطت بها
يدك لنورية داعيا اياها
ان تأخذها حلالا بلالا دون علم رئيسها مقابل مضاجعة
سريعة فوق هذا السرير، مع احتفاظها بحقها في النقود
التي استلمتها شريفة ثمنا للنزهة المتفق عليها، ترددت
نورية قليلا قبل ان تمد يدها
للقود، ثم وافقت بعد ان اخذت منك عهد الا تطيل
فترة المضاجعة لكي لا تتخلف عن رئيسها، فتشك
في امرها وتأتي لمعرفة سبب تأخرها، وتكتشف
بالتالي امر هذه الصفقة الصغيرة التي
قامت بإبرامها معك من وراء ظهرها، فهي لا تريد
مشاكل مع صاحبة البيت، وبسرعة امسكت بيدها
تجرها إلى السرير لتتطرح فوقه وتقفز انت فوقها
بكامل ملابسك، فلا تمض غير دقيقة واحدة
حتى تنتهي المهمة اخذت نصيبك منها قبل ان ترتدي
رداءها وتخرج وراءك للالتحاق بصاحبك الإيطالي
المشوق لالتهام رطل من اللحم
العربي الأنثوي الحي، لم تكن هناك لغة مشتركة بين

ماريو العجوز وبين نورية
ولذلك فقد كان دورك طوال هذه النزهة هو ان تقوم
بدور المترجم بينهما ، عدا اللحظات القصيرة
التي اختفيا فيها داخل الدغل
ليتخاطبا بلغة أخرى هي لغة الجسد
اخيرا وجد ماريو ما يرضي فضوله، إلا أن غياب اللغة
المشتركة بينه وبين نورية، وهو الرجل الثرثار
الذي لا يستطيع ان يستمتع بأي شيء لا تصاحبه
كمية كبيرة من الكلام ، جعلته زاهدا في
تكرار التجربة معها، في حين كان بيت الزمزمات
في زنقة البهلول ، اكتشفا بالنسبة لك ، وانقاذا
من مغامرات الغابة التي يحبها ماريو، ولم تكن
تتفق مع خجلك القروي وحبك للطهارة
والاغتسال ، فغرفة النوم هي البيئة الطبيعية
لطقس شديد الحميمية والخصوصية مثل هذا الطقس
الذي يصبح أكثر جاذبية مع وجود هذا الاختراع العجيب
الذي تعرفه بيوت المدينة منذ اقدم
العصور ، دون ان يصل إلى الارياف والبوادي ، وهو السرير
الوثير الهزاز الذي يتماوج مثل ماء البحر ، والذي جاء
اختراعه ليجعل ممارسة الحب أكثر امتاعا ولذة
كنت قد توصلت مع نورية
إلى اتفاق يقضي بان تأتي لزيارتها
مرة كل أسبوع ، لتمكث ساعة واحدة معها مقابل المبلغ
الذي ذكرته لك شريفة وهو سبع فرنكات، بشرط واحد
هو الا تعترض نورية على عدد المرات التي تقوم فيها
بالممارسة الجنسية معها
خلال المدة المحددة
كنت خلال رحلات الغابة قد تأكدت من قوة قدرتك الجنسية
وعدد المرات التي يمكن ان تقوم بها بالفعل
الجنسي خلال فترة قصيرة ، موقنا بان ادائك

سيكون افضل كثيرا، وانت تنتقل من
ممارسة هذا الشيء فوق الرمل
والحصي والعشب، إلى سرير
تغطيه الحشايا والمفارش القطنية الناعمة
ولم تنتبه نورية إلى مدى ما يلحقها من اجفاف بسبب
هذا الاتفاق الا بعد أول ساعة قضيتها معها ، ورأت مدى
ما يمكنك ان تقوم به
من ممارسات جنسية خلال هذه الساعة فابتدت احتاجها
على ذلك، وعمدت في المرة الثانية وفي اخلال
واضح بشروط
الاتفاق ، إلى تحديد عدد الممارسات، وجعلتها
خمس ممارسات
في الزيارة الواحدة، ورغم انها، كما
تقول، رأت رجالا
لهم فحولة مثل فحولتك ، إلا أن ذلك
لم يمنعها من ابداء
استغرابها لوجود هذه الحالات النادرة ، كما
تسميها، التي
تتخطى بمسافات كبيرة
السلوك الجنسي العادي لبقية الرجال ، وكان جوابك
انه مادامت المرأة قادرة على احتمال عدد كبير
من المضاجعات، فمن العدالة وجود
رجال يملكون القدرة
الجنسية التي تتكافأ مع قدرة المرأة
ليتوفر لهذه العلاقة ركن المساواة، لكن نورية لا ترضى
بهذا الكلام ولا ترى ان هناك وجودا في عالم البشر لما
يسمى عدل ومساواة
وان وراء كل امرأة تعمل بهذه المهنة
مأساة صنعها لها الرجال
ولا فلماذا لا نجد مقابل شارع سيدي عمران

المليء بضحايا المآسي الاجتماعية
من نساء يتاجرن بأجسادهن، شارعاً مثل هذا
الشارع للرجال، يعرضون فيه أجسادهم للبيع كالنساء
ومازحا قلت لها بانك ستكون أول الملتحقين بمثل
هذا الشارع لو كان موجودا ، لتبيع فيه قدراتك الجنسية
للنساء وتصبح اغنى اغنياء طرابلس، كنت تقول ذلك
ضاحكا ردا على الكلام الذي تقوله
نورية بطريقة جادة حزينة طالبا منها ان تضحك وتفرح
وانت تذكرها بانك أكثر استغرابا منها لحالتك، ولا تدري
من اين تفجرت لديك هذه الطاقة الكامنة فيك، التي كانت
نائمة لمدة تزيد على عشر سنوات ، أي منذ ان وصلت
سن البلوغ ، ولم تعرف بها ، أو تشعر
بالحاحها عليك، وضغطها على جسمك وروحك
الا مع أول ممارسة جنسية
في حياتك، لم تقل لها انك صرت
الآن تدرك ، ادراكا فاجعا مؤلما ، انك لن تستطيع
السيطرة على هذه القوة القاهرة العاتية
التي تدفعك نحو الطريق
إلى حي الدعارة كل أسبوع ، ولا قدرة
لديك على محاربة
هذه الغريزة عندما توقد تحت ضلوعك نارها
التي لا تنطفئ الا بارتكاب مزيد من الآثام
ولم يعد بإمكانك العودة إلى طهارة السنوات الماضية
مهما فعلت ولا يبقى الا مداومة الصلاة
والتسبيح وطلب العفو والمغفرة
وسرعة الاغتسال من الجنابة عقب كل زيارة
إلى بيت المذات
اقتصرت علاقتك مع ماريو على اخذ الدروس، إلى
ان جاء اليوم الذي ابلغك فيه بانه حدد لك موعدا
في ادارة المرور والطرق

لأداء امتحان قيادة السيارة، ولأن ماريو أوصى
عليك بعض معارفه
في تلك الإدارة، فلم يستغرق الامتحان
غير ساعة واحدة ، اخذت
بعدها بطاقة تحمل صورتك، وتجهيز لك حق قيادة السيارات
اعتبر زملاء العنبر ان حصولك
على هذه الرخصة التي لم يحصل
عليها احد قبلك من المجندين الليبيين، مناسبة
للاحتفال ، وما أن انتهت ساعات التدريب
داخل المعسكر، حتى كان طبق
الحلويات الشرقية، الذي اشتريته من باب الحرية جاهزا
كذلك سخان الشاي الذي احضره احدهم ساخنا
من مطبخ المعسكر
وابدى الشاويش عنتر الذي حضر الحفل ، حفلة شديدة بك
واعترازا بنجاحك، باعتبارك تلميذه النجيب ، وبالغ
في التودد إليك قائلا لبقية المجندين ، بان عليهم
ان يفرحوا لأنه اضحى لهم مندوبا
لدى الدوائر العليا، فاجبته مدعيا التواضع ، بانك
لا تنتمي لاية دوائر
علياء، وان مكانك سيظل في هذا العنبر، تحت
سلطة الشاويش عنتر
بادلته مجاملة بمجاملة، ولكن كلماته نفخت في قلبك جمر
الطموح، واعطتك احساسا بتعظيم اهميتك، فانت
تدرك ان للرجل
حاسة شم قوية، تجاه مراكز الحكم والسلطة
وانه لم يكن يقول كلامه اعتباطا، وانما بوحى
من هذه الحاسة التي تعرف
ما ينتظرك من صعود في مدارج النفوذ والنجاح

في اليوم التالي اثناء ذهابك إلى بيت السنيورة حوريه
لتقديم نفسك لها ، وإبلاغها بانك جاهز لاستلام
الوظيفة، خطر لك ان تمنح نفسك يوم اجازة، تقضيه
مع نفسك أو مع من تحب
وتفعل فيه ما تريد، دون ان يستطيع
احد في المعسكر الانتباه
لأنك اخذت هذا اليوم لنفسك، ولأنه لا احد
لديك تحبه أو يحبك في هذه المدينة غير ثريا، فقد اتجهت
إلى بيتها بعد ان تسكنت
قليلا في الشوارع، مستمتعا بما تحقق
لك من نجاح في اجتياز
الامتحان، والحصول على هذه الرخصة التي لم يكن ممكنا لاحد
من اسلافك ان يحلم بالحصول عليها
لأنه ببساطة لم يحضر
تاريخ اختراع السيارة، وإذا حضره فهو لم يحضر
تاريخ وصول السيارة إلى أولاد الشيخ
ذهبت باتجاه بيت ثريا دون ان تتأقش الأمر مع نفسك
أو تحاول ان تجد تبريرا لمواصلة هذه العلاقة التي لا
وجود لرابطة شرعية أو عائلية تسندها
مررت بـدكان لبيع الحلوى فاشتريت طبقا
للاحتفاء بنجاحك
مع ثريا واسرتها ، ومسوقا بشوق عارم
لرؤية عينيها، والالتقاء
بجمال الكون في ابتسامتها، طرقت الباب
منتظرا ان تفتحه لك
هي، مثل كل مرة تختار فيها المجيء
صباحا حين وجود شقيقها
في المدرسة القرآنية
لم يأت احد لفتح الباب، فاعدت طريقه
بقوة أكثر، وواصلت الطريق

إلى أن بدا واضحاً أنه لا وجود لأحد في البيت، اعتراك
قلق من أن حدثاً سيئاً قد حل بأهل البيت، مثل أن يكون
الوالد قد مات وأخذوه إلى قريته تاجوراء ليدفن
في مقبرتها بجوار أسلافه
أكثر من فكرة سوداء طافت بذهنك، قيل إن تترك
باب البيت عائداً إلى الشارع العام . لم تشأ
أن تطرق باب أحد من الجيران لكي لا
تقلقهم ، ولا تثير زوابع الكلام حول الزائر الغريب
لبيت الحاج المهدي، ورأيت بأنه إذا كان لابد
من السؤال فلتسأل أحد أصحاب الحوانيت المحاذية
للكان الحاج، فهؤلاء أصدقاء الرجل
ورفاقه، ولن يثير سؤالك عنه أية شبهة لديهم ، لأنهم
يعرفونك ويعرفون علاقة العمل التي كانت تربطك به
إلا أنك لم تكن تحتاج لأن تسأل أحداً
لأنك ما أن وصلت إلى هناك حتى فوجئت بدكان
الحاج المهدي مفتوحاً، وهو جالس في مكانه المعهود وسط
الدكان، منهما في العمل، المطرقة في يده، وصندوق المسامير
بجواره، وقطع الجلد الأحمر تنتثر حوله، يضع أحداها فوق
السندان الصغير ويترك فوق طرفها، طرقاتها وهنا ضعيفا
لكي يلين الجلد. احسست بمزيج من مشاعر الفرح والأسى
الفرح لأن الرجل قد تعافى واجتاز أزمته الصحية بعد أن ظننته
قد مات، وقد استطاع أن يستأنف العمل في الدكان بكل ما يعنيه
ذلك من دفع للذي الذي مكن أن يحلق به
وهو يحاول البحث عن لقمة العيش في هذه الظروف
الحالكة السواد
ويلحق ببقية أفراد هذه الأسرة الكريمة التي
فتحت أمامك بيتها، واعتبرتك ابناً ثانياً لها
أما الأسى فلأنك لن تستطيع بعد أن عاد الأب إلى دكانه
أن تدخل بيته أثناء غيابه، أو تجلس ، كما كنت
تفعل أثناء مرضه

معه و مع ابنته وزوجته وتتبادل اطراف الحديث معهم
استدرت باتجاه الدكان تلقي التحية وتهنيء الحاج بشفاؤه
وتجلس على الكرسي الصغير الذي يستخدمه
الزبائن في مواجهته
لم يكن الحاج قد تعافى تماما من مرضه، ولكنه
ما أن رأى نفسه في حالة تسمح له بمعاودة
فتح الدكان، وجلب قليل من الرزق حتى
تحامل على نفسه، وجر جسمه ليجلس في دكانه
وافهمك دون ان تسأله سر البيت
الذي لم تجد فيه احدا يرد على
طرقائك ، لأن زوجته وابنته ذهبتا مع اسرة فتحي لزيارته في
المعسكر، فلو بكرت بالمجيء قليلا، يقول لك الاب الشيخ ، لكنك
عونا لهم ودليلا بصحبهم إلى هناك، ولكنك لا تشعر بأي اسف
لأن هذا المشوار قد ضاع منك، فانت تعرف بانه سيكون
مستحيلا ان تجد مكانا قريبا منها
في مثل هذا الزحام، ثم ما حاجتك لمثل
هذا المشوار إلى المعسكر اللعين لكي تقودها الى زوجها
بعد ان اصطحبتها إلى الكورنيش وعبر كورسو سيشيليا
وميدان إيطاليا وميدان الكاتدرائية وشارع الملك فينوريو
ليمانويل واكتشفت معها طرقا أخرى
ومسالك لا تتسع لغير اثنين
انت وهي ، وسيتجدد ذهابكما معا
إلى تلك الطرق والمسالك داخل
السيارة التي ستقودها بدءا من الغد
رأيته مجهدا يضع المطرقة جانبا
ليتلقط انفاسه ويتبادل معك
الحديث، فاقترحت عليه، بدافع الاشفاق
على صحته، ان يكتفي
بالجلوس وبيع ما لديه من احذية جاهزة ، دون
حاجة إلى ارهاق نفسه في صنع احذية

جديدة، حتى يَمَاطِلُ تماما للشفاء
لوح بيده، كأنه يعفيك ويعفي نفسه من الحديث في هذا
الموضوع ، ومضى يسألك عن احوالك
وانت تعيش تحت ظلم وبطش هؤلاء الكفرة. حمدت
الله ان صهره فتحي لا يعرفك
ولا يعرف صلتك باصهاره ، والا لنقل
إليهم صورة حقيقية
عن طبيعة عملك، باعتبارك سوط هؤلاء
الكفرة ، واداتهم في
البطش بأهلك وأبناء جلدتك . انت لا تكره
ان ينفث أمامك طريق
جديد كهذا الذي تؤهلك له رخصة قيادة
السيارات ، لكي يعفيك
من مهمة جلد هؤلاء التعساء، التي صارت
مصدر حرج لك
حتى وانت تتحدث مع شيخ بعيد عن معرفة
ما يحدث داخل اسوار المعسكر، ولكن الشيخ
يواصل حديثه لاعا أولئك الذين
وضعوا انفسهم في خدمة الطليان، منطوعين للعمل في وظائف
تسيء لأهلهم وبلادهم، ضاربا المثل ببعض الذين
كانوا يبلغون عن الشباب الهاربين من حملات
التجنيد، ويدلونهم على بيوتهم
ليأتوا وينتزعوهم من احضان امهاتهم
— انهم ينسون انها بلاد ترابها ساخن، ولأولياء الله الصالحين قبور
في كل ركن من اركان هذه البلاد، وهذا التراب الساخن سوف
يحرقهم ، وسينالون عقابهم في الدنيا قبل الآخرة، فيا ويل ذلك الليبي الذي يظلم أهله ويجلب
الضرر لبلاده
احسست برعشة تنتشر في جسمك كله
كأن الرجل يعنك انت بهذه الكلمات
اردت ان تهرب من هذه المواجهة، وتمضي إلى حال سبيلك

ولكن صدر الرجل كان ممثلاً بكلام ضد الإيطاليين ، لا يستطيع
ان يبوح به الا لأهل الثقة ، وقد اعتبرك منهم فواصل حديثه
عن اللعنة التي تطارد المتعاونين معهم:
— سيظل يلعنهم كل عظم من عظام أهلنا الموتى ، قبل لعنات الاحياء .
ثم انتهى بتوجيه اللوم لنفسه ولكل من بقي مقيماً في البلاد
راضياً بالحياة في ظل حاكم كافر ، لأنه كان يجب ان يتدبر طريقة
للهجرة وفقاً لما جاء في كتاب الله:
" الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها"
ولو كان بملك امكانية للانتقال إلى بلد اخر
لما بقي يوماً واحداً هو واسرته يتجرعون
غصص الاستعباد ، ويضرب كفا بكف حسرة
واسى ، قائلاً:
— ولكن الله غالب ، اليد قصيرة والعين بصيرة.
فلم يكن أمامك الا مجاراته قائلاً:
— لا غالب الا الله.
وتفتست الصعداء، عندما انتقل بحديثه الى موضوع آخر
هو حرب الحبشة باعتبار هذه الحرب دليلاً واضحاً على فجور
هذا الحاكم الظالم الغادر، الذي يسوق الناس
عنوة ليغزو بهم بلداً آمناً . انها جريمة
في حق الشعبين الليبي والحبشي ، ثم سأل
في ختام تعليقه عن مدى قرب اليوم
الذي ستسافرون فيه إلى الحبشة
انك لا تعرف، ولا احد من الرؤساء يرضى بان يقول لكم، ربما
لأنهم هم أيضاً لا يعرفون ، أو لعلهم اعتبروه
سراً من اسرار الحرب
قلت للحاج ذلك واضفت بان موعد الذهاب
لن يتأخر كثيراً فيما ترى ، اذ سينتهي قريباً
موسم الامطار في هضاب الحبشة
ويصبح الجو صالحاً للعمليات الحربية
كان الحاج يظن مثل الآخرين

ان للتأجيل علاقة بما حدث فوق
هضاب برقة لا هضاب الحبشة، وربما كانت
صدمة له ان يعرف
ان اخبار النار التي اندلعت في الجبل الأخضر
مجرد امنيات ليبية
ماعاد هناك من يستطيع وضعها موضع التطبيق
لأن الإيطاليين سيطروا سيطرة كاملة على مقدرات
البلاد وعلينا القبول بالأمر
الواقع والاعتراف به مهما كان مؤلما مرا. لم تنشأ
ان تنتظر حتى يأتي الحاج المهدي على كامل
ما لديه من تصورات حول
الظلم الذي تعاني منه البلاد على ايدي
المحتلين ، فقد سمعتها منه
أكثر من مرة، وتعرف افكاره عن الافلاك
التي توصل دوراتها في
قبة السماء، وانه لا ثبات لشيء، ولا سبيل
لأن يركن احد من البشر
إلى بقائها تدور لصالحه دائما، واذا كانت تناصر
الإيطاليين اليوم فانها لن تكون في صالحهم غدا
ولا بد لباطلهم من ان ينتهي
لتعود الأرض إلى اصحابها بمشيئة الله وقدرته
كلام بقوله ليعزي به نفسه، وهو يرى حياته تنهار وعالمه
يتقوض وأرضه تسرق منه
لم تنشأ ان تعود مباشرة إلى المعسكر، وان تدع يوم الاجازة الذي
منحته لنفسك يتسرب من بين أصابعك هدرًا، ودون ان تجد شخصا
قريبا من نفسك يحتفل معك بنجاحك
ولم تكن تحتاج لاطالة التفكير، فالاختيارات أمامك محدودة جدا
ولذلك اخذت طريقك دون ابطاء إلى زنقة البهلول، رغم ان اليوم
لم يكن هو اليوم المخصص لزيارتك، ولم تكن نورية تستقبل فيه
احدا من زبائننا، لأنها تخصصه لاستقبال ابنتها "وردة" ذات

الاعوام السبعة. لم تكن موجودة اصلا في البيت عندما وصلت إلى
هناك، فقد اكرت كروسة تنتزه فيها بابنتها
وتشتري لها العااا وحلوى
كنت قد قفلت راجعا عندما رأيت العربية قادمة لتقف أمام
البيت، وتهبط منها نورية وطفلتها . كانت هذه
هي المرة الأولى التي ترى فيها وردة ، بعد ان سمعت
احاديث امها عنها وكان شيئا
مألوفاً في حي البغاء، بقسميه العلني والسري
ان تسعى المرأة التي
تجد نفسها حاملا ، إلى تسجيل مولودها
عند انجابها، باسم واحد من
صبيان الحي ، وعددهم اربعة يطوفون دائما
بين بيوته ويسهرون
على خدمة نساءه، وحمايتهن من عنف
الزبائن الذين يأتون سكارى، مقابل اجر
معلوم، فهم يقيمون في الحي ويقضون
ليلهم ونهارهم فيه، يقومون باعداد الشاي
وشراء الحاجات وحمل القمامة
إلى المزابل وجلب الماء الى بيوت الحي
وغير ذلك من الأعمال، ولكل واحد من هؤلاء عشرة
اطفال أو أكثر، مسجلون باسمه من نساء مختلفات
وهناك روتين معروف يتم بمقتضاه تحرير عقد قران
بين الرجل والمرأة الحامل ثم إنهاؤه بعد تثبيت نسبة
الطفل لهذا الاب الزائف
قدمت لها علبة الحلويات ، وهنأت الام بابنتها الجميلة
داعيا الله ان يحفظها لها، وارتدت ان تواصل
طريقك عائدا إلى المعسكر فلا مكان لك
في مثل هذا الجو الحميمي بين ام وابنتها
إلا أن الام دعتك ان تبقى لتشارك في الاحتفال
بقطع تورتة الشيكولاته التي تحبها ابنتها، وارتدت

ان تعتذر ، ولكنها قالت
ضاحكة ان الإنسان بمفرده لا يصنع احتفالاً
وسيطلاً ناقصاً بوجود اثنين فقط اما ثلاثة أشخاص
فهم الحد الأدنى الضروري لاقامة أي حفل
ولا شك انك لا ترضى بان تحرمها وتحرم ابنتها من توفير
النصاب القانوني لاقامة الحفل كما تقول
اعجبتك روحها المرحمة المنطلقة ، فوافقت على البقاء
واعترفت لها بعد ان دخلتم غرفتها، انك ما جنّث
الا لكي تبقى وتحفل بمناسبة أخرى
هي نجاحك في امتحان قيادة السيارات
ووعدت بان تأخذها قريباً هي وابنتها
في نزهة بالسيارة على امتداد شاطيء طرابلس
من تاجوراء إلى جنزور
فرحت المرأة وابنتها بهذا الوعد ، ولم يكن
الوقت مناسباً للحديث
في أي شيء آخر مع نورية ، أو التفكير
في الاختلاء بها لأنها
ليست على استعداد لأن تظهر بأي
وجه آخر أمام ابنتها
غير وجه الام الحنون، تحولت هي الأخرى
إلى طفلة تشارك طفلتها التهرج واللعب
والغناء، وانضمت أنت إليهما تغني معهما
اغنية الاطفال الشهيرة :
— طبعك غدار يا قطوسه
طبعك غدار
سرقت من حجرتنا فار
يا قطوسه —

وقبل مغيب الشمس، جاءت امرأة زنجية
في منتصف العمر

تأخذ الطفلة وتعيدها الي بيتها
في منطقة ابي الخير
فقد جرت العادة على ان تعهد نساء
هذا الحي باطفالهن
إلى مثل هذه المرأة للعيش معها بعيدا
عن لجوء العمل الذي يحترقنه، مقابل اجر
زهيد، كما هو الحال مع وردة التي تعيش
في كنف هذه المرأة وتعتبرها اما ثانية لها
ذهبت الطفلة وانتهى اللهو البريء، وخلا لك
الجو مع نورية لممارسة لهو آخر يرضي
شهوة الجسد، وعدت بعد ذلك إلى المعسكر
وانت أكثر استعدادا لأن تخلع ثوب العمل القديم
تغتسل من الجنابة، وتمنح السوط اجازة
وتستقبل حياة جديدة
بدءا من شروق شمس الغد
كان اليوم الأول في العمل الجديد عامرا بالاثارة
بدأ بتسجيل اسمك لدى قسم السائقين
في مرآب قصر الحكومة
واستلام الزي الجديد الذي لايرتديه
الا السائق التابع لقصر
الحاكم العام ، بلونه الازرق الداكن
والحواشي الفضية التي توظّر
زرقته، و القبعة التي تشبه قبعات الضباط
ثم استلامك لسيارة الالفا روميه
ذات اللون الرصاصي اللامع
والابواب الاربعة، والسقف المتحرك
والتي اعطيت لك جديدة
على الزيرو كما يقولون في لغة السائقين
وكان ماريو بصحبتك
طوال الوقت، يعينك على استكمال الاجراءات، ويوصي

بك العاملين في الجارج الحكومي، ويقضي
ساعات معك، لتعرفك بأسلوب قيادتها
أما مصدر الأثارة الأكبر، فهو وجودك قريباً
من امرأة حباها الله بكل
هذا الجمال، وجعلها صورة طبق الأصل
من اسمها حورية
والتي شاعت ربات الحظ السعيد
أن تضعها في طريقك وتجعلك
تابعاً لها، بدلاً من أن تبقى تابعاً ذليلاً للشاويش عنتر
فالحمد لله الذي أبدل لك الفلس الساقط
بدينار ذهبي،
تسكن حورية في الطابق الأول من عمارة
بشارع البريد
ولهذا الطابق مدخل خاص به يقع
في شارع جانبي هو شارع ما يكيل انجلوحيث اتخذت فيه موقعا
لسيارتك عندما لا تكون
مركونة داخل الجارج في طابق
ما تحت الأرض، ومكانا لانتظارك
جالسا أغلب الوقت داخل السيارة
تنتظر أوامر السنيورة
ورغم الراحة التامة التي فرحت بها في البداية
لأنها تأتي مخالفة
تماماً لعملك في المعسكر الحافل بالتدريبات
الشاقة والتمارين القتالية الصعبة، علاوة
على المهمات الجانبية من إشراف على
العنبر، ومشاركة في التأنيب
ثم ساع ببريد المعسكر ورسائله إلى
الإدارات الحكومية، فإنه بعد مرور الأيام الثلاثة الأولى
دون حدوث شيء مثير، صار ينتابك
قليل من الضجر، وانت جالس لا تكلم أحداً

ولا تفعل شيئاً، سوى التحديق في الفراغ
لم تجرؤ وانت في أيامك الأولى ان تأخذ اذنا من السنيورة
لاستخدام السيارة في أي مشوار من مشاويرك الخاصة
تأتي مع الصباح راكبا الحافلة أو الشريول، وتعود مع انتهاء
النهار بذات الطريقة، بعد ان تضع السيارة في الجراج
كل ما فعلته في اليوم الرابع، هوانك استبدلت مكان
وقوف السيارة من الشارع الجانبي
الخالي من الحياة ، إلى الزاوية الأخرى التي
تقع في الشارع الرئيسي، حيث الحياة والحركة
وزحام الناس أمام
المتجر الكبير الذي يبيع الملابس بانواعها
سواء تلك التي تخص
الرجال أو النساء أو الاطفال، والذي يتردد
عليه زبائن من مختلف الاعمار، أكثرهم
من الإيطاليين ، وقلهم من العرب واعضاء
الجاليات الاجنبية بطرابلس ، يهود ومالطيين ويونانيين
وبين الحين والآخر يظهر فوج سياحي
من حاملي آلات التصوير
بعد ان أصبحت طرابلس ومنذ ان تسلم المارشال بالبو الحكم
مركز استقطاب سياحي، وكان هذا المتجر، والمحلات
الصغيرة المجاورة له، ومنها حانوت لبيع التحف
وآخر لبيع المأكولات الخفيفة، وطاولة منصوبة
على الرصيف لبيع الصحف والمجلات
وما يتردد على هذه المراكز التجارية
من زبائن، تشكل جميعها
مشهدا صالحا للفرجة ومحاربة الضجر، تراه
وانت جالس أمام مقود السيارة، بل لا يعدم
أحيانا ان تجد امرأة تعبر الشارع يثيرها
مشهد السيارة الأنيقة الجديدة، والسائق الجالس فيها
بزيه الرسمي ، فتلقي نظرة فضول ثم تمضي

وقد يقع حادث أكثر اثارة
هو ان ترى زبونا يحاول ان يستغل
فرصة اشغال اصحاب المتجر
بزبائن اخرين ، فيحاول ان يضع
قطعة ملابس تحت سترته ويتسلل خارجا
بها دون ان يدفع الثمن
ويفاجأ بالباب يصدر جرسا
عند خروجه، واذا باصحاب المتجر
يخرجون للقبض عليه، وجره
الى مركز الشرطة، وتشعر بشيء
من الاستغراب لكون هذا السارق
ايطاليا ، وكانت نظرتك
للإيطاليين انهم جميعا موسرون اغنياء
مر أسبوع وانت في خدمة حورية
دون ان ترى الحاكم العام
يأتي للقاء عشيقته في شقتها، ولم تر كثيرين
غيره يطرقون بابها
رأيت ساعي البريد، وممرضتين عرفت
انهما كانتا تعملان معها
في مستشفى كانيفا، احدهما ايطالية
ترتدي ملابس السوريلات
والأخرى يهودية تعلق نجمة داوود
في عنقها، شديدة النحافة
كانها مصنوعة من عظام فقط . كانت
مشاوير حورية
صغيرة محدودة ، ذهبت بها إلى متجر لتفصيل الملابس
النسائية في ميدان الكاندرائية
وإلى مستشفى كانيفا حيث كانت
تعمل، واخذتها مرة إلى المدينة القديمة
وإلى مدخل زنقة شائب العين ، حيث اتجهت

إلى بيت الولي الصالح سيدي البلبال
الذي يعيش مع امه في ذلك البيت، وانتظرتها حتى خرجت
بعد برهة صغيرة، دون ان تعرف الغرض
الذي ذهبت إليه من أجله
فهي ليست المرة الأولى كما تقول، مع ذلك خرجت من الزيارة
ملينة بالانبهار من كرامات الشيخ، وعلى غير عادتها عندما
تجلس صامئة في الكرسي الخلفي، تكلمت
هذه المرة لتقول بانها
قبل ان تطرق الباب، وجدت
ام الشيخ البلبال تفتحه وتقول
تفضل ياحورية، مع انها لم تخطر
بالشيخ انها قادمة إليه
وعندما سألت الام كيف عرفت، قالت بان
ابنها ابلاغها بان حورية
قادمة وسألها ان تقوم فتفتح لها الباب
ولم يزد حديث السنيورة حورية
عن كرامات هذه الشيخ سوى انه
اعاد إلى ذهنك كلام الحاج المهدي
عن أهل الصلاح من أبناء هذه
البلاد، وعن ترابها الساخن، وعن العقاب
الذي يدخره هؤلاء الأولياء
لكل من يرتكب شرا في حق هذا التراب
رغم ان العمل سائقا لدى حورية
يسغرق نهارك كله، فان ما يبقى
لديك من الوقت، يكفل لجزء من روتينك
القديم دوامه واستمراره
تعود قبيل حلول الظلام إلى المعسكر، فالتقي
لبعض الوقت مع صاحبك سالم قبل ان تتجه معه
إلى المطعم وتتضمنا إلى بقية
المجندين، وانت تدرج بينهم بزيك المميز، الذي

جعلك الان معروفا
لدى كل أهل المعسكر من عرب وطلبان، ومن جنود وضباط
انك صرت واحدا من العاملين بقصر الحاكم العام
مهمة مؤقتة، كما يعرف الجميع، إلا أنها
ستزودك بخبرة وعلاقات
ومعارف من ذوي المراتب العليا، وستضمن لك موقعا
متميزا بين المجندين عندما يحين
موعد السفر إلى بلاد الأحباش
ولأنها مهمة مؤقتة، فانت مازلت
محتفظا بوضعك العسكري
داخل المعسكر، لك ذات السرير، وذات
المهمة الليلية الاشرافية
كعريف للعنبر، خاضعا للتفتيش كل ليلة
من قبل الشاويش عنتر
وظل يوم الاحد هو يوم عطلتك
الأسبوعية، حتى وانت تعمل
مع حورية، لك ان تقضيه حيث تشاء، شرط
ان تحتفظ بساعة
شاغرة بعد الظهر، تكون من نصيب نورية، المرأة
التي اكتفيت بها عن بقية النساء، لتكون وحدها
الوعاء لافرازاتك الجنسية
ولم تبحث عن اية امرأة غيرها
منذ اهتديت إليها، حتى عندما كنت
تلتقي بماريو العجوز صدفة، اثناء دخولك
وخروجك من المعسكر
ويعيد تذكيرك بمغامرات الغابة، وامكانية
معاونتها سويا
كنت تعتذر بانشغالك الدائم
في العمل الجديد محتفظا
بسر هذه العلاقة لنفسك، فلم تشأ

ان تأتي على ذكرها في احاديثك
حتى مع صديقك سالم ، ولو بالتلميح ، تاركا اياه يعتقد بانك
مازلت ملتزما باستقامتك محافظا
على طهارتك التي جئت بها
من الارياف، حريصا على ان تصلي
معه صلاة المغرب وتجلس
بجواره فوق العشب، بعد انتهاء الصلاة
لمباشرة الدعاء والتضرع
لله بان يسبل عليكما ستره ويرزقما
بخير الدنيا وخير الآخرة
ورغم تحفظات سالم على عملك
الجديد، إلا أنه لم يعد كثير
الانتقاد لسلوكك، والسخرية منه
كما كان يفعل سابقا، لأنه يرى ان
عملك هذا بكل ما فيه من ضعة، انقذك
من اعمال الشر التي كنت
تقوم بها كواحد من جلادي المعسكر
قلت له وانت تقدم له لفافة صغيرة
من الورق الفضى ، بها بعض
القطائر المحشوة باللوز والعسل التي جلبتها
من مطبخ حورية :
— اردت ان اطعمك من طعام السنيورة شيئا لم تذقه في حياتك
من قبل ، لكي تعرف قيمة الحياة في المجتمع الراقي .
مد يده بأخذ الفطيرة ويضعها في فمه قائلا :
— هذه نعمة لا يجوز رفضها .
— انها مكافأة لك على حسن سلوكك معي في الأيام الأخيرة.
— لم أشأ ان اضيف إلى همومك هموما أخرى .
— انزع يا اخي عن بصرك الغلالة السوداء التي تحجب عنك
نور الشمس . الا يمكنك ان ترى في الدنيا غير الهموم والاحزان؟
هل شكوت إليك من هم أو عناء؟ انني اعيش أجمل أيام حياتي

فمن اين جئت بهذه الهموم التي تنتسبها لي ؟
— وهل تعتبر حياة الذل التي نعيشها تحت حكم الطليان، وسوقنا
كقطيع الاغنام إلى مذابح الحرب حياة سعيدة؟
— ها قد عدنا إلى الموال القديم. انك دائما تنتظر إلى الصورة
في شموليتها، اما أنا فأخذها قطعة قطعة، واعيش حياتي يوما
بيوم . انني سعيد بهذه البذلة الجديدة التي ارتديها، وبالسيارة
الأنيقة، البديعة، التي اقودها، وبالغذاء الشهى اللذيذ الذي احصل عليه
في بيت السنيورة، وسعيد أيضا بان تتكحل انظاري كل صباح
بأجمل امرأة في الدنيا.

نعم، هذه هي الحقيقة، حتى وانت تجيد
اخفاء محنة الوطن وراء
ستائر ذات ألوان بهيجة، فانت صادق
في اقبالك بحب وحماس
على حياتك الجديدة وعملك سائقا للسيدة حورية التي تزداد
حبا لها، وفرحا لوجودك قريبا منها، مع كل يوم يمر
يسوقك الشوق كل صباح إلى باب بيتها، حيث يبدأ
دوامك هناك عند الساعة الثامنة
لتجد حواء ، الطاهية ومدبرة المنزل ، تفتح لك
الباب، وتدعوك لدخول المطبخ ، لأن هناك دائما
افطارا جاهزا بانتظارك، افطارا
لم تكن قد عرفت له مثيلا في حياتك. كان الافطار
في المعسكر امتدادا للافطار كما عرفته طوال
حياتك، وكما هو لدى كل أهل
البلاد، كوب شاي مع كسرة خبز، اما هنا فهو شيء آخر
اصناف من الجبنة والزبدة والمربي والعسل
والحليب ساخنا وباردا والزبادي وفواكه الموسم
بكل اشكالها، غير الشاي
والقهوة ومشروبات الشيكلاته الساخن، مع انواع من الخبز
والفطائر بعضها مخلوط بالجوز واللوز والبندق

وعصائر ومشروبات تتناول منها ما تشاء
ثم تأخذ مفتاح السيارة
وتهبط الجاراج، حيث تجد السيارة نظيفة، لامعة
الحديد والزجاج
بعد ان قام العم مختار حارس الجاراج
باستخدام خرطوم الماء
في غسلها ثم تنشيفها، وتأتي
انت لتقودها عبر سقيفة الجاراج
إلى مكانها أمام العمارة ، وتجلس في مقعدك الأمامي
جاهزا لتلقي أوامر السنيورة حورية
ومهما كانت المشاوير التي يريدها العمل، سواء تلك
التي اخذت فيها حورية لبعض شأنها ، أو الأخرى
التي ارسلتك بمفردك لقضاء حاجة من حاجاتها
فانت غالبا ما تكون موجودا ساعة
الغداء، لتجد في انتظارك وجبة أخرى لم تخل ولو مرة
واحدة من اللحوم ، غير اطباق أخرى تصل إلى ثلاثة
واربعة اصناف تتناولها في المطبخ، أو تأتي حواء
بالسفرة إلى الجاراج ليشاركك مختار العساس الغداء
وأحيانا الصبي مرجان، فكيف لا يريذك سالم
ان تكون سعيدا بهذه الحياة التي لا ينعم بمثلها
الا وجهاء البلاد؟
لعله اراد بكلامه ان يعبر عن حالته هو، وعن بؤس
حياته وحياة غيره من الليبيين داخل المعسكر، ناسيا
انك حفرت بأطفارك طريقا يختلف عن طريقهم، فلم
تسلم نفسك للصدفة العمياء، تفعل بك ما
تشاء مثلهم، وانما وضعت خطة تستطيع
بها ان تساهم في صنع مصيرك، وصياغة
احداث الواقع الذي تعيشه، ليكون اقل
بؤسا وتعاسة، ان لم تنجح في تغييره
إلى واقع ابهى وأجمل

لعل بعض هؤلاء المجندين يرى في سلوكك
تخلياً عن واجب الوفاء
للمرفقة التي تجمعكم، ولكنك تراها
رفقة بائسة لا تستحق
ان تحافظ عليها، أو تكون وفيها
لها، وترى من حقك ان تتطلق
مغنيا و مغردا خارج سرب النائحين البائسين
وان تمضي بمفردك باحثاً عن خلاصك الشخصي
انك سعيد بوجودك في خدمة
السيورة حورية، ولا يأتيك الكدر
الا عندما يمر اليوم دون ان تراها، فهي
تبقى نائمة في الصباح
إلى ما بعد ان تأتي انت لاستلام
عملك وتناول افطارك، لتهبط
بعد ذلك، وتلتزم بالبقاء في مقعد
السائق بالسيارة تتصيد الفرص
لدخول البيت مرة أخرى، واذا لم تأت
هذه الفرصة يبقى املك الوحيد
هو ان تراها قد فتحت باب السيارة
لتجلس في المقعد الخلفي
وتسألك ان تأخذها لبعض مشاويرها، فتعتمد
من فورك إلى تعديل
المرآة التي تعكس الجزء الخلفي من الشارع، لكي
لا تعكس لك الا وجه حورية، مرددا بصرك
بين الطريق الذي أمامك وبين صورتها
في المرآة، واذا انطلقت وفتحت الحديث، انسكب صوت
هذه الحورية في وجدانك، كأنه خمر سماوية تدير الرأس
بنشوة لا مثيل لها الا في فراديس السماء
لا يكاد يمر يوم دون ان تجد ذريعة لمعاودة
الصعود إلى الشقة

بأمل ان تكتحل عيناك برؤية حورية، قد لا
تراها رغم هذا الجهد
ولكن لابد ان تصعد حتى لو افتعلت الاسباب افتعالا
كان مرجان هو الذي يذهب لاحضار
المجلات الإيطالية التي تحب
حورية قراءتها، فسعيت
حتى حصلت انت على هذه المهمة
لينصرف مرجان لمهمات أخرى، من بينها
جلب ما يحتاجه البيت من
حوائج خاصة بالطعام والشراب والادوات المنزلية
تذهب كل صباح إلى بائع الصحف الذي ينصب طارمة
في الشارع يعرض فوقها الصحف والمجلات الإيطالية
فتجده قد اعد لك الوجبة اليومية التي امرته بها حورية
من هذه المطبوعات، وكانت اغلبها مجلات الرسوم الساخرة
والقصص المصورة وبعض المجلات النسائية التي تتحدث
عن الموضة فهي لا تحب الصحف السياسة الكثيرة
التي تأتي من إيطاليا ولا تشتري من هذه الصحف
الا الصحيفة المحلية التي يصدرها مكتب المطبوعات
التابع للحاكم العام بعنوان بوستا دي تريبولي التي
تمتلئ صفحاتها الأولى بصور بالبو وتنقل احاديثه
واخباره . هوايتها التي تشغل بها أوقات فراغها هي قراءة
هذه القصص المزينة بالتصاوير الساخرة والملونة
بالاضافة إلى الاستماع للاغاني الإيطالية ورغم انك
تعرف ان هناك اختراعا اسمه الراديو واخر اسمه الجرامافون
تنتج عنهما تلك الموسيقى الصاخبة التي تنطلق
من المقاهي والمطاعم الإيطالية فانك لم ترهما مرأى
العين الا بعد ان انتقلت للعمل مع حورية حيث شاهدت
ولمست وعاينت هذين الاختراعين الجديدين بما لهما
من اثر سحري في النفوس والاعجب من ذلك انك سمعت
كلمات عربية وغناء عربيا يصدر عنهما وكانت حورية

تضحك وهي ترى استغرابك وجهك بطبيعة عملهما
وإذا كان الجرامافون ينقل صوتاً مسجلاً على هذا القرص
الأسود الذي يسمونه اسطوانة فمن أين يأتي الراديو
بكل ما يقوله من كلام وما يذيعه من غناء وموسيقى ؟
تحاول حورية أن تختبر ذكاءك فتسألك أن تخمن كيف
لكنك تفشل في العثور على أية فكرة أو تصور لأن
أقرب اختراع يصلح للمقارنة هو التلفون ومع ذلك فإن
للتلفون سلكا يوصل بين السامع والمتكلم وهذا
الاختراع يغني ويتكلم ويعزف الموسيقى دون أسلاك
ولا توصيلات ولم تحمل كلام حورية محمل الجد
عندما قالت إن الأمر يتصل بجني
استطاع العلم الحديث
أن يعرف كيف بصطاده
ويسخره لخدمته فالكهرباء
موجودة في كل شيء حتى في الإنسان
ولكن الصدفة
قادت أحد المخترعين أن يجعل
هذه الكهرباء تسري
من طرف موجب إلى طرف سالب
فيكون النقاء الطرفين
هو الوصفة السحرية التي
يتم بواسطتها القبض
على الجني فيتوهج ويضيء
كما في مصباح الكهرباء
إن الجني هو هذا الشيء الذي
يسميه الأجانب الطاقة
وهي ذات الوصفة التي يشتغل
بها الراديو فالذين
يصنعون هذه البرامج في محطات
الارسال يبعثون

بها عبر هذا الجني الموجود
في موجات الكهرباء
ليضعها في الراديو
وعندما استرسلت حورية في الكلام
ادركت انها لم تكن هازلة وهي تتحدث عن الجني
فهي تقول دع هؤلاء الاجانب يسمونه علما
أو دوائر مغناطيسية وموجات كهربائية وانتقال
ذرات ودبذبات عبر الاثير فهذا كله لا يفسر ان يلتقي
سلك بسلك فيظهر النور أو تتحول الذرات إلى كلام
وأوضحت لك كيف ان في إيطاليا محطات اذاعية ترسل
هذه البرامج وتتبع شركة اسمها " الراي " ثم
وقفت قرب النافذة تشير إلى مقر المعرض التجاري
في شارع الكورسو دي سيشيليا إلى هوائي كبير
يعلو سطح المعرض قائلة بان المارشال بالبو ادخل
محطة الاذاعة إلى ليبيا كجزء
من برنامج التطوير والتحديث الذي يتبعه في الولاية
وان الارسال العربي الذي يبثه الراديو قادم من ذلك المبنى
واسمعتك في يوم آخر اغنيات عربية من جهاز الجرامافون
بدأت الاسطوانة الأولى بذكر اسم المطرب الاستاذ
محمد عبد الوهاب الذي غني " يا وابور قوللى رايح
على فين " وبدأت الاسطوانة الثانية بذكر اسم المطربة
كوكب الشرق الأنسة ام كلثوم
التي غنت " على وطني المحبوب
وديني " وكانت المفاجأة التي قدمتها السنيورة حورية لك
ولخادمتها حواء وخادمتها مرجان هي اغنية ليبية لشركة
فهيم فون كلمات والحن وغناء الفنان بشير فهيم
الذي غني يا بنت العم يا ماحلاكي ثم وضعت اغنية أخرى
لنفس الفنان عن علاقة الحب التي نشأت بين امرأة ليبية
ورجل زنجي من اصل افريقي لاقت اعجاب حواء ومرجان
يقول مطلعها " الحرة اللي عشقت في وصيف "

وهما اغنيتان قصيرتان جميلتان بالحن شعبية سريعة
الايقاع وكلمات ليبية بسيطة ذات طابع ساخر
خلال أسبوعين من العمل سائقا لها احسست انك تعلمت
اشياء كثيرة ماكان لك ان تتعلمها
لولا فرصة وجودك قريبا
من هذه المرأة التي صرت تعرفها
الان معرفة المعاشة
اليومية بعد ان عرفتها معرفة الزيارات العابرة
فازددت ولعا بها واعجابا بشخصيتها
هناك شيء مبهج في هذه السيدة
شيء لا تستطيع تحديده لأنه أكثر من مجرد البهجة
التي يخلقها الجمال في البشر والمشاهد الطبيعية
شيء يصنع لها حضورا ساحرا ويحيطها بدائرة
من الالق والفرح ويجعل مجرد رؤيتها
كفيلة بان تزيل
أي احساس بالضيق أو الكدر كان يلزمك
حتى لتبدو في عينيك وكأنها احتفال دائم أو عيد
يتجدد كل نهار
ها انت تنتهز فرصة انشغالها بتقليب مجلة الرسوم
الساخرة التي احضرتها لها والتي انهمكت
في مطالعتها بابتسامة لا تفارق شفيتها
واخذت تتقحص ملامح وجهها
محاو لا الاهتداء إلى سر بهائها
أو بالتحديد سر هذه البهجة
التي يصنعها حضورها ففعل السر في هذا الالق الذي
ينبعث من عينيها أو عذوبة الابتسامة
التي تضيء
وجهها أو اشراقه الجبين وشفافية البشرة
أوفورة الأنوثة التي تتفجر من دوائر جسمها أو لعله
خليط من هذا كله ولكنك ترجع وتقول انه ابعد واعمق

من هذه الملامح الخارجية مهما كانت هذه الملامح شديدة
الفتنة بالغة الجمال والجاذبية انه يتصل بجمال آخر هو
جمال الروح الذي لا يمكن تحديده لأنه اشبه بالعطر
أو الضوء أو نور الكهرباء الذي يسري في الاسلاك
وتنسبه حورية إلى القوى الخفية المجهولة التي لا
أدرى ان كان بالامكان ان ننسب نورها وجمالها الى
هذه القوة التي لا سبيل إلى الامساك بها
جمال له جذوره في حليب الام التي أرضعتها
وليلة الحب التي قضتها مع الرجل الذي زرع بذرة التخلق
لهذه الطفلة الجميلة في رحمها
والسلالات التي انحدرت منها والطفولة التي لا بد انها كانت
رغم الفقر والفاقة عامرة بالحب والحنان
واشعاع القمر الذي لثم وجهها وهي لا تزال طفلة في قماطها
ولسنوات النشأة في مستشفى كانيغا التي جنبتها امراض
فقر الدم التي لا يسلم منها كل من عاش وتربى
في الاحياء الشعبية الليبية
تتوقف حورية فجأة عن مطالعة المجلة وترفع عينيها
لتضبطك وانت تنظر في نهم إليها
تهرب انت بنظراتك خجلا وتتجه بعينك إلى الأرض
نادما على الاثم الذي ارتكبته
انها تدرك بالتأكيد ان نظرتك مبعثها الاعجاب والانبهار
ولذلك فهي تبتسم لك قائلة دون كلام
بانها قد صفحت عنك
تتسحب انت بسرعة من أمامها وتعود إلى الجلوس
في السيارة لاهيا عن الدنيا التي حولك
لأنك ما زلت واقعا تحت تأثير المجال المغناطيسي
الذي يحيط بحورية
ويجعل كل من يقترب منها يدور بها مسلوب الارادة
غير قادر على الفكاك من اسرها
الجاذبية في أكثر اشكالها شيوعا

كما قرأت في كتاب الشيخ
جلال الدين السيوطي شيء يراه المحب في وجه من يحب
انه نوع من الجاذبية ينجذب إليه إنسان ما
لأنه يرى في الشخص الذي يحبه
اشياء لا يراها الآخرون هذا بالضبط
هو حالك مع ثريا ، انها جذابة بالنسبة لك لأنك رأيت فيها
شيئا يخاطبك انت بمفردات لا يعرفها
ولا يتلقاها احد سواك
ولكن جاذبية حورية شكل آخر
ولجمالها لغة يعرفها كل الناس
مفردات تخاطب كل القلوب
ولذلك فانها تحظى باعجاب
ومحبة كل من اتصل بها حتى لو كان
هذا الاتصال سريعا عابرا
كما كان حالك في بداية تعارفك بها
وانبهارك بجمالها وشخصيتها
ولاشك ان هذه الجسور المفتوحة بين جمالها
وبين البشر جميعا
هو ما يجعل حورية امرأة عزيزة المنال لأن كل من رآها
من الرجال لابد وان تكون قد روادته امنية الفوز بها
ومهما كان عدد الرجال الذين خطبوا ودها أو حاولوا
الوصول إلى عتبات انوتتها فهي في النهاية لن تستطيع
ان تختار غير رجل واحد وهذا الرجل لكي يكون جديرا بها
وقادرا على الفوز بحبها لابد ان يكون في حوزته
من المؤهلات ما يجعله يتفوق على كل أولئك الرجال
الذين رأوها واحبوها فمن تراه يستطيع ان ينتصر
في هذا التحدي ويفوز بقلب سيدة الحب والجمال الأولى
بين بنات جيلها غير الرجل الأول في البلاد
ايتالو بالبو ، ليس فقط بسبب ما لديه من سلطان و ثراء
وهي مؤهلات مهمة بالتأكيد لكنها لا تكفي وحدها

في موازين الحب والقبول فزاد عليها ما لديه من وسامة
وشباب وناقة وشخصية يتفق الناس جميعا على ما تمتلكه
من ظرف واريحية وحب للناس والحياة ولهذا فانه لم يكن
غريبا على مثل هذا الرجل ان ينتقى
أجمل زهرة في حدائق
طرابلس ويعلقها في عروة ثوبه
للمارشال بالبو نساء الأرض مشرقا ومغربا
لأن كل الحدود
تسقط وتتهوى اما الطائرة التي يقودها والتي يعبر بها القارات والمحيطات في مسابقات دولية
حيث يكون ختام
هذه المسابقات حفلات تكريم لرائد عصر الطيران
مارشال الجو وقتي إيطاليا
المدلل ايتالو بالبو وهو واقف وسط الاضواء
تحيط به النساء
الجماليات وايدى الملوك والأمراء والرؤساء
تتقدم لتضع حول
عنقه اكاليل الغار، اما في عاصمة ملكه طرابلس فان انوار
المهرجانات التي يقيمها ويدعو إليها امراء العالم واميراته
ونجوم التمثيل والغناء لا تتطفيء الا لتضاء من جديد
ويكون حلم كل ضيفة من ضيفاته العازبات الجميلات
ان تسمع كلمة عشق من مضيفها الوسيم
يهمس بها إليها
وسط ليل الصحراء المفعم باريج الشرق ونفحاته
ولذلك فان اختياره لفاتة ليبية مثل حورية وتفضيله لها
على كل هذه الحشود من جميلات العالم لتكون صديقته
الثابتة الدائمة التي يأوي إلى مضجعتها آخر الليل
لم يكن امرا جاء بمحظ الصدفة
وانما حدث لسبب وجيه
هو ان حورية تملك شيئا تفوقت به
على جمال كل هؤلاء

الجماليات القادّامات من اركان الأرض الاربعة
هو ذلك الحسن الآخر الذي لايعرفه
الا من اقترب منها
وتعامل معها والذي لايمنح نفسه
للاخر دفعة واحدة
لأنه أكثر عمقا ورحابة وثراء
من الحسن الجسماني الذي
لا شيء لديه يضيفه للرائي بعد النظرة الأولى
انه ذلك الجمال الذي كلما زدته نظرا
زادك هو من خزائنه
التي لا تنتفد وكلما تعرفت عليه أكثر
وتعايشت معه مدة
اطول كفافأك بفيض دائم من كريم عطاياه
كان باستطاعة حورية ان تستغل علاقتها
الخاصة بالحاكم العام
فتحيط نفسها بابهة الحكم
وتجعل لنفسها نفوذا وسلطانا
على رقاب الناس وتختار لاقامتها
قصرا تحيط به الحدائق
بدلا من هذه الشقة الأنيقة الصغيرة
لأن ذلك كله لا يتفق
مع سماحة طبعها أو يناسب ما تتميز به
من روح البساطة
واليسر والسهولة في شخصيتها وابتعادها
عن الافتعال والتكلف والتعقيد
فقد أرادت ان تعيش حياة بسيطة هادئة
في هذا العش الهادئ
بعيدة عن مظاهر السلطة والقوة في ظل الرجل الذي
احبها واختارها لتكون المرأة الثانية في حياته بعد دونا مانو
زوجته وام اطفاله الثلاثة التي تقضي

اغلب اشهر العام في روما
كل الدلائل في حياتها تشير إلى ان حورية وهي تدخل حياة
رجل خطير مثل بالبو وتتقل للاقامة في بيت واحد معه كانت
سعيدة بهذا النقلة في حياتها راضية بمكانتها
كامرأة الظل لرجل
له زوجة تحمل اسمه وتظهر في المحافل باعتبارها قرينته
رغم ان بالبو لم يبخل عليها بالظهور
معه في بعض المحافل
والمناسبات ولكن كيف تراها تفكر في علاقاته
النسائية الكثيرة الأخرى
التي يتناقل الناس اخبارها وتنتشر الصحف تلميحات
عنها مرفقة بتصاويره وهو يتقاسم الانخاب مع جميلات
العالم اللاتي يتواثين في الفنادق الجديدة الجميلة التي بدأ
في بنائها حكام سابقون واكتملت في عهده
كما حدث مع مشاريع
أخرى كانت توقفت بسبب الازمة المالية
التي عانت منها البلاد
ولم تحل الا مع مجيء بالبو لحكمها مفوضا بسلطات قوية
ومدعوما بميزانيات استثنائية من زعيمه موسيليني
فانطلق يجعل من طرابلس حاضرة تنافس
الحواضر الأوروبية
ويجعل من افتتاح هذه الفنادق والمشاريع السياحية والعمرانية
مناسبة لاستضافة
جماليات المسرح والسينما في العالم
كان واضحا ان حورية افلحت في ان تتأى بنفسها وتوصد
أبوابها أمام أي شي يقلق حياتها الهائلة مع المارشال
فمثل هذه العلاقات والمغامرات التي يتحدث عنها الناس
وتأتي على ذكرها المجلات الفنية المصورة التي تهتم
بصور النجوم والمشاهير شيء لا وجود له بالنسبة لها
لأنها ببساطة لا تقرأ هذه المجلات

ولا تسمح بدخولها إلى بيتها
اما الناس فعلاقتها معهم محدودة إلى أقصى حد ممكن
بحيث لا سبيل لأن تصل هذه الشائعات ، رغم شيوعها
إلى بيتها وإذا ما حدث ووصلت إلى بيتها كلمة أو تسالت
صحيفة تحمل صورة أو إشارة تربط بين المارشال
وبعض من يدعوهم إلى طرابلس من جميلات العالم
فهن بالنسبة لها نساء عابرات وطائرات في حياته
لا ينازعها مكانتها الثابتة والدائمة التي لا تتكافأ
الا مع مكانة الزوجة، بل ولعلها ترى
في هذه العلاقات التي
يقيمها مع اقرباء العالم من نساء ورجال ، ما يراه
بعض محبيه ومؤيديه بأنها جزء من ضرورات
المنصب الذي يتولاه وتأتي منسجمة
مع سياسته التي تهدف
إلى اعطاء انطباع جميل عن ليبيا باعتبارها أرض المرح
والترفيه والاستقرار والمكان الذي يقصده اغنياء العالم
والمشاهير من نجومه ونجماتة للراحة والاستجمام
كما قرأت انت شخصا في عدد من مجلة ليبيا المصورة
في اسطر وضعتها تحت صورة لسفينة سياحية تزور البلاد
ما يؤسفك طبعا انها تعيش معه بالحرام
وكنت تتمنى لامرأة عربية
مسلمة من بلادك تملك روحا نبيلة واسلوبا راقيا
في معاملة الناس مثلها
لو ان حياتها مع هذا الرجل كانت حياة مبنية على شرع الله
الذي احل الزواج وحرم الزنا ولكن مثل هذا الحل
لن يكون متيسرا
لها مع رجل مثله فليس في ديانتها مايسمح
بزوجة ثانية ، ولا في وسعه ان يتحول عن ديانتها
فماذا تراها تشعر ازاء
علاقة يدينها المجتمع الذي تنتمي إليه ؟

انها ليس امرأة من بنات الروم يستوي لديها
وجود عقد الزواج أو عدم وجوده
وإذا كانت قد افنعت نفسها بان الحياة بلا زواج مع البلبو
خير من الحياة الزوجية مع واحد من عامة الناس فكيف
استطاعت ان تنسى امومتها وان تسكت في اعماقها شوق
الأنثى لطفل يملأ حياتها ويحقق لها ركنا أساسيا من وظيفتها
في الحياة ؟ هل اجبرت نفسها مرة أخرى على تقديم
هذه التضحية ؟ وهل يسمح رصيدها من الهناء مع البلبو
وحبها له ، بمواجهة كل هذه الديون والمستحقات مع نفسها
ولحظة الانصات للنداءات الصادرة من ذاتها الحساسة الرقيقة
والقناعات التي وان غلفتها بنظرة عصرية
إيطالية لا تأبه لتعليمات
الدين ، إلا أن ما تبديه من إيمان بالروحانيات وكرامات الأولياء
يكشف عن عمق البعد الديني في شخصيتها
مرة أخرى تضبط نفسك وانت جالس أمام مقود السيارة
شارد الذهن ، مشغولا بقضايا لا علاقة لك بها ، ولا حق لك
في خوضها ، لأنها تتصل بحياة وخصوصيات
امرأة لا تربطك بها أية رابطة ، ولم تطلب
هي منك ان تفكر لها أو تعاني
وتتألم بالنيابة عنها ، أو تختارك ولها لامرأها أو مسئولاً
عن أسلوب حياة هي التي اختارته بارادتها الحرة
انها تحيا هانئة مع عشيقها ، وما أنت إلا مستخدم
صغير لديها ، بل انت اقل شأنًا من كل العاملين
في خدمتها لأنك هنا
مجرد سائق احتياطي ستنتهي مهمته المؤقتة فور مجيء
صاحب العمل الاصلي ، فلماذا تنسى نفسك وتنسى موقعك
بالنسبة لهذه السيدة ؟ تتأسف من أجل امرأة مثلها
بينما أنت الطرف الضعيف البائس المهدد بان يلقى
بك في أية لحظة خارج هذه السيارة ويشحن في باخرة ليلافي
موتا مهينا في حروب الطليان ، انت ايها المسكين

من يستحق الشفقة والثناء وليست هي ، فاحفظ
مشاعرك وهمومك لنفسك ، وابحث عن طريقة تفتح بها
فرجة في الطريق المسدود الذي يواجهك . ها قد اتحت
لك فرصة لم تتح لاحد غيرك من المجندين الليبيين
هي فرصة وجودك قريبا من الحاكم الاعلى للبلاد
في المجالين العسكري والمدني فلماذا لا تستفيد
من هذا الموقع الذي اهدته لك الملائكة ، في ايجاد
سبيل ينجيك من المصير المرعب الذي يتهددك ؟
لماذا لا تكون هذه الوظيفة المؤقتة
وظيفة دائمة باذن الله
وقرار الحاكم العام ؟
تضمن لك البقاء في طرابلس وتفادي
السفر إلى بر الأحياش ، والبدبيات نقول ان الحكومة
الإيطالية في ليبيا
لن ترسل كل جنودها الليبيين إلى تلك
الحرب لأنها ستحتاج دائما لمن يبقى داخل الحدود
يحفظ الامن ويحرس البوابات
ويقضي الحوائج للضباط
الإيطاليين ، فلماذا لا تسعى لأن تكون انت أيضاً ضمن هؤلاء
المحظوظين الموعودين بالبقاء ؟
اذ من تراه اجدر منك
بهذه المعاملة ؟
فلماذا إلى هناك من شئت له نجوم
النحس ان يذهب ، اما أنت فلا بد ان تبقى في طرابلس
لا تغادرها الا إلى اريافها ، أو قضاء اجازة بين أهلك
في أولاد الشيخ ثم تعود إليها سليما هانئا بعيدا
عن احوال المعارك وكوارثها . هذا ما يجدر بك ان تسعى
لتحقيقه وتبدل أقصى جهدك في اقناع الحاكم العام بجدوى
خدماتك له ولعشيقته كسائق وساع لا يملكان
الاستغناء عنه . قد لا يبدو ان هناك طريقا

واضحاً سالكا خاليا من المشاكل والعراقيل
يقود إلى هذه النتيجة ، ولكن عليك ان تحاول حتى تهتدي
إليه ، وهو امر ممكن شرط ان تدع عقلك لا يشغل بأي شيء
آخر غير خلاصك الشخصي
حورية هي بابك الذهبي لافئاع
الحاكم العام ، وهي التي سينصرف جهدك لنيل رضاها
إلى ان تبدو في عينيها افضل من سائقها عياد الفزاني
فلا تقبل بسائق سواك ، ورضا حوريه سيقود بالتالي لنيل
المكافأة العظمى ، وهو نيل رضا الحاكم نفسه ، هذا هو
الهدف الذي ينبغي ان تشغل به نفسك بدل ان تشغلها بأوهام
الشقاء الذي تعيشه حورية ، وهي التي تتعم بهناء يصعب
ان تتعم به امرأة غيرها في هذه البلاد
بدليل انك لا تستطيع
ان تدعي انك رأيتها ومنذ ان التحقت بخدمتها تعاني
لحظة واحدة من الضيق والكدر
هاهي عربة نقل يجرها حصانان تلاحقها صفارة الشرطة
وتطردها من الشارع الرئيسي المحظور
على مثلها من العربات
فتمر عبر اعطافها السريع بمحاذاتك ، ويتطاير غبار
أسود من حمولة الفحم التي تنقلها يلوث زجاج السيارة
وترسل انت شتائمك إلى السائق المغطى بالسواد
الذي يمضي دون ان يلتفت إلى الوراء وتكتشف
كيف تسلك هذا الغبار الأسود إلى الكرسي الخلفي
حيث تجلس حورية عبر فرجة في زجاج النافذه
فلا يغنيك الغضب والشتائم التي لاحقت بها صاحب
العربة حتى اختفى ، عن جلب الممسحة وازالة
هذه الأوساخ من فوق الكرسي وتلميع السيارة
وتظيفها بأقصى سرعة ممكنة لأن السيدة حورية
قادمة بعد قليل مع احدى صديقاتها لكي تقوم بنقلهما
إلى الاحتفال الكبير الذي يقام في ظل السراية الحمراء

تحت اشراف الحاكم العام
لم تكن تعلم و انت قادم من المعسكر إلى بيت حورية
سبب هذا الاحتفال ، فقد وجدت الشوارع تزينها الاعلام
والحوائط مغطاة بصور الدوتشي ، وعندما اقتربت
من شارع البلدية ، لاحظت لك فرق الموسيقى
وسمعت انغامها تتصاعد من مركز المدينة وعرفت
بعد ان وصلت البيت ، ان الحاكم العام سيستقبل اليوم
باخرة قادمة من سيراكوزا تحمل اربعمائة عائلة إيطالية
من طلائع المستوطنين الذين سيجدون في انتظارهم
اربعمائة مزرعة حديثه اعدت لهم جنوب شرق طرابلس
كما تم بناء مرافق على الطراز الإيطالي لتقديم الخدمة
لهم مثل السوق والمدرسة والمركز الطبي والكنيسة
والنادي الرياضي الاجتماعي الفني وقاعة السينما
أنها واحدة من مستوطنات كثيرة
تحت الانشاء ثم انتزاعها
من الاراضي القريبة من العاصمة
التي كان يستخدمها الليبيون
للرعي . جاءت السنيورة حورية ترتدي قبعة تزينها
الاشرطة البيضاء وفستانا وردي اللون
تتخلله نقاط بيضاء
وفي جيدها عقد من الذهب الابيض
وتضع فوق عينها
نظارة شمسية لها اطار من العاج ، وفي يدها حقيبة نسائية
ذات لون فضي ، وحذاء ابيض تزينه وردة مصنوعة
من القماش في كل فردة منه
اما صديقته الممرضة الإيطالية
فقد جاءت ترتدي كعابتها دائما رداء السوريلات تحمل
في حضنها حزمة من الورود الحمراء لكي ترشق
بها القادمين الجدد . انطلقت بهما عبر الشارع الرئيسي
الذي ازدحم على الجانبين

بالبشر الذاهبين للاحتفال ، حتى وصلت
إلى ميدان القلعة
حيث يقام الحفل ، فانزلتهما قريبا من منصة الضيوف
وقادك افراد شرطة المرور إلى المكان الذي هياؤه
لسيارات المدعويين بمنأى عن الحشود الهائلة التي
غص بها الميدان ، وعدت بعد أن أوقفت السيارة
لتأخذ مكانك ضمن اعضاء الحراسات الواقفين قريبا
من المنصة ، تقف بينهم ، وتكون
قريبا من حورية وصديقتها
عند انتهاء الحفل لتأخذهما إلى السيارة ، وغير بعيد عنك
اصطف طابور الشرف من جنود المراسم
وفرقة الموسيقي العسكرية لتحية القادمين
كانت المساحة التي وضعت فيها الكراسي
المخصصة للمدعويين تمتد من مسرح الميراماري
إلى سور الكورنيش
وفي مواجهتها وبمستوى اعلى من مستوى الكراسي
ارتفعت المنصة المخصصة للحاكم العام واعوانه
وعلى جانبي الطريق الذي يقود إلى المنصة وقف جنود
ليبيون من سلاح الفرسان
يرتدون فوق ملابسهم العسكرية
البرنس الليبي المقصب بخيوط الذهب والفضة
وقد تمنطقوا باحزمة رشقت فيها السيوف وعلى جدار
القلعة العتيقة علقت لوحة من القماش غطت كامل الجدار
تحمل صورة رسمت حديثا للدوتشي
وفوق رأسه خوذة
حديدية رصاصية اللون
وعلى صدره نياشين وأوسمة
متعددة الالوان رافعا راسه باستكبار
ناظرا من عليائه
للحشود الزاحفة على الميدان

وقد رفع ذراعه لتحية
الناس إلا أنها تحية اشبه بالتهديد
بسبب اليد المقبوضة
وكانت المفاجأة التي اذهلت الحشود
وجعلت صيحات
الدهشة والاستغراب تصدر عن كل واحد منهم
عندما تحول موسيليني المرسوم على جدار السرايا
إلى شخص حقيقي فقد تحركت يده
تلوح للناس بقبضتها
التي تدل على العزيمة والقوة
ولمع الشرر من عينيه
وتحرك فمه بكلام ينقل تحيته للحاضرين ويرحب
بالمستوطنين القادمين ويهنئهم بسلامة الوصول
ويعبر عن ثقته في ان يكونوا رسل الحضارة الرومانية
للبناء والتعمير وصنع الحياة في هذه القفار
كان الموضوع كله مجرد لعبة مسرحية
اتقن الفنيون اعدادها ، فهي لم تستمر
الا بضع دقائق كانت كافية
لتحريك مشاعر هذه الحشود فانطلقت حناجرها
تهنئ للزعيم وتدعو له بطول العمر :
— فيفا ايتاليا ، فيفا موسيليني .
وراسية على الشاطئ
قريبا من القلعة بدت الباخرة
القادمة من صقلية كأنها قلعة أخرى ، بالغة الارتفاع
والطول ، تغطي خط الافق وتهيمن على فضاء المدينة
وقد اطلت من طوابقها الاربعة الطافحة فوق الماء حشود
المهاجرين يصفقون ويلوحون بايديهم للمستقبلين
ويرددون معهم الهتاف
بحياة الدوتشي بعد الاستماع
لكلماته التي ترحب بهم ، وينتظرون

لحظة الهبوط إلى الأرض الموعودة
انها ليست المرة الأولى التي يأتي
فيها المستوطنون الجدد لتعمير الشاطئ الرابع
كما يسمون الشاطئ الليبي ، فهذه هي الدفعة الرابعة
أو الخامسة في عهد المارشال بالبو ، والتي يحرص الحاكم
العام في كل مرة ، على ان يجعل منها مناسبة لاقامة
اعظم الاحتفالات ، وكأنه ي دشّن عصرا جديدا لإيطاليا
التي تستأنف مسيرة الامبراطورية الرومانية
وتعيد ضم المستعمرات القديمة التي كانت رمز عزتها
وقوتها . نفخت فرقة الموسيقى النحاسية ابواقها
وضربت صاجاتها وانطلقت في ذات الوقت ابواق الباخرة
ترسل تحياتها للمارشال بالبو الذي وصل في موكب كبير
تتقدمه الدرجات النارية ، إلى مقر الاحتفال وقد اختار
لنفسه سيارة مكشوفة وقف بداخلها رافعا يده
بالتحية الفاشية يرد بها على تحية الجمهور الذي
تعالت هتافاته بحياة إيطاليا وزعيمها موسيليني
هبط بالبو من سيارته وسار فوق البساط الأحمر
وسط عدد من اعوانه وتحت الاضواء التي تشرق
لعشرات المصورين ذاهبا باتجاه البوابة الكبيرة
للباخرة ليكون في استقبال أول فوج يهبط من ركبها
ويرحب به في الأرض الجديدة
ثم انتقل مع عدد من ضيوفه إلى المنصة مستهلا
مراسم الاحتفال بخطاب حماسي عن ليبيا الجديدة
التي تجسد حلم الحزب الفاشي وزعيمه موسيليني
في استعادة امجاد الماضي وبناء إيطاليا الكبرى
التي تقود مسيرة الحضارة والتقدم في العالم
ورحب بالمستوطنين الإيطاليين في وطنهم الجديد
واعدا اياهم بحياة زاخرة باحتمالات النجاح والرفاه
منوها بجهود الشركات التي استصلحت الأرض
وقامت بإنشاء المزارع وبناء القرى الحديثة

لتكون جاهزة في انتظار هؤلاء المستوطنين
الذين عاد يناديهم ان يبذلوا جهدا مضاعفا لتعمير
الأرض وبناء المستقبل الزاهر لأنفسهم ولأجيال
القادمة من أبنائهم وأحفادهم لأن نجاحهم في
مهمتهم سيرفع رأس بلادهم ويؤكد ثقة الزعيم
الذي فتح لهم الأمصار وفتح لهم فرص العمل
والإنتاج في هذه الديار التي يرفرف فوقها العلم
المثلث الألوان ، دون ان ينسى الإشارة إلى الليبيين
الذين أسماهم أبناء ليبيا الأصليين الذين سينتفعون
بثمار الحضارة ومشاريع النهضة وحالة الازدهار
والسعادة التي انتقلت إليها البلاد منذ ان أصبحت جزءا
من إيطاليا ، أعقبه عجز إيطالي قدموه
بأنه شاعر شعبي فالقى قصيدة
عن هؤلاء الرواد الذين جاءوا من إيطاليا
الأم وتركوا وراءهم أهلا وبيوتا وقرى تألفوا معها طوال
العمر من أجل تأسيس امتداد عمراني وحضاري للوطن
الأم في هذه الأرض الجديدة ، ونقل رسالة البناء والتشييد
والتمدن إلى الشاطئ الرابع عن طريق عزق الأرض
وأخراج الكنوز الكامنة فيها تلبية لنداء الزعيم الملهم
الذي سيبقى على مدى الزمان شمسا لا تغيب
وقام بالبو يسأل القادمين من إيطاليا ان ينتشروا بين
الناس وان يتعرفوا على المعالم الرئيسية لشوارع
وميادين طرابلس حيث أقام لهم في كل ركن من أركانها
كشكا يوزع المشروبات والمرطبات والأكلات الخفيفة
هدية من المقيمين الأوائل لأخوتهم الوافدين الجدد
واختار من بنات المدارس الإيطالية عددا من الصبايا
الجميلات لكي يقمن بتقديم الخدمة لهؤلاء الضيوف
ولكل من جاء للمشاركة في هذا الحفل ثم دعا أحد
القساوسة لقيادة هذه الجموع في صلاة صغيرة للوطن
تختتم بها مراسم الاحتفال

خرجت حورية من الحفل مبتهجة بما رأت تتحدث
لصاحبتها بحماس عن اجواء الالفه التي افلح بالبو في
خلقها بين الليبيين والإيطاليين ثم تحولت من اللغة
الإيطالية إلى العربية وهي تخاطبك اثناء رحلة العودة
إلى البيت:

— اما سمعت المارشال وهو يتوجه بخطابه إلى
الليبيين أيضا قائلا بأنه يريد أن تكون ليبيا محلا
للسعادة المشتركة بين أبناء ليبيا الاصيلين
والمحدثين ، وانتفاعهم جميعا بثمار
التقدم والحضارة .

ابتسمت لنفسك ابتسامة لا تستطيع ان تراها حورية
وهي جالسة في مقعدها الخلفي ، وقلت لها في شرك
بانك تريدها ان تكون شاهدة على هذا الوعد بالسعادة
التي سيحققها بالبو للليبيين

لأنك ستطالبه بحصتك من هذه

السعادة والانتفاع بثمار التقدم والحضارة
ولا تريد ان تجد نفسك منبوذا ومطرودا

ومسجوننا في بواخر البؤس

والموت المتجهة إلى بر الأحباش ، ووعدها من جانبك
وبصوت عال هذه المرة ، بان تسعى لتحقيق ارادة المارشال
في ان تحصل على حصتك من السعادة التي دعا

أهل البلاد الاصيلين للحصول عليها

وكما فعلت معك حورية في مرات كثيرة سابقة

وانت تعيدها إلى البيت فتحت شنطة اليد الفضية

واخرجت عشر فرنكات دفعت بها إليك وصرفتك مبكرا

لتمكينك من الاستمتاع بالاجواء الاحتفالية التي تغمر

المدينة . تسكعت قليلا في الشوارع العامرة

بضجيج الإيطاليين وموسيقاهم ، ورقصات بناتهم

وصبيانهم ، دون احساس قوي بالبهجة ، فانت تعرف

ان هذه الاحتفالات ليست لك ، وان هذا العالم ليس

عالمك ، بل ثلاثة ارباع هذه المآكل
والمشارب لن تستطيع
ان تستفيد منها ، لأن المشروبات اغلبها
مشروبات كحولية
والوجبات اغلبها بلحوم غير مذبوحة
أو يدخل الخنزير
في طهيها ، حتى هذه الرقصات التي يرقصونها
ليست لك
ولا مجال لأن تكون طرفا فيها ، انه عالم
هؤلاء الإيطاليين
الوافدين وافراحهم وسعادتهم هم ، رغم حديث بالبو
عن السعادة المشتركة التي لا وجود لها
لم يعد يدهشك الا تجد عربا يشاركون في هذه الاحتفالات
رغم انها مفتوحة للجميع ، ورغم حاجة المعوزين منهم
للاستفادة من هذه المشروبات والحلويات وانواع الاكلات
الخفيفة التي يقدمونها مجانا ، لأنهم يعرفون انها ليست
احتفالاتهم وانما احتفالات شعب آخر يأتي من وراء
البحر في موجات متتابعة لينتزع الأرض من تحت
اقدامهم . تمنيت ان تلتقط عيناك
وجه إنسان واحد تعرفه
عربيا أو إيطاليا ، يخفف قليلا من وطأة
احساسك بالاعتراب
في هذا الزحام ، ولكن لا أحد . وقفت
أمام حلقة رقص
صنعها المتسكعون في الشوارع
من نساء ورجال إيطاليين
دون ان تجرؤ على المشاركة فيها . كان منظر النهود
المترججة الراقصة ، غواية صريحة تتحدى
رجولة الرجال ولم تكن تكره ان تكون جزءا
من هذا المشهد الراقص

وشريكا فيه ، ولكنك تصورت وجود جدار لامرئي يمنعك
من المشاركة ، فبقيت متفرجا وحيدا متحصنا بوجدتك
وعزلتك ، متوجسا ان يتقدم إليك أي إنسان يسألك
عن سبب وجودك في هذا الحفل ، لأنك لست واحدا
من المدعوين ، وهروبا من هذه الهواجس تسللت خارجا
من الشوارع والميادين الرئيسية باتجاه الطريق الذي يعود
إلى معسكر بو مليانة . كنت تعلم ان المجندين مشغولون
الان بتدريباتهم العملية ، بعد انقضاء فترة الغداء
وكنت تتطلع لأن تتكئ على سريرك بمفردك
في العنبر الكبير ، ومعك بعض الوقت تقضيه في التأمل
والتفكير بحثا عن افضل السبل التي تضمن لك البقاء
في خدمة المارشال بالبو ، وقيل ان تصل العنبر
بمسافة قليلة اعترض طريقك الشاويش عنتر :
— أهلا بمندوبنا لدى الدوائر العليا . ماذا لديك من اخبار ؟
— اخبار عن ماذا؟
— عن حرب الحبشة التي يقولون ان موعدها صار قريبا .
— من قال هذا الكلام ؟
— جريدة " البوستا دي تريبولي " في عددها الصادر اليوم كما يقول جندي الحراسات .
— لست معنيا بهذه الحرب ، ليذهب من يذهب ، اما أنا فباق
في طرابلس .
— لبتك تغلح في اعفائي انا أيضا من الذهاب إلى هذه الحرب
ولكن هيهات ، فلا امل لي ولا لك ، لأن اسمك يأتي مباشرة
بعد اسمي في لائحة الذاهبين إلى هناك .
— شكرا لهذه البشارة ، ولو ، ساسعي بقوة ، وسانجح في اعفاء
نفسي بآية طريقة وعليك انت أيضا ان تحاول .
— لا تمن نفسك كثيرا ، فهذا امر يحتاج إلى استثناء من القائد
الاعلى نفسه ، وهو اعفاء لم يصدر بحق أي عنصر من
الإيطاليين فما بالك بالعرب امثالنا ، عدا اعضاء الحزب الفاشي
الذين هم فوق القانون والمحاسبة كما تعلم ، فهل انت زميل
للمارشال بالبو في الحزب .

ارسل الشاويش عنتر ضحكة عالية
وهو يقول جملته الاخيرة
ولكن الفكرة رنت في ذهنك رنينا قويا دون ان تتفوه
باي تعليق . عضوية الحزب الفاشي ، كيف لم يخطر على
بالك الانضمام للحزب ، ان ما يقوله الشاويش عنتر عن
عضوية الحزب الفاشي باعتبارها امرا بالغ الصعوبة
يصدق على الإيطاليين فقط ، فقد انتهى الفرز بالنسبة لهم
وصار متعذرا على من فاته الانضمام اثناء وجوده
في إيطاليا ان يصبح عضوا زميلا لبالبو بعد نزوحه
الي ليبيا ، ولعله في إيطاليا نفسها سيكون امرا صعبا
خاضعا لاختبارات قوية لابد ان يمر بها كل من جاء لكي
يستفيد من سلطة وقوة ونفوذ الحزب
وتأخر في الانضمام إليه عندما كان يخوض صراعاته
الشرسة ذات الطابع العنيف في اغلبها مع القوى
السياسة الأخرى مثل من يسمونهم بالشيوخ والتقدميين
وغيرهم الأمر يختلف اختلافا كاملا بالنسبة لليبيين
لأن سياسة بالبو تجاههم تقوم على الاحتواء والاستقطاب
واحدى أولويات هذه السياسة ، خلق قاعدة
من الليبيين للحزب الفاشي ، ولقد قرأت بنفسك إعلانا
في مجلة ليبيا المصورة يدعو الليبيين
إلى الانضمام إلى الشبيبة الفاشية
فما الذي يدريه رجل امي مثل الشاويش
عنتر عن هذه الأشياء ، انت شخصا لا تعرف شيئا
عن مبادئ هذا الحزب ، ولا تحتاج
لأن تعرف ذلك الان ، لأنه لو صح منك العزم
على الانضمام إليه فانت لن تذهب اقتناعا
بمبادئه ، أو إيماننا بأهدافه وافكاره
انت تذهب من أجل شيء واحد ، هو خدمة مصالحك
الشخصية وتعزيز فرص النجاح أمامك في العمل
والحياة ، فكما عرفت ورأيت سواء في الحياة المدنية

او العسكرية فان عضو الحزب يحظى بمكانة متميزة
تجعله أكثر اهمية حتى من رؤسائه في العمل
وهذا ما ستحصل عليه انت أيضاً
إذا نجحت في الانضمام
إلى الحزب ، انه امر تحتاج إليه حتى
لو اخفقت في تحقيق
حلم البقاء في طرابلس ، لأنه سيضمن لك
في حالة ذهابك
إلى الحبشة مكانة متميزة على كثير
من الإيطاليين انفسهم
ظل جهدك لأكثر من يومين منصرفاً
لتحقيق هذه الفكرة
اشتريت الصحيفة العربية ، واستمعت
في المذياع إلى الحصة
التي تذاع باللغة العربية ، وعرفت
ان هناك نشيداً للطليعة
الفاشية من الشباب الليبي تذيعه
الاذاعة مع معلومات
عن تاريخ الحزب وانجازاته ، فاستمعت
اليه عبر مكبرات
الصوت التي تنقل الحصة العربية
والمعلقة في بعض الاماكن
من بينها برج الساعة ، وفكرت في ان تسأل
السنيرة حورية
ثم عدلت عن الفكرة ، لأنك تريد ان يكون
القرار قرارك انت
الذي تتخذه بمبادرة حرة منك
لا لأن شخصاً نافذاً
امرك بذلك أو استحثك عليه ، عرفت
ان للفرع العربي للحزب

مقرا في مبنى المعرض التجاري بجوار اذاعة " الراي "
حيث يخصصون وقتا لمقابلة المستجدين كل مساء
بعد الساعة الخامسة فانتهيت عملك مبكرا
وذهبت إليه . كنت مترددا مشككا في سلامة ما أنت مقدم
على عمله ، مدركا انه يشبه قفزة في الظلام ، لأنك حتى
وان عرفت شيئا عن المزاي
التي يحصل عليه عضو الحزب
فانت لا تعرف بالضبط ما يجب ان يؤديه من خدمات
مقابل هذه المزاي
دلفت إلى ساحة كبيرة تشبه ساحة المدرسة عبر بوابة
مفتوحة كتب فوقها " الطلائع الفاشية الليبية"
راودتك فكرة العودة من حيث اتيت
والعدول عن قرار الانضمام
عندما رأيت في عمق الساحة فرقة اطفال يتمرنون على
الالعاب السويدية لا تزيد اعمارهم عن العاشرة يرتدون
قمصان الحزب السوداء والبنطالونات القصيرة
فوقفت ترمقهم وهم يفرغون من العابهم
وينتظمون في طابور ، وسمعتهم وهم يؤدون
قسم الولاء للزعيم ، ثم سمعتهم
ينشدون نشيدا عربيا يمتلىء بكلمات
التمجيد للحزب وشرف الانضمام إليه ، كنت
قد ادركت لهم ظهرك ، عاندا ادراجك
متنازلا عن أحلام القوة والمجد القادمين في ركاب الحزب
بعد ان ادركت مما رأيت ، انك تجاوزت المرحلة العمرية
المناسبة لرعاية حليب الفاشية ، عندما
وجدت قبالتك شابا
إيطاليا يماثلك في السن ويرتدي القميص الأسود
يسألك عن الخدمة التي يستطيع تقديمها لك
تشجعت بسبب لهجته الودودة ، وسألته
ان كانت عضوية الطليعة الليبية تقتصر

على الاطفال ، لأنك لا ترى في الساحة غيرهم
— لعل وجود هؤلاء الاطفال يسمح الانطباع الغالب في اذهان الناس
باننا حزب يعتمد على الشدة والقسوة في تسيير اعماله.

— نعم .

— تعمل سائقا مع الحكومة ، كما يبدو من الزي الذي ترتديه .

— نعم .

— هل جئت لنقل احد أبناء المسؤولين الليبيين ؟
رنت في اذنك كلمة المسؤولين الليبيين رنينا غريبا
فهل هناك داخل الادارة الإيطالية من ينطبق عليه
وصف المسئول الكبير ؟ هل هناك حقا من حقق هذا
الاختراق لدوائر النفوذ والقوة الذي تحلم به
وتسعى إليه بوههم انك رائد الرواد في هذا المجال ؟
ضاعت عليك الريادة اذا ، وما بقى لك
الا الحلم بان تكون احد المقلدين والتابعين
لمن سبقوك على الفوز برضا الاسياد وحظوتهم
اذ هاهو كلام الرجل يسوق إليك الدليل على ان هناك اناسا
ليبيين صار المنصب الكبير في الحكومة الإيطالية
واقعا بالنسبة لهم لا مجرد حلم يحملون به
وأكثر من ذلك فهم يعدون اطفالهم منذ هذه السن
المبكرة لمراكز الحكم والنفوذ
لأنهم يعرفون ان مستقبل

البلاد اضحى مرتبنا بايدي هؤلاء الطليان
فجاءوا يرتبون حياتهم وحياة أولادهم على هذا الأساس
هؤلاء هم اساطين المكر والدهاء الذين يجب ان تحدد
حدوهم وتنتهج الطريق الذي قادهم إلى النجاح
اردت ان تسأله إن كان هؤلاء المسئولون الليبيون
أعضاء في الحزب الفاشي مثل أولادهم
إلا أن الرجل استأنف حديثه عن الحزب
فلم تشأ ان تقاطعه قائلا بان هناك عدا هؤلاء الاشبال
نخبة ممتازة من الشباب الليبي من يشكلون النواة

الأولى في ليبيا لهذا الحزب شارحا وهو يقودك إلى مكتبه
كيف ان الانضمام إلى الحزب الفاشي
يشبه تماما الانضمام
إلى احد الأندية الرياضية لأنهم
هم أيضا يعلمون اعضاء
الحزب مختلف الرياضات
مثل السباحة وركوب الخيل والعدو
والرماية ، وهناك طبعا حصص للتدريب على السلاح
لمن لم ينل تدريبا من قبل ، وإعطاك
اثناء وجودك في مكتبه
مجموعة من الكراسات الارشادية
بعضها مكتوب بالعربية
تتضمن معلومات عن الحزب وتاريخه
واهدافه مع كراسات
أخرى تضم خطب الدوتشي في المناسبات
التاريخية وتحليلاته
للسياسة الدولية ، كما ساعدك في تعبئة نموذج طلب
العضوية الذي سيعرض
على امانة المكتب الفرعي للحزب
وعندما عرف انه بجوار عملك سائقا
في قصر الحاكم العام
فانت منخرط في الجيش
واكملت مرحلة التدريب الأساسي
طمأنك بان الموافقة على الطلب
مضمونة في مثل حالتك
فهي لن تأخذ وقتا كما يحدث
مع طلبات أخرى تحتاج
إلى تحريات كثيرة لأن أي تحريات
بالنسبة اليك لن تكون
غير مسألة روتينية لا تستغرق

يومين أو ثلاثة أيام
واضاف مجاملا بانه يمكنك ان تعتبر
نفسك عضوا في طلائع
الشبيبة الفاشية الليبية منذ هذه اللحظة
لم ينس الرجل اثناء توديعه لك ، ان
يحبيك على هذا التفكير
الصائب الذي هداك إلى اختيار افضل
الطرق لخدمة الدوائر
الثلاث المهمة في حياة أي مواطن يقطن هذه البلاد
دائرة الوطن الكبير إيطاليا ، ودائرة
الوطن الصغير ليبيا
ثم دائرة الذات بسبب ما يتيح
الحزب من فرص النجاح أمام
أعضائه ، وإعطائك معلومة اخيرة لاسعادك
وهو ان المارشال بالبو ، باعتباره أعلى مسئول في الحزب
قرر اعفاء الاعضاء الليبيين من رسوم الاشتراك
في هذه المرحلة تشجيعا لهم على الانخراط في الحزب
قلت وانت تصافحه مودعا:
— جزى الله المارشال كل خير عن اخوته الليبيين .

لم تكن ساذجا لتخدع بكلام الرجل عن الدوائر الثلاث
فقد جئت عارفا ما أنت مقدم عليه
ولم تكن بحاجة لغواية احد أو تنفيره لك ، كما
لم تكن بحاجة لهذا الغطاء النبيل
عن خدمة الأوطان كبيرها وصغيرها ، فانت لم تكن معنيا
بغير دائرة الذات التي اشار إليها
تبحث عن خلاصك الشخصي ، اما الوطن الذي تنتمي
إليه فان خدمته لا تكون بالانضمام للحزب الفاشي
ولا تقول في هذا الشأن
الا ما قاله جد النبي لابرهة الحبشي

عن الكعبة فالوطن مثل الكعبة له رب يحميه
بل ان الانضمام لهذا الحزب شيء مدان من الناحية الوطنية
ولكن من تراه يملك هذه الأيام
شرف التطلع لخدمة القضية
الوطنية بعد ان وقعت البلاد بكاملها تحت نعال المحتلين
عبد المطلب سعى لاسترداد نياقه تاركا امر الكعبة
لخالق الكون ، ولحرص ما يحرص عليه
أي إنسان ليبي مثلك ، في ظل هذه الظروف
شيء ربما أكثر تواضعا من ذلك
وهو ان يتمكن من البقاء على قيد الحياة ، فلا يقتله
ابرهة الإيطالي ، أو يدفعه إلى الموت
لأنه لا يجد طعاما
أو علاجاً أو مكاناً يأويه . انك لم تفكر
في حمل البطاقة الفاشية الا بهدف النجاة
من الموت في حرب الحيشة
هذا هو هدفك الذي لا هدف لك سواه
ان تبقى في وظيفة سائق كما أنت ، وان يرفع اسمك
من لائحة الذاهبين إلى الحرب ، بل انت حتى الان
لست واثقا من ان اللجوء إلى الحزب الفاشي
سيحقق لك هذا الامل ، انها مجرد محاولة أو مقاومة
ربما تكسب وربما تخسر ، الخطوة التالية التي تتوي اتخذها
وتعرف انها أكثر تأثيرا وأهمية رغم انها ليست محملة
بهذه الحمولة السياسية الثقيلة لعضوية الحزب النازي
هي البحث عن وسيلة لاقضاء عياد الفزاني عن الوظيفة
بمعنى ان تمارس عليه نوعا
من الضغط يرغمه على طلب
البقاء في مرزق ، مثل تلفيق اشاعة كاذبة ترسل الخوف
في قلبه ، فلا يأمن المجيء إلى طرابلس ، ويضطّر
مرغما للاعتذار عن مواصلة العمل مع حورية ، بسبب
ظروف القاهرة تجبره على البقاء مع أسرته

وبمجرد الانتهاء إلى هذه الفكرة ذهبت مسرعا
إلى عبد المولى الشحاذ تترصده له
أمام جامع ميزران وواعدته على اللقاء
ظهر اليوم التالي في حديقة البلدية
فهو أكثر دراية منك بالاماكن التي يتردد
عليها أهل فزان ووكالة السفر الخاصة بهم . اقترح
ان يأخذك إلى مقر الوكالة
بالقرب من سوق الثلاثاء لتتولى بنفسك السؤال عنه
والبحث عنم بيلغه الرسالة التي تريد
فافهمته ان المهمة تحتاج إلى رجل مثله
لا يرتبط بدوام رسمي مثل ارتباطك ، وشرحت له ما تحب
ان يفعله ، فهي رسالة في منتهى الخطورة
ويجب ان تصل إلى صاحبها في أقصى سرعة ممكنة
وعليه وفقا لذلك ان ينتظر مهما طال انتظاره حتى يجد
رجلا يستعد للسفر إلى عاصمة الجنوب
في التو واللحظة ليأخذ الرسالة إلى عياد الفزاني
واقترحت عليه الا يكتفي
بمبعوث واحد يحمله الرسالة ، وانما يسعى
للعثور على عدة رجال ، حتى اذا اخفق احد
في إيصالها ، أوصلها الرجل
الاخر ، مع ابلاغهم جميعا بانها رسالة في غاية السرية
يجب الحرص على كتمانها ، ونقلها
بمنتهى الحيلة والحذر
إلى صاحبها ، وفحوى هذه الرسالة
انه نتيجة لما يحشده
الأحباش من جيوش في مواجهة الحملة الإيطالية
قرر الجيش الإيطالي مضاعفة
عدد الاليات التي سيدخلون
بها الحملة لمواجهة التفوق العددي للاحباش
ولذلك فقد صدر الأمر لسلطات الولاية

بجمع كل السائقين
من اصحاب الخبرة ، وفي مقدمتهم السائقين
العاملين في الدولة لارسالهم إلى الحبشة ، و لكي
يضمن لنفسه النجاة
من موت محقق في تلك البلاد البعيدة ، فان عليه ان يبقى
مع أسرته في فزان ، والا يحاول المجيء إلى طرابلس
باحثا عن أي مبرر يعفيه من العمل
كسائق في قصر الحاكم
تقاسمت معه الفرنكات العشر التي منحها لك حورية
وانت تلح عليه الحاحا شديدا ان يذهب على الفور لاداء
هذه المهمة الإنسانية دون ان تخبره بحقيقة الموقف
وانك اختلقت هذه القصة اختلاقا من أجل ان تبعد
عياد الفزاني عن عمله ، كي تأخذه انت
تظاهرت بانك تفعل ذلك خدمة لصديق تعرف انه
صاحب اطفال ، سيواجهون احتمال التيتم والتشرد
في حالة سفره ، لكن الشحاذ صار قادرا
على الانصاف لتلك التيارات العنيفة
التي تتصارع وراء مظهرك الوداع
بفضل ما حدث من تواصل وتعاون بينكما
منذ نزوحك من القرية ، ولم يكن صعبا عليه
ان يعرف حقيقة الدوافع
التي تخفي خلف هذه المهمة الإنسانية ، لأنه ابتسم
بخبث وهو يأخذ الفرنكات الخمس ، وشد عينيه
الصغيرتين الخاليتين من الأهداب
وقال وهو يقترب منك
كانه يتفحص شيئا في عينيك:
— ما أريده منك ليس هذه الفرنكات الهزيلة وانما شيء أهم
وهو ان تلحقني بالعمل بوابا أو عساسا في بيت السنيورة
بعد ان يستقر بك المقام سائقا رسميا لها .
— اذهب يارجل وانزع من رأسك هذه الشكوك التي ستتحول

إلى نار تحرقك ان شاء الله .
عندما وضعت رأسك على الوسادة ليلا كنت سعيدا
بما اتخذته من تدابير تضمن لخطتك النجاح فالاماني
لا تتحقق بمجرد رفع اليدين اثناء الصلاة والتوسل
إلى الله بان يجيب الدعاء ، لأن هذا الدعاء
نفسه لا بد ان يدعمه صاحبه بالعمل، ليبرهن
أمام ربه انه جدير بعونه ونصرته
كما عبر عن ذلك سيدنا النبي للاعرابي
الذي يريد ان يتوكل
على الله في حماية ناقته قائلا له " اعقلها وتوكل "
ومنذ ان دخلت معترك الحياة
في المدينة تعلمت الا تترك
الامور للصدفة وحدها ولا بد ان تفعل شيئا
لتحريك هذه الصدفة لكي تكون لك لا عليك
لن يمر وقت طويل باذن الله
حتى تأتي استقالة عياد الفراني
وتنتهي اجراءات انتمائك للحزب الفاشي
وتحقق لنفسك الانتقال من حياة
الطبقات السفلى ، المدفونة في قبر
سيدنا نوح ، إلى شرائح اجتماعية أوفر حظا ، وأكثر
يسرا ورفاهية، وبلوغ تلك المشارف العالية التي لا
يبلغها إلا قلة من الليبيين اصحاب الحظوة والنفوذ
ليقل رفيقك سالم ما شاء قوله من كلماته الكبيرة
الهادرة الفارغة من المعنى والمضمون
فكل ذلك لم يعد يثيرك أو يجعلك تحس بالذنب
من موافكك ، كما حدث منذ ساعات قليلة مضت
عندما جاء إلى لقاء الغابة
غاضبا صارخا كمن لدغته
عشرة ثعابين في وقت واحد ، قائلا دون ان يعير انتباهها
لمن يمكن ان يسمع كلامه من الوشاة والمخبرين :

— هل حقا أصبحت عضوا في الحزب الفاشي ؟

انكرت أمامه ان تكون لك اية علاقة

بمثل هذا الحزب وسألته مستكرا

عمن نقل إليه هذه الاكاذيب

— ليس هناك من الليبيين من لم يسمع بالخبر فقد حرص

الشاويش عنتر على نقله للجميع فردا فردا ، ليبرهن

لهم على الحضيض الذي وصلت إليه .

قابلت انفعاله الشديد باعصاب باردة ، وحاولت

ان تنتزع الضحك من وسط هذه العاصفة

التي بثirlها سالم في وجهك

اعتمادا على الشاويش عنتر :

— لا ارى الانضمام للحزب الفاشي من زاوية عنتر حضيضا

وانما قمة عالية لا يحلم بالوصول إليها ، واقسم لك صادقا

انني شخصا لا اعرف انني أصبحت عضوا في الحزب الفاشي

فكيف استطاع هو ان يعرف عني شيئا لا اعرفه عن نفسي ؟

— لا تحاول ان تغطي عين الشمس بالغريال ، لقد تقدمت انت

بالطلب وباشروا هم تحرياتهم عنك ، التي قادتهم لسؤال

الشاويش عنتر عن التزامك العسكري وولائك للوطن الام

إيطاليا ، ولعل صاحب القميص الأسود الذي جاء يتحرى

عنك لم يقل له صراحة عن سبب التحريات ولكنه استخدم

حاسة الشم القوية التي يملكها ، حتى عرف السبب وجاء

مغتبطا ينقله إلينا ، ويقول بانه انثى بالغ النشاء على ولائك

الشديد لإيطاليا وتفانيك في خدمتها .

— ليس مستغربا من الشاويش عنتر ان يقول عني ذلك .

— ولم يعد مستغربا منك ان تأتي بمثل هذه الافعال المعيبة.

قال بصوت هادىء يخالطه شعور بالاسى ثم اضاف:

— لست هنا لكي اعاتبك أو ألومك لأن الأمر هذه المرة

اكبر من أي لوم أو عتاب جئت فقط لاتأكد وها انا

قد فعلت .

ادار ظهره ومضى أوقفته قائلا :

— تمهل قليلا لتسمع رأيي .

— لا أريد أن اسمع منك شيئا ولن تسمع انت مني كلمة بعد اليوم
وإذا رأيتني صدفة في الطريق فارجو الا تبادل بالسلام
لأنني لن ارد عليك .

اعترضت طريقه ، وعندما رفض الوقوف سرت بمحاذاته
وحين اسرع الخطى مضيت تلاحقه وتسرع الخطى مثله قائلا:
— كن حنبليا واخلاقيا وشديد التطرف في الوطنية كما نشاء
ذلك لن يغير شيئا من حقائق الحياة وحقائق الواقع
التي تمنعك من ان تكون غير ما يريدون هم ان تكون
انت ذاهب بمشيئة الله إلى بر الأبحاش
ماذا تراك فاعل هناك ؟ ذاهب هناك لتقتل اناسا لا تعرفهم
ولا قضية لك معهم ولا ضغينة بينك وبينهم ، كل جريمتهم
انهم يدافعون عن بيوتهم وقراهم ضد الغزاة ، ستقتل كل
من تستطيع قتله منهم لأنك لو لم تفعل ذلك فسيقتلونك هم
لتموت موتة قذرة لا شرف فيها ولا كرامة . لا خيار آخر أمامك
ايها الرجل الشريف إلا أن تكون مجرما يقتل اناسا ابرياء
فما الذي تقوله الوطنية والأخلاقيات عن هذه المهمة؟
انك تساق إلى هذه الحرب قسرا ، نعم ، ولكن هذا لا يسمح
أو يلغي قذارة المهمة ، ولذلك اقول بان أي شيء يفعله
إنسان مثلي من أجل ان يتجنب الذهاب ، مهما كان بشعا
سيكون اقل بشاعة وقذاره واثما من المشاركة فيها
هل فهمت لماذا قدمت طلبا للحزب الفاشي ؟ انني لا اعرف
عن الفاشية أو حزبها اللعين شيئا يغيريني بالانضمام إليه
لا اعرف الا جانبيها البشع الكريه الذي اباد نصف هذا الشعب
ولكنني انضم إليها باعتبارها سرا اهون من شر آخر
رضيت بان اتغمس في مستنقع يصل مستواه إلى صدري
لكي لا اغرق في مستنقع يفوق مستواه مستوى رأسي
واموت مدفونا في قذارته وعفونته هل عرفت الان السبب؟

— لا اعرف الا شيئا واحدا وهو انك إنسان لا امل فيه وان طريق
الهوان الذي اخترته طريق لا حدود له ولا نهاية .

عندما مضى عنك لم تكن غاضبا منه ، ولا غاضبا
من نفسك ، تعرف انه سالم الفتى الذي يحمل نقاء
وسذاجة أيام الطفولة
في أولاد الشيخ ، والذي لم يخرج من قماطه القروي
كما فعلت انت ، وانه لن يطول به الوقت حتى يصطدم
بالحقائق الصلبة كالصخور التي سوف تدمي جبينه وتقعه
بان واقع الحياة لا علاقة له بتلك المثاليات التي تعلمها
في زاوية سيدي السني القرآنية
المشكلة انك عندما عدت إلى العنبر وجدتهم جميعا
يقاطعونك ويتجنبون الحديث معك ، ويرفعون انوفهم إلى
السماء تأففا ونفورا منك . القيت التحية
فابوا جميعا أن يردوها ، ورغم غرابية ان يسهوا
الجميع عن الرد فقد اعتبرته سهوا غير مقصود
وكررت القاء التحية
ثم اردفت ذلك بسؤال تعمدت ان يكون مباشرا عمن
رأى الشاويش عنتر ، لا لأنك حقا تبحث عنه
وانما للتأكد من ان زملاء العنبر
كلهم قرروا وضعك
تحت المقاطعة ، وعندما تيقنت
من ذلك ووقفت تنتظر إليهم
ذاهلا مستغربا من مثل هذا السلوك
الذي يسلكه ضدك مجموعة من الاشقياء
المندورين لحياة اليأس والقهر
اراد كل واحد منهم ان يمنح نفسه شرف
ان يكون شريفا ووطنيا على حسابك انت ، ونسي
الأرض الموحلة التي يمشي ويجلس
وينام فيها ، واتخذ من هذه القصة فرصة
لاظهار انه أكثر شرفا ووطنية منك ، اردت ان تتفجر
فيهم لاعنا الأرض التي حملتهم واسقف البيوت التي

اظلمتهم والاباء والامهات الذين انجيوهم ، ولكنك منعت
نفسك من الانفجار غضبا لكي لا تعطي لموقفهم منك
أهمية لا يستحقها . اطفأت نور العنبر
وتمددت فوق سريرك
ورأيت ان رد الفعل المناسب هو ان تضحك
هزءا وسخرية منهم
نعم ، لأن حجم المفارقة كان كبيرا
لا يستدعي أي رد فعل من طرفك
غير الضحك ، ولذلك صرت تفقه
بأعلى طبقات صوتك لاشعارهم
بان ما فعلوه كان مجرد نكتة
في نظرك ، وهو فعلا كذلك اذ انهم يستهزئون
بشيء لا احد منهم يملك القوة أو الجرأة أو الشجاعة
على فعله ، انهم ضعاف وانذال وجبناء ، وفوق ذلك يجعلون
من هذه الخصال الذميمة مصدرا للفخر ويقاطعونك
لاثبات انهم أهل الشهامة والنخوة
بينما العكس هو الصحيح
وانك انت الذي ابى ان يكون فردا من افراد القطيع
واتخذ طريقه وحيدا وبعيدا عنهم ، وسيكون طبيعيا
بعد ذلك ان تتركهم يسقطون في دوامة الموت والدم
وتتجو وحدك من هذا المصير ، وستكون
انت الذي يضحك كثيرا أولا واخيرا

جلجلت ضحكائك في ظلام العنبر
دون ان تسمع ردا من احد
وكأنما ازال الضحك كل الشوائب التي تركتها في نفسك
كلمات سالم ، ومقاطعة زملاء العنبر ، فوضعت
رأسك على الوسادة وانت تشعر بارتياح
عميق ، تماما كما حدث عندما اتخذت قرارك
بالانضمام إلى حزب الاقوياء ، لأنك لم تفعل ما

فعلت بناء على ارادة احد غيرك
اولمصلحة انسان سواك
ولكنك فعلته بدافع مبرر
ومشروع تباركه ملائكة الرحمن
وهو انك تريد الخير لنفسك ودفع الشر والاذى عنها
انك ما تزال عريفا للعنبر وبامكانك ان تبحث عن ذريعة
لتأديبهم لكن أي تبليغ يجب ان يذهب إلى الشاويش عنتر
ولعلمهم دبروا معه مكيدة ضدك ، والا ما تجرأوا على اتخاذ
هذا الموقف العدائي منك ، والخير كل الخير
ان تترك الامور تمضي الان حتي تحين الساعة
المناسبة للانتقام
في الصباح تسارعت وتيرة
الاحداث بشكل ازال من نفسك
كل احساس بالطمأنينة والامان
وجعل كل شيء مهددا بالانهيار
والضيق ، فقد صدرت الأوامر للمعسكر الذي تنتمي إليه
بالاستعداد للرحيل إلى بلاد الأعباش خلال ثلاثة أيام
وبدأت الترتيبات منذ الصباح لتنفيذ الأمر ، وعند ما اردت
مغادرة المعسكر وجدت من يستوقفك عند البوابة ليبلغك
بالتعليمات التي تمنع أي احد من مغادرة المعسكر
قبل ان يأخذ حقن التطعيم
لأن هناك لجنة طبية بدأت تباشر
عملها داخل المعسكر ، وهي تريد
ان تفرغ سريعا من هذه
المهمة ، للإلتحاق بمعسكر تاجوراء. لم يكن أمامك الا
الاستسلام للأمر الواقع ومحاولة الانتهاء من عملية
التطعيم سريعا ، متحججا أمامهم بان لديك عملا ينتظر
في قصر الحاكم ، مدركا ان كل ساعة تقوت تنقص من فرص
البحث عن وسيلة ناجعة تخرجك من هذا المأزق . كان
النصف الأول من النهار قد انقضى

عندما استطعت اجتياز البوابة إلى الخارج ، ومعنى
ذلك ان يوما من الأيام الثلاثة أوشك ان ينقضي
دون ان تحقق فيه شيئا
ومسرعا ذهبت إلى مقر عملك بامل ان تستفيد
مما تبقى من اليوم ، وبأقصى ما لديك من قوة وبسرعة
صعدت السلالم تطرق بيت حورية
ترددت حواء في ادخالك لأن السنيورة مازالت تأخذ حمامها
دفعت الباب قائلا بان لديك خبرا لا يحتمل التأجيل
ولا بد من ابلاغها اياه في الحال ، جلست في الصالون
بأكلك الفلق ، غير قادر على ان تسيطر على اعصابك
أو تمنع يديك من القيام بحركات لا معنى لها
فهما تتناوبان على ضرب الركبتين
بقوة وعصبية والانتقال
الى هرش الرأس بلا مناسبة
ثم فجأة قفزت واقفا وانت تسمع
صوت سيدة البيت يسبقها قبل ظهورها أمامك
حيث كنت جالسا
تسأل عن طبيعة هذا الخبر العاجل الذي جئت به إليها
عقدت لسانك الدهشة وانت تراها تقف في الصالون
بهذه الصورة ، فلم تستطع الرد عليها بكلمة واحدة
كأنما اصابك البكم . لأول مرة ترفع السنيورة حورية الكلفة
بينها وبينك وتخرج إليك مباشرة من الحمام وهي لا ترتدي
سوى فوطة بيضاء تحيط بجزء من جسمها وتترك
اجزاء أخرى من الجسم
تشع وتتوهج وتصدر اضواء تبهر
القلب وتعشي البصر وتشل ملكة التفكير لديك
رأتك مرتبكا عاجزا عن النطق ، فسألتك ان تجلس
وجلست هي قبالتك ، وقد انحسرت الفوطة عن احدى
ساقها إلى ما فوق الركبة بمسافة قصيرة لكنها مدمرة
نظرت إليها مصعوقا وهي على هذا الوضع

فلم تر غير الفتنة القائلة ، كررت هي سؤالها عن طبيعة
هذا الخبر العاجل ، ولكن أي خبر
يمكن ان يصمد أمام هذا الهول
العظيم . هل يمكن لساق عارية لامرأة جميلة
ان تدفع بإنسان إلى الاغماء ؟
هذا ما احسست به فعلا ، وانت تحاول ان تتمالك
اعصابك ، وتمنع جسمك من النداعي والسقوط . وبانفاس
لاهثة ، ووجه ادرته بعيدا عن اشعاعات
جسمها ، ومصدر الغواية
الكامن في سمانة ساقها ، ابلغتها
بخبر الاستعدادات الجارية
للسفر إلى الحبشة خلال فترة مداها ثلاثة أيام
وانك احد الذين شملتهم اجراءات التطعيم
ضد الأمراض المستوطنة هناك
باعتبارك ضمن كشوف المسافرين . ودون
ان تعرف تفسيراً للابتسامة التي استقبلت
بها كلماتك ، وحالة الاسترخاء التي
لم يطرأ عليها أي تغيير باخبار الفاجعة التي تواجهك ، واصلت
انت تذكيرها بما رأيته احد اسباب المحنة :
— لم يبق غير ثلاثة أيام . فقط ثلاثة أيام .
رأتك تعلق بصرك بها مستجدا متوسلا فلم تزد على ان قالت :
— ثلاثة أيام وقت طويل جدا ان كنت لا تعلم .
قالت جملتها ونهضت واقفة ودخلت إلى جناح النوم
وهي تجفف شعر رأسها بطرف الفوطة ، دون ان تفهم انت
ما تعنيه حورية بهذه الجملة . هل معناها انها تريدك ان تبقى
في خدمتها وتستسعى وفقا لذلك إلى تأجيل رحيلك ؟
وهل سيكون هذا التأجيل اذا حصل
مؤقتا ومشروطا بالمدة
المحددة التي جئت لقضاائها في خدمتها؟
ام تراه اعفاء من الحرب

كما تريد ويتمنى ؟
انها حتى لم تسألك عما تريد ، او تفهم ما تريده
هي منك . ولكن ما هذه الحالة الغريبة التي هزت كيائك بعنف
وشراسة عندما رأيته تخرج من الحمام ؟ وجعلتك تقف
أمامها اشبه بورقة تواجه اعصارا ؟
يقينا ان ماحدث لك ليس مجرد استجابة
ذكورية طبيعية لفتنة امرأة ، أو تأثرا
بما احتواه الموقف من عناصر الغواية . انه بالتأكيد
ليس نتيجة اعجابك بامرأة
كنت دائما تتبهر بجمالها ، وما ان رأيته مساحة عارية
من جسمها حتى التهبت مشاعرك وتعاضم اعجابك
وتحول إلى اشتها للجسد نفسه ، ماحدث كان شيئا اكبر
من ذلك ، شيئا لا يمكن وصفه الا بأنه حالة مرضية
هذا العرق الذي تقصد عزيزا من جسمك
وهذا الارتعاش الذي هز كل اطرافك
بالإضافة الى ما اعتراك من دھول
ودوخة وعجز عن النطق
اشياء لا تحدث الا عند الإصابة بحادث مرضي عارض
لقد صرت مدركا منذ وقت مضى
الحيز الكبير الذي تحتله
الغريزة الجنسية في تكوينك ، ومدى قوة وضخامة
الطاقة الجنسية لديك ، وما حدث كان عملية استقراز
مفاجأة وقوية لهذا الجانب أو لهذا الوحش الجنسي
الكامن في شعورك ولا شعورك ، الذي عودته بوجبات
منتظمة من العلف الجنسي
ثم أوقفت فجأة هذه الوجبات
خاصة وان ما رآه الوحش أمامه ، مطروحا على الكرسي
الأحمر في ركن الصالون الفاخر ، لم يكن علفا كذاك
الذي تعود قضمه واجتراره ، بل كان
مائدة ملكية احتوت

اشهى وارقى انواع الاطعمة في الدنيا ، لقد مضت الآن
اربعة اسابيع ، الهتك خلالها
واجبات العمل الجديد عن
تناول أي طعام جنسي ، رغم الاتفاق
الذي عقدته مع نورية
بان تزورها كل أسبوع
انت الآن في عداد الذاهبين إلى الحرب
وإلى حين اشعار آخر يتأكد فيه
اعفاؤك من هذه المهمة
فان عليك ان تتصرف وفق هذا السياق
وتقوم بزيارة توديعية لكل معارفك
ممن قد لاتعود لرؤيتهم مرة أخرى
ولأن لقاء حورية على تلك الصورة
المغرية، وضعك في حالة
استثارة جنسية، فستجعل زيارة نورية
هي أول الزيارات ، ليس فقط لدواعي الجنس
ولكن لأنها امرأة اعطتك وقتا طيبا
أكثر من أي إنسان آخر في هذه المدينة، وكانت دارها مكانا
تلتقي فيه بالمتعة والراحة، دون أية منغصات، ولذلك فمن
حقها عليك ، ان تقصدها قبل غيرها لتقول لها وداعا
وتشكرها على كريم عطاياها
في المرتبة الثانية تأتي ثريا ، ليس لأنها
اقل شأنًا، فالعكس هو الصحيح . انها الارقى
والأجمل والاثيرة إلى قلبك
بين كل النساء لكن دواعي الغريزة أكثر
الحاحا، اما دواعي الحب
فهي أكثر ثباتا وديمومة . ثريا مصدر من مصادر الامل
والسعادة في حياتك ولكن احساس فاجع بالفقدان يراودك
كلما اطل طيف هذه المرأة وملأ اركان الذاكرة
هل كان كل هذا سيحدث لو ان فتحي لم يسبقك إليها؟

بالامس فقط سألتك السنيورة حورية عن الزواج
الذي تأخر بك ، فلم تتزوج في سن مبكرة
على عادة أهل الريف . كانت المناسبة عندما
أخذتها لحضور حفلة خطوبة
لصديقة إيطالية من صديقاتها، أقامته
في النادي الإيطالي، بجوار مسرح الغزاة
— أهل الريف يتزوجون عادة مبكرا، فما الذي جعلك تخالف هذه العادة؟
— لم يحدث نصيب .
— وماذا عن المستقبل ؟
— انه بيد الله . الذهاب إلى الحرب لا يعطي الإنسان فرصة للتفكير
في مثل هذه الامور .
— اذن فكل شيء مؤجل إلى حين العودة من حملة الحبشة .
— هذا اذا كانت هناك عودة .
— تقديرات العسكريين تقول بانها لن تستمر الا لمدة اسبوعين
او ثلاثة اسابيع ، لأنه لا مجال للمقارنة بين القوات الإيطالية
وقوات الحبشة .

لم يكن قد تحدد اذ ذاك موعد الرحيل إلى الحبشة، وكنت قد
بدأت تنسج حبات الخطة
التي تضمن لك البقاء، دون ان تسأل
تدخلا مباشرا منها ، مؤجلا ذلك
إلى وقت آخر، مبتدئا بالعمل
على إبعاد السائق عياد الفراني من طريقك، فلا يبقى
من خيار أمام حورية غير استبقائك، فإذا بالاحداث تدهمك
كالسيل الجارف قبل ان تجني نتائج هذا التدبير . كنت موجودا
في السيارة بمفردك مع السنيورة حورية
في طريق الذهاب للحفل والعودة منه، وكانت ترتدي
فستان سهرة أسود فسفوريا يتهدل فوق جسمها، ويصل
لى اخصص قدميها، وتضع في عنقها لؤلؤة كبيرة
واحدة ، في حين اختارت لشعرها

تسريحة لها شكل التاج
ولجعل هذا التاج اقرب إلى الحقيقة، رشقت فيه بروشا
ذهبيا له فصوص بلورية تلمع
وتضيف اضواء والوانا لالوان واضواء فستانها وعقدها
مما زاد من جمالها وتألقها ، وهي تقف بين المدعوين
اثناء الحفل الذي اقيم في حنية النادي ، إلى حد احسست معه
بالفخر ، لحظة ان دعاك لحد عمال النادي مع بقية السائقين
لتناول مشروب الفرح بالداخل، والتباهي لكون هذه المرأة التي تألفت كالجوهرة بين صفوة
نساء المجتمع الإيطالي
هي ليبيّة مثلك، تنتمي لأبناء وبنات
جنسك . سألتك وانتما في طريق العودة
ان تقود السيارة ببطء عبر طريق الكورنيش
لاستشاق نسيمات البحر
في هذا الليل الربيعي الجميل ، ورغم انها لم تتبادل معك
غير كلمات قليلة حول موضوع الزواج ، إلا أنك احسست
ان هذا ليس كل ما هناك ، وان لديها شيئا
تريد ان تقضي به إليك ولم تستطع، لعله امر يتصل
بعلاقتها بالحاكم الإيطالي ، تود ان تخرجه
من صدرها لإنسان من أبناء جلدتها
يكون محل ثقة من جانبها، ولم تجد أمامها
إنسانا سواك تقوله له ، وعندما همت
بان تفعل ذلك تذكرت ان ما بينكما من علاقة
وتفاوت في المكانة ، لا يسمحان
بمثل هذه المكاشفة والحميمية ، كان ذلك بالامس فقط
وهاهي اليوم تخرج إليك ترتدي فوطة الحمام
وقد كشفت عن جزء من بلور جسمها الشفيف
تشوبه حمرة الشفق في ساعة الغسق، لتقول لك سطرًا آخر
من هذه الرسالة الغامضة التي اختارت تبليغك بها على
اقساط . انك لا تدري ما الذي حرك لديها موضوع
الزواج ، ليفاجئك هذا السؤال تطرحه عليك امرأة

مبهجة ، سامقة، لها جمال عيني حورية
وسحر ابتسامتها . لو كانت لديك فرصة للزواج من امرأة
مثلها ، لتزوجتها اليوم ، حتى لو كان السفر
إلى الحرب غدا

ليلة واحدة تعيشها بين احضانها تساوي عمرا بأكمله
ولكن حذار، حذار، من ان تدع بصرك يزوغ ويمتد إلى
ممتلكات أهل القوة والجبروت، أو تفكر
في الاقتراب من العابهم
الجميلة عندئذ لا تلومن الا نفسك
إذا سحقوك تحت نعالهم
بلا شفقة ولا رحمة

سيحين بعد قليل، موعد ذهابك إلى نورية ، فلتكن
هذه المرأة المنذورة للأوقات الطيبة
التي تعاشرك معاشرة

المحبين لا معاشرة زبائن السوق، هي أقصى
ما تطلب نيله من متعة في هذه الأوقات
المعتمة، التي لم يتبين فيها الخيط
الابيض من الخيط الأسود . لم تكن تتوقع
ان تجد احدا من الناس
يرى في السفر إلى بر الأحباش شيئا
يوجب الفرح، حتى سمعت
مختار العساس يقول :

— افرح ياسي عثمان فقد جاء اليوم الذي تنتظره ، وصار
الذهاب إلى حرب الحبشة حقيقة ، بعد ان كان أمنية من الامنيات .
— ما هذا الذي تقوله ياعمنا الكبير؟ هل صار الذهاب إلى
حرب الحبشة مبعثا للفرح وحلما من أحلام العمر ؟ أخبرني
باشه عليك كيف يستقيم هذا الكلام؟
— كيف لا يستقيم يا ولدي عثمان ؟ فهو باب للرزق فتحه الله
لامثالك من الشبان المحظوظين .

سبق لك ان سمعت كلاما عن زيادة المرتب للمجندين

عند التحاقهم بالجبهة، دون ان تعطي اهتماما كبيرا

للموضوع، أو تسأل عن تفاصيله، فهل هناك حقا

ما يثير الاهتمام والفضول فيما يخص هذه الزيادة ؟

— عن أي رزق نتكلم بالله عليك ؟

— انك لا تأخذ وانت تحت التدريب غير ثلاثين فرنكا في

الشهر، اليس كذلك ؟ تصور ان هذا المبلغ سيتضاعف

انشاء الحرب ليس مرة أو مرتين وانما أكثر من عشر

مرات ، أي يصبح ثلاثمائة فرنك قابلة للزيادة اذا ما ابلت

بلاء حسنا في القتال جلب لك العلاوات والترقيات، وهي

فرنكات يمكنك ان تحتفظ بها كاملة غير منقوصة ، لأنك

لن تحتاجها في طعام ولا لباس ولا مأوى ، فكيف اذا

استغرقت الحملة اربعة أو خمسة اعوام ؟ ستعودون أكثر

ثراء من الكونتييسة نفسها .

كان مبلغ الزيادة الذي قاله مختار العساس

مبلغا كبيرا حقا ، وكنت على جهل

بوجوده ، إلا أنك استغربت لهذا الحماس

الزائد عن الحد ، الذي يتحدث به الرجل عن هذه الزيادة

— لا تنس يا عمنا مختار انها الحرب ، وان احتمالات الموت

في الحروب تكون أحيانا أكبر من احتمالات النجاة .

لم يعر مختار العساس انتباها لما احتواه

كلامك من استنكار واستهزاء بمنطقه ، واعتبر

ان ما قلته مناسبة للافاضة

والاطناب في منافع الذهاب إلى الحرب:

— اذا ما حان أجلك هناك ، فسيكون موتك هذه المرة مورد

رزق لأهلك يبقى معهم إلى آخر اعمارهم ، ومناسبة لتوديع

الفقر إلى الابد باذن الله ، لأنه سيصرف لهم معاش شهري

بقيمة نصف المرتب الذي كنت تتقاضاه هناك ولمدة اعوام كثيرة

يحددها القانون .

ومضي يعدد المدد التي يصرف فيها المعاش والتي تختلف
من رجل ترك ارملة واطفال، إلى رجل مات أعزب وسيكون
من حق ابيه وامه الاستفادة من معاشه، إلى ثالث له اخوة
يعولهم ، وقاطعته قبل ان يكمل حديثه :

— تبدو خبيرا في هذه الحسابات وكانهم أوكلوا صرف
المعاشات إليك فما الحكاية بالضبط ؟

— كنت قد عرفت هذه المعلومات من حارس يأتي إلى هذا
المكان مع المارشال بالبو، وتكونت صداقة بيني وبينه .

ثم أخبرك بان الكلام الذي سمعه عن مزاييا
العمل في الحبشة اغراه بطلب الانضمام
إلى الحرب ، وسعى لدى الحارس الإيطالي
ان يتوسط لديه كي يعمل مدنيا مع جيش الحملة
مستفيدا من خبرته في البناء أو عاملا
في المطابخ ، أو مخازن علف
الحيوانات المستخدمة في الحرب، لنشأته
في مجتمع البادية والرعي ، ورغم ان الحارس
وعده خيرا، إلا أن مختار العساس
ونتيجة لسنه المتقدمة وبرد العظام
الذي يعاني منه ، عدل عن
الفكرة متنازلا عن أحلام الثراء ، راضيا
بالرزق الذي كتبه
له الله في هذه البلاد، قائلا لصاحبه
الإيطالي ما قاله الفار
الذي خرج من محل اقامته
في دكان الحلاقة، تحت اغراء
صديق قاده إلى سوق للمواد الغذائية
يمتلىء بالالبان

والزبوت والجينة والزبدة ، اذ قال لصاحبه
الذى أطبقت عليه إحدى المصائد المنصوبة ونجا هو :
— اعيش هائئاً، العق جلدة المسن في دكانة الحلاقة، خير
الف مرة من أن تطبق على إحدى المصائد المنصوبة
في دكانة الاجبان والالبان.

مختار العساس على مشارف الستين
من عمره ، جاء إلى
طرابلس منذ سبع سنوات، وشارك في المراحل
الاخيرة لتشييد هذا البناء، ولأنه لا يملك بيتاً
ولا أهلاً في طرابلس، بقى عساساً
للعماره بقيم وحيداً بغرفة في الجارج، يحرس
مدخل العمارة والسيارات التي يضمها الجارج ليلاً
عاش ثلاثة اعوام بمعسكر اعتقال العقيلة، فقد اثناءها
كل افراد عائلته، والدته وزوجته واطفاله الثلاثة
فصدر امر بالافراج عنه، واستخدامه
عاملاً مع شركة المقاولات الإيطالية
التي كانت هذه العمارة واحدة من انشاءاتها
تترقرق عيناه بالدموع عندما يأتي حديث الذكريات
عن معسكر العقيلة وتداعياته المؤلمة، قائلاً في لهجة مريرة:
— سامح الله سيدي عمر .
وسيدي عمر الذي يطلب له السماح هو الشهيد عمر المختار
وكننت تسأله في بداية عهدك بمعرفته بعض الاسئلة التي تصدمك
اجابته عنها
— كأنك تلوم سيدي عمر عما حدث لك .
— وهل اصابنا ما اصابنا الا من تحت رأسه .
وتقول له مفجوعاً ومندهشاً:
— العنّ الشيطان يا رجل . اتلوم عمر المختار على ما ارتكبه في
حقك السفاح جريسياني ؟
— وكيف الوم عدوا اعرف بداية انه ما جاء الا للتكيد بأهل البلاد؟

انني الوم من كان الأولى برحمتنا وتجنينا ما نعاني من بلاء
فلا يأبه لحالنا.

— وهل فعل عمر المختار شيئاً غير انه دافع عن أرضكم وكرامتكم؟

— كان هو مصدر البلاء الذي لحق بنا . فبسبب هذا الدفاع الذي

تقول عنه ، جاء جيش جراسياني يصادر مواشينا ويهد بيوتنا

ويسوقنا رجالا ونساء واطفالاً إلى معسكرات الموت والتعذيب

والأوبئة باعتبارنا رهائن حتى تنتهي حركة العصيان والتمرد

لكن عمر المختار رفض ان يفك أسر هؤلاء الرهائن . كتبنا

إليه رسائل الاسترحام، لكي ينجينا من حياة المعتقلات ، وارسلنا

له الرُّسل نشرح ما يعيشه الاطفال والنساء من عذاب، وما

نقاسيه جميعا من شقاء، وسألناه ان ينزح مثل بقية زعماء

الجهاد إلى خارج البلاد ان لم يكن يريد الدخول في اتفاقيات

مع الطليان ، لأنه لم يعد هناك جدوي من حربه، الا المزيد

من العذاب و الموت والقهر لأهلنا .

— لانتس انه قضى شهيدا ؟

— كان مطلبه شهادة يتاب عليها من الله، وندفع نحن الثمن من

عائلاتنا التي هلكت، و بيوتنا التي خربت، وحياتنا التي افسدها

عناد شيخ في السبعين .

تحلو لك مناكفة رجل مثل مختار العساس ، موزع الولاءات

اباد الإيطاليون أهله، فاستسلم للامر الواقع، ورضى بالحياة

خادما لهم ، وكنت قد وجدت نسخة من قصيدة الشاعر

احمد شوقي في رثاء عمر المختار فجلست لحفظها

عن ظهر قلب، ولم تجد مكانا افضل من جراج العمارة

لاستذكارها أمامه بصوت عال :

— يا ايها السيف المجرد بالفلأ

تكسو السيوف على الزمان مضاء

خيرت فاخترت المبيت على الطوى

لم تين جاها أو تلم ثراء

فكان يفهم سطرأ ولايفهم الاخر، ومع ذلك كان يهز رأسه

تأثرا قائلا:

- رحم الله سيدي عمر ، كان رجلا ولا كل الرجال .
— ألم تكن تلومه على المآسي التي وقعت لك ولاسرتك؟
— نعم الومه ، ولا زلت الومه ، ولكن ذلك لا يعني انه لم يكن فارس الفرسان .

لمختار العساس لحديثه وذكرياته التي لا تمل سماعها
لأنه كلام ممزوج بروح الدعابة
التي تذيب مرارة الاحزان
في هذه الذكريات ، ولولا هذه الروح
لكان اسرع إلى اللحاق بعائلته الهالكة
منذ اعوام واعوام . لم يكن هناك
طعام في معسكر الاعتقال يقدمونه لهم وكان مطلوبا
من كل عائلة اسيرة ان تتدبر حياتها بحفنة من
الشعير ، لا تسد رمق الاطفال فما بالك بالكبار ، وتسأله
كيف اذن استطاع ان يعيش ؟ وماذا كان يأكل ؟ فيجيب بانه
يدين بالفضل لاطباق الارز اللذيذة التي كان يأكلها
اثاء الليل ، و تنتظر إليه مستغربا ، ومتسائلا عن مصدر
هذه الاطباق فيقول ضاحكا:
— الارز الالهي الشهي الذي تقدمه ملائكة الرحمن
للجباة اثناء النوم . هذا الطعام وحده هو الذي
ابقاني على قيد الحياة .

قاومت اغراء الحديث الشائق ، وانتزعت نفسك انتزاعا
من جلسة مختار العساس وذكرياته ، لأن لديك مشاويرك
الخاصة التي لا تحتمل الانتظار ، فقد اضحى الوقت
محسوبا بالدقائق ، وانت تتأرجح
بين الامل والرجاء ، لا تدري
ما سيكون مصيرك بعد يومين
اراحك ان تعرف ان ليس للسنيورة حورية مشاوير

مسانية تحتاج فيها لخدمتك، فسلمت مفاتيح السيارة
للعساس وخرجت . لم يستطع حديثه
عن الثروات التي يجنيها
الذهاب إلى الحرب ، أو تلك التي ينتفع بها
أهله، بعد ان يسقط
قتيلا في الميدان، ان يجعلك تتردد أو تتراجع عن فكرة
الهروب من هذه المهمة الكريهة ، باية وسيلة تقدر
عليها ، حتى لو كانت المكر والخديعة، كما فعلت مع
عياد الفزائي ، سائق حورية الرسمي ، وكانت آخر
هذه المساعي استجدك بحورية
نفسها، عليها تهرع إلى عونك باعتبارها المرأة الاقرب
إلى قلب الحاكم العام، وما تبقى فهو مسألة افلاك تدور
في قبة الكون ، كما يقول الحاج المهدي ، تصنع للبشر
اقدارهم ، وترسم لهم مسارات حياتهم، ولا يملكون لها
ردا ولا دفعا ، ولوح محفوظ ، مسطور فيه ارزاق الناس
وآجالهم منذ الازل فما عليك بعد ان بذلت ما في وسعك ، إلا
أن توكل الأمر لصاحب الأمر ، وخالق هذا الكون، الحي
القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم
ليقرر بشأنك ما يشاء ، وان تذهب في الحال لتوديع
من يجب توديعه، توقعا للأسوأ، ولكي لا تفاجأ بانتقالك
إلى ميادين الحرب دون ان ترى من تحب رؤيته

ليتك تستطيع الذهاب إلى "أولاد الشيخ" التي تبقى
رغم ضيقك بها ، وهروبك منها، تحلّ موقعا في قلبك لا
يستطيع ان يحتله اي مكان آخر، وطالما أن الوقت
الذي تبقى لا يتيح فرصة توديع أهلك
هناك، فلا اقل من ان يكون وداعك شاملا
لكل من عرفت في طرابلس ، المدينة التي جئتها
هاربا، لاجئا، فوجدت
فيها، رغم المعاناة ، أهلا ورزقا وقلوبا عطفت عليك

ستودع كل هؤلاء الذين عرفتهم فيها ، وستودع عبرهم
ومن خلالهم، وطننا تغيب شمسها
وراء سحب الاحتلال السوداء، وتتسحب أرضه من تحت
أقدام أصحابه الحقيقيين ، ومع ذلك يبقى رغم الجراح
والسحب السوداء والأرض المسروقة والمحروقة ، وطننا
لك ولأهلك ، لا تملكون وطننا سواء، وهو قبل
ان يكون حجرا وشجرا وترابا وسماء وهواء
ونجوما وشمسا وبذرا ، فهو بشر وقلوب ومشاعر
واحاسيس . انه اسلاف ماتوا ، وتركوا انفسهم معلقة
في هوائه، وبعضا من دمائهم وعظامهم، ممزوجة
بترابه ، وركاما من أحلامهم وأمالهم التي ظلت
رغم سقوطها كأشجار الأوراق الذابلة، مختلطة
بامشاج هذه الأرض، ومن حصيلة هذا كله ، تشكلت
في ذهنك ملامح هذه البلاد التي يسمونها ليبيا
الوطن الذي يبدو لك في لحظات الاحباط
والتعب النفسي، كأنك انفصلت عنه وانفصل
عنه ، أو كأنك جعلت لنفسك كيانا مستقلا عن كيانه
ونظرت لمصلحة هذا الكيان الصغير الذي هو ذاك ، باعتباره
شيئا مستقلا ومنفصلا عن كيان الوطن
ومصلحته، هذا الكيان الذي لا يهتم شأنه ولا تضع له في
حسابك حسابا ولا اعتبارا، تحت مبرر انك لا تملك
شيئا تعطيه له و لا يملك هو شيئا يعطيه لك، ومنذ سقوطه
تحت سنايك خيل الغزاة، سقطت وتلاشت الاعتبارات
الوطنية ، لتترك المجال مقتصرًا على اعتبارات
المعيشة، وضمان لقمة العيش، والكفاح من أجل
البقاء فقط . انك لم تتخبط في جيش الطليان لأن لديك
ولاء لسياستهم أو قناعة بعدالة الحروب التي يخوضونها
لتوسيع امبراطوريتهم وانما جئت إليهم جائعا تبحث
عن كسرة خبز ، وخائفا تبحث عن الامان ، ويائسا
سدت في وجهك المنافذ والطرق، الا طريق الانتحار

أو طريقهم ، فاخترت الانضمام إليهم كبديل للانتحار ، فمن
اين لفتى يرزح تحت أكداش الفقر والهوان مثلك ، ترف
ان يكون وطنيا ؟

وها انت اليوم ، بعد ان اكتشفت ان ما فعلته ، لم يكن
هروبا من الانتحار وانما وقوع فيه ، حاولت ان تتجو بجلدك
عارفا انك لا تهرب منهم ، الا إليهم ، ولا تتجو من فخاخ
الموت هذه ، الا لتسقط في فخاخ أكثر رعبا ، ولكي
تتقادی الذهاب إلى حرب الحبشان

لابد ان تذهب إلى حزب الفاشست ، فانت محاصر بهم
أو حسب التعبيرات التي تقولها امك اشبه بمن يجد نفسه
داخل حبة لوز مرة ، فالبلاد بكل ما فيها من سهوب
وسهول ووهاد وجبال وصحارى وسماء ونجوم، اضحت
مكانا ضيقا ، ضئيلا ، يطفح بالمرارة مثل هذه الحبة
المرة من اللوز المقفولة على ابن البلاد . هاهو مختار
العساس يضع اللوم على الشيخ الشهيد

عمر المختار ، الذي حارب الطليان حتى مات صريعا
على ايديهم ويضع مأساة أسرته في عنقه ، فبسبب ثورة
المختار حدث ما حدث من اعتقال لأهل البادية، أودى
بامه وزوجته واطفاله الثلاثة إلى الهلاك، واذا كان
عمر المختار قد حقق جدارته الوطنية بالتضحية
بروحه، فهل تتكرر على مختار العساس الذي عاش
مصارع أهله فردا فردا على يد الطليان، وكاد يصرع
مثلهم حقه في نصيب من الوطنية يساوي نصيب
عمر المختار رغم انتقاده له

باموال الإيطاليين جند رمضان السويحلي عشرة الاف
مقاتل من فقراء الليبيين، ليحاربوا

في صفوف الإيطاليين ضد أبناء بلادهم، وسار
بهم إلى أرض المعركة في ابار

القرضابية وانتظر حتى الدقائق الاخيرة

التي سبقت نشوب القتال ليكشف هؤلاء الجنود

بخطته السرية التي تقضي
بالانضمام إلى المجاهدين ، والارتداد لضرب الجيش
الإيطالي ، الذي يشكلون فصيلا من فصائله
وهكذا وجد ذلك المواطن الذي باع روحه للشيطان
وجاء للحرب تحت راية المستعمرين ، نفسه مجاهدا
يحقق اقوى عملية انتقام من اعداء الوطن
ويصنع ضدهم اعظم انتصار
تحقق في تاريخ المقاومة الشعبية الليبية
فإلى أي صنف ينتمي هذا الجندي الذي دخل المعركة خائفا
للوطن وخرج منها شهيدا أو بطلا من ابطال النضال ؟
هناك ثلاثة جياذ كما سمعت شيخا من شيوخ القرية يقول
لوالدك هي جياذ العجز والخوف والجوع ، تتولى
قيادة العربية في مثل هذه الأزمئة الموحلة ، الموسومة
بالقهر وسيطرة المحتلين وهزيمة المقاومة، وهي التي
تحدد مصائر الرجال، ومواقفهم وأحيانا تحدد
أيضا مصارعهم ، ولعل مرحلة العجز الكامل التي وصل
إليها الوطن ، تعفي مواطنا مثلك من ذلك الاختيار
الصعب الذي واجهه الناس منذ اعوام قليلة مضت، عندما
لا تزال جدوة المقاومة تشتعل، بين ان يكونوا مع المقاومة
ضد الطليان أو مع الطليان ضد المقاومة. استوى الجميع
الآن، بما في ذلك ابطال حملوا السلاح ضد الطليان
فطاردهم حتى اخرجهم من الحدود، وحكم عليهم
بالاعدام ، هاهم يستجيبون الآن للعفو الذي اصدره بحقهم
موسيليبي ، ويتدافعون للعودة، والبحث عن عمل يطعمون منه
اطفالهم لدى سلطات الاحتلال

الوطن الوطن
لكل إنسان مكان ينتمي إليه ودائرة من الأهل والمعارف
والاصدقاء ، ولد وتربى وعاش بينهم ، وهذا المكان

وهذه الدائرة من البشر
هما الوطن، المكان شكله والناس محتواه
انه بالنسبة لك في هذه اللحظة
وقبل يومين من احتمال رحيلك إلى الحبشة
هو نورية التي تعمل في حي الدعارة وتعيش
على امل الفوز برخصة رسمية تمكنها من ممارسة
هذا العمل علنا بدل البقاء معرضة للمطاردة والابتزاز
حين تعمل عاهرة دون ترخيص
انها رغم حقارة المهنة ، امرأة ليبية، لا احد يمكن
ان ينكر عليها هويتها، أو يلغي
انتسابها وانتساب ابنها وردة ورئيستها شريفة
إلى هذا الوطن
ثم ثريا، التي تمثل لك حبا مشنوقا
وحلما اجهضه عبث الأيام وتظل، برغم الالم
الذي عانيته من أجلها
أكثر النوافذ المطلة على رحاب الوطن نورا وهواء
وبهجة ، اما والدها الحاج المهدي ، صانع النعال
الجميلة الذي يعبق بدفء الابوة، كيف
لا تعتبره أهلا ووطنا وتذهب لتوديعه نيابة
عن كل ذوبك وافراد
اسرتك، ممن تعذر عليك توديعهم، ولن تتأخر
في توديع أولئك الذين عبروا
في حياتك عبورا سريعا، منذ انتقالك إلى طرابلس
سواء في وكالة الشوشان أو كوشة عبد الله
أولدى عمي الشارف ، بائع الشاي في الباب الجديد
ستذهب لمصافحتهم جميعا قبل السفر، لأنهم يمثلون
شيئا عزيزا في حياتك ، وجزءا من ذكرياتك
في طرابلس ، دون ان تتسى عبد المولى الشحاذ
الذي كان دليلك في التعرف
على المناطق الخفية المجهولة داخل هذه المدينة

أو رفاقك في بيت حورية ، مثل حواء التي اذاعتك الوانا
من الحلوى اللببية لا تعرفها بيوت الريف، واصنافا
من الطعام الشهي لم يسبق لك أو لاحد من أهلك
واسلافك، ان ذاق مثلها ، والصبي الزنجي مرجان، الذي
مازال يتكلم العربية بلكنة افريقية اعجمية
والذي لا يرفض لك طلبا وانت تسأله ان يفسح لك مكانا
أكثر قربا من حورية، خاصة عندما تنازل عن شراء الصحف
وقضاء بعض الحوائج لتقوم بها انت
كذريعة لأن ترى السنيورة كل يوم
ومختار العساس، بحقه الناري على عمر المختار
وحكاياته المعجونة، كخبز الاقران
الشعبية، بجمر ورماد السنين
ثم حورية ، السنيورة الجميلة الفاتنة
حورية، هذه القطعة
من الدانتيل الثمينة، التي تشكل بكل ما يحيط بها
من ترف وبذخ جزءا من نسيج هذا الوطن، بالوانه
المتعددة ، لها حتى وهي تعيش في بيت الحاكم
الإيطالي، وتنام في فراشه لا تستطيع إلا أن تكون
امراة ليبية ، ويكفي دليلا على ذلك
احساسات الفرح التي تقفز من عينيها، وتثير
ملامحها كلما سمعت حديثا للمارشال بالبو
يحمل وعدا بالخير لأهل بلادها
فتأتي لتعيده في مجالسها كأنه الغناء
ذهبت إلى الباب الجديد ، يسوقك نداء
الرغبة، مختلطا بندااء الواجب
أملأ الا تكون هذه الزيارة هي آخر لقاء
بينك وبين المرأة التي استضافتك
على موائد انوثتها، ومنحتك
لحظات من اللذة لم تدققها مع امرأة سواها
وصلت إلى شارع سيدي عمران ، ثم إلى زنقة البهلول

التي تتفرع منه، حتى وقفت أمام الباب الازرق
ذي العروة النحاسية، فامسكت بالعروة
وطرقت الباب . خرجت لك شريفة ، تجر ثقل
اللحوم الكثيرة التي تكسو
عظام جسمها ، تقودك إلى غرفة السقيفة
وتسألك متوسلة
ان تقنع نورية بالبقاء في البيت، وان تقلع عن افكارها
الرعاء بترك هذه المهنة
لأنها لن تجد عملا يدر خيرا كثيرا مثل هذا العمل
خاصة وان الرخصة الرسمية التي تأخرت مدة طويلة
هي الآن في طريقها إلى الصدور، بعد ان جاء طبيب
حي الدعارة وقام باجراء الفحص النهائي، على كل نساء
البيت ، وهذا الاجراء هو آخر ورقة في ملف التأهيل
للرخصة ، بعد ان تم استكمال كل الاجراءات الأخرى
التي من بينها ان تكون المرأة التي تدخل رسميا
إلى هذا المجال قد ضبطت أكثر من مرة في حالة تلبس
بالفعل الفاضح مع احد الرجال
والحمد لله فان جميع نساء البيت قد ضبطن بدل المرتين
اللتين تشترطهما الحكومة ، خمس وست مرات
ونورية، كما تقول السيدة شريفة، هي نواره البيت
التي تجتذب اغنى الزبائن دائما ، واذا كان الاقبال
عليها شديدا في أوقات التخفي
والعمل السري، فما بالك بعد
ان يصبح العمل علنيا تحت الاضواء الحمراء وبمعرفة
واشراف الحكومة. كنت تعرف ان نورية هي الأوزة
التي تبيض ذهبيا لصاحبة البيت
إلا أن لهذه الثرثرة هدفا آخر بجوار الضغط على نورية
لكي تبقى ، هو ان تلهيك قليلا حتى تنتهي نورية
من الزبون الذي معها
غير ان خبر وصولك تسرب إلى نورية

فطردت الزبون الذي خرج، محتجا غاضبا طالبا
ان يسترد ثمن المضاجعة
الناقصة الذي دفعه سلفا، وجاءت كالعاصفة تنتزعك
من أمام سيدة البيت انتزاعا، وتدفعك بقوة نحو غرفتها
وهي تصرخ احتجاجا على غيابك
الذي طال لأكثر من شهر، رغم الاتفاق الذي يقضي
بان تزورها مرة كل أسبوع . عرفت منها واثتما داخل الغرفة
انها ذهبت تبحث عنك في معسكرات الطليان ، ولأنها لم
تكن تعرف عنك شيئا سوى انك مجند اسمه عثمان ، فقد
كانوا يردونها وهم يسخرون منها، لأنهم لا يعرفون
عن اي عثمان تتكلم ، واخيرا تذكرت صاحبك السائق
ماريو فذهبت تبحث عنه
في الورشة الحكومية، ولم تستطع
العثور عليه الا مساء الامس
ومنه اخذت المعلومات عن المعسكر
الذي تتبعه، ورقم العنبر
الذي نقيم به ، وذهبت هناك للسؤال عنك فابلغوها
بان موعد الزيارة هو يوم الغد . كنت تنصت باندھاش
لما نقوله هذه المرأة المجنونة
غير مصدق انها ذهبت وراءك إلى كل هذه الاماكن
ولا تعرف سببا لهذه الشحنات الانفعالية الغاضبة
التي تقذفك بها لمجرد انك تأخرت ثلاثة أو اربعة
اسابيع عن المجيء إلى هذا البيت من بيوت
الدعارة السرية . رأيتها تواصل تقريعها لك، فقاطعتها
بغضب يماثل غضبها ، متسائلا عما جرى
حتى تفعل هذا كله بحثا عنك ؟
وما الذي تبتغيه من ملاحقتك والتشهير بك
بين زملاء المعسكر؟
انطفأت الرغبة الجارفة التي سافتك إلى بيتها
ولم يبق في ذهنك سوى حرقه السؤال عما تريده منك

امرأة ليس بينك وبينها سو دقائق المتعة التي تتبعها لك
مقابل سعر معلوم، فإذا انقضت تلك الدقائق واعطيتها
تلك الدراهم ، انتهى أي التزام لك نحوها، ولم تعد هناك
اية ذريعة تبيح لها ان تطوف المدينة بحثا عنك
كلمتها بكل هذا الوضوح، لتبديد اية أوهام في رأسها
لكن كلامك لم يفعل شيئا الا تأجيج مشاعرها، فاجهشت
بالبكاء وهي ترتمي على صدرك . صبرت عليها قليلا
حتى هدأت ثم دفعتها عنك، وأجلستها على السرير تطلب
منها تفسيرا لما حدث، سحبت من حقيبة يدها منديلا
مضت تجفف به دموعها
ثم عادت ترمي ذراعها حول عنقك ، وتلصق جسمها
بجسمك دون استجابة منك ، قائلة بانها لم تعد تطيق
معاشرة أي رجل غيرك
وانها على مدى اللحظات المتفرقة التي قضتها معك
نما حبها لك حتى ملأ كل اركان القلب، وازدادت حبا لك
بعد ما حدث من تعارف بينك وبين ابنتها ورده، التي
احببتك هي أيضا وتعلقت بك تعلق الطفلة بابيها
ولأنها لم تكن راضية بانتهاج هذا الطريق
أو الحياة في هذا الحي، فقد احست بحبها لك نورا يسطع
في قلبها ، ويبشرها بحياة أكثر طهارة ونقاء
وسمعت هاتقا من السماء، يدعوها لأن تنتقل وتعيش
في كنف الرجل الذي احبته، من أجل ان تكرر كل
حياتها له ولابنتها، وللطفل الذي ستجبه منه، وتتوب
لله توبة نصوحا لا رجعة فيها
وهذا هو ما ارادت ان تخبرك به، فانتظرت مجيئك
أسبوعا بعد أسبوع ، ومع كل يوم يمر كانت تعاني
مزيدا من الكدر والضيق
لأنها كرهت الإقامة
في هذا المكان، وتريد ان ترحل عنه
بأقصى سرعة ، صلبة الرجل

الذي احبته، ولن تحب
احدا سواه ، وهذا ما دفعها للبحث
عك باية وسيلة، لأنها
اعدت لكل شيء عدته فالمكان موجود
والمال الذي تحتاجه حياتكما المشتركة موجود
كان وقع هذا الكلام غريبا على اذنك
لأنه لم يحدث خلال اللقاءات
التي تمت بينكما، وما دار فيها
من احاديث، ان اشرت من قريب
أو بعيد إلى احتمال ان يكون
بينك وبينها أي نوع
من الارتباط ، غير ذاك الذي يتم
في حدود مهنتها كامرأة عامة ، تباع
الأوقات الطيبة للزبناء
فما الذي زرع في رأسها فكرة من هذا النوع، حتى
تأتي تتحدث عن قرار
اتخذته بينها وبين نفسها للارتباط
بك، وتبلغه لك بأسلوب لا يترك لك
مجالا للمناقشة، ولا ينتظر الا ابداء الفرح والسعادة
لأنها اصطفتك من بين كل رجال الدنيا
لتكون الرجل الأول والآخر
في حياتها والاب الثاني في حياة ابنتها
لم تشأ ان تصدمها بالتعبير عن مشاعرك الحقيقية ، التي
تستنكر استنكارا كاملا مثل هذا الارتباط ، وافهامها
انك لا تأتي لممارسة الحب معها الا مرغما تلبية
لضرورة حسية جسمية صرفة
تعلم علم اليقين انها اثم وخطيئة، تصلي
بعدها وتستغفر الله كثيرا راجيا منه
ان يعفو عنك ويعجل بهدايتك. وابلغتها
بدلا من ذلك ، انك لم تكن لتمانع لو لم تكن محكوما بأشد

القواعد العسكرية تزمنا وانغلاقا
وهي للأسف الشديد لا تترك في وقتك وقتا
لهذا الارتباط ، أو تعطيك ترف العيش
بعيدا عن المعسكر
ونظامه الحديدي . وظنا منها ان ما نقوله
مجرد اعداء لخرج الزواج من امرأة
لها ماض كماضيها ، اسرعت قائلة
بان ما تريده منك ليس بالضرورة زواجا
بعقد شرعي، لأنها تعرف ما يمكن ان يثيره
مثل هذا الزواج ، من مشاكل
عائلية لإنسان قادم من اعماق الريف الليبي، فهي
لا يهملها الزواج ، بقدر ما يهملها ان تكون
معك دون غيرك من الناس، وان يضمكما
بيت قائم على الحب
قالت ذلك باعتبارها تقدم حلا سحريا، يعفيك من الاعتذار
عن قبول عرضها، فلم يعد هناك، مقابل هذا التنازل
من جانبها ، مجال لتقديم أية مبررات تمنع من تحقيق
هذا التلاحم الجسدي والتواصل
الروحي المادي والمعنوي
بينك وبينها . انه بلا شك عرض سخي
من امرأة عاشقة، يسعد
بقوله أي فتى يعيش ظروفها
كالتى تعيشها، ولكنك لن تستطيع
إلا أن تكون قاسيا معها ، ومع نفسك ، وترفض
هذا العرض السخى الكريم . لم تكن تريد ان تعتذر
لها بسبب ذهابك المحتمل إلى حرب الحبشة
في اليومين القادمين ، لأنه لو
نجحت المساعي وتحقق لك البقاء في طرابلس ، فلن يحول
حائل دون ظهورها من جديد للمطالبة بتحقيق وعد
الاقتران بها ، إلا أنها ارغمتك على استخدام هذا العذر

لأن درجة الانفعال العالية ، التي عالجتها بها الموضوع ، تحتاج إلى تقديم عذر قوي يتناسب مع قوة اللحظة الدرامية ويفتح في قفل هذا الموضوع قفلاً نهائياً

اذ لم يعد أمامك وانت ترى امرأة تعبر عن عواطفها نحوك بهذا الفيض من الدموع إلا أن تستخدم حديث الحرب والموت والسفر المخيف إلى المجاهل الأفريقية البعيدة كمبرر للفراق ، وهو فراق ستحرص تمام الحرص على ان يبدأ منذ الآن ، وفي التو واللحظة ، لأن امرأة كهذه لا بد ان تحسم معها الأمر حسماً قاطعاً ونهائياً ، والا استمرت في ملاحقتك وتسميم حياتك

جازفت ورميت أمامها بخبر ذهابك القريب إلى الحبشة كسبب قاهر يمنعك من تحقيق حلم الاقتران بها ، ويفرض عليها ان تنساك منذ هذه اللحظة، لأنه لا فائدة من انتظارك راجياً لها التوفيق في العثور على إنسان افضل منك تحبه ويحبها، ويشاركها في بناء عش المستقبل

ظلت المسكينة تبكي وتردد كلمتي " غير معقول " دون ان تفهم انت ما تعنيه بهذه الجملة، فهل هو مجرد تعبير عن الاحساس بالصدمة، ام انها فعلاً لا تصدق ما قلته لها ولا تراه معقولا ، انكفأت بجسمها ورأسها على المخذة تبكي

ووجدتها انت فرصة للانسحاب ، فغادرت البيت مسرعا متظاهرا انك لم تسمع النداءات التي صرخت بها ورائك تريدك ان تعود . كنت فعلاً تريد ان تهرب من هذا الجو المليء بالتوتر ، الذي خلقته لك نورية

رغم انك جننتها مشوقاً للقاءها ، دون ان تعلم بحالة الخيل التي المت بها ستقطع هذه العلاقة القائمة على الجنس التي تجمع بينك وبينها ، حتى لو بقيت في البلاد ، ولن يكون الجنس مشكلة بالنسبة لك عندئذ ، لأن هناك تدابير أخرى يمكنك ان تفكر فيها . انت الآن على مفترق طرق ، فاما

أنك ذاهب للحرب لتبدأ مرحلة جديدة في حياتك، وفصلاً
آخر من فصول عمرك
وأما أنك ستحصل على الاستثناء الذي ترجوه
وعندها يمكن أن تفكر جدياً في الاستقرار
والزواج وتأسيس بيت خاص بك
كما يفعل بقية الناس، ممن وصلوا إلى سنك ولهم دخل ثابت
مثلك ، ولن تكون الفتاة التي تبني بها مشكلة، لأنه
بعد أن ضاعت منك ثريا فكل النساء سواء
كنت عازماً على الذهاب إليها
في الحال ، لتتعم برؤية عينيها
وتوديع والدها ، ولكنك كنت متوتراً ، مهموماً بما فعلته
معك نورية متمنياً أن ينتهي جنونها
عند هذا الحد، فقررت
اختيار وقت آخر غير هذا الوقت، ربما غداً، أو بعد غد
من أجل أن يكون وقتاً رائعاً، يليق
ببهاء وعذوبة امرأة
مثل ثريا، ولعل الأفضل أن تذهب إليها ، بعد أن تتأكد
من مصيرك أولاً، فاما أن تذهب
لتوديعها وتوديع أهلها ، وداع مسافر للحرب
أو تتركها معك في فرحة بقائك بطرابلس
لم تشأ أن تعود مبكراً إلى المعسكر، لأنك تكره
أن تجد نفسك جالساً داخله ، في مواجهة حفنة
من الأوغاد يقاطعونك ويرددون حولك الشائعات
والأفضل ألا تعود إلا بعد أن يكونوا جميعاً
قد غطسوا في نوم مليء بالكوابيس ، إذ ما هي
الأحلام السعيدة التي يمكن أن تزور
إنساناً يسوقونه إلى ساحات الموت والدم والبارود
ستجنب الاحتكاك بهم ، والدخول في صراعات معهم
مادام الفراق بات قريباً، ورفقة الإقامة في عنبر واحد
تقترب من نهايتها ، ستبحث عن أي مكان تقضي فيه هاتين

الساعتين الباقيتين على موعد النوم، ولن يكون صعبا
ان تقضيهما متسكعا في الشوارع
لاحث لك وانت تترك الازقة الضيقة للمدينة القديمة
اقواس سوق المشير وقيابه ، فتذكرت
المقهى الشرقي الذي يقع في قلب
هذا السوق ، والذي احضرت إليه حورية مرة
للمشاركة في حفل عشاء، دون ان تجد
فرصة لتري شكله
من الداخل ، وقد مررت به أكثر
من مرة ، ووقفت أمام بابه
تتفرج على صور المطربين
والموسيقيين الذين يقدمون
البرنامج الفني ، متبها فكرة
الدخول ، لأنه مكان للسائحين
الاجانب والمستوطنين الإيطاليين
الذين يريدون قضاء
ليلة شرقية ولأصحابهم من أهل البلاد
ممن يملكون المال
والمناصب الكبيرة وانت لست
من هؤلاء ولا من أولئك
لا يمكن ان تكتمل صورة سوق المشير
الا بهذا المقهى

فهو السوق العتيق الذي اعادت السلطات الإيطالية بناءه
على طراز شرقي صميم ، واعطته طابعا معماريا يمثل
روح المدينة ، و شخصيتها العربية الصحراوية، وتراثها
الاسلامي ، وتتخصص دكاكينة في عرض وصناعة
المشغولات المحلية ، من اكلمة وسجاجيد وتطريز
على المناديل والمفارش ونقش على الصحاف والاطباق
وتصاوير والوان شعبية تقليدية مرسومة على مشغولات
من سعف النخيل واعواد القصب علاوة على سروج

الخيول والجمتها وما يضاف إليها من زينة وزخارف
وصناعة انواع من الطنافس والحشايا والوسائد ، وانوال
متخصصة في المنسوجات الحريرية لملايس الرجال
والنساء والوان من الحلي والتحف المصنوعة من الفضة
والذهب والعاج وانواع متعددة ومتنوعة من الات
الموسيقى الشعبية بحيث يأتي السائح إلى طرابلس
فلا يجد فقط الجزء الإيطالي الحديث في جهة
والاحياء الشعبية العربية القديمة
بفقرها وبؤسها وخرائبها ، وانما يجد بناء عصريا
يمثل الشرق بالوانه الفاتنة ونكهته المميزة في المعمار
والسلع التقليدية ، نظيفا ، مزوقا، جاهزا لتلبية
احتياجات السائح وارضاء فضوله
ويعكس الدكاكين الكثيرة الموجودة في شارع الملك فيتوريو
ايمانويل وميدان الكاتدرائية، وساحة إيطاليا، التي تقدم خمورها
صحبة الموسيقى الغربية، وتتنج إلى جمهور إيطالي تخاطبه
بمفرداته التي يفهمها ، في فنونه وتراثه الشعبي ، فقد تم
الحرص على انشاء هذا الملهي باجواء شرقية لا يخالطها
أي شيء غربي ويقدم الوانا من فنون الشرق في مجال
الاستعراضات والموسيقى والرقص والغناء غير موجودة
في أي مكان آخر في طرابلس
وتشجيعا لهذا الملهي حرصت الادارة الاستعمارية
على اقامة كثير من المآدب الرسمية فيه
مما دفع الشركة التي تملكه ، لوضع موظف تشريفات
على الباب يرتدي اليزة التقليدية ل سلاح الفرسان
وهي البرنس الأسود المقصب بخيوط الذهب والفضة
صعدت الدرجات الرخامية
القليلة التي تؤدي إلى البهو الجميل
لسوق المشير، المسقوف بقباب تتخللها
دوائر من الزجاج الملون
فاذا بك وسط ردهة تشبه

ردهة قصر من ملوك الشرق
مبلطة بزليج ابيض وأخضر ، ومحاطة
بافريز من الرخام البني
اللامع ، بينما تزينت بعض جدران
البهو بلوحات صغيرة
من الفسيفساء ، المأخوذة
من المدن الاثرية ، والجداريات
التي تحمل التكوينات والزخارف
التي يشتهر بها الفن الاسلامي
المشرقي ، وتتعكس الاضواء القادمة
من مصابيح وثریات الكهرباء المتدلية
من السقف والمبثوثة بكثرة في زوايا البهو
على بياض واخضرار الزليج
والوان الفسيفسا والرخام وزخارف الجداريات
لتمنح المكان جوا حالما ينأى به عن العوالم الفقيرة
العتيقة التي يعلوها الغبار وصدأ السنين التي تحيط به
ولتؤكد هذا الجو الاسطوري الباذخ
توسطت المكان نافورة كبيرة
تحيط بها حلقة من المزهريات المثبتة في الأرض
تطل منها اغصان نباتات مزهرة ، تضيف
جمالا إلى جمال الاقواس الراقصة
من الماء التي تصنعها النافورة
ويصدر عنها صوت كأنه يصدر عن اندياح الموج
في خلجان البحر يكسر حدة صوت
المطارق القادم من بعض
المشاغل ودكاكين الصاغة والحرفيين التي تبقى مفتوحة
خلال الفترة الأولى من الليل ، اما تلك الدكاكين المقفلة
فقد تركت اغلبها واجهات مضيئة
تعرض فنونها وصناعاتها
التقليدية حتى بدا السوق وكأنه معرض مفتوح لهذا النوع

من الفنون . اتجهت قبل أي مكان آخر، إلى احدى النوافير
الصغيرة الاربعة الموجودة في اركان
السوق، التي تؤدي بجوار قيمتها الجمالية
وظيفة عملية لزوار السوق ، ممن يريدون إطفاء عطشهم
من الماء العذب، القادم مباشرة
من بئر بو مليانة، حيث شربت
حتى ارتويت، وشعرت كان وجودك
في هذا المحيط الجميل
وإطفاء ظمئك من هذا الماء الصافي ، قد ازال الكدر الذي كان
بملا صدرك منذ قليل . هاهو مكان
في مدينة طرابلس يمنحك
احساسا بفخر الانتماء إليه ، ويشيع
في نفسك الزهو بشخصية
بلادك اللبينة العربية الاسلامية المشرقية، كما هي مجسدة
في الفنون التي تراها أمامك . انه سؤال الوطن مرة أخرى
ومن زاوية مختلفة
هذا الذي جئت تبحث عن وجهه المخفي خلف سحب
الاحتلال وتلمس رؤيته، غائما سديما، لدى الناس
الذين تعرفهم ، والاماكن التي تألفها، بما في ذلك
حي البغاء، وامرأة من نسائه هي نورية. ها هو وجه
الوطن هنا يشرق متألقا، ويتخذ شكلا
أكثر وضوحا وجمالا، ويتجسد أمامك عبقا ولونا وصوتا
ولعل حرقه الفراق القادم وفجيئته، هي التي ساقتك دون
ان تدري إلى هذا المكان، لثملأ رثيتك من عبير الاسلاف
الذين ابتدعوا هذه الوسائل والادوات، وهذه الطرائق
والاساليب لمعيشتهم
اناس تشعر من خلال اختراعهم لفنون الزخارف
والارابيسك انهم كانوا يملكون فائضا من الوقت
يكرسونه لمثل هذه الفنون التي لا تجلب نفعا عاجلا
ولا تلبي احتياجا معيشيا

ولا تسد ضرورة من ضرورات
حياتهم اليومية، وتحتاج
بجوار الوقت والموهبة والحس الجمالي
للصبر وسعة البال والمزاج الرائق
وكان هناك بالتأكيد ، من الغلال التي تطرحها الأرض
ما يفيض عن حاجة الجميع ، فينصرفون للاهتمام
بأشياء غير تحصيل الرزق
وتدبير الحاجات المعيشية
قبل ان تأتي أوقات أخرى ، يتكاثر
فيها البشر ويزحمون وجه
الأرض ، ويمنحون الأولوية
لما تقرضه دواعي المعيشة
والصراع من أجل البقاء ، لتصبح الأولوية للضرورة
على حساب الحس الجمالي
وتلبية احتياجاته
اطلت الوقوف أمام الحوانيت والجداريات تتأمل
أوجه الجمال فيها، وتستمتع بعبق هذه المآثرات
الشعبية، متوقعا منها ان تشد نفسك بما تحتاجه
من عزيمة، تواجه بها الحدث الجلل
الذي يتهدد حياتك، وقد استقر قرارك
على الدخول إلى هذا الملهى ، الذي اعتبرته
دائما اعلى من مستواك
الا انك عندما سألت على بطاقة الدخول
وجدتها لا تزيد عن خمس فرنكات فدفعتها ودخلت
لم يكن حانة ولم يكن مسرحا ، لم يكن
مطعما ولم يكن مقهى
كما يحمل اسمه المراوغ الملتبس، بل كان
خليطا منها جميعا ، مع قيمة مضافة ، لأنك
لم ترها في أي من تلك الاماكن
ولا تستطيع تحديدها تحديدا دقيقا ، فهي

تشمل جو المكان وشكله ومحتواه
لم يكن جيد الاضاءة ، ولم يكن معتما ، وانما توزيع عادل
للاضاءة والعتمة ، بحيث تربع الضوء في منتصف الصالة
وتراجعت العتمة للزوايا والاركان الكثيرة ذات المستويات
المتعددة ارتفاعا وهبوطا ، لأن هناك
من زبائن المحل من ينشد
هذه العتمة ، كي تعطيه شيئا
من الخصوصية اثناء جلوسه
في صحبة احدى مضيفات الملهى
لم يكن واسعا ولا ضيقا ، لأن اتساعه حاصرته الزوايا
والفواصل والحواجز ، التي تمنح احساسا خادعا
لكل واحد من هؤلاء الزبائن المصاحبين لفنانات المحل
انه قد استقرد وانعزل بالمرأة التي يريدونها
رغم الجو الحافل بالضجيج
والعامر بالساهرين ، وفي ذات الوقت تعطي هذه الزوايا
امتدادات للمكان واحساسا بالاتساع
وهو لم يكن مزدحما ولا فارغا ، فرغم
ان الموائد مشغولة
إلا أن ذلك لا يحول دون ظهور
طاوله شاغرة حال دخول
زبائن جدد . كانت جدران الملهى
مغلقة بالخشب الارابيسك
بزخارفه التقليدية الكثيرة ، تأكيدا
للطابع الشرقي للمحل
وكانت اغلب الكراسي في شكل
دكك خشبية ، ترتفع اشبارا
عن الأرض ، تغطيها الطنافس والحشاي
وكانت الطاولات هي الأخرى توازيها ارتفاعا فبدت قريبة
من شكل الطليبات التي تستخدمها
الأوساط الشعبية للطعام

وتحت دائرة الضوء في المكان
المخصص للعروض الفنية
ظهر العازفون السبعة الذين
يشكلون التخت الشرقي
ويرتدون الزي العربي الليبي ، القميص
والفرملة والسروال
المزخرف والطاقيّة الحمراء التي يتدلى منها البسك
الجميل بخيوطه السوداء
وامرأة ، على جانب من البدانة، تقف
أمام التخت، تغني
وقد ارتدت فستانا يسفر عن كتفيها وجزء من صدرها
والعرق يسيل منحدرًا من نهديه ، فتمسحه
بمنديل تحتفظ به طوال الوقت في يدها ، رغم
المراوح الكبيرة التي تئنّز في سقف
الملهى ، ومروحة السعف الصغيرة الملونة التي تنش بها
على وجهها:
فتنا النخل والديس وتعدينا
لحقنا الندم ياريتنا ولينا
كانت تغني واعضاء التخت يرددون معها مطلع الاغنية
وكان العرق الذي فشلت مراوح الحديد ومروحة السعف
في ازالته ، يؤدي وظيفة جمالية ، لأنه يعطي صدرها لمعاناً
ودسامة ويجعله أكثر فتنة واغراء
عرفت عندما سألت احد الجرسونات
انها مطربة الاعراس
الذائعة الصيت مسعودة الراحلي ، اشهر
المطربات الليبيات
القادمات من حارة اليهود :

صب العسل يا بير بو مليانة
طفلة صغيرة قاعدة بحدانا

اغنيات من البيئة المحلية مغموسة في شجن الأيام
الحوالي ، اخذت مقعدا محاذيا للبار ، وليس بعيدا
عن التخت وجلست ترتشف كأسا من الكازوزة الباردة
و تستمع للغناء و ترقب هذا الخليط من الاجناس
إيطاليين وليبيين ويهود ومالطيين، وعدد قليل
من السياح الذين يضعون على رؤسهم الطواقي
المزركشة والطرابيش الحمراء التي يبيعها كشك
أمام الملهى ، يصنعون ضجيجا دوليا لتعدد الالسنه
التي يتكلمون بها ، ويرددون أحيانا مقاطع الغناء
مع المطربة، بشكل ممسوخ ، لأنهم
لا يفهمون من كلماتها شيئا ، ومع ذلك فهم
مستمعون بما يسمعون ، ويخلقون جوا فرائحيا
احتفاليا يؤكد معنى اللهو واللعب الذي من أجله
كان هذا الملهى . اكتشفت وجود عازف من بين اعضاء
التخت تعرفه ، وتعاملت معه اثناء خدمتك في دكان
الحاج المهدي، حيث كان يبيع الخيوط الملونة
التي تصلح لتطريز الاحذية ، في حانوت
تاجر إيطالي ، فافرك هذا الاكتشاف ، لأنه
جعلك تشعر بانك أكثر الفة مع هذا المكان
واعترضت ذاكرتك تبحث
عن اسمه حتى وجدته : نعمان
نعم ، نعم ، فانت الآن ، بوجود صديقك الذي يعزف
العود لم تعد غريبا في هذا المجتمع الغريب داخل الملهى
الذي لا يشبه من قريب أو بعيد صورة المجتمع الكبير
في مدينة طرابلس ، فهي مدينة لا تبيح مثل هذا الاندماج
بين الناس الذي تراه متحققا في المقهى الشرقي
طرابلس مدينة مقسومة نصفين ، وكل نصف
مقسوم هو الآخر نصفين ، ولعل الأنصاف الاخرى
مقسومة هي الأخرى في متتالية من الانصاف

تبدأ ولا تنتهي ، نصف المجتمع
الذي لا اجتماع فيه ، نساء
محبوسات بين جدران البيوت ، ورجال
محرومون من الحياة
الطبيعية ، سجناء هم أيضاً داخل جدران الكبت
والحرمان ، وهناك قبل هذا التقسيم ، نصف متهالك
قديم ، فقير ، يختفي داخل الازقة والزوارب
الضيقة الموحلة ، هو النصف الليبي
الذي يعيش في المدينة القديمة ، مع ضيوفه من بعض
الجاليات الأجنبية العتيقة، من يهود ومالطيين
ويونانيين وارمن وشركس يفصل
بينهم أكثر من فاصل
ونصف آخر حديث يملك الواجبات
المضيئة، والشوارع الكبيرة الواسعة ، والملابس
العصرية، هو النصف الإيطالي
ويضم هو الآخر اقلية اجنبية تلونت بالوانه وانتمت
إلى سياساته ، واختارت ان تكون جزءا من مؤسساته
وادارته ، ودخل القسم الليبي
يلتقي الناس عند خط الفقر
بينهم من هو اقل فقرا، وبينهم من هو أكثر فقرا
و يلتقي عند خط اليسر والثراء الإيطاليون
بينهم من هو فوق هذا الخط ، جالسا فوق جبال
السلطة والثروة والجاه والنفوذ ، وبينهم من يقعى في دور
الخادم تحت اقدام اسياده وينعم معهم
بالعيش الرغد والحياة الهائلة
وبين كل هذه الفئات ، هناك انواع
من الحواجز النفسية
والاجتماعية والاقتصادية والثقافية
وأحيانا الدينية ، التي
تتولد عنها الكراهية والتعصب والحقد الاجتماعي

أو الحقد التاريخي كما يسمى
بعض الليبيين موقفهم من المحتلين الطليان ، الا هنا
في هذا المكان الذي يمثل جزيرة معزولة عن محيطها
مشغولة بضجيجها الخاص الذي يفصلها
عن ضجيج العالم الخارجي
وقوانينه وتقسيماته ، حيث
اندمجت كل الطبقات والطوائف والاجناس
والاديان في عجينة واحدة لا تنتمي الا لاجواء الحظ
والطرب والمزاج . حان وقت استراحة التخت
فرايت ان ترسل تحية لنعمان ، ملوفا
له بيدك ، وما أن رأيك
حتى انتقل من مكانه وجاء مسرعا للترحيب بك
وكأسه ما زال في يده ، يسألك بلهفة
عن احوالك لأنه لا يعرف عنك شيئا، سوى ان الجنود
الإيطاليين اخذك عنوة من دكان النعال ، والحقوك
بالتجنيد، وانه هو نفسه لم يسلم من المداهمة، إلا أن
عمله الليلي بالمقهى الشرقي انقذه من هذا المصير ، اذ حصل
له الملهى على تأجيل يتجدد كل بضعة اشهر، ولم تر
موجبا لاختباره بتفاصيل ما حدث لك، بعد تلك
المداهمة، واكتفيت بان قلت له انك تلقيت تدريبا
على قيادة السيارات، وانت الآن مكلف بالعمل
سائقا لاحدى السيارات العسكرية، وهو ما اتاح لك
حرية الخروج والدخول
إلى المعسكر دون التزام بالمواعيد
وأخيرته بانه لو عرفت بأمر الاعفاء الذين يعطونه
للموسيقيين لسعيت منذ زمن ، لاتقان مهنة العزف
ولو على الرق أو الطبله
ولكن للأسف ، فات الأوان ووقع الفاس في الرأس
اشار للنادل ان يحضر لك كاس نبيذ
من نفس النوع الذي يشربه ، فاعتذرت

لأنك لا تشرب الخمر، إلا أن النادل
كان قد أسرع باحضار الطلب ، قبل ان يتمكن
من سماع اعتذارك ، اردت ان تتأسف فمنعك
عازف العود من ذلك

— لا تتأسف لمجيء هذا الخير، ساشربه انا مادامت تريد
ان تحرم نفسك منه ، وساشرب كاسا ثالثا ورابعا فالنشوة
شيء عزيز المنال ، لا يتحقق الا بالاصرار والمثابرة .
ثم اردف بعد ان فرغ من تجرع أول كأس :

— هذه امور ستعرفها قريبا باذن الله لأن الدخول إلى هذا المكان
ليس الا محطة أولى على طريق طويل حافل بالمحطات.

— وماهي المحطة الثانية ؟

— في حالتك انت ستكون الاستسلام لغواية الكاس . وهي محطة
اتوقع ان تصلها قريبا ان شاء الله .

— ثم ماذا ؟

— هناك مراتب كثيرة في السمو والعلو لا يبلغ مراتبها العليا الا
من صفت روحه وصاردهنه شفافا مثل هذا الكأس .

— وفي أي مرتبة انت؟

— مازلت في مرتبة قريبة من الأرض ، احب
ان اسميها مرتبة الموسيقى اما المراتب
العليا فخذ هذا المثال .

واشار بيده إلى ركن من اركان الملهى ، فادرت
رأسك إلى حيث اشار، ورأيت مقصورة
لطاولة يجلس عليها رجل عربي
يرتدي الطربوش ، صحبة امرأة
شقراء، أمامها اكواب الشراب
واطباق الميزة التي ترافق شرب الكحول
تضيء وجه الرجل شمعة انتصبت فوق الطاولة
وانعكس نورها على ملامحه، فبدا
مرهفا، رقيق الملامح
على مشارف الستين من عمره

واختفت ملامح المرأة
خلف كراديس شعرها الكستائي الغزير
التي تهدلت فوق كتفيها واحاطت بنصف
جسمها الاعلى وتناثرت اجزاء
من هذا الشعر أمام وجهها حتى لا يكاد يبين
واصل نعمان حديثه :

— انه ينتمي لاحدى اغنى عائلات طرابلس ورث
املاكا كثيرة وتفرغ للكأس والنساء منذ ان كان
صبيا ، وترك كل شيء آخر في الحياة ، لا عمل
في النهار ، لأنه يسهر طوال الليل ، وينام
فلا يصحو الا مع وقت السهرة ، لا زوجة ، ولا
ولد ، ولا مشاكل ولا هموم ، لأنه اذا احتاج
لمزيد من المال ، باع قطعة أرض من املاكه
وواصل حياة الترف التي يعيشها . تراه هنا كل
ليلة ، أول من يأتي وآخر من يغادر المكان .
— حق لرجل مثله ان يترحم كل دقيقة على اسلافه الموتى .
— وحق لنا ان نحبي عمق وقوة ادراكه للعبة الوجود ، لأن
هناك من ورث مالا اشقاه واتعبه . انظر إلى تلك الشمعة
التي أمامه ستجد ملاصقا لها كومة من الليرات الذهبية
يوازي ارتفاعها ارتفاع الشمعة ، اتدري لماذا؟
— افدني أرجوك .
— لأن الوقت صعبة هذه المرأة يقاس باستهلاك الشمعة
وثن الجلسة التي تدوم إلى حين احتراق الشمعة
هو كومة ليرات الذهب التي توازيها ارتفاعا ، وينقص
الثمن أو يزيد حسب المقدار الذي يستهلك من هذه الشموع .

كان الثمن بكل المقاييس باهظا باهظا
خاصة اذا احتاج الرجل إلى استهلاك شمعة ثانية
في نفس الليلة وأحيانا ثلاثة يضيء بها بيته
عقب انتهاء جلسة الملهي

وانتقاله مع المرأة إلى البيت ، كما أخبرك نعمان .
وهو يعتبر ان هذا الرجل الذي تحولت حياته إلى صلاة خالصة
لرب المتعة واللهو والعبث ، قد بلغ شأوا عاليا في هذه المدارج التي
يتمنى هو نفسه الوصول إليها ذات يوم
وكان السؤال الذي لا سؤال يخطر على البال غيره هو :
— من هي هذه المرأة، التي يستحق الجلوس معها، كل هذا المال ؟
— هذه هي استير نجمة طرابلس في عالم الحب والجمال و"عروس العروس " كما يسميها
محرر النشرة الإعلانية لمعرض طرابلس
التجاري ، فطرابلس كما يقول، هي عروس البحر الابيض المتوسط
واستير هي عروس طرابلس . لم تشرق في سماء المدينة الا منذ
عام مضى عندما نجحت في ان تكون احدى فتيات الاعلان
في المعرض التجاري وكان أول من تلقفها مولانا امير البلاد نفسه
سألته هامسا :
— هل تعني المارشال باليو؟
— وهل هناك امير للبلاد غيره ؟ انها آخر عشيقاته ، أطلق عليها
الملكة استير ، حتى صار هذا الاسم ملتصقا بها اينما
ذهبت، بل هي نفسها لا ترد على احد لا يخاطبها بلقب الملكة
— تقصد ان تقول انه
وبطريقته التهريجية قال مقاطعا:
— طبعا قصد ان اقول كل ما في بالك، وما لاتستطيع ان تقوله
الا في الخفاء، وما تتمنى ان تقوله ولا تستطيع .
— انن فله عشيقات كثيرات.
— لعله يريد تقليد امراء العرب القدامى الذين يحتفظون بعدد
من الجواري يوازي أيام العام ، لأن له في كل مكان بتردد
عليه واحدة مثل جزيرة فروة، ومرزق ، وغدامس ، ويفرن
وغريان ، وبنغازي ، ودرنه ، اما طرابلس وباعتبارها
عاصمة ملكه، فله أكثر من عشيقة من مختلف الاجناس
لكي يكون عادلا في معاملة رعاياه فهناك حورية الليبية
واستير اليهودية وثلاثة مالطية ورابعة يونانية أو ارمنية
لست ادري .

وعدت لمراقبة الرجل الذي يشتري

الدقائق بالفرنكات الذهبية

ويقيسها بذوب الشمعة المحترقة

والمرأة ذات الشعر الكستائي الكفيف

علك ترى مبلغ جمالها ، فلم تقز

برؤية شيء من ملامحها الملكية

— هل انت واثق انها عشيقه الحاكم نفسه ؟

— وهل تظن ان صاحبنا الليبي هذا يدفع كل هذا المال لولا

احساسه بانه ينافس اكبر شخص في البلاد ويضع رأسه

برأسه مرشال الجو نفسه ؟ بل ان عمله هذا لا يخلو من

دافع وطني لأنه استطاع بما له من اموال ان يشارك

الحاكم الإيطالي في حریمه .

— رجل من ظهر رجل ، ولكن كيف يمكن لعظيم ان يترك عشيقته

ترافق رجالا آخرين؟

— من هذه الناحية اطمئن فالمارشال أكثر تسامحا من امراء

الدولة العربية، ولا يلقي بالا لمثل هذا السلوك من عشيقاته

اطلاقاً، فهو لا يضيره ان تذهب هذه العشيقة التي لا يراها

الامرات قليلة في العام، للقاء رجل له من الثراء ما يكفيه

عناء الصرف عليها .

في حلقك اسئلة كثيرة، كنت ستستأنس

برأي صاحبك حولها

إلا أن نداء الواجب اخذه منك ، فقد حانت

حصة جديدة للطرب لابد ان يسهم في تنشيطها

بعزفه على العود، ومطرب صغير السن اسمه

محمد سليم جاء يقدم اغنية مرحلة استجاب

لها الجمهور بالتصفيق والضجيج:

هلت ليالي ليالي الفرح

آه اللى احنا فيه

ولكي يكون الفرح الذي يتغنى به المطرب فرحا حقيقيا
بالكلام والفعل أيضاً ، فقد خرجت راقصة لها شكل فرائشة
ترتدي رداء ملونا من قماش شفاف، يكشف
من مناطق الفتنة في الجسم أكثر مما يستر، و يصنع
لها اجنحة ترفرف بها
وتطير بين الطاولات تجامل الزبائن
وتتلقى منهم النقود
في شكل أوراق مالية يرشقونها في صدرها
خرجت من المقهى الشرقي دائخا مما رأيت
وقبل ان تخرج القيت نظرة
على الملكة استير ، فلم تفز
بغير صورة جانبية منحك انطبعا
بانها تعتمد في اظهار
جمالها على التبرح والتزيق والمبالغة في المكياج
بعكس حورية التي تشع بجمال طبيعي أسر
اذن فحورية ليست الا واحدة
من هؤلاء العشيقات الكثيرات
اللاتي يحتفظ بهن السيد بالبو
جاهزات كالاطعمة المعلبة
لتلبية شهواته وصبواته، ويعاملهن
باعتبارهن نساء وضيعات يسمح لهن
بمعاشرة رجال آخرين، شرط ان يكون
الدفع بالليرات الذهبية
لم يكن ممكنا ان تتصور حورية
في هذا الدور المهين
فلقد اعتبرتها دائما شيئا خاصا، مصونا، وكريما، اختار
الرجل صحبتها دون كل نساء الدنيا
لأن بها شيئا يميزها
عنهن جميعا ولكن الأمر يختلف الآن
انها بالتأكيد تعرف

بامر هؤلاء العشيقات لأن موضوعا كهذا، بهما أكثر
من أي إنسان آخر في الدنيا
ولأن بالبو نفسه، يتباهى بعلاقته النسائية
ولا يحاول اخفاءها ، وما كان ليطلق لقب
الملكة استير على عشيقته اليهودية
إذا لم يكن من باب المباهاة
والتشبه بامير كان يحتل قلعة طرابلس قبله
وله محظية بذات الاسم اسموها الملكة استير
لنفوذها وسيطرتها على مقدرات الحكم
احسست كأن تلك الهالة من الاحترام
والمهابة التي رأيت
فيها حورية ، قد صارت تتلاشى
وتتبخر فهي انن ليست
الا امرأة تستسلم في خنوع لحياتها
الذليلة، وتضع على وجهها قناع السعادة
كنوع من خداع الذات، رغم انها بائسة
مسكينة ، يكفي انك شخصا لم تر هذا الرجل يزورها
الا مرة يتيمة قبل شهر من التحاقك بالعمل معها، مما يؤكد
صحة الكلام الذي قاله نعمان عن عشيقاته
الكثيرات اللاتي لا يستطيع ان يلتقي بالواحدة منهن
الا مرات قليلة كل عام، ولكن ماذا عن حقيقة انه يترك
لعشيقاته حرية ان يصاحبن رجالا
آخرين، هل هذا ينطبق
على كل عشيقاته بمن فيهن حورية، ام انه
امر خاص بالملكة استير فقط
التي رأى، عندما ارهقته بطلب المال، ان يضع
في طريقها رجلا غنيا وغيبا، يصرف عليها امواله بهذا
السفه. انها رخصة لا يمكن الا لرجل مستهتر بكل شيء
متحلل من كل القيم ، مثل الببو ان يعطيها لنسائه
فهل استفادت حورية من هذه الرخصة؟

انك لم تر شيئا كهذا خلال مدة وجودك
سائقا معها، ولكن هذا لا يصلح دليلا
لاي شيء ، فانت تعرف اشياء
وتغيب عنك اشياء
كان شيئا مثيرا وغريبا، ان تظهر أمامك حورية ذلك
الصباح مرتدية فوطة الحمام، يتقاطر الماء من شعر
رأسها، ويشع عري كتنقيها وذراعيها
وساقها بكل معاني
الفتنة والغواية ، فهل كان لذلك المشهد
صلة بالرخصة التي
يمنحها بالبو لنسائه؟
ام انه امر عفوي حدث دون قصد أو تعمداً ، واذا كانت
استير اليهودية قد استخدمت رخصتها في جلب اكبر كمية
من الذهب فما الذي تستفيدة حورية من رجل مثلك ؟
أو ماذا يمكن ان تقول لباليو اذا عرف
انها تستخدم رخصته
مع مجند جاء يعمل سائقا مؤقتا لها؟
كنت مندهشا وانت تضبط نفسك مشغولا
بهذا الموضوع ، وانت الذي تهدد حياتك ومستقبلك
محنة السفر إلى حرب الحبشة بعد لمحة عين
تملأ قلبك مشاعر الحنق والضيق من أجل علاقات
وسلوكميات لا تسبب حرجا ولا كدرا لاصحابها انفسهم
الذين ينتظمون جميعا كالليرات الذهبية في عقد واحد
يشع ويتألق بمعاني الحب والمال والجمال والسلطة
بدءا من الباليو إلى عشيقاته وعشاق عشيقاته
فما الذي يهمك في موضوع لا يتصل بك من بعيد
أو قريب ، ولا يؤثر باي شكل
من الاشكال على مجريات
حياتك المرشحة لأن تنتهي
علاقتها قريبا بهذه المدينة

وقد تلّقي بنهاية مشوارها
في الادغال الافريقية
ربما يكون الهدف من هذا الانشغال المرضي بهموم
موهومة لبشر آخرين ، هو الهروب من هموم حقيقية
أكثر قربا والحاحا ، واشد ثقلا على العقل والقلب
تتصل بالمصير الذي ينتظر
انها هموم تحاول ان تهرب منها ، وتظن انك نجحت
في ذلك ، الا ان الأمر مرهون بشيء واحد ، هو عودتك
الى العنبر ، لأنك ما أن تضع رأسك على الوسادة
حتى تأتي هذه الهموم وتتشب مخالبها كالطيور
الجارحة في جوفك وتملأ ليلك سهدا وقلقا
نمت نوما متقطعا ، وبمجرد ان طلع الصباح ، انطلقت
مسرعا إلى بيت حورية ، آملا ان تسمع جديدا
في موضوع اغفائك من الذهاب إلى الحرب
حتى لو كان هذا الجديد هو وصول استقالة
عياد الفزاني ، التي ستضع بين يدي حورية سببا
قويا للمطالبة بابقائك في خدمتها ، اما الحزب الفاشي
فقد جاء ذهابك إليه متأخرا
بحيث لم يعد يجدي كثيرا
ان تأتي الموافقة أو لا تأتي
فالسفن التي ستقل
الجنود إلى الحبشة راسية الآن
في الميناء لتأخذ عبوعتها بعد غد ، ولم يبق
من الوقت ما يتيح لك الاستمتاع
بالمزايا ، او حتى ارتداء القميص
الأسود ، والذهاب متنقلا بين المكاتب
والمسؤولين في اروقة الحزب ، بحثا
عن يتوسط لك بالبقاء في طرابلس
ما أن وصلت إلى جارج العمارة ، ودخلت حيث
تركزت السيارة حتى فوجئت بمكانها خاليا ، صرخت

في فرع تتادي العساس الذي كان يشرب شاي
الصباح داخل غرفته، وتسألته وانت تركض
نحوه ، عما حدث للسيارة ، فم يظهر عليه أي قلق
وبمنتهى الهدوء مد لك يده بكوب الشاي، قائلا لك بالا
تنزعج لأن السيارة في الحفظ والصون
وان كل ما حدث هو ان سائقها
الاصلي عياد الفزاني جاء مبكرا ليتسلم
مفاتيحها، ووجد انها بحاجة إلى تغيير
الزيوت وتعبئة الوقود فأخذها للورشة الحكومية
للقيام بذلك ، وقفت ذاهلا تتسائل
عما جاء بهذا الرجل في مثل هذا التوقيت ليفسد
كل شيء . ابن ترى موقع الخطأ في الخطة التي رسمتها
بهدف اراحته من طريقك ؟
هل هي غلطة عبدالمولى الشحاذ وسوء نقله للرسالة؟
ام هو خطأ الرجل الذي حمل إليه الرسالة؟
ام ان عياد الفزاني تلقى الرسالة ، ولم يفزعه
حديث الحرب ، ورأى فيها ما يراه مختار العساس
من فرصة للثراء السريع ، فجاء
متحمسا للانضمام إلى صفوف المحاربين؟
ويكون السحر قد انقلب على الساحر
وما ظننته سببا لابعاده ، يصبح هو السبب للتعجيل
بحضوره ، عموما فان كل هذه التخمينات والتكهنات
لا تفيد الآن شيئا ولن تجعل الرجل ينتني
عائدا إلى براري مرزق . لقد وقع المحذور، وعاد
السائق الاصلي لاستلام عمله والجلوس أمام
مقود سيارته، وانتهى الدور
المؤقت الصغير الذي بنيت عليه امالا كبيرا
انتهى كما تنتهي دقيقة الحلم التي تأخذ صاحبها إلى عوالم
الوهم والخيال، قبل ان تعيده لحظة اليقظة إلى عالم الواقع
وأرضه الخالية من الأوهام

كنت ماتزال واقفا وسط الجاراج ، متحسرا ، متأسفا لما
آلت إليه تدابيرك ، لا تدري ما ذا ستكون الخطوة القادمة
عندما جاء عياد الفزاني يقود السيارة مسرعا ، ويدخل
بها سقيفة الجاراج مندفعاً كالقذيفة ، حتى كاد يأخذك
في طريقه تحت عجلاتها لولا ان قفزت متقاديا
السقوط تحتها . بدا مسلكه غريبا
وهو يقود السيارة بهذا التهور الذي لا يتفق
مع طبيعته الهادئة ، ولا سنوات عمره التي تطاول
الخمسين ، وبعد ان أوقفها وفتح الباب بسرعة ، هابطا
على طريقة جنود المهمات السريعة
ايقنت ان الرجل يهدف إلى استعراض مهاراته
ليثبت لك انه أكثر منك جدارة بهذا العمل ، وهو امر
لا يستحق اثباتا لأنك تعرف افضل من غيرك انه الافضل
ولذلك تقدمت منه مرحبا ، تهنئة بسلامة العودة إلى عمله
فاذا به يهمل ترحيبك وسلامك ويترك يدك ممدودة مبسطة
ويرفع صوته في وجهك صائحا بأقذع عبارات السباب
ثم لا يكتفي بذلك بل يستغل حالة الذهول والمفاجأة
التي اصابتك ، فيدفعك في صدرك
حتى تسقط أرضا ويرتمي فوقك يكيل لك
اللكمات والضربات ، وقبل ان تتمكن
من الرد عليه ، أتى مختار العساس
ليرفع الرجل ويبعده عنك
ثم يعينك على الوقوف ، وتنقية بذلتك من الأوحال
التي علق بها وانت ما تزال ذاهلا ، لا تعرف
السبب الذي احال هذا الفزاني الطيب
إلى كتلة من العنف والشراسة والغل ، وردا
على مختار العساس الذي كان يسأل
الرجل عن سبب هذا الهجوم ، تحدث الفزاني
وهو مازال هائجا ثائرا ، عن كيف ارسلت
إليه رسالة كاذبة تحذره فيها من المجيء

إلى طرابلس، وتدفعه للاستقالة
من العمل لأن هناك قرارا عسكريا اصدره
الحاكم العام، يقضي بذهاب كل السائقين العاملين
مع الحكومة إلى الحبشة
للمشاركة في الحرب وصدق هو هذه الرسالة، وحرر
استقالة اعطاها لاحد القادمين إلى طرابلس ، وتصادف
ان جاء المارشال بالبو بالطائرة إلى مرزق
في نفس اليوم ، واحتشد أهل البلاد لاستقباله وتقديم
واجب الضيافة له ، وكان هو ممن شاركوا في حمل
اطباق التمورواباريق اللين التي يستقبل بها أهل البلدة
ضيوفهم ولأن المارشال يعرفه سائقا في بيت حورية
فسأله عندما رآه ، عما يفعل في مرزق، فأخبره
بانها بلدته التي جاء لقضاء اجازته بها ، إلا أن الاجازة
تحولت لطلب اعفاء من العمل، لأنه لا يستطيع وهو
في هذه المرحلة المتقدمة من العمر
ان يذهب للحرب في بر الأحباش ، وضحك بالبو
متسائلا عن يكون صاحب هذه الدعابة الماكرة ، لأنه
لا وجود لاي قرار يقضي بسفر السائقين الحكوميين
إلى الحرب، عندها فقط ادرك الفراني انه ضحية خدعة
دنيئة للاستيلاء على وظيفته ، فعاد مسرعا قبل انتهاء
الاجازة ، وقبل وصول الاستقالة إلى مكاتب الحكومة
واتخاذ اجراء فيها يصعب نقضه، ليستعيد وظيفته
التي كاد يفقدها بسبب الكذب والخديعة
وعاودته حالة الهياج والجنون فاخذ مفتاحا كبيرا
يستخدم في فك دواليب السيارة ، وجاء مستأنفا الهجوم
عليك ، إلا أن مختار العساس حال بينه وبين الوصول
إليك ، يسأله ان يلعن الشيطان ويسألك انت ان تبتعد
عن طريقه وتغادر المكان لوضع لحظات
حتى تنتهي حالة الغضب التي تتنابه
لم تكن تجد في نفسك ادنى قوة للرد عليه

أو ادنى رغبة في دخول معركة معه ، ربما لأنك تدرك
حقيقة الخدعة التي دبرتها له
وانه صادق في كل ما قاله ، عدا شيئاً واحداً ، لم يفهمه
حق فهمه عندما ظنك تريد الاستيلاء على وظيفته، بينما
كان هدفك النجاة من الحرب بآية وسيلة، وشيئاً ثانياً
لم تفهمه انت وهو كيف عرف انك انت من ارسل له
الرسالة الا اذا كان مجرد تكهن لأنك المستفيد
من هذه الخدعة أو لأن عبد المولى لم يحرص كثيراً
على اخفاء صاحب الرسالة
بينما تذكر انك حذرته من ان يذكر اسمك مقروناً
بهذه الرسالة . المهم ان عياد الفزاني عرف بما حدث
وانه هنا يباشر العمل الذي
كنت تقوم به نيابة عنه ، وان جهودك كلها وصلت
إلى طريق مسدود، ما كان منها متفقاً مع الأصول
وما كان مخالفاً لها
واضحى الذهاب إلى الحرب مصيراً محتوماً
لا سبيل إلى رده ولا مجال للهروب منه، فيا شماتة
الشوايش عنتر فيك
تركنت الموقف المتفجر داخل الجاراج وخرجت
إلى الشارع بضجيج وحركته
ونوره وهوائه، والفضاءات
المفتوحة التي تجاوره، والسماء
الزرقاء التي تعلوه، باحثاً
عن سبيل لاجراج ابخرة الضيق التي تملأ صدرك
انهم في المعسكر يجمعون المجندين ، ويزودونهم
بالمعلومات التي تههم عن رحلة الحيشة، بدءاً
بنظام الحياة في السفينة التي سيقضون
بها أسبوعين قبل الوصول إلى هناك، وعن الطرق التي
سيسلكونها بحراً وبراً فيما بعد، وظروف البيئة والمناخ
التي سيعيشون تحتها، مع تعليمهم

قدرا بسيطا من المفردات
والجمل الدارجة بين الناس باللغة
الامهرية ، تفيدهم عند وصولهم ، ومعنى
ان يفوتك كل ذلك ، بعد ان صار ذهابك
معهم يتأكد لحظة بعد أخرى، هو انك ستبقى متخلفا
في معلوماتك عن بقية المجندين ، عاجزا عن التعامل
مع الحالات المستجدة عند محطة الوصول، بالسرعة
والكفاءة التي يحتاجها الموقف ، كما تدرب عليها
البقية ، وهو امره تراه معييا لمن كان مثلك متقدما
على أبناء دفعته
كنت لا تزال حائرا لا تدري كيف ستواجه الموقف
الجديد الذي نتج عن عودة عياد الفزاني إلى عمله
عندما رأيت جورجى العجوز المالطي الذي يقوم
بتوزيع البريد قادما نحوك وشنطة الرسائل معلقة
في كتفه، وقلم الرصاص الكوبيا
فوق اذنه، وأكثر من طرد وجواب بين يديه ، ينظر
لواجهة العمارة ليتأكد من الرقم، ويسألك
ان كنت تعرف عثمان الشيخ فهو وان كان
قد التقى بك في هذا المكان أكثر من مرة ، وسلمك
رسائل ومجلات تأتي بالبريد إلى حورية ، إلا أنه
لا يعرف اسمك . ترددت قبل ان تقصص عن هويتك ، تحزرا
وتحوطا مما يأتي به عالم المجهول ، وتذكرت
انك اعطيت هذا العنوان لموظف الحزب
الفاشي ، وخمنت ان الرسالة لن تكون من احد
غيره ، فمددت يدك تتسلم منه الرسالة ، بعد ان قلت له
انك انت المعني ووضعت
توقيعك في السجل الذي اخرجه من داخل الشنطة
وقبل ان يمضي سألته ان يعينك على قراءة الخطاب
لأن حصيلتك من اللغة الإيطالية لا تسعفك لقراءة
كل ما فيه ولدهشتك البالغة وجدت ان جزءا من الخطاب

كان مكتوبا باللغة العربية ، فهم يهنتونك
بقبولك عضوا في الحزب الفاشي ، فرع
الشبيبة الليبية ، وبلغونك
بان اتمام مراسم القبول ، تقتضي ان تأتي إلى مقر
الحزب في الوقت الذي يناسبك خلال ساعات الدوام
لاداء القسم باللغتين الإيطالية
والعربية ، وكانت صيغته كالآتي :
" اقسم بالله وبإيطاليا الام ، ان انفذ بتقان واخلص أوامر
الزعيم موسيليني ، وان ادافع عن إيطاليا ، وعن مبادئ
الدولة الفاشية بروحي ودمي ، وعاشت إيطاليا وعاش الدوتشي "

تركك العجوز المالطي بعد ان قرأ لك ديباجة الرسالة
وهو يضحك في كفه ، لأنه احس
بما تعانيه من حرج، للورطة
التي وضعت نفسك فيها ، خاصة
لوجود هذا القسم الغريب
الذي لا يأتي على ذكر ليبيا من قريب
أو بعيد، رغم ان فر ع
الشبيبة الليبية هو الذي يطالبك بترديد هذا القسم
ثم تذكرت ان ورود اسم ليبيا في القسم ، لن يكون
منسجما مع منطق الاشياء
لأن المصالح بين ليبيا وبين إيطاليا قد تتعارض ، كما
حدث في زمن المقاومة الشعبية، فإلى أي جانب يقف
عضو الحزب الفاشي ؟
انه حتما سيقف إلى جانب إيطاليا الفاشية وحزبها وزعيمها
ضد اية مقاومة أو جهاد . هاهو الحزب الذي ظننته قطعة
خشب تقفز فوقها لتتجيك من الغرق في مستعقات القتل
والحرب ، لا يكشف الا عن مزيد من الأوحال والأوساخ
مقابل لا شيء ، لأن العون الذي رجوت ان يأتيك
من وراء عضوية الحزب ، في الحصول على اعفاء

أو استثناء من الحرب لم يعد هناك ما يكفي من الوقت
لتحقيقه ، ووسط هذا الاحساس بالهوان
أشرقت في ذهنك فكرة ، تنجيك من وطأة هذه المعاناة
وتتأى بك عن هذه العوالم الفاسدة ، القائمة ، الكاتمة
على القلب ، هي فكرة الهروب إلى الصحراء
أنك لن تكون أول ولا آخر اللاجئين إليها
فيها بدأت ومنها انطلقت وإليها تعود
ستذهب إلى اعماق اعماقها ، حيث لن يستطيع احد
من هؤلاء الإيطاليين واعوانهم ان يهتدي إلى وجودك
فيها ، بل لن يفكر احد منهم في ملاحقتك، عبر تلك
المتاهات الصحراوية لأنهم يعرفون ان الصحراء
أكبر منهم ، وانها ستحارز إليك
ضدهم ، ستحميك باذن الله منهم ، وتهلكهم جميعا
إذا حاولوا الاقتراب منك وانت في حمايتها
ستجد مع الغزلان والوعول والظباء
وبقر الوحش ، اغناما كنت ترعاها صغيرا
ما تزال في انتظارك ، ستكون ونسا لك
وستحصل من خلالها على رزق كريم يكفي حاجتك
ويغنيك عن كل هذه المغامم المغموسة في مياه السباح
لم يبق لك الا هذا الحل بعد ان تكسرت الاجنحة
التي حملتك قليلا فوق أرض الواقع
وتقوض البناء الذي ظننته سيحميك من غوائل
الدهر ، ولم يعد لك أي امل في الحصول على شيء
يرضي توقك للتفوق والنجاح ، أو يوازي ما قدمته لعالم
الإيطاليين من تضحيات
فلماذا الاستمرار في طريق التضحية بلا ثمن ؟
ومن أجل ماذا تفعل ذلك؟
طالما أن مصيرك يتساوى مع مصير أي إنسان آخر
لم يقدم لهم تنازلات، ولم ير منه الإيطاليون
الا الحقد والاحتقار

عد إلى صحرائك حيث لن تسمع
في تلك الفضاءات والفراغات
التي لا يحدها حد ، ذكرى لطلبان ولا حبشان ولا حكام ولا
مارشالات ولا محظيات ولا عاهرات ، ولن يسري عليك
أي قانون الا قانون الصحراء
التي تمنح قاطنيتها حرية القلب والضمير
فوق حرية الحركة والانطلاق ، حيث
الإنسان هناك سيد نفسه ، والمالك لارادته ، لا روابط
تربطه الا بشساعة السماء وزرقة الأفق ، ومشاهد
الشروق والغروب واضواء النجوم ليلا ، متصالحا
مع نفسه، لأنه لا وجود
لشيء يكدر هذا التصالح
منصتا للصوت القادم من داخله ، لأنه لا وجود لاصوات
ناهرة ، زاجرة ، تأتي من خارجه ، متوصلا مع خالقه
لأنه لا وجود لحجب وحواجز تعرقل نقاء وصفاء
وجمال هذا التواصل
إلا أنك لا تدري ان كنت تملك من الشجاعة وقوة
العزيمة ، ما يؤهلك لتحقيق هذه الفكرة، مهما كنت
واثقا من انها حقا طريقك ، الذي لا طريق
سواه ، إلى الخلاص والانتعاق
احسست بان حالة الاختناق التي عانيت منها
وانت داخل المرآب تعاودك أكثر شدة وحدة ، كأن احدا
جاء فجأة ووضع صخرة عملاقة فوق صدرك
لقد تراكمت احساسيس الكدر والضيق
والهوان في نفسك ، وحدث من قدرتك على التنفس
السليم ، جاءت حواء عائدة من مشوارها إلى سوق
الحوت، تحمل سلة الفاكهة والخضروات، فرأى
تضع يدك على صدرك وتفك ربطة عنقك وازرار
قميصك في عصبية وتشنج كي تتيح لرئتيك
حرية استنشاق الهواء فأصابها الفزع

وتركت السلة جانباً وركضت إليك تسندك و تصعد
بك سلاسل العمارة لاسعافك هناك ، وقفت قبل الصعود
تقول لها ان حالتك لا تدعو للانزعاج ، وانك ستذهب
إلى المعسكر لترتاح هناك ، إلا أنك كنت منهكا غير قادر
على السير في أي اتجاه

اسندت ظهرك إلى الحائط ، تحاول استعادة قدرتك
على التنفس طبيعياً ، ثم طاوعتها على صعود السلم
درجة درجة ، حتى وصلت إلى الشقة ، وارتفعت
فوق احد كراسي الصالون

جاءت حواء بكوب الماء ثم اعقبته بكأس الشاي
انتهت حالة الاختناق ، واستعدت بسرعة انفاسك
المقطوعة وقواك الهاربة الخائفة ، فارتدت ان تغادر
الشقة ، شاكرًا لحواء صنيعها ، إلا أنها اعترضت
طريقك قائلة بان السنيورة تريد ان تراك
انت أيضاً تريد ان تراها، ولن تسافر قبل توديعها
ولكنك تعرف انها لا تزال نائمة، وان موعد استيقاظها
لن يحين الا بعد ثلاث ساعات، وقيل ان تبدي اندهاشك
لما سمعته من حواء ، واصلت هي حديثها قائلة
بان السنيورة استيقظت على صوت الجلبة
التي احدثها دخولكما ، وعندما سألت حواء
عن السبب ، وعرفت بما حدث ، ابدت رغبتها بان تراك
وتطمئن على صحتك

— هل هي قادمة الآن ؟

— لا انت الذي سيذهب إليها .

— في غرفة نومها ؟

وضاحكة قالت حواء :

— وماذا في ذلك ، تأكد انك لن ترى منها شيئاً عدا وجهها .

وتحت الحاح حواء سرت مرتبكا

مخرجاً إلى باب غرفتها

فتحت حواء لك الباب وقيمت
هي خارج الغرفة ، دخلت
فإذا بك تدخل بهو المرايا . غاصت قدمك
في الالبسة وانعكست صورتك بزوايا مختلفة
في أكثر من مرآة
القيت التحية باتجاه السرير الفاخر، العظيم الحجم
الذي تتماوج فوقه ألوان الاغطية ذات البريق
وعندما لم تسمع ردا ، ادرت جسمك نحو الباب عائدا
من حيث اتيت وقبل ان تخرج جاء صوت حورية
هامسا ، ناعسا ، مختلطا بالنتأوب ، تسأل عما حدث لك
وبسرعة اجبتها بان الأمر لا يستحق ادنى اهتمام منها
وهو راجع إلى انك لم تستطع ان تتألف مع هذا الشيء
الذي اسمه ربطة عنق ، ورغم انقضاء
مدة طويلة على استعمالك له ، فان عنقك ما يزال
يقوم بحركة تمرد وعصيان ورفض لهذا الرباط ، ولا يرتاح
حتى تقوم بانتزاعه وهذا ما فعلته ، عندما جاءت
حواء تطلب منك ان ترتاح
قليلا داخل البيت
نهضت حورية متكئة على مرفقها وهي لا تزال ممدة
فوق السرير ، ومدت يدها مشيرة باصبعها
إلى هينتك وهندامك :
— من يراك على هذه الصورة يقول انك نمت البارحة على
الرصيف ، فهندامك يعاني حالة اهمال مرعبة، اقترب قليلا.

اقتربت بضع خطوات فسألتك ان تقترب
بوجهك لكي تراه عن قرب ، احنيت رأسك نحوها
حتى صار قريبا منها
فمدت يدها تتحسس دقتك وصدغيك
في حين سرت في جسمك قشعريرة الموت
لم يكن بطن يدها المخملي وهو يمر على وجهك غير

مادة مشعة مهلكة تزلزل كيائك كله ، فاستعنت بأقصى
ما لديك من قوة الارادة لكي تبقى ثابتا في موضع
الانحناء ، كان يجب ان تسقط أو تتعرض لأي
عارض نفسي يعطل حواسك عن العمل ، ولكنك
بجلد وقوة منعت نفسك من الانهيار
— لا تقل انك حلقت وجهك هذا الصباح .

وكأنما احست حورية بالازمة الحسية والنفسية التي
صنعتها لك ، فارادت ان تمهلك قليلا ، ترفع يدها
عذك ، وتعفيك من الحديث حتى تستعيد قدرتك
على النطق ، وذلك بان رفعت صوتها تنادي حواء
التي لم تكن بعيدة عن الباب ، فدخلت بسرعة
واقتربت منها تتلقى أوامرها :
— اذهبي حالا واعدي الحمام لعثمان ، ضعي له
كل ما يحتاجه من ادوات الحلاقة والكولونيا الرجالية
لكي يستعيد نشاطه وحيويته

استطعت اثناء ذلك وبيطء شديد ان ترفع هامتك
وتعود للوقوف مستقيما كما كنت ، وبدافع الخجل
حاولت الاعتذار عن استخدام حمامها ، وحمام
المارشال وادوات حلقته واستحمامه
— تعلم انني دائما اثني على نشاطك والتزامك أمامه ، فلا
اريد ان يأخذ عذك فكرة خاطئة ، اذا جاء اليوم
ورآك بهذا الشكل المرعب .

لم تكن تعلم حقا ان هناك ملاكا يربعاك ويهتم بامرك
إلى هذا الحد ، ويذكر اسمك في حضرة ملك
من ملوك الأرض مثل السيد بالبو
ومهما كانت النتائج التي انعكست
عليك من خلال هذا الشاء قليلة ، فان ذلك كرم
منها وجميل لن تنساه عادت حواء لتقودك إلى حمام
غير الحمام الملاصق

لغرفة نوم حورية ، وتريك المناشف
والارواب والعطور
وادوات الحلاقة ، وقد امتلأ الحوض ماء
ساخنا يتصاعد منه البخار وتتكدس
فوقه الرغوة تصنع جبلا
من البياض ، وفاحت منه رائحة اشبه بشذا
الياسمين . افقلت حواء عليك باب الحمام ، ثم عادت
بعد دقيقة واحدة تسألك من خلف الباب، ان تعطيها
بذلك الرسمية كي تقوم بازالة
البقع ، منها وكيها، كما
طلبت غيارتك الداخلية كي تغسلها
مع بقية الغسيل الذي بين يديها، و تطمئنك
عندما رأتك مترددا ، قائلة
انها هيأت لك غيارات جديدة
كنت مسوقاً كالسائر في نومه ، مستجيبا
لغواية اللحظة الباذخة ، وتعليمات الخادمة
المطبعة لأوامر سيدتها، غير
قادر على التفكير أو التدبر فيما سيحدث
لو جاء المارشال ووجدك عاريا في حمام بيته، تستخدم
عطوره واروابه وامواس حلقته، وبسرعة
خلعت كل ما فوق جسمك
من ملابس ورميت بها من فرجة الباب
إلى حواء ، وقفزت عاريا في الحوض ، مانحا
نفسك لمتعة هذه المياه الساخنة المعطرة
برحيق الياسمين ، لم تنس طبعاً
انك في وضع غريب يدعو إلى القلق
وقد يجر عليك توابع وتبعات شديدة الخطر
مما ينقص من متعة هذا الترف ، ويجعلك
ترهف اذنيك محاولا ان تلتقط كل حركة
خارج الحمام لكي لا تداهمك

الاحداث وانت غافل عنها . انتهيت
بسرعة من حلاقة
وجهك واخذ حمامك وانتظرت
ان تأتي حواء بالبذلة
والغيارات الجديدة وعندما تأخرت
شغلت نفسك بوضع الكولونيا على وجهك
وتمشيط شعرك
ووضع الدهون عليه . طرقت
الباب حتى جاءت حواء
وسألتها ان تسرع باحضار
ملابسك لأنك جاهز للخروج ، فكان ردها
الذي لم تتوقعه ، هو انه لديك الروب
فضعه فوق جسمك واخرج
ما الذي تقوله هذه المرأة المعتوهة التي ابقتك
عاريا حتى من ملابسك الداخلية، ثم تريدك ان تخرج
مرتديا هذا الروب الابيض
الابتر ، الذي لا يزيد عن كونه
فوطه حمام، و لا يفلح في ستر
محاشمك، الا اذا انكمشت
بدخله قابضا بكنا يدك على طرفيه
لعلها لا تعرف ان الروب يضيق
عليك ، ولكن فكرة ان تخرج بالروب
في حد ذاتها فكرة تنقصها اللياقة
ومع ذلك فهي تصر على خروجك ، لأنك
لا تستطيع ، حسب قولها، ان تواصل البقاء
في الحمام ، خاصة وان هناك
كأسا من الشاي اعدته لك وهي لا تريد
اعادة تسخينه، استجبت
لما تطلب منك، وخرجت تشد الروب
على جسمك ، وقرصت

فوق احد كراسي الصالون محرجا ، مبتهلا إلى الله
الا يداهم البيت طارق ، ويراك على هذا الحال
وتكون مشكلة . ويدل ان تأتي حواء بكاس الشاي
الذي وعدت به ، جاءت تقول بان هناك افطارا كاملا
في انتظارك ولكن ليس هنا ، وانما صحبة سيدة البيت
في غرفة نومها . جلست في مكانك
رافضا ان تتحرك قائلا لحواء بانه يستحيل
ان تذهب إلى السنيورة حورية
في غرفتها وانت بهذه الصورة
حتى لو سمحت هي بذلك ، فلن تسمح انت
انها امرأة بريئة ، لا تقرأ العواقب ، ولا تعرف ما يملأ
رؤوس الناس من مكر وخبث ، ولو حدث ان جاء طارق
حتى لو كان سائقها الفزاني أو عامر العساس
ولمح موقفا كهذا لملأ الدنيا شائعات عنها ، فما بالك
اذا كان هذا الرجل مبعوثا من المارشال ، أو ان المارشال
نفسه دخل على حين غفلة ، ان تكون
عندئذ كارثة عليها وعليك؟
فما حاجتها لأن تضعك وتضع نفسها
في هذا الموقف الخطير؟
صحت غاضبا في وجه حواء ان تحضر لك ملابسك
وهددت بان تدخل وتقتش عنها بنفسك
لأنك لا تستطيع ان تفهم لماذا تتأخر
بها عليك ، واذا لم تقم بتنظيف البقع
وكي البذلة حتى هذه اللحظة ، فلماذا
لا تحضرها لك كما هي
لتستطيع ان تلبسها وتقابل السيدة ؟
وقبل ان تفعل شيئا ازاء تنفيذ تهديدك ، جاء
صوت حورية من الداخل يسألك
أن تحضر إليها حالا فلم تجد
بدا من الامتثال لغواية الصوت وقوة الجاذبية

التي يحملها . كانت حورية عندما
وصلت الى باب غرفتها تقف وسط الغرفة
تحيط بها المرايا ، وقد ارتدت روب الحمام
مائلك وادركت فور ان رأيتها انها خرجت لتوها
من الحمام ، تقوح منها رائحة
الصابون العطري، ولا يزال
شعرها مبللا وقد ازدادت بشرتها
توردا بسبب المياه
الساخنة ، فبدت متألفة متوهجة
كعروس ليلة جلوتها ، رغم
انها لم تكن تضع مكياجاً غير
المكياج الطبيعي الذي حباها به
خالق الكون وميزها بسحره عن بقية النساء
فاجأتك بضحكة كرنين اجراس العيد :
— هل البرد شديد إلى هذا الحد؟
— أي برد؟
— هذا الذي يجعلك منكمشا ، مرتعشا ، ممسكا الروب بأصابع متشنجة.

ابتسمت ابتسامة باهتة، ردا على حديثها، دون ان تقوى
على قول شيء . أجلت بصرك في الغرفة تبحث عن الافطار
الموعود ، لكي تتمكن من الجلوس ، املا في ان يعفك هذا
الجلوس من حرج الوقوف منكمشا داخل الروب ، ولكنك لم تر
افطارا داخل الغرفة . لم ترسوى السرير الذي تتماوج فوقه
شراشف واغطية براق لها لون الذهب ، وانتبهت إلى
ان الباب صار مغلقا عليكما ولا ثالث معك انت وحورية
سوى الشيطان، الذي لا بد انه كان شريكا أساسيا
في اعداد المشهد بهذا المستوى من الحرفية
والاقتان ، والذي تؤكد النصوص
الدينية وجوده قائلة بانه
" ما اجتمع رجل وامرأة الا وكان الشيطان ثالثهما"

وها انت وحورية ، رجل وامرأة ، برندي
كل منهما فوطة
الحمام ، داخل غرفة نوم مغلقة ، ليأت
الآن أكثر ملائكة السماء
نزاهة ونقاء ، اذا اراد ، وسجد فيما يراه الآن
شيئا يثير الشبهة والشكوك، يستحق
ان ينقل عنه صورة
إلى رب السماء لا تحمل أي معنى
من معاني البراءة
والفضيلة . لست بحاجة لأن تخمن
بعد الآن ، ان كل ماحدث
معك منذ ان دخلت هذا البيت ، كان بناء
على خطة وتدبير ، بما
في ذلك انتزاع ملابسك وتركك عاريا
الا من هذه القطعة، فما
الذي تريده حورية منك ؟
بل ما حاجتها إلى رجل مثلك؟
انك لست سيدنا يوسف ، جمالا
ووجاهة ، فلماذا تأتي
امرأة العزيز وسيدة سيدات الغواية عبر التاريخ
لتقول لك هيت لك ؟
دارت الاسئلة في رأسك كما تدور
أوراق الشجر المرمية
على الأرض مع هبوب العاصفة
حالة من الفزع ممزوجة بشيء
من الفضول والاثارة
انتابتك عندما لامست بأصابعها أصابعك
تطلب منك الاسترخاء
فلا تزيدك الملامسة الا تشنجا
وتوترا . انك لا تستطيع ان تنزع

قيضتك عن الثوب ، لأئك لو فعلت
لانفجرت فتحة تظهر
عري الجزء الأمامي من جسمك . هاهي
ترفع بصرها مع قامتك
وتعيده حتى اخمص قدميك ، تتأمل كل شيء فيك
كأنها تراك لأول مرة
حلت بكما لحظة صمت وتأمل، اعطتك
هدنة كنت تريدها
لكي تعيد بها شيئاً من النظام
إلى فوضى المشاعر والاحاسيس
التي غمرتك ، وتهيء خلالها نفسك
إلى التكيف مع المشهد المثير الغريب الذي وجدت نفسك
مقذوفا فيه على حين فجأة
مع المرأة التي كثيرا ما كانت هي مادة أحلامك
اما الآن فاعل الحلم يباشر دخوله في صيرورة
الانتقال إلى مادة أخرى هي تلك المصنوعة
من نسيج الواقع ، وترى نفسك تعيش حالة
ثالثة ، منزلة بين المنزلتين منزلة الحلم
ومنزلة اليقظة ، منزلة الحقيقة ومنزلة الخيال
دون ان تعرف حتى الآن ماهي الخطوة القادمة
فانت لا تستطيع ان تجازف بآية مبادرة ، أو تفعل شيئاً
أكثر من انتظار ما يحدث لك ، مهما كان
الفعل المطلوب فانت هنا مفعول به أكثر منك فاعلا
لكن لا يهم ، المهم ان يحدث الفعل
هل هو الحب ما يدفعها لان تفعل ذلك ؟
ام مجرد تسلية ونزوة عابرة ؟
ام هو نوع من التحدي
للمارشال ، وتريد استخدامك كاداة في هذا التحدي؟
مهما تكن دوافعها ، فانك لن تستطيع
الا الامتثال لارادتها قائلا لها ، بصوت

أو بدون صوت ، انك مجرد ذرة تسبح
في فيض النور القادم من جبينها ، ذرة صغيرة ضئيلة
تدور في فضاء كونها البديع الجليل
تملى برحيق حبها السماوي
ولو اشارت إليك من أقصى اطراف
الأرض لجنتها طائرا حتى تهبط جاثيا
تحت قدميها ، يحرقك الشوق لأن
تحسو قطرة واحدة من رضابها ثم تموت بعدها
سعيدا راضيا لأنك تكون عندها قد حققت
أجمل أحلامك في الحياة
وذاهلا ، عاجزا عن تصديق ما يجري ، رأيته تنضو
الروب عن جسمها ، لتبقى في تمام عريها
تحررت من حاجر الثوب الذي يحجب سحر
الجسد المتفجر غنجا وغواية ، فتجلى
في كامل بهائه ، وعنفوانه ، ومجده الأنثوي
كما خلقت العناية الالهية ، وارانته
ان يكون هذه الحورية التي لم ترها من قبل بهذه الصورة
الا في الخيال، مصقولة، لامعة متوهجة
باضواء فتنتها ، تشرع أمامك اسلحتها الفتاكة
النهدين، والخصر، والبطن، والسرة، والفخذين ، والردفين
كل هذه الاسلحة التي كانت اسرارا لا تصل إليها العيون
مدفونة تحت اعلى وارقي الملابس، هي الآن
مشحوزه، مجلوة ، متحفزة للانقضاض ، والاقتراس
فلا شيء في الأرض
ولا في السماء يمكن ان يكون اشد منها، هلاكاً، وارهاباً
ولا كائن في الأرض أو في السماء يمكن ان يعصمك من
الأنسحاق تحت جبروت قوتها وطغيانها
وقفت تنتظر إليها ذاهلا صامتا كأنك تمثال من الشمع
بينما مدت هي يدها إلى الروب الذي ترتديه
تشده إلى اسفل حتى ارتمي فوق الأرض ، ودنت

هي منك قطعة من جهنم الحمراء تحتويك
وتشيك أصابعها بأصابعك وتلصق صدرها بصدرك
وبطنها ببطنك وفخذيها بفخذيك وتضع وجهها فوق وجهك
وشفتيها فوق شفتيك ، وشعر رأسها يغطي رأسك ويحجب
عنك رؤية الأشياء التي حولك، ويفتح أمامك نوافذ
على عوالم أخرى كما يفعل السحر، فرأيت
في قباب السماء انجما تتوالد من انجم
وتصنع كونا جديدا جميلا ، واقواس
قزح يضرب بعضها بعضها ، فتتجثر ثورة من الالوان
والتكوينات الجمالية ، تصنع فجرا مبهرا للبشرية
عامرا بازهى الرؤى ، وينتج عن تصادمها موسيقى صاخبة
قادرة على ايقاظ روح الفرح والحب في الكون
تنتشي لدى سماعها كائنات الطبيعة من أشجار
وجبال وانهار وبحار وكواكب ومخلوقات الله التي تسبح
وتجري وتزحف وتطير ، وتخرج سعيدة جدلى تشارك
في الرقص والعزف والانشاد
بينما خرجت انت من حالة الذهول والاندھاش
وصدمة المفاجأة المفرحة المرعبة
لنتدخل مع حورية في لعبة الممارسة الجنسية
بكامل عفوانها وصبواتها، تحنويها بأكثر قوة مما احتوتك
وتسمع طقطقة عظامها وانت تهصر قدها بكل ما لديك من قوة
وقد اختلطت اهات اللذة باهات الالم الصادرة عنها
وتعجن ملامح وجهك في ملامحها، وفمك في فمها
وتسحق صدرها باضلاعك، وتتفت كل ما في جسمك من لوعة
وحرقه وكل ما اختزنه مسام هذا الجسم من كبت وحرمان
صهدا ساخنا لاقحا يخترق جسمها
ويوقف ما فيه من حرقه
وظمأ وشوق وحنين للقاء الشبع
والارتواء والانتقام
من أيام المسغبة التي عاشها القلب

ناسيا ان هناك في الكون
احدا غيركما ، وقد وضعت كل كائناته ومظاهره
انفسها تحت امركما ، واسلمت قيادها لكما
تلعبان بالاجرام والافلاك، و تحرقان
بها البحار والمحيطات
وتنقلان سكان الغابة إلى اعماق البحر ، وقاطني
البحر إلى الغابة وتجعلان الأرض
غطاء والسماء بنجومها وشموسها
وبدورها فراشا ، وتعيدان تشكيل الكون
وصياغته بالطريقة التي تشاءان
نسيت انك كنت تهجس بالطارق الذي يمكن ان ياتي
ويفسد متعة هذا اللقاء ، لأنه لا امكانية لوجود مثل هذا
الطارق ، ولا سبيل لأن يخترق هذا الغلاف من الطاقة
الحارقة الناتجة عن لقاءكما ، واذا حدث بمعجزة ما
ان اخترق طوق النار الذي تصنعه
هذه الطاقة حولكما ، فانك الآن قادر على ان تحيله
في الحال إلى حجر، حتى لو كان هذا الطارق ذلك الرجل
الذي يدعي حيازته واحتكاره لجسد حورية، باعتباره
حاكما جبارا مدججا بالسلاح ، لأنك انت اليوم أكثر
منه قوة ، واعظم منه سحرا ، وستحيله هو وسلاحه
إلى تمثال من رخام
هذه المرأة لك ، وانت لها، وقد اكسبك هذا اللقاء
كما اكسبها هي أيضاً، هوية جديدة ، تجعلكما تنسيان
من هي بالنسبة إليك ومن انت بالنسبة إليها
وليس لك ان تذكر الآن إلا أنها بين يديك
جسد يغمرك بشظاياها وبروقه ويذيقك
من حلاوته المسكرة ما تنتشي به الروح
وما يغرق الجسد في نشوة لا وجود لها الا
في فراديس السماء
استيقظت الرغبات الجنسية النائمة في جسمك

كما يستيقظ البركان ، ولم تعد قادرا على ردع قوة
الشهوة التي تجعلك
تضاجعها مضاجعة أشبه بالاعتصاب
مما استثارها قليلا ، وجعلها تبدو وكأنها لا تريد
ان تذهب باللعبة الجنسية إلى نهايتها ، أو لعلها ارادت
ان تمنح وقتا أكثر للمعانقة والقبلات والمداعبات
واللعب اللذيذ الجميل
ولا تريدك ان تصل بها إلى ذروة الانتشاء قبل موعدها
بينما سيطرت عليك رغبة الوصول إلى ذروة الاكتمال
بنية ان تبدأ دورة ثانية وثالثة
لكنها لم تفهم ، فهي لا علم لها بما تتوافر
عليه من قدرات جنسية استثنائية ، ولذلك
اشتدت درجة
مقاومتها لك ووصلت الى ان دفعتك
عنها وانتزعت جسمها من جسمك
فيما بدا واضحا انها غير راضية
عن هياجك وعنفك
واستعجالك في افراغ ما لديك من رحيق الشهوة
ولكن الأمر لم يعد خاضعا لارادتها
وبقوة وسرعة ، اعدت الجسم الذي انفصل عنك للالتحام
بجسمك رغم المقاومة واستخدمت تقنية سبق
ان نجحت معك
في معالجة مثل هذه الحالة ، اذ وضعتها بينك
وبين الجدار وهي تحاول ان تنتزع جسمها مرة اخرة
وتضربك ضربا ضعيفا، لكنك استطعت اختراقها
فاستسلمت لمقتضيات اللذة ، وتوقف الضرب
وتلاشت المقاومة واستمرت تتأوه وتتهد في وهن
واعياء تعبيرا عن استمتاعها بلحظة الشبق، وقد تداعى
جسمها من وطأة الانتشاء
فاتكات به عليك، وعلقت ذراعيها بعنقك

ولم تكن انت تحتاج الالهة الاستثارة ، للقيام
بالاختراق الثاني الذي شاركت فيه حورية بقدر
اكبر من الالهات والشهقات والتنهيدات، وقد استحال جسمها
بعد هذه الدورة الثانية إلى جسد من الزبدة الذائبة
في لهب الشبق والوصال المتجدد
ولم تعد تستطيع المحافظة على توازنها
برغم استنادها على جسمك ، فصارت تتداعى
في طريقها إلى السقوط
فلم تمنعها بل سقطت فوق الأرض
ملتحما بها ملتصق الجسم بجسمها ، وبشهوة
مفتوحة لمزيد من الاختراق ، وانفاس
تخرج من صدرك لافحة ساخنة ، وثبت فوقها هاضرا
نهديها ، شاربا رضاب شفيتها ، تتشم عبير جسمها، وتحرص
على شدة إليك وتدليكه بكل جسمك، حتى فرغت
من اختراقها للمرة الثالثة
بقيت بعدها ساكنا لعدة دقائق ، مسندا رأسك فوق
نهديها ، متلذذا بحركة النهدين وهما يخفقان صعودا
وهبوطا قبل ان تحملها بين زنديك وتضعها فوق
السريـر، وتنام بجوارها ، مستمتعا
هذه المرة بوجودك معها فوق نعومة الافرشة
والوسائد وشرائف الحرير واهتزاز
السريـر، وسماع صوت
الموسيقى الراقصة المرحة ، قادمة
من جهاز المذياع خارج الغرفة ، حتى اشتعلت
الرغبة فقطفت زهرتها
الحمراء المتوهجة في اختراق رابع
رأيت حورية بعد متعة المضاجعة الاخيرة
تغمض عينيها في اغفاء هائلة
وهي تتمدد عارية فوق السريـر وطيف ابتسامة
ترفرف فوق شفيتها

فكرت ان توقظها ، رغم شهيقك المفتوحة لممارسة
الجنس معها مرة خامسة وسادسة وسابعة
تركبتها تمام ، وتسلت خارجا إلى الحمام فاغتسلت
على عجل ووجدت الملابس نظيفة مكوية جاهزة
فارتديتها وغادرت البيت
اندفعت هابطا السلالم مسرع الخطى ، وغادرت العمارة
لا تلتفت شمالا ولا يمينا سائرا باتجاه الشاطئ
احسست انك بحاجة إلى البقاء مع نفسك في مكان
منعزل بعيد ، غير اماكك المألوفة، حيث لا احتمال
لأن يقطع عزلتك أي إنسان، وصحبة البحر
الذي تشعر معه دائما بالانسجام
والتوحد مع زرقته اللانهائية وموجه الذي يركض
ليصل الازل بالابد في رحلة لا تنتهي و لا تتوقف
ذهبت إلى هضبة سيدي الشعاب
واخترت موقعا معزولا فوق الهضبة
وجلست متكئا فوق صخرة، تحيط بها
صخور اكبر حجما
تمنحك ظلا يحمين من اشعة الشمس
وتحجبك عن الناس القادمين
للصلاة في الجامع من أكثر من اتجاه ، الا اتجاه
البحر الذي جعلته قبلك
ترنو باستمتاع إلى هذا الفضاء الازرق
الممتد بلا حدود
الا حد الافق ، وترقب حركة الموج
ودخول وخروج المراكب
إلى الميناء وترى في البعيد ، القوس
الذي تتحنى عنده السماء
وتمد ذراعين تحتضن بهما كوكب
الأرض وقد امتزجت زرقتهما
بزرقة البحر في عناق اشبه بعناق العشاق

تحاول ان تستعيد شيئاً من التوازن بعد ذلك
البركان ولحظته النارية الهمجية الممتعة المرعبة
المباركة المهولة التي زلزلت كيائك
مضى الوقت دون ان تشعر بمروره
أمامك البحر ومن حولك الصخور
والفراغ ، وانت واهن
منهك لا ترغب ان تقوم من مكانك
كان ماحدث في غرفة نوم حورية ، قد استنفد طاقتك
وافرغك من أية قدرة على الحركة
انك لن تعود إليها ، ولن تطأ قدمك
عتبات بيتها بعد الآن
فانت ذكر النحل الذي اخصب الملكة
وعليه ان يموت
كنت هناك بديلاً لسائقها الغائب
وها قد عاد السائق الاصيل
إلى عمله ، وانتهت المهمة المؤقتة
التي انتدبت للقيام بها
واستلمت مكافأة نهاية الخدمة ، التي كانت اكبر واعظم مما
يمكن ان يتوقعه إنسان مثلك
ومستعيدا في ذهنك ما حدث في تلك اللحظة الخارجة
عن سياق الزمن ، يمكنك ان تقول انه لم يكن مجرد نزوة
من نزوات أهل المال والجمال والنفوذ
ماحدث سبقه ترتيب وتدبير وسوابق قادت إليه
إلا أنك لم تكن في موقع يسمح لك بتفسيرها
تفسيرا صحيحا الا الآن وانت تقوم باعادة
ترتيب الاحداث ، لتعرف ان اللحظة التي
جاءت من خارج السياق ، هي في الحقيقة جزء لا
يتجزأ من السياق كما رسمته سيدة البيت . هذا كل
ما تستطيع الوصول إليه
لأن جوانب أخرى لا تزال خفية ، قد لا تعرفها ابدا

وقد لا يعينك ان تعرفها ، لأنها تتصل بعلاقتها بالرجل
الكبير نفسه ، اما بالنسبة إليك ، فانه يمكنك اعتبار
ما حدث نوعا من انواع الوداع العنيف المثير
منحك احدى ابهج لحظات العمر وهياك
للذهاب إلى الحرب ، بشيء من الرضا ، بعد ان قطفت
هذه الثمرة النادرة من شجرة اللذة التي لا تنمو الا
في حقول الفردوس
وعليك ان تكون كثير الشكر والامتنان لملائكة
الفرح والسعادة التي خصتك بهذا الوابل
من الغيث السماوي
يطفي عطشك ، ويروى أرضك المجذبة المقفرة
وينهي جفاف أيامك ويباسها
من يجرو على القول ان ما حدث هو عمل من اعمال الغواية
التي تعزى لتأثير ابالسة توسوس في صدور الناس
لست انت من يوافق على ان هذه التجربة الجليلة الجميلة
التي تشبه الجلوس على مائدة من موائد الجنة
يمكن ان تنسب إلى أي شيء آخر غير النعم الالهية
العلوية، السماوية
انت لا تقول هذا الكلام لمجرد الاحساس بانك وصلت إلى
مصالحة بين ضميرك الديني وبين حاجات الجسد
وشهواته الترابية، واعتبارك ان النشاط الجنسي لجسمك
شيء ينفصل عن حاجات الروح ، باعتباره يكتسب
تبريره من هذه الخامات والمعادن والاملاح
التي صنع منها الجسد
لا تقوله، اطلاقا، لهذا السبب، لأنك لا تجد في التجربة
التي عشتها في غرفة نوم حورية أي انفصال
بين الروح والجسد
فكلاهما كان في حالة انتشاء بهذا اللقاء
ولا تستطيع ان تقيس فعل الحب
مع حورية بذات المقاييس

التي قست بها الممارسات الجنسية
التي قمت بها في اطراف
الغابة ، أو تلك التي مارسها
في بيوت الدعارة السرية
بشارع سيدي عمران ، لحرورية نصيب من اسمها
ككائن ينتمي إلى كائنات الفرائس الالهية
وزمن الاعتراف من نعمائها لا يمكن ان نقيسه
الا بالمكانة التي تحتلها
الحروريات في التراث الديني والتراث الشعبي
مع كل الممارسات الجنسية السابقة، كنت تشعر بالاثم
وتعتقد ان جسمك قد تدنس بهذا الفعل، وتدعو
الله في صلاتك
بعد ذلك ان يغفر لك ما ارتكبت من معصية
ولكن الأمر يختلف هذه المرة ، فليس في عقلك
أو ضميرك ذرة احساس واحدة بالاثم ، مما فعلت
مع حرورية . ما تشعر به هو احساس بالسمو
وفائض من الفرح ، يثقل جسمك
ويعجزه عن الحركة ويبقيه في هذه الحالة
من الاسترخاء والخدر
لعله نوع من خداع النفس أو حالة من حالة الزهو
لأنك اقتطعت نصيبا من المائدة التي يستأثر بها
الحاكم الإيطالي للبلاد
بقيت في مكانك الى ان انقضى النهار
ثم تحاملت على نفسك حتى نهضت وتمشيت قليلا
على الشاطئ ، وقد بدأت الشمس
الغاربة تضع لمساتها
الجمالية فوق قوس الافق ، وترسم
بازهي الالوان لوحة
الغروب التي تبعث في النفس
أكثر المعاني جمالا وجلالا

ممزوجة بشيء من الاسى الشفيف
فسرت مبهجا تدندن لحنا مرحا
لاغنية شعبية نقول كلماتها:
خلوني ف حالي
يا لصحاب خلوني ف حالي
انا مشغول بعشق الغوالي
ظللت تراقب مشهد الغروب وما يحدثه
من استنفار لعناصر
الجمال في السماء وما تعكسه
من تكوينات لونية مبهجة
على سطح البحر، حتى ليبدو كأنه
عالم سحري ، خارج عالم
الواقع الذي نعيشه ، وتقضى
هذا الوقت الطويل ، وانت
على الشاطئ ، دون ان تسأل خلاله
عن طعام أو شراب
رغم انك لم تتناول منذ الصباح الباكر
غير كوب الشاي
الذي اخذته من مختار العساس ، والآخر
الذي احضرته لك حواء ، لأن حالة الاكتفاء
التي شعرت بها لم يحدث
لها أي تغيير واحساس الشبع والارتواء ظل ملازما لك
طوال الوقت منذ لقائك الحميم مع حورية
اقلت عائدا إلى المعسكر بمجرد
ان بدأت العتمة تزحف
على الأرض والبحر، عدت مبكرا
لأن الليلة هي الليلة
الاخيرة التي تقضونها فوق اليابسة
وما أن يأتي مساء
الغد حتى يكون كل أهل المعسكر

قد احتوتهم السفن
الخمس الراسية في الميناء
كان أول من صادفك وانت تدخل
المعسكر هو الشاويش عنتر
واقفا بمفرده قريبا من البوابة، مما
اعطاك احساسا بأنه جاء
خصيصا لانتظار عودتك ، ربما لابلاغك بسرعة
الاستعداد للسفر ، متشفيا
لأن كل ما بذلته من جهد
في الحصول على إعفاء أو استثناء
قد وصل إلى طريق مسدود، ولذلك
فقد كرهت حقاً ان تراه في هذه اللحظة ، وادرت
وجهك شمالاً ويمينا بحثاً
عن أي شيء تتخذة ذريعة للانشغال عنه وتفادي الحديث
معه، فلم تجد . بادرك بالتحية العسكرية
التي عادة ما يبادر
بها العسكري الاصغر رتبة من هو اكبر منه رتبة
— ماهذا يا شاويش عنتر انك الاكبر رتبة فلماذا السخرية؟
— انك تستحق هذه التحية عن جدارة ، لأنك الاكبر عقلاً
والأكثر حيلة ودهاء ومكراً حتى وان كنت اصغر رتبة .
— انها الليلة الاخير التي نقضيها سوياً في هذا المعسكر، فدعها
تمضي على خير عافاك الله .
— وهل هناك غير الخير يا اخي عثمان ، لقد اثمرت خطتك
الجهنمية وحققنت نتائجها الهائلة ، فهنئاً لك .
مد الشاويش عنتر يده مصافحاً فلم تجد بدا من مصافحته كارها :
— عن أي شيء تتكلم؟
— اتكلم عن عضوية الحزب الفاشي وسرها البائع القاطع، فقد
صدق من قال لا يقل الحديد الا الحديد .
— دع عنك ترويح هذه الاشاعات التي جلبت لي نقمة
زملائي في المعسكر

— انني لا الومك ولا احسدك وانما اغبطك و افرح لك
أما زملاء المعسكر الذين تتحدث عنهم ، فكل واحد
يتمنى لو كان حلوقا مثلك .
قالها ضاحكا ، وهو مازال ممسكا يدك . انتزعت منه يدك
غاضبا ، وهممت بان ترد على الوصف القبيح الذي وصفك به
إلا أنه استبق كلامك مسرعا :
— لا تعضب ياعثمان ، بل افرح وزغرد، ان كان لك لسان امرأة
يصلح للزغاريد ، فقد جاء منذ ساعتين فقط قرار استثنائك من
الذهاب إلى الحرب في بلاد الحبشة ، انهم يسمونه تأجيلا
ولكنه في الحقيقة اعفاء ، وهو امر لم يحدث لاحد في هذا
المعسكر الا لك ، وقرار لا يحمل الا اسما واحدا هو اسمك
بتوقيع الحاكم العام نفسه ، هل عرفت الآن كيف ان
لبطاقة الحزب فعل السحر؟
انضم إليكما حشد من المجندين ، تعرف بعضهم ولا تعرف
بعضهم الاخر ، وجميعهم سمعوا ما قاله الشاويش عنتر
عن الاستثناء الذي صدر بشأنك ، مما جعلك متحفزا
لاي استفزاز يصدر عن احد منهم ، أو اية كلمة جارحة
تعليقا على القرار ، لترد عليه بحسم وعنف
وقوة ، إلا أن ردود فعلهم جاءت معاكسة لما توقعت ، فكلهم
مدوا ايديهم يهنئونك ويعربون عن مشاعر الغبطة
بما حدث لك ، ويعتبرون ان ما فعلته بالانضمام للحزب
الفاشي من أجل النجاة من الحرب
كان مكرًا هزمت به مكر الإيطاليين ، وحيلة تغلبت بها
على مخططاتهم لقتل الليبيين . لقد نجوت بنفسك
ولا يسعهم الا الاعتراف بنجاحك فيما خططت له ، لأنهم جميعا
يودون من اعماق نفوسهم، لو فعلوا مثلك
فالحياة افضل من الموت، والبقاء بعيدا عن الحرب
خير من الاحتراق في جحيمها ، وحلوف حي
خير من اسد ميت
كما عبر الشاويش عنتر ضاحكا ، فضحكت

معه هذه المرة بعد ان تأكدت من صدق
ما يقوله ، عن افلاتك من المصير
المحزن الذي لم يستطع احد غيرك
الافلات منه ، مستعيدا
في ذهنك انه كثيرا ما سمعته في الماضي
يستخدم كلمة حلوف في معرض الثناء
وقوة الصبر والمجادة، ولم تجد
داعيا لتصحيح فكرته الخاطئة
عن بطاقة الحزب ومفعولها السحري أو تذكر له
انك لم تتسلم هذه البطاقة بعد ، وشجعك هذا الموقف
المؤازر لموقفك الذي ابداه الحاضرون
ان تبحث عن سالم
بأمل ان يكون هو الآخر اقل حدة وغضبا، وأكثر تفهما
لموقفك في ضوء النتيجة التي وصلت إليها ، خاصة
وهي الليلة الاخيرة لتواجدكما في مكان واحد
ولم يكن ذهابك اليه بهدف ان تأخذ منه شهادة براءة
على ما فعلت، فهو لن يعطيها لك، وانت لن تطلبها منه
لأن افكارك تختلف عن افكاره ولا مجال للتصالح
بينهما ، ولكن هناك دائما مجال
للتصالح على المستوى الشخصي والإنساني
فلا يذهب إلى الحرب غاضبا منك
لم تستطع العثور عليه، فعدت متأسفا إلى العنبر
الذي تقيم فيه ، والذي وجدته شبه فارغ
لأن اغلب المجندين ، تم تكليفهم للعمل
ساعات اضافية لنقل التجهيزات وتعبئة
العتاد وافراغ المخازن ونقل ما بها
للشاحنات ، قائلين لهم بانهم سيعوضون
السهر هذه الليلة بأيام نوم كثيرة داخل السفينة
في الصباح لم يكن لديك ما يكفي
من الوقت للسؤال عن سالم

اذ كان لابد ، تأكيداً لقرار الاعفاء
ان تذهب في ساعات الدوام
الأولى ، لتجديد انتسابك لقسم السائقين بإدارة المواصلات
وانهاء الاجراءات المتعلقة بذلك
اخيرا تحقق حلمك بالبقاء في طرابلس
دون ان تعرف على وجه اليقين صاحب الفضل
في هذا الاعفاء ، فهو بالتأكيد ليس الحزب ، كما كان
يظن الشاويش عنتر ، لأنك لم تصبح
عضواً بعد ، ولم تقصح
لاحد فيه عن رغبتك في الحصول على اعفاء
من الذهاب للحرب ، ولا يبقى في ذهنك شخص
غير حوريه التي ترى شخصياً انه لا وجود
لاحد يمكن ان يهتم بتلبية رغبتك غيرها
خاصة وانه لا معارف لك بين ذوي النفوذ والمسؤولية
لتنقل اليهم هذه الرغبة ، وتستبعد طبعاً ان يكون الحاكم العام
الذي اعد لك مهمة هناك خاصة بكتابة التقارير ، يمكن
ان يبادر من تلقاء نفسه بمحاباتك بمثل هذا الاستثناء
من أجل مهمة أخرى لا تعرفها
ارادها لك ، الاحتمال الذي لا وجود لاحتمال غيره
هوان حبيبته الغالية اقنعتة بجدوى هذا الاستثناء ، ولكن
ماهي هذه الاسباب التي اقنعتة
بها ؟ هذا ما لا تستطيع التكهّن به الآن
وايا كان الأمر فقد علمتك الاشهر الماضية
ان لا احد في هذه المدينة وداخل هذا النظام
الذي يحكمها يخدم احداً بلا مقابل
وان الذي ابقاك لم يفعل ذلك خدمة لك أو لمصالحك
وانما خدمة لاهداف تخصه ، رأى ان وجودك هنا
يحققها له بافضل مما لو ذهبت إلى هناك . انها قاعدة
للتعامل لا تزعجك ولا تثير لديك رفضاً ولا نفوراً ، هذا ما
طلبته ، وهذا ما حصلت عليه ، راضياً دائماً بدفع

الثن الذي يجب عليك دفعه
عندما حان الوقت للقاء حورية ، كسائق يعمل تحت
امرتها ، ويتلقى تكليفه بالعمل منها ، رغم وجود
السيارة في حوزة سائقها الاصلي ، صعدت إلى شقتها
في وقت يتفق مع انتهائها من افطارها ، فوجدتها تستقبلك
في الصالون وقد اتخذت سمنا باردا ، جادا ، لا اثر فيه
ولا اصداء لما حدث بينكما صباح الامس داخل غرفة
نومها ، وكأنها تريد ان تشعر بك بضرورة ان تفصل فصلا
كاملا بين العمل كسائق لديها ، وبين ذلك الجانب الشخصي
ولحظته المفصولة والمعزولة
عن زمن العلاقة العملية والوظيفية
استقبلتك جالسة في كرسي الصالون
وانت واقف أمامها بزيك الرسمي ، تعبر لها
عن بالغ الامتنان والعرفان بالجميل
لما بذلته من جهد اثمر في صدور هذا القرار الذي يقضي
باعفائك من الاعمال القتالية في الحبشة ، واستبقائك
في هذه الوظيفة المدنية عندها ، وتعرب
لها عن استعدادك لأن تكون على الدوام
خادما مطيعا لها ، ولصاحب الفضل
الأول في اصدار القرار المارشال اينالو بالبو
سألتك ، بعد ان فرغت من كلامك
ان تجلس ، وامرت حواء ان
تحضر لك فنجانا من الشاي ، ثم قالت
لك بان قرار الاعفاء
لا يصدر الا ومعه مسبباته القوية ، كالمرض الطارئ
أو الحادث الخطير الذي يعيق الإنسان عن العمل
بينما لا يحتاج التأجيل لأي اسباب غير حاجة العمل :
— وكلاهما يؤدي إلى نفس النتيجة وهي
ان تبقى هنا في طرابلس.

ثم انتقلت فجأة ، ودون تمهيد ، إلى ما حدث
بينكما صباح الامل وكأنها ضجرت من اساليب
التمويه والمماطة ، التي تبعتها
عن الهدف ، قائلة :
— لاشك انك عرفت الآن ، وربما قبل الآن ، وقبل ان يحدث ما حدث
بيننا بالامل ، انني احتفظ لك بمكانة خاصة في قلبي

انتهى الحديث الهامشي ، الذي لم يكن الا غطاء
لهذا الحديث ، الذي يتصل بجوهر
ما يجمع بينكما ، ويصب مباشرة فيما تريده
منك سيدة هذا البيت ، وربما فيما كان هو السبب وراء
استبقائك في طرابلس . احسست انت برعشة في اطرافك
افلحت في السيطرة عليها ، كما افلحت في السيطرة
على الاستثارة الجنسية التي استحدثتها في جسمك
وخطرت على ذهنك خاطرة
سمعتها من من مدرسك ماريو ، وهو يتحدث عن سبق له
معاشرتهن من النساء ، قائلا ، بانه كلما التقى بواحدة
منهن احس بان لغة التخاطب والتواصل بينه وبينها
تنتقل من المستوى العقلي والشفهي ، إلى مستوى
التخاطب عن طريق الاجهزة التناسلية
فهي بعد ان تعرفت على بعضها في معاشرة جنسية
تكتسب حساسية التواصل والحوار فيما بينها
وبدرجة أكثر صدقا من حوار الالسنه
والكلمات والعقول . بقيت صامتا منصتا لما تقوله
السيدة بلسانها ، وقد بدا واضحا انها لم تكمل ما تريد
ان تقوله لك ، دون ان تنتسى مواصلة الانصات
لتلك الاتصالات الخفية المجهولة بين الاجهزة التناسلية
— لم اكن أريد أن يصل الأمر الى هذا الحد الذي وصل إليه
بالامل ، وبعد ان حصل ، تمنيت لو حدث في الحال
وعلى سنة الله ورسوله .

لم تستطع ان تسيطر على الافكار التي استدعاها حديثها
عن الشرع والسنة واقحام الله والرسول بكل ما يمثلانه
من قداسة في مثل هذه المسألة ، ورغم الفارق بين علاقتها
بالمارشال والعلاقة العابرة التي سمحت لك بها ، لم تفهم
كيف ترى حورية هذا الفارق فيما يتصل بقضية الحلال
والحرام ، أو لماذا يكون الحلال مطلوباً في حالة، ولا يكون
مطلوباً في حالة أخرى

هل لأن شراكة الدين والوطن التي تجمع بينكما تشترط
ان يكون هذا النوع من العلاقات في الحلال ، بينما
يتمتع الاجنبي برخصة الاستثناء من هذا الحلال ؟
هل هذا ما قاله له عقلها حقاً ؟ ام للحديث صلة بما تقوله
اعضاء أخرى أيضاً . انتظرت حورية حتى وضعت
حواء الشاي وانصرفت ، قبل ان توصل حديثها :
— ارجو ان تفهم موقعي ، انني امرأة تحن إلى ان تحقق امومتها
وان يكون لها طفل تحمله في بطنها تسعة اشهر وتحضنه
وترضعه وتربيته وتراه يكبر وينمو أمام عينيها
وهذا الطفل لابد ان يكون نتاج علاقة شرعية
ومن صلب رجل احبه ، ينتمي إلى ديني وملتي
كما يفرض الشرع ، هل فهمت؟

طبعاً فهمت ، فهي لم تترك شيئاً غامضاً ، كما
لم تترك لك فرصة للرد ، لأنها استمرت
في الحديث الذي يعفك من أي رد
قبل ان تستجمع شتات ذهنك :

— المارشال يفهم ذلك تماماً ، فانا وهو لا نستطيع ان
نتزوج لاسباب معروفة، لا اظنك تجهلها، وانا لن ارتكب جرماً
في حق طفل المستقبل بانجاب سفاها . المارشال ، بحسه
الإنساني وقلبه الكبير ، يفهم هذه الحاجة لامرأة مثلي ، ترى
سنوات عمرها تمضي ، دون ان تستمتع بحق الامومة.

انت أيضاً لست أقل رقة وإنسانية من المارشال ، وتفهم توق
امرأة مثلها لأن تكون اما ، وتعرف أيضاً ان هذا التوق
للامومة شرط أساسي لا تكتمل انوثة المرأة الا به
ما لم تستطع فهمه حتى الآن ، أو لعلك تفهمه ، لكنك تريد
ايضاحا أكثر ، وتحديد ادق ، هو ما تريده حورية منك بالضبط
وان كان بإمكانك طبعاً ان تترك ، ان امر اعفائك من الذهاب
إلى الحبشة في هذه الدفعة ، لم يكن مجرداً من الغايات
وان احدى هذه الغايات ، أو اهمها يتصل بما تقوله
حورية الآن ، هناك مهمة لا تقل خطورة عن القتال فوق
هضاب الحبشة ، مرشح انت للقيام بها فوق هذه
الهضاب العسلية للأنتى الجميلة
التي تجلس أمامك على مقعد مطلية حوافه بماء الذهب
ومغطاة اخشابيه بالقטיפه الحمراء
ظلت حورية صامته يغمرها نوع من الاسى الشفيف
فلم تستطع ان تبقى انت أيضاً صامتا ، وجازفت بالقول :
— انت ما شاء الله في سن الصبا والجمال ، وأمامك سنوات
كثيرة قبل ان تشغلي نفسك بالانجاب والرضاعة .
— ارجو الا اكون قد أصبحت اما منذ صباح أمس ، لأن ما حدث
بيننا حدث دون تمهيد ، فلم اتخذ اية احتياطات .
وقبل ان تمنحك اية فرصة لكي تتأمل ما تعنيه بهذه الكلمات
التي قالتها ، نهضت وهي تقول :
— سنواصل الحديث فيما بعد ، فلا بد ان لك اصدقاء مسافرين
تحرص على توديعهم في الميناء .
قالت ما قالته ، بما يعني انها قد اعطتك
جرعة تكفي لهذا اليوم ، ولا تريد افسادها
بالمزيد الذي ستركه لحصة قادمة ، مما يدل
على ان أيام عملها بالتمريض
لم تذهب هباء ، وتعرف جيداً كيف تعطي
الجرعات في موعدها ، المهم انك خلال هذه المدة
القصيرة التي استغرقها اللقاء ، كنت تشعر ان الاثارة

التي تنتقل إليك من خلال
تواصل الاعضاء التناسلية أكثر جمالا ولذة ، وأكثر
وضوحا وصدقا من حديث الافواه والعقول
وان هناك توافقا وانسجاما بينها لا تراه
متحققا على بقية المستويات التي تتعامل
بلغة المراوغة والحيلة واكتشاف مواقع
الضعف واكتساب النقاط في صراع الارادات
ستذهب إلى الميناء ، لا لتوديع احد ، ولكن لتتأكد فقط
من انهم فعلا قد رحلوا ، وانك فعلا
مازلت واقفا على الأرض باقيا في طرابلس
امسكت باكراً الباب استعدادا للخروج ، فاستوقفتك حورية
لتقول لك بانك ستتقاسم العمل مع عباد الفراني ، وستترك
لكما وضع جدول لهذا التقسيم بدءا من الغد
عندما ذهبت إلى الميناء ، كانت السفن
قد اخذت حمولتها
ومكبرات الصوت الميثوثة في الشوارع
والميادين تنقل كلاما
لاحد الخطباء ، ممن جاءوا للمشاركة
في توديع الدفعة الأولى
من الجنود الليبيين الذاهبين
للمساهمة في الحملة الحبشية
وكان يتحدث بلغة عربية فصيحة، بالنيابة
عن اهالي الجنود
ويعبر عن افتخاره بالرسالة الحضارية
التي يذهب هؤلاء الجنود اليواصل لتقديمها
للشعب الحبشي الصديق
فهو شعب يعيش في اسواق النخاسة ، يباع ويشترى
على ايدي تجار الرقيق من اعضاء الاسرة المالكة
وستكون رسالة إيطاليا الفاشية وجنودها اليواصل
ومنهم هؤلاء الابطال المغاوير من أبناء ليبيا

هو انقاذ ذلك الشعب من معاناته ونشر السلام والعدل والامن
بين ربوعه ، تحت الراية الثلاثية الالوان
لم يكن يعنيك هذا الكلام وما فيه من كذب وتدليس
بعد ان نجوت من خدمة هذه الرسالة الحضارية الفاشية
ولم تكن متحمسا للدخول
في هذا الزحام ، الذي يصنعه رجال
يرتدون البرانس والعباءات ، ونساء
يرتدين الملاحف والاردية
هم اهالي هؤلاء الجنود المسافرين ، ولكنك تذكرت شيئا
اشعل في قلبك الحماس
لولوج هذا الزحام ، اذ لا بد ان تكون
ثريا موجودة هنا مع عائلتها وعائلة زوجها فتحي ، لالقاء
نظرة عليه قبل الرحيل ، فلعلها تكون باذن الله نظرة اخيرة
على الزوج الذي سيلقى مصيره الفاجع في أرض الأحباش
وسيكون شيئا جميلا ان تلتقي بها وسط هذا الزحام
لن تصافحها بيدك فقط ، بل ان جسمك كله يمكن ، بفضل
هذه الحشود المتلاطمة ، ان يصافح جسمها مصافحة
حميمة ، وينعم بسخونته اللذيذة المثيرة . فكرة هائلة ، مدعومة
بقدر كبير من النذالة ، ولكن متى كانت النذالة بعيدة عنك
وعن هذا المحيط الذي تعيش فيه ، حتى تدعي انت
أو أي احد غيرك النبل والشهامة . هاهي الاجواء المثقلة
بالنذالة أمامك متمثلة في هذا العرس الكاذب الذي
يقام لشبان يذهبون
كقطيع الاغنام إلى المسلخ ، وهذا الصوت
القادم عبر مكبر الصوت
لواحد يتكلم كاذبا عن هذه المناسبة
السعيدة وسط هذه المناحة
التي تقيمها امهات المجندين
ويتكلم باعتباره من أهل
المجندين ، فهل حقا هو من أهلهم؟

مفتخرا بحضارة القنابل التي ستحرر

أبناء الشعب الحبشي

نعم ستقتلهم ليكون هذا القتل انعتاقا

لهم من العبودية

فلماذا اذن لا تسبح في بحر النذالة

كغيرك من السابحين

ولماذا لمن يرتكب النذالات الكبيرة، ان

يتعفف عن ارتكاب

نذالة صغيرة مثل التردد للمرأة التي يحبها حبا

مشوقا بانثا يانثا ، والالتصاق بها وسط الزحام

والاحتكاك بجسمها من الخلف إلى حد الاستمنا

ثريا التي اقترنت في ذهنك بالعبودية

والشفافية، لا تستحق

معاملة كهذه المعاملة الرخيصة، مهما

كنت نذلا مع الآخرين

اذ ان مجرد التفكير في لقاءها بهذه الصورة

المبتذلة اهانة للعاطفة

التي تدعي انك تحملها لها ، ام تراك لم تعد

قادرا على التعامل بالقواعد المعروفة لهذه العاطفة التي

اسمها الحب ، بعد ان رأيت كل شيء يعرض في سوق

البيع والشراء ، حتى العواطف والاحاسيس والقلوب

والضمانر، هاهي الخطة المغلفة بورق مفضض، التي

اعدتها لك حورية، تتكشف ورقاتها الفضية واحدة

بعد الأخرى ، حيث ستحتاج وانت تدخل هذه اللعبة

ان تكون مسلحا باكبر قدر من النذالة. ستمثل

في البداية دور الابله الذي لا يعرف ما يدور حوله

أو ما يريدون منه ، إلى ان تتكشف أمامك كل ابعاد

اللعبة ، تحت أكثر الاضواء سطوعا وقسوة ، لكي تبدأ

اللعب عندئذ من موقع القوة

لهذا الزحام رائحة تعرفها جيدا ، لأنها

رائحة العوز والفاقة
القميص الذي يبقى حتى يذوب
فوق جلد صاحبه، لأنه
لا يملك قميصا سواه ، والعرق الذي يتراكم فوق
الجلد، لأنه إنسان لا يملك صابونا
يزيله به ، ستصيبك
هذه الرائحة بالدوار ان لم تخرج الآن
من هذا المكان الخائق وتذهب لمباشرة مهام
عاجلة ، يجب ان تكرر لها ما تبقى
من النهار ، وان تترك رؤية ثريا ليوم آخر ، تكون
فيه جاهزا بكامل لياقتك للقاءها . وأكثر هذه المهام
استعجالا الآن هي تدبير مكان يؤويك ، بعد ان رفع
الجيش الإيطالي الغطاء الذي كان يحميك من شراسة
السوق ، يعفيك من التفكير في مشاكل السكن والطعام
 والملابس . انت الآن خارج الجيش مؤقتا ، أو بالاحري
جندي في مهمات غير عسكرية ، وبامكان
الجيش ان يستردك متى شاء ، اما الآن وخلال فترة
الاستثناء أو التسريح المؤقتة، فان عليك ان تتولى
تدبير نفسك بنفسك ، والاعتناء بشراء وتحضير
طعامك ، وغسل ملابسك ، لأن المعسكر الذي كان
يؤويك سيخضع منذ الغد لاعمال
الصيانة ، وتجهيزه ليكون قاعدة عسكرية إيطالية، لها
مهام غير المهمات القديمة للمعسكر ، ومعنى ذلك انه
لن تكون هناك دفعات أخرى تذهب لحرب الحبشة
بحجم هذه الدفعة التي ضمت ما مجموعه خمسة عشر الفا
من كافة مراكز التدريب في شرق البلاد وغربها،
سيكون هذا العدد هو مساهمة ليبيا الفاشية
وحاكمها ايتالو بالبو، في الحملة
الإيطالية لاحتلال الحبشة ، مع امكانية ارسال اعداد قليلة
ممن يمكن تدريبهم في مراكز التدريب المحلية

تمنيت لو كان بإمكانك ان تحصل على اجازة قصيرة ، تذهب خلالها لزيارة الأهل في أولاد الشيخ ، الذين يعتقدون انك الآن في الطريق إلى ميادين القتال في الحبشة ، إلا أنك تعرف بان اجازة كهذه غير ممكنة ، فقد سعت حورية لاصدار قرار التأجيل بحجة ان هناك عملا يحتاج احتياجا ضروريا ، فكيف يستقيم اعطاء الاجازة، مع هذا الترتيب ، الذي ابعد عنك احوال الحرب ثم ما الذي طرأ على عقلك وجعلك فجأة تحب "أولاد الشيخ " التي خرجت منها هاربا ، ناقما على حياتك فيها غاضبا على حياة البؤس، والخمول والكسل العقلي، التي يعيشها أهلها بمن فيهم والدك وامك ، اللذين كرهت ما فعلاه بك ، وما سبباه لك من شقاء عانيت منه منذ أيام الطفولة وإلى آخريوم خرجت فيه من القرية بسبب فراقهما ، فمن اين ، ومنذ متى ولدت لديك هذه العاطفة نحو " أولاد الشيخ " حتى تحن إليها ؟ انه نوع من الضعف ، والشعور الطفولي ، الذي لا يليق برجل مثلك ، ومن واجبك نحو نفسك ، ان تتحرر منه ، لكي تعود شديدا ، قويا ، قادرا على التعامل مع الآخرين بنفس العملة التي يصرفونها لك ، وستكون ظالما لنفسك مستهينا بحقها ، اذا لم تستخدم اسلوب المعاملة بالمثل مع من يصرف لك شقاء وقسوة ، وهو ما تستحقه بيئة الالهال والخمول والبؤس والتعاسة في أولاد الشيخ ، فاتركها للاهمال والنسيان كما تركتك ، ولا تقل ابي وامي فهما أيضاً يستحقان معاملة من جنس المعاملة التي قدماها لك ، واعتن بنفسك ومستقبلك فأمامك حياة جديدة ، وافاق أكثر رحابة واتساعا، تحتاج لأن تسخر لها كل جهدك ، وتتصرف

بعقلك وقلبك وجوارحك للاستفادة منها
والاستمتاع بها، وتأكد مكانتك في هذه البيئة
المدنية الجديدة التي صرت فردا من افرادها
لم يبق لك إلا أن تسرع الآن بالذهاب إلى فنادق
المدينة القديمة وخاناتها العتيقة
في باب البحر، التي كانت
تستقبل أهل القوافل بمواشيهم
في أزمنة مضت، واصابها
في السنوات الاخيرة شيء
من التجديد والتطوير، فتخلت
عن استقبال المواشي واحالت
الاسطبلات إلى مقاهي
ومطاعم شعبية، أو إلى مخازن
وحوانيت، وصار الاقبال عليها كبيرا
بعد انتهاء الحرب بين الليبيين
والإيطاليين، وعودة الناس للاشتغال
بالتجارة والزحف على المدينة من الأطراف والارياف
للعمل والاقامة بحيث يصعب كما يقول العالمون بهذه
الامور، وجود اماكن شاعرة بها
ما ترجوه حقا هو ان يوفقك
الحظ، للعثور على غرفة بدءا
من اليوم، لأنك حتى لو حصلت على اذن
بالبقاء في المعسكر
ليومين أو ثلاثة فانك لن تقوى
على البقاء بمفردك، وسط
تلك المتاهة التي لم تعد تليق الا باقامة الاشباح
بعد بحث استغرق عدة ساعات، عثرت على فندق
لم يمر بمرحلة التحديث والتطوير، أي انه مازال يحتفظ
بباحة صغيرة يخصصها
لمن جاء راكبا جملا أو حصانا

أو حماراً، أو حاملاً بضاعته على بهيمته ، حيث
سجد سائسا يعتني بحراسة هذه الدواب، وما تحتاجه
من عليق ، فهو آخر فندق في طرابلس يقدم هذه
الخدمة، ويرمز وحده لما تبقى
من تلك الدور والحظائر
والاسواق التي تقع في نهاية طريق القوافل ، ولم تبقى
منها الا اسماؤها ، مثل سوق المواشي الحالي ، الذي مازال
رغم تبدل طبيعة المهمة التي يقوم بها يسمى
سوق العبيد لأنه كان في عهود سالفة سوقا للرقيق
وبرغم بدائية الفندق ، فقد اعتبرت نفسك محظوظا
لوجود غرفة شاغرة فيه ، لأنه يقع اسفل هضبة
باب البحر ، غير بعيد عن الميناء ، في نصف المسافة
بين بنائين أصبحا من الرموز الحضارية للمدينة
القديمة ، احدهما جامع عتيق
هو جامع قرجي ، بمعمارهِ الخاص
ومنارته المتميزة عن كل منارات المدينة
بمستوياتها المتعددة ، وما للجامع من قيمة تاريخية
واثرية ودينية، وبين بناء اثري روماني يقولون
انه اقدم بناء في مدينة طرابلس هو قوس
الامبراطور ماركوس أوريليوس
الذي خصص الإيطاليون فريق عمل يقوم الآن
بترميمه وترصيف الباحة المحاذية له ، وزراعة
أشجار الورد حوله ليكون مركز استقطاب سياحي
ولهذا لم تتردد في اخذ هذه الغرفة الكائنة في الدور
الثاني التي تطل على الرواق المطل بدوره على الباحة
الداخلية المفتوحة التي تتوسط المبنى وفق الطراز
المعماري لقصور وعماير المدينة القديمة
وتصادف ان يكون هذا المكان الذي يقع فيه الفندق
هو احب جزء من طرابلس إلى نفسك ، وجاء الفندق
ليؤكد هذه المعاني التي يمثلها موقعه بالنسبة إليك

فهو حلقة وصل بين الصحراء والبحر ، وبين القديم والحديث ، وبين أهل الريف وأهل المدينة ، وبين زمن طرابلس الذي يعود إلى فجر التاريخ ، وزمنها الاسلامي الوسيط وعصرها الحديث ، ودون ان تعطي كبير اهتمام لنوع الغرفة التي كانت ذات جدران اكلت الرطوبة قشرتها الجيرية ، ومحت الطلاء الأخضر، الذي كان يغطي خشب بابها وشباكها خالية من أي اثاث غير دولاب قديم وسرير وفراش ، فذهبت مسرعا وقبل ان تقفل الحوانيت ابوابها، واشتربت مبيدا للحشرات لمقاومة البق والبراغيث التي رأيت اثارها على الحائط واشتربت موقد غاز اليريموس الذي ستطهو عليه منذ اليوم طعامك ، مع معدات الطهي والطعام ، دون ان تنسى مصباح الغاز، وتركت التموين إلى يوم آخر كنت قد استأجرت دراجة ، لقضاء هذه المشاوير المسائية التي كان من بينها مشوار اخير إلى المعسكر لاحضار شنطة ملابسك اكتشفت في صاحب الفندق رجلا شديد المرح ، بمنل ما هو شديد البدانة ، يسمونه الكبران ، ويسمون فندقه فندق الكبران ، لأنه كان رئيسا لاحدى ورديات العمال في الميناء ، قبل ان يتفرغ للعمل بفندقه رغم انه لا يزال يرتبط باعمال تتصل بالشحن ، وتسريح البضائع ويجعل من غرفة بالطابق الأرضي ، مكتبا لادارة الفندق وتصريف شؤنه التجارية الأخرى . قضيت الساعات الأولى من الليل تستكشف المنطقة التي صارت موطننا لك ، ولجواء الفندق الذي يؤويك حيث استضافك الكبران

في مكتبه ، الذي يتحول اثناء
الليل إلى غرفة للسمر ، ولقاء
الاصدقاء ، يلعبون الورق
ويرتشفون كؤوس الشاي بالفول
السوداني، ويستمعون
إلى حديث الكبران الذي يملك شهية
مفتوحة للكلام ، واختراع
الحكايات ويتوفر على مجموعة افكار
لاصلاح العالم ، يرجو
الله ان بحبيبه حتى يحققها
أويت إلى سريرك متأخرا، ولأنك
تمشيت كثيرا اثناء البحث عن فندق ، ثم قطعت بعد ذلك
وقتا تقود الدراجة، متنقلا بين شرق المدينة وغربها
فقد اسلمك الانهاك إلى نوم عميق
لم تستيقظ منه الا بعد فترة
من ميعاد صحوك المعتاد، وذهبت
إلى بيت حورية متأخرا نصف ساعة عن موعد
الدوام ، وما أن وصلت حتى وجدت مختار العساس
وعياذ الفزاني يقفان أمام العمارة بانتظارك ، وسمعت
الفزاني يقول بأنه ذهب إلى المعسكر يبحث
عك ، فعرف انك غادرته إلى محل اقامة جديد، وأنه
ظل حائرا ماذا يفعل ، حيث انه مكلف بابلاغك
منذ البارحة ان تأتي مبكرا هذا الصباح ، لأن هناك
مهمة وقع الاختيار عليك للقيام بها
كنت ادركت منذ اللحظات الأولى
لوصولك وقبل ان تسمع
ما قاله الفزاني ، ان الحاكم العام
موجود ببيت حورية، ولا بد
انه قضى الليل معها ، لأنه لا يمكن
ان يكون قد صحا مبكرا

وجاء إليها . عرفت ذلك من وجود ثلاث سيارات
عسكرية رابضة في الشارع
وعدد ظاهر من الحراس المتناثرين أمام العمارة
غير السريين المبتوثين في المنطقة
وفهمت من عياد ، ان المارشال بالبو
سيحتاج اليوم إلى سائق
عربي يأخذه في سيارة مدنية ، لحضور
عيد الربيع الذي يقام
في واحة جنزور ، وقد وقع الاختيار
عليك لتولي المهمة
لم يكن بإمكانك ان تقول شيئاً ، سوى
الاعتراف للسائق الفراني
بانه الاجدر بتولي هذه المهمة ، بحكم الخبرة والاقدمية
فقال بان القرار في هذا الموضوع ليس لك أو له ، وإنما
لصاحب الشأن الذي وضع مواصفات
لهذه المهمة ، من بينها ان يكون
السائق من أهل المنطقة ، مجاملة لجمهور الاحتفال
من الطرابلسيين وباعتبارك من منطقة طرابلس فانت
اقرب من رجل مثله قادم من فزان البعيدة ، ثم انه يفضل
سائقاً عسكرياً يعرف اساليب المقاومة والدفاع
عند حدوث أي طارئ ، على سائق مدني مثل
عياد الفراني . شعورك بالغبطة لهذا الاختيار ، كانت
تخالطه نسبة من الشك والريبة ، الا انك لم تشأ ان تشغل
نفسك بالبحث عن الدوافع وراء هذه التدابير ، فالأفضل
والأسلم ، ان تحتفي بهذا الاختيار ، مستفيداً
من التعبير الشهير الذي يردده الشاويش عنتر
" ارحي روحك نعووم " لأنه ، كما يقول للمجندين
لاشي يقود الى الغرق ، مثل التشنج والتوتر ومقاومة
التيار ، جاء احد الحراس الإيطاليين
يسألك ان تستعد بالسيارة

التي اعتنى مختار العساس بغسلها
وتشيفها ورشها من الداخل
بعطر له نكهة المسك ، وما أن اخرجتها
لتقف على باب العمارة
حتى جاء ثلاثة من الحراس
لتفتيش السيارة وفحصها للتأكد
من سلامتها ، وخلوها من أي شيء
مريب ، ثم قام احدهم
بتفتيشك انت أيضاً تفتيشاً شخصياً
مما جعلك تشعر بشيء
من الغيظ ، إلا أنك كتمته ، وحاولت
ان تفهم الدوافع لعمل هؤلاء
الحراس . عدت للجلوس اما مقود السيارة ، وجلس
احد الحراس المسلحين في المقعد
المجاور لك . تحركت
السيارات العسكرية ، فوقفت احداها
أمامك ووقفت الثانية
والثالثة خلف سيارتك
وقرأت انت في سرك سورة الفاتحة والاخلاص
واية الكرسي والمعوذتين ، واستجبت بالولي الصالح
سيدي عبد السلام الاسمرطالبا منه
ان يشد ازرك ، لكي لا تنهار
وتفقد اعصابك وانت تقود السيارة التي تحمل
فرعون هذا الزمان ، فيفتك بك هؤلاء
الزبانية الذين يحيطون به . وبعد انتظار
نصف ساعة ، جاء المارشال ترن ضحكتة
عاليا ، وتلمع اسنانه البيضاء
وسط لحيته الداكنة السواد ، يرتدي
بزنه العسكرية ، يمسك
باحدى يديه سيجارا وباليد الاخرى

يسحب خلفه حورية
التي تحاول ان تجاريه في خطواته السريعة القوية
تثب وثيا رشيقا في فستان له طيات جميلة ، تتحدر
من عنق الفستان إلى حوافه السفلى
تختلط فيه الدوائر الزرقاء والبيضاء، كحركة
الموج ، يهفهف حول جسمها ، وله حزام
ابيض يشد بقوة على خصرها
الذي ضاق حتى كاد يختفي ، قبل ان ينتشر
الفستان ثانية بطياته الكثيرة
التي ترقص، وتماوج ، حول ساقيها ، وكان
لحذاها النسائي الابيض ، بكعبه الطويل ، ايقاع متوافق
مع دقات اقدام المارشال القوية ، بينما يتماوج شعرها
الأسود وتتناثر خصلاته وتتراقص فوق وجهها الضاحك
الصبوح وتمشي مشيتها السريعة بايقاعها
الراقص، فتبدو كأنها كائن مصنوع
من موجات الضوء والهواء
هبط الاثنان السلام الرخامية
لباب العمارة، واجتازا الردهة
الصغيرة التي تشكل جزءا من الرصيف أمامها
فاسرع احد الحراس لفتح بابي السيارة الخلفيين لهما
وانطلق الموكب الرئاسي عبر فيا كانيفا
ثم كورسو سيشيليا متجها إلى قرية جنزور . حانت منك
التفاتة لحظة ركوب المارشال السيارة ، واصطدمت
عيناك بعينيه العميقتين المتوهجتين كشعلتي لهب ، فسرت
في جسمك رعشة كأن تيارا كهربائيا
يسري مع نظراته، وتهادى
صوته قويا ، عريضا وهو يحدث حورية، حديثا
متصلا ، حماسيا ، لم تفهم منه
الا اشاراته لروما ، وإلى اسماء قادة في الحزب
والحكومة يغيطونه ويعاكسونه ، لأنهم لا يفهمون

طبيعة هذه البلاد ، وحجمها الهائل
وما يقتضيه ذلك من اتفاق لاعمارها ، بينما تقود
انت السيارة مستنفر الاعصاب ، لم تتحرر بعد من حالة
التوتر، حتى كدت وانت تلاحق السيارة العسكرية التي
أمامك، ان تصطدم بها لحظة ان هدأت من سرعتها
في احدى المنعطفات. ادركت حورية مدى
التوتر الذي يعتريك بسبب
وجود الحاكم العام ، فارادت ان
تتبسط معك قائلة ، بان سعادة
الحاكم العام ، كان يريدك
في مهمة على جانب كبير من الدقة والخصوصية
في الحبشة ، ولكنها اقنعتة
بان وجودك هنا سيكون أكثر
نفعاً . اردت ان تشكرها وتشكر
سعادة الحاكم العام ، إلا أن
الكلمات ابت ان تخرج من حلقك ، فواصلت
هي الحديث ، تتساءل هذه المرة عن المكان الذي
انتقلت إليه ، بعد ان تركت المعسكر ، فافلحت
بعد جهد ان تنطق اسم المدينة القديمة ، وعندما ترجمت
حورية طرفاً من حديثها معك
إلى المارشال بالبو ، جلجل
صوته بالافكار والخواطر التي اثارها في ذهنه اسم
المدينة القديمة قائلاً بان كل حجر في المدينة القديمة
له قيمة تاريخية ثمينة تتضاءل أمامها قيمة أي انجاز
معماري يحققه المحدثون في الجزء الجديد من المدينة
وقد حرص كما حرص اسلافه الثلاثة فولبي
ودي بونو، وبادوليو، على ان يكون الجزء
الحديث ، منسجماً مع عراقة الجزء القديم ، ويبيدي
اسفه لأنه على كثرة جولاته التي شملت كل شبر
في ليبيا من ادناها إلى اقصاها مازال حتى الآن ، لم يدخل

المدينة القديمة ، ولم يذهب أبعد من سوق المشير
والسرايا الحمراء ، ربما لأن الحوارى الضيقة
التي لا تتسع لمرور السيارة، هي التي جعلت الضباط
المسؤولين عن امانه الشخصي ، يرغمونه على تأجيل
الزيارة كلما هم بان يذهب إليها ، ولم يبق أمامه
الا حل واحد، هو ان يهرب من هؤلاء الضباط ، ويدخلها
معتدماً على خبرة دليل من أهل البلاد
ليزور القنصليات القديمة ، والاسواق المسقوفة التي تباع
الصناعات التقليدية ، ودور العبادة واقدمها جامع الناقة الشهير
والمعبد اليهودي بالحارة الصغيرة ، والبيوت ذات الابراج
والقباب التي سحره منظرها ، وهو يراها من الجو، اثناء
تحليقه بطائرته فوق طرابلس . تذكرت وانت تستمع
إلى حديثه الذي فهمت اغلبه ، لأنه يتحدث عن موضوع
مألوف لديك ، ان الإيطاليين جميعهم يتجنبون دخول
المدينة القديمة ، بل انه خلال الاشهر
التي اقمته في كوشة الصفار ، لم يحدث
ان رأيت جندياً أو دركياً إيطالياً واحداً يدخل
المدينة القديمة ، حتى مهمة
حفظ الامن، ظلت متروكة لعناصر
ليبية في هذه المدينة
الحالة الوحيدة التي رأيت فيها جنوداً
إيطاليين يدخلونها هي حالة المdahمات
التي كانت تقوم بها فرق مسلحة
باعداد كثيفة ، وتتولى التقاط الشباب
من الشوارع والبيوت
وارغامهم على الدخول إلى الجندية . عدا
ذلك فانها بقيت حكراً على أهلها
اللبيين ، ومن احتفى بهم منذ قرون ، كالبشارة
وصيادي السمك اليونانيين والمالطيين
واعضاء الجالية اليهودية الذين جاء بعضهم

منذ الامبراطورية الرومانية
وعبر الجموع الغفيرة من لابسى العباءات
البيضاء ، والتي وقفت على جانبي الطريق
لاستقبال الحاكم العام ، هاتفة
بحياته وحياة الدوتشي ، مرق موكب السيارات الاربع
باتجاه الخيمة التي اعدت كاستراحة
للمارشال بالبو . كانت خيمة
عملاقة مفروشة بالابسطة الفاخرة ، تتوزع
في اركانها الارائك وكراسي الفوتيل ، كانها
بهو باحد القصور ، وتتصدر
مدخلها باقات ضخمة من الزهور ، وفي ركن يحاذي
مدخل الخيمة ، وضعت طاولة تصطف فوقها دوارق
العصائر وسلال الفاكهة . كنت قد أوقفت السيارة أمام
الخيمة ، حيث كان عدد من اعوان بالبو الإيطاليين
قد سبقوه إلى هناك ، بعضهم بزيه العسكري، وبعضهم
الآخر بالملابس المدنية يصطحبون نساءهم ، ويقفون
أمام الخيمة في انتظاره
وعندما وصل ، هرعوا لمصافحته ومصافحة رفيقته
و دخلوا جميعا إلى الخيمة . اشار المرافقون إلى المكان
المخصص لوقوف السيارة
قريبا من مدخل الخيمة ، فأوقفتها
هناك ، لكي تبقى تحت نظر الحراس ، متحين لك
فرصة ان تشاهد الحفل دون ان تبعد كثيرا ، أو تغيب
عن السيارة لمدة طويلة لأن عليك ان تكون جاهزا
في أية لحظة يريد المارشال ان يغادر فيها المكان

و في قلب الساحة
التي يقام فيها الحفل ، اصطف عدد من
الفرسان يركبون خيولهم ، ويرتدون البرانس السوداء
المقصفة حوافها بخيوط الذهب والفضة ، في حالة
استعداد لبدء استعراضاتهم في أعمال الفروسية ، أمام

المنصة العالية التي تغطيها مظلة من الحصران الملونة
لاثناء حرارة الشمس ، كما تغطي
بقية الاماكن المخصصة
لكبار الضيوف، حيث صفت كراسي
الجلد الوثيرة وفي الاعالي
ترفرف الراية الإيطالية المثبتة إلى راس سارية تفوق
طولا أشجار النخيل المتناثرة في اطراف الساحة
لم يرغب المارشال طويلا داخل الخيمة ، فالحفل لن يبدأ
قبل ان يأخذ المارشال مكانه في المنصة
خرج صحبة عدد من اعوانه دون ان تخرج
معه حورية التي بقيت صحبة نساء إيطاليات
جئن بصطحين اطفالهن
ومضين يتجولن بحرية في المكان
وتقدم المارشال باتجاه المنصة ليجد في استقباله عددا
من رجال الحكم المحلي والشيوخ
الذين يشرفون على الحفل
بعضهم يرتدي البذلة والطربوش، وبعضهم العباءة وفوقها
البرنس ، وقادوه في جولة بين الخيام الكثيرة التي صنعت
هلالا يحيط بميدان السباق ، ومن حول الخيام احتشد
جمهور المواطنين الذين جاءوا
للمشاركة في حفل الربيع
امتألت الخيام بمغنيات الاعراس ، بضربن
الطبول ويصدحن بالغناء، كما جاء منظمو
الحفل بقطعان من الاغنام ومعها
رعائها يقومون بجزها ، بما يرافق عملية الجز من غناء
واهازيج باعتبارها مظهرا من مظاهر فصل الربيع ، وانتشر
اعضاء الفرق الفنية الشعبية يرقصون ويغنون ويعزفون
المقرونة ويضربون الدربوكة والبندير والطار والصاجات
ويصنعون صخبا عظيما
وكان الحاكم العام يمر أمامهم، ويبتسم لهم، ويشير لاحد

معاونيه ، فيتقدم ليضع نقودا في ايدي هؤلاء الراقصين
والعازفين ومغنيات الاعراس ، وحن
موعد العابد الفروسية
فعاد الحاكم العام إلى المكان الذي نصبت فيه المنصة
وجلس في الكرسي العالي الذي اعد له وفي مستوى
اقل من مستواه صفت الكراسي التي جلس فوقها اعوانه
ومضيفوه، وخلفه مباشرة جلست حورية وبقية النساء
الإيطاليات، تفصلهم جميعا مسافة عن مضمار السباق
تحميمهم من الغبار الذي تنتثره حوافر الخيل
رغم انها أرض مرشوشة بالماء لتثبيت التراب
وقد بدأ الفرسان الذين خلعوا البرانس وبقوا في ملابسهم
الوطنية ، يستعرضون مهاراتهم
التي ظل المارشال يتابعها
بالمنظار المقرب عند ابتعادهم عن المنصة ، فهذا يأتي
راكبا جواده ثم فجأة يقف فوق ظهره ، ويمضي به
الجواد راكضا بنفس السرعة والفارس ممسك باللجام
متسمرا بقدميه فوق السرج
محتفظا بتوازنه طوال مدة وقوفه
وهؤلاء اربعة أوخمسة
فرسان يركضون متحدين ملتحمين
ثم يشبك كل واحد منهم
ذراعه في ذراع زميله اثناء ركض الجياد ، وهم
يصدحون باغنية مشتركة من اغاني الفروسية، في نفس
واحد ، وإيقاع واحد ينسجم مع إيقاع حوافر خيولهم
التي مضت تركض كأنها جواد واحد له خمسة رؤوس
وعشرون قدما ، وهذان فارسان يركضان معا مشتبكي
الأيدي ، ثم يقفان فوق ظهر جواديهما ويواصلان الركض
معا ، يؤديان بأيديهما المشتبكة ، وهما واقفان فوق
الجوادين الراكضين ، التحية للقائد الإيطالي، فيلوح
بيده ردا عليهما ، وتتحرك شفاته بكلمات

الاعجاب التي تضيع في الصخب والضجيج
وقد جاءه هؤلاء الفرسان ، بعد نهاية الاستعراض
يتقبلون منه التهنية على مهاراتهم، فدعاهم للوقوف معه
على المنصة، لأخذ الصور التذكارية، والمشاركة في تناول
المشروبات والمرطبات ودوارق
الحليب واطباق التمر، التي
احضرها منظمو الحفل لضيوف
الشرف ، في انتظار الفقرة
الثانية التي تلي الفروسية، وهي فرق الاذكار والأنشيد
الصوفية التي وقفت في أول الميدان
بدفوفها وصاجاتها تستعد لأنشاد مدائحها
واذكارها عند مرورها أمام المنصة
وكانت ضحكة المارشال ترن عالية، وسط هذا الجو الاحتفالي
البهيج، الذي ينسجم مع مزاج المارشال
وحبه الذي اشتهر به للمرح والحفلات
الصاخبة، وفجأة دوى الرصاص الصادر
عن حراس المارشال، يغطي على صخب الناس، وموسيقى
لعرض الذي تقدمه فرقة الاذكار ، وسقط مواطن ليبي
يرتدي العباءة البيضاء ، تحت قدمي
المارشال مخضباً بدمائه
فقد رآه هؤلاء الحراس يخرج راكضاً
من صفوف المتفرجين
ويخترق الدائرة المحيطة بالحاكم العام ، وقد وضع يده في
جيب صدره لاستخراج السلاح
الذي سيغتنل به المارشال باليو
فاجهزوا عليه قبل ان يتمكن من ارتكاب جريمته
كنت قريباً من المنصة ترى وتسمع ما يحدث
افزع دوي الرصاص حشود البشر القريبين من الحادث
ففرقوا هاربين يدفع بعضهم بعضاً
وهرع الجنود ورجال الدرك

لتطويق الحاكم العام وحمايته
من أي تهديد ، وكان هو قد اسلم
نفسه لطاقم الامن الشخصي الذي يرافقه ، فاسرعوا نحوه
باحدى سياراتهم العسكرية ، دون
انتظار للسيارة التي جاء بها
انطلقت لابعاده عن مكان المحاولة بسرعة فائقة
وتحركت وراءها سيارات كثيرة
بعضها عسكري وبعضها مدني
هي سيارات العساكر ورجال الشرطة ، مع سيارات احواله
الإيطاليين الذين اربعتهم المحاولة ، وخشوا من وجود خطة
تستهدفهم فهرعوا إلى سياراتهم ، يصيحون بنسائهم ان
يقفزن معهم إليها ، واندفعوا بها مسرعين غير عابئين
بالحشود التي أمامهم ، والتي ارغمها الخوف
لى ان تشق لهم طريقا يشبه المعجزة ، وسط الصراخ والعيول
واعتبرها الجائعون والفقراء من أهل المنطقة فرصة للهجوم
على الموائد التي تضم المشروبات والحلويات والاطعمة
يملأون بها بطونهم ، بل عمد بعضهم
إلى نقل الكراسي والابسطة والحصران
والزرابي ، التي كانت جزءا من المنصة
ولم تدر انت ماذا تفعل
غير ان تأخذ حورية اذا كانت موجودة
وتلحق بركب الحاكم العام
ذهبت إلى خيمة التشريفات ، لتبدأ بحثك عن حورية هناك
فاذا بالخيمة قد اجتاحتها افواج من الصبيان الحفاة ، الذين
يرتدون الاسمال البالية ، يطوون الاقرشة ويجرون الكراسي
ويفرغون اطباق الفاكهة في حجورهم
فلم تقف في وجه احد منهم ، لأن كل ما كان يهمك
في هذه اللحظة ، هو العثور
على حورية ، التي صرت خائفا
عليها ، لأنه يمكن لواحد من هؤلاء الثوار

الذين ينتمي إليهم صاحب محاولة الاغتيال، ان يعتبرها
امراة مارقة، خائنة لانتمائها الليبي ، تستحق القتل

كانت كل السيارات قد غادرت المكان ، ولم تبق الا بعض عربات

تجرها الخيول ، جاء بها بعض الاعيان والشيوخ

لم تبق غير سيارتك رابضة أمام الخيمة تحمل لوحات

الحكومة الإيطالية وعلم دولة الاحتلال ، وتصلح هدفا مغريا

يستقطب مشاعر السخط ضد المستعمرين ، الا ان هؤلاء

الفتيان الاشقياء من صانعي

الشغب ، انشغلوا عنها بالغنائم

وبعد قليل سينتبهون إليها ، لتستقبل

غضبهم وحجاراتهم بمجرد

الآنتهاء من نهب وتقويض الخيمة

في غيبة رجال الجيش

والشرطة ، الذين اختفوا متذرعين بحماية الحاكم العام

إلا أنك لا تستطيع ان تغادر

هذا المكان ، قيل ان تتأكد ان حورية

قد غادرت في امان هي الأخرى ، واثق

من انك لم ترها تغادر

حتى الآن ، ولا بد ان تذهب للبحث

عنها في الخيام المجاورة

ولكنك لا تستطيع ان تترك السيارة

قريبا من هذه العصابات

في هذه الاثناء رأيت شيخا من شيوخ

المنطقة، غارقا في الزحام

يحاول تهدئة روع الناس ، طالبا

منهم التزام النظام وإيقاف

عمليات النهب ، فوانتك

فكرة استخدامه لحماية نفسك

وحماية السيارة والبحث دون خوف عن حورية

وبسرعة اخذت بيده تسحبه باتجاه السيارة وتسأله

ان يركب معك ، ليستطيع ان يتحرك بسرعة بين الناس
يطلب منهم الهدوء ، وهذا ماحدث فعلا . نزلت العلم الإيطالي
من مقدمة السيارة ، واخذت الشيخ معك ، وفتحت له سقف
السيارة ، وسرت تشق به الجموع ، وهو يخطب بأعلى صوته
في الناس ، وانت تقود السيارة وبصرك يجول بحثا عن حورية
وتقف أمام كل خيمة من الخيام التي احتفى بها اصحابها من
الفوضى وفضلوا البقاء حتى تنتهي حالة الفرع
والرجل يحاول ان يرفع صوته فوق الصخب والضجيج
يسأل الناس ان يعودوا في هدوء إلى بيوتهم
والا استقروا الحكام واجبروهم على انزال عساكرهم
لمعاقبتهم وتأديبهم بالحديد والنار
وكان الشيخ بين الحين والآخر يضرب كفا بكف
متأسفا على الرجل الذي مات ظلما وعندما استقرت منه
عما يقصده ، افهمك ان المسألة
لم تكن محاولة اغتيال كما اعتقد
الحراس الذين أطلقوا النار ، فالرجل
كان مواطنا عاطلا عن العمل اسمه معتوق
تستعين به مدرسة جنزور الابتدائية
في اعمال التنظيفات بين الحين والآخر ، وهو يسعى مع
المدرسة ان يحصل على عمل دائم كاحد السعاة دون فائدة
وقد أخبروه ان الحاكم قادم إلى جنزور ، وكتبوا له التماسا
يقدمه إليه ليأمر بتعيينه في المدرسة ، وعندما قتل كانت يده
ما تزال قابضة على الالتماس الذي ظنه الحارس سلاحا
واصلت قيادة السيارة انت الآخر بشيء من العصبية ، قابضا
على مقودها بأصابع متشنجة ، تشعر بالغيظ والاسى
مما حدث ، وفجأة وسط الضجيج ، تنهى إليك صوت حورية
تتأديك لحظة مرورك أمام احدى الخيام . أوقفت السيارة تمد
بصرك إلى مصدر الصوت ، فرأيتها وقد احتمت بمجموعة من
مغنيات الاعراس ، واندست بينهن متظاهرة بانها واحدة منهن
لكي تخفي نفسها عن بعض الرجال الغاضبين مما عرفت انهم

يبحثون عنها ويهددون بقتلها . اقتربت بالسيارة من مدخل
الخيمة إلى الحد الذي استطاعت فيه حورية ان تقفز
مباشرة إلى المقعد الخلفي وتدس جسمها بين الكراسي
لكي لا يراها احد من الجمهور الذي يهددها ، ودون
ان تنذر الشيخ بما ستفعله، هبطت بقدمك عنيفا
على دواسة الوقود لتزأر السيارة وتقفز، وتصنع
حالة من الفزع بين الناس الذين تقافزوا شمالا ويمينا
تاركين لها الطريق ، ولم تقف لتسمح للشيخ
الذي صار يصرخ غاضبا طالبا النزول
الا بعد ان ابتعدت السيارة أكثر من ميل
على مكان الحفل
كان المكان خاليا، فادرت رأسك تسأل
حورية ان تستقيم في جلستها، فوجدتها منكئة
على وجهها فوق المقعد الخلفي
تبكي بكاء صامتا ، وما أن رأت الشيخ يغادر السيارة
حتى تحول بكائها الصامت إلى نواح وصراخ
تحركت بالسيارة قليلا خارج الطريق العام ، وساعدتها
على ان تتمدد وترتاح في المقعد
الخلفي، ووجدت زجاجة
ماء في الصندوق الخلفي للسيارة ، فسالتها
ان ترش شيئا من الماء على وجهها، يساعدها
على الانتعاش وبعد ان عادت إلى الجلوس ، فتحت
شنطتها واخرجت قنينة
عطر صغيرة استعانت بها على العودة الى حالتها الطبيعية
ونشرت بها عرقا زكيا داخل السيارة
كانت تعرف ان المارشال بالبو بخير، بل تعرف
أيضا ما صار يتردد بين الناس عن الخطأ الذي
وقع فيه الحراس عندما قتلوا
رجلا بريئا وحدثوا كل هذه الفوضى
كان الشيء الذي افزع حورية أكثر من أي شيء سواه

هو انها سمعت صوت رجل يبحث عنها وهو يحمل فاسا
في يده مهددا متوعدا، يريد ان ينتقم لشرف الليبيين الذي
دنسته عشيقه بالبو، التي اصطحبها معه إلى هذا الحفل
حدث هذا بعد ان خلا المكان من العساكر ورجال الشرطة
فاستغل الرجل هذا الوضع، وجاء لخيمة الشرف يبحث عنها
ولولا ان احدى الزمزمات اشفتت عليها ، ووضعتها بين نساء
فرقتها ، لتصرف انظار هذا الرجل ومن كانوا معه عن حورية
لكانت قد تحولت إلى اشلاء تحت ضربات الفأس
سألتك حورية عندما أوصلتها إلى بيتها ، الا تذكر شيئا
عما رأيت ، لأن النفخ في هذا الحادث
ونشر اخباره بين الناس
لن يكون في صالح العلاقة الإنسانية
القائمة على الود والتفاهم
التي افلح المارشال في تحقيقها بين عنصري الوطن
من ليبيين وإيطاليين ، " ولا يجب ان نترك حارسا غيبا يفسدها"
هكذا كانت تقول ، وامثالا لتعليماتها لم تفتح فمك بكلمة واحدة
عن الحادث حتى لمختار العساس وعياد السائق وهما يسألانك
في فضول ، عن السبب الذي جعل الباشا الكبير لا يعود معكما
كما كان متوقعا ، وعن الحالة المرضية التي اعترت حورية
حتى اضطرت إلى الاتكاء عليك، وهي تخرج من السيارة
وتصعد الى بيتها ، لم تقل لهما شيئا ، واسرعت بالعودة
إلى الفندق حيث احتفظت بصمتك ، وقررت الا تقابل احدا
ذلك المساء لكي لا تكون شريكا في جلسة يثار فيها
الموضوع ولعل هذا التكتم هو الذي جعل احتياج العواطف
اثاء الليل يزداد حدة ، فامضيت ليلة عامرة بالكوابيس
كان بطلها ذلك الرجل القتل ، الذي ارتدى لهذه المناسبة
عباءة نظيفة ، وجاء يملأ قلبه العشم في مروءة الحاكم الإيطالي
الذي سيحقق له حلم ان يصبح عامل تنظيفات بمدرسة جنزور
فاغتالت حلمه البسيط رصاصات حارس مذعور
وكانت صورة معنوق المسكين وهو ينكفي جثة هامدة

فوق البساط ، وقد اطل وجهه المتعب العامر بالتجاعيد
بعينين جاحظتين رعبا ، وفم مشدوه ، ومفتوح بصرخة تجمدت
فوقه إلى الابد ، هو آخر ما وعته الذاكرة لحظة الاستيقاظ
وعرفت عندما ذهبت فور استيقاظك تشتري الصحف المحلية
من عربية وإيطالية ، لترى ما حدث من اصداء على صفحاتها
ان ما قالته لك حورية قد تحول إلى سياسة رسمية ، وان
ستارا من الصمت اسدل فوق الحادث ، فلم تأت على ذكره
هذه الصحف، ولم تتكلم عنه اذاعة الراي المحلية التي
جلست في المقهى تسمع فقراتها الاخبارية الصباحية
تنتال من مكبر الصوت المتبث في برج الساعة
ووصلت إلى البيت لتسأل عن صحة حورية ، فوجدت
باننتظارك امرا عاجلا منها ، تركته لك مع حواء، وهو ان
تأخذ السيارة وتذهب إلى بيت الشيخ البلبل في زنقة
شائب العين وتحضره لها على عجل
رغم امتهانها العمل في المستشفيات الإيطالية كمرمضة
فان ولاءها بقى لهذا النوع من العلاج الروحي
الذي يقدمه رجال من أهل الله مثل الشيخ البلبل واشباهه
لم تكن المسافة بعيدة ، ولم يكن الزقاق الذي يقع فيه بيت الشيخ
يتسع لمرور السيارات ، ومع ذلك اخذت السيارة
لأن هذه هي تعليمات السنيورة حورية الدائمة لك
كما حدث من قبل ، عندما ذهبت لاحضار سيدة التفصيل والخياطة
أو فنى تركيب الستائر أو غيرهما ، ممن كان من السهل عليك
الذهاب لاحضارهم من اماكن قريبة ، لا تحتاج لاستخدام السيارة
إلا أنها الزمتك بان تذهب إليهم بها ، كنوع من التعبير عن
احترامها لهم ، فالتناس يحبون ان يجدوا سيارة في انتظارهم
وبعضهم يحب ان يراه الناس
راكبا مثل هذه السيارة الفارحة
وهي لا تريد ان تبخل عليهم بمثل
هذه المتعة ، التي لا تكلف
شيئا . الشيخ البلبل ليس من هذا النوع

الذي يتباهى بالمظاهر الدنيوية ، ولن يهमे
ان يأتي راجلا أو راكبا افخر السيارات ، وعندما
ذهبت إليه وضعت السيارة قريبا
من ميدان الساعة ، ودخلت إلى الزقاق ، وجدته
واقفا بانتظارك أمام باب بيته، مرتديا جلبابه
وطاقيته الابيضين شاكرا لك صنيعك لأنك
جئت تماما في وقتك ، كنت تعرف ان
السنيرة حورية لم ترسل له خبرا مسبقا باحتياجها إليه
وانه لا يملك هاتفًا يمكن ان تهاتفه به، وانما هو هاتف
من الغيب يزوده بهذه المعارف والمعلومات التي لا يعرفها
الا من لديه اتصال بالعلم اللدني
قال بعد ان استوى جالسا على المقعد المجاور لك :
— اذن فقد احزنك مصرع معتوق المسكين على يد حراس
المارشال ، ما اعظم جهل هذا الحاكم الإيطالي عندما يخشى
الموت على ايدي الليبيين ، وهو الذي لن يموت الا على
ايدي جنوده الإيطاليين . انهم هم ، ولا احد غيرهم ، من
سيطلقون عليه النار ويردونه قتيلًا .

ارسل كلام الشيخ ارتعاشة هزت جسمك كله
ان احدا لا يجروء على ذكر الفاجعة التي حدثت بالامس
فما بالك بذكر المصير المرعب الذي ينتظر
حاكم البلاد على ايدي جنوده مستقبلا . ليت له لم يقل
ما قاله أمامك لأنك ستكون
مرغما على ان تحتفظ بهذا السر
في صدرك ، ولا تبوح به ابدا
لهؤلاء الناس من أهل الله اساليب في البوح والتعبير
تختلف عن بقية الناس ، ولهم سبل لا احد يمكن
ان يتنبأ بها ، والا لماذا
اختراك ليقول لك هذه النبوءة الخطيرة ، هل لأنه رأى حزينا
لمقتل الرجل البريء ، فارادك ان تطمئن لأن هناك انتقاما عادلا

ينتظر الحاكم الذي تسبب في المأساة ؟

لم تجرؤ على ان تتفوه

أمامه باي تعليق ، ولم تجد في نفسك القوة لأن تسأله السؤال

الذي يستدعيه حديثه ، وهو موعد تحقيق هذه النبوءة

ولم يتفوه هو بآية كلمة أخرى . استغرق في صلواته وتسابيح

التي لم يكن يقطعها الا بنداءات تشبه الصراخ

" الله حي، الله حي " "مدد يا اسيادنا مدد"

" دستور ياسيدي الشنشان ، ياللي راقد في دحمان "

"دستور ياسيدي منصور ، ياللي نورك اعظم نور"

امضى الشيخ وقتا يزيد على ساعتين، داخل البيت مع حورية

وأثر بعد انتهاء مهمته، ان يعود إلى بيته على الاقدام

فتركته وشأنه، وصعدت الدرج للقاء حورية

التي ارسلت لك مرجان يستدعيك . لم تشأ اثناء حديثها معك

ان تتوقف كثيرا عند حادث الامس . اشارت إليه اشارة

عابرة وهي تنقل إليك امتنان الحاكم العام ، بما فعلت

عندما ابين ان تهرب أمام المشاغبين ، وبقيت بينهم

تبحث عن حورية ، حتى وجدتھا وانقذتها مما كان يتهدد

حياتها . كان واضحا انها تجاوزت تلك الازمة النفسية

الناجمة عن فرح الامس، وافلحت في استرداد طبيعتها

المرحة ، المتفائلة المحبة للحياة

شكرا للشيخ البلبال ، الذي مازالت رائحة اعشاب

ذات العبير الطيب تعبق في انحاء البيت ، تمارس تأثيرها

المهدىء للاعصاب ، وتغري بالاستلقاء فوق احدى

هذه الكراسي المريحة . انتبهت وانت تستسلم مرغما

لحالة الاسترخاء الذهني الناتجة

عن تأثير هذه الرائحة ، إلى حورية تضع بين يديك

مظروفا كبيرا مليئا بأوراق نقدية ، ظهرت حوافها

واضحة، تعيدك إلى حالة اليقظة والانتباه، فتتفرس

في المظروف مأخوذا ومندھشا ، متسائلا عن الغرض

من اعطائه لك ، لأنك لا يمكن ان

تتصور انه لك ، ولابد انه مبعوث عن طريقك لاحد
الناس إلا أن حورية
مضت تؤكد انه لك ، قائلة بانها
مكافأة رمزية خصك بها الحاكم
العام ، نظير موقفك الشجاع يوم امس
اعتذرت عن قبول النقود، وانت تعيد
إليها المظروف قائلا لها بان ما فعلته لم يكن يعدو القيام
بواجبك ، وان ما تتقاضاه من مرتب ، وما تلقاه
من حسن المعاملة ، يفيض ويزيد عما تقدمه من عمل لها
وان ما تشعر به من فرح وانت تخدمها
يكفي وحده ليكون الهبة التي لا تريد شيئا سواها
كنت تقول هذا الكلام صادقا ، إلا أنك على ثقة من انها
لن تسترد النقود بل ستلح عليك
في أخذها، وهو ما حدث
فعلا ولم تصدق، عندما ذهبت بالنقود
إلى السيارة، واخرجتها
من المظروف تعدها ، انها تصل إلى هذا المبلغ الكبير
الذي يساوي مرتبك الشهري لأكثر من عامين
نقود كثيرة ، كثيرة ، لاتدري
ماذا تفعل بها ، أو كيف ستقوم
بانفاقها . قررت ان تكون حكيما
فتضع نصف النقود
جانبا وأن تعطي لنفسك متعة
وحرية التصرف في النصف
الثاني . كان الوقت أوان القيلولة، ولم يكن هناك احد
قريب منك غير مختار العساس ، الذي دخلت عليه
غرفته فوجدته مستغرقا في اغفاءة القيلولة . ليقتطه
ووضعت في حجره كومة من الفرنكات ، بلغت أكثر
من مائة وخمسين فرنكا ، أعطيتها إياه وهو يفتح
عينيه في حالة من الذهول بين النوم

واليقظة لا يدري ان كان ما يحدث حلما أو علما
ويسأل عما حدث ، فقلت له هامسا ، منحنيا برأسك
إلى الناحية المعتمة من الغرفة ، لتعطي الموقف
لون الحلم والأوهام ، انها الملائكة التي تطعم الناس
ارزا اثناء النوم ، قامت بتعديل
اسلوبها ، عندما اكتشفت ان النقود تجلب سعادة أكثر مما
يجلبه الارز ، واستبدلت به نقودا، فلا تستيقظ ، وواصل
النوم لتحصل على مزيد من الفرص
رأيت وانت تغادر الجراج عياد الفراني قادما ، وكدت
تدخل يدك في جيبك لتدفع له جزءا من النقود ، إلا أنك
تذكرت اللكمات التي انهال بها عليك منذ يومين ، فقررت
الامتناع عن اعطائه شيئا ، لأن هناك اناسا اقرب إلى قلبك
واجدر منه بمشاركتك هذه النعمة
اتفقت معه على تقسيم العمل بينكما فاختار لنفسه العمل في
الفترة الصباحية ، على ان يترك لك فترة المساء
وما يتبعها أحيانا من مهمات ليلية ، فوافقت ، رغم
ان هذا الترتيب سيحرمك من وجبتَي الافطار والغداء
الشهييتين المجانيتين في بيت حورية، واتفقتما
أيضا على ان يبدأ تنفيذ هذا النظام
منذ الغد ، تاركا له مفاتيح السيارة ليكمل عمل اليوم
بدلا منك ، وقبل ان تغادر باب البيت ، رأيت حواء
عائدة بسلامها من سوق الحوت فاخذت كومة
الأوراق المالية التي كنت ستعطيها للفراني
ورميت بها إليها
سرت في فيا كانيفا ، منتشيا ، منتقلا منه
إلى شارع الملك فيتوريو إيمانويل ، تتأمل نوافذ الحوانيت
وتبحث عن افضل الطرق لاتفاق المبلغ الضخم الذي قررت
انفاقه من منحة المارشال . سترسل الجزء الاكبر
منه لأهلك في "أولاد الشيخ"
تمسح به قليلا من البؤس عن اطفال العائلة ، ولكي

يصل المبلغ حقا لهؤلاء الاطفال ، فلن ترسله نقودا
يستأثر بها الكبار وانما في شكل ملابس والعباب
وحلوى ومواد غذائية عليهم يعيشون يوما من الأيام
التي حلمت بها في طفولتك
وانت ترى الالعباب في ايدي الآخرين أو الحلوى
أو التفاح ولا تستطيع الحصول على شيء
من هذه الاشياء

عندما ذهب في الصباح التالي
إلى وكالة الشوشان، اندهش
الناس الذين يعرفونك ، لأنك لا تزال
موجودا في طرابلس
فقد ذهب في اعتقاد الجميع ، بما في ذلك
أهلك في أولاد الشيخ
انك الآن في عرض البحر ، ضمن
المسافرين إلى بر الحبشان
ابلغتهم ان قرارا صدر في آخر لحظة ، يقضي
بتأجيل سفرك لاحتياجهم إلى سائق
في هذه الفترة ، وسألت الداهيين
إلى البلدة ان يبلغوا ذلك لوالدك، وعرفت
ان هناك سيارة نقل ستسافر

ببضائعها إلى هناك آخر النهار ، فاخذت معك
عتالا يجر عربة يد ، واتجهت إلى أول دكان للمواد
الغذائية ، تملأ العربة دقيقا وشايا
وزيتا وبسكويتا وحلوى ، وتأخذ سلة كبيرة تملأها
بالفواكه الموجودة في السوق مثل الموز والتفاح والعنب
وكيسا من الخبز الإيطالي الذي لا يباع الا في طرابلس
ثم اشتريت من دكانة الملابس كمية كبيرة من ملابس
الاطفال والصبيان من مختلف الأحجام نسائية ورجالية
وكمية مثلها للكبار من الملابس الشعبية العربية التي
يرتديها الناس في البلدة

وما يناسب اذواقهم من الوان، واشتريت من عربات
الشارع التي تباع ألعاب الاطفال مجموعة من العرائس
وسيارات اللعب والزمارات والبالونات ، وقسمت
كل ما اشتريت إلى قسمين متساويين ، احدهما
ارسلته إلى بيت والدك واطفاله واسرته
والثاني لبيت امك واطفالها واسرتها ، ورجعت
وانت سعيد بحجم المفاجأة الهائلة التي سيعيشها
اخوتك الصغار المتوزعون بين
البيتين . لابد لك الآن بعد ان اطمأن قلبك لما فعلته
بحق الاسرة الكبيرة في القرية ، ان تطمئن أيضاً
إلى حال اسرتك الصغيرة في المدينة، التي لا تعرف
اسرة سواها وهي اسرة الحاج المهدي
انتظرت حتى فتحت المتاجر بعد استراحة الظهيرة ، وقصدت
شارع كوشة الصفار حيث احضرت عتالا ممن يسمونه
حمال بوعديلة ، ومررت على
دكان الجزار، فوجدت لديه خروفا صغيرا
استحسنتم فكرة شرائه كاملا
ليكون وقع المفاجأة أكثر قوة
من مجرد قطع من اللحم
مهما كانت كميتها ، القيت
به في سلة العتال واضفت إليه
ما يساعد على طهيته، من زيت
وسمن وطماطم معجون وعدد
من اكياس المكرونة، دون
ان تنسى شراء ما يكمل طقوس
الموائد من شاي وسكر وفستق سوداني
ومن دكانة الخضروات والفاكهة ملأت سلة أخرى
حملتها بيد وباليدي الأخرى لفائف اشتريتها
من تاجر الملابس التقليدية
فستانا نسائيا يليق بامرأة شابة مثل ثريا ، ورداء للام

وجلابية نوم للاب ، واتجهت بما تحمله
إلى زنقة بنت الباشا يتبعك
العتال الذي ظن انك تذهب بهذه الحمولة خاطبا، فلم ترد
على سؤاله ولا على التهاني التي مضى يزفها إليك بهذه
المناسبة إلى ان وصلت به بيت الحاج المهدي، فغمرت
وجه العتال علامات الدهشة ، لأنه يعرف صاحب البيت
وان آخر بناته تزوجت منذ اقل من عام مضى
ثم انفرجت اساريره وكأنه وجد الجواب الذي
يطلب تأكيده منك ، متسائلا
عما اذا كانت هذه الابنة قد طلقت وجئت انت لخطبتها
فلم ترد على ان قلت متمما
كلمة لم تشأ ان يتبينها ، قلت له
من صميم قلبك "يا ريت"
توقعت طبعاً ان تغمر أهل البيت حالة من الاستغراب
والاندهاش لدى رؤيتهم لهذه الهدايا، التي تكلفت اموالا كثيرة
والتي لم يتعود ان يهاذيها الناس لبعضهم الا عند الشروع في
خطبة أو زفاف، وهيات نفسك للرد على مثل هذا الاستغراب
فقد اردت ان تحتفل بنجاتك من مواجهة احوال الحرب
بوليمة تتفق وهذه المناسبة
توكلت على الله وطرقت الباب، وقد
توقعت ان يكون وجه ثريا
هو أول وجه تراه ، إلا أن الصبي
كان اسبق منها لفتح الباب
وقبل ان تسأل الصغير ان يخطر أهله بوجودك
امرت العتال ان يفرغ حملته في السقفة ويمضي
مغمورا بالفرح ركض الصبي يبشر أهله ورجع بسرعة
يقودك إلى المربوعة حيث يجلس والده
عرفت بعد ان دخلت وجلست
ان الحاج المهدي صار يجد
صعوبة في المشي ، بسبب

المضاعفات التي تركها له برد
العظام . وجده جالسا على المندار
يستند بظهره إلى وسادة
وضعها بينه وبين الحائط ، يحاول
ان يبدو متماسكا ، وهو يعزو ما حدث له
لارادة الله ومشينته
ونبرة اسى وانكسار تخالط صوته، طبعا لا شيء فوق ارادة
الله ، ولكن ماهي التدابير التي تمت لتعويض مصدر رزق
العائلة الذي توقف بمرض الاب ؟ لم يكن أمام العائلة إلا أن
ترضى بذهاب الصبي إلى الدكان بدلا من مواصلة دراسته
في الكتاب، لا لكي يصنع النعال أو يقوم باصلاحها
كما كان يفعل والده ، فهو لا قدرة له على ذلك
ولكن ليحاول بيع ما تبقى من نعال أو أخرى يزوده بها
اصحاب والده من صانعي الاحذية مقابل هامش ربح بسيط
جاعت ثريا وامها لتحيتك
وهما في دهشة لأنك لم تسافر
مثل فتحي إلى الحرب، وتسالان عما اذا كانت السفن التي
حملت المجندين قد تراجعت عن السفر
فاسرعت باخبارهما ، وقبل ان تراودهما
اية آمال كاذبة عن نجاه
زوج ثريا من الحرب ، بان الاعفاء الذي صدر لم يشمل احدا
غيرك ، وقالت الام ما معناه ان ذلك ليس امرا غريبا مادمت
الوحيد الذي كنت تخرج كل يوم من المعسكر
ولم تشأ ان تسهب في شرح الظروف
التي ادت إلى هذا الاستثناء
كما لم تبادر باية اشارة إلى الهدية التي احضرتها لهم
اذ وجدتهم يتقبلونها دون اعتراض ، لأن ظروفهم فيما يبدو
لم تكن تسمح بترف التمتع والتعزز عن قبولها
بل هم لم يسألوا حتى عن المناسبة التي استدعت
احضارها، فقد رأوا في مرض الاب

سببا كافيا لمثل هذه الاعانة

كل ما سمعته كلمة عتاب من الام

لأنك تكلف نفسك كثيرا

كلما جئت لزيارتهم ، اتبعتها بجملة شكر وامتنان ودعاء

بان يجرل لك الله العطاء ، ويفتح في وجهك ابواب الخير

قالت ذلك وهي تهيء لنفسها مجلسا في ركن الغرفة

لاعداد الشاي ، وبجوارها جلست ابنتها التي احضرت طبق

الكاكوية ، لتقشيره وتحميصه ، ولم يشأ الصبي ان يصبر

حتى يأتي موعد تفقد العائلة لما جئت به من الهدايا

فبحث حتى وجد كيس التفاح الذي اخذ منه واحدة

وجاء يقضمها ، وبدا لك جليا

انك موضع حفاوة وترحيب

من كل افراد العائلة ، وانك لا تخطيء

في حقهم أو حق نفسك

عندما تتصرف باعتبارك عضوا في هذه العائلة

إلا أن احساسك الغامر بالبهجة لما وجدته من قبول واحتفاء

يتعارض مع جو الكآبة الذي يسيطر على البيت ويغطي

وجه اصحابه ، بمن فيهم ثريا التي ازدادت خلال هذين اليومين

نحولا وضعفا ، وصار وجهها أكثر شحوبا ، وفاضت عيناها

الجميلتان بالاسى . ولم تشأ ان تترك الحديث يتلون باجواء

أهل البيت ، ويمضي بالاتجاه الذي يريدونه ، والذي ينحصر

في اشغالهم بمرض الاب ، وغياب زوج الابنة، وايقاف

دراسة الطفل ، وسوء دخل الدكان ، وانطلقت تتحدث عن

كرامات الشيخ البلبال ، وقدرته على ان يتنبأ بالمستقبل

وحقيقة انه يعرف من اسرار هذا العالم ما لا يعرفه سواه

ونصحت الاب المريض ان يسعى للاستفادة من بركاته

فهو يسكن في حي مجاور، ولن يتردد في زيارة سريعة

لهذا البيت ، وانتقلت للحديث عن انواع السيارات الجديدة

التي تتسلق الهضاب، وتطوي الأرض الوعرة، وعن الاجهزة

الحديثة التي تمثل آخر مخترعات الاجانب، وهي هذه

الاجهزة التي تتكلم وتغني كما رأيتها في محلات الإيطاليين
مثل الحاكي والمذياع ، وعاد الاشرار إلى وجه ثريا التي قالت
باسمة :

— لا يتحدث الناس هذه الأيام الا عن الحاكي الذي يغني
وكلما ظهرت اغنية جديدة في الاعراس قالوا انهم
اخذوها من الحاكي حتى صرت انتشوق إلى ان اسمع
هذا الحاكي وارى شكله كيف يكون .

قلت لها ان الحياة مع الحاكي سيكون لها طعم آخر لأن
بامكانها ان تأمر كل مطربي الشرق ان يغنوا لها لأن كل
اغانيهم مطبوعة في اقرص سوداء اسمها اسطوانات
ما أن تضع الواحدة في الحاكي حتى تنطلق تدور وتغني
انتهى دور الشاي الثالث الذي يأذن بنهاية الجلسة، ولكن
ذهنك ظل مشغولا بدورة الاسطوانة تحت ابرة هذا الحاكي
الذي يغير شكل الحياة ويجعلها أكثر جمالا واقل ضجرا وسأما
سألتك الام ان تأتي في الغد لتتناول معهم وجبة الغداء
وتشارك في استهلاك شيء من هذه اللحوم الكثيرة
التي جئت بها ، فأرجأت العزومة يوما واحدا، لأنك
صممت على أن تعود إليهم

بعد يومين بهدية أخرى، هي هذا الحاكي الذي تحلم ثريا
بان تراه وتسمعه ، وان يكون موعد الغداء
مبكرا قليلا بسبب ما لديك من عمل مسائي
ستحقق لها هذه الامنية دون ان يكلفك ذلك

عنتا ولا مشقة ، فالنقود التي تكفي لشراء الحاكي
موجودة ، وعشاق الحكايات يقطعون البحار السبعة
ويهدون الجبال والاسوار العالية، ويعرضون حياتهم
للمخاطر والهلاك لمجرد الفوز بابتسامة ، أو نظرة رضا
من حبيباتهم ، فكيف تبخل بمبلغ لديك ما يوازيه عدة
مرات ، تشتري به هدية للمرأة التي تحب ، خاصة
وانها أكثر امرأة في العالم احتياجا
لمثل هذا الحاكي ، فهي تجلس اليوم كاملا داخل البيت

لا عمل ولازوج ولا اطفال ، عدا أبا مريضاً مشمولاً
بعناية الام ، وصبيّاً يذهب لقضاء جل يومه في الدكان
فما الذي بقي لمثل هذه المرأة الوحيدة الحبيسة
بين الجدران ، غير الضجر
سيكون الحاكي حلاً سحرياً لمشكلة ثريا
سيحدث انقلاباً في حياتها ، ويبدد قسوة الواقع
الذي حولها بايقاعات الموسيقى وجمال الغناء بالوانه
المرحة المبهجة
انها خدمة إنسانية، ستقابل بها الله يوم القيامة، وستبقى
علامة مضيئة وراسخة في ذاكرة ثريا، ستذكرك
بها إلى آخر العمر. انت تحبها حبا
بلا أمل ، كلاكما يعرف ذلك
وكأي حب في الدنيا ، له في النهاية مستحقات لا بد
من تسديدها ، دون اعتبار للارباح والخسائر
ودون ان ينتظر مقابلاً لما اعطى
ما شجعت أكثر على شراء
الحاكي ، هو ان تاجر ليبيا
اسمه المشيرقي ، افتتح في الفترة الاخيرة
متجراً محاذياً لمتاجر الطليان في كورسو سيشيليا
يتخصص في بيع هذه الاجهزة الحديثه
مثل المذياع والحاكي وآلة الخياطة
ومستلزمات هذه الاجهزة من محولات
وبطاريات واسطوانات
وغيرها، وله زبائن من أبناء البلاد ، مما يعني ان هذه
الاجهزة لم تعد حكراً على الإيطاليين واثرياء اليهود
وكننت تعرفت في وقت سابق على احد أبناء المشيرقي
واسمه الهادي، الذي ابلغك بان لديهم تخفيضاً خاصاً
لليبيين، فجاء التفكير في شراء الحاكي فرصة للاستفادة
من هذا التخفيض
كانت الارفف المخصصة للاسطوانات تمتلئ باسطوانات

الالاغاني الإيطالية، بينما احتلت الاسطوانات العربية
ركنا صغيرا وفهمت من صاحب الدكان ان اغلبها تحتوي
على اعمال الفنانين المصريين، وكان اندهاشه كبيرا
عندما عرف انك لم تسمع من قبل بفنانين مثل
سلامة حجازي وسيد درويش
وفتحية احمد وصالح عبد الحي ومنيرة المهدية
ويوسف المنيلوي وام كلثوم ومحمد عبد الوهاب
ونجاة علي وزكريا أحمد ، وهم مطربون
وملحنون يعرف اغلبهم معرفة شخصية ، فمنهم
من جاء إلى طرابلس وقدم حفلاته على
مسارحها ، والتقي به عندئذ ، أو عند زيارته إلى مصر
ومشاهدة حفلاتهم هناك وارك مجموعة الصور التي تجمعها
مع بعضهم معلقة في احدى اركان الدكان ، ولهم جميعا
اعمال غنائية وموسيقية موجودة على هذه
الاسطوانات التي يبيعها
في الدكان ، وهو يأسف لأن الفنانين
الليبيين لا يجدون من يسجل اعمالهم ، وعدا المطربة
اليهودية مسعودة الراحلي وزميلها المطرب صهيون
محلولة ، فانه لا وجود لشيء ليبي عدا اغنية واحدة
سجلها الشيخ على هنكه في المانيا
أو مجموعة اسكتشات واهازيج سجلها مطرب
وملحن مهاجر إلى تونس اسمه بشير فهمي
قائلا بانه سيسعى لاقناع والده
بانشاء شركة لتسجيل اسطوانات للفنانين
الليبيين امثال عثمان نجيم ، وكامل القاضي ، وشاكر
المرباط ، ومحمد سليم واحمد شاهين
كي يعرف العالم العربي ، ان في ليبيا ابداعا فنيا راقيا
ثم ساعدك في اختيار الاسطوانات التي تشتريها لهؤلاء
الفنانين المشرقيين وللأغاني التي سجلتها في تونس
المطربة مسعودة الرحلي ، والاغنية المشهورة

للمطرب صهيون محلولة
" حوت يأكل حوت ، وقليل الجهد يموت"
واغنية الشيخ علي هنكة
"بنات في برلين يا ما جملهم
حرامات بالفضة في خواصرهم"
واسطوانات أخرى سجلتها اذاعة الراي لاهازيج
الطرق الصوفية ومدائح المنشدين وموسيقى
الحضرة العيساوية
ونماذج من العزف المنفرد على الات شعبية
مثل المقرونة والغيطه وآلات الايقاع واغاني
بشير فهمي وبينها " يا بنت عمي محلاكي "
و " الطير اللي يغني وجناحه
يرد عليه " واغنية سبق ان سمعتها له
في بيت حوريه
وهي " الحرة اللي عشقت في وصيف "
وقبل ان تجازف بانهاء هذه الصفقة ، اردت ان تعرف
بان نقودك تكفي كل هذه المشتريات ، فسألته
عن الثمن، وعندما اجرى حسبه و ذكر
لك المبلغ بعد انقاص الخصم ، وجدت بان ما لديك
من مال يكفي لشراء أكثر من جهاز ، فمنحته النقود
سعيدا بانك سوف تصنع بهذا المبلغ الزهيد احدى أجمل
المفاجآت لثريا ، اراد الرجل ان يجاملك فاضاف
إلى الاسطوانات التي دفعت ثمنها
اسطوانة أخرى على سبيل الهدية، تحتوي ترتيبا
للقرآن الكريم بصوت مقرئ مصري اسمه محمد رفعت
وحرصا على التوقيت الذي يعطي للمفاجأة قوتها، لم تشأ
عندما وصلت إلى بيت الحاج المهدي في الموعد
المحدد للغداء ان تفتح صندوق الورق المقوى
الذي احتوى الجهاز فور وصولك . ادخلته معك ، وتركته
مغلقا ، موحيا بانه شيء

أشتريته لبينك ، ولم تجد وقتاً لحمله إليه قبل الغداء
وجلست مع الحاج المهدي حول قصعة البازين التي
احتوت لحما يكفي لإشباع عشرة أشخاص ، اكلت
بشهية مفتوحة، واعتبرت وجودك في هذا البيت ، قريباً
من ثريا وأهلها، عيداً، وحنان
موعد الشاي فانتظمت

الحلقة التي ضمت الاب والام وابنتهما وابنتهما
وبصمت مددت يدك إلى صندوق الحاكي تفتحه
كان صاحب الدكان قد أوضح لك
كيفية تشغيله، وهياً ليكون
جاهزاً للعمل ، وما عليك إلا أن تضع الاسطوانة
وتضع عليه الرأس ذا الابرّة
الذي في نهاية الذراع ، ليغني
وكانت الاسطوانة التي اخترت
ان تبدأ بها، هي تلك التي تحتوي
ترانيل قرآنية من سورة الرحمن ، ولم ينتبه الجميع الا
وهذا الصوت الشجي الذي يبدو كأنه قادم من السماء
يجلجل في وسط الغرفة :

— الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان، علمه البيان، الشمس
والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها
ووضع الميزان .

كان وقع المفاجأة عظيماً ، أكثر مما توقعت ، فقد مرت
لحظة صمت وذهول وانصات ، قبل
ان ترتفع صيحات الدهشة
من الجميع ، ونهض الحاج المهدي
من مكانه، وكأنه لم يعد
كسيحاً ، ثم عاد يلهج باسم الله، في حالة
من الاستغراب
كانه يشهد احدى المعجزات ، كذلك الام
التي خالط رد فعلها

شيء من الخوف، وظلت تبسمل وتحول، كانها في حضرة
عمل من اعمال الجن ، ولا غرابة ان يكون استقبال الام
والاب بهذه الطريقة ، لأنهما يجهلان ما يحدث على
مستوى هذه الاختراعات الحديثه ، عدا ما ذكرته عرضا
في حديثك منذ يومين فتركت لابنتهما مهمة
ان تشرح لهما عمل الحاكي
وانتهت الايات المسجلة على الوجه الأول، فلم تدر
الوجه الثاني وانما أنتقلت إلى اسطوانة أخرى، وانشيد
جماعية خفيفة ذات ايقاع سريع من المأثور الأندلسي
الذي يغنيه أهل طرابلس في الافراح و الاعياد
مثل " ياهللا غاب عني واحتجب "
و " ولما بدا يبتني " ويا ضبية الوادي " والقصيدة
الشهيرة التي وجدت معانيها تطابق حالتك
" باليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده "
انتهت لحظة الاحساس بالصدمة ، لتقضي إلى احساس عارم
بالفرحة ، فقد بدأ افراد العائلة
يستوعبون ما يحدث
ويندمجون معه ، ويعبرون عن بهجتهم باحضارك لهذا
الاختراع العجيب إليهم، لينقل اصوات اعظم المغنين
والمقرئين إلى بيوتهم . تجولت
معهم بين عدة انواع من الغناء
الشعبي والديني ، تاركا الاغاني الشرقية التي تتحدث
عن الغرام الصريح ، لكي تستمتع بها ثريا عندما تختلي
بنفسها مع الحاكي
كنت سعيدا باجواء البهجة التي اثارها الحاكي
في بيت سكنته الكآبة
منذ ان اقعد المرض صاحبه ، واحسست
ان الثمن الذي دفعته فيه ، كان زهيدا جدا، بجوار
ما ادخله إلى هذا المكان
من سرور وبهجة، واثق عملت عملا من اعمال الخير

تتاب عليه عند الله ، وعندما
انتهيت من رشف كوب الشاي
الثالث المخلوط بالكاكاوية ، نهضت
واقفا تطلب الاذن بالخروج ، فارتفع
أكثر من صوت يذكرك بانك
نسيت ان تعيد الجهاز
إلى صندوقه، وتأخذه معك ، فقد
ظن الجميع انك استعرتَه من رؤسائك في العمل
لعدة ساعات وستعيده إليهم
ودون ان تصحح لهم ظنهم، انحنيت واخذت الجهاز
بين يديك وبدل ان تعيده إلى الصندوق، اتجهت به
إلى دولا ب صغير في ركن الغرفة
يصلح مكانا للجهاز ، وسألت
ثريا ان تأتي بقطعة قماش تفرشها
للحاكي ، اذ ليس من العدل
ان تأتي به من بيته
الاصلي في روما ، لتسليتنا والتسرية عنا، دون
ان نعتني به ونحسن وفادته ، وعندما وجدت
ان كلامك لم يكن مفهوما افصحت لهم بانك لم تأت
به إلى هذا البيت لكي تعيده
وانما جئت به لكي يبقى ، لأنك اشتريته أساسا
لتقديمه هدية لهم
وكأن تيارا كهربائيا صعق
كل افراد العائلة في لحظة واحدة
فانتفضوا يصرخون برفض الهدية في نفس واحد
بمن فيهم الصبي الصغير الذي كنت تظنه
اقل ادراكا من ان يعي مثل هذه الامور ، ولأول مرة
يعلو صوت الاب الذي كان واهنا
ضعيفا، وينطلق قويا جليا
يطلب منك ان تأخذ الحاكي معك

لأنك انت الأولى به ، والاستمتاع بترائيله وغناؤه
كان الحاكي ما يزال بين يديك وانت تدير بصرك
بينهم ، مندهشا لهذا الرفض والاستكار الذي
لم تتوقعه ، وتقدمت ثريا ترفع
الصندوق من الأرض، ترجوك
ان تضع فيه الحاكي وتأخذه
معك . كان هناك اجماع واصرار
على رفض الهدية
بعكس ما حدث مع هدية اللحوم والمواد الغذائية والملابس
عندما قبلوا بامتنان ما جئت به إليهم ، فهل تراهم اعتبروا
ان الأمر زاد عن حده حتى صار يثير الشبهة ؟
ام انهم وجدوا في جلب شيء يتصل بضرورات الحياة
كالطعام واللباس ، عملا من اعمال المروءة ، وتعميق
أواصر الود والصداقة ، فقبلوه ، بينما رأوا في هذا
الجهاز الذي ينتمي إلى عالم الترفيه والكماليات شيئا
لا يجوز قبوله ، أو لعلهم ظنوا ان مثل هذا الجهاز
فوق امكانياتك، وانك بعد ان
احضرته لتجريبه ، وإعطائهم
فكرة عنه، تخرجت من اخذه
ثانية، فارادوا تجنيبك
الخرج والخجل، واعادوه إليك
إلا أنك مازلت جازما في اعتقادك، بان اصلح
بيت للاستفادة بهذا الحاكي ، هو بيت الحاج المهدي
لاستعماله كمضاد للضجر
والكآبة ، ولذلك رفضت رفضهم ، واتجهت
بخطى سريعة إلى الباب
تاركا الجهاز وراءك، قائلا بلهجة قاطعة ، اردتها
ان تحسم هذا الموضوع :
— لا يحق لي ان استرد الهدية بعد ان وصلت إلى اصحابها

نزلت السلاالم وثيا ، حتى وصلت
إلى الشارع ، واسرعت مبتعدا، واثقا
من أنك حققت ما تريد ، إلا أن صوتا صادار
عن حركة باب البيت الذي تركته، ارغمك
على الالتفات ، لترى ان الباب
قد فتح ، وامتدت منه يد تضع الصندوق الذي
يحمل الحاكي أمام عتبة البيت . وقفت في مكانك
حائرا ، لا تستطيع ان تقرر مايجب عليك
عمله ، ثم رأيت نفسك تسير باتجاه عتبة البيت
وتتحني لنقل الصندوق الذي يحمل الحاكي
كان غريبا هذا الاصرار على رفض هديتك . انه اصرار
لا يجدي معه ان تطرق الباب
وتحاول اقناعهم بقبوله ، لأنهم
لن يفعلوا، ولم تجد بدا من ان تستدير وتأخذ طريقك
عائدا بالحاكي إلى غرفتك في الفندق . هاهو رفضهم
يأتي حاسما قويا يهدد الاسس التي تستند إليها
هذه العلاقة ، من حيث اردت
تعميقها وتأكيدها . بمثل هذه الهدية ، التي رأوا
في قبولها اهانة لهم . لم يكن ممكنا ان تتوقع
رد فعل بهذه الحدة
أو ان تعاملك ثريا وعائلتها
بهذا القدر من الريبة والشك
كنت قد وطنت نفسك
على ان تتقبل الواقع وترضى به
وتكتفي من حب ثريا بهذه اللحظات
التي تكون فيها قريبا
من بهاء وجهها وصفاء عينيها ، وان تستمد
متعة الروح من شفافية وعذوبة
ابتسامتها ، وان تحبها من بعيد
هذا الحب الذي لا يرتجي وصالا

كنت قد سمعت في إحدى الاغاني المشرقية
مقطعا يمجّد حب الروح لأنه هو الحب الخالد
ويهبزاً من حب الجسد لأنه حب زائل ، فوجدته مقطعا
يليق بك وبقصّة حبك لثريا
وقررت ان تراها دائماً هكذا، وان تعلقو وتتسامى بحبك
لها ليصل إلى هذه المرتبة السامية ، بعد ان ضاعت
منك المراتب الدنيا
انها أيضاً تستطيع ان تحبك حبا روحيا ، لا يتعارض
مع التقاليد ولا يسبب لها ضيقا ولا حرجا ، أو يجلب
لوما من ضمير أو عذول ، ومهما كانت قوة العاطفة
التي حملتها لك قبل الزواج
فان موقفها بعد ذلك ظل دائما موقف القبول والالفة
مما يوحي بانها وجدت لنفسها صيغة تريحها
ولا تشكل عبئا على ضميرها وهي تلتقي بك
سعيدة بهذا اللقاء ، رغم ارتباطها الشرعي برجل آخر
بالنسبة للأسرة فان صداقتك لها سابقة لزواج
ثريا ، وعملك صيبا لوالدها
جعلك قريبا منه ، إلى حد
انه كان يرى فيك ابنا ثانيا له ، فلا
ضير اذن ان تعتبر
علاقتها بك ، وشعورها
نحوك ، ينتمي لهذا النوع
من العلاقات الاخوية ، ان كان ذلك
يسعدها فهو لا يضع
قيدا على مشاعرك ، ولا يحد
من حريتك في ان ترى
هذا الحب في أي ضوء تشاء ، وكيفما
كانت رؤيتك لنوع المشاعر
التي تحس بها ثريا نحوك ، أو تلك
التي يحس بها والدها وبقية اسرتها ، فانها لا تبرر

ولا تفسر هذا الموقف الرافض لهديتك
العودة إلى الفندق بمثل هذا الجهاز ، ليس امرا سهلا
فقد اقترنت مثل هذه الاشياء بالترف والغنى ، ووجودك
في هذا الفندق الرخيص ، مصطحبا معك آلة تغني
وتعزف الموسيقى سيثير القلق والريبة ، ولن تستطيع
اخفائه لأنه كائن حديدي ناطق
مثير للسخب والفوضى ، والحل الذي لا تملك
حلا سواه ، هو ان تتولى اشهاره
بدلا من اخفائه ، وان تخبر
صاحب الفندق واعوانه عنه ، وعن طريقة وصول
هذا الحاكي إليك بما يساعد على اعتبار ملكيتك له امرا
عاديا لا يثير ريبتهم
ولأن الاحساس بالضيق ظل ملازما لك منذ خروجك
من بيت الحاج المهدي إلى ان وصلت الفندق ، فقد اردت
استئارة صاحب الفندق لتحريك روح المرح
والدعابة لديه ، عل ذلك يزيل عنك ما تشعر به
من ضيق . كان الكبران كعادته ، يملأ بجسمه
العريض حيزا كبيرا من غرفة المكتب التي تواجه
المدخل ، يراقب منها الخارج والداخل
إلى الفندق . توجهت مباشرة إليه قائلا له ولمن معه
من رفاق اللعب والسهر :

— احزروا ماذا يحمل هذا الصندوق ؟
— وما اهمية ان نعرف أو لانعرف ؟ هل سنتقاسم محتوياته معك ؟
— نعم سنتنقع جميعا بها ، رغم امتلاكي لها .
فرد واحد من اصحابه :

— ليته يكون مليئا بالحلويات ، نحن نأكلها ، وانت تملكها ، مارأيك ؟
فعارضه الكبران :

— انه شيء آخر اظن انني اعرفه ، واذا اخذنا حجمه الكبير وقولك
اننا سنتنقع به ، وهذه الشخبطات على الصندوق فسأقول انها نوع
حديث من الشوايات الاجنبية .

وقال احد اصحابه ضاحكا :

— هذا هو الكبران، لا يتكلم الا بمنطق البطن المتلهفة لاكل اللحوم.

— انه ليس شوائية ولا حلوى انظروا .

اخرجت الجهاز من الصندوق ، ووضعتة فوق الطاولة، فاضاف صديق الكبران :

— يبدو صعبا ان نعرف ماهو حتى بعد رؤيته ، لأنني شخصا لم ار شيئا شبيها له من قبل .

لم تقل شيئا، فتساءل الكبران ، وهو يقلب الجهاز :

— اليس هذا هو ما يسمونه جرامافون؟

وعلق احد الحاضرين :

— اذن هو ذلك الشيء الذي نسمع صوته قادما من مطاعم ومقاهي وفنادق الطليان .

— كيف حصلت عليه؟

قالها الكبران بلهجة تحمل الشك والريبة:

— انها صفقة . فقد اهداه رجل موسر لاحد اقاربه الفقراء وهؤلاء الاقارب عرضوه باقل من نصف ثمنه فاشتريته.

— حسنا فعلوا ، وحسنا فعلت ، اما كان الأولى بهذا القريب الغني ان يقدم لهم آلة خياطة يستعينون بها على هم الزمان؟

— الا تظن ان مثل هذا الحاكي أكثر قدرة على محاربة هم الزمان من آلة الخياطة ؟

— لو كان الأمر كذلك ما باعوه لك .

— باعوه لأنهم لا يعلمون قيمته .

— دعنا اذن نرى هذه القيمة .

— سترى ذلك في الحال .

وضعت الاسطوانة وادرت الجهاز، فلعلع صوت الآتسة أم كلثوم

في اغنيته المرححة الراقصة :

" على وطني المحبوب وديني "

يبعث في الفندق الناعس روحا جديدة ، وجاء الناس من داخل الفندق ومن خارجه ، يتحلقون

حول الحاكي ، حتى ضاقت بهم الغرفة
فصاروا يتزاحمون خارجها ، وامسك
صائد سمك مالطي اسمه توني بايدي اثنين من رفاقه
الليبيين ، يصنعون حلقة راقصة وسط باحة الفندق تمضي
على ايقاع الاغنية ، وتتسع حتى تشمل عددا كبيرا
من الموجودين والكبران يتمايل ويتراقص بجذعه الغليظ
مع اللحن ويردد كلمات الاغنية بصوت اجش، سعيدا بهذا
الجو الاحتفالي الذي صنعه قطعة الحديد التي جئت بها
واحد اصحابه يعلق على غنائه قائلا :
— يجب من اليوم ان نسليك الكروان بدلا من الكبران .
وكان اجمل ما في هذه الحلقة الراقصة انها جمعت
بين عديد الاعراق والاديان والالوان ففيها الليبي المسلم
والمالطي والايطالي المسيحي مع تاجر يهودي جوال
وصائد سمك زنجي
انتهيت إلى ان موعد ذهابك إلى العمل قد حان ، فلم تشأ
ان تقطع متعة هؤلاء المحتفلين . تركت الجهاز في رعاية
الكبران وتسلكت إلى غرفتك ترتدي زيك الرسمي، وتذهب
مسرعا لاستلام عملك
كنت مترددا بين البقاء داخل السيارة تنتظر التعليمات
وبين ان تصعد إلى البيت لتسأل عن حال السينورة
وتطمئن إلى انها قد تعافت تماما من آثار وتوابع ذلك اليوم
أو لعل الافضل ان تعترف لنفسك بحقيقة نواياك
وهو انك في شوق إليها ، تأمل ان تكتحل عيناك بروية
عينها . لم تستطع ان تصل إلى قرار، فاردت الاستعانة
براي مختار العساس
الذي خبر هذه الحالات أكثر منك، وعاشر هؤلاء الناس
زمنًا طويلا ورغم ان الجاراج ليس وفقا على استخدام
حورية فقط وانما هو مفتوح
لاربعة أو خمس سيارات أخرى
يملكها تجار لهم حوانيت

في نفس العمارة ، وإن تبعية
الحارس الرسمية للشركة
العقارية الحكومية المالكة للعمارة
إلا أنه ليس مسؤولاً أمام
أي أحد غير حورية ، فهو مكلف
بخدمتها وحراسة سيارتها ، واستلام تعليماته منها
كان لا يترك الجاراج لأي مكان
آخر ، فهو أما بغرفته داخل
الجاراج أو جالس على الدكة
الخشبية أمامه، مرتدياً بذلته
العربية البيضاء
مع الفرملة البنية أو الزرقاء ، والطاقيّة
الحمراء ، وبين أصبعيه
سجارة ورق البافرا التي يتفنن في لفها
ويجيد امتصاص رحيقها بنهم وشراهة
افسح لك مكاناً على الدكة الخشبية بجواره، وعندما
جلست التفت شمالاً ويمينا وقال هامساً :
— ما بي مرض غير دار العقيلة
وحبس القبيلة
وبعد الجبا عن بلاد الوصييلة
هل تعرف قائل هذه الأبيات التي تصف
الحياة التي عشناها
داخل معتقل العقيلة ؟
— لا اعرف .
— سيدنا الشيخ رجب ابو حويش ، رجل من أهل الله
وأوليائه الصالحين نفعنا الله ببركاته ، هو قائل
هذا الشعر، كان موجوداً معنا في معتقل العقيلة
و استغل الوقت الضائع داخل المعتقل في تعليم
الناس القراءة والكتابة ، والح علي الحاحا
قويا ان اتعلم ، فكنت اسخر من دعوته قائلًا

"بعد ما شاب دخل الكتاب "وها انا اليوم شديد الندم
على هروبي منه ، لأنني لو درست لكان لي مصير آخر
غير العمل عساسا .

— لا تتدم يا عمي مختار فلقد درست انا القرآن وعرفت القراءة
والكتابة واشتغلت بمهنة لا تحتاج لمثل هذه المهارة .
— كنت على الاقل عرفت كيف اقرأ كتاب الله واملأ به
فراغ أيامي . سخرت من دعوة سيدي رجب ، لأنه
لم يكن لي عقل قادر على فهم أي شيء في جهنم تلك
كانت مهمتي في المعتقل نقل الموتى ودفنهم
في الخلاء . لم اكن وحدي كان هناك عشرة رجال
آخرون يعملون معي طوال النهار، لأن الموتى كانوا
كثيرين، ويحتاج دفنهم لأكثر من هذا العدد . كنا ننقل
كل يوم ما معدله مائة وخمسين شخصا
ولم يكن الوقت يسعنا لحفر قبورهم ، فكنا نبحت
عن منخفض من الأرض ونهيل عليهم التراب ، وكانت الضباع
والثعالب والذئاب وجوارح الطير تتولى تكملة المهمة .
— لقد مات كل افراد عائلتك هناك فهل شاركت في دفنهم ؟
— لم استطع في البداية دفن شقيقتي مريم ، التي كانت أول
من انتقل إلى رحمة الله ، وتم عقابي بمائة جلدة ، وابقائي
مربوطا في الشمس لأنني امتنعت عن العمل، وعندما لحق
بها والدي بعد عدة اسابيع ، رأيت ان اشارك في دفنه ، لا
خوفا من العقاب، ولكن لكي اعتني به، واحفر له قبرا حقيقيا
يحميه من وحوش الصحراء ، وقرأ على روحه بعض السور
والادعية ، وتأكد ان وجهه متجه صوب القبلة ، وبعد ذلك
شاركت في دفن كل افراد الاسرة، والدتي واخواتي وزوجتي
وأولادي الثلاثة ثم زوجتي الثانية وابنتي.
— ها انت يا عمي مختار تعود لاستذكار تلك الاحداث الحزينة .
— اعطني احداثا مفرحة وانا استذكرها بدلا منها . مهنة العساس
مهنة قاسية ، لأنك تبقى وحيدا مع نفسك اغلب الوقت، ومع
الوحدة تنهمر مثل هذه الذكريات دون استئذان .

— انت في حاجة إلى الترويح عن نفسك أحياناً ، بدل البقاء في هذا الجاراج أربعاً وعشرين ساعة في اليوم .

— إلى اين تريدني ان اذهب ؟

— سنتفق يوماً على اخذك في جولة ، اما إلى شاطئ البحر أو إلى نزهة في الريف ، أو لمشاهدة فيلم في سينما الهامبرا . اترك الأمر لي .

— ذهبت مرة إلى السينما وعندما وجدتهم يعرضون فيلماً عن القرى الجديدة للمستوطنين الطليان ، كرهت ان استمر في المشاهدة ، وخرجت .

— ذلك لم يكن الفيلم وانما مادة دعائية يعرضونها قبل الفيلم .
— هذا ما حدث .

ثم اغرورقت عيناه بالدموع وعاد لحديث الموتى الذين كان يدفعهم في معتقل العقيلة ، فقد ظل اسير اللحظة التي استعادها ولم يستطع الخروج منها ، وعندما حاولت تغيير الموضوع وسؤاله عن حورية ، لم يزد على ان قال انها ذهبت هذا الصباح في زيارة

إلى المستشفى ، ورجعت وهي في حالة طيبة وعاد مباشرة للحديث عن ذكرياته، وواصلت انت الاستماع إلى هذه الاحداث المؤلمة المفزعة التي وضعتك انت أيضاً في مزاج لا يصلح معه التفكير في الذهاب لاي مكان آخر ، غير الجلوس بجواره أمام الجاراج . فالاحداث التي يرويها لم يكن قد مضى غير زمن قصير

على حدوثها ، وابطالها مازالوا احياء سواء كانوا الجالدين أو من نجا من الموت من ضحاياهم ، والظروف التي انتجت هذه المآسي يمكن ان تتكرر، في ظل

أي صدام يحدث بين عناصر من

أهل البلاد والمحتلين

— لا اعاد الله تلك الأيام .

كنت تسأل نفسك وانت تراه يستعيد ذكريات الفواجع التي مرت به ، ان كان ثمة متعة في استذكار الالم ، لاصراره

دائما على اعادة عرض شريط الموت والمعاناة في احاديثه
كما لم تستطع الوصول إلى فهم مسألة أخرى، هي كيف
امكنه ان يجد مساحة في عقله وقلبه تتصالح فيها تلك
الفواجع مع صانعيها ، فيهنأ بالعمل مع الإيطاليين
في هذا الجاراج ، بل والرغبة في الانضمام إلى جيشهم
كما سبق وحاول ذلك :

— هل تعلم أول من ابلغني بخبر الافراج عني ؟

— من ؟

— سيدي رجب ابو حويش . كان رجلا صالحا ورأى
في الحلم انني سأخرج وقال لي قبل أسبوع من خروجي ، ابشر
بامختار فقد جاءك الفرع ، وطلب مني ان اذهب إلى تاجر
في سوق الظلام ، بعلامة من عنده ، ليعطيني خمس ليرات
ذهبية اتدبر بها حياتي لأنه كان يعرف بانني سأخرج
حافيا ، عاريا ، لا املك بارة واحدة ، وليس على ظهري
الا قميص ممزق الاكمام . ليتني استطيع ان ازوره
في بنغازي وانتفع ببركاته .

فجأة اهتز السكون في الشارع الجانبي الذي تجلسان فيه
وتحول الهدوء إلى نشاط وصخب. توقفت سيارة عسكرية
أمام مدخل العمارة ، وقفز منها اربعة جنود ممن يعملون
حراسا لدى المارشال بالبو، يضربون بلاط الشارع بأعقاب
احذيتهم حتى تهتز الأرض ، وينتشرون في أكثر من اتجاه
وجاء احدثهم إليكما، يسألكما أن تخليا الشارع
وأن تدخلتا إلى الجاراج اذا اردتما ، فاخترت انت ان تذهب
وتجلس أمام مقود السيارة، مدركا ان الحاكم العام قادم لزيارة
صاحبتة هذا المساء

وصلت سيارة لاثنا بيضاء ذات زجاج أسود يخفي
من بداخلها وخلفها سيارة عسكرية ثانية
هبط المارشال من المقعد الخلفي للسيارة المدنية
مرتديا ملابسه العسكرية ، ودخل محفوقا

ببعض حراسه إلى العمارة
في حين ظل بقية الحراس في الشارع
بقيت انت ملازما مقعدك
لا تغادره ، في حالة استعداد
وترقب لاداء أي مهمة . قبل انقضاء ساعة واحدة
على دخوله ، ظهر المارشال يسبقه حراس ويتبعه
آخروه ، هابطا سلالم البناية
واتجه يضرب الأرض بخطواته القوية متجها
إلى السيارة البيضاء
التي انطلقت به مخفورا بسيارتيه
العسكريتين . اختفى موكب المارشال
بذات الطريقة الصاخبة
التي جاء بها ، وعاد الشارع إلى سكونه
بدأت العتمة تزحف على الدنيا ، وتحاصر مصابيح الشارع
تمنح الابنية مظهرا مختلفا عن مظهرها اثناء النهار
وتزرع احاسيس الوحشة في القلوب
حمدت الله ان مرت زيارة المارشال بسلام
دون تكليفات أو مهمات جديدة بالنسبة
إليك ، توقف في ذهنك الذكريات
الاليمة للمهمة السابقة ، وقد تصنع ذكريات مؤلمة جديدة
وجاء مرجان مهرولا يسألك ان تلبي نداء سيدته
السنيرة حورية
بوثبات سريعة صعدت درجات السلم ، لاحقا بمرجان
الذي سبقك لفتح الباب
— جاء المارشال لمجرد الاطمئنان على صحتي ، فمازلت
منذ الحادث لم استعد كامل لياقتي .
— من يراك بهذا البهاء لا يسعه إلا أن يصلي على كامل النور .
— شكرا للشيخ البلبال ، فقد كان لاسلوبه في العلاج الروحي
واستخدامه للاعشاب و سور القرآن فضل اخراجي
من حالة الكآبة.

— دون ان ننسى اطباء مستشفى كانيفا .

— لم اذهب هناك للعلاج وانما لغرض آخر ، هو الاطمئنان على ان غلطة ذلك اليوم ، التي لا ادري كيف حصلت ، لم تترك بذرة طفل في احشائي .

— انني آسف اذا تسببت في أي حرج لك .

— ليس هذا ما اقصده وانما أريد أن نبني علاقة سليمة على اسس قوية في ظل الدين والشرعية ، لاقفل صفحة من حياتي ، وابدأ معك باذن الله صفحة جديدة . انني احب ان يكون لي طفلي ، بل اطفالي ، ولكن من زوج ينتمي إلى أهلي وديني ويتزوجني على سنة الله ورسوله ، هل فهمت؟

— طبعا فهمت .

— هل تعلم شيئا ؟ الشيخ الالبال نفسه يقول ان الانجاب والامومة وتلبية حاجة المرأة الطبيعية لأن يكون لها طفل ، طريق مضمون للعافية النفسية وسلامة الروح والجسد ، يجب ان نحرص على حضوره عقد الزواج كواحد من الشهود فانا انفاعل به .

بدأت تسأل نفسك ان كان هذا هو ما استدعتك إلى بيتها من أجله منذ بداية البداية لهذه العلاقة وان كان دورك في العملية قد تم رسمه وتحديده ، ربما دون ان يحتاج الأمر إلى معرفة رايك في الموضوع ، في حين واصلت هي الكلام:

— الجميل في الموضوع كله ، ان ايتالو صار متفهما تماما لهذه الحقيقة ، حقيقة ان حياتي لا يمكن ان تستمر إلى الابد بهذه الطريقة وانه لابد لي من ان احقق هذا الحلم بالامومة قبل فوات الاوان .

— وهل سيطيق المارشال فراقا للمرأة التي فضلها على نساء العالمين ؟

— لا تنس ان له زوجته واطفاله الثلاثة الذين يجب ان يهتم

بهم أكثر وسيعوضونه عن الفراغ الذي ستركه في حياته، سنستمر اصدقاء فقط .

مرت لحظة صمت قبل ان تشير إليك بان تجلس بجوارها ففعلت وضاحكة مرت باصبعها على جبينك قائلة:
— ما هذه التغطية التي لا معنى لها ؟

اخذت وجهك ووضعته بين يديها ، واقتربت بوجهها منك حتى كاد يلامس وجهك :

— ماذا ؟ هل انت غبي إلى هذا الحد ؟ ام انت تتعابي؟ الطفل

الذي اريده هو انت ، قبل أي طفل احتاجه لتلبية نداء الامومة ، وهو أيضاً اريده منك انت ، اريد فعلا ان اطوي هذه الصفحة مع المرشال لابدأ حياة زوجية طبيعية، شرعية تباركها الملائكة في السماء ، ويعترف بها الناس في الأرض ، اليس هذا حقا من حقوقي ؟ هل تراه كثيرا على امرأة مثلي ان تطلب ذلك؟

— لا ، بل اراه كثيرا على رجل مثلي ان يفوز بامرأة مثلك .

الصقت جسمها بجسمك، ووضعت فمها على فمك، وسرت السنة اللهب الحمراء في جسمك، فاحسست انك تحترق وعظامك تتحول إلى احطاب مشتعلة

بقيت على هذا الوضع بضع لحظات قبل ان يستقطب بصرك وشعورك مفترق النهدين في صدرها ، فمددت يدك في لهفة

تتحسس هذا المكان ، وتطوي خصرها بذراعك الأخرى لتدني صدرها من صدرك . أوقفناك وانتشلت جسمها

من بين احضانك وانتقلت للجلوس في المقعد المقابل

كانت حواسك في حالة استئارة، وشهوتك في حالة احتياج

اردت ان تنتقل قريبا منها، فإشارت لك بيدها

ان تبقى في مكانك:

— لن يكون ذلك الا في الحلال .

ارغمت نفسك على البقاء

جالسا في مقعدك ، ورفعت بصرك

إلى بيضة النعام المتأرجحة

من سقف الغرفة ، لتهرب إليها
باحاسيس الخيبة والاحباط ، في حين
اعادت حورية تسوية
شعرها وهندامها واستوت
في جلستها وقد اتخذت مظهرا
أكثر جدية وتكلمت بلهجة رسمية قائلة:
— هذه امور تستطيع ان تنتظر قليلا . هناك الآن ما هو أكثر
استعجالا واريدك ان تتصت جيدا لما اقوله لك .
قالت كلماتها ببطء شديد ، مصحوبة برفع حاجبيها
على طريققتها عند اظهار الاهتمام بشيء ما ، وبدأت انت
تدرجيا تخرج من الحالة الشبقية النارية، التي وضعتك
فيها حورية ، واخرجتك منها
إلى جليد الاهمال واللامبالاة باعصاب حديدية ، تحاول
تركيز انتباهك في الموضوع الجديد التي اعطته
صفة الاهمية والاستعجال
— انها مهمة اختارها لك المارشال ، وهي في غاية السرية
والخطورة لأنها تتصل بامنه الشخصي ، ولو لم تكن
موضع ثقته الكاملة ما اختارك لها .
ومستذكرا ما حدث في الرحلة إلى جنزور، ومنتهزا حميمية
الجلسة قلت لها هامسا :
— مهما كانت هذه المهمة ، فسأكون أكثر سعادة لو اختار
لها شخصا غيري .
و جاء ردها سريعا وحاسما :
— لا تعد إلى قول هذا الكلام ابدا . لأن مثل هذه الثقة
هي حلم أي إنسان في الدنيا ، وستعلم مستقبلا قيمتها
كما ستعرف الجهد الذي بذلته شخصا من أجل تأكيد
هذه الثقة لدى المارشال .
— قولي اذن بسرعة ما هي هذه المهمة ، واريحي
عقلي قليلا .
— باختصار فقد قرر المارشال ان يزور المدينة القديمة

متكرا ، ولن يعرف احد خارج الدائرة الخاصة جدا
من اعوانه ، بهذه الزيارة إلا أنت ، ولن يرافقه خلالها
احد سواك ، وسيطوف فيها بعفوية
وحرية ، متخلصا من كل قيد رسمي ، ومن طوابير البشر
الذين يحاصرونه بهتافاتهم ويلحقونه بطلباتهم ، سيذهب
لتفقد كل الاماكن المهمة التي يسكنها العرب والاجانب ، قوس
الصرارعي ، كوشة الصفار ، الاربع عرصات ، الحارة
الصغيرة والكبيرة ، باب البحر ، سوق الترك
وبقية الاسواق ، ويريد ان يرى جامع الناقاة ، وجامع
قرجي ، وكنيسة العذراء ، والمعبد اليهودي ، والمباني القديمة
لقتصليات فرنسا وبريطانيا والبنديقية وامريكا ، كما يود
ان يزور بيتا عاديا تسكنه عائلة ليبية .
هذه مجرد فكرة أولية لكي تذهب وترسم خط الزيارة ، بحيث
يستفيد المارشال من كل دقيقة يقضيها هناك . للزيارة
هدفان أولهما أن المارشال يريد ان يقضي لحظات متحررا
من روتين الحياة الرسمية في مكان لايعرفه فيه احد ، والثاني
هو استكمال معرفته بالعاصمة التي يحكمها وبهذا الجزء الحي
من تاريخها .

اصابتك حالة من الرعب وانت تجد نفسك مكلفا بمنزل
هذه العهدة الغالية ، التي يمكن ان تكون اعلى عهدة
في العالم ، لما للمارشال ايتالو بالبو
من اهمية دولية ، إلا أنك تذكرت امرا
ازال الفزع من قلبك . تذكرت نبوءة الشيخ
البلبال التي لن تجرؤ على قولها لاي إنسان في الدنيا
وحيث انه لن يموت الا على ايدي
جنوده الإيطاليين ، فلا مجال
للخوف عليه اثناء تجواله في المدينة
القديمة بين الليبيين
لاحظت حورية كيف انفرجت اساريرك بعد تعميم

وتقطيب، فابتهجت لذلك:

— واضح انك سعيد بالمهمة .

— الالم هو تأمين سلامة الحاكم العام.

— لا تقلق من هذه الناحية ، فستكون هناك ترتيبات امنية
تحسبا لحدوث أي طارئ .

— ومتى موعد الزيارة باذن الله ؟

— يريد ان تكون يوم الاحد فهو وان كان يوم عطلة
في الدوائر الحكومية إلا أنه يوم عمل عادي في الاسواق
والمواقع التي سيزورها .

— تعلمين ان الاسواق جميعها تقفل ساعة القيلولة، وعليه
ان يبدأ نهاره مبكرا اذا اختار الفترة الصباحية .

— نعم سيكون موعد الزيارة صباحا ، فالمساء يفضي إلى الليل
والليل لا أمان له .

اردت ان تسألها عن ساعة اللقاء يوم الاحد وتفاصيله ، فقاطعت قائلة :
— اليوم هو الخميس، وأماننا غدا وبعد غد لضبط تفاصيل الزيارة
ولكن احذر ثم احذر ثم احذر ان تتسرب منك كلمة واحدة عنها لاي
إنسان في الدنيا . لديك ما يكفي من الوقت لزيارة المواقع
المهمة مسبقا وتحديد الطريق لزيارتها بدقة .

خرجت من بيت حورية وعقلك مقسوم نصفين
نصف بملأه العرض الذي قدمته لك حورية، والنصف الآخر
زيارة الحاكم العام إلى المدينة القديمة ، واختبارك دليلا
لزيارته داخل هذه المتاهة الصغيرة من الازقة والحواري
والزواريب المتداخلة في بعضها البعض
أول الموضوعين مؤجل، لم تناقشه
حتى بينك وبين نفسك
لأنه لا تتفع فيه الاجابات السريعة ، ولا يجب
ان يحتل حيزا من عقلك ، الذي يجب
ان تسخره كله ، في هذين اليومين
القادمين ، لزيارة المارشال . ثم ان حورية

امرأة تختلف كثيرا عن نورية التي ما أن قدمت لك عرضا بالزواج حتى رفضته منذ أول لحظة ، دون تردد أو تفكير، ودون حاجة لاجراء أي حسابات . الأمر مع حورية أكثر صعوبة وتعقيدا ، واي خطأ في العملية الحسابية سيكون ثمنه باهظا ، ولذا فانها مسألة تستحق ان تعطىها عقلك كاملا ، حال ان تنتهي من هذه المهمة العاجلة سيكون امرا صعبا ان يصدر الرأس امرا لنفسه وهو الذي تعود ان يصدر الأوامر لبقية اعضاء الجسم ولكن لابد من المحاولة وتاجيل موضوع على حساب الاخر وفقا لأولويته . انك لا تعرف ثلاثة ارباع المواقع التي قالت حورية ان الحاكم العام يريد زيارتها ، ومعنى ذلك انه لابد ان تستغل ما تبقى من الوقت افضل استغلال في اجراء تمارين أولية على الزيارة والتعرف على هذه الاماكن ، وتحديد اقصر الطرق التي تقود إليها لكي تقوز برضا الحاكم العام اصعب بنود الزيارة هو تدبير بيت من بيوت المدينة القديمة تقطنه اسرة ليبية ليزوره، ويتعرف إلى اسلوب حياة هذه الاسرة لأنك لا تعرف من هذه البيوت الا بيت الدعارة السرية في سيدي عمران لصاحبه السيدة شريفة ولعله الاجدر بزيارة حاكم مثله يحب الأوقات الطيبة ، من أي بيت آخر مثل بيت الحاج المهدي الذي لا يمكن اعتباره بيتا من بيوت المدينة التقليدية فهو جزء من الطابق العلوي ل احد البيوت تم تليفق مدخل له وسلاالم لن تتسع لمرور رجل مكتنز الجسم مثل الحاكم العام عدت إلى فندق الكبران بعد ان اشتريت من دكانة البقالة المجاورة له، رغيف خبز وقليلاً من البصل والخيار والطماطم والفلفل الأخضر ، بما يكفي لاعداد طبق الشرمولة مع كمية ضئيلة من الزيت والملح ، موجلا برنامج الطهي

واعداد الوجبات الساخنة

إلى وقت أكثر يسرا . تناولت بسرعة هذا العشاء الخفيف
ووضعت السخان فوق موقد البريموس لاعداد الشاي، واخذت
تقرا آيات من القرآن الكريم ، تستعيد بها شيئا من هدوء
البال ، بعد ان ارهقت عقلك هذه الاخلاط من القضايا الامنية
والسياسية والغرامية

((ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث
لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه، ان الله بالغ
امره، قد جعل الله لكل شيء قدرا))
كنت قد نسيت تماما جهاز الحاكي ، الذي لا يزال وديعة لدى
صاحب الفندق، ولم تذكره لأنك عندما دخلت ، كان الفندق
صامتا ، وكان باب غرفة الكيران مواربا، وكنت في مزاج
لا يسمح بالاختلاط أو الحديث مع احد فجئت للاختلاء
بنفسك في غرفتك

ما جعلك تذكره الآن هو هذه الاصوات التي انفجرت
فجأة ، يختلط فيها صوت المجاميع النسائية مع زغاريد
الافراح وايقاعات الدفوف والطبله والعزف على المقرونة
وهو ما ظننته في البداية موكب عرس يمرق أمام
الفندق ، سرعان ما ينحسر

وعندما استمر الصخب بنفس القوة ، تذكرت الحاكي
وانتبهت إلى ان الصوت قادم منه ، وان هناك بين
الاسطوانات، واحدة تحمل تسجيلا لعرس بدوي
ها قد احضرت بنفسك الآلة التي ستقلق نومك
وتطرد هدوء الليل من حولك ، لا حل الا بان تهبط الآن
إلى الطابق الأرضي، وتسترد هذه الآلة

لتصبح انت المتحكم الوحيد في تشغيلها بما يتفق
مع أوقات النوم واليقظة ، والسكون والحركة
ستتمهل قليلا ريثما تنتهي ، من تناول كأس الشاي
الذي تشعر بمسيس الحاجة إليه ، ثم تهبط لايقاف
هذا العرس ، إلا أن العرس وقبل ان تغادر غرفتك

تحويل إلى نوبة مألوف بدفوفها وصاجاتها
واذكارها. نوبة تكاد تكون حقيقية لا مجرد
صوت يصدر عن اسطوانة ، لأن كل من كان موجودا
من شلة الكبران شارك في ترديد
مقاطع منها ، فهي كلمات
مشهورة يحفظها سكان المدينة
ويتغنون بها في المناسبات
الدينية والاجتماعية كما أنها
تثير كوامن الشجن ، وتحرك
الوجدان بمعانيها ذات الطابع
العاطفي الحزين ، رغم ان الجميع
عندما وصلتهم كانوا يغنونها
ضاحكين هازلين ، وبكثير من الفرح الذي يتعارض مع كلماتها :

— دمعي جرى على صحن خدي كالمطر
كان الكبران جالسا على الأرض ، محاطا برفاقه ، أمامه
قنينة من اللاقيي المستخرج من جمار النخيل ، يسكب منها
في كأس من الحجم الصغير يطوف به على المجموعة
— ارى شيئا آخر يجري غير الدموع التي تتحدث عنها الأنشودة .
— انه لاقبي حلو لا يغضب الله ورسوله تفضل ذق منه رشفة
ان كنت لا تصدق .

مد لك يده بكوب من رحيق النخيل ، اخذته ووضعته
على شفئك لاختبار صدق الرجل فوجدت ان ما قاله
كان كذبة حمراء لأنه لم يكن حلوا ، كما هو اللاقيي
في مراحل الأولى البريئة

وانما هو اللاقيي بعد ان تخمر وتتمر وصار حامضا ، مسكرا
بحرق الصدر ويقلب المخ :

— انه اشد حموضة من الخل.

ادعى الكبران الدهشة وهو يضحك :

— سبحان الله . فلماذا إذن لجده حلوا في فمي مثل روزاتا الفرح
ام تراني تحولت إلى رجل من أهل الله ، ممن تتحول الخمور في

افواهم إلى شهد .

لأول مرة تعرف ان الكبران صاحب مزاج في الخمر

لأنك رأيته في الليالي الماضية

مولعا بلعب الورق ، حيث لا كأس

يدور الا كاس الشاي بجولاته الثلاث

ادرك ما تفكر فيه ، فنظر إليك

باسما ، وهو ما يزال يتمايل

بجسمه الكبير مع اللحن ، مرددا

مع الآخرين كلمات الأنشودة

ثم قطع الغناء قائلا :

— انني مثلك من حزب الشاي، ولكن الشاي لا ينسجم

مع الطرب والغناء . انه كأس نشربه على شرف

هذا الجهاز البديع .

وارتفع صوت زميل له يغني بصوت اجش يعلو على صوت

الحاكي اغنية شعبية تلتمس الاعذار لشاربي الخمر :

— يا نار الحي يا اما يا اما

يا نار الحي ، وشربت الروم

راد الله علي

يا اما يا اما

لم تهبط من غرفتك الا لكي تسترد

هذا الجهاز الذي يراه الكبران

بديعا ، غير ان المرأة لم تواتك

لافساد السهرة على اصحابها

فتركتهم وقفلت راجعا إلى مهجعك

في الصباح اعترض الكبران طريقك لحظة

مغادرتك الفندق قائلا :

— الجرامافون

لم يكن في رأسك مساحة لاي شيء آخر غير زيارة الحاكم العام

وما تقتضيه من اعداد :

— لنترك الموضوع إلى المساء .

ولكن الكبران لم يكن في رأسه شيء آخر الا هذا الجهاز :

— أريد أن اشكرك لأنك جعلتني اتعرف على هذا الشيء

العجيب فقد رأيت بنفسى كيف تغيرت الحياة في

الفندق بسببه .

— دع هذه الأشياء للفنادق الحديثه ، اما فندق الكبران

العربي الذي يمثل قطعة من التاريخ الليبي بقوافله

القادمة من الصحراء فان ما يحتاجه ليس هذا الحاكي

وانما الحكواتي الذي يقرأ السيرة الهلالية ورأس الغول .

— صدقني ان جهازك الهمني افكارا جديدة سأبدأ في تنفيذها

قريبا ، إلا أن الموضوع يتوقف على موافقتك أولا .

قلت له مستغربا :

— أوافق على ماذا ؟

— سأحول ركن المواشي إلى موقف للسيارات ، والسطح

إلى مقهى حديث يطل على الميناء ، يأتيه السياح للفسحة

والاستماع إلى موسيقى الشرق والرقص على انغامها .

— لم تقل لي أوافق على ماذا ؟

— على ان يبقى هذا الجرامافون ملكا للفندق وتأخذ انت

المبلغ الذي دفعته بالتقسيط .

— لدي موعد عاجل الآن وسنتكلم ليلا في الموضوع .

انها ورطة أخرى لست انت المسئول عنها ، ولا الكذبة البيضاء

التي قلتها له حول الطريقة التي حصلت بها على الحاكي

وانما بالبو ، فهاجس التحديث والتجديد صار نوعا

من الهستيريا لدى قاطني هذه المدينة ، وقصة نجاح

المشيرقي الذي تحول من صاحب دكانة عطارة

في شارع النخلي ، الى صاحب مغازة لبيع اجهزة

المذياع والآت الخياطة وغيرها من ادوات منزلية

كهربائية ، يغري الكثيرين بتقليده

وقد رأى الكبران الميناء تضاف اليه المباني والأرصفة

ومراكب المرشدين الجديدة الحديثه ورأى بجواره قوس ماركوس أوريليوس، أو مخزن
الرخام كما يسميه أهل المدينة
تزال من تحته اكوام الاتربة وتغرس مكانها جنينة ورد
محاطة بالزليج الملون وسمع الدعاية التي تقول السياح
قادمون ، فركبه عفريت التجديد ، وما أن رأى الحاكي حتى ظن
أن العناية الإلهية أرسلت إليه الوسيلة التي يبدأ بها
مرحلة التحول الكبير
تركته وذهبت تسأل أهل الدكاكين
المجاورة عن قصصيات
فرنسا وبريطانيا والنمسا
والبنديفة ومعبد اليهود وكنيسة
العذراء وجامع الناقة وقصر
يوسف القرماني ، وغيرها
من اماكن لم تكن تظن أنها متباعدة
عن بعضها البعض
إلى هذا الحد ، وأن المدينة القديمة بهذا الاتساع
الذي لايمكن ادراكه الا في حالة
وجود إنسان مثلك يريد ان يعرفها من أولها إلى آخرها
فذهبت مهرولا بينها ، تتصبب عرقا ، تحاول
ان تكسب الوقت ، فتتوه أحيانا وتسأل لتعود من
حيث أتيت ، تتلمس طريقك نحو الخريطة التي تريد
وضعها للزيارة ، ورجعت بعد قضاء نصف
النهار في البحث والتتقيب عن اهم معالم المدينة ، متعبا، دائخا
تشعر بانك افشل إنسان يمكن أن يختاره بالبو للقيام
بالمهمة ، ويأن عليك ، ضمانا للنجاة من العقاب، ان تعترف
منذ الآن بفشلك وعدم صلاحيتك للمهمة ، لكي يختار
لها إنسانا سواك
وزاد الأمر سوءا ، انك انهيت الجولة بحضور صلاة الجمعة
في جامع الناقة ، وكان الخطيب معاديا لإيطاليا ، ملأ خطبته
النارية تعزيرا للناس الذين استكانوا لحكم الكفار ، وطالبهم

اما بالتصدي للمستعمرين ، واما بترك البلاد لأنه لا يصح
للمسلم ان يعيش دليلا

في بلاده الاسلامية تحت سيطرة حاكم اجنبي
مختتما خطبته بالالية الكريمة التي تقول:

" الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"

فتذكرت انك سمعت مثل هذه الافكار تتردد على لسان

الحاج المهدي النعال الذي لا بد انه كان من حضور

صلاة الجمعة وراء هذا الامام والاستماع الى خطبته

والوقوع تحت سحر بيانه واسلوبه

المشكلة طبعا ان يحدث مع هذا الخطيب في هذه المرة

ما حدث معه في مرات سابقة ، عندما كان

اعوان السلطة ياتون إلى بيته ليلا

لاعتقاله عقابا على ما يقوله من افكار معادية

لدولة الاحتلال

لأنهم لو اعتقلوه هذه المرة أيضاً ، فيسجد

الحاكم العام في انتظاره شارعا مستفرا ومعبا

ضد الايطاليين

استطعت في جولة اليوم ان نتعرف على المواقع

التي ستشملها الزيارة ، ولكن معرفة اقصر الطرق التي

يمكن استخدامها للانتقال بين هذه الاماكن ، هو ما يستلزم

الحصول على مساعدة

احد المتخصصين في جغرافية المدينة القديمة

يقضي معك جل ساعات النهار في رسم خط الزيارة

وتحفيظه لك عن ظهر قلب شارعا شارعا

ولن يكون هذا الاختصاصي الذي تثق تمام الثقة

في انه سيقوم بالمهمة خير قيام غير واحد من العتالين

ممن يضعون السلال على ظهورهم ، فهو يقوم

بتوصيل الخضروات والفاكهة

وحاجات البيوت التموينية من السوق، إلى مختلف

بيوت المدينة ، ومن مصلحته ان يتقن اقصر الطرق

التي توفر له الوقت والجهد
وهو الذي ستقوم باستتجاره لهذه المهمة يوم الغد
لم يكن لدى السنيورة حورية شيء جديد تقوله لك
حول الزيارة المرتقبة ، عندما قابلتها مساء ، عدا ان
الحاكم العام لن يكون مستعدا خلال الزيارة ، لاسباب
امنية وصحية ، ان يتناول أي طعام أو شراب ، وهو لا
يريد أن يصطحب أحدا من مرافقيه ممن يذهبون عادة
معه ، ويتناولون قبله أي طعام أو شراب يقدم اليه
وكان لابد ان تشركها معك في حيرتك ، فهي تعرف
طبيعة الليبيين المضيفة ، خاصة وان الجولة تتضمن
زيارة سريعة لاسرة ليبية ، فكيف سيتم علاج الموقف؟
العلاج الذي اقترحته حوريه هو ان يتظاهر الحاكم العام
بانه يقوم بفعل الاكل أو الشراب ، وعليك ان تتدخل
لمساعدته في اتمام المهمة ، فقد
يأخذ كاس الشاي ، وعليك
ان تأخذه منه لترده لاصحاب
الدار أو الحانوت فارغا
بعد ان تشربه أو ترميه دون علمهم
ضحكت لأنها ارادت ان تتقن
في يوم واحد مهارات
مثل خفة اليد وخداع البصر ، التي
يقضي السحرة والحواة
عمرا في تعلمها
ولكن ماذا عن العائلة التي سيزورها ؟
كنت تتمنى لو ان القنصليات
القديمة ، مأهولة بالعائلات
بحيث يصبح من الممكن استئذانها
في دخول المكان ويتحقق مع هدف زيارة
الموقع الاثري ، زيارة العائلة
الليبية ، إلا أن هذه القنصليات تغيرت طبيعتها دون

ان تتحول إلى بيوت سكنية ، فاحداها تحولت إلى مديعة
للجلود وعلى الحاكم العام ان يتحمل رائجتها الكريهة
إذا اصر على زيارتها ، وأخرى صارت مصنعا يملكه
تاجر يهودي لتحضير نوع من الخمر المحلية الرخيصة
اسمه البوخة ، والانجليزية تهدم ركن منها فاقفلت

ووضعت قيد الحراسة صيانة

ولا تعرف من العائلات الليبية الا عائلة الرجل الذي
كنت تعمل لديه مساعدا في صنع الاحذية ، وهو رجل
طريح الفراش يعيش مع زوجته وابنته التي ذهب زوجها
إلى الحبشة وطفل في العاشرة ، في بيت صغير لا يزيد
عن ثلاث غرف

ورأت حورية ان هذه هي العائلة المثالية التي يحب
المارشال ان يزورها ، فلا حاجة لزيارة البيوت الكبيرة
التي سيراها عندما يذهب إلى بيوت وقصور القناصل
وسيسعده ان يتعرف إلى عائلة ينتمي احد رجالها
إلى الجيش الإيطالي المحارب في الحبشة
لم تقل لحورية شيئا عن علاقتك بهذا البيت واصحابه
أوعن سوء الفهم الذي حدث منذ يومين بسبب الحاكم
والحاجة لازالته قبل زيارة الحاكم ، وهو ما رأيت
ان تمنحه أولوية

على أي شيء آخر ، ليس رغبة في ارضاء
المارشال وانما ارضاء لثريا وما ستركه هذه الزيارة
من اثر على نظرتها لك ، عندما
تعلم انك اصطحبت حاكم

البلاد إلى بيتها ، لأن هذه الزيارة لن تبقى سرية
لوقت طويل بعد حدوثها وسيأتي وقت للحديث عنها دون
حرج أو خوف استأذنت حورية في ان تترك العمل مبكرا
لمزيد من الترتيبات للزيارة وذهبت بعد العصر بقليل
تدق باب الحاج المهدي . لم تكن قد اعددت ما ستقوله
بالضبط لتبرير زيارة الرجل الغريب

إلا أن رأسك لم يكن خاليا من بعض العناوين
التي تأمل ان تعثر على تفاصيل لها اثناء الحديث
مع الحاج واسرته . جئت بيدين خاويتين ، لا تحمل معك
شيئا مما تعودت ان تأتي به على سبيل الهدية، كلما طرقت
باب هذا البيت ، لأنك على ثقة من ان اية حزمة تحملها
حتى لو كانت بصلا ، ستوقظ لديهم مشاعر الخوف والحذر
وعندما فتحت لك الام الباب ودخلت إلى غرفة الحاج
لم تسأل مجرد السؤال عن ثريا ، أو تظهر شيئا من اللهفة
لرؤيتها لتزيد الام اطمئنانا، بان لديك مهمة جئت من أجلها
لا مجرد ذريعة لكي ترى ابنتها ، وبعد الاستفسار عن صحة
الحاج ، دخلت بسرعة في الموضوع ، قائلا للرجل
وزوجته ، بانك قابلت تاجرا من خارج البلاد يعرف الحاج
المهدي، وتعامل معه في أزمة سائلة، وعندما سمع بانه
متوكل صحيا اصر على زيارته، وقد جئت تطلب له الان
لكي يأتي غدا قبل الظهر . سالك الحاج عمن يكون هذا الرجل
ومن أي بلد جاء ، فتذرع بانك قابلته على عجل عبر تاجر
صديق هو الذي أخبره بانك تعرف عنوان الحاج
وضعت العائلة أمام الأمر الواقع ، وفرضت عليهم الزيارة
وابلغتهم قبل ان تذهب ، بان الزائر على سفر، ولن يكون لديه
وقت لتناول أي طعام أو شراب ، انما هي دقائق يؤدي خلالها
واجب المعايدة وينصرف ، ورغم ان الحاج المهدي عاد
يلح في معرفة هوية الزائر ، إلا أنك لم تستطع إلا أن تكون
غامضا لأنك لا تدري على اية صورة سيأتي ، واية البسة
سيرتدي ، كما جازفت باختراع هذه الصداقة بينه
وبين الحاج ، واتقا من ان الحاج الذي التقى في دكانه
بخلق كثير ، لن يستطيع ان يكتشف زيف هذا الادعاء
وعرجت على مطعم شعبي لليهودي
" شلومو" تحت برج الساعة تناولت
عنده طبق الفاصوليا بالكرشة الذي يشتهر به
وتعمدت ان تبقى في الشارع خلال الجزء الأول من الليل

تطوف شوارع المدينة القديمة بحرية أكثر، ووقت اقصر
بعد ان اقلت المتاجر، وفرغت الاحياء والشوارع
من زحامها كما أن الرجوع متأخرا إلى الفندق ، سيعفيك
من ثثرة الكبران الذي ركبته لوثة الحاكي ، واضحى
مجنونا من مجانيته ، يريد الاستيلاء عليه باية طريقة
مستكثرا على نفسه دفع مبلغ
من المال لشراء حاك جديد ، فاتحا أمامك معركة
لا تملك وقتا لخوضها الآن، وترغب في تأجيلها إلى
ما بعد يوم الزيارة
تسللت عائدا إلى غرفتك بعد ان نام الجميع
وصحوت مبكرا جدا لكي توصل مهمة الاعداد لخط الزيارة
جئت بعثال من مواليد المدينة القديمة ، لا من الوافدين
اليها من خارجها ، اسعده ان يجد زبونا مثلك يعطيه
اجرة النقل دون ان يكلفه بنقل اية حمولة . بدأت معه
الجولة من باب الحرية حيث يشكل قوس الصراري مدخلا
طبيعيا للمدينة القديمة
يليه قوس المقتي ومفترق طرق الاربع عرصات
مرورا بالمعالم التي يريد الضيف زيارتها ، وصولا
إلى باب البحر ثم الخروج عبر طريق هابط إلى منطقة
الميناء ، عدت معه عبر نفس الطريق ثم تركته لتقطع
المسافة من نقطة البداية إلى نقطة النهاية بمفرده ، وعدت
مرة ثالثة لمزيد من التأكد ، حتى شعرت انك اتقنت الدرس
الذي قدمه لك الحمال بوعديله ، وحفظته عن ظهر قلب
ولم يعد أمامك الآن ان تصرف جزءا مما بقي معك
من نقود على حلقة شعرك وشراء بذلة جديدة تليق برجل
سيرافق الحاكم العام
— لم نضع في اعتبارنا ان الزيارة ستكلفك نقودا.
هذا ما قالته حورية عندما اريتها البذلة التي اشتريتها
لكي ترتديها عند مرافقتك للمارشال . اضافت وهي تتحسس
قماسها الناعم:

— ذوقك يماثل ذوقي ، فانا أيضاً أحب الازرق الفاتح، واكره
الالوان القائمة.

— اذن فانت توافقين عليها .

— هل ترغب في ان ترتديها الآن ؟

— يكفي اني قسستها في الدكان ووجدتها ثلاثم مقاسي .

— مبروك ، احسب انك بدأت تخرج من ثوب السائق، إلى ثوب
رجل اكبر مقاماً .

— اعتبر نفسي إنساناً محظوظاً لأنني اعمل سائقاً لديك، ولا
اريد مقاماً اكبر من هذا المقام .

— دعنا نتفق الآن على الترتيبات الاخيرة لزيارة الغد. ستأتي

هنا قبل العاشرة بقليل . تؤجر كروسة من أمام السرايا
وتأتي بها لتقف أمام باب العمارة بالضبط ، ستصعد انت
إلى الشقة للقاء المارشال ومصاحبته بعد ذلك في العربة
إلى النقطة التي ستبدأ منها الجولة ، ثم تدع العربة تذهب
لتنظر عند نقطة الانتهاء .

ثم قامت فاحضرت خريطة لمدينة طرابلس ، وسألتك

ان تحدد لها فوق هذه الخريطة ، وبقلم أحمر

جاءت به ، الخط الذي تقترحه للزيارة

رسمت لها خط الزيارة كما اقترحها عليك العتال

لعرضها على الحاكم العام ، الذي سيرى ان كان سيجري

عليه أي تعديل أو اضافة. حذرتك حورية من ان تنسى

نفسك وتتفوه بآية كلمة اثناء مرافقتك له ، تشير

إلى هويته واذا كانت هناك ضرورة لمخاطبته

باسم ما أو واجهكم موقف ما يقتضي تقديمه لاحد الناس

فسيعطيك هو ، عندما تراه غدا ، تعليماته بهذا الشأن

وقبل ان تغادر بيتها فتحت حورية حقيبة يدها ، واخرجت

مجموعة أوراق مالية ، سألتك ان تقيها معك ، وعندما

ترددت في اخذها ، أخبرتك بانها لا تعطيكها لك لتتفقها

على نفسك وانما لتكون تحت تصرف المارشال، فيما اذا

احتاج لصرف أي مبلغ اثناء الجولة ، لتتولى انت الدفع

بما في ذلك اجرة الكروسة
لم يكن هناك ما يملأ ذهنك بعد ان غادرت بيت حورية
الا دقائق الساعة التي تحدد ما تبقى من الزمن لبداية
الزيارة ، وتذكرك ثمانية بعد الأخرى، من هذا الموعد
الخطير، الذي سيكون حدثا مهولا في حياتك
ذهبت مباشرة إلى روضة سيدى الحطاب القريبة
تصلي ركعتين لله وتسأل الولي الصالح
بجاهه عند ربه ان يحرسك ويحميك
ويعينك في ان تمضي الجولة دون مشاكل
نمت نوما متقطعا ، راودتك خلاله أحلام
كثيرة ، كلها تدور حول جولة الغد
مع المارشال ، تصورها قبل حدوثها، وتصور
المارشال الذي يأتي متذكرا في اشكال
غير آدمية، فهو حيناً في صورة طائر كبير يهبط
من السماء، له ريش ومخالب الطيور
ووجه إنسان هو وجهه الحقيقي ، وفي صورة
أخرى يصير ثورا له قرنات ، تزين عنقه النياشين
العسكريه ، أو تراه فيلا له خرطوم في شكل
بندقية ويرتدي خوذة عسكريه ، أو رجلا
يرتدي بذلة مارشال الجو له رأس شعبان يبرز
من فمه نابان ازرقان ، يجري نحوك لافتراسك
وأنت تجري مستجدا بسيدى الحطاب .

انتهى الجزء الثانى من خرائط الروح ويليه الجزء الثالث

أحمد إبراهيم الفقيه

عارية تركض الروح

الرواية الثالثة من خرائط الروح

لا وجود لمكان في الدنيا يستطيع ان ينسحب اليه الانسان في سلام غير روحه
ماركوس اوريليوس

وكان يسكن بلدة مزده أحد الاشراف يدعى عبد النبي، قام بتشكيل
فرقة من الفرسان ، يجوب بها الضواحي ويستولى على قطعان الماشية ، وخرج رجب بك
لمطاردته ، فهرب مثير الفلق هذا ، وكان العقاب الوحيد الذي استطاع الاتراك انزاله به هو
انهم ازالو
بلدة مزده من الوجود .

شارل فيرو
(في الحوليات اللبية عن احداث وقعت
حوالى عام 1660)

مفتتح الرواية الثالثة

*الباب الذي صحت مبكرا ، تشد الرحال اليه ، وترجو قضاء مصلحتك عنده ، ما ان وصلت الى عتباته ، وابتهجت بسرعة انفراجه ، حتى وجدته يفضي الى باب آخر ، ففتحته فوجدت الباب الثاني يفضي الى باب ثالث ، والثالث الى رابع ، وخامس ، وسادس ، وانبت تمضى ذاهلا ، من باب الى باب ، حتى تسلمك الى الباب الاول الذي دخلت منه ، تلك هي صورة من صور المناهات التي نلتقي بها في الحياة .

*الباب الذي رأيت فيه طاقة الامل والخلص ، واتجهت اليه بعواطفك واحلامك ، قيل ان تتجه اليه بقدميك ، كم كان موجعا، مؤلما ، ان تصل اليه فتجد انهم اوصدوه دونك . طرقة مرة واخرى ، وازدادت طرقاتك عنفا وقوة ، لانك تعرف ان وراء الباب اناسا وصلوا قبلك ، هم الذين اوصدوه ، وصرخت توقظهم خشية انهم ناموا ، الا ان ضجيجا وصخبيا بعيدا تنتهي اليك من خلف الباب ، يؤكد انهم يمرحون ويلعبون ويستمتعون بشار البستان الذي تظهر ذوابات اشجاره من خلف السور العالي ، فلا نوم ولا مرض ولا عجز من أي نوع يمنعهم من ان يفتحوا لك الباب ، انما هي غريزة الامتلاك وشهوته ، جعلتهم يستحذون على الغلال لانفسهم ويمنعونها عن كل قادم جديد ، يحدث هذا على مستوى الافراد ، كما يحدث على مستوى الشعوب والاطوان .

* هناك ارادتان تتصارعان في عالم البشر ، هما ارادة الموت، و ارادة الحياة

الاولى تدفع باتجاه الدمار ، والثانية باتجاه النمو والخصب والبناء ، نرى تجليات لهما في كل مناحي الحياة ، بدءا من الحرب والسلام ، على مستوى الصراعات الدولية ، الى دوائر اكثر ضيقا ومحدودية على مستوى الحي الذي نعيش فيه ، والعائلة التي ننتمي اليها ، ولعل اكثر تجليات هذا الصراع التصاقا بنا ، هي تجلياته داخل انفسنا ، فنحن كثيرا ما نعاني محنة ان تشبك الارادتان ، الموت والحياة ، في صراع قوي عنيف بداخلنا ، ونجد انفسنا نتمزق بين قوة تقودنا لتدمير انفسنا ، ورغبة في الخلاص والنجاة من المصير الذي تقودنا اليه تلك القوة ، ولن نستطيع ان نسأل المنتحرين عن ذلك الصراع ، ولكننا نستطيع ان نسأل من لازالوا يكافحون للخروج من دوائر الادمان ، سواء اتصل بالتدخين او الكحول او المخدرات او القمار ، وهناك بالتأكيد مستويات اخرى لهذا الصراع اكثر عمقا وتعقيدا وقدرة على اخفاء نفسها في مجاهل العقل الباطن .

*هناك من تستهويه لعبة الحديث في المرأة مع نفسه ، وتبادل رسائل الحب معها ، وينتهي به الامر معزولا، عاجزا عن التوصل تواصلا سويا مع الناس، والخروج من ذاته للدخول في حوار مع الآخرين ، يحدث هذا على مستوى الافراد ، ويحدث احيانا على مستوى الاحزاب والحكومات .

* الآخرون هم الجحيم ، مقولة ناقصة ، لا تكتمل الا بتعديها على النحو التالي :

— الآخرون هم الجحيم الذي لا بد منه .

*هناك سقوط له صخب وضجيج ، وهناك سقوط أكثر فداحة وخطورة يحدث دخل نفس الانسان، دون ان نسمع له صوتا.

* نكتفي أحيانا بالتعبير عن مشاعر السخط والاسى لسوء الزمن الذي نعيش فيه ، والجلوس والتمني بان زمانجيلا سوف يأتي ، ونظن واهمين ان الاماني الجميلة تكفي وحدها لصنع الزمن الجميل .

* مهما تكن احتفالاتنا بانقضاء عام ودخول عام جديد ، صاخبة قوية ، سواء على مستوى أعياد ميلادنا الشخصية ، أو مستوى أعياد رأس العام ، فإن هذا الصخب لن يغطي على الحقيقة المؤسفة التي نقول إنها أوقات مخصصة من أعمارنا .

ابتالو باليو

استيقظت عند الفجر على صوت المؤذن
لم تستطع ان تنام ثانية ، توضأت وصليت ثم عدت
واستلقيت على السرير تحديق في السقف ، وتتنظر مجيء الساعة التاسعة
وجدت نفسك بعد دقائق من خروجك ، أمام مسرح ومقهى
الماريماري ، فشربت شايا بالحليب ، واكلت قطعتي فطائر
مما يسمى خبز النصارى، واخذت الكروسة إلى شارع البلدية
حيث بيت السنيورة حورية . افهمت السائق بانك ستؤجره
إلى ساعة الظهر ، وان عليه الانتظار ، اذا ما تأخرت في العودة
اليه عند الموعد المحدد . تجنبت ان تطيل معه الحديث
لكي لا تقلت منك كلمة لا لزوم لها ، وقبل العاشرة بعشر دقائق
سألته ان يقف أمام باب العمارة
لم يكن هناك أي مظهر من المظاهر المعتادة
عند وجود الحاكم العام في البيت، إلا أنه كان بالتأكيد قد وصل
ان لم يكن مما يوحي به هؤلاء الشرطة السريين في ملابسهم المدنية ، المشائرين في المنطقة
المحيطة ، فمن الموعد المحدد
لبدء الجولة من هذا المكان
انطلقت صاعدا السلام ، طارقا باب البيت
كنت مندهشا لحالة السكون التي حلت بك، وهذه الاعصاب
الهادئة التي تطرق بها الباب . فأنت منذ فترة بسيطة
مضت ، كنت متهيبا هذه المهمة
تشعر برعب ذو هذه اللحظة ، كأنها يوم القيامة
وعندما حانت ، وقفت أمام الباب تطرقه هادئا ، مستريحا
كأن اعصابك قدت من حجر ، لا تحركها خطورة اللحظة ورهبتها
وهاهي حورية تفتح الباب بنفسها ، مشرقة الوجه
ترفع قوسي حاجبها دليل الرضا والامتنان، وتبتسم بعينيها
تلك الابتسامة التي تقطر سحرا ، والتي ترافق ظهورها

مع ظهور ابتسامة أخرى فوق ثغرها الجميل ، رأيت فيها بشيرا
بنجاح مهمتك . تملك حورية بنظرة من اعلاك إلى اسفلك
تحمل معنى الرضا عن مظهرك ، زادتك ثقة بنفسك
تجلسك في الصالون ، وتغيب لحظة قصيرة ، تعود بعدها
صحبة رجل مغربي بهي الطلعة ، يرتدى الطربوش والجلابية
المغربية والخف المغربي ، وقد بدا انيقا ، وسيماء مهيبا ، ينم
مظهره عن النعمة والثراء ، وقفت مستعدة لاستقبال الرجل
ومصافحته دون ان يخطر في بالك ان هذه هي الشخصية
التي اختارها المارشال
للظهور بها في مهمته التكرية ، اذ افلح فعلا في ان يخفي
شخصيته الحقيقية داخل شخصية أخرى شديدة الاختلاف
عن شخصيته الاصلية ، لا تحمل شبهة التمويه والتقليد
لأنها تبدو شخصية اصيلة قادمة من المغرب
تحولت لحبته السوداء إلى لون فضي ، اعطاه مزيدا من الوقار
واختار ان يضع على عينيه نظارة مطلية بلون فضي
يزيد في اخفاء هويته ، ولكنه لا يحجب اشعاع القوة الصادر
من عينيه . نطق بكلمات عربية قليلة ، فبدا واضحا انه تدرب
عليها جيدا حتى اتقنها ، ولعله التقطها خلال مدة حكمه للبلاد
مثل السلام عليكم ، وكيف الحال ، وهذا شيء ممتاز
وسيقوم عند الحاجة باداء بعض التتممات ، يهمس بها اليك
فتتولى انت اعادة قولها للآخرين بحسب ما يقتضيه الموقف
انه موافق على خط الزيارة ، كما شاهده على الخريطة
ولن يضيف اليه الا ما يقتضيه الحال اثناء مشاهدته لمعالم
المدينة القديمة على الطبيعة ، كما أنه لن يطيل البقاء
في أي مكان من هذه الاماكن ، بما في ذلك زيارته للعائلة
الليبية . لم يكن صعبا ان تعرف ان المارشال لن يقوم
بهذه الجولة دون حراس ، بل لعلهم هذه المرة أكثر عددا
وأوسع انتشارا من جولاته العلنية ، إلا أنهم جميعا يؤدون
هذه المهمة بشكل سري ، وبملايس مدنية ، وسيرافقون
العربة ، بعضهم على دراجته ، وبعضهم على الاقدام

وبعضهم الآخر ممن ينتمون إلى العناصر الليبية داخل
جهاز"الأوفرا" ، سيقوا المارشال وتمركزوا
في امكانهم بجوار المعالم
التي سيزورها ، دون ضرورة لان يعرف الواحد منهم
ان بالبو نفسه هو الذي سيقوم بالزيارة اذ يكفي اخباره
بان هناك شخصا مهما سيقوم بحراسته
والمحافظة على امنه من بعيد ، أو هذا ما استطعت
التقاطه من كلمات دارت بين المارشال وحورية
عند توديعها له متمنية له السلامة
كان واضحا منذ بداية الجولة ، ان المارشال سعيد
بهذه المغامرة التي ترضي ميوله الاستعراضية، بأكثر
مما ترضيها حفلاته الراقصة الصاخبة في الفنادق
وقصور الحكم لأنه هنا سيقوم بدور يدخل في صميم
لعبة التمثيل
تركنا العربية ، ودخلنا عبر بوابة قوس الصراري، إلى
عالم المدينة القديمة وشوارعها التي تحفل بالاقواس
بعضها يحمل زخارف مثل الطلاس ، وكلها تحمل طابع القدم
والعتاقة وكان بالبو يرفع راسه ويميل به إلى الخلف
معلقا بصره بهذه الاقواس كأنه يحاول قراءة الطلاس
التي تحملها حجارتها ملاحظا اختلاف هذه الاقواس
في احجامها وهندستها
متسائلا عن الصلة التي يمكن ان تجمعها
بمعمار المدن الرومانية التي تمثل الاقواس ملمحا
أساسيا من ملامحها ، وكنت تعتبر كلامه هذا مجرد
تفكير بصوت عال بقوله بينه وبين نفسه ولا ينتظر منك اجابة
ولا تعليقا عليه
كان يوزرع بصره بين هذه الاقواس وبين البيوت المفتوحة
ذات الردهات الكبيرة التي لا تقفل ابوابها ابدا لأن افراد
العائلات الكثيرة التي تسكنها بواقع عائلة في كل غرفة
لا وقت لديهم لقفل الباب وفتحه عند خروج وقدم كل

واحد منهم ، ولذلك فهم يسدلون على بابه خيشة
لتستر ما بداخله وأحياناً يبقى مفتوحاً دون هذه الخيشة
إذا كان قاطنوه من غير الليبيين ، متيحاً الفرصة لكل
عابر طريق مثلكما ان يرى ما بداخله ، ويرى شيئاً آخر
يهم رجلاً مثل الحاكم العام
هو استتباب الامن في هذه الاحياء التي لا تعرف الاحتماء
بالابواب المغلقة ، يقول ذلك بالإيطالية ، وبصوت هامس
لكي لا يلتفت لانتباه احد ، لأن الإيطالية التي لا وجود لغيرها
في الاحياء الجديدة ، لا وجود لها هنا على الاطلاق ، فلغة الشارع
باطفاله وباعته الجائلين واصحاب السلع المطروحة
على الرصيف هي اللغة العربية
في نسختها المحلية الطرابلسية ولا شي سواها يتكلمها
الليبيون بمثل ما يتكلمها افراد الجاليات الاجنبية
من قاطني هذه المدينة
كنت قد بدأت تشرح ما كنت واثقا من انه يعرفه أكثر منك
من مستشاريه وتقاريره وكتبه، إلا أنك لابد انت أيضاً ان تقوم
بدورك في التمثيلية ، باعتبارك الدليل الذي يتقن مهنته
تشرح له بعض ملامح المدينة القديمة فالجزء الاكبر منها
يحتمله الحي العربي الاسلامي الذي يسكنه الليبيون
وهو الجزء الذي تمران به الآن ، ويمثل شارع كوشة الصفار
اهم ملامحه . و كنت قد قرأت في مجلة ليبيا المصورة مقالة
عن الاصل الفينيقي لطرابلس ثم الروماني وعن الاسس
المعمارية الرومانية التي بنيت عليها، و عن اسوارها التي
بنيت لصد الهجمات التي تأتي من بدو الصحراء
غير الابراج والقلاع التي تصد غزاة البحر
واردت ان تواصل حديثك عن هذه الجوانب التاريخية
منطلقاً من تأكيد كلامه على وجود اصل روماني لهذا الجانب
في معمار المدينة القديمة المتمثل في الاقواس
إلا أنه لم يكن يريد منك مثل هذه المعلومات
ما كان يشغله هو معاينة المكان واطهار اهتمامه باللون المحلي

لهذه الازقة والبيوت والدكاكين، ومظاهر الحياة
الموجودة في الشارع ، منتبها لنقاط لم تكن لتلفت انتباهك
مثل نوع الحجارة التي رصفت بها الشوارع، ومصدرها
أو زخرفة فوق جدار، أو نقش فوق باب خشبي
مما لا تجد انت فيه شيئا مهما ، وإذا وجدت فلا تعرف
ان تضيف اليه شرحا ولا تفسيرا
بل حتى اهتمامه بمنعطفات ومنعرجات في هذه الزوارب
التي تكتم على القلب ، وهذه الجدران التي يغطيها صدأ السنين
وننوءات هذه الاقواس التي تسكنها السحالي والجنادب
لا تجد له معنى ولا مبررا، ولا تعرف كيف لرجل يسكن القصور
الفيحاء مثل تلك الاية المعمارية الحديثة التي تسمى قصر بالبو
وتتربع في قلب المدينة بقبابها الذهبية وما يحيط بها من حدائق
ونوافير واضواء واقواس من الرخام تتسلقها الزهور
وليست كأقواس البؤس في المدينة القديمة ان يجد
ذرة جمال في هذه الحيطان المتهاكلة، بطرازها المعماري البدائي
الفقر، ولماذا اصلا يهتم بالمجيء إلى هذه الاحياء التي يعيش
فيها الفقر، ويغلفها البؤس، وهذه الدكاكين الرثة
وهؤلاء الباعة الجائلين باسمالهم القذرة ، وغير ذلك
من مظاهر التعاسة في هذه المدينة التي تدل
على ان الله نفسه قد اهملها واسقطها
من حسابه ، فلماذا يأتي بالبو ويعمل لها حسابا
انه يهتم بكل حجر دارس كأنه جوهرة من انفس الجواهر
وإذا وجد حروفا منقوشة لم يعرف هويتها سأللك ان كانت
حروفا عربية لتقرأها له ، و كانت اغليها لبوابات
من العصر التركي كتب فوقها باسم الله
و ينظر بفضول لكل بائع من هؤلاء الباعة الجائلين
الشحاذين كأنه يبيع اكسير الحياة
تفاجأ أنت، وترتبك وهو يريد ان يعرف شيئا عن هذا السحلب
الذي يبيعه بائع قميء ، أو الذرة المشوية وهي اشياء
يستطيع ان يراها بنفسه كما يستطيع ان يرى عربة

"الاراجوز" ويرى بائع الماء الذي يضع عمودا
على كتفيه يتدلى منه وعاءان مملوءان بالماء
دون حاجة لأي شرح منك ، كما يستطيع ان يرى هذا
الدرويش الذي جاء يقصده باعتباره شيئا مغربيا
تربطه امتن الصلات بأمثاله
يرتدي جبة خضراء ويحمل مجمره يتصاعد منها الدخان
يطوف بين الناس ، وهو يهدر بكلمات غير مفهومة
والرغوة تتطاير من فمه
ما أن رأى بالبو في شخصيته التنكرية ، حتى اتجه نحوه
يطوف به ، ويطلق صرخاته المخيفة ، فتخرج له من جيبك
ورقة عشر فرنكات لكي ينصرف ، إلا أنه وقد ادرك وجهة
الرجل المغربي ، وما يمكن ان يحصل عليه من اموال يعطيها له
ازداد هياجه ، وبالف في اظهار حركاته العصبية ، بطوح
المجمره التي معه في الهواء المرة تلو الأخرى ، مما
وجدته يصنع لك وللحاكم العام موقفا محرجا ، خاصة
وان الجمرات تهدد بوصولها
إلى ثوب الحاكم ، مما سيثير بالتأكيد حالة من الفزع
لدى الحراس السريين ، فيهمجون على الدرويش
ويهرعون لانقاذ سيدهم وتقتل بالتالي الجولة منذ
بدايتها ، ودون تردد وجدت نفسك
تصفع الدرويش على وجهه صفعة قوية تعيد اليه
صوابه فينطلق هاربا يعوي ، إلى ان يختفي عن الانظار
مما يؤكد انه ليس درويشا اصيلا، وانما مجرد نصاب
صغير اتخذ من ثوب الدرويش وسيلة للشحاذة
ادرت رأسك إلى الحاكم العام ، تبحث عن رد فعله
فوجدته على غير ما توقعت ، بغضب ويرطن هامسا بلغته
الإيطالية مؤنبا ، قائلا بعنف مكتوم:
— لا تفعل هذا مرة أخرى .
ادركت انك اخطأت فالرجل كان مستمتعا بهذه الاجواء
التي لم يتعود عليها ولم يألفها، فادخلت رأسك بين كتفيه

وواصلت السير بمحاذاته صامتا مرتبكا
لم ينفذك من حرج الموقف، الا وصولكما إلى نقطة الارتكاز
في المدينة القديمة ، وهي الاعمدة الاثرية الرومانية الاربعة
المسماة الاربع عرصات ، هذا الجزء الذي تبقى من اويا
القديمة وظل شاهدا على تبدل العصور
وقف المارشال يتأمل هذه الاعمدة ، ويدور حولها
يبحث عن كتابات رومانية اكلتها عوامل التعرية
ويجلس مقرصا يتأمل نقشاً لرجل يضرب فيتارة ، فصاح
كأنه عثر على كنز :
— انه ابولو

شارحا لك ، وهو يراك لا تترك سر حماسه بما عثر عليه ، بانه
احد الهة العالم القديم ، اشترك في تالسيهه الاغريق والرومان
وربطته علاقة وثيقة بليبيا القديمة التي اعطاها اسم احدى بناته
وقد شيدت له ليبيا اكبر معبدين في العالم
احدهما في قورينا بالجبل الأخضر على ايدي اليونانيين
وهو موجود حتى الآن يحتل هضبة باكملها
والثاني على ايدي الرومان في طرابلس "اويا"
وقد تهدم وضاع موقعه، ولا بد ان هذه الاعمدة الاربعة
هي صرح معبد المفقود ، وقد اشتهر منذ مولده بهذه
الاعمدة الاربعة التي وهبتها الالهة، لجزيرته
التي ولد فيها " مينوس " لكي تحميها من الغرق
وظل يتأمل الاعمدة مبهورا صامتا، حتى بدأ يتجمع عليكما
عدد من الاطفال وعابري السبيل ، فكان لابد ان تتركا
معبد ابولو، وتواصلا الجولة
كان خط الزيارة يتجه يمينا حيث ستظهر بعد قليل
مجموعة القنصليات التي تجاور بعضها بعضا
فهنا زنقة الفرنسيس ، تجاورها زنقة الاسبانيول
وقنصلية بريطانيا ، ثم اسبانيا ، وقنصليات أخرى مثل
البندقية ، والنمسا، واليونان ، وتوسكانا ، وغيرها قبل ان تصل
إلى القنصلية الفرنسية، التي تتأخم حي باب البحر

وهو الحي الذي تركته إلى آخر الزيارة
اختار المارشال ان يبدأ بالقتلصلى البريطانية، التي احتلت واحدا
من اكبر وأوسع بيوت طرابلس ، فيما يشبه القلعة
وقد ظلت رغم تقادم الأزمنة في حوزة الحكومة البريطانية
التي قررت اخيرا ترميمها والانتفاع بها كمقر لاحدى شركاتها
التي تشتغل في مجال تصدير الحلفاء والاسفنج
لم يكن هناك غير الحارس الذي سبق ان زرته بالامس
واتفقت معه على هذه الزيارة، بعد ان عرفت انه يستقبل أحيانا
بعض الزوار المعنيين بدراسة مثل هذه المعالم الاثرية
ويستفيد منهم في تحسين دخله، وأكثر من ذلك فهو
عندما يرافق الزوار داخل المبنى ، ليتأكد من محافظتهم
على ما تبقى من مقتنيات القتلصلى
يتولى أيضا القيام بدور المرشد السياحي لهم ، متوقعا
اجرا اضافيا على هذه الخدمة . اجتازت البوابة الرئيسية
الكبيرة التي تفضي إلى سقيفة تنتهي بباب يفضي
هو الآخر إلى باب ثالث وقد عزا الحارس وجود هذه الابواب
إلى تأمين السفارة من هجمات
الزجاج في أوقات التوتر والازمات ، ثم دخلتم
إلى الباحة لداخلية للبيت التي تنقسم الى جزء مسقوف
و جزء بقي مفتوحا يمثل حديقة بها مربعات مبلطة
وأخرى تحتوي أشجارا ونباتات نيبست وتحولت
إلى قش واحطاب
دخلتم بعدها إلى أولى صالات البيت واكبرها مساحة
ملبسة جدرانها بخشب تكسرت اجزاء منه ، إلا أن
صورة الملكة فيكتوريا المعلقة بأعلى الجدار، والمرسومة
بازهى الالوان مازالت صامدة ، تنظر للرائي بعينين تتقدان
ذكاء وشبابا رغم تجاعيد الشيخوخة الزاحفة على الوجه
وهناك طاولة ، ضاع لون الجلد الذي يغطي سطحها، وتحول
إلى سواد وفوقها محبرة تجمد حبرها ، ومجسد
للكرة الأرضية يغلفه الغبار

وفي صندوق تحطم بابه الزجاجي ، معلق بالحائط ، هناك التيليسكوب الذي تقول بطاقة الشرح الملتصقة به، انه كان من مقتنيات القائد البحري اللورد نيلسون ، ولم يكن ممكنا ان يفهم المرشال الشروح التي كان يقولها الحارس فقد كان يتكلم لغة عربية ممزوجة بكلمات إيطالية عزاهما لكونه امضى عامين في مدرسة إيطالية ، فافترحت عليه ان يتكلم بالإيطالية التي ستفهمانها أكثر من فهمكما لهذه اللغة المختلطة فظهر البشر على وجهه ، وانطلق يتكلم لغة إيطالية سليمة بما يعرفه عن تاريخ القنصلية — من هنا كان الناس يشربون الماء النقي في زمن الكوليرا.

رفع الغطاء عن فم البئر المحفورة في قلب الباحة ، عندما عديم السبىها من احدى شرفات الصالة ، شارحا كيف ان اناسا كثيرين لجأوا إلى القنصلية خوفا من وباء الكوليرا منذ أكثر من مائة عام فقدم لهم القنصل وارانجتون الماء والطعام ، وبقي هؤلاء اللاجئين في القنصلية حتى انتهى الوباء وانتقل إلى الحديث عن الرعب الذي اصابه في أول ليلة عمل يقضيها في هذا البيت ، عندما سمع اصوات نساء ورجال يبكون وينوحون داخل القنصلية ، واصوات اقدامهم وهم يصعدون ويهبطون السلالم ، واصطفاق الابواب التي تفتح وتغلق وتكرر ذلك ليلة وراء الأخرى، حتى تعود على سماع هذا الصخب الليلي ، وتآلف معه ، ولم يعد يثير خوفه كما رأى في أكثر من ليلة شبح امرأة تخرج من البيت وتعود اليه ، مخترقة الجدران والابواب المغلقة، وعرف فيما بعد تاريخ الكوارث التي حصلت في هذا البيت خاصة أيام الوالى على برغل ، الذي كان ينزل من القلعة مع عدد من حراسه يحملون السيوف والخناجر، يهاجمون

الحوانيت ، بنهبون اموالها ويطاردون اصحابها
الذين يهرون ببعض المال والمصوغات
باتجاه القنصلية البريطانية ، للاحتماء بها
فيقتحم القنصلية ويعمل فيهم تعذيبا وتقتيلا
دون اعتبار للاعراف الدبلوماسية، أو الجوانب الإنسانية
وعلق الحاكم العام بان على برغل لم يكن والى وانما كان قرصانا
استغل الأوضاع المضطربة التي كان يمر بها الحكم
في العهد الفرمانلي ، فاتفق مع بعض اللصوص والقراصنة
وزيف لنفسه فرمانا، ادعى انه احضره من الباب العالي
وسطاً على البلاد بكاملها
لم يكن مظهر الحارس يوحى بان له اهتماما وطنيا
ولكن تعليقه على ما قاله الحاكم العام جاء صدمة
لم تكن تتوقعها :

— كان قرصانا صغيرا جاء ورحل في أيام قليلة، ولكن
ماذا تقول في قرصنة هذا الزمان ، الذين سطوا على
البلاد منذ ربع قرن ومازالوا يمارسون نهبها وتقتيل
وتجويع أهلها دون ان تلوح في السماء بارقة امل أو فرج .

كنت تريد ان تقول شيئا تردع به الرجل وترد على
ما قاله ، ونظرت إلى المارشال المتكرر في ثيابه
المغربية ، فإشار اليك بعينيه وبحركة من يده، الا
تفعل شيئا ، واخذ هو زمام الحديث عائدا إلى سيرة الاشباح
مستفسرا من الحارس عما اذا حدث خلال هذه الفترة الطويلة
التي راقب فيها حركة الاشباح ان وقع أي اتصال بينه وبينها
فصمت الرجل قليلا ، قبل ان يقول بان هناك اسرار ما كان
ليعرفها الا بطول المعاشرة لهذه الارواح ، من بينها
ان هذه القطعة التي رأيناها نائمة تحت السلم ، ليست الارواح
أو شبحا من هذه الاشباح رآها أكثر من مرة تتسلل
عبر الجدار كأنها طيف
وقد ذكر القصة لباحث انجليزي جاء يزور القنصلية

ويدرس وثائقها الموجودة في المتحف فاسمى القطعة
" الأنسة تولى " ، وقال له انها المرأة التي سكنت
مع قريبها القنصل في هذا البيت ، و كتبت مذكراتها
عن زمن الطاعون الذي داهم طرابلس، في شكل
رسائل ، فصار هو أيضاً يناديها بهذا الاسم
وابدى المارشال اندهاشه مما حكاه الحارس عن القطعة
وابلغه بانها على الاغلب روح فتاة أخرى اسمها "ساره"
هي ابنة وارينحتون التي تعرضت لحادث اغتصاب
فانتحرت ، وارواح المنتحرين هي التي تنتسب بالبقاء
في الدنيا ، لأنها روح ازهقت قبل
موعد موتها الطبيعي ، ولاختبار صحة هذه القصة ، اتجه
بندائه إلى القطعة قائلاً :
— مس تولى .

فلم تتحرك القطعة ، فاعاد النداء بالاسم الثاني هذه المرة :
— مس ساره .

فاذا بالقطعة تقوم من رقادها ، ثم تلتفت شمالا ويمينا
كأنها تبحث عن يناديها ، وعندما اعاد بالبو النداء، تحركت
باتجاهه حتى وقفت تحت قدميه ، تمسح رأسها بذيل جلبابه
وقد ظهرت في عينيها نظرات ذات معنى ، كأنهما حقا عيني
كائن بشري، وعندما رأيتها تفتح فمها تهيأ لك فعلا ، ان ستادي
المارشال باسمه قائلة " أهلا بك في بيتنا مارشال بالبو"
ولكنها فتحت فمها لثموء مواء مفعما بالاحاسيس والمعاني
التي تعبر عن الالم والمعاناة
كان شيئا جديدا عليك ان تعرف ان قائدا فاشيا علمانيا مثل بالبو
له هذه الاهتمامات الروحية ، مما يؤكد ان المظهر
ليس دائما مطابقا للجوهر

كان السطح هو الآخر ، حديقة من الأشجار المزروعة
في احواض كبيرة من الحجارة ، تبيست الأوراق
والاغصان وتهدمت الاحواض
بينما ظل الزليج الرفيع الذي بلط به السطح ورغم أكداس

الانترية المنزوية في الاركان بتلألاً بالوانه الزاهية نتيجة
مياه الامطار التي تتولى تنظيفه بين فينة وأخرى
كما كان هناك مكان للشواء، وبنك حجري لتقديم المشروبات
والخدمات ، مما يشهد ان السطح كان مكانا للحفلات
والسهرات ، وكان هذا السطح يرتفع على مستوى
الاسطح التي حوله ومنه كان بإمكان وراينجتون ، وهو القنصل البريطاني القوي الذي يقول
الحارس انه اقام في هذا البيت
ما يزيد عن اثنين وثلاثين عاما ، ان يرى ، وهو يضع منظاره
المكبر أو يستخدم تيليسكوب اللورد نيلسون ، كل شيء
يدور في الميناء الذي يقع تحت نظره
ويعرف كل سفينة تدخل المياه الاقليمية أو تخرج منها
كما يستطيع ان يرى كل اطراف المدينة وما يحدث في الاحواز
المحيطة بها ، وهي مسألة مفيدة أيام الصراعات التي تنشب
بين حاكم المدينة وأبناء الريف الثائرين على جباية الضرائب
أو غيرها من الأسباب
قريبا من سور الميناء ظهر برج ابو ليلة . بناء قديم
فوق هضبة داخل البحر، وقد استثار منظر البرج شهية
الحارس للكلام فقال ان ابوليلة الذي يحمل البرج اسمه، لم يكن
غير قاطع طريق ورئيس عصابة، عجزت الحكومة
في عهد احمد باشا عن حماية الناس من هجماته
في البر والبحر اربع الناس لعدة سنوات ، قبل ان يتوب
على يد سيدي الهدار
ويتحول هو وافراد عصابته إلى أهل صلاح وتقوى
واكمل بالنو ما لم يكن يعرفه الحارس، وما أوضحته
الوثائق التاريخية التي قرأها ، من ان هذه العصابة كانت
جهازا خارج الاجهزة الرسمية ، انشأه احمد باشا نفسه
فهو الرئيس الفعلي للعصابة، التي ارادها ان تكون
زراعه السريعة والخفية المجهولة، التي يفتك بها باعدائه
الذين سبق ان فتك ببعضهم في مذبة بيته الريفى ، وهي
المذبة التي أقامها للثكشاريين في بداية حكمه ، ورأى

انه في حاجة إلى وسيلة
جديدة ، يكمل بها القضاء على اعدائه ممن نجوا
من المذبحة هي هذه العصابة ، يسلب بها اموال
من يريد ويقتل من يريد
دون ان يراه احد أو يحاسبه احد
بل حتى المرأة التي تمنعه الاعراف والقوانين والقيم الدينية
من الوصول اليها ، استخدم العصابة في جلبها اليه
من فرائش زوجها
كنت اثناء انصائك لما يقوله بالبو ، تفكر فيما اذا كان الرجل قد
وجد قصة ينتفع بها ، من دراسته لتاريخ اسلافه
من حكام هذه المدينة وسفاحيها الكبار ، مثل الاستعانة
برؤساء العصابات ، في جلب الاموال والنساء
والقضاء على الخصوم والاعداء
إلا أنك طردت هذه الافكار من رأسك ، لكي لا تسمم
علاقتك بالحاكم العام ، ونظرت إلى ساعتك ، فوجدت
ان الوقت قد طال بأكثر مما يسمح به الجدول الزمني
لهذه الزيارة إلا أنه لم يكن باستطاعتك ان تفعل شيئاً
مع السيد بالبو الذي ظل صامتا حتى وجد هذه الفرصة
للحديث بالإيطالية فهجم عليها بقوة ، لأنه يدرك انها فرصة
قد لا تتكرر فيما تبقى من وقت الزيارة
هناك قنصليات كثيرة قريبة من القنصلية الانجليزية
ولا نقل عنها شهرة واهمية تاريخية ، إلا أن الحاكم
العام ، اختار من بينها جميعا القنصلية الاسبانية
التي اصبحت أكثر الاماكن في المدينة القديمة اثرة
للاشمزاز ، بعد ان تحولت إلى مذبغة للجلود
تصدر عنها رائحة كريهة تتسلق الجدران وتصل إلى البيوت
المجاورة ، رغم ان عملية الدبغ تتم في طابق سفلي
يقع تحت الأرض ، ولعل وجود هذا الطابق السفلي بالمبنى
هو الذي أهله ليكون مكانا صالحا لمثل هذا العمل بسبب
ندرة الابنية التي تضم اقبية في المدينة القديمة ، وأول

ما بصافح نظر الداخل إلى المدبغة ، جداريات تحمل
صورا باهتة لدروع مرسوم عليها صور
الصليب، والسبب كما يقول المارشال هو ان القصلية
بناء قديم يعود إلى العهد الذي حكم فيه الاسبان
وفرسان القديس يوحنا مدينة طرابلس ، في القرن
السادس عشر، وقد تهدم واعيد بناؤه
إلا أن الجزء السفلي منه ، ظل كما هو بما في ذلك هذه
الاقبية ذات القيمة التاريخية ، التي من أجلها اراد
تفقد القصلية ونظرت اليه متسائلا عما اعطى هذه الاقبية
قيمة تاريخية فقال بان الذي اعطاها هذه القيمة، هو
ان الكونت بيدرو دي نافارو
قائد الحملة على طرابلس ، قد حفر نفقا يوصل هذا البيت
بالشاطيء حيث ترسو سفنه ، ليسهل عليه الهروب والنجاة
اذا ما فشل جنوده في رد الحشود الغاضبة التي تحاول
الزحف على بيته والانتقام منه، بسبب ما ارتكبه
من مجازر عند استيلائه على طرابلس
ورغم انكما لم تجدا اعتراضا من اصحاب المدبغة
على هبوطكما إلى الطابق السفلي وصولا إلى النفق
الذي يتحسس المارشال لاكتشافه
إلا أن الرائحة الكريهة الصادرة من الاحواض التي تتقع فيها
الجلود ، والتي تزداد شدة وكنما للانفاس كلما واصلتما الهبوط
كانت كفيلا بان تجعل المارشال يصرف النظر عن خطئه
ويغادر المدبغة عائدا إلى الشارع ، مؤجلا عملية البحث عن
النفق إلى وقت آخر ، وإلى فرق متخصصة تأتي فيما بعد
للقيام بالمهمة والنظر في امكانية الاستفادة من هذا
النفق، في شق طريق تحت الأرض أوفي استخدامه
من أجل شبكات الماء والمجاري أو غيرها من الأغراض
وفي الشارع وجدتما عددا من الفضوليين بانتظاركما
يسألون عن علاقة الرجل المغربي بالمدبغة،
وعندما قلت لهم انه تاجر مغربي يبحث عن صفقة

لشراء كميات من الجلد المدبوغ ،
ظهرت خيبة الامل على وجوههم ، لأنهم ظنوه تاجرا
جاء لينشئ مشغلا للملابس المغربية التي يحبها الناس
مكان هذه المدبغة، التي حولت حياتهم إلى غم لا ينتهي
وقد كتبوا عشرات العرائض للحكومة دون ان تفعل لهم شيئا
لأنها، كما يقولون، حكومة استعمارية، موجودة لا يذاء
المواطن وقهره لا رفع الاذى عنه . حمدت الله ان المارشال
لن يفهم الكلام الذي قالوه عن حكومته ، رغم انه ادرك
كما أخبرك فيما بعد ، ان حديثهم الغاضب مبعثه
وجود المدبغة في هذا الحي السكني
وكان سوق الترك قريبا ، فانعطفت به إلى السوق ، باعتباره
معلما لا يمكن لزائر المدينة القديمة إلا أن يمر به
ليرى بضائع العالم كله موجودة في دكاكينه الواسعة العريضة
التي لا تشبه بقية الدكاكين ، لأنها تقضي إلى مقصورات
ومخازن ، كذلك فان الشارع رغم انه مسقوف ومرصوف
ومخصص للمشاة فقط ، إلا أنه أكثر براحا واتساعا من الشوارع
التي تعبرها السيارات والعربات . المشكلة التي ظهرت
منذ دخولكما السوق هي ان الحاكم المتكرر في زيه المغربي
لا يمكن ان يبقى هنا ساكنا ، ولن يستطيع ان يتمم بكلمات
غير مفهومة مدعيا انه لا يعرف اللهجة المحلية ، فاعل
تجار السوق يعرفون المغرب الأقصى ، ويسافرون اليه ، يجلبون
منه انواعا من الالبسة والاقمشة، ومن لم يذهب بنفسه فقد اختلط بالمغاربة الذين يزورون
طرابلس ويبيعون الفساتين والجلابيب
والطرابيش والبرانس المغربية ، ووجود شيخ مغربي له كل
هذه المهابة في هذا السوق ، لا بد ان يثير فضول التجار
واهتمامهم ، وهو ما حدث فعلا ، لأنهم ما أن رأوه حتى
خرجوا من حوانيتهم يرحبون به باللهجة المغربية، ويسألونه
عما اذا كانت لديه بضاعة جاء إلى طرابلس ليبيعها، واسرع
بعضهم يلاحقه بكوب الشاي الأخضر المنعنع ، المعمول
على الطريقة المغربية وجاء احدهم يصافحه، ويمسك

بيده ، يريد ان يسحبه إلى داخل متجره ، ويجواره
تاجر آخر بصر على ان يدعوه لتناول الغذاء
لأنه لاينسي ولائم التجار المغاربة له ، في فاس ومكناس
وانقادا للموقف الذي صار يتأزم ، وللمارشال الذي بلغ به
الارتباك مبلغا اسال العرق من جبينه ، تدخلت لك حصار
التجار من حوله ، قائلا لهم بان للسيد المغربي موعدا
مع الحكيم لا يحتمل التأجيل ، واعداء اياهم بالعودة
في اليوم التالي ، وبسرعة اخرجته، عبر أول زقاق
يصادفكما ، افضى بكما إلى باحات وازقة أخرى
تبيع دكاكينها المشغولات اليدوية
التي يشغف بها المارشال، والتي تستطيع ان ترضي فضوله
للفرجة والتأمل ، دون ان يجد من يضايقه
لأن كل عامل مشغول بعمله، فمرقما بسوق الفرامل
وسوق السروج ، وسوق اللفة، وسوق السواري ، وسوق الحرير
وسوق الغرابيل ، ثم باحة صغيرة تضم عددا من الافران
والمخابز التي تصنع اصنافا من الحلوى الطرابلسية
وقد بدأ خط الزيارة يتكسر، وخشيت ان تفقد الخريطة
فلجأت إلى سؤال احد عابري السبيل عن جامع الناقة
وبدل ان يصف لك الطريق وجدته يتقدم أمامك
ويسألك ان تتبعه، منتقلا بكما من زقاق إلى آخر
فمررتما قبل الوصول إلى الجامع بزواوية ، كان
روادها يرتدون الجلابيب الخضراء ، وافهمت الحاكم
العام انهم ينتمون لاحدى
الطرق الصوفية التي تشتهر بها زوايا المدينة القديمة
وتتظم لها موكبا شهيرا يطوف الشوارع ويحمل بيارق
هذه الطرق ، تردد فيه الاذكار، ونوبات المألوف
والتواشيح الأندلسية
وعندما وقف الدليل مشيرا إلى الجامع ، ادركت انكما
قد وصلتما إلى نقطة تستطيع ان تستأنف منها خط
الزيارة . كانت شجرة التين العملاقة، التي تنتصب

في الصحن المفتوح للجامع تمد افرعها في كل اتجاه ، وتنشر ظلها داخل الجامع وخارجه تعطي احساسا للزائر الذي جاء عبر هذه الازقة المسقوفة بالاقواس والمبلطة بحجارة من صوان ، انه وصل إلى واحة الراحة والامان كان هذا الوقت الذي يسبق موعد اذان الظهر مخصصا لتدريس القرآن ، وكان الطلبة الصغار يحملون الواحهم الخشبية، ويتحلقون حول الشيخ الذي ارتدى العباءة اللببية الصيفية ، وامسك عصا طويلة مصنوعة من جريد النخيل وينطق التلميذ الآية التي كتبها قائلا :

— نعم ياسيدي " ونفس وما سواها "

فيملئ عليه الشيخ الآية التالية من السورة:

— " فآلهما فجورها وتقواها "

وقبل ان ينتهي ، يكون صبي آخر قد اكمل كتابة آية من سورة أخرى:

— نعم ياسيدي " ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به "

وبسرعة يرد الشيخ :

— " واعف عنا واغفر لنا وارحمنا "

كان التلاميذ يتكلمون أحيانا في صوت واحد والشيخ يسمعهم وسط هذا الضجيج ، ويميز اصواتهم ويملي عليهم الايات ، ويصحح الاغلاط ، ويمد عصاه للذي اخطأ ، فيمد له يده ليضربه فوقها ، وكنت دائما تستغرب من هذه المقدرة للفقهاء على استحضار أية جملة من القرآن واملائها على التلميذ دون تفكير ، إلى ان وجدت نفسك في زاوية السني تقوم بالمهمة وتجد ان الله يسر لك الأمر، فصرت تفعل ما يفعله بقية الفقهاء ، ببسر وسهولة ، فابقت ان لمهنة تدريس القرآن بركة وتيسير من الله يجعلان الصعب سهلا

— اذن هذا هو اقدم جامع في البلاد .

قال بالبو ذلك وهو ما زال واقفا تحت الاقواس الخارجية لصحن الجامع يرقب مشهد الفقيه ، وتلاميذه من خلف الباب المفتوح ، جالسين فوق الحصران ، واضاف بصوت خافت

لا يسمعه احد غيرك ، انه يشعر بالاسف لأن اللببيين يرفضون
ارسال اطفالهم إلى المدارس الحديثه التي تبنيها لهم إيطاليا
ولم تعلق بشيء لأن الموقف لا يسمح بحديث طويل بالإيطالية
قد يلتقط طرفا منه احد الناس ، فيثير من حولكما الشبهات
لأنك تعرف لماذا يرفض الناس الذهاب إلى هذه مدارس
وما حدث في قرينك "أولاد الشيخ"، حدث مثله في عشرات
الاماكن الأخرى ، اذ ما أن تشرع الحكومة في افتتاح
مدرسة ابتدائية ، وتبأشر في تسجيل التلاميذ ، حتى تفاجأ بان
لا احد يأتي ، لأنها تأتي إلا أن تكون الدراسة بالإيطالية فقط
دون اعتبار للغة الناس أو دينهم
لم تقل له شيئا ، وعدت بفكرك إلى الجامع ، وقد ذهب في ظنك
انه يرجع في اصل بنائه إلى سنوات الفتح الاسلامي على يد
عمرو بن العاص ، وصحح بالبو معلوماتك قائلا
بان الجامع الذي بناه الفاتح العربي لم يبق منه غير انقاض
ازالها الوالى التركي صفرداي وجاء احمد باشا فيما بعد
وبنى فوقها جامع الشهير ، اما جامع الناقه
فقد بني في مرحلة متأخرة عن بداية الفتح
ومع ذلك فهو اقدم الجوامع الموجودة في ليبيا
— اجد ان لاماكن العبادة في كل مكان، رغم اختلاف الاديان
شيئا خاصا يميزها ، وعبيرا يفوح منها ، وتشمل زائرها
باحساس مريح حتى وهو ينتمي إلى دين آخر .
قلت معلقا ومجاملا :

— الىست كلها بيوت الله ؟

كان بالبو يحمل معه خريطة للمدينة ، يفتحها ويعود لمراجعتها
كلما وجد نفسه بعيدا عن الزحام ، ليتذكر موقعا ويحدد مكانه
فوقها وكان الموقع الذي اراد معرفته وهو يفتح الخريطة
هذه المرة ، هو مبنى دار القضاء القديمة ، الذي يقع
في مكان بين الجامع وبين فندق الفنديقه الذي سميت
باسمه المنطقة ، فهو لم يكن بعيدا
ووجدتما أن المبنى تحول إلى مسكن لعدد كبير

من العائلات الريفية والبدوية كما تقول ملاحف النساء
بل هناك خيمة صغيرة نصبت في باحة البيت استعدادا
لمناسبة ما وكان بابه مفتوحا كأنه سوق شعبي ، وصحن
البيت يشبه باحة مدرسة مليئة بالنساء والأطفال
حيث يوجد محراب وسط البيت اتخذته إحدى النساء
قاعدة لتقطيع حزم البقدونس
— كم عائلة تقول انها تسكن هذا البيت ؟
— اعرف ان العائلات القادمة من الارياف التي تسكن مثل هذا
المكان ترضى ان يكون لكل عائلة غرفة واحدة.
— لابد انها عائلات كثيرة انن ، فغرف هذا البيت لا تقل
عن خمسين غرفة
وهو بيت جدير بان تزوره الاشباح حقا لا القنصلية البريطانية.
— لماذا؟

— لأنه لم يشهد أي مكان آخر في طرابلس وحشية ، كالتى
شهدها هذا المكان . هل نعلم سبب وجود هذه القاعدة
الحجرية التي تقطع عليها المرأة الخضار؟ هذه هي القاعدة
التي تقطع عليها رؤوس المجرمين والعصاة والمتمردين
من اعداء الحكومة، اما الغرف فاعليها غرف للتحقيق
يتم فيها التعذيب الوحشي للمتهمين بالطرق المعروفة لدى
الولاة العثمانيين مثل وضع الناس فوق الخوازيق.

حديث المارشال عن مخازي العهد التركي ليس جديدا
على اذنك ، فهي نعمة سائدة في الاعلام الإيطالي
للتأكيد على ان العهد الإيطالي جاء انقاذا للبلاد
من حكم ينتمي إلى العصور المظلمة
الاسم الإيطالي الذي يكره بالبو ان يسمعه
كما يكره ان يأتي على ذكره حسبا ذكرت صحيفة
الرقيب العتيد في احد اعدادها ، هو جرساني
لأنه يفسد هذه المقارنة بين بشاعة الاتراك وبهاء الإيطاليين
وشعرت بانه حان الوقت للزيارة التي ارادها بالبو لاحد

بيوت الليبيين، اذ لم تشأ ان تجعله يزور العائلة
قبل ان يتألف قليلا مع اجواء المدينة القديمة
ويتعرف على الوانها ونكهتها المحلية
كما أنك لا تستطيع ان تؤجل هذه الزيارة أكثر من ذلك
لكي لا يتوافق موعدها مع موعد الغداء
بكل ما يحدثه ذلك من حرج للعائلة، وللضيف اذا قدم له الطعام
استأذنت المارشال في المرور بديكان بقالة لشراء علبة حلويات
وأخبرته بما أخبرت به العائلة ، من ان الضيف سبق
ان زار البلاد وتعرف على الحاج المهدي في دكانة
صنع النعال ، وقد اراد عيادته بعد ان عرف انه طريق
الفرش . كان بالبو بيتسم لمثل هذه التلقيات التي تهدف
لتبرير زيارة حاكم مثله ، لبيت رجل فقير من رعاياه
لو عرف حقيقة الأمر لما وسعت فرحته الأرض
ولاضحت هذه الزيارة مصدر فخر له ولاسرته
يتباهون بها جيلا بعد جيل
واعترفت له وانتما في الطريق إلى البيت
عن المستوى المتواضع له ، وانه ليس نموذجا
ليبوت المدينة القديمة بردهاتها وشرفاتها
وانما تعريف بالمستوى المعيشي لاسرة ليبية من عامة الناس
فهم اربعة أشخاص ، الاب وزوجته وابنه الصبي الصغير
وابنته المتزوجة التي تنتظر عودة زوجها من الحرب
وطرقت الباب
كان الاستعداد واضحا للزيارة ، فالسلم صار
الآن نظيفا لامعا ، مغسولا بالماء والصابون، ورائحة البخور
ذات العرف الطيب تستقبل الزائر، منذ ان يضع قدمه
على أول العتبات
وعندما وصلتما اخر السلم
قادكما الصبي عبر ممر قصير إلى غرفة ابيه
وكان بالممر ادراج منحوتة في الحائط فيها جرار
وعلقت على الحائط سلال واطباق

وهناك خابية كبيرة للماء فوقها كوب لسحب الماء منها
كان الاب جالسا على سرير ه ، وقد ارتدى طقما عربيا
وكاطا كاملا الصديري الازرق والطاقيّة الحمراء
والسلسلة ذات اللون الذهبي المربوطة في عروة الصديري
تدل على وجود ساعة داخل الجيب، وجوار السرير
كرسيان لم ترهما من قبل، أمامهما طاولة صغيرة
يغطيها مفرش مطرز بالنجوم والأهلة
وعلى الجدار فوق السرير لوحة تحمل سورة الكرسي
مكتوبة بلون ذهبي فوق أرضية زرقاء
وفوق الأرض المغطاة بالحصران ، كليم جديد
يغطي نصف أرضية الغرفة، كان واضحا ان العائلة استعارت
من الجيران بعض هذه الاشياء لتظهر بمظهر لائق أمام الضيف
الاجنبي ، لأنه لا يمكن ان تكون هذه الاشياء موجودة
في حوزة العائلة ثم لا تظهر الا اليوم
كنت حريصا على ان تقرأ ملامح بالبو ، لتعرف اذا ما كان
راضيا أو متأففا من زيارته لبيت الحاج المهدي
لأن مستقبل هذه العائلة يتوقف على الانطباع الذي يخرج به
من هذه الزيارة السريعة ، وقد اسعدك ان تراه شديد الاهتمام
بكل ما يراه ، بجيل بصره في محتويات البيت
منذ اللحظة الأولى لدخوله، متأملا بكثير من الفضول
مظاهر الحياة الشعبية ومفرداتها البسيطة لدى هذه العائلة
بما في ذلك السحارة الكبيرة التي تغطي اخشابها طبقة
مصنفة من النحاس ، وتحتل الجزء المواجه للسرير
وقد علتها انواع من الاحذية النسائية ذات الزخارف
والنقوش ، واضح ان الحاج احضرها من دكانه لتبيعهها
زوجته لنساء الجيران
وسط هذا الجو الذي طالما الفته، وانست به ، ظهر
في رأسك سؤال مزعج ظهورا مفاجئا :
— ماذا لو رأى الضيف ثريا واعجبه جمالها ؟
وحاولت ان ترد على نفسك ، قائلا بان ثريا ليست

زوجتك حتى تخشى على فقدانها وتتأسف عليه
فانت فقدت ثريا فعلا منذ ان تزوجت فتحي ، وانتهى
كل امل لك في وصالها ، ثم ان المارشال لا تتقصه
النساء الجميلات حتى يبحث عن امرأة متزوجة
يسطو عليها ، كما أن تاريخه الحافل بالعلاقات
النسائية يخلو من اية سوابق في خطف النساء
وارغامهن على حبه ، لأن مثل هذا السلوك
لا يناسب رجلا يتباهى بان جميلات العالم يجرين وراءه
وينساقطن تحت قدميه
ومع كل هذه التطمينات التي طمأنت بها نفسك
ظل هذا الهاجس يوخزك كالشوكه ، ليقينك بان لثريا جمالا
يختلف عن جمال اية امرأة يعرفها بالبو ، ممن يملكن
جمالا مثيرا له صخب وضوضاء، ويصدر عنه نداء عاجل
يقول انا هنا ، بينما ينساب جمال ثريا انسيابا ناعما ، ويدخل
القلب كضوء النهار
الذي يدخل هذه الغرفة
ولم يتوقف هذا الوخز المؤلم ، الا عندما جاءت ثريا وامها
ترتدي كل منهما رداء شعبيا ، مسحوبا على الوجه
حتى ليكاد يغطيه كله، عدا منفذ صغير للنظر
أو البنبوك كما يسميه أهل المدينة
فوضعت ثريا سفرة بها ثلاثة فناجين من القهوة
على الطاولة . فناجين انيقة ، يتخلل خزفها الابيض
اللماع حزام ذهبي ، يتصاعد منها بخار له رائحة
زكية، هي رائحة الحبهان الممزوج بالقهوة ، ووضعت
امها طبقا من الكعك
وصحنا من قطع الحلوى التي احضرتها انت منذ قليل
وسلمتا على الضيف باعتباراه صديقا للأب، وانصرفتا
في حين ظل الصبي واقفا ، في حالة استعداد لخدمة
ضيف والده ، وكان الحاج في كامل لياقته العقلية، مفعما
بالحيوية والفضول رغم المرض الذي يمنعه من المشي ، فصافح

الضيف بحرارة وحماس كمن يصافح صديقا قديما وظل
يكرر عبارات الترحيب
وقد اطلت من وجهه عيان مفعمتان بحب الاستطلاع
تبحثان في ملامح الضيف عن ذلك الصديق المزعوم
واجاد بالبو تكرار الكلمات العربية الاربع أو الخمس
التي يعرفها ، في حين توليت انت تعبئة الخانات الكثيرة
الفارغة في الحديث
كما حاولت ان تخفف من ازمة الحاج الذي مازال
حائرا يدقق النظر في وجه الضيف ، باحثا دون جدوى
عن اشارة أو علامة
تدل على صدق العلاقة القديمة التي يدعيها
فقلت له بان زمنا طويلا جدا مر على تلك الزيارة
التي جاء فيها الضيف المغربي إلى طرابلس
حيث كان فتى امرد في مراحل الشباب الأولى
وقد تأثر بالحفاوة التي لقيها عندما زار دكان الحاج المهدي
فلم ينسه ، دون ان يعني بالضرورة، ان يتذكر الحاج ذلك
الزائر الذي تغيرت ملامحه
وقد ازال هذا الكلام شيئا من القلق الذي كان يرسم
على جبين الحاج، ووجد فيه تفسيراً لعجزه عن معرفة
الضيف ، وارتشف قهوته دون ان يعلق بصره بملامح المرشال
في حين اكملت انت ارتشاف قهوته سريعا ، لكي تبدأ
في تناول قهوة الحاكم العام نيابة عنه ، بعد ان تضع فنجانك
الفارغ أمامه ، باذلا أقصى ما في وسعك من أجل
ان تفعل ذلك دون ان يحس به
صاحب البيت ، إلا أنك وجدت بالبو يمد يده ويمسك
فنجان القهوة
ويرتشفه بهدوء واستمتاع
كان واضحا انه انس للبيت وأهله، فتخلي عن حذره
وتجاهل الوصايا التي زوده بها ضباط امته
رأيته يشير اليك بما معناه انه يريد ان يمنح مبلغا من المال

للحاج المهدي ، من العهدة التي معك
وكدت تضع يدك في جيبك وتخرج النقود التي تعلم
ان لا احد يحتاجها في هذه المدينة أكثر من عائلة
الحاج المهدي ، إلا أنك تراجعت وانت تذكر ما حدث
يوم ان احضرت جهاز الحاكي
واثقا من ان ذات الموقف سيكرر ، ليفسد بالتالي
هذه الزيارة الناجحة . تجاهلت موضوع الهدية
المالية، وابلغت الحاج ان الضيف
وهو من كبار الاثرياء في المغرب ، يتمنى عليك ان تطلب اية
خدمة منه ، فلم يزد على ان قال انه صاحب عقيدة
في أهل المغرب وقوة ايمانهم بالله وقربهم منه ، ويريد
من ضيفه الكريم
ان يبارك هذا البيت وأهله بتسابيحه وأوراده
وما تيسر من القرآن الكريم ، وان يدعو مع أهل هذه البلاد
ويلج في الدعاء ، ان يرفع الله مقتله وغضبه عنهم
ويحرر بلادهم من هذا الاستعمار الفاجر الكافر اللعين
الا وهو الاستعمار الإيطالي ، فاسرعت تقاطعه قبل ان يتمادى
في حديثه ، قائلا بان الشيخ المغربي فعلا قرأ الفاتحة
منذ ان وضع قدميه
على عتبة البيت ، وان صمته لم يكن الا تسبيحا
ومباركة لهذه الدار وقاطنيها ، داعيا لرب الاسرة بالشفاء
العاجل باذن الله
انثالت كلمات الشكر والثناء من الحاج ، ومد يديه الاثنتين
يقبض بهما على يد الضيف ثم ينحني يقبلهما
إلا أن الحاكم العام سحب يده بسرعة، ونهض واقفا
استعدادا للخروج . اردت ان ترفع من معنويات الرجل
المريض ، فاشرت إلى حيويته ونشاطه ، مما يدل على
ان زيارة الشيخ البلبال جاءت بنتائج طيبة
فوافق على كلامك قائلا ان مشكلته الوحيدة
هي هذه السلالم ، التي يجد صعوبة في صعودها

وهبوطها، ولولاها لاستطاع
ان يمشي متكئا على الحائط حتى يصل الدكان
ويواصل ممارسة مهنته ، بدل ان يبقى في جلسته
العاطلة داخل البيت
وقال بانه يضع أمله الآن في زيارة الشيخ المغربي
واثقا من انه سيرى نتائج قريبة لما قاله من دعاء
وتسابيح ، وما أنعم به من بركات على هذا البيت
سألك بالبو حال خروجكما ، عما اذا كنت لم تفهم اشارته
بمنح هدية مالية للشيخ المريض
فأخبرته بان رجلا مثله لن يقبل اطلاقا ان يأخذ مالا
على سبيل الصدقة ، رغم انه فعلا يمر بمحنة قاسية
بسبب المرض
ويتألم لأن وجوده في الطابق العلوي
بحول بينه وبين الوصول إلى الدكان
ليباشر عمله ، حتى وهو في هذه الحالة من المرض
بسبب العوز والحاجة
كنت تستطيع ان تلاحظ المرافقين السريين
من شرطة "الأوفرا"
الذين يقفون في حالة تحفز واستعداد
قريبا من بيت الحاج المهدي
فيما لو صدرت لهم أية إشارة من داخله
كان المارشال قد رأى ما يكفي من المنطقة العربية
فاقترح الانتقال مباشرة إلى حارة اليهود
إلا أنه تذكر مبنى يريد ان يزوره قبل ان يترك هذه المنطقة
هو مبنى القنصلية الأمريكية ونتيجة لانشائها متأخرا
أي منذ مائة عام فقط ، فهي لا تقع في حي القنصليات الشهير
وانما قريبا من الباب الجديد ، ولا تحظى بابة قيمة تاريخية
أو اثرية، ولم تدم لغير سنوات قليلة
لم تصنع خلالها تاريخا أو ترتبط باحداث كبيرة
إلا أن المارشال قرأ شهادة كتبها زوجة أول قنصل

جاء إلى طرابلس هي مسز بورتر و ذكرت فيها ما كانت
تشاهده من معالم المدينة وهي واقفة فوق سطح القنصلية
فأثار ذلك فضوله واحب ان يرى مدى مطابقة الصورة
الآن مع ما ذكرته السيدة

وما طرأ عليها من تغيير خلال قرن من الزمان
اخرج الحاكم العام الخريطة ، وأشار إلى موقع القنصلية
فوقها ، فإذا بها في شارع يتفرع من شارع سيدي عمران
لم تصارحه باحتمال ان يكون المبنى قد تحول إلى بيت
من بيوت الدعارة مثل اغلب المساكن الموجودة هناك
وانما سرت صامتا تقوده عبر الازقة الخلفية الخالية
من الزحام والمتاجر والباعة الجائلين

حتى أوصلته أمام باب القنصلية الأمريكية
كان مبنى كبيرا يشبه القلعة ، إلا أن يد الزمن عبثت به
وافقدته كثيرا من نبل وشموخ القلاع وأوقعته في أيدي
باعة المتعة ونسائهم وزبائنهم

كان الباب الكبير مفتوحا على فناء واسع، وابواب داخلية كثيرة
حيث تجمع عدد من الرجال أمام كل باب

وكان مشهد نساء البيت، اللاتي يتحركن بحرية داخل الفناء
وأمام الرجال وهن يرتدين ملابسهن الداخلية

يشير بما لا يدع مجالا للشك انه واحد من بيوت الدعارة
التي تحمل ترخيصا رسميا ، وتعمل تحت عناية ورعاية

الحاكم العام ، بل ان ممثل الحكومة في الحي ، وهو شرطي
الدورية ، كان يقف بملابسه الرسمية قريبا من باب المبنى

بضبط النظام . اردت ان تقول له ان وجودكما في مثل هذا الحي
وأمام هذا البيت ، قد يثير رغبة بعض الناس الذين سيندهشون

لوجود شيخ مغربي مثله ، في هذا المكان

إلا أن نظرات الناس التي صارت تحاصركما

كفتك مؤونة الكلام ، وجاء قزم يعمل في خدمة بيت

مجاور لمبنى القنصلية ، يتعلق باطراف الحاكم العام

ويجره باتجاه ذلك البيت ، عارضا عليه مكانا آمنا

يجلس فيه الشريف المغربي وصاحبه بعيدا عن أعين
المتطفلين ، حيث سجد في خدمته نساء مثل الحور العين
قال المارشال بعد ان ابعدت عنه القزم الملحاح
واشتريت ذهابه بشيء من النقود :
— لأول مرة ادرك انني اجهل أشياء كثيرة عن هذه المدينة
ولن اجد احدا يصدقني اذا قلت انني لم اكن اعرف مطلقا
ان بها منطقة للاضواء الحمراء
— سيدي عمران معلم شهير من معالم المدينة القديمة
— لا ادري ان كان هذا الحي موجودا في عهد الاتراك ، ولا بد
انه واحد من انجازات فولبي ، لأن دي بونو وبادوليو لديهما
من التزمت ما يجعلني اشك في انهما اعطيا ترخيصا
باقامة هذا الحي .

كان لابد ان يتخلى عن فكرة الصعود إلى سطح البيت
لمشاهدة المدينة من هناك ، متقصا شخصية السيدة بورتر
وتأسف كثيرا لما آل إليه البيت من اهمال
لا لأنه تحول إلى بيت للدعارة، ولكن لأنه كان بائدا مهالكا
لا يجد من يعتني بصيانتته من الانهيار فوق رؤوس
ساكنيه وزائريه
كنت ترجو الله في سرك الا تظهر " نورية " فجأة
وتمسك بخناقك وتصنع لك فضيحة أمام الحاكم العام
ومستعجلا الخروج من هذا المكان ، قلت وانت تخطو باتجاه
الزقاق الذي يقود إلى خارج الحي:
— ستكون كارثة لو حدث ذلك .

كنت تقول ذلك لنفسك أكثر مما تقوله للمارشال
وكنت تعني لو اقتنصتك نورية في هذا المكان ولكنها بدت
كما لو كانت تعليقا على فرضية انهيار المنزل
— الناس هنا لا يعرفون شيئا اسمه صيانة ولا يدركون الخطر
الذي يهدد حياتهم .

قال ذلك غاضبا ، ثم انتقل بسرعة إلى الابتسام، وهو يتذكر شيئا

لم يلبث ، وهو يراك تنتظر اليه مندهشا ، ان افصح عنه :
— هل تعلم ان تحويل القنصلية الأمريكية إلى بيت للدعارة
هو اعظم هدية تقدم إلى ذكرى السيدة بورتر
كنت سعيدا وانت تراه رائق المزاج ، وان ما حدث للقنصلية
من تحولات لم يصدد ذوقه ، سألته بسرعة :
— لماذا سيدي ؟

— لأن مسز بورتر كانت امرأة في العشرين ، وكان زوجها
القنصل فوق الستين ، ولهذا فقد كانت تستغل غياب زوجها
لتستقبل اكبر عدد من العشاق ، كما اعترفت في يومياتها
وكأنما احس بان الحديث باعجاب عن الدعارة والدعارات
لا يليق بقائد فاشي كبير ، فاردف قائلا :

— للعقيدة الفاشية موقفها المعروف ، المناهض للمرأة التي
تبيع جسدها ، إلا أنها في ذات الوقت تعترف بحقائق الحياة
واحدى هذه الحقائق ان الدعارة هي اقدم مهنة في التاريخ
وليس غريبا ان تخصص روما احد أجمل شوارعها
لهذه المهنة .

بدأ الوقت يقترب من منتصف النهار ، ولابد قبل ان تقفل
الدكاكين ابوابها خلال فترة القيلولة
من المرور سريعا على حارة اليهود وباب البحر
كما في الخطة الاصلية، وعبر الحارة الصغيرة التي يسكنها
عرب مع اليهود ، وازقتها الصغيرة جدا التي يتأزم فيها المرور
عند عبور بائع خضار يجر عربته، أو بائع ماء يحمل على كتفيه
لوحة الخشبي الذي تتدلى دلاء الماء من طرفيه
أو صاحب حمار ينقل عليه احطابا أو غلالا ، ذهبتما إلى الحارة الكبيرة وكان لابد لك
وللحاكم العام ، اثناء هذا المشوار من ان تبحثا

عن تجويف احد الابواب تقفان فيه تفاديا لمرور هذه العربية
أو هذا الحمار، وكنتما كلما توغلتما في السير كلما اكتشفتما
ان عدد الباعة الجائلين، يكاد يفوق بقية البشر من متسكعين
ومتبضعين ، هذا يبيع الذرة المشوية ، وآخر يبيع السحلب
وثالث يبيع التين الشوكي ، ورابع يبيع الاقفال والمفاتيح

وخامس أو سادس يبيع الخرز والعقيق والامشاط والمرابيا
عدا اصحاب عربات الروبا فيكيا الذين يشترون
ويبيعون ما يشترونه في ذات الوقت
وكان السوق هو الذي ياتي لقاطني هذه البيوت وليس العكس

للحارة الكبيرة رائحة لا يستطيع المرء تحديدها
لعلها مصنوعة من انواع البخور والعطور التي تستخدمها
نساء اليهود ، والدهون التي يدهن بها شعورهن واجسادهن
ويظهرن بها في الشوارع ، لأنه بدءا من هنا بدأ وجه المرأة
وشعرها يظهران ، بعكس الشوارع العربية التي لا وجود للمرأة في شوارعها ، اللهم الا في
شكل شبح لا ملا مح له

يرتدي ملحفة بيضاء ، تغطي كامل الجسم
أو عجوز هدتها الاعوام ، تبيع على الرصيف بعض
الاعشاب الطبية ، اما هنا فهي موجودة ، مثلها مثل
الرجل ، إلا أنها تختلف عنه
في شيء واحد ، يؤكد انها أكثر اهمية منه

ففي حين كان رجال اليهود يهملون مظهرهم، ويرتدي
الفقراء منهم اسما لا بالية ، ويتجولون صغارا وكبارا
في هياات مزرية ، فان نساءهم كن بالعكس من ذلك ، انيقات
نظيفات المظهر ، يرتدين القلائد، والعقود الجميلة، والاساور
والخلاخيل الذهبية والفضية والفساتين الحريرية
المزركشة الطويلة

ولا تختلف البيوت في الحارة ، عن بقية البيوت
في المدينة القديمة

فهي أيضاً مفتوحة اغلب الوقت ، اما الدكاكين فهي
أكثر تنوعا ، وذات طابع تقني مهني ، فهذا مشغل حياكة
وتطريز متخصص في الفرامل النسائية المطرزة بشرائط
وخیوط الفضة ، يحاذيه مشغل لتقطير العطور وتعبئتها
في زجاجات صغيرة ، بجوار دكانة لصناعة
وصياغة الحلي ، وأخرى تصنع وتبيع

قدور الفخار أو القصدير أو النحاس

ثم طاحونة حديثة تدور رجاها الحجرية بالمرحك

لطحن القمح والشعير

وغير بعيد عنها مصنع صغير لتقطير وبيع الخمر

علاوة على دكاكين العطارة والبقالة والجزارة والمخابز

وكان البناء الكبير الذي يحتل أكبر موقع في الحي

وله حيطان عالية ، و حزام من الرخام ، يغطي نصف

الحائط هو المعبد اليهودي ، حيث وقفتما أمامه ، لأن

المارشال يريد لقاء نظرة عليه من الداخل ، إلا أن

وجود حارس له هيئة المصارعين يقف بالباب

ويحمل عصا غليظة

جعل بالبو بصرف النظر على الدخول

خاصة انه صار يتابعكما بنظرة تهديد ووعيد

ولعل وجوده جاء بسبب ما يحدث من معاكسات للنساء

اللاتي يترددن على المعبد

من قبل بعض الشباب العربي

وكان المنظر الذي لفت انتباه المارشال ، هو خروج شاب

يهودي من المعبد، مرتديا القميص الأسود ، فعلق بسرعة :

— الفاشيون يتسامحون مع اليهود بأكثر مما يفعل النازيون

والدليل على ذلك قبولهم اعضاء في الحزب الفاشي

واضاف بلهجة ساخرة :

— لا حاجة لأي إنسان بأن يكون فاشيا ويهوديا

في نفس الوقت ، فواحدة منهما تغني عن الأخرى.

وقبل ان تسأله مستفسرا عن السبب ، سألك ان كنت تعرف

مقهى نظيفا يصلح للجلوس ، والاستراحة قليلا قبل مواصلة

المشي عبر الطريق الصاعد إلى باب البحر

لم تعجبه المقاهي الصغيرة في حارة اليهود

وسرّتما حتى لاحت في مفترق الطرق بين الحارة

وبين باب البحر

قهوة تظللها عريشة من العنب، وسط باحة قصر قديم

اعاد صاحبها اليوناني ترميم الحيطان المجاورة ورصف المكان
بالزليج ووضع كراسي وطاولات خشبية انيقة فيدا
منظر المقهى نظيفا جميلا وأطلق عليه اسمه " كوستا "
لكي يستفيد من حياد اليونانيين ، فيقبل عليه اليهود والعرب
وما أن جلستما حتى ظهرت لكما خلفية المقهى
وهو هذا القصر الذي أصبح الآن خرابة، يستخدمها البحارة
في تخزين قواربهم القديمة والمعطوبة
ولكن الحديقة المدمرة بما فيها من احواض الماء التي جفت
والنوافير التي صارت ركاما من الحجارة، ومجموعة نخلات
عتيقة ظلت تناضل الاهمال والجفاف، توحى بما كان عليه
هذا البيت من الفخامة والبهاء في عصور سالفه، وكان
بالبو يريد الدخول لتتقد اطلاله
بعد ان راجع الخريطة وعرف انه قصر يوسف باشا
القرمانلي ، إلا أن السنيور كوستا، حذره من شراسة
الكلب الذي يحرس القوارب
لاحظت ان عشرة أشخاص أو أكثر، دخلوا المقهى بعد
دخولكما وجلسوا متفرقين غير بعيد منكما
ليشغلوا كل الكراسي الشاغرة، ولم تكن بحاجة
إلى التخمين عن يكونون، فهم بعض من رافقوكما
منذ بداية الزيارة
كنت قد طلبت من صاحب المقهى شايًا
لنفسك ، وكازوزة تشربها نيابة عن المارشال
الذي مضى يشرح وجهة نظره ، عن لماذا لا يحتاج
اليهودي لأن يكون فاشستيا :
— الفاشية ليست حركة كشفية ، وليست ناديا رياضيا
انها اسلوب حياة ، قبل كل شيء آخر
يدخلها الشاب البريء الجاهل بحقائق الحياة
فتفتح عينيه على هذه الحقائق، وتعينه على فهم
قواعد الصراع التي تحكم المجتمعات ، حيث لا حياة
ولا بقاء الا للاقوى

تمنحه صلابة ومناعة، وتضع فوق عوده الطري
طلاء من القسوة الضرورية لمواجهة الحياة . اليهودي
ونتيجة لميراث طويل من مواجهة القمع ، يولد صلبا
واعيا منذ البداية بحقائق الصراع في الدنيا
ولن يكون بحاجة إلى حزب مثل الحزب الفاشي
يزرع في نفسه صلابة زرعها فيه الطبيعة
لأنه سيعاني عندئذ ما يعانيه كل من يأخذ جرعة زائدة
عن الحاجة ، أو كمن تجرّى له عملية ختان، على طريقكم
الاسلامية اليهودية ، مرتين .

تذكرت وهو يتحدث عن الحزب الفاشي، قصة انتسابك إليه
التي لم تكتمل، فقلت له ذلك، واصلت بانك بعد ان تلقيت
الموافقة ، حال العمل بينك وبين الذهاب ، لتلاوة القسم
واستلام البطاقة :

— لاعضاء الحزب مكانة خاصة عندي ، فالحزب هو العائلة
الكبيرة بالنسبة للفاشست ، وكل عضو هو فرد من افراد
هذه العائلة . يجب ان تكون فخور بهذا الانتساب .
اجبته مجاملا :

— نعم انني فخور بذلك .

— بدأت عهدي بانشاء الفرع الليبي للحزب لاثبت شيئا واحدا
ازالة الفوارق بين الإيطاليين والليبيين ، وهذا ما يجب
ان يعرفه كل ليبي .

ارتفعت اصوات المؤذنين من مآذن المدينة القديمة
تنادي لصلاة الظهر ، وتعلن انتصاف النهار
كما ارتفعت من كنيسة قريبة دقات الناقوس مختلطة بالاذان
فهضمتا وسرتما باتجاه صاعد ، تعبران باحات
باب البحر، التي بدت أكثر رحابة واتساعا
من بقية المناطق
انتهت رائحة الجاوي واعواد البخور وبدأت روائح أخرى

هي روائح الكمون والابزار التي تخلط بها اكالات السمك
فالوقت وقت تجهيز الغذاء ، وطعام أهل هذا الحي
هو السمك ، الذي يتفننون في طهيهِ ، كما يبدو واضحا
من المطاعم الصغيرة
التي تنتشر على طريق الشط وتتخصص في وجبات السمك
وقد افترشت الكثير من العائلات اليونانية والمالطية الأرض
أمام بيوتها ، وبالذات البيوت التي تقع وسط الباحات
والميادين ، وهي كثيرة وفسيحة في هذا الحي ، ومررتما
في طريقكما باقدم كنائس طرابلس الموجودة بباب البحر
وهي كنيسة " سانتا ماريا ديلبي انجلي " التي قال
انه حضر قداس راس العام الماضي بها ، ولم يكن
متاحا له في تلك الزيارة ان يرى
غيرها ، خاصة وانها كانت ليلة ممطرة عاصفة
ثم انحدرت بكما الطريق ، وانتما تقطعان الهضبة
المحاذاة للبحر ، حتى وصلتما جزءا من هذا الحي
كان قد تحول إلى خرابات واكوام من الحجارة
نتيجة لما حدث في بداية الغزو الإيطالي عندما دكت
بوارج الاسطول هذا الجزء من المدينة
وقد ابدى المارشال اندهائشة لبقاء هذا الجزء الجميل
من المدينة ، ولمدة ربع قرن بهذه الصورة
وقد اصبحت هذه الخرابات والاكوام ملجا لاكوام من البشر
جاعوا من الريف ، ولم يجدوا مكانا يلجأون اليه
غير هذه الاطلال المهجورة
نساء بختفين في ملاحفهن البدوية ، ورجال يتكئون منهكين
فوق الحجارة ، وصبيان اشبه بالهياكل العظمية يقفون
أمام هذه الخرابات في اسمالهم التي لا تكاد تستر عورتهم
ينتظرون أي عابر سبيل يسألونه صدقة
وقد هرع بعضهم اليكما فاخرجت من العهدة التي معك
فرنكات كثيرة وزعتها عليهم
وكانت النتيجة ان صاروا ينادون بعضهم بعضا

فوجدتما نفسيكما وسط زحام من الهياكل العظمية
التي يغطيها الذباب، تصدر اصواتا كالانين ، تطلب احسانا
رأيت من بعيد، كيف ان المصلين بدأوا يخرجون
من جامع قرجي فاتجهت مع صاحبك ، متبوعين
بزحام الشحاذين الصغار
إلى زحام المصلين، فدخلتما فيه
كانت فرصة ان يرى المارشال هذا المسجد ، الذي أصبح
بفضل طرازه المتميز، تحفة المساجد الليلية في العمارة
ليس فقط لقبابه الكثيرة ومئذنته الطويلة ذات الثمانية اضلاع
وانما لرخارفه وفنون الارابيسك العربي الاسلامي
في محرابه ومنبره الخشبي
ترى ماذا سيحدث لو ان احدا عرف ان هذا الرجل المغربي
الذي دخل الجامع يتأمل النقوش ، واقفا أمام المنبر
ليس الا ايتالو باليو الحاكم الإيطالي
لم يكن ذلك الاحتمال واردا ، ومع ذلك ظل الخوف يعتريك
وهو يطوف بالمسجد يتأمل الاعمدة التي تنتهي بتيجان
ملينة بالزخارف ، وازددت خوفا وهو يصعد السلم الرخامي
الحلزوني لمعاينة المئذنة ذات الطراز المعماري
الدائري الاسطواني بفرادته وجماله ، تتظر خلفك وانت تتبعه
صاعدا السلم خوف ان يكون هناك احد يلاحقكما
حتى وصلتما الى شرفة متعددة الاضلاع يظهر منها منظر بديع
لمعالم طرابلس القديمة ، بمثل ما يظهر منظر أكثر جمالا للميناء
والكورنيش والسرايا الحمراء
وقفت قلقا تنتظر المارشال ان يكمل طوافه بالشرفة
ولم تشعر بالإرتياح الا عندما قرر النزول واتجه إلى الباب
ووقف أمام المسجد يرتدي الحذاء التي تركه هناك
انها المحطة الاخيرة في هذه الزيارة
وهاهي ، حمدا لله، قد انتهت دون كوارث
وددت لو امهلك الحاكم العام دقيقتين تنوّضا وتصلّي فيهما
ركعتي شكر لله، وامتنانا له على انتهاء المهمة بسلام

لكن الوقت لا يسعفك ، وستصلي هاتين الركعتين فيما بعد
اما الآن فسترتدي انت أيضاً نعلك
وتمضي خلف الزائر الكبير إلى برج الساعة
حيث ستجدان الكروسة في انتظاركما
كنت قد احنيت جسمك اثناء ارتدائك الحذاء تربط شسعه
عندما احسست بيد كبيرة تضربك برفق على ظهرك
مصحوبة بصوت يلهج بالترحيب والتحية
واللوم في وقت واحد
عرفت فيه على الفور صوت عبد المولى الشحاذ
كان ينتصب باسماله وعكازه واقفا أمام الجامع يتسول
حاولت ان تهرب منه ، ولكنه امسك بك
قائلا بانه عرف خبر استئناك من الجيش
كما عرف به اهلك في أولاد الشيخ
وكلفوه بان يبحث عنك ويعرف عنوانك
وحاول خلال الأيام الماضية العثور عليك دون جدوى
اما الآن وقد التقى بك صدفة ، فهو لن يتركك
حتى يعرف مكان اقامتك ، ويقف على احوالك لينقل ذلك
في رحلته القادمة للقريه لابيک وامک واخوتک
ولم تكن تدري ما الذي يدور في عقل بالبو وهو يراك
محاصرا من قبل هذا الشحاذ ، إلا أن الأمر اثار بالتأكيد
استغرابه وضيقه ، لأنه وقف صامتا
ينتظر انتهاء هذا المشهد ، واستئناف السير
واردت ان تقول كلمة للضيف تعتذر بها عما يحدث
إلا أن حالة الاشتباك التي فرضها عليك عبد المولى
لم تسعفك حتى بوجود الكلمات المناسبة التي تقولها
توسلت للشحاذ ان يطلق سبيلك الآن
لأنك مشغول مع هذا التاجر المغربي الذي لديه مواعيد
عاجلة ، وما أن عرف انك رفيق لهذا الشيخ المغربي
حتى تهللت اساريره ، وكاد يطلق صيحات الفرح
فهو ينتظر منذ سنوات ، ان يعثر على رجل من أهل فاس

قادر على كشف الكنوز ، والتعامل مع حراسها
من أهل الجن ، لأنه يعرف كنزا لا يعرفه احد سواه
مطمورا وسط بئر جاهلي
قرب الكوخ الذي يسكنه ، فنهرته قائلا بان
هذه مجرد أوهم
وان الرجل تاجر ملابس ، لا علاقة له بفتح الكنوز
وان عليه ان يتركك الآن تذهب مع الضيف
وستأتي للقاءه غدا في مثل هذا الوقت ، في نفس هذا المكان
إلا أنه ظل يلاحقك عندما تحركت بمحاذاة الكورنيش
صحبة بالبو ، قائلا بانه ليس هناك مغربي
لا يفتح الكنوز، واذا احتاج إلى صبي
زنجي له عينان ، فيهما صورة خاتم النبي سليمان
لكي يذبحه قربانا لحراس الكنز من ملوك الجان
فسوف يستطيع الحصول على مثل هذا الصبي
وجلبه دون ابطاء للشيخ المغربي
وان ما يقوله عن الكنز حقيقة ، وليس وهما
ومضي يتجه بحديثه للضيف ، ظنا منه انه يفهم العربية
مؤكدًا له ان ليبيا تحتوي في جوفها على اعظم كنوز
الذهب ، منذ عصر الرومان ، وهذا ما يعرفه الإيطاليون
الذين تشبثوا باحتلالها ، وقدموا التضحيات في سبيل
المحافظة عليها ، فهم ليسوا مغفلين يفعلون ذلك من
أجل صحراء الرمال ، ولكن من أجل الكنوز، التي
ورثوا خرائطها من اسلافهم الاقدمين، وهذه هي المهمة
التي يقوم بها الحاكم بالبو
فهو يشرف بنفسه على نهب هذه الكنوز
ونقلها في سفن إلى روما مستعينا بالسحرة
الذين يحضرهم من فاس وشنقيط وتمبكتو وكانو
ووادي الذهب، عارضا عليك وعلى الضيف المغربي
ان يتقاسم معكما الكنز ، قيل ان يأتي المارشال بالبو
بمن معه من السحرة ويستولي عليه

كان بالبو قد استغرب قليلا في المرتين اللتين ذكر فيهما اسمه
وبإدراك النظرات دون ان يقول شيئا ، وكان المشهد قد
بدأ يستقطب عددا من الناس ، بينهم لاشك بعض
المخبرين العرب ، ممن سمعوا ما قاله الشحاذ
عن إيطاليا والحاكم العام
مرة أخرى سألته بلهجة أكثر غضبا و حزما
ان يتركك لشأنك ، إلا أنه قفز على يد بالبو
يقبلها ويمسك بها متوسلا ان يأتي معه إلى كوخه
ليريه الكنز . كان موقف الكروسة مازال بعيدا، وكان لابد
ان تفعل شيئا ازاء استفزازات هذا الشحاذ العنيد، قبل
ان يتطور الموقف إلى مرحلة أكثر تعقيدا
وكان بالبو قد بدأ يظهر اشمئزازه وحنقه
من مضايقات وتنطعات هذا الشحاذ
فلم تجد بدا من عمل ما تجنبت عمله مع عبد المولى
خلال هذه اللحظات الثقيلة . تراجعت خطوتين إلى الخلف
ثم تقدمت وركلته في ساقه بكل ما لديك من قوة
ركلة جعلته يصرخ وهو يدور في مكانه
واستدرت لتواصل طريقك صحبة الضيف
ودون ان تدري ، اذا بالشحاذ يأتي من خلفك، ويقفز
فوق عنقك ويحيط رأسك بكلتا ذراعيه ، وبقوة لا تدري
كيف و انت شحاذا مصابا بسوء التغذية مثله ، اسقطك
معه فوق الأرض ، حيث صرتما تنصارعان، وتتمرغان
فوق التراب وانتما تتبادلان اللكمات . جاء الناس يصنعون
زحاما حولكما ، وتدخل بعضهم ل فك الاشتباك بينكما، وقمت
تنفض التراب عن ملابسك ، وتلتفت فتجد ان المارشال
غادر المكان وحاولت ان تلتق به دون جدوى
لأنك لم تر له على مرمى البصر أي اثر
لم يكن ممكنا ان تذهب وانت بهذه الهيئة المزرية
إلى بيت حورية ، لتتأكد من وصول المارشال إلى هناك
كنت على ثقة من ان رجاله قد احاطوا به وسحبوه بسرعة

من مكان المعركة الناشئة بينك وبين الشحاذ
عائدين به إلى عالمه الطبيعي وشخصيته الحقيقية
ولكن واجبك ، مهما كنت واثقا من ذلك ، ان تتفقه
لدى حورية ، وتتأكد من وصوله سالما
كنت حانقا اشد الحنق على عبد المولى الشحاذ
وما أوقعك فيك من مأزق ، ولذلك لم تأبه ليده الممدودة
للصلح بعد ان انتهى العراك . تركته ومضيت
عائدا باتجاه الفندق . ظل عبد المولى يتبعك ليعرف
مكان اقامتك ، حتى وصلت الفندق ثم انتشى راجعا
وعلى عجل خلعت البذلة الجديدة التي تعفرت بالتراب
والوحول وارتيبت بذلة العمل الرسمية
ثم انطلقت مسرعا إلى بيت حورية
لم تنتظر ان تستأذن احدا . صعدت السلالم وطرقت الباب
كانت حورية تقف في وسط البيت قبالة الباب
فأبتها قبل ان ترى مرجان الذي فتح الباب وتوارى خلفه
كانت تقف في حالة استنفار وتوتر تسألك السؤال المرعب :
— لقد جئت بمفردك فاين تركت المارشال؟
تجمدت في مكانك تنتظر إلى السقف الذي تدلت
منه بيضة النعام ، فتصورتها مشنقة ستلتف
حول عنقك . رأيت حورية ما حدث لك من ذهول وخوف
فسألتك باسمه ان تجلس بانتظار القهوة
التي امرت حواء باعدادها لك
فمن حقك ، كما قالت ، ان تحصل على قسط
من الراحة ، بعد الجهد الذي بذلته واسفر
عن نجاح الزيارة . شعرت بشيء من الطمأنينة، وانت ترى
ابتسامتها وتسمع حديثها . ولكن كيف تراها عرفت ، وهي
لم تر المارشال بعد
وعلمت منها ان المارشال وصل
إلى قصر اقامته الرسمي وهاتفها من هناك ، معبرا
عن شديد امتنانه واعجابه

بما رآه أثناء هذه الجولة ، وإن ما حدث عندما اعترض
احد الشحاذين طريقكما ، لم ينقص شيئا من استمتاعه
بها . لم تقل لها ان الشحاذ لم يكن مجرد متسول يعبر
الطريق ، وإنما صديق وقريب جاء يأخذك بالاحضان
ويقول ان بالبو افرغ البلاد من كنوز الذهب المطمورة
تحت الأرض ، مستخدما السحرة الذين يذبحون صبياننا
زنوجا ترسم في أعينهم علامات تشبه خاتم سيدنا سليمان
لتسهيل استخراج هذه الكنوز
وسألت مرجان ان يأتي فجاء الصبي
وامسكت بوجهه تبحث في عينيه عن علامة تشبه
خاتم سليمان ، لكي تتصحه بالهروب قبل ان يكتشف بالبو
امره ويقدمه هدية لواحد من اعدائه السحرة
سألتك حورية باستغراب عما تبحث عنه في عيني مرجان
فقلت لها انه مجرد خاطر لا معنى له
المهم ان تخبرك عما قاله عنك المارشال فقالت
بانها هي التي تريد ان تعرف منك انطباعك عن المارشال:
— ها انت قد رأيته وعرفته عن قرب ، فما رأيك
حقا في شخصيته؟
— انه إنسان نادر المثال .
كنت فعلا قد خرجت بانطباع ايجابي عن الرجل
ورأيت له صورة تختلف عن صورة الحاكم المتجبر
العابث ، الذي ينظر باحتقار إلى الآخرين
كما يصوره اعداؤه من الليبيين
لا تستطيع بطبيعة الحال ، ان تقول بانك تعرفه معرفة
حقيقية ، لأنه جاء معك متكبرا، برتدي شخصية
مستعارة ، وهذه الشخصية التي اختار لها ان تكون
شخصية شريف مغربي
لابد ان يكون لها تأثيرها فيما رأيته وعرفته
عن المارشال
هناك شيء من التمثيل ، اختلط بالحقيقة

و سيكون صعبا الاهتداء إلى الخط الفاصل بينهما
ومع كل هذه التحفظات ، فانك لا تملك إلا أن تندي
اعجابك بالجوانب التي رأيته ، مثل عمق معرفته
بتاريخ البلاد ، ومشاعر الدفء التي اظهرها نحوك ، ولحظات
التواصل ، الإنساني الحميم التي عشتها في صحبته
ولا تملك إلا أن تشعر ببالغ الحزن من أجله
وانت تذكر نبوءة الشيخ البلبل التي تقول
بانه سيموت قتيلا على ايدي جنوده
— ستكون هذه الزيارة علامة فارقة في حياتك .
— سأذكرها دائما بمشاعر الاكبار والتجلة للحاكم العام
والامتنان لك انت باعتبارك صاحبة الفضل في اختياري
لهذه المهمة .
— سيكون لها تأثير كبير على مستقبل حياتك العملية .
— المستقبل بيد الله . أمل ذلك على كل حال .
تذكرت ان صاحب عربة الكروسة ، مازال ينتظر
في المكان الذي حددته له ، وان كل ساعة تعني اجرا اضافيا
فطلبت الان من حورية للذهاب اليه واخلاء سبيله
وقبل ان تغادر البيت ، رأيت ان تعيد اليها النقود التي اعطتها لك
فهي لا تزال موجودة في المغلف الكبير لم تنقص الاشياء
ضئيلا هو قيمة ما نفتحته لبعض الشحاذين وما دفعته ثمنا لعلبة الحلوى التي دخلت به انت
والمارشال على بيت الحاج المهدي
— وهل تظن ان المارشال يقبل ان يأخذ منك هذه النقود مرة أخرى .
— لقد اخذتها منك انت وها انا اردتها اليك .
— ليس بيني وبينك حساب . ثم انك ستدفع اجرة الكروسة .
— مهما كان ما سادفعه ، فهو لن يزيد عن عشر فرنكات
لا عشرة الاف .
— انها حقك .
— ساقبل باخذها شرط ان تقبلي الهدية التي سأشتريها لك .
— الهدية ليست بقيمتها المادية، ولكن بقيمتها المعنوية
فلا تشتري شيئا غاليا ، لأن المارشال لا يتركني احتاج

لشيء مطلقا .

لم تمض غير ثلاثة أيام أو أربعة ، حتى بدأت اشياء كثيرة تحدث في المدينة القديمة ، لها علاقة بزيارة الحاكم العام لها ، وقرارات تتصل بما رآه هناك ، وكان أول هذه القرارات نقل قاطني البيوت المصرح لها بممارسة المهنة في حي البغاء بسيدي عمران ، إلى المشروع الاسكاني الجديد الملحق بالمعرض التجاري ، وترميم البيوت التي اخليت وانشاء جهاز لصيانتها وصيانة أي بناء يهدده الانهيار داخل المدينة القديمة وقرار آخر بازالة المديغة من المبنى الذي تشغله وسط المنطقة السكنية بحي القناصل القديم ، وإعطاء قطعة أرض لصاحبها خارج السور مع فرض لانشاء مديغة حديثة ، وقرار آخر بتخصيص مساكن في مشروع الاسكان الشعبي بمنطقة باب تاجوراء لساكني الخرابات المحاذية للبحر، وإعطاء تلك الخرابات لجهاز تشجيع السياحة ، ليكون هذا الموقع جزءا من المدخل السياحي لطرابلس ، وقرار خامس أو سادس بتجديد قصر يوسف القرمانلي ، واعادته لصورته الاصلية ليكون متحفا خاصا بتراث المدينة القديمة اما اخر القرارات فهو الذي كنت طرفا في تنفيذه وهو منح الحاج المهدي النعال منزلا أرضيا بمنطقة جنان النوار ، والترخيص له بفتح حجرة من حجرات البيت على الشارع لتكون مشغلا ومتجرا للاذنية التقليدية ، وتمكينه من استعادة أرضه المصادرة في تاجوراء ، بعد اثبات انها لم تكن أرضا مهجورة لأن قرار المصادرة يشمل فقط الاراضي المهجورة التي لا يتعيش منها اصحابها كما قضى القرار بان يعالج الحاج المهدي مجانا

في المستشفى العسكري . كنت انت الذي تسلم القرار
وذهب مع احد الجنود لمعاينة

البيت الجديد واخذ مفتاحه مع شهادة التملك
ثم ذهبت بمفردك إلى بيت الحاج المهدي، لتجد في انتظارك
استقبالا باردا من أهل البيت الذين وقفوا ينظرون اليك
بأعين يملؤها الشك ، ووجوه يغطيها الكدر، بما في ذلك
وجه ثريا، وسألك الاب مغضبا :

— من هذا الضيف الذي جئت به إلى بيتي ؟
— لم احضره الا لأنه أخبرني بأنه صاحب قديم لك .
— كيف يكون صاحبي وانا لم اره في حياتي ، قبل ذلك اليوم ؟
— ولماذا انن يقول انه يعرفك ويأتي مثلها لزيارتك ؟
وشاركت الام في المسألة قائلة :
— هذه امور جوابها عندك انت .
واضاف الحاج :

— نريد ان نعرف منك ماهي حقيقة هذا الرجل ؟ ولماذا جاء؟
وكيف يدعي معرفتي ثم لا يفتح الله عليه بكلمة واحدة يقولها
عن كيف ومتى حصلت هذه المعرفة ؟

فجأك هذا التحقيق، ولم تعرف سببا لاثارة هذه الشكوك
لأن الزيارة مرت على خير مايرام
دون ان تسمع من الاب غير كلمات الشكر والامتنان
والترحيب بالضيف المغربي ، ومعنى ذلك ان شيئا حدث
بعد الزيارة ، اثار هذه الشبهات ، فسألت الاب :

— هل حدث لا سمح الله أي شيء ازعجكم؟
وجاءت كلمات ثريا ، هذه المرة ، تضع حدا لحيرتك:
— الشائعات تملأ المدينة عن ساحر مغربي يبحث عن كنز
ووالدي كما تعرفه ، رجل من أهل التقوي ، يكره ان تكون له
صلة بالسحر والسحرة .

وباستنكار عقبى الام :

— ولماذا يأتي الساحر إلى بيتنا ، استغفر الله؟

الأرضي بمشروع الاسكان المتميز بحي جنان النوار لكم
ليسهل على الحاج الخروج منه إلى الشارع
ومباشرة عمله في الدكان الملحق بالبيت
وهذا المفتاح هو مفتاح البيت الجديد .

نظروا إلى بعضهم البعض غير مصدقين ، فأخرجت
ورقة ثانية ، كالساحر الذي يخرج طيور الحمام
من كم قميصه :

— وهذا تصريح من المستشفى الإيطالي العسكري
بالعلاج المجاني للحاج بقسم العظام ، حتى يشفى
لأن هناك آلة جديدة لمعالجة برد العظام باشعاعات
الكهرباء لا يملكها الا هذا المستشفى ، ولها نتائج
تشبه المعجزات .

كان رد الفعل المبدئي هو عدم التصديق لأنه
" من اين للحكومة ان تعرف احوالنا، وحاجتنا إلى مثل
هذا البيت ، ومثل هذا العلاج ، ونحن لم نكتب لها
استرحاما ، ولم نطلب عوناً من احد "
كما قال الاب ورددت كلامه زوجته وابنته
ودون ان تعباً انت بتشككهم في صدق ما نقول
ابلغتهم بالمكرمة الثالثة لتضيف مزيداً من الوقود
إلى نيران الشك والحيرة والفضول والاندهاش :
— هل تذكر الأرض التي صادروها لك في تاجوراء يا حاج
سيتم اعادتها اليك ، أو تعويضك عنها ، فالخيار لك
وسيجد ذلك فور احضار المستند الذي يثبت ملكيتك
للأرض وانتفاعك بها .

كان صعباً استيعاب وتصديق كل هذا الخير
الذي جاء دفعة واحدة
ولم يكن ثمة شيء يعالج حالة الذهول التي

اصابت العائلة ، غير كروسة تقبل كل افرادها
بمن فيهم الاب المريض
إلى حي جنان النوار ، ليفتحوا البيت بانفسهم
ويشاهدوا اتساعه واتساع حجراته و مطبخه المجهز
بتقنيات حديثة مثل مواسير الغاز الذي يقوم بتشغيل الموقد
وسخان الماء ومصابيح الكهرباء الموجودة في كل غرفة
والحديقة الخلفية للبيت ، والغرفة التي ستكون دكانا
يفتح على الشارع
وهم يطوفون بالبيت ويعلقون ابصارهم بالاسقف العالية
غير مصدقين ان هذا البيت العصري
الحديث سيكون حقا ملكا لهم :
— ولماذا يفعل لنا الطليان كل هذا، ولا يفعلون مثله للآخرين؟
— ولماذا تشعشع انوار الحظ في ليلة القدر لاناس
وتحتجب عن غيرهم ؟ وببساطة اقول لكم ، لأن الآخرين
لم يزرهم شيخ صالح مثل الذي زاركم منذ عدة أيام .
وكأنما اثار الحديث عن الضيف المغربي شكوك الاب
من جديد فقال بصوت يشوبه الارتياح :
— وهل يريدون اخذ البيت الذي نسكنه الآن ؟
ادركت مقصده ، فربما يكون هذا البيت الجديد
وسيلة لاخلوجه من بيته القديم الذي يحتوي الكنز
كان ينكيء عليك ويضع يدا أخرى على الجدار
وهو يتفقد غرف البيت الذي مازال جديدا تفوح منه
رائحة الطلاء . ورأيت، بعد ان تأكدوا من صدق
ما قلته لهم ، ان تجعلهم على علم بصاحب الفضل ، الذي
لولاه ما تغيرت اقدارهم بهذا الشكل الذي يشبه
الأحلام . انتظرت حتى انتهوا من جولتهم داخل البيت
وحان وقت الخروج إلى الحديقة الصغيرة التي نمت
فيها اعشاب قليلة ، و شتلات أشجار تتناثر في الزويا
لا ترتفع فوق سطح الأرض الا عدة اشبار
قلت ترد على سؤال الاب وتتجه بالكلام إلى كل

افراد الاسرة :

— تعلم يا حاج المهدي مدى ولائي وحيي لك
ولاسرتك التي اعتبرها اسرتي ، ولم يكن ممكنا
وانا ارى المحنة التي تعيشونها ، ان افق متفرجا
لا افعل شيئا . سعبت منذ أول يوم رأيك فيه
مريضا ، لايجاد حل لهذه المحنة
ومضيت اطرق الابواب حتى استطعت بتوفيق
من الله الوصول بقضيتك إلى اعلى سلطة
في البلاد ، إلى الحاكم العام نفسه
الذي اثبتت له التحريات صدق ما قلته عنك
فامر لك بالبيت والعلاج واسترداد الأرض
فهل تظن ان حاكما مثله يحتاج إلى دكانك
أو بيتك القديم ، انهما لك تفعل بهما ما تشاء .

رأيت دموع الرجل تهطل غزيرة ، غزيرة
فهو دموع فرح بالتأكد تخالطها عبرات اسف
لأنه تعامل معك اليوم بمنطق الشك والريبة
واخضعك للمساءلة والتحقيق كأنك متهم
وكانت الدموع أكثر افصاحا وتعبيرا من أي كلام يمكن
ان يقوله تعليقا على ما يحدث الآن
بعد ان اعدتهم إلى بيتهم القديم ، اخرجت مبلغ الف ليرة
اعطيتهما للاب قائلا له ، بانه ليس هدية، وانما سلفة
يواجه بها مصاريف تأثيث البيت الجديد ونفقات
فتح الدكان تستردها منه عندما تنتيسر الاحوال باذن الله
اكتشفت وانت تواصل حياتك في الفندق وتقضي
حوائجك من دكاكين المدينة القديمة
وتذهب للصلاة في مساجدها
ان قصة الساحر المغربي الذي زار بعض احياء المدينة
يبحث عن الكنوز قد اوضحت قصة شائعة
يرردها الناس بانبيهار واعجاب

ويتحدثون عما حدث للمديغة التي زارها
وخرابات باب البحر وسكانها الفقراء، وماحدث لهم
وجلوسه في المقهى المحاذي لقصر يوسف باشا القرماني
وما يشهده الآن من تجديد ، وزيارته لصديقه القديم
في كوشة الصغار وما اصاب ذلك الصديق واسرته
من خيرات ، فهو صاحب كرامات واسرار روحية
وعلاقات بأهل الخفاء المسخرين لخدمته ، وتنفيذ
أوامره ، وكان عدد من هؤلاء الناس يعرفون
انك انت الذي كنت ترافقه اثناء جولاته
واصطحابه للصلاة في المساجد
فكانوا يأتون اليك في فندق الكبران
يريدونك ان توصلهم به للاستفادة باسرارهم
والحصول على بركاته ، وطلب مساعدته في حل مشاكلهم
دون ان تجد جوابا يرضيهم
فالقول بانه عاد إلى بلاده ، يجعلهم متوترين
غير مستعدين لتصديقك ، فتضيف قائلاً بانه سيعود
في وقت قريب باذن الله ، لكي يذهبوا وهم راضون عنك
وكان عبد المولى الشحاذ قد جاء لزيارتك في الفندق
عندما لم تكن موجودا ، وعرف بانك اشتريت حاكيا
فاضاف هذا وقودا للهوس الذي يسيطر عليه
حول الساحر المغربي الذي يفتح الكنوز ويستخرج الجرار
الذهبية ، فوجود هذا الحاكي ، هو خير دليل على ان مصاحبة
الساحر المغربي قد اثمرت ، وان نصيبك من الجرة الذهبية
قد وصل اليك لا محالة
لم تستطع ان تستعيد الحاكي من الكبران ، الذي يريد شراءه
بنصف الثمن ، فلم تقبل منه هذا العرض
واتفقت معه على ان يستعيره فترة من الوقت
حتى يعثر على جهاز مستعمل ، أو يتدبر ثمن
جهاز جديد
كان صوت الاغاني الشرقية يخترق جدار الفندق

ووصل إلى الشارع عندما دخلت ، واتجهت
إلى غرفة الكبران

انقص من صوت الجهاز قائلاً :

— جاء صاحبك الشحاذ يسأل عنك، ويأمل في الحصول
على بعض الليرات الذهبية من الجرة التي تقاسمتها
مع الساحر المغربي .

— لم اكن اظن ان الحماقة تصل به إلى هذا الحد . وهل تصدق
انت أيضاً هذا الكلام يا عمنا الكبران؟
— اصدقه واصدق المثل الذي يقول ان نخلة الحوش
ترمي ثمرها خارجه.

— لم افهم .

— هل يجوز ان تصطحب الساحر المغربي إلى مختلف الاماكن
العامة و الخاصة، في المدينة القديمة وخارجها ، ويستفيد
من زيارته كل الناس ، الا الفندق الذي يؤويك .

— الرجل ليس ساحرا ، وانما تاجر اراد ان يرى بعض معالم
المدينة ويلتقي ببعض تجارها .

— هذا ما كان يعتقدہ الناس ، إلا أن ما حدث من غرائب وعجائب
بعد زيارته ، هو الذي كشف حقيقة من يكون .
— مجرد مصادفات .

— ليتك جئت به إلى هذا المكان ، ومرحبا بالمصادفات التي
تأتي بعد زيارته .

ضحك رفاق الجلسة ، وواصل هو حديثه على خلفية الموشح
الذي يقول

" قدك المياس يا عمري ، ايقظ الاحساس في صدري، انت احدى الناس يا عمري":

— هذا المغربي ايقظ في صدري شيئا اكبر من الاحساس

لأنني لا اريد سوى ربع جرة ذهبية ، لاصنع عالما جديدا
محل العالم القديم الذي تعرفونه

ليت اخانا عثمان يقتنع بهذا الكلام ويحضر لي هذا الساحر

— لقد سافر للأسف الشديد .

— هل تعرف شيئا ؟ هل تعرف جزيرة اطلنتيس التي يبحث عنها

العالم منذ مئات السنين ، والتي غرقت بما فيها من كنوز ومآثر
فنية ، هناك إنسان وحيد في هذا العالم يعرف مكانها ، هذا الإنسان
هو العبد الذي أمامك . اطلنطيس موجودة على بعد عدة أميال
من هذا المكان . غواص الماني غرقت غواصته أثناء الحرب
ومات بين يدي ، بعد ان رأيناه طافحا على سطح البحر
وحاولنا انقاذه ، هو الذي أخبرني أثناء احتضاره بأنه رأى
جزيرة اطلنطيس في قاع البحر . كلمني باللغة الإيطالية
التي احبها وأشار إلى المكان الذي رآها فيه وعلامات
الانبهار على وجهه ، رغم حشجة الموت . انني احلم باليوم
الذي اقود فيه حملة لاستعادة كنوز اطلنطيس وسرى
ما سأفعله بالعالم .

ثم يضرب كفا بكف :

— ليتك جننتي بهذا الساحر

تركته غارقا في أحلامه ببناء عالم جديد
وذهبت إلى غرفتك ، وذهنك عاجز عن تفسير
هذا الخيال الشعبي الذي قفز على اشاعة الساحر المغربي
واحالها إلى قوة خرافية قادرة على تغيير مصائر البشر
كانت اصدااء الزيارة تأتيك من مصادرها الشعبية
مغلقة بالخيال فقد اضافوا إلى قصة الحاج المهدي
الذي حصل على بيت جديد
سببا آخر للثراء المفاجيء الذي هبط عليه
وهو انه تقاسم مع الساحر المغربي كنزا من الذهب
وجدوه مدفونا في عتبة بيته ، واخترعوا قصصا لشخصيات
وهمية ولا وجود لها في الواقع ، وقالوا انه حدثت لها احداث تشبه
ما حدث للحاج المهدي واصابها الثراء المفاجيء
بعد التقائها بالساحر : بائع متجول في كوشة الصغار
وعتال في سوق الترك ، وصاحب كروسة من ساكني باب البحر
عدا الاعتناء الخاص الذي أولاه الساحر لحى البيغايا
كانه عثر فيه على امه التائهة عنه كما يقولون
فقد استجاب لطلبات نساء الحي

وابدل لهن تلك الخرايات ، بافخر البيوت
في افخر احياء المدينة
ويضيفون كتفسير لما حدث، بان لأمثاله من المتعاملين
بالسحر الأسود ، علاقة وثيقة بعالم الرذيلة
كما أن الجن الذين يستخدمهم هؤلاء السحرة
غالبًا ما يكونوا من الزنادقة والملحدين
الذين يحابون العاهرات و لا يأفون من خدمتهن
ثم سرت اشاعة أخرى ذات طابع شرير هذه المرة
استندت فيما يبدو على الكلمات الحمقاء التي رمى
بها عبد المولى الشحاذ، عن الصبي الزنجي
الذي يبدي استعداداه لاحتضاره وذبحة قربانا للجن
الذين بحرسون الكنز، تقول الاشاعة بان هناك طفلا
أسود البشرة ، دون العاشرة، اختفى من إحدى
الكتاتيب ، ويتهمون الساحر المغربي الذي رأوه بطوف
الكتاتيب مع صاحبه
بخطف الطفل . هذا ما سمعته من الزنجي العجوز
صاحب المغسلة ، الذي اخذت اليه البذلة الجديدة
ليزيل ما علق بها من اوساخ نتجت عن عراكك مع الشحاذ
واضاف بانه سمع رجلا يقول بانه رأى الساحر وصاحبه
يحاولان استدراج طفل أسود من تلاميذ كتاب
الشيخ المدني ، القريب من جامع النافقة، إلا أنه
فاجأهما بظهوره أمامهما
فاختفيا دون ان يتمكنوا من خطف الطفل
ولا بد انهما نجحا في مكان آخر
لم تقل شيئا تصحح به افكار الرجل عن الساحر
وصاحبه ، أو تخبره بانك انت صاحب الذي يعرف
كذب هذه الروايات
ضحكت هازئا مما يقوله ، موقنا ان مزيدا من الروايات
سوف يتم تأليفه ليكون وسيلة للتسلية يملأ بها الناس
فراغ أيامهم ، وتأثرا بما سمعته من حورية عن انبهار

الحاكم بالمدينة القديمة ، والأوصاف الجميلة التي يسيغها
على ما شاهده فيها من معالم، وما احس به من مشاعر
وهو يسير في شوارعها التي تحمل بصمات الزمن، وتعيق
باريح تاريخ عريق

ونكهة خاصة بهذه المدينة دون غيرها
ترسبت وترسخت عقب احقاب تاريخية متعاقبة
ورقائق حضارية متنوعة ، منذ تأسيسها ، ستة قرون
قبل الميلاد ، صممت ان تقوم بجولة أخرى عبر نفس الاحياء
لتراها في ضوء هذا الفهم الذي كان غائبا عنك
زيارة تقوم بها لصالحك، وارضاء لمزاجك انت
لا لصالح الحاكم العام أو ارضاء لمزاجه
ذهبت تجوس عبر الازقة والحواري ، وتنساب بينها
انسايابا طبيعيا وعفويا، كانساياب الماء بغير خطة أو خريطة
أو هدف سوى الرغبة القوية في الاقتراب من روح هذه المدينة
والتعرف على ملامح هذه الفرادة والخصوصية
التي رآها الحاكم العام ولم تستطع انت رؤيتها
بسبب الالفه من جهة ، وربما الجهل بقيمة هذه المعالم
التي بهرت المارشال من جهة أخرى
منحت نفسك لهذه الشبكة العنكبوتية من الازقة
والشوارع الصغيرة التي يصب بعضها في بعض
ودكاكين العطرية والبقالات الصغيرة التي تختلف
في شكلها ومعمارها وديكورها عن بقية الاسواق
التي تتشابه دكاكينها
مثل سوق الرباع وسوق اللفة حيث صفوف الدكاكين
يشقها طريق يمر منه الناس ، وأمام هذه الدكاكين
دكك وبسطات ترتص فوقها
مختلف السلع ، ويجلس بينها اصحاب الدكاكين
كأنهم جزء من الديكور
ويتحركون ببطء وتناقل لتلبية طلبات الزبائن ، كأنهم
يقومون بواجب ثقيل

ورغم ما بدا لك واضحا من تباين بين هذه الاسواق
ودكاكين العطرية الموجودة في الحواري والازقة ، فان
هناك تجانسا وتناسقا بن كل ابينة المدينة القديمة
بدكاكينها وبيوتها واسواقها وشكل الازقة والسقوف
والحيطان وما فيها من شرفات صغيرة
وشبابيك عالية ، يغطيها خشب ازرق معشق في بعضه
البعض ، يمكن لمن بداخله ، ان يتلصص من ثقبه
التي تسمى عين الزرزور على الخارج ، متيقنا بان
احدا من الخارج لا يستطيع ان يراه
بحيث تبدو المدينة وكأنها بنيت بخريطة واحدة تحت
اشراف مهندس واحد ، مع انها في الحقيقة تحمل
تراكمات اعصر واجيال حافظت رغم تعاقب الاحقاب
على طرازها وشخصيتها
ذهبت تدور مع زواريتها التي يدور بعضها أحيانا
على بعض وينتهي بعضها بجداريجل الطريق مسدودا
دون اشارة تدل على ذلك ، بل ان هذا الزقاق المسدود
يقول أحيانا العكس برحابته واتساعه
كأن الذي بناه ، تعتمد ان يراوغك ويلعب معك لعبة
النهايات المسدودة
لا شك ان الذي هندسها بهذه الصورة لم يفعل ذلك عبثا
وانما ارادها ان تكون متاهة لمن يأتي اليها من غير أهلها
تقنية من تقنيات الدفاع عن النفس
يستخدمها قوم طالما روعهم الغزاة الذين يرمي
بهم البحر أو ترمي بهم الصحراء
فارادوا ان تكون مدينتهم متاهة لهم
عصية على الاستيعاب والفهم
انتهيت وانت تحاول اكتشاف الجمال النائم
تحت الحجارة التي يخيم عليها خنى السنين ، ان هناك
عيونا ترصدك بشيء من الريبة والحذر
ولم تشك اطلاقا في ان الشائعات التي ربطت بينك

وبين الرجل المغربي هي السبب في هذه النظرات
فكثير من الناس ، اهتدى إلى شخصيتك ، بل رأيت
من يدس رأسه في رأس صاحبه ، ليهمس له بحقيقة من تكون
وتأسفت لأنك قد تحتاج انت الآخر إلى ان ترتدي ملابس تكرية
تدخل بها هذه الاحياء كما فعل الحاكم الإيطالي
ووجدت عندما ذهبت بعد هذه الجولة إلى مقر عملك
ببيت حورية ، انك انت الآخر أصبحت من جماعة
المنتفعين باسرار وكرامات الساحر المغربي ، وان في
انتظارك دعوة لحضور حفل كبير سيقام غدا
بمقر الفرع الليبي للحزب الفاشيستي
بمبنى المعرض التجاري ، بمناسبة اعتمادك عضوا
جديدا بالحزب الحاكم ، وسيكون الحفل تحت رعاية
صاحب الفخامة الحاكم العام
المارشال ايتالو باليو عضو المجلس الاعلى
للحزب الفاشيستي
اعتبرت حورية هذه العضوية خطوة جديدة
على سلم المجد الذي ينتظرك ، ورأت في حضور
المارشال لهذا الحفل
دليلا على اهمية وخطورة هذه العضوية
مؤكدة بانها شخصا ستكون أول الحاضرين
اعتزازا منها بهذه المناسبة
كانت رسالة الدعوة تنص على ضرورة ان تذهب
صباحا إلى مقر الحزب ، لاستلام الملابس الفاشية ، لأن
حضور الحفل مساء سيكون بهذه الملابس
اكتشفت عندما حان موعد الاحتفال ، ان هناك أكثر
من عشرين منتسبا جديدا من الليبيين سيحوزون
على شرف استلام بطاقة العضوية من الحاكم العام ، يماثلونك
في العمر ويرتدون مثلك القمصان السوداء
لم يضايقك وجود هذا العدد الكبير من المحتفى بهم
بل اسعدك ، انك لا تمضي وحدك في هذا الطريق

وان هناك كثيرين من أبناء جلدتك ، يسعون بهمة ونشاط
كما تفعل انت ، لنيل الرضا والاعتراف من السلطة
الفاشية الحاكمة ، املا في تأمين معيشتهم ، و تحصين
مستقبلهم العملي

ودخل بالبو إلى قاعة الاحتفال محفوا بضباطه ومستشاريه
يرتدي بذلة مارشال الجو ، وواضعا كل الأوسمة والنياشين
التي نالها على صدره ، وجلس يستمع إلى القسم الفاشي
يلقيه هؤلاء المستجدون بنصيه الإيطالي والعربي
وبعد ان جاء دورك واديت يمين الولاء لإيطاليا
وزعيمها موسيليني ، اتجهت إلى المنصة كما فعل
من سبقوك ، لاستلام بطاقة الحزب
من الحاكم العام ، الذي قام أيضاً برشق شعار كتبت فوقه
الاحرف الأولى من رابطة الشباب الفاشي الليبي
" الليتوريو" فوق صدرك

واستبقاك دقيقة أو أكثر ليقول لك انه راجع ملفك العسكري
واصدر قرارا بترقيتك إلى رتبة شاوليش
وهو قرار لن يعلنه هنا باعتبارك موجودا بصفتك المدنية
لكنه سيكون ضمن التعميمات العسكرية
صفق لك جمهور الحاضرين من الضباط والوجهاء
واعضاء الحزب القدامى من ليبيا وإيطاليا
ومن وسط الضيوف الجالسين في الصف الأمامي
نهضت حورية تمد يدها لك بالتحية والتهنئة
كنت قد ارتديت ملابس الحزب القميص الأسود
والبنطلون الابيض قبل ساعة من موعد الحفل ، ومنذ
خروجك من الفندق ووصولك إلى مقر الحزب وانت
تشعر بعبء هذا الزر ، وتلحظ إلى أي مدى ينظر
اليك الليبيون بحقد واشمئزاز

مما جعلك تستعجل الساعة التي تتخلص فيها منه
وتتجنب الشوارع الأهلة بالناس ، اثناء عودتك
إلى الفندق ، لكي لا تتعرض لما تعرضت له في طريق

الذهاب إلى الحفل
لم يستطع التصفيق الذي حظيت به اثناء تسلّم البطاقة
ولا الترقية التي ستزيد قليلا من مرتبك
ولا تهنئة حورية لك ان تزيل سحابة الهم
التي حطت في قلبك نتيجة الازدراء الذي رأيته
في أعين الناس ، وقبل لحظات من وصولك إلى الفندق
استرعى انتباهك وجود زحام كبير أمام بابه
ظننته نشأ بسبب بطاقات العمل في الميناء التي يوزعها
الكبران في بعض الاحيان على العتالين ، إلا أنك تبينت
رغم العتمة التي بدأت تحاصر الدنيا
وجود نساء يرتدين الفراشية بين الرجال
مما يؤكد ان الزحام ليس بسبب العمل في الميناء
وانما بسبب آخر لن تعرفه الا عند وصولك إلى الفندق
كنت ماتزال تشعر بالخل ، من اضطرارك إلى شق
هذا الزحام ودخول الفندق وانت ترتدي الملابس الفاشية
التي تنثير حق الناس وتجلب احتقارهم
وفوجئت عند اقترابك من الفندق ان هذا الزحام
ليس من أجل احد آخر غيرك انت ، لأنك ما أن ظهرت أمامهم
حتى هرعوا كلهم نحوك ، إلى درجة اخافتك وفكرت معها
في الهروب خشية ان تكون مظاهرة ضدك ، يقوم بها اناس
اثارهم انتماؤك الفاشي فجاءوا للانتقام منك
إلا أنك بقيت واقفا لا تتقدم ولا تتأخر ، خاصة وانك
احسست بعد برهة قصيرة ، انه زحام مسالم
لا يحمل أي تهديد لك ، بل جاء يسعى اليك بمسكنة ومذلة
يكاد بعض افراده يتقدم وهو في حالة انحناء
والآخر الذي وصل قريبا منك يريد ان يأخذ يدك يقبلها
والظاهرة المشتركة بينهم ، انهم جميعا كانوا
يحملون أوراقا في ايديهم ، ويتوسلون خاشعين
ان تنظر بعين الرحمة إلى طلباتهم وشكاواهم
بعضهم كانت عيونه تسح بالعبرات

وبعض النساء كن ينخرطن في بكاء حارق
مما اعطاك انطباعا ان في الأمر خطأ ما
لعله ناتج عن هذه الملابس الفاشية التي جعلت بعضهم
يظن انك احد الحكام

ونظرت في الأوراق التي وضعوها بين يديك
فاذا بها موجهة إلى الحاكم العام تطلب عملا أو حلا
لمشكلة ما أو عونا ومساعدة ، ولم تستطع ان تفهم
أو تعرف لماذا يقصدك الناس بهذه العرائض
فوقفت حائرا لا تدري ماذا تقول لهم ولا كيف تنفذ
من حصارهم ، إلى ان جاء الكبران بجسمه الضخم
يدفع عنك الزحام ويشق لك طريقا بينهم، تدخل منه
إلى الفندق ويسألهم الانتظام والوقوف في طابور
أمام مكتبه ، ثم ادخلك المكتب واضاء فانار الغاز
وبدلا من الكلام ، اخرج صحيفة" الرقيب العتيد" وأشار
إلى خبر في الصفحة الأولى

جاء فيه ان صحيفة الكورييري، الصادرة في روما
نشرت خبرا لمراسلها في طرابلس، قال فيه، بان
الحاكم العام ، وبسبب حرصه
على تفقد احوال المواطنين ، تنكر في ثياب تاجر مغربي
وزار المدينة القديمة ، وشاهد معالمها الاثرية والدينية
ووقف على الاحوال المعيشية لقاطنيها من عرب واجانب
صحبة احد العاملين الليبيين بادرته

واصدر اثر هذه الزيارة مجموعة قرارات تستهدف
تطوير المدينة القديمة ، وانقاذ بعض مآثرها المعمارية
وتلبية احتياجات أهلها

جاء الخبر الذي يكشف للقراء سر هذه الزيارة
ليقتل اسطورة الساحر المغربي القادر على اجترار
المعجزات وينفخ الروح في اسطورة جديدة هي انت
فقد استطاع الناس الذين ربطوا سابقا بينك وبين الساحر
ان يربطوا الآن بينك وبين بالبو باعتبارك كنت دليله

ومرافقه في الرحلة التي هيبط فيها من مكانه العالى
بين الشهب والافلاك الدائرة في السماء
إلى اروقة المدينة القديمة
وما هذا الحشد من طالبي المصالح والهيئات
الا الفوج الأول ، الذي ستتبعه افواج جديدة، كما
أخبرك الكبران وهو يعبر عن اسفه لأنه لم يكن يعرف
المكانة الرفيعة التي تتمتع بها لدى صاحب الأمر والنهي
في البلاد ويتم نفسه بالغفلة ، عندما غاب عنه ان وجودك
في فندقه المتواضع ، لم يكن الا من أجل مهمة كلفك
بها الحاكم وهي رصد احوال الرعية ممن جاء بنفسه
فيما بعد يتققد احوالهم ، ويشاهد عن قرب طرائق معيشتهم
وتحت الحاج الجمهور ، خرج الكبران من مكتبه يأخذ منهم
بقية العرائض والالتماسات ويعددهم بان الحاكم العام
سينظر في امرها بحيث لن يمضي أسبوع واحد
حتى تكون كل حاجاتهم قد قضيت وكل مشاكلهم المرفوعة
اليه قد حلت باذن الله وبمساعي صديقه الموجود
في هذا الفندق
استطاع ان يصرفهم ويعود اليك سعيدا
لأنه انقذك مؤقتا من زحام هؤلاء الفقراء
مبديا استعداداه لأن يكون في خدمتك ، مديرا لاعمالك
فهو ماهر في التعامل مع الحشود الكبيرة من الناس
بسبب خبرته في العمل رئيس عمال بالميناء
شرحت له الحقائق التي غابت عنه
فانت مجرد سائق يتبع الحكومة
وانه لا علاقة لك بالحاكم العام ومكتبه
وان الصدفة وحدها جعلتك ترافقه اثناء الزيارة
لأنه احتاج لدليل من عامة الناس يعرف شوارع المدينة
القديمة ، وسواء صدق الكبران ما قلته ام لم يصدقه
فقد افهمته حقيقة من تكون وخرجت
في الصباح صحت على صوت بكاء أمام غرفتك

وفتحت الباب فوجدت اثنتين يجهبان بالبكاء
هما عبد المولى الشحاذ ، ونورية التي لم ترها منذ
أكثر من شهر ونصف ، عندما نشب عراك بينك وبينها
أجلست نورية فوق السرير ، وسألتها ان تتوقف عن البكاء
لتستطيع ان تتبادل معها الحديث وتعرف السبب الذي إكأها
اما الشحاذ فقد ظل يتوسل ان تنقذه من الاعدام
لأن ما قام به من مضايقات للحاكم العام
وما قاله له من كلام عن نهبه لكنوز البلاد
سيعرضه لا محالة للاعدام
وهو يسألك بحق القرابة التي بينكما أن تتدخل لإنقاذه
من حبل المشنقة فهو لم يفعل ما فعله الا من أجل
ان يجلب الخير لك ولنفسه
عندما ظنه حقا شريفا مغربيا يفتح الكنوز بينما شاء حظه التعس ان يكون المارشال باليو
ولا احد غيره ، ولكي تنتقم من كل المضايقات التي
سببها لك نتيجة جهله وحماقته
قلت له بلهجة جادة :

— في الحقيقة فانك سوف تعدم مرتين ، الأولى من أجل اتهامك
للحاكم العام بالتهب زورا وكذبا ، والثانية لأنك اعترفت أمامه
بالصبي الزنجي الذي ستشرع في ذبحه، ونصيحة من صديق
يريد لك الرحمة، هي ان تقرأ الفاتحة على روحك منذ الآن .

وعندما رأيته يصدق ما قلته له، ويمعن في نحيبه وتوسلاته
افهمته ان ما تقوله مجرد مزاح ، وان عليه ان يكف عن البكاء
ويمتنع عن قول هذه الترهات ، لأن الحاكم العام لديه اشياء أكثر
اهمية وخطورة ، ينشغل بها غير حماقات رجل مثله
لم تكن نورية تعرف انك ما تزال في البلاد
الا عندما التقت البارحة بالشحاذ ، وأخبرها انك انت صاحب
الساحر المغربي ، الذي يتحدث عنه الناس
ثم اتضح فيما بعد انه ليس الا الحاكم العام المارشال
باليو نفسه .وانك انت من كان وراء نقل بنات سيدي عمران

إلى الأحياء الجديدة الراقية
ولذلك فهي فخورة بك ، سعيدة بانك لم تذهب إلى الحرب
وإنه أصبحت لك هذه المكانة الكبيرة في أعين الناس
وما دموعها إلا دموع الفرح لأنها أخيرا عثرت عليك
واهتدت إلى مكانك بعد أن ظننتك تعيش في المخاطر
والأهوال تحارب الحبشان ، وهي تعرف أنها أخطأت
في حقك ، عندما طلبت منك أن تبقى معها ، لأنها تدرك
الآن أن مقامك ليس مقامها ، وإنك تنتمي إلى طبقة راقية
ليس من حقها أن تتطلع إليها ، فالعين لا تعلق على الحاجب
مهما كان مقدار حبها لك ، وهي تريد أن تطمئن بأنها
لن تعود إلى المطالبة بأن تعيش معها ، راضية أن تقضي
بقية حياتها مع مغنيات الأعراس ، وإن تكون دائما
رهن إشارتك متى أردت قضاء وقت معها
كل ما تطلبه منك ، أن تعطف عليها كما عطفت على بقية
نساء سيدي عمران ، اللاتي انتقلن إلى بيوت جديدة
فهي الأولى منهن جميعا بمثل هذه الخدمة ، باعتبارها
صديقة قديمة لك ، وتنتقل اليك تحيات شريفة ، وبقية
زميلاتهن اللاتي يتوسلن اليك ألا تبخل عليهن بهذه الخدمة
كما أنها تحب عندما تزورها ، أن تكون زيارتك لها في مكان
انيق جميل ، يليق بمقام رجل مثلك ، صار الناس
يعتبرونه الرجل الثاني في البلاد
انفجرت ضاحكا
واصلت الضحك بقوة
الرجل الثاني في البلاد
ولم لا ؟
الأمر لن يحتاج إلى مرسوم يصدر من الملك فيتوريو إيمانويل
مع توقيع مشترك لرعيم الحزب الحاكم الدوتشي بينيتو
موسيليني ، لكي تكون النائب للحاكم العام لليبيا
يكفي أن نقول ذلك امرأة من سيدات سيدي عمران اسمها نورية
وشحاذ مثل عبد المولى

الم يكن الكبران ليلة البارحة بضعك في مثل هذا المقام العالي
الذي وضعتك فيه حشود من المراجعين واصحاب الشكاوى قبله
وانت تستنكر وتنتفي عن نفسك هذا الشرف
فلماذا هذا الاستنكار؟ لماذا تخلع عن نفسك رداء القوة والسلطة
الذي يريد ان يلبسك اياه هؤلاء البؤساء؟
لماذا لا تتركهم يستمتعون بوضعك في أي موقع يشاؤون
وانت تستمتع مثلهم بالنتائج؟
انك انت نائب المارشال بالبو، وستكون كذلك في أعين
هؤلاء الناس ، طالما استجبت لما يقولون دون احتجاج أو غضب أو مقاومة ، وستجني فوائد
المكان العالي الذي يضعونك فيه
دون ان تتحمل تبعاته
ضحكت كثيرا وسط دهشة نورية وعبد المولى
لأنهما لا يعرفان سبب هذا الانفجار الضاحك الذي اصابك
ثم سرت اليهما العدوى ، فتحولا هما أيضاً من البكاء إلى الضحك
ها انت ذا تجني أولى ثمار هذا المقام العالي
عندما تنازلت المرأة التي أوقعت في قلبك الرعب
بسبب تهديدها لك بالملاحقة ، عن كل ما تدعيه
من حقوق في امتلاكك وجاعت ذليلة ، مطيعة ، راضية
بنصيبتها وحياتها بعيدا عنك
وأقصى امالها زيارة منك ، في بيت نظيف يليق بمقامك الرفيع
بعد ان رأتك من خلال أوهام القوة والسلطة
لم تشأ ان تخيب ظنهما فيك ، أو تنكر أمامها انك حقا
الرجل الثاني في البلاد، بل عززت هذا الظن بمبلغ
كبير من المال اخرجته من الظرف الذي معك ، واهديته لها
كما نفحت الشحاذ مبلغا مماثلا وسألته الا يأتي لزيارتك
الا اذا نزع عنه هذه الاسمال العفنة وارتدى ملابس
نظيفة . اخرجت نورية من تحت لحافها عريضة تحمل بصمات
رفيقاتها في البيت ، يطبلن باسم الفن ، ان يتعطف الحاكم العام
باعطائهن بيتا آخر، ينتقلن اليه ، بدل البيت الذي يقمن
فيه الآن والذي لم يعد صالحا للسكن ، يتهدده الانهيار

في أي وقت ، وعندما سالتك وهي تسلمك العريضة
الا تتأخر في زيارتها ، ابديت خوفك من مثل هذه
الزيارة ، قائلا بان حالة البيت كما تقول العريضة ترسل
الرعب في قلب رجل مثلك لا يملك شجاعة نساء
أهل الفن ممن يقمن في هذا البيت فقالت ضاحكة:
— وهل صدقت حقا ان البيت يوشك على السقوط ، انه امتن
من قصر بالبو نفسه ، ولكنه كلام عرائض .
ومتأبطا الملف الذي احتوى كل ما استلمته من عرائض
وشكاوى والتماسات ، ذهبت إلى حورية ، تضع أمامها
حصيلة يوم واحد من هذه الأوراق ، وتسال عما
إذا كان الخبر الذي نشرته
الصحيفة الليبية ، نقلا عن صحيفة إيطالية ، قد نشر
بمعرفة الحاكم العام ورضاه حقا ، لأنه حسب
علمك ، كان حريصا على
إبقاء الزيارة في إطارها السري ، قبل وبعد حدوثها
وكان جوابها هو نعم ولا ، و تفسير ذلك انه من عادة
الحاكم العام ان يحيط نفسه بعدد كبير من الصحفيين
ولن يكون غريبا ان يعرف احدهم بخبر الزيارة ويقوم بنشره
دون الرجوع إلى الحاكم العام
فهو لم ينشر بمعرفته إلا أنه لم يكن غاضبا لهذا النشر
فابلغتها بأن هناك نتائج وتوابع ترتبت عن هذا الخبر
من بينها ان الناس صاروا يقصدونك بتظلماتهم وعرائضهم
يريدون منك رفعها اليه ، باعتبارك المرافق
الذي شاهده معه اثناء الزيارة وهو ما يضعك في موقف حرج
كانت حورية ترتدي قميصا قطنيا سماوي اللون
باكام قصيرة وتنورة بيضاء محبوكة حول جسمها
تزيد خصرها ضمورا وتبرز جمال استدارتها الخلفية
وتكشف أيضا عري وجمال ساقها
بمثل ما اعتصر القميص النصف الاعلى من جسمها
واظهر فتنة واستدارة نهدتها وكشف عن بهاء ذراعيها

اللذين ينسابان في عريهما كجدولين يترقرقان ببهجة
الحياة وفرحتها

جلست حورية تغلب العرائض وتنتظر اليها بفضول
دون ان تستطيع قراءة حروفها العربية ، فسألتك
ان تقرأ عليها نماذج منها

فافهمتها بانك قرأتها جميعا أكثر من مرة
وتستطيع ان تعطيها فكرة عن محتوياتها

فهناك ارملة مازالت تنتظر المستحقات المالية لزوجها
الذي مات في الحرب مجندا مع الطليان منذ اعوام

وامرأة أخرى حكمت لها المحكمة بتعويض لم تستلمه
بعد ان فقدت زوجها اثناء العمل في توسيع وتعميق الميناء
وعامل يشكو صاحب مزرعة إيطالية طرده من العمل

دون ان يصرف له حقوقه ، ووالد يلتمس من الحاكم العام
ان يطلق سراح ابنه السجين دون ذنب عدا انه حاول

ان ينشيء جمعية لعمال الميناء ، وطلبات أخرى يطلب
اصحابها الانتقال من الخرابات القديمة التي يسكنونها
إلى المشاريع الاسكانية الجديدة

— لماذا تبدو محرجا مما حدث ؟

— اخشى ان يظن احد الناس انني اغتصب دوره

أو انني ابحت عن دور ليس لي ، ولهذا جئت مسرعا

ابلغك بما حدث واسالك عن الجهة التي ابليغهم بالذهاب اليها .

— عادة ما يذهب الناس بمثل هذه الطلبات إلى شيوخ القبائل
والمحلات ، أو إلى الكومندان بشير الغرياني ، وتأخذ دورة

طويلة قبل ان تصل إلى علم الحاكم العام .

— انن فاحساسي بالخرج له ما يبرره مادام هناك اناس

موكول لهم هذا العمل .

— سنحاول ان نرفع عنك هذا الحرج .

قالت حورية كلمتها واتجهت إلى جهاز الهاتف في آخر

الصالة ، حيث تبادلت بعض الكلمات مع من كان على

الطرف الثاني . ما ظهر من فتنتها وهي واقفة

أو جالسة ، صار الآن اعصارا
والجسم كله يتزرجج ويتلألأ ، وتتفت دوائره
الأثنوية اغراء مهلكا اثناء سيرها السريع إلى مكان
الهاتف وعودتها منه

— لا ادري كيف اعبر لك عن اسفي .
ظلمت تتأمل البراهين الحية للاعجاز الالهي متمثلا في جمال
هذه المرأة السامقة ، التي تتحرك برشاقة واناقة أمامك
دون ان تنتبه إلى فحوى الجملة التي قالتها
اقتضاك الأمر بضع لحظات تعود فيها من توهانك لنقول :
— لماذا الاسف لا سمح الله؟

— لأنك في هذه الدقيقة فقدت وظيفتك كسائق معي .
نهضت واقفا بعثريك شعور بالغضب والمهانة:
— هل ما فعلته كان جريمة استحق عليها الفصل من العمل ؟
— أجلس لاشرح لك ، لأن ما قلته كان نصف الحقيقة ، ونصفها
الثاني يقول بان المارشال وافق على الوظيفة التي اختارها
لك الناس .

ورغم ما قالته من تطمينات ، فقد سألتها ، وانت تعود
إلى الجلوس ، مهيبا نفسك لسماع ما هو اسوأ من الفصل :
— واية وظيفة هذه ؟

— لقد أصبحت منذ هذه اللحظة الموظف المسئول عن
مكتب شكاوى المواطنين ، وستباشر عملك
من قصر الحكومة ، مبروك .

— هل هو مزاح ؟
— وهل هناك مزاح في تولي مثل هذه المسئوليات الخطيرة
والكبيرة ؟ فف لتتقبل تهنئتي .

انتصبت واقفا كما وقفت هي ، واحاطتك بذراعيها العاريتين
فشعرت كانك داخل طوق من نار
وزادت النار استعارا عندما ادنت وجهها من وجهك تقبلك
على وجنتيك ، فاخذت رأسها تقبله ، وتقبل جبينها
ثم اخذت يديها تقبلهما امتنانا وعرفانا بالجميل

- _____ ان هذا أكثر مما استحق .
- _____ انك تستحق أكثر منه، وستأله باذن الله . عندما اقترحت تعيينك في هذه الوظيفة، كان لي مصلحة انا أيضاً لأنني لا اريد عند ارتباطي بك ان ارتبط بسائق وانما برجل يحتل وظيفة اكبر كثيرا من ذلك .
- _____ نعم .
- _____ اريد لأولادي ان يفخروا بان والدهم صاحب وظيفة سامية في الدولة .
- _____ باذن الله .
- _____ الامور هكذا تأخذ وضعها السليم .
- _____ أكثر ما اسعدني في هذه الوظيفة هو احضانك وقبلاتك وأكثر ما بحزنني فيها ، انها ستحرمني من متعة الدوام أمام عتبات بيتك .
- _____ لا اريدك ان تتخلف عن المجيء إلى هذا البيت يوما واحدا ليس هذا ما اقله انا وحدي، بل الحاكم العام نفسه يأمر بذلك ، لأنك قد لا تستطيع ان تراه أو تلتقي به هناك وستجد موظفا اداريا يرأسك ويستلم منك الشغل دون ان تعرف النتيجة ، ولذلك فسأتولى مساعدتك بطريقة غير رسمية ، خاصة مع الحالات التي تحتاج إلى تدخل شخصي من الحاكم العام .
- _____ هذا شيء بديع .
- _____ انها علاقة عمل ، وسيتوقف الأمر عليك فيما بعد اذا اردتني ان استمر أو لا استمر .
- _____ ماذا تقولين ؟ كيف يمكن ان اسألك التوقف عن مساعدتي في حل مشاكل الناس .
- _____ اعني بعد ارتباطنا ، لأنني لن افعل شيئا لا تريده انت ولن اقوم بعمل لا يكون موضع رضاك .

مرة أخرى تترك موضوع الارتباط الذي تريده حورية معلقا في الهواء دن أي تعليق منك ، لا سلبا ولا ايجابا

لا تقول لها نعم واضحة صريحة ، ولا تقول لها لا اريد
ارتباطا كهذا الارتباط ، كما فعلت في وقت مضى مع نورية
وستتركه معلقا إلى أقصى وقت تستطيعه
لم يكن امرا مفاجئا ما قالته حورية عن الارتباط شرعا بك
فهذا ما لمحت له كثيرا قبل هذا اليوم
التطور المفاجيء حقا هو هذا العمل الجديد، الذي لم
تكن تتوقعه حتى في الأحلام . موظف في بلاط
السلطان . انك لم تدخل في حياتك قصر الحكومة، بل تتهيب
مجرد المرور بجواره بشكله المهيمن على الميدان
الرئيسي في المدينة وهو ميدان إيطاليا ، كبيرا، مهولا ، يمثل
قلعة جديدة كبيرة اضافها اباطرة العهد الإيطالي بليبيا ، إلى القلعة
القديمة التي بناها اباطرة التاريخ ، وجاء بالبو يفتح القلعتين
بعضهما على بعض ، بجسر يقيمه بينهما ، ليربط الماضي
بالحاضر وتراث الامس ، بانجازات العصر ويجمع المجد
من طرفيه التليد والحديث
فما الذي ستفعله حقا في مثل هذا المكان ؟
احسست بالخوف من خطورة المسؤولية
لا بد ان حورية بالغت كثيرا في وصف مهارتك للحاكم العام
من أجل ترفيعك من خانة السائق إلى خانة الموظف الحكومي
لأنها وهي تفكر في الارتباط الزوجي بك
لا تريد ان ترى زميلاتها السابقات في مستشفى كانيغا
يتهايمن بانها تزوجت من سائق
لن يمضي وقت طويل ، قبل ان يكتشفوا حقيقة
مستواك العلمي
وانك لا تملك شهادة ولا تحصيل ، عدا الاعوام التي قضيتها
في الكتاب ، وان حصيلتك من اللغة الإيطالية
لا تزال ضئيلة جدا خاصة في مضمار القراءة والكتابة
والأولى بك ان تنقادي الفضيحة منذ الآن
وترفض الانتقال من العمل الذي تقوم به
فانت سعيد بعملك سائقا مع حورية ولا تريد عملا سواه

ولن تجد راحتك في موقع غيره، قلت لحورية هذا الكلام
ورجوتها ان تصرف النظر عن تعيينك في الوظيفة
الجديدة ، والإبقاء عليك في خدمتها ، سائقا يلبي كل ما تأمره به
وحورية لا تعطيك جوابا ، غير الضحك والسخرية مما تقول
لأنها لا تصدق ان هناك إنسانا ، يرفض تحسين مستواه
المعيشي والوظيفي والانتقال إلى مراتب اعلى في الحياة
والمجتمع . انها تريدك ان تكون إنسانا قويا، طموحا، قادرا
على ركوب الموجة العالية دون خوف، ولم تكن تخفي، وهي
تقول لك هذا الكلام ، افتخارها بانها هي التي اضاءت
انجم السعد في سمائك ، وانها ستظل دائما ترعى مسيرتك
وتفتح أمامك ابوابا جديدة من ابواب السعادة والنجاح
ولم تكن تعلم ان زيارة بالبو التي فتحت أمامك
هذا الباب للنجاح والارتقاء الوظيفي
يمكن ان تفتح أمامك أيضا بابا للشر والالم
فقد تصادف اثناء عودتك إلى الفندق ليلا ، ان مررت
بجوار سوق الحدادين ، الذي كان شديد الاظلام
ليس فقط بسبب حوائيته المقللة وغياب النور فيه
وانما أيضا بسبب جدران السوق السوداء وأرضه الاشد سوادا
من اثر الدخان والرماد والسخام
وفوجئت عندئذ بيد تشدك إلى الزقاق ، وثلاثة رجال
لم تستطع ان تنبئ في الظلام ملامحهم ، يتناوبون
على تسديد الصفعات واللكمات لكل موضع
في جسمك ، ناعتين اياك بالفاشستي الحقير ، قائلين
بان هذا جزاء من يأتي
بالحاكم الإيطالي إلى المدينة القديمة ويدخله
إلى حرم جامع الناقة ، وحرم جامع قرجي
ليدنس هذه الاماكن المقدسة
وتوافق وانت تطلق صرخات الالم ، مرور سيارة شرطة
من الطريق الرئيسي ، فخاف المهاجمون، وتركوك طريحا
فوق الأرض الموحلة السوداء، واختفوا في الظلام

لم تقف سيارة الشرطة ، ولم تبذل انت أي مجهود
لملاحقتها بالصراخ حتى تقف ، تحاملت على نفسك
ووقفت تسند ظهرك إلى الحائط تئن وتتلوى
من شدة الالم ، وقد تلوثت ملابسك بالوحل
والرماد . فضلت ان تبقى فترة اطول
فلا تعود إلى الفندق الا بعد ان تهدأ الحركة ، ويمضي
جميع أهل الفندق إلى النوم ، بما في ذلك الكبران وندماوه
لم يترك الهجوم آثارا ظاهرة في جسمك
عدا تورم بسيط جدا تحت العين اليسرى
ولكنك صحت في اليوم التالي منهكا ، تحس بالآلام
الرضوض والكدمات طوال اليوم
ابقيت الباب مغلقا لكي تعطي انطبعا لمن يسأل عنك
بانك خارج الفندق ، وقضيت نهارا كاملا مع نفسك
ممددا على السرير ، غاطسا في سحب الهولاجس
والأوهام . لن تقيم اعتبارا لهذا الحادث الذي تعرضت
له البارحة . لن تبحث عن الفاعلين أو تشكوهم إلى الحكومة
لأن ذلك سيكون تشهيرا بك ودعاية تقدمها للمتطرفين
الذين ارادوا ايذاءك
لقد رأوا في الزيارة التي قام بها بالبو إلى المدينة القديمة
اعتداء على حرمتهم ومقدساتهم
بينما لم تكن في الحقيقة غير باب من ابواب الرحمة
منحه الله لعدد من البؤساء ، لكي تنتشلهم تلك الزيارة
من بؤسهم ، فما الذي اغاظهم وأوقد مراحل الغضب
في قلوبهم ضدك ؟ من كان غيورا حقا على الوطن
واراد ان يسجل اعتراضه ورفضه ، فليعرض ويرفض
المبدأ نفسه . مبدأ وجود حاكم اجنبي ، وحكومة
استعمارية في البلاد
هذا هو الرفض الذي تستطيع ان تفهمه ، والذي دفع الناس
في زمن مضى لمحاربة الطليان حربا استنزفت قواهم
وقضت على الأخضر واليابس من املاكهم

فالقوا بعد ذلك السلاح يائسين مستسلمين لمشينة الاقدار
فاذا ما رأى فصيل من الناس ، بعد مضي هذه السنين
انهم استعادوا قوتهم ، وصاروا قادرين على استئناف
الكفاح ، فليكن كفاحا حقيقيا، كالذي شهدته سهول
وجبال وسواحل هذا الوطن على مدى عشرين عاما
يقوم به رجال يحملون السلاح ويمتنطون صهوات
الخيول ويغيرون على مراكز جيش الغزو ومعسكراته
اما الاغارة على مواطن ليبي لا يملك من امره شيئا
في زقاق مظلم من ازقة المدينة القديمة
واعتبار ذلك جهادا فهذا هو العته بعينه
والخطأ طبعا خطأك انت، عندما لم تطالب الإبقاء
على مسدسك معك ، بعد ان كلفت بالعمل في مهمة مدنية
لأن اطلاقه واحدة في الهواء كانت كفيلة بانزال الرعب
في قلوب أولئك الجبناء الأوغاد
صوت الحاكي يتأهى اليك من الطابق الأرضي
كجزء من ضجيج العالم الخارجي ، الذي تألفت معه الاذن
فصار مجرد غلاف لهذه الهواجس التي تسيطر على الذهن
وتحتل مركز استقطابه واهتمامه ، إلا أن اغنية
واحدة اخترقت حاجز الروتين ، واستحوذت على
اهتمامك

— عشان ما نعلی ونعلی ونعلی

لازم نطاطي نطاطي نطاطي

هناك خطأ في البناء اللغوي للاغنية ، فلا يصح ان يكون

عدد كلمات نطاطي موازيا لعدد كلما " نعلی "

لأنه لا وجود في الحياة لمثل هذا التكافؤ والتكامل

بين الركوع والارتفاع ، فلكي نعلو مرة لا بد ان ننحني

الف مرة . لم نستطع ان نقول شيئا لحورية عن الزواج

الذي نتحدث عنه دائما باعتباره من المسلمات، احببت رأسك

وبقيت صامتا ، في حين كان لديك كلام كثير ، وددت ان تقوله

لها ، من منطلق الحب والاحترام، لأنك لن تجرؤ اطلاقا على

ايذاء مشاعر امرأة عاملتك بكل هذا العطف والحدب
والرقة والنعومة ، كلام لا يؤذيها، وفي ذات الوقت
يجنبك التورط في شيء لا تريده ولا ترضاه
وهو ان حياتها تسير في مسار جميل لا يحتاج
لاي تعديل ولا تغيير، وما بينها وبين عشيقها الحاكم
من ترتيب جميل ، لا يجب افساده باية ترتيبات أخرى بديلة
لن تضيف اية سعادة للسعادة المشتركة التي يعيشانها
تقول انها تريد طفلا ، لأن الاطفال في تقاليد المجتمع الليبي
لا يأتون الا عن طريق الزواج ، ولكي تحصل على الطفل
لا بد ان تحصل على الزوج أولا
ليكن ما تريده مشروعا ومعقولا، افلا يمكنها تأجيل
الموضوع طالما هي سعيدة ، في كف السيد الحاكم
العام ، لبضعة اعوام قبل ان تفتح هذا الباب ، الذي
يمكن ان يعصف بكل الاسس التي بنت عليها حياتها
في الوقت الراهن
دون ان تعرف ما يأتي به المجهول ؟
قد توافق انت على عرض الزواج أو لا توافق
ليست هذه هي القضية الآن ، القضية قضيتها
هي والحاكم العام، فننقل انها وجدت رجلا مثلك ينتمي إلى
دينها ، وبلبي شروط الشرعية التي تبحث عنها
وانفقت معه على الزواج ، فماذا سيكون شأن المارشال ؟
هل سيذهب بعيدا ، ويتركها تتدبر حياتها مع الزوج ؟
الن تذهب بذهابه الحياة المترفة التي تعيشها
والتي لن يستطيع الزوج تعويضها ؟
اذن كيف يمكن ضبط هذه المعادلة ؟
لا يمكن ضبطها الا بحل واحد، هو ان يتم الزواج بالرجل
الذي يؤمن لها طفلا شرعيا مطابقا للمواصفات
التي يريدها المجتمع دون حاجة إلى غياب المارشال، فهو
سيبقى حاضرا مع حضور الزوج
وستبقى معه الحياة اللذيذة

هذا هو الحل الامثل ، الذي يوافق السنيورة حورية
وهو ما يجب ان يقبل به الرجل الذي اصطفته للمهمة الجليلة
وهكذا تكون لعبة التوازنات قد حققت غايتها
وجلال الامومة سيمحو بالتأكيد صورة المرأة التي نحيا
رذيلة الحب المحرم ، والعلاقة الشرعية مع الزوج
ستكون بالتأكيد غطاء جميلا للعلاقة غير الشرعية
مع المارشال
— عشان ما نعلى ونعلى ونعلى
لازم نطاطي نطاطي نطاطي
هذه الشراكة بين المارشال والزوج في بساتين
ثريا الالهية العامرة باشهي الغلال ذات النكهة الفردوسية
سيترتب عليها بالتأكيد صداقة
بين الاثنين ، وسيجني من ورائها الزوج مكاسب وصلاحيات
وثروات ، وسيصدق عليك لو قيلت بان تكون هذا الزوج
ما تقوله نورية وغيرها من بسطاء الناس ، وهو انك
الرجل الثاني بعد الحاكم العام ، ولكن في عالم حورية
المضمخ بعبير الفتنة والجمال
توقف الحاكي عن الغناء علامة على ان الليل
وصل إلى منتصفه ، ومضى آخر الساهرين إلى مضجعه
وبقى المجال لموج البحر وحده ، يأتي هديره قويا
كأنك تسمعه لأول مرة ، مع انه كان دائما موجودا
الليلة وفي كل الليالي ، بمفرده أو مندغما في الاصوات الأخرى
ربما لم تكن تسمعه بهذه القوة والوضوح
لأنك لا تأتي هنا عادة الا لكي تنام، اما هذه الليلة
فقد اختلط فيها الليل بالنهار ، واختلطت أوقات النوم بأوقات اليقظة ووجدت نفسك في هذه
الساعات التي تعقب منتصف الليل
صاحبا تستقبل هذا الهدير الذي انتقل بكل عنفه وقوته
من البحر إلى رأسك ، ومن لغة الموج الصاخب، الغامضة
إلى لغة تجيد التعبير عن قوة المشاعر في تلاحمها
واصطدامها ببعضها البعض ، ارتفاعا وهبوطا

تحاسب نفسها والعالم الذي حولها، وتعيد مناقشة المفاهيم التي طال اجترارها ، عن الشرف والخسة ، الشهامة والندالة ، الخيانة والوطنية، الكذب والصدق، الحق والباطل المكسب والخسارة، القوة والضعف، والشياطين والملائكة اخترق هدير الموح وهدير المشاعر، طرق على الباب نظرت إلى الساعة على ضوء الذبالة التي تركتها مشتعلة فإذا بها الواحدة . من هذا الذي يأتي ليطرق باب غرفتك في هذه الساعة ؟ لعله واحد من أولئك المجانين المتطرفين تسلل مع الظلام لاتمام مهمة لم يعرف كيف يكملها ليلة الامس . فكرت ان تتجاهل الطرقات، حتى يظن صاحبها انك لست موجودا إلا أن هذا لن يفيدك كثيرا، لأنك انت أيضاً تريد ان تعرف من يكون هذا الطارق وماذا يريد ؟ سألت بصوت يمازجه التثاؤب ، كأنك صحويت للتو من النوم: — من انت ؟ — افتح يا عثمان انا الكبران . فتحت الباب، ورأيت في الضوء المعتم ، انه لم يكن وحده وانما جاء يصحب نورية معه : — منذ متى وانت هنا ؟ فقد جاءت هذه المرأة منذ المغرب تسأل عنك ، فقلت لها انك لم تعد ، وسألتها ان تنتظر ومنذ تلك اللحظة وهي تنتظر دون ان يعرف احد انك موجود بالغرفة . لم يكن ممكنا ان اتركها تعود بمفردها عبر الشوارع المظلمة في ساعة متأخرة من الليل فاستبقيتها حتى انتهى العمل ، ثم سألتها ان نتأكد انك لست في الغرفة، فكيف جئت ومتى ؟ هل كنت ترتدي طاقية الاخفاء؟ — هيا تفضلا . — تعلم ان الزيارات النسائية ممنوعة ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، هيا تصبحان على خير . مضى الكبران بعد ان اعطاك هذه الرخصة التي لم يعطها لاحد غيرك ، وصار بامكان نورية التي انتظرت طويلا عند مدخل

الفندق ، ان تعوض الانتظار بقضاء هذه الليلة معك
لم يكن ممكنا لاي زائر في مثل هذا الوقت
ان يلقى منك قبولا وترحيبا الا امرأة مثل نورية
زدت قوة الاثارة في مصباح الغاز، وسألته ان تدخل
كانت في يدها صرة عرفت انها تحتوي طعاما
جاءت به اليك ساخنا، وأصبح الآن باردا
صحن من الكسكسي المطبوخ بانواع متنوعة من الخضار
تعلوه قطعة كبيرة من اللحم ، ستأكله حتى وهو بارد
ستأكله شاكرا ، لأنك تحتاج اليه ، فانت لم تذق طعاما
طوال اليوم، عدا حبات قليلة من النمر
لم يكن هناك غير السرير الفردي الصغير، لأنك وانت تؤجر
الغرفة لم تكن قد وضعت أي اعتبار لافراح الجسد
اريتها حجم السرير ، وقلت لها بان عليها اذا ارادت البقاء
ان تتحمل نوما تختلط فيه الاذرع والسيقان
نزعت الرداء التي كانت ترتديه ثم الفستان، وبقيت في الغلالة
الحريرية التي تحته، ثم دخلت تحت الشراشف ، وعندما
حاولت ان تدس جسمك بجوار جسمها لم تستطع ، فنهضت
هي واقفة تاركة لك المكان
— وانت اين تنامين ؟
— سأنام هنا .

وبخفة ورشاقة الفت بجسمها فوق جسمك
استيقظت اثناء احوائك لها ، كل اللكمات التي تلقيتها البارحة
وازداد الالم مع ازدياد اهتزازات السرير وسرعة حركته
ارتقاعا وهبوطا ، إلا أن الالم لم يكن الما خالصا
وانما بخالطه مقدار كبير من اللذة
قمت منتعشا في الصباح . صحن الكسكسي برغم برودته
كان حراقا بسبب ما وضع فيه من بهارات ، اعقبته صحن ساخنة
من الحب في شكله الأرضي الجسدي، الذي لا تخالطه الهواجس
والظنون . جددت ليلة الحب مع نورية دورة الدماء في عروقك
وكانت بلسما لجراح الجسم والروح

فخرجت للشارع والتحمت بهديره الصاخب
وانت مهياً للدخول في دورة أخرى عامرة ، شأنها شأن كل دورة
من دورات الحياة ، بالعبث
والمفاجأة هذه المرة، انك لأول مرة ، تحصل على ترقية
لم تسع اليها ، ووظيفة اكبر من كل توقعاتك، تأتي اليك
من وراء الافق، دون أي دخل لجهدك وارادتك في تحقيقها
ذهبت فيما مضى ، بمحض ارادتك إلى الجيش . حفرت الصخر
باطافرك حتى حصلت على الترقية ، التي تحررت بها من ربة القطيع ونفذت بفضل الجهد
الذي بذلته ، من روتين العسكرية ، إلى وظيفة
السائق المؤقت ، ثم توج الله مساعيك بصدور قرار التأجيل
الذي انجاك من الذهاب إلى الحرب ، وهو القرار
الذي لم ينله احد من رفاقك ، كما استطعت بالمتابعة، والتفاني
في العمل ، ان تفوز برضا السنيورة حورية التي قبلت
بك سائقاً رسمياً لديها ، كان هذا هو سقف أحلامك وامانيك
اما الآن وربات الحظ السعيد، نسوق اليك وظيفة كبيرة
في مقر قصر الحكومة ، فانك تبدو مرتبكا ، خائفا
لانك لم تتوقع هذه الوظيفة ، ولم تكن ضمن ما تطلعت
للولصول اليه في هذه المرحلة من عمرك
وها انت تمشي إلى قصر الحكومة مترددا، دون حماس
وتبحث عن اسباب تقنع بها نفسك ، وتثبت لها جدوى
هذا العمل ، تتجاوز شخصك والمنافع التي تعود عليك، فربما
استطعت بواسطة هذه الوظيفة، خدمة البؤساء والمحتاجين
من أبناء قومك
هكذا نقول للهاجس الذي بهجس لك بانك تسير فوق أرض
خطرة ، إلا أنك لست مقتنعا بهذا المنطق ، فقد اسقطت
من حسابك ومنذ وقت مضى ، فكرة خدمة الآخرين ، باعتبارها
نوعا من خداع النفس في مثل هذا الأزمنة ، وتحت مثل هذه
الشروط التي غالبا
ما يعجز فيها الإنسان من أهل البلاد عن خدمة نفسه
فلماذا الأوهام والكذب على النفس وعلى الآخرين

هذا ما تقوله حقائق الحياة ، وهي التي تقول أيضاً
ان ايتالو بالبو في المحصلة النهائية، لم يأت الى هذه البلاد
موفدا من زعيمه الدوتشي لخدمة الليبيين
أو رفع البؤس عنهم . انه هنا لخدم سياسة بلاده الهادفة
لتوطين الإيطاليين في هذه الأرض، وتأمين مستقبلهم
لا مستقبل احد غيرهم ، ومهما ظهرت منه بعض الومضات
هنا وهناك ، فهي كالبرق الكاذب، لن يصنع غيثا يصب الأرض
وينبت فيها العشب ، ويحيل لونها الاشعث الاغبر
الى لون أخضر ، فالقول المأثور عن المحتلين ، يبقى صادقا
في هذه الحالة ، كما كان صادقا قبل ذلك مع المحتلين الاثراك
أو الاسبان ، وهو انهم حيث يمرون لا ينبت العشب بعدهم
دون ان تنتبه الى المسافة التي قطعها ، وجدت نفسك
أمام قصر الحكومة، فاستدرت مذعورا، كأن هناك
ضبعا ينتظرك ليهجم عليك
عدت ادراجك مسرعا ، مبتعدا عنه
رأيت وائت تصل أمام القصر اناسا كثيرين يدخلون
ويخرجون ، بعضهم عسكريون لهم رتب ، ونياشين
وبعضهم موظفون لهم هبة ووقار، يرتدون الملابس
الفاخرة ، ويركبون السيارات
التي يقودها سائقون، يفتحون لهم الابواب
أمام عتبات القصر التي يعطيها بساط التشريفات الأحمر
وعلى الباب يقف حارسان يرتديان ملابس التشريفات
العسكرية المزينة بأشرطة فضية وذهبية
كأنها مصنوعة من ريش الطواويس
ولم تكن محتاجا لتزداد رعبا
إلا أن ترى السيارة الفخمة ، التي يشع حديدتها كأنها
مصنوع من ذهب أسود ، والسيدة التي نزلت تجر
اثوابها فوق البساط الأحمر ، وقد حف بها الحراس ، وانحنى
بين يديها احد الضباط ، ومضى يقودها الى داخل القصر
ولتؤكد لك الاحساس الذي يراودك ، بان وجودك غريب

في هذا المكان، الذي ينتمي لعالم ليس لك، ولا لامثالك
من بسطاء الناس ، فعدت الى شوارع المدينة تكمل
تسكعك بها ، ورغم انك ترتدي البذلة الجديدة
العائدة من الغسيل بعد ان انتسخت
بسبب ما نشب بينك وبين الشحاذ من عراق ، إلا أن هناك
بقعة سوداء لم تستطع مطهرات المغسلة ازالتها ، جعلتك
تخل من دخول قصر الولاية بها ، وتذكرت الطرف الكبير
الملء بالنقود في جيبيك ، فدخلت متجرا في
شارع الملك ايمانويل الثالث، واشتريت بذلة سوداء
وما يناسب لونها من قميص وربطة عنق وحذاء
وجوارب ، لكي تمنحك قوة اكبر على اقتحام قصر
الحكومة، وتزيل الرعب الذي يعتريك عندما تصل اليه
جلست في مقهى ميراماري ، تحتسي القهوة ، وتتأمل وجوه
السواح الذين اجتذبهم دعاية باليو لطرابلس ، وتستشق
العطور التي تفوح من اردان النساء الإيطاليات
اللاتي يستعرضن جمالهن
في الميدان ويسرن بخطى مغناجة أمام زبائن المقهى
— هيا قل لي بسرعة كيف وجدت العمل الجديد؟
هكذا خاطبتك السنيورة حورية عندما ذهبت مساء لزيارتها
— لم اذهب اليه بعد .
— لماذا ؟
— مازلت اراه عملا أكبر مني .
— لا تقل هذا الكلام أمامي ، لأنني اعرف جيدا انك اكبر
من هذا العمل . أريدك ان تستقر في مركزك الجديد، لان
هناك مهام أخرى تنتظرنا ، وحياة مشتركة لابد ان
نبدأ الترتيبات الضرورية لاتمامها.
سألتك حورية دون مناسبة ان كنت تحتاج لمزيد من النقود
فقلت بسرعة ، ان لديك أكثر مما تحتاج اليه
ثم تذكرت الوعد الذي قطعته على نفسك بان تشتري لها
هدية من النقود الكثيرة التي أبقتهام معك بعد الزيارة

فلعلها تشير ، بطريقة غير مباشرة ، الى اهمالك لتلك الهدية
فلماذا خذلناك ذاكرتك ، وجعلتك تنسى ، وانت تدخل السوق
لشراء البذلة ، امر شراء خاتم او اسورة لها ؟
واصلت هي حديثها :

— اذن فلا تأتي غدا لتقول انك تأخرت في الذهاب الى العمل
اريدك ان تكون هناك في اول ساعات الدوام . هذا بالنسبة
لليوم الاول الذي تستلم فيه مكتبك ، بعد ذلك فانت حر في
حضورك وانصرافك ، لانك انت رئيس المكتب ، واليك
يرجع تقدير ما تحتاجه من وقت لعمل المكتب ، وما تحتاجه
من وقت للعمل الميداني خارجه . سيتم الإعلان عن هذا
المكتب في الصحف العربية والإيطالية ، ومن خلال
الحصة الاخبارية باذاعة الراي المحلية وستصل الشكاوى
اليك ، فتتظّر فيها ، وتستقبل اصحابها اذا لزم الأمر
ثم تبعث بتقرير عن كل حالة الى مكتب الحاكم العام
مشفوعا بالرأي الذي تراه ، وهنا ينتهي دورك ليبدأ
دور الجهاز الامني والاداري في مكتب الحاكم العام
الذي سيؤكد من صدق ما يقوله صاحب الشكوى
والاتصال بالاطراف الأخرى التي يمكن ان تكون لها
علاقة بالشكوى لمعرفة وجهة نظرها ، وبناء على نتائج
هذه التحقيقات ، يتم تصحيح الاوضاع وإعطاء الحق
لاصحابه ، ويبقى القرار الاول في هذه الشكاوى لك
انت ، لانك سترفع ما يستحق الرفع الى المستوى
الاعلى ، وتهمل الشكوى التي تراها لا تستحق ذلك ، او
تعيدها الى صاحبها الذي لا يملك حقا في تقديمها
منذ البداية .

— يبدو الموضوع اصعب كثيرا مما كنت اتصور .
— لن نقول هذا الكلام بعد ان تتمرس أسبوعا او أسبوعين
في العمل .

— تعلمين قدراتي المحدودة في القراءة والكتابة باللغة
الإيطالية .

— انه مكتب لشكاوى الليبيين ولا يحتاج لغير اللغة العربية
التي ستقرأ بها العرائض وتناقش بها اصحابها ، اما عن
الإيطالية فان للحاكم العام جهازا للترجمة يتولى مثل هذا العمل
اتريد معلومات أخرى؟

— سأعتمد عليك في ارشادي وتوجيهي .
كان ما قالته حورية صحيحا عن اشهار المكتب، لاني لم تخرج
من بيتها الا بعد ان سمعت الخبر يذيعه المذيع في الحصة العربية
بالاذاعة ، مشيدا بالحكومة التي تحرص على رعاية مواطنيها
الليبيين ، وتعمل من أجل تحسين اوضاعهم ، ولذلك قررت انشاء
مكتب يختص بالنظر في مطالبهم ، وشكاواهم ويقوم
بحل مشاكلهم ، ويهيب المذيع بالمواطنين ان يبادروا الى
الاستفادة من هذا المكتب

وتوجه خطاباتهم اليه بمقره بقصر الحكومة بطرابلس
اذن فالحكومة تعطي اهمية بالغة لهذا المكتب
وتعتبر تاسيسه انجازا لحكومة الاحتلال ، وتعهده اليك انت
دون كل الناس ، فمن انت حتى تتمتع وتتردد في الترحيب
بهذا الشرف الذي يسبغه عليك سيد البلاد ؟
ستذهب لتباشر هذه المسؤولية ، وبروح ثقيل على العمل
بحماس وحب ورغبة حقيقية في انجاح برنامج الحكومة
وكسب ثقة الناس في مكتب الشكاوى
الذي سيكون بداية عهد جديد من الوداد والصفاء
بين الحكومة والاهالي

ذهبت الى رئيس القلم الاداري ، في الطابق الاول لقصر الحكومة
تحمل مطروفا مليئا بشكاوى المواطنين، وتقدم له نفسك
كما امرتك السنيورة حورية ان تفعل
عرفت منه انه عاش في طرابلس لمدة تزيد
عن عشرين عاما، فقد جاء عسكريا مع الجنرال كانيفا
في بداية العهد الإيطالي
ونتيجة لاصابته في قدمه، ترك الجيش، وتحول للعمل المدني
وظل في هذه الوظيفة منذ ذلك الوقت

حتى صار خبيراً في شئون البلاد، ومرجعاً في التاريخ الإداري لها
تحرك داخل مكتبه، فاذا بآثار الإصابة تظهر واضحة
في مشيته، إذ أنه لا يمشي كما يمشي أي إنسان اعرج
اختل توازنه قليلاً، فالتوازن في حالة السنيور كالفى
لا وجود له أصلاً، لأنه مع أول خطوة مال بجسمه
حتى كاد يلامس بجنبه الأرض، ثم عاد فاستوى، ومال
بنفس المستوى في الخطوة التالية وهكذا. توجست
شراً برغم كلماته المعسولة
وتوقعت أن يكون لهذه الإصابة التي لحقت به
منذ عشرين عاماً نتيجة رصاصة أطلقها عليه
مجاهد ليبي، اثرًا في معاملته لك
إلا أنك لم تجد منه خلال الساعة التي قضيتها معه
إلا كل احترام، مبدياً استعداداً لتقديم أية مساعدة
تحتاجها، وادمك قبل أن تخرج من مكتبه، بقرار
إنشاء المكتب الذي احتوى على الأهداف المتوخاة
من وراء إنشائه
وقواعد العمل التي يجب اتباعها فيه
والمسؤوليات المنوطة به، والاختصاصات
التي يمارسها المسئول عنه
وإعطاك نسخة من قرار انتدابك من الخدمة العسكرية
لتنولى الإشراف على المكتب
وشرح لك كيف أن شكاوى المواطنين سوف
تأتي إلى مكتبه كما هو الحال مع كل مراسلات
القصر، ليتم تسجيلها وإحالتها إليك، وبعد النظر
فيها وكتابة تقاريرك عنها
تعود إليه ليتولى رفعها إلى مكتب الحاكم العام
وستبأشر عملك تحت إشرافه المباشر
ثم مد السيد كالفى يده للزر الموصول بجرس خارج
المكتب، فجاء جندي المراسلة، يقودك إلى مكتبك
الجديد مودعاً من قبل السيد كالفى بكلماته التي تتمنى

لك التوفيق . اكتشفت ان هناك سلالم أخرى غير الساللم
الرخامية الفخمة المفروشة بالابسطة التي صعدت معها
بعد اجتيازك البوابة الرئيسية، وجلوسك تحت صورة
الدوتشي تنتظر الاذن بالدخول ، كما أن هناك مدخلا
خلفيا للقصر يستخدمه الموظفون والعمال وبعض
المراجعين هو الذي ستستخدمه انت أيضاً منذ الآن
قداك الجندي الى الطابق الأرضي ، حيث يقع مكتبك
في الجزء الخلفي من القصر
وحيث المكاتب مثل صناديق خشبية
لان الطابق كله ، كان صالة واحدة ، تم تقسيمها
الى مكاتب ، وفصلها عن بعضها البعض ، بحواجز
خشبية لم يكن مكتبك سوى غرفة صغيرة تتسع
لطاولة واحدة ، أمامها كرسيان، وفوقها جهاز هاتف
أسود اللون وخلفها نافذة تطل على الفناء الخارجي
وتحتل حيطان الغرفة بعض الارفف المخصصة لوضع
الملفات ، وصورتان واحدة للدوتشي وأخرى
للمارشال بالبو ، وسلة مهملات تحت الطاوله
لم تنتبه الى وجودها الا بعد ان اشار اليها جندي المراسلة
الذي جاء يحمل ورقة
سجل بها محتويات الغرفة، وطلب منك التوقيع عليها
كوصل بالاستلام
وافهمك ان الهاتف موصول بالبدالة التي يتم
عن طريقها ارسال واستقبال المكالمات
كما اراك الزر الذي تدوس عليه لمناداة الحاجب
الذي يسمونه هنا جندي المراسلة . كنت تريد ان تسأله
اسئلة كثيرة عن هذه البيئة الجديدة، التي تطأها بقدميك
لاول مرة وعن زملائك في المكاتب المجاورة
وموقع الكافيتيريا التي تقدم للموظفين طلباتهم
من المشروبات الساخنة والباردة ويذهبون أحياناً
للجلوس فيها اثناء وقت الاستراحة

وعن كيفية استقبال الضيوف والمراجعين
وعما اذا كانت هناك صالونات لاستقبالهم
إلا أنك رأيته مستعجلا يريد ان يخلص من مهمته
بأقصى سرعة ممكنة ، فاخذت منه مفتاح المكتب
وتركته يذهب، مذكرا نفسك ان هذا ليس الا يومك الاول
وأمامك أيام كثيرة قادمة تعرف فيها كل ما تريد ان تعرفه
عن هذا العمل وهذا المقر فلا ضرورة للاستعجال
جلست على الكرسي . وجدته يدور فدرت به عدة دورات
حتى كاد رأسك يدوخ . كرسي مريح من الجلد الأسود
يتحرك فوق محور ، يجعله يدور شمالا ويمينا
لاول مرة تجلس على كرسي من هذا النوع
ومكتب من هذا النوع ، وتحت امرتك عسكري إيطالي
مددت يدك الى الزر . دست عليه. سمعت رنينه في الرواق
الخارجي . جاء الجندي يحييك قائلا " بروننتو"
ماذا ستقول له ؟ لقد ضربت الجرس لمجرد الرغبة في
ان تمارس سلطتك على هذا الإيطالي ، فماذا ستقول له ؟
تذكرت انك تريد فنجانا من القهوة تبدأ به حياتك الوظيفية
الجديدة ، ذهب لابلاغ الطلب للقهوجي . فتحت ادراج
المكتب الفارغة واحدا بعد الآخر . ثم اتجهت الى الارف
المثبتة على الحائط ، وكان لبعضها ادراج صغيرة مقفلة
فتحتها لتجد قصاصات لمقالات واخبار تتحدث عن المدارس
وإعلان عطاء عن ادوات مدرسية
فادركت ان هناك من استعمل المكتب قبلك ، الامر له
علاقة بالتعليم . رفعت سماعة الهاتف . سمعت صوتا يقول
" بروننتو سنيور "
فاعدت عليه العبارة التي قالها " بروننتو سنيور"
واقفلت السماعة. كلهم في حالة استعداد للانطلاق ، ولكن الى اين ؟
انك لا تعرف احدا تتصل به هاتفيا . حورية هي الإنسانية الوحيدة
التي تملك هاتفًا، من كل معارفك . ومع ذلك فانت لا تعرف
رقم هاتفها . جاء صبي إيطالي يحمل القهوة. وضعها

ومضى . عاد جندي المراسلة يحمل صندوقا من ورق
مقوى ، به ملفات واقلام
وكراسات واستمارات قال انها قرطاسية المكتب
مع ملف كبير يحتوي على الشكاوى والعرائض
التي تركتها لتسجيلها ، جاء بها من مكتب السنيور كالفي
امضيت له وصلا بما احضره ، ومضى ثم دق جرس الهاتف
رنينا قويا ، ملحاحا ، كما تفعل لجراس الانذار
خمنت انه رئيس القلم ، يطمئن على وصول القرطاسية
لانك لا تعرف احدا غيره يعرف وجودك في هذا المكان
إلا أن الصوت الذي جاء ساريا عبر الاسلاك، لم يكن
صوت رجل . كان صوتا نسائيا جميلا، تعرفه تمام المعرفة
وتطرب له كما تطرب لكروان يغرد، او نابا يعزف انغامه
في البراري . انه صوت أجمل جميلات الكون، السنيورة حورية
ارادت بشفاافية الأنثى الرائعة ، والكائن البديع الذي ينتمي
لرقة وعذوبة الكائنات السماوية
ان تكون اول من يهاتفك ، ويهنئك باستلام العمل الجديد
سألتك كيف وجدت المكتب واجواء العمل بالقصر
فابلغتها عن الاسلوب المهذب الذي استقبلك به
رئيس القلم الاداري ، والذي ازال ما كنت تشعر
به من قلق وتوتر
اما المكتب فان أجمل ما فيه هو هذا الهاتف
الذي يحمل اليك صوتها ، ليكون تميمة خير وبركة
وأخبرتها بوجود اشياء كثيرة تتصل بالعمل
وما يحتاجه من تنظيم
لم تكن تستطيع ان تعرفها ، او تخطر على بالك
قبل ان تباشر العمل مباشرة فعلية ، اقترحت عليك
ان تذهب اليها في البيت
فور انتهاء الدوام ، لمناقشة خطة العمل والاحتفال
باليوم الاول الذي تبدأ فيه الوظيفة
تذكرت بعد انتهاء المكالمة ، ان نورية ، لا زالت مقيمة معك

وانها منذ يومين محبوسة في الغرفة لا تفعل شيئا
إلا أنتظارك واعداد الطعام لك
وهي لا شك تنتظرك الان على الغذاء ، فكيف
ستعذر لها . لقد الححت عليها ، بعد ليلتها الاولى
معك ، ان تعود الى بيتها ، إلا أنها اصررت على البقاء
معك لمدة يومين أو ثلاثة أيام
تمسح بها أيام الوحشة التي احسست بها اثناء غيابك عنها
ولعلها حركة التقاف تقوم بها لتنفيذ رغبتها القديمة
في الارتباط الدائم بك ، مستخدمة خطة المراحل
بأمل ان تتعود على وجودها معك
حتى لا تعود قادرا على الاستغناء عنها
لانك فعلا بدأت تحس بالفرق بين بقائك وحيدا
وبين وجود امرأة مثلها بانتظارك دائما تعد لك طعامك
وتهيء لك سريرك، وتندس فيه معك لتلبية حاجات الغريزة
كان ملف الشكاوى ما يزال مقفلا أمامك ، اخذته بين يديك
وفتحته تبحث عن طلب نورية . ستكون نورية هي اول حالة
تقدمها للسيد الحاكم العام . ستؤيد طلبها وطلب شريفة
سيدة بيتها وصاحباتها ، في الانتقال الى واحد
من البيوت الحديثة
اسوة ببقية نساء سيدي عمران
ستجعل حاكم ليبيا، ورائد عصر الطيران ، والبطل الذي عبر
الاطلسي وفاز بقصب السبق على بقية الابطال
يترك مشاغله الاخري وينشغل بنورية
ويسعى لحل مشاكلها ، ويبحث عن بيت جديد لها
وجدت بين الاوراق التي زودك بها السنيور كالفلي
نموذجا ترفقه مع كل عريضة من هذه العرائض
يختصر لك الطريق ، لانه يضع لك خانات فارغة
يسألك ان تملأها ، عن صاحب الطلب وعنوانه
مع ملخص لمشكلته
والاطراف الأخرى ذات العلاقة بالمشكلة

ثم التوصية التي يراها المكتب
وكتبت في التوصية بأن الطلب مقدم من عدد
من الفنانين اللاتي يقمن بالغناء في الاعراس
واحياء تراث المدينة
وانك سبق ان عاينت البيت ووجدته متهاكاً
لا يصلح للسكن ويحتاج لتخصيص ميزانية لصيانته
وترميمه والاستفادة منه بعد ذلك، كمستوصف
او مركز شرطة لاتساعه وكثرة غرفه
ونقل هؤلاء الفنانات الى بيت من البيوت الحديثة
التي نقلت اليها نساء سيدي عمران
رأيت ان نكتفي بما انجزته هذا الصباح
وهو استلام المكتب والتعرف على اجواء العمل وظروفه
والنظر في اول التماسات المواطنين، وهو الالتماس
الخاص بالسيدة نورية، وان تغادر المكتب ، عائداً
الى الفندق لتتق مع المرأة التي تنتظر في غرفتك
بالعودة الى بيتها
لتذهب انت لموعد الغذاء مع حورية
لم تكن ترى في نورية غير اداة لإشباع الغريزة
هذه الغريزة التي سافتك الى بيتها ، في بدء تعارفكما
وظلت محور العلاقة بينكما، إلا أنك خلال الليلتين الاخيرتين
صرت قادراً على التواصل معها وجدانياً
والاستماع بشغف لما نقوله لك من حكايات
وما استمدته من خبرات من واقع الحياة تمنح روايتها
للاحداث حرارة ومصداقية، مثل الشيخ الذي كان يقدم
الشكاوي ويرفع القضايا، ويطالب شريفة ونساءها
بمغادرة البيت بحجة ان لاحد اسلافه حصّة
في هذا البيت الذي تدنس
بافعال هؤلاء النسوة ، ويطالب باسترداده
فتأمرن ضده ، وصرن يتعرضن له في طريقه ليلاً
الى الجامع حتى استطعن الايقاع به ، باستدراجه

الى البيت ، والدخول به لغرفة احداهن ، التي استطاعت
تجريده من ملابسه كاملة ، وإبقائه عاريا ثم دفعت
به خارج الغرفة لتأتي بقية النساء ويشتركن في دفعه
عاريا الى الشارع
كان الوقت ليلا والشارع خاليا فصار يتوسل ان يدخله
ويسترنه من العار والفضيحة
ولم يفعل ذلك حتى اخذن منه تعهدا مكتوبا بالا
بضايقهن او يطالب باخلاء البيت مرة أخرى
لم تكن المهمة التي نوبت القيام بها مع نورية، مهمة
سهلة كما تصورت، فقد وجدتها، انتهت من ترتيب
الغرفة وتنظيفها وبدأت في اشعال الموقد، وتقشير
البصل وتقطيع حبات الطماطم
وتحضير البيض من أجل اعداد وجبة الشكشوكة
وما ان طلبت منها ، ان تريح نفسها من اعداد الغذاء
لأنك عائد الى المكتب لتتناول طعام الغذاء هناك
وان عليها ان تعود الى بيتها الذي غابت عنه ليلتين
حتى ارسمت علامات الكدر فوق وجهها، وانهمرت
العبرات غزيرة تغسل وجنتيها ، دون ان تتكلم
وعدها بانك لن تتأخر عن زيارتها ، لان وجودها لأكثر
من هاتين الليلتين سيسبب لك احراجا مع صاحب الفندق
الذي سيتعرض للمتاعب مع قبل الشرطة السياحية
لو اكتشفت وجود مثل هذه الحالة في فندقه
جففت نورية دموعها ، وارتدت فراشيته، واحكمت
لفها حول جسمها ، حتى لم يعد ظاهرا من جسمها
الا احدى عينيها
لترى طريقها بواسطة هذا اليمبوك ، وخرجت
في حين انطلقت انت بعد لحظات من خروجها
متجها الى بيت السنبورة حورية
شاعرا في ذات الوقت بهذا التفاوت بين الحالتين
ففي حالة نورية كنت الطرف الاقوى ، الذي يملك

الكلمة العليا في اية مواجهة ، في حين ستكون دائما
الطرف الاضعف وانت تلتقي بحورية
ليس فقط لانها تنتمي الى دائرة أهل السلطة والثروة
ولانها صاحبة افضال عليك منذ ان انتشلتك من معسكر
التجنيد الى هذا اليوم الذي اوصلتك لان تكون موظفا
في قصر الحكومة
ولكن أيضاً لانك تملك نحوها عاطفة لا تملكها
نحو نورية ، تجعلك تستسلم لها ، خانعا دليلا ، مستعدا
لاذلال نفسك اذا اقتضى الأمر ، بدافع من هذا الحب
بالاضافة طبعا الى قوة شخصيتها، وطغيان جمالها
وادوات الحضارة التي تستخدمها في معيشتها
والتي تضعها منذ البداية فوق أرض صلبة
قوية ، تضمن لها التفوق والنجاح في مثل هذه
المواجهات المتصلة بالعواطف والاحاسيس ، بدءا
من المستوى الراقي لمسكنها
والسيارة التي تحت امرها ، الى ما تقرأه
من مطبوعات ، وما تستمع اليه في المذياع والحاكي
من فنون ومعارف واخبار
وما ترتاده من حفلات واندية ومسارح ، ومن تختلط
بهم من اوساط راقية في تعليمها وثقافتها ، نهاية
الى ما تتعامل به من مفردات
حضارية في حياتها البيئية
انها في الموقع الاقوى والاعلى ، دون ان يعني ذلك
ان هذا الاحساس يقلقك ، او يجعلك تشعر بالدونية حيالها
بل العكس هو الصحيح ، أي انك تشعر بالسعادة في وجودها
لان حبك لها يجعلك سعيدا لسعادتها
وجدت غرفة الطعام جاهزة لاستقبالكما ، وقد اعدت المائدة
لشخصين فقط انت وهي . احضرت حواء الاناء الخزفي
الذي يحتوي الشوربة التي تحبها ، شوربة العدس
فاخذت حورية الطبق الذي أمامك ، وتولت بنفسها

وضع الشورية فيه، وهي تواصل الحديث

والترحيب بوجودك في بيتها :

— غداء بسيط . سألت حواء عن الاكلات التي تحبها

فنصحت بشورية العدس والمكرونة المطهية بفواكه

البحر، وقد دخلت معها المطبخ اشارك في اعداد السلطة

والاطباق الجانبية مثل الطولمة والمبطن والبوريك

والملفوف . لا بد ان اعرف كل شيء عن الطعام

الذي تحبه لاعدده لك مستقبلا . لم تقل لي كيف تجد الأكل

في مطعم الفندق ؟

وضاحكا أخبرتها بان الفندق الذي تقيم فيه شيء يختلف

عن الفنادق الكبيرة ، التي تعرفها مثل الجرائد هوتيل، والودان والمهاري . انه خان شعبي

من الخانات التي يقصدها أبناء الريف ببهائمهم .

— لا يجب ان تستمر على هذا الحال . لا بد من ترتيب كل

شيء ترتيبا محكما . ولذلك فانه حان الوقت لان

نتحدث في التفاصيل .

الأكل على مثل هذه الموائد شيء جديد على حياتك

حتى هذه الغرفة المخصصة للطعام ، لم تدخلها سابقا

لأنك كنت تتناول الطعام الذي تقدمه لك حواء

عادة فوق طاولة داخل المطبخ ، بل فكرة ان تكون هناك

في البيت غرفة لا تستخدم الا عند تناول الطعام

فكرة غريبة ، وجديدة بالنسبة لك وللتقاليد التي تربيت عليها

والبيوت التي عرفتها او نشأت بها ، فالنوم والاكل واستقبال

الضيوف وجلسات السمر ، يمكن ان تتسع لها مساحة

واحدة داخل البيت ، ولذلك فانت مستمتع بهذه الاجواء

البيعية التي لا عهد لك بها ، وترى ان الحديث في مسائل

على درجة من الجدية والخطورة ، كهذا الحديث الذي فتحت

حورية ، سينقص قليلا من درجة الاستمتاع بهذه الاطباق

الفاخرة

وضعت أمامك حواء طبق المكرونة المخلوطة بفواكه البحر

وواصلت حورية الحديث :

— يجب ان يكون لك رأي في كل جزئية صغيرة
واعرف بوضوح ما الذي تريده ولا تريده
في هذه المرحلة بالذات ، لكي نضع أساسا متينا
لحياتنا القادمة ، ونصل لفهم مشترك حول كل
المواضيع فذلك مهم جدا لبناء البيت السعيد ، اليس كذلك؟

ليتها تواصل الكلام دون طرح اسئلة ، تتطلب جوابا منك
الى ان تنتهي من التهام هذه الاطباق ، لاحظت حورية
انك تزدرد الطعام بعجلة فعلقت قائلة :

— سوف انقل لك بعض الاشياء الصغيرة المفيدة التي
تعلمتها من زميلاتي الإيطاليات في المستشفى، عندما كنت
اعمل هناك ، لاننا نحن العرب نسهو عنها ، مثل الأكل الذي
نعتبره مجرد ، وسيلة للعيش، بنما يعتبرونه هم متعة
ولذة قيل ان يكون واجبا ، حتى من الناحية الطبية
فان الطريقة العربية في ازدراد الأكل ، هي سبب كل
المشاكل التي تحدث للمعدة ومن شاء ، الا يستمتع
بالاكل فليمضغه جيدا على الاقل رفقا بامعائه.
ثم اضافت بعد ان التقطت قطعة طولمة، اجادت مضغها
وازدرداها :

— نحن ننسى ان للأكل تقاليده التي لابد ان نراعيها .
ليتها تواصل الحديث عن تقاليد الأكل ، وتترك الاحاديث الأخرى
التي تحدث تلبكا في المعدة ، واذا احتاج الأمر الى رد هنا
فلن يعوزك الرد ، لان حياتها في كنف عائلة كانيفا
انستها حياة الأحياء اللببية الفقيرة، فكيف يكون للناس
تقاليد للأكل، إذا كانوا لا يجدون الأكل أصلا
وحالهم حال الذي جاء يسأل صاحب الدكان الوحيد في قرية
بحاصرها الجيش الإيطالي ، ان كان يبيع قمصانا للنوم
فقال له صاحب الدكان اين هو النوم حتى نصنع له قمصانا؟
لكنك لم تشأ ايقاظ المواجه او تذكرها بماض لابد انها
تريد ان تنساه ، فقلت جملة مستوحاة من التراث العربي

في تعامله مع الطعام :

- ومع ذلك فان العرب يقولون بان المعدة بيت الداء
- العرب دائما يقولون ما لا يفعلون ، فماذا تقول انت ؟
- اقول في ماذا سنيورة حورية ؟
- في كل ما يتصل بحياتنا المشتركة سنيور عثمان

كنتما قد انتهيتما من تناول الغذاء ، وجاءت حواء
باكواب الشاي الأخضر المخلوط بالنعناع
فواصلتما الجلوس على المائدة تشربان الشاي
وقد احسست بانك أكثر استعدادا للدخول في النقاش
الذي تحاشيته زمنا طويلا

لاشك ان للشحنات الجنسية التي افرغتها خلال ليلتين
قضيتهما في سرير فردي مع نورية ، علاقة بهذه اللياقة
الذهنية التي تحس بها وانت تتعامل مع قضية شائكة
مثل قضية العلاقة مع حورية ، ومناطق الالتقاء
والخلاف في تصورات كل منكما حول هذه العلاقة
قلت تمدح الاطباق التي شاركت في اعدادها :
— سلمت اليد التي اعدت هذه الوجبات اللذيذة .

ثم اضفت ضاحكا وانت تلتقط حبي عنب من طبق الفاكهة
وتضعهما في فمك :

— والان ولكي استطيع ان اجيب بعقل مستريح ، هل تسمحين
بإعادة اللقاء السؤال ؟

— اسئلة كثيرة يجب ان نقوم نحن الاثنان بالإجابة عليها .
— ان سؤالا واحدا يمكن ان يذكرني بالامتحانات ، التي جعلتني
اهرب من الفصل فما بالك بالاسئلة الكثيرة .

— انها اسئلة بعدد ادوات واسماء الاستفهام في اللغة ، متى
واين وكيف وهل وماذا ومن ، فان شئت الهروب منذ الان
فها انا قد حذرتك .

— دون ان ننسى لماذا فيها تبدأ كل الاسئلة .
لاول مرة تتجههم ملامح وجهها :

— ما الذي تعنيه ؟

— اعني تذكيرك بكلمة سقطت من القائمة هي لماذا؟

— وهل نحتاج في رأيك ان نسأل انفسنا أي سؤال يبدأ بهذه اللمذا التي تذكرها ؟

— لا ادري . وعندما قلت لماذا ، قلتها عفوَ الخاطر . ولعلها تحمل من حيث لا ادري شيئا من الحيرة ، حول موضوع حديثنا . هناك حياة مستقر ، هانئة ، بينك وبين رجل من عظماء التاريخ ، تحببته ويحبك ، فلماذا تضحين بهذه الحياة ؟ وتفكين ارتباطا جميلا مثل هذا الارتباط ؟ ثم لماذا في هذا الوقت بالذات ؟ ولماذا ، ثالثا ، وقع اختيارك على رجل من بسطاء الناس مثلي ، ليكون هذا الشريك الجديد ؟ تعلمين طبعا انني أحمل لك حبا اعجز عن وصفه واعرف بالتأكيد نبل عواطفك نحوي ولكن هل يمكن لهذه العواطف وحدها ، ان تكون حافزا لاجداث هذا التغيير المصيري في حياتك ؟ وهل تعتقدين انك تتخذين القرار الصحيح الذي يضمن لك السعادة ؟

— لم اكن اعرف انك فصيح الى هذا الحد وان لديك بدل لماذا واحدة كل هذا العدد منها .

ثم مضت تقول بان الصراحة مطلوبة جدا في هذه المرحلة وان ارتباطها بالمارشال بالبو ، رغم قوة العاطفة التي جمعت بينهما كان منذ البداية ارتباطا مؤقتا ، ومحكوما بطروف لا سبيل لتغييرها ، ومهما كبرت هذه العلاقة ، فهي لا تستطيع ان تعوقها عن حقها في الامومة والانتجاب والاستمتاع بأبناء يكبرون معها ويصبحون سلوى وعزاء لها عندما يتقدم بها العمر ، خاصة وانها امرأة بلا أهل ، والمارشال بالبو كما يقول هو عن نفسه ، سيقضي مدة خدمته ويعود الى وطنه وأهل بيته ، فلا غرابة في ان تفكر في المستقبل ، وان تعمل الف حساب للغد

اما التوقيت فلعله كان سيأخر قليلا ، لولا ظهورك انت لان ظهور رجل ملك عليها مشاعرهما ، واختبرت صدق

عواطفها نحوه وعواطفه نحوها، ورأت فيه زوج
المستقبل الذي يسعدها، هو الذي املى عليها التوقيت
وإذا كان لديك أي شك في سبب اختيارها لك
فعليك ان تبحث عن الحقيقة في نفسك .
وكننت صادقا وانت تقول لها :

— عندما ابحث في نفسي ، في عقلي وقلبي، فلا
اجد حيالك الا فيضا غامرا من الحب والامتنان .
واخذت يدها تطبع قبلة فوق أصابعها ، سرت نشوتها
مع دورة الدم في عروقك، وكأنها قبلة فوق فمها الشهي
الجميل

— اذن فمن اين تأتي الحيرة التي تحكي عنها ؟
— الحيرة تأتي من مصدر واحد ، هو موقف السيد المارشال
من الموضوع كله .

— لا تحمل هم المارشال فهو متفهم جدا جدا، ولانه يعتبر نفسه
مسئولا عني ، فقد اقتنع تماما بانك الشخص المناسب لي .
لعلها لم تفهم ما كنت تقصده بالضبط ، فكون الموضوع
تم باتفاق بينها وبين المارشال، شيء لا يحتاج الى تأكيد
ولا بد اذن من توضيح السؤال:

— اعني هل ستستمر علاقتك به بعد الزواج؟
— ليست علاقتي، وانما علاقتنا سويا ، انت وانا، ستستمر
طبعاً ، وستكون علاقة صداقة بالطبع ،

لم تسألها كيف تستطيع ان تضمن ان الصداقة مع المارشال
بالبو يمكن ان تبقى في حدود الصداقة، وماذا ستفعل لو ان
الشوق القديم الح عليه وارغمه ان يتجاوز حد الصداقة ، مسافة
خطوة او خطوتين وبدلا من ذلك قلت لها:

— وهل تعتقدين انه سيواصل الانفاق على هذا البيت مدى
الحياة ودون أي مقابل ، وسيدفع من خزينته ، او خزينة
دولته ليجار هذه الشقة، ومرتب حواء ومرجان
والفزانى ، ومختار العساس ومصاريف السيارة، ام
سيسحب يده من كل ذلك ؟

— ولماذا يسحبها ؟ انه الحاكم العام للبلاد ، وبهذه الصفة
يرعى الاف البيوت، ويصرف على الاف الناس، فما
وجه الغرابة في ذلك ؟

بدت متوترة قليلا ، فلاحظك انها رأتها اسئلة زائدة عن الحاجة
ولا ترى داعيا لطرحها، لان هذه المسائل تتم في جو
من التواطؤ الجميل الذي يكتفي بالتلميح دون التصريح
ولذلك فضلت ان تصمت لكي لا تزيدها توترا
في حين استأنفت هي الحديث :

— هل انتهت الان حيرة الحيران ، بحيث نستطيع ان نعود
الى الاسئلة البسيطة ، واولها طبعا متى ؟

انتظرت ان تسمع منك ردا، وعندما لم تتكلم، واصلت هي الحديث :

— بعد أيام سيسافر المارشال الى روما ، سيغيب لمدة أسبوعين

او ثلاثة اسابيع يحضر خلالها عرس اخته كلارا في فيرارا

وسيكون هذا هو الوقت المناسب لزواجنا ، لانه يجب ان يعود

ليجديني قد أصبحت زوجة رجل آخر هو انت، والسؤال

الثاني الذي يلي هذا السؤال هو كيف ؟

— وهل تعرفين بمن ستتزوج كلارا ؟

— ليكن اسم زوجها انطونيو او جوسيبي او كريستو او دياولو

ما اهمية ذلك بالنسبة لموضوعنا ؟

— مجرد محاولة للاقتراب من عالم صديقنا المشترك

السيد باليو

— ارجوك ان تترك حديث الهزل الى وقت آخر . هل لديك

رأي حول كيف نقيم حفل الزواج واين نقيمه ؟

— قبل ان ننقل لكيف واين دعينا نبقى قليلا مع متى ، فهذا التوقيت

الذي نتحدثين عنه توقيت قريب لا ادري ان كان يناسبني .

انزلت ساقها المتأرجحة من فوق الساق الأخرى واستوت

في جلستها وهي تتطلع نحوك باستغراب ودهشة

كأنها لا تصدق ما تسمعه، تذكرت وهي تتنقل لوضع

جلستها الجديد ، حديث ماريو العجوز عن لغة الحوار

السرية بين الاجهزة الجنسية لدى الرجل والمرأة ، في مثل هذه اللقاءات، وتساءلت ان كان لتلك الاجهزة رأي آخر غير ما تقوله اللسان :

— ماذا نقول ؟

— اقول بانني احتاج لان استعد لدخول مثل هذه المرحلة.

— عن أي استعداد تتكلم ؟ ان كنت تتكلم عن النفقات فهي تكاد تكون معدومة . وان وجدت فاعتبر ان مالي هو مالك ، ما الفرق ؟

كان فكرك وانت تبحث عن عذر لتأجيل الموضوع يتجول في اركان الأرض الاربعه باحثا لك عن سبب قابل للتصديق وجاء بسبب وجيه لا تستطيع امرأة مثلها ان تناقشك فيه ، وهو انه اثناء معركتك مع الشحاذ الذي اعترض طريقك ، اصابك بركلة قوية بين ساقيك، احدثت عطبا في احدى خصيتيك ، وصار متعذرا عليك ممارسة اية واجبات زوجية قبل الانتهاء من العلاج الذي يحتاج لعدة اشهر ولكنك احسست أمامها ، بشيء من الخجل في شرح مثل هذا العذر فقلت لها باختصار :

— ربما الاستعداد النفسي يتطلب بعض الوقت .

— وماهي المدة التي تحتاجها لكي تطيب نفسا ؟

— لا اطلب سوى مهلة قصيرة للتفكير .

نهضت حورية واقفة ، واتجهت عبر صالة الطعام الى الصالون وعبر الصالون الى باب الشقة ، وانت تمشي وراءها

— خذ ما شئت من الوقت . لا تعد الى هنا قبل ان تصل الى قرار .

ادركت الان فقط ، ان ما قلته لها كان قاسيا ، وكان وقع

الصدمة قويا وواضحا على ملامح وجهها . اردت ان تتراجع

وان تسحب الجملة التي قلتها، وان تسمعها كلاما آخر يزيل

هذه الغمامة التي عكرت صفاء وجهها . ستقول نعم لكل

كلمة قالتها ، وستبدي ثلثها لمجيء يوم السعد الذي تحقق فيه

حلم حياتك بالافتران بها

ولكنك كنت مرتبكا لرد فعلها الغاضب

وقفت صامتا ، ساهما ، تبتسم في بلاهة ، وتبحث عن كلمات
تقولها ، وعندما رأيتهما تصل الى الباب، لم تذكر الا الموضوع
الاخر الذي جئت لنقاشه معها ، فقلت مداريا خجلك وارتيباك
بابتسامه لا معنى لها :

— نسينا ان نتكلم عن خطة عمل المكتب .

ودون ان تبدي اهتماما بما قلت ، فتحت حورية الباب قائلة :
— مع السلامة .

وبقوة صفقت الباب وراءك

لملك السحاب ، كما تقول الاسطورة ، سبع بنات، اسكنهن
سبع ساحبات حمراء ، قريبا من منابع النور

في الجزء الشرقي من السماء

حيث منح لكل واحدة قصرا منيفا تحيط به الفراديس الخضراء

وعندما وصلن الى سن النضج واكتمال الصبا والجمال

سمح ملك السحاب لبناته ذوات الحسن السماوي ان يهيطن

الى الأرض ، لاختيار سبع عرسان من بني البشر

شرط ان يكون العريس من هؤلاء هو افقر واحقر الناس

وأكثرهم بؤسا في هذا الجزء من الأرض ، كي تنقذه من بؤسه

وترفعه معها الى منابع النور، ليعيش في تلك الفراديس العلوية

حياة هناء وسعادة وحب، وسيتبين الله على هذا العمل الصالح ويسعدهن في حياتهن الزوجية

وقد هبطت كل واحدة منهن في جزء من اجزاء الأرض السبعة

لان الكرة الأرضية تبدو لساكني تلك الربع العلوية

نجمة سباعية الشكل

وكان من نصيب حورية، احدى ربات الحسن السبعة

اللاتي اتجهن كبير ملائكة السحاب

الذي يصنع البرق والرعد والغيث

ان تهبط على الشاطئ الجنوبي للبحر الابيض المتوسط

وفي مدينة اسمها طرابلس

وان تختار شقيا بائسا فقيرا حقيرا ، تسمح بريشها الملائكي

غبار البؤس عن وجهه، وتحيل أيام الجذب والقحط في حياته الى

مواسم خصب موفقة مزهرة بهية، اسمه عثمان الشيخ

إلا أن الحماقة التي اعيت الحكماء الذين حاولوا مداوتها
تمكنت من عقل هذا الرجل وقلبه، واعمت بصيرته
فرفض هذه الهبة الملائكية
ورد ابنة السماء كسيرة البال
واختار ان يبقى عائشا في فقره وبؤسه وشقائه
نعم هذا هو بالضبط ما فعلته بنفسك، وما فعلته بحورية
التي كانت هبة ارسلتها ملائكة السماء اليك
فعاملتها بأسلوب غادر، لا يليق الا بأسافل الناس
دون مراعاة لكل ما اعدقته عليك من عطف وحب
وما قدمته لك من خير كثير . ظلمتها وظلمت نفسك
سرت في الطريق دون ان تحدد اتجاهها . كنت تشعر بالضيق
ومع الضيق يأتي الشعور بالاختناق ، ولاهنا مقطوع الانفاس
سرت متخبطا ، نائها . تحولت ربطة العنق الى حبل يلتف
حول عنقك ، ويخنقك فازحتها ، ووضعتها في يدك
ولكن ماذا تفعل لقدميك اللتين تسوخان في الأرض
كأن الرصيف تحول الى مفازة من الرمال
المفارقة الكبيرة ، المفجعة ، هي ان هذه المرأة التي
تهرب منها ، وترفض عطاياها، هي ذاتها التي تتحرق
الان شوقا لان ترى عينيها
لانك ما ان تفارقها دقيقة واحدة ، حتى يشدك الحنين اليها
فانت بمجامع قلبك تحبها، وتحب ان تكون دائما معها
مقيما في ضيافة جمالها، مشمولا برعاية هذا الجمال
الربائي الذي يشع منها كحجر كريم من اصفى وارقى المعادن
يشع في في كل الاوقات ، ليلا ونهارا
وعبر كل الحالات ، عندما تصمت وعندما تتكلم
تجلس او تتحرك ، ترضى او تغضب ، في النوم واليقظة
ويشع كما تفعل الاحجار الكريمة من كل جزء منها وكل زاوية
انك لا تتصور نفسك تحيا بعيدا عنها ، مطرودا من
بساتين حسننها وجبها، بعيدا عن لمساتها الحنونة
الرحيمة الدافئة التي كانت دائما بلسما لجراحك

وبيتها الذي عشت لحظات سعيدة في كنف
اضوائه وظلاله وعبيره
ظننت انك كنت تسير بعيدا عن بيت حورية
ثم اكتشفت انك لم تكن طوال الوقت تفعل شيئا سوى
الطواف حوله ، والاقتراب منه ، لانك حتى بلا قصد
ولا تدبير ، لم تستطع الابتعاد عنه
اين يمكن ان تذهب بكل هذا الضيق ، الذي يطبق على صدرك ؟
وكيف يمكن ان تواتيك الرغبة في الراحة او تناول
أي طعام او شراب؟ وانت تعرف ان حورية تعيش لحظة كدر
بسببك . بقيت هائما في الشوارع حتى حل المساء
كنت منهكا ، خائفا من العودة الى غرفتك في الفندق
لانك لن تجد الا مزيدا من الافكار السوداء تهاجمك
كضباع البراري
وتلمسا لشيء من معاني التطهر ، وغسل ادران الروح
وبحثا عن المؤانسة ذهبت الى الاسرة
التي لا تعرف اسرة سواها في مدينة طرابلس
وهي اسرة الحاج المهدي
ذهبت اليهم في بيتهم الجديد في جنان النوار
الامتداد الجديد الذي اضافته الإيطاليون للحي العربي ابي الخير
والذي يغطي المنطقة الفاصلة بين الحي القديم ومقبرة سيدي منيدر
كنت تظن ان وجود البيت قريبا من المقبرة ، سينتقص
قليلا من فرحة الحاج المهدي بهذا البيت ، الا انك وجدته
سعيدا بذلك " كيف لا اكون سعيدا وانا لجد نفسي مشمولا
ببركات الصحابي الجليل سيدي منيدر
انني لم اشعر بالامان في حياتي كما اشعر به الان "
كان الاستقبال هذه المرة حافلا
أخذك الحاج بالاحضان ، وانهمرت دموعه في بكاء صامت
بدا البيت أجمل مما رأيته اول مرة، عندما كان مجرد حيطان
بلا اثاث ولا سكان ، ودخلت عبر اروقة البيت الى الحديقة
الخلفية ذات الغرس الجديد

حيث اتكأ الحاج المهدي على مندار تحت الحائط
وبجواره الشيخ البلبال، الذي دعاه صاحب البيت للمشاركة
في الاحتفال بالبيت الجديد، وقراءة الادعية والاوراد كي يباركه
جلست بجوارهما ، فادهشك ان ترى الحاج المهدي
يخاطب الشيخ البلبال ، باعتباره صاحب الفضل الاول
في حصوله على هذا البيت
بينما تعرف انت ، أكثر من أي إنسان سواك
ان لا فضل في هذا الفضل لغيرك انت والحاكم العام
وعرفت اثناء الحديث ان الشيخ البلبال كان قد تنبأ
لأهل البيت، قبل عدة أيام من حصولهم عليه، ان هناك خيرا
في الطريق اليهم ، وانهم سيدخلون عتبة جديدة
وسيحصلون على دكان جديد
وستشهد حياتهم تغييرا كبيرا الى ما هو افضل
لم يكن هذا الكلام قابلا للتصديق لحظة ان استمعوا اليه
لانه لا شيء في الأرض او السماء يوحي باحتمال حدوثه
الا ان الحاج المهدي، لم يشأ ان يقطع الامل
او يشكك في قدرات الشيخ
ولم يزد على ان قال "أمين" ردا على ما سمعه من كلام
باعتباره يقع في دائرة الأحلام والامنيات
وعندما جاء البيت الجديد وجاء الدكان
ومعهما العلاج والتعويض عن الأرض او استردادها
لم يكن ذلك كله في أعين الحاج المهدي وافراد عائلته
الا معجزة تحققت على يد الشيخ البلبال
كانت ثريا هي التي فتحت لك الباب
وكان وجهها الذي ينبض بشرا وفرحا، اول ما رأيت
وانت تدخل عتبات هذا البيت، واجوائه المسالمة ، الهادئة
التي بعثت في نفسك الامن، والسكينة
قادتك ثريا الى الحقيقة ، حيث يجلس والدها وضييفه
في حين جلست امها لاعداد الشاي في ركن غير بعيد عنهما
وأمامها الكانون وعالة الشاي

نقلت اليك ثريا ، اثناء سيرها معك الى الحديقة
ما قاله والدها عن معادن الرجال التي لا تظهر
الا في اوقات الشدة ، وعن امتنانه منك لانك برهنت
بصنيعك هذا انك تنتمي الى اشرف المعادن وأكثرها اصالة ونبلا
— هذا ما قاله والدك، فماذا تقولين انت؟

سألتها وانت تتمهل في سيرك ، كي تبقى لحظات أكثر معها
مستثمرا هذا الصنيع الذي رفع المعاناة عن اسرتها
كانت تضع رأسها في الأرض خجلا ، قائلة بانها لم تتعود
ان تخالف او تعارض ما يقوله والدها ، فكلامه يعبر
عن مشاعر الاسرة كلها ، التي لا تملك الا الدعاء
بان يحقق لك الله كل امانيك
— هل تقولين انت ، يا من كنت كل امنياتى في الحياة، هذا الكلام ؟

قلت ذلك في سرك ، متأسفا لان دعواتها ودعوات اسرتها
تأخرت قليلا عن موعدها ، وفات اوان تحقيقها
بمثل ما تأخرت انت في موعد عودتك الى المدينة
لتجد ان ثريا قد تم عقد قرانها
نظرت الى ثريا متحسرا ، واعدت بحرقة والم، كلمة سبق
ان قلتها منذ لحظات في مكان غير هذا المكان
وسيق غير هذا السياق :

— لماذا، يارب، لماذا ؟
وباستغراب بادلنك ثريا النظرات ، تسأل بعينيها العسليتين
الفانتين عن سبب هذه اللماذا، فاجبتها بذات الاسى والاسف :
— لماذا فرقت بيننا الظروف ، ومنعتنا من ان نكون زوجا
وزوجة على سنة الله ورسوله ؟
— هذا هو المكتوب .

قالت ثريا
فمن يستطيع ان يجادل المكتوب، او يرد القسمة والنصيب
او يعترض على القضاء والقدر الذي لا يختار ضحاياه الا من..
استغفر الله، استغفر الله، لن تستطيع ان تكمل، لكي لا تدخل
في التجديف ضد الغيب، وينالك عقاب الجاحدين

المارقين الزنادقة

كان وجود الشيخ البلبال امرا مثيرا للخوف بالنسبة لك
فهو بالتأكد يعرف نواياك ويدرك قصة حبك المشنوق
ويفهم الاسباب التي تدفعك للمجيء الى هذا البيت
الا انك بدلا من ان تبقى جالسا، خائفا من ان يلقي
كلمة تقضح سرك، قررت المواجهة وان تفرض عليه سياقاً
لاي كلام يقوله بشأنك، بدل الانتظار متوجساً
من اية كلمة يقولها

قلت له، وانتما تشربان مع العائلة الدور الثاني من الشاي
المحلى بالسكر والمعطر بالنعناع :

— الا تقل لي يا شيخنا الفاضل ، كلمة عن المستقبل الذي
ينتظرني لكي يطمئن قلبي ؟

كان الحديث الذي قطعته بهذه الجملة بدور
عن اخبار الحرب الدائرة في بلاد الأحباش
وعن المقاومة القوية العنيفة التي يجابه بها أهل البلاد
جيش الغزو الإيطالي ، بمن فيه الليبيون
وقد سألتك الام ان كانت لديك أي معلومات
عن صهرها فتحي

لانه منذ ان سافر لم تتستلم منه زوجته اية رسائل
ولم يأتيهم احد باخبار ما يحدث هناك

فاجبتها باختصار ، عن وصول السفن سالمة
الى هناك، وعن التقارير التي تتحدث عن بسالة الليبيين
وكفاعتهم القتالية ، وحجبت عنها ما سمعته من اخبار
عن حجم الخسائر الهائلة في الارواح ، التي تعرضوا لها
منذ الاشتباكات الاولى ، عندما وضعهم جريسياني

في خط الهجوم الاول

واردت تغيير الموضوع فانعطفت به الى موضوع

البخت والرجم بالغيب

اجابك الشيخ البلبال اجابة مخيبة للامال ، تقفل الموضوع
ولا ترضي الفضول :

— الله وحده علام الغيوب .
— ولكنك رجل مشهود له بالكرامات ، يتناقل الناس ما تقوله
عن المستقبل وكأنه من المسلمات ، لان الأيام اثبتت لهم
صدق ما تنبأت به من احداث .
— انها ليست نبوءات ، هناك إنسان صالح نسأل الله ان يجازيه
خيرا ، وآخر طالح نسأل الله ان ينال جزاءه في الدنيا قبل
الآخرة والله قريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه
شرط ان يتوخي الصدق والامانة.

انه يتصل من نسبة النبوءات اليه ، لانها اسرار لا يعرفها الا الله
ثم ينسب لنفسه قوة اكبر من النبوءة ، قائلا ما معناه انه هو الذي
يقرر الثواب والعقاب الدنيوي ، وعلى الله الاستجابة
جازفت بالسؤال :

— هل تراني إنسانا صالحا ام طالحا يا شيخنا ؟

قدمت سؤالك مشفوعا بابتسامه، كأنك تقول ذلك

على سبيل المداعبة والتيسط في الحديث

لكنه لم يستجب لابتسامتك ورد بملامح متجهمة عابسة :

— انت ادري بنفسك من كل الناس .

لاحظ الحاج المهدي الذي كان يتابع الحديث ، ما اصابك من كدر
نتيجة هذا الرد ، فتدخل لصالحك بكل ما لديه من دلالة على الشيخ
قائلا بلهجته الودودة وصوته العليل المشروخ:

— اعتبر عثمان ابنا ثانيا لي ، فليته يا مولانا يستطيع ان ينتفع

بعلومك واسرارك، وان تدعو له بالتوفيق والصلاح

في صلاتك

استوى الشيخ البلبال في جلسته، وطلب بيضة وصحنا فارغا

ظهر الارتيابك على ثريا وامها ، فالصحن الفارغ موجود

كما قالت الام ، ولكن البيت خال من البيض

الا اذا اراد الشيخ ان يبحثا عن طفل من اطفال الشارع

يرسلانه الى البقال لشراء البيض ، سال الشيخ البلبال الام

ان ترسل ابنتها الى المطبخ ، لانه على يقين بان هناك بيضا
في السلة التي يضعون بها البيض عادة
ذهبت ثريا الى المطبخ وعادت يملأ وجهها الاندهاش
تحمل طبقا من البيض ، الذي يعرف كل أهل البيت
انه لم يكن موجودا هناك ، ويسألون الشيخ البلبال
عما حدث ، فلم يهتم بالاجابة ، وانما سألها مرة أخرى
ان تحضر الصحن الفارغ الذي نسيته ، وان تعيد هذا
البيض الى المطبخ لانه لا يريد منه غير بيضة واحدة
اخذ البيضة ونقرها برفق على جبينك حتى تحطمت قشرتها
فافرغها في الصحن وصار يقرأ تسابيح، وهو يحرك محتويات
البيضة يعود في يده، وعندما فرغ من مهمته
سألك ان تقترب وتنتظر في الصحن فرأيت عينين كبيرتين
مصنوعتين من صفار البيض وبياضه
تتقدان كأنهما شعلتان من نار، تنتفخان سرا وحقدا
وحولهما شكل هلامي لوجه ممسوخ الملامح
سألك الشيخ ان كنت قد عرفت هذا الوجه وهذين العينين
وقبل ان تجيبه بالنفي ، اجابك بان هذه هي التابعة
وعندما قلت له انك تسمع بهذا التعبير
الذي يتداوله الناس كثيرا، الا انك لم تجد الفرصة لتسأل
عن تكون هذه التابعة، وما الذي تفعله بالناس
صار الشيخ يضرب كفا بكف، ضاحكا سخرية منك
قائلا للحاج المهدي ، بانك اول رجل ليبي يقابله لا يعرف التابعة
لان قدر الليبيين جميعا ان يعيشوا في صراع مع التابعة
وهي تطاردهم كبلد وكشعب ، قبل ان تطاردهم كافراد على حدة
— الا ان هذا لا يعنينا الان ، ما يعنينا هو حالتك انت
فتش في حياتك واستعرفها، لانها روح شريرة تتبعك
وتفسد عليك مشاريعك وتحطم نجاحك، وعندما تفكر
وتجتهد ، وتصل الى نتيجة طيبة، تأتي التابعة وتحرمك
من هذه النتيجة ، هل فهمت ؟
— وكيف العمل ياسيدنا الشيخ ؟

— لا تصدق ان هناك من يقطع التابعة غيرك انت ، بالاكثر
من الصلاة وذكر الله وقراءة سورة الاخلاص كل
يوم الف مرة .

اردت ان تستفيد بعلمه وتستعين ببركاته على تحريرك
من هذه الروح الشريرة التي تتبعك اينما ذهبت
والتي صرت على يقين من انها سبب كل ما عانيته
من سوء الحظ على مدى السنين ، وانها تترصدك في منعطفات
حياتك مثل قاطع الطريق ، تسلبك جهدك وعرقك
وتعيدك الى خانة الصفر مرة أخرى
الا ان الشيخ البلبال وضع قدميه في الصندوق
وانطلق خارجا من البيت كالزوبعة
قدمت واجب التهئة للعائلة ببيتها الجديد
والدكان الذي سيتم افتتاحه في هذا الحي
الذي اعده الحاكم العام ليكون من ارقى احياء المدينة
لصفوة من ضباطة وموظفي قصره
وتركتهم عائدا الى الفندق مهموما بقضية واحدة
طفت فوق سطح العقل والذاكرة، وانستك وحش التابعة
وعينيه الناريين ، وما تنفثانه من شر وحقد هي
قضية الاختيار الصعب الذي وضعتك فيه السنيورة حورية
لتعرف الى أي نوع من المعادن تنتمي حقا
لقد رأى فيك الحاج المهدي ، معدنا اصيلا ، نبيلًا ، ولكن
حورية لا تؤمن بالمظاهر ، فليس كل ما يلمع في مسقط
الضوء ، ذهبًا
اقتمت محكمة لنفسك أمام نفسك، في ظلمة الغرفة
التي يخترق صمتها هدير البحر، وتذيب رطوبته واملاحه
جيرها ، وطلاء بابها وشباكها، وتمتليء اجواؤها
برائحة الدواء المبيد للحشرات
مستخدما مرة أخرى تلك اللماذا، التي ظلت عالقة بذهنك
لماذا لا تقبل الزواج بحورية ؟
انك لا تعرف خارج اطار العائلة امرأة أخرى في الدنيا

أكثر مما عرفت حورية
عرفتها ظاهرا وباطنا، روحا وجسدا، فهل رأيت خلال هذه المدة
شيئا ولو ضئيلا ينتقص من قيمتها كامرأة وكإنسانة؟
وهل قابلت في حياتك كائنا بشريا ، ذكرا أو أنثى
يفوقها رقة وتهذيبا وذكوا
او امرأة في كل ما رأيت من نساء، تماثلها جمالا ؟
فكيف اذن تتردد في قبول عرض باذخ كأنه مائدة من السماء
توضع بين يديك ؟ ولماذا تعجز عن ادراك الخير الذي ساقته
اقدار حانية رحيمة اليك ؟ وتغمض عينيك عن رؤية الملائكة
الذين هبطوا من سمائهم ، مرددين اغاني الفرح السماوية؟
يزفون اليك هذه العروس، ويقدمونها اليك ، باعتبارها
هدية الهية ؟
— وماذا عن العلاقة غير الشرعية التي ربطتها بحاكم البلاد؟
— سمها ما شئت ان تسميها، فذلك لا ينفي انها علاقة نظيفة
لا تقل نظافة عن أية علاقة زوجية ، بل انك ستجدها
علاقة زوجية لو قارنتها بأسلوب الزواج القديم ، قبل ان
تأتي الحكومات ، وتنشئ للزواج المكاتب والعقود
والسجلات المدنية
اما بالمقاييس الحديثه فالاعراف السائدة بين
الاجانب تبيح مثل هذه العلاقات ، وتعتبرها نوعا من الزواج
ولذلك فانت لا تخطيء اذا اعتبرتها ، بعد ان تترك صاحبها
في حكم المرأة المطلقة ، وستجد الزواج بها أكثر يسرا من
غيرها من نساء مطلقات ، لانها لن تحتاج لقضاء مدة العدة
قبل الشروع في زواج جديد
— حتى لو قلت نعم لدفن الماضي بخيره وشره
وتطلعت الى المستقبل ، فهل هناك ما يضمن ان العلاقة
بين حورية وصاحبها الحاكم العام ، ستنتهي حقا
في هذا الوقت ، وعند هذا الحد ؟ بما يدفعك للزواج
منها وانت مطمئن للمستقبل
وحتى في هذه الحالة فان كثيرين لن يصدقوا ذلك

وسيعتبرونك زوج عشيقه المارشال
ولا شك ان الأمر سيصل الى اولاد الشيخ فتصور
كيف يمكن ان تواجه الناس هناك بمثل هذه التسمية
وكيف سيواجه رجل مثل والدك رجال البلدة ؟ وامك نساء البلدة ؟
انك وان رضيت بالجناية على نفسك ، وقررت ان تتحمل وزر
ما تفعل ، فكيف وباي حق تحمل هذه الجناية وهذا الوزر
لامك وابيك واخوتك ؟ وتحكم عليهم بالعيش مطأطئي
الرؤوس أمام أهل القرية .

حورية تؤكد بان العلاقة ستنتهي ، وانت ترى بان واقع
الحال يقول عكس ذلك ، بمعنى انها حتى لو ارادت فلن
تستطيع لان لحورية بيتا ، تحيا فيه حياة الاميرات، لن
تتخلى عنه ولن تجد مصدرا آخر ، بملك موارد غير محدودة
للاتفاق عليه غير المارشال ، وما تخشاه حقا هو ان يكون
هذا الزواج مجرد لعبة ، تضمن بها حورية الطفل الشرعي
والاب المسلم الذي يجوز شرعا الزواج منه
بينما تبقى العلاقة ، بينها وبين رجلها الحقيقي، مستمرة
دون توقف .

— قد لا يكون ظنك هذا صحيحا
وان حورية صادقة فيما تقوله لك ، واثقة من قدرتها
على الاخلاص لك ، وفي كلا الحالتين فان بإمكانك ان تختبر
صدق حورية، وتقبل عرضها بالزواج ، وما ان يظهر لك العكس
حتى تنفض يدك منها وترمي عليها يمين الطلاق
فما رأيك بهذا الحل ؟

ليس بإمكانك ان تتخذ قرارا بهذه السرعة، في قضية بمثل
هذه الخطورة ، الا انك تشعر بكثير من الارتياح لانك قطعت
شوطا باتجاه الحل ، فالموضوع يبدو الان أكثر وضوحا
في ذهنك ، وخلاصة ما وصلت اليه، هو انك لا تعترض على
اسلوب حياة حورية، وعلاقتها في الماضي
ومستعد لفتح صفحة جديدة معها، وبناء حياة مشتركة
بينكما كزوج وزوجة، فالماضي لم يعد مشكلة

المشكلة الان تتلخص في شيء واحد هو ان نتحقق
من ان اللعب سيكون نظيفا

قرأ الناس الإعلان عن مكتب الشكاوى في الصحف
وسمعه في الاذاعة، وتناقلوه شفاهة في الاحياء الفقيرة
وجاءوا في تظاهرة الى مكتبك في قصر الحكومة
وبعضهم عرف الطريق الى مقر اقامتك في الفندق
فوجدت في هؤلاء الغلبة فرصة للانغماس في شيء آخر
يعفك من هم التفكير في مشكلة الاقتران بحورية
كنت تلتقي بهم سواء في الفندق بمساعدة الكبران
الذي تنازل لك عن مكتبه لاستخدامه في هذا الغرض
لساعتين او ثلاث ساعات في اليوم
او في المكتب حيث اتخذ الناس من الحائط المواجه
للمدخل الخلفي لقصر الحكومة
مكانا يتكدسون عنده طوال ساعات الدوام
لم تكن تظن ان هناك اناسا بهذه الاعداد الغفيرة
يحتاجون لخدماتك، ولم يكن ممكنا ان تخصص وقتا
للقاء ومساءلة كل من جاء يحمل معه عريضته
الا انك حاولت، قدر ما تستطيع، ان تقابل اكبر عدد منهم
وان تجعل المقابلة نافعة، وقصيرة في ذات الوقت
الى حد انك كنت تقرأ العريضة، وتسمع قصة صاحبها
في وقت واحد، مدربا نفسك على ان تقرأ بنصف عقل
وتستمع الى صاحب الشكوى بنصف العقل الآخر
بامل الوصول الى حقيقة الموقف، وايداء الرأي
الذي يناسب كل حالة، مدركا ان البداية هي اصعب المراحل
وأكثرها ازحاما بالشكاوى والعرائض، التي لابد ان تبدأ
مع الأيام في التراجع والتناقص
وكان العمل يأكل النهار كله
فعدا وقت الدوام، هناك ساعات، قبل وبعد الدوام، تخصصها
للقاء الناس في الفندق، دون ان تنسى حريك ضد "التابعة"

التي تريد وقتاً فوق هذا الوقت ، خاصة قراءة سورة الاخلاص

كل يوم الف مرة، حسب وصايا الشيخ البلبال

لكي تستطيع ان تطرد الكائن الشرير ذي العينين الناريتين

الذي يلاحقك. وعندما وجدت صعوبة في عد السور الالف

اشتريت مسبحة تستعين بها على عدها ، وما ان رأى

اصحاب الشكاوى مسبحة في يدك، حتى اعتبروك شيخا

صالحا، ممن برعوا في تدبير شئون الدنيا والدين

ووجدوا فيها ذريعة لتقبيل يدك تبركا بالمسبحة

وصاحبها ظاهريا، بينما هي في الحقيقة مجرد تزلف ونفاق

خاصة من النساء العجائز اللاتي ، لا يعرفن ضالة منصبك

ولا حقيقة من تكون، ويعتقدن كما اعتقدت نورية من قبلهن

بانك الشخص الثاني بعد الحاكم الإيطالى

لقد افزعك اول امرأة احنت رأسها وقبلت يدك

الممسكة بالمسبحة، في لحظة غفلت فيها عن نفسك

حتى استطاعت ان تمرغ شفيتها فوق ظاهر يدك

اصابتك رعشة زلزلت جسمك كله ، فنفضت يدك

مذعورا ، كأن حية نشبت انيابها الزرقاء في الموضع

الذي قبلته المرأة وشعرت بسمها يسري في جسمك ، فصرت

تستنكر ماحدث قائلا بلهجة اقرب الى الهستيريا

" استغفر الله ، استغفرالله"

كأن المرأة جعلتك ترتكب كبيرة من الكبائر

لأنك تعرف على وجه اليقين ، ان يدك لم يصنعا من تلك

المادة الصالحة للتقبيل ، كأيدي الاعيان والوجهاء والفقهاء

وانك بذلك اعتديت على حيازات واملاك اناس آخرين

من ذوي الجاه والسلطان في امور الدين والدنيا

سوف يغضبهم هذا الاعتداء الصارخ على اختصاصهم

وجعلت تلتفت يمينا وشمالا وتتظر خلفك وأمامك

خشية ان يكون احد قد رآك

اتناء تقبيل المرأة العجوز لظاهر يدك

لم تختلط باحد من موظفي القصر، مكتفيا بعلاقتك بجندي

المراسلة، ونادل المقهي، وعامل البدالة
وفي حالات قليلة رئيس القلم الاداري السنيور كالفي
لان الاختلاط والتعارف يحتاجان الى وقت
لم تكن تملكه، فحجم العمل كان كبيرا وضاعطا
وكننت ترسل بحصيلة عمل كل يوم الى القلم الاداري
فرحتك بالهاتف لم تستمر بعد اليوم الاول ، لانه لا احد يهاتفك
من خارج القصر ، ولا انت تعرف احدا تهاتفه
ولا يبدو في الافق بان الحال سيتغير بعد ان اغلقت
حورية الباب خلفك بعنف ، منذ أسبوع مضى
وسألتك الا تعود اليها قبل ان تأتي معك بالجواب
فكرت أكثر من مرة في ان تذهب اليها
او تبحث عن رقم الهاتف وتهاتفها
وكننت تعدل عن ذلك، لان معاودة الاتصال بها يعني شيئا واحدا
هو ان تقول نعم لما عرضته عليك وانت حزين حقا لان
" نعم" ترفض ان تخرج من حلقك
حتى لو اراد قلبك ذلك، وهو فعلا يريد، فان لسانك
يرفض ان يقولها
شيء استقر في تلافيف المخ منذ أيام الطفولة
التي عشتها في بيتك الريفية البدوية
وظل مترسبا هناك مع الأملاح والمادة الجيرية والكنسية
التي صنع منها هيكلك العظمي تمنعك
من ان تكون أمينا وصادقا مع نفسك
وترغمك على ان تقهر عواطفك وتكبت رغباتك الحقيقية
خوفا من الغيلان التي تسكن في ظلام الأرياف
والتي يسميها الناس العادات والتقاليد والعيب والعار
والشرف وكلام الناس ، فتكون القاعدة هي ان تقول
لا ، حين يجب ان تقول نعم ، وتقول نعم، حين تصرخ
مشاعرك وتستجد بك ان تقول لا
حتى لو كان في ذلك طمسا وتزييفا وقتلا لكل احساس
جميل ينبض به قلبك، ارضاء لتلك الاشباح التي تتوح

في خرائب الروح منذ لحظة الميلاد الى آخر لحظات
العمر . باي وجه تستطيع ان تقابل حورية ، وانت
غير قادر على ان تكون انت كما انت ، لا كما تريدك
العادات والتقاليد ان تكون
وتتخذ قرارك وفق ما يحبه قلبك وما تهفو اليه
كل جارحة من جوارحك، وكل خفقة من خفقات
هذا القلب المولع بجمالها
وتنسى الشرف الكاذب الذي تتحدث عنه حيزبون
عجفاء، حدباء، مدبوغة الجلد ، منتوفة الشعر
متهدمة الاسنان ، اسمها التقاليد، لانها عميا صماء
تتعرف على الاشياء باللمس
فتظن التبر رمادا والرماد تبرا
وكما يفعل الجبناء ، ذهبت قبيل الغروب ، متسللا الى بيتها
لتنسقط من السائق والعساس اخبارها
انهما لا يعرفان ما حدث بينك وبينها
ولا فكرة لديهما عن السبب وراء غيابك خلال الأيام
الماضية ، وهو غياب سألاك عنه منذ اللحظة الاولى
لوصولك فعزوته لانشغالك بتلقي شكاوي المواطنين
— هل سمعت يا عياد ؟ صاحبك عثمان صار ينظر في
شكاوى الليبيين .
— لست الا واسطة بين الحاكم والجمهور .
هكذا اجبت مختار العساس ، دافعا عن نفسك تهمة
التباهي بالعمل الجديد ، وإعطائه اهمية لا يستحقها
— هذه الوساطة كان يقوم بها رجال كبار في الدولة من امثال
الكومندان بشير الغرياني ، والامير سليمان القرماني .
— لاعلم لي بان هناك امراء وقادة ليبيين يعملون مع
الحكومة الإيطالية .
— ما عرفته حتى الان كثير جدا بالنسبة لمدة اقامتك
في هذه المدينة .
وتدخل الفزاني في الحوار بكلمات تفوح منها رائحة الحسد:

— لاشك ان ماتعرفه كثير جدا ، اما ماوصلت اليه من نفوذ
خلال هذه المدة القصيرة ، فهو بكل المقاييس
معجزة ، ما شاء الله .

وعاد العساس للحديث باسمه ساخرا إلا أنها سخرية تعكس
دائما ما يوسم شخصيته من صفاء الروح والوجدان :

— هناك من يقول بان لديك من يخدمك من أهل الخفاء ، فهل حقا
فعلتها وتزوجت صبية فاتنة من بنات الجن ؟

— ستكون انت بالذات اول من ادعوه لحضور عرسي
على الجنية اذا حدث ذلك ، ولكن من تراه يعرفني غيركما
ليقول عني هذا الكلام؟

— قل له يا عياد ، لقد أصبح اسمك يرن كالطبل في المدينة
فمثلك لا يحتاج لان يعرفه الناس ، ليتحدثوا عنه ، قل له ماذا
سمعت في وكالة التمور بسوق الثلاثاء .

— يقولون ان هناك من اغاظه سلوكك من أبناء المجاهدين
فترصدوا لك في المدينة للانتقام منك ، الا ان الحارس
الإيطالي الذي معك تمكن في آخر لحظة من انقاذك.

— وهل صدقنا هذا الكلام ؟ هاها هاها حارس إيطالي يحرسني ؟
لماذا ؟ هل تغير اسمي وصار المارشال بالبو أيضاً؟

— هذه اشاعات يروجها الناس عن المشاهير ، وقد أصبحت
واحدا منهم فلا تتدهش او تغضب اذا سمعت الكثير
من امثالها

لانك لم تكن تظمن لوجود السائق عياد بسبب
ما بينكما من رواسب الأيام الماضية
فقد انتظرت حتى حان موعد انصرافه
وسألت مختار العساس عن حورية

فاجابك بسرعة كأنه تذكر شيئا نسي ان يقوله لك:

— لابد ان تذهب الان لتحيتها والاطمئنان على صحتها
لانها ارسلت وراء الشيخ البلبال الذي جاء لزيارتها
أكثر من مرة خلال غيابك ، وهي لا تستدعيه الا في
حالات المرض او الكدر الشديد .

- وماذا تقول عن سبب الاستدعاء هذه المرة؟
- اقول ان العلاقة بينها وبين الباشا الكبير ليست على مايرام مما جعلها حزينة متعبة.
- وهل صعدت اليها وعرفت حالتها عن قرب؟
- كما تعلم فانا لا اترك مكاني هنا الا نادرا . هي التي نزلت مرتين في طريقها لمشاهدة حفل موسيقي في مسرح ميراماري اقول لك الحق لم يعجبني شكلها ابداء، كان وجهها بلون الكركم .
- ومن جاء لزيارتها غير الشيخ البلبال ؟
- صديقتها الممرضة السوريل والسيدة الإيطالية البدينة التي تقيس لها الفساتين ، اما الباشا الكبير فلم يات الا مرة واحدة منذ ان تركت العمل معنا.
- انني لم اترك العمل معكم الا لفترة مؤقتة.
- ولماذا مؤقتة ؟ لقد وصلت الى قصر الحكومة، فلا تفكر في العودة الى الورااء . انطلق وانظر الى الأمام دائما ، ولا تلتفت الى الخلف ، هنا او غير هنا، فهم لم يقطعوا سرتك في هذا المكان حتى تبقى مربوطا اليه، هل كنت تستطيع ان تقود السيارة وانت تلتفت برأسك الى الخلف ؟ طبعاً لا تستطيع ، اذن هذا هو شرط التقدم والنجاح دع شعارك الى الأمام سر " .
- ثم ربت على ظهره في حنان ابوي، قائلاً :
- نريدك ان تكون مندوباً في الدوائر العليا مندوب راقدي الريح من امثالنا .
- حتى انت يا عمي مختار، يامن تعرف البئر وغطاه، تقول هذا الكلام ؟ ان عملي في القصر لا يختلف عن عمل ساعي البريد ، فانا راقد ريح ايضا .
- راقد الريح هو من لا يجد ريحاً لاشرعة المركب ، يعبر به الموج ، اما انت فالريح يملأ اشروعك ويدفع بها بعيداً داخل البحر ، وها انت الان تعمل في القصر ، قريباً من الحاكم العام وهذا وحده يجعل الناس يهابونك ، ومهما كان عملاً صغيراً

فأنك الآن افضل من الامير سليمان القرمانلي
الذي يجلس في المبنى البلدي بعيدا عن قصر الحكومة .
— اناس كثيرون لا يعجبهم عملي بل ان بعضهم حاول
ان يتعرض لي بالاذى.
— اعرف ان ما سمعه عياد في وكالة التمور، لم يأت من فراغ
فكن دائما على حذر ، لان كل ذي نعمة محسود.
كان جميلا ان تسمع هذا الكلام من رجل مثل مختار العساس
لا يمكن لاحد من الليبيين جميعا ان يناقسه في حجم المعاناة
التي عاشها ، والتضحيات التي دفعها ودفعها اسرته
على ايدي الإيطاليين، ومع ذلك فهو يبارك عملك معهم
ويدعوك للاجتهاد والنجاح فيه
— الا تشعر بالضغينة ضد الإيطاليين ابدا ؟
— الضغينة موجودة، ولكن لا ادري ان كانت ضد الإيطاليين
ام لا ، انها ضد الظلم أكثر من أي شيء آخر، كلب الحجل
والسلوقي وبوسعدية، كما كنا نسميهم ، كانوا رجالا
ليبيين ، يخدمون مع الطليان داخل المعسكر، إلا أنهم كانوا
يعاملوننا بقسوة ووحشية لا نجدها عند الإيطاليين
وكانوا هم الذين يتولون اعمال الجلد والشنق
والوان التعذيب الأخرى حتى
جعلوا الموت بالنسبة لنا اهون من الحياة
حدث وانا اهيل التراب على مجموعة النساء الميتات
ان رأيت صدر احدهن يرتفع وينخفض تحت الرداء
فاسرعت بانتشالها من الحفرة . كانت في حالة اغماء
وما تزال على قيد الحياة ، فاحضرت لها روح النشادر
لتقيق من غيبوبتها ، وبقيت ارضاها حتى استعادت وعيها
وعندما عرفت انني انتشلتها من الموت، صارت تصرخ في
وجهي مستكرة ما فعلت، تلومني وتعنفني لانني انقذتها
من الموت واعدتها الى جحيم الحياة في المعسكر وتسال
الله الا يجعلني كاسبا او رابحا في حياتي.
نهض من مكانه وغاب داخل الجاراج بضع لحظات ليعود

بكوبين من الشاي . اعطاك واحدا وارثشف بصوت عال
رشفة من كوبه ، قبل ان يقول:

— حدث اكثر من مرة ان اشرفت على الهلاك . كان هناك
ركن بعيد ابتوا فيه عشتين ، ينقلون اليهما المصابين
بالامراض المعدية ليموتوا معزولين عن بقية الناس ، عشة
للنساء وعشة للرجال وليس مسموحا لاي احد ان يقترب
منهم ، الا عمال دفن الموتى وانا بينهم ، حيث يحتم علينا
العمل ان نتقدهم يوميا ونحن نرتدي الكمامات ، لنأخذ من
مات منهم لدفنه في المقابر الجماعية ، ونضع بجوار
الاحياء شيئا من الطعام ، اعده لهم أهلهم ، فكان
ان اصبحت اثناء هذا العمل بعدوى الحمى المعوية ، ونقلت
كغيري من المرضى الى هذا المكان الذي لا يخرج
الناس منه الا الى الدفن ، انتظر موتي مستلقيا بين عفونة
وافرازات المرضى الآخرين ، وانيهم الذي يتصاعد
صباح مساء . كانوا يموتون واحدا بعد الآخر في تلك
العشة ، التي لا تجاورنا فيها الا الحشرات الزاحفة
والطائرة . مات اثناء بقائي بها كل من كان معي من
المرضى ، ومات اصحاء خارج تلك العشة
وبقيت كما تراني الان ، احيا في العمر الاضافي الذي كتبه
الله لي . عندما رأني أهل المعتقل عائدا اليهم من عشة
الموت لم يصدقوا ، وظنوني شبعا جاء من عالم الاموات.
— سبحان من بيده ملكوت كل شيء .

— الحي ابقى من الميت كما يقولون ، وبالبو نوع آخر
من البشر غير الكلب جرساني، فلا الطليان مثل
بعضهم، ولا العرب .

وددت ان تخبره بما عرضته عليك حورية، فلعل رجلا
انصهر في مراجل الالم مثله ، ان يفيدك بكلمة متوهجة
تضيء أمامك شيئا من عتمة الطريق ، إلا أنه موضوع
ليس للتداول ، وسر لا يجوز افشاؤه الا في حالة
الاتفاق فعلا على الزواج ، اما غير ذلك فهو نوع

من التشهير الذي لا تستحقه حورية، وخطيئة
في حقها لا ترضى القيام بها
— يجب ان تذهب الان لزيارة السنيورة حورية
قبل ان يتأخر الوقت .
قلت وانت تهم بالوقوف :
— لعله تأخر فعلا ، ساعدو لزيارتها غدا او بعد غد اما الان
فما جئت الا للدردشة معك .
— الا تبقى قليلا ؟
— تصبح على خير .
كانت الرؤية دائما واضحة لديك ، لانك اخترت ان تتبذ
الاكاذيب من حياتك ، مدركا منذ انخرطك في العمل
انك لو نجحت في الكذب على الناس ، فلن تتجح في الكذب
على نفسك ، ولو نجحت في خداع جميع الكائنات
فانك لن تستطيع ان تخدع كائنا واحدا هو انت
ولهذا استطعت ان ترى الواقع مجردا من الاوهام
وتتعامل مع حقائقه العارية، المكشوفة، بعقل مفتوح
محاولا بمنتهى الوضوح ، ان تتبين مصلحتك فتهتدي اليها
وتهتدي بها ، دون اعتبار لمصلحة أي طرف آخر
الامر اختلف قليلا هذه المرة ، فمصلحتك بالتأكيد مع
ما تريده حورية ، وما يباركه الباشا الكبير، كما يسميه
مختار العساس ، وهي عملية مأمونة، وخالية من اية
مخاطر ، بالنسبة اليك ، وفوق هذا وذاك، لا وجود فيها
لاي صراع بين المصلحة والعاطفة
فما تمليه المصلحة ، هو ذاته ما يهفو اليه قلب
تلوع بحب امرأة استثنائية اسمها حورية
الا ان هناك عاملا خارجيا ، دخل على المعادلة واربكها
عامل ما كان يمكن ان نقيم له اعتبارا في اية قضية أخرى
إلا أنه فرض نفسه على هذه القضية ، التي تتصل
بالمصاهرة والزواج ، فهي مناسبة عائلية، ومهما كانت
الاولوية فيها لطرفي العلاقة ، وهما المرأة والرجل المتفقان

على الزواج ، فانه لا سبيل ابدا لاسقاط العائلة من أية حسابات
تتصل بهذه الزيجة ، بل ان العرف جرى في هذا المجتمع ، ان تكون موافقة الوالدين ، شرطا
أساسيا ، لا يتم اقتران العرسان
الا بعد الحصول عليه
والعائلة في مثل حالتك اكبر من مجرد الابوين
وانما هي اولاد الشيخ كلها ، القرية وأهلها
من آخر طفل جاء الى الحياة ، الى الشيخ الاكبر
صاحب الضريح ، الذي ينسب أهل القرية انفسهم اليه
ويتخذونه مرجعا اعلى لسلوكياتهم
وسلوكيات ابنائهم التي يجب ان تكون على مستوى
الانتساب لصاحب المقام الرفيع
وسلالة الاشراف التي جاءت من صلبه
ولا شك ان لمثل هذا الزواج تأثيره
وانت لا تريد ان تفعل شيئا يولب عليك القرية
ويورثك غضب رجالها ونسائها، الاحياء منهم والاموات
بمن فيهم بعض اسلافك ، ممن ينسب الناس اليهم صنع
الكرامات في حياتهم وبعد موتهم ، ولن تصلح حياتك
او ترى خيرا في دنياك كما كانت تقول امك محذرة
اذا تحركت عظامهم داخل القبور غضبا منك
وهذا ما سوف يحدث لو تحققت شكوكك
وكان الزواج المزمع بينك وبين حورية
مجرد صورة شكلية، تعطى غطاء شرعيا لنزوة امرأة
تريد ان تضيف الى ترف الحياة فوق سرير السلطة
نعمة انجاب الاطفال الشرعيين
ولعلها ضجرت من وجودها وحيدة، معزولة، في بيتها
نتيجة تصنيفها على خانة العشيقه
وهو تصنيف لا يقبله المجتمع المحلي
ولا يحب التعامل مع المدرجين في خانته، من بنات جلدته
فارادت ان تعود الى الاندماج في مجتمعها المحلي
تحت تصنيف جديد ، يضمن الاحترام والقبول

هو زوجة الموظف الليبي
حتى لو كان هذ التصنيف، تصنيفا كاذبا
يعبر عن الشكل دون المحتوى
لان العرف الاجتماعي لا يتعامل دائما الا من خلال الاشكال
حورية بالنسبة لك امرأتان ، اولاهما حورية المرأة والإنسانة
التي خلقها الله ابداعا الهيا جماليا، مارس فيه الخالق الاعظم
الاعجاز الذي لايقدر على اجتراحه الا هو
في انشاء هذه المأثرة الإنسانية، التي تكاملت فيها الجوانب
الجمالية الشكلانية، مع المحتوى الراقي في الذوق والسلوك
والمعاملة، وما كان ممكنا لإنسان مثلك ، اقتررب منها
واختبر شخصيتها ، واحترق باللهب الممجد لجمالها ، الا ان يعيش
عمره كله ، مسحورا بها، سبيا من سباياها
لا يرجو فكاكا من شباك حبها
اما حورية الثانية فهي عشيقة المارشال، المحكومة
بشروط واعتبارات، لا يمكنك ان تعرف اسرارها
او تنفذ الى ما يور تحت السطح اللامع الهادي لهذه العلاقة
وفي المقابل فانت أيضاً لديك هويتان : عثمان المجند
الذي انقذته حورية من هول الذهاب الى الحرب
واختارته سائقا لها ، ثم انعمت عليه بترقية لم يكن يستحقها
او يتوقعها، وجعلته موظفا يعمل في قصر الحكومة
تحت اشرافها ، فهو مدين لها بكل ما اصابه من خير
متوله بغرامها ، يشعر طوال الوقت ان سحائب فضلها تغطي
اينما ذهب ، وهناك عثمان الشيخ ابن قرية اولاد الشيخ
وسليل اصحاب الاضرحة والروضات التي يزورها الناس
تبركا بتقوى وصلاح اصحابها
واذا كنت حرا فيما تفعله بنفسك
فانت لست حرا فيما يمكن ان تفعله بقاطني تلك القرية القابعة
في قلب الحمادة الحمراء
بين المنتمين لاولاد الشيخ ، عتالون وعاطلون وشحاذون، ومجرمون دخلوا السجن ، وآخرون
انتسبوا الى جيش الطليان

اثناء مراحل الجهاد

فكل هذه الممارسات، مهما كانت خسيصة، يقبلونها

ويجدون العذر لمن دفعته الحاجة لارتكاب المحظور

الا محظور واحد لا يقبلون له عذرا ولا تبريرا

هو ان تتكسب امرأة من بيع جسدها

او يتكسب الزوج من بيع جسد امرأته

هذا هو الشرف الذي لا يمكن لمن فرط فيه من اولاد الشيخ

ان ينتظر غير القتل، بشكله المادي او بشكله المعنوي

فهل هناك من يعطيك ضمنا اكيدا بان حورية قادرة على ان

تضحي بحورية العشيقة، لحساب حورية الزوجة والام

الحريصة على صيانة هذا الشرف ؟

غبت ثلاثة أيام، وعدت تحوم ببيت حورية

كان مختار العساس يجلس على الدكة الخشبية

غاطسا في افكاره، عندما ظهرت له بشكل مباغت

وقلت تستفزه :

— اراهن انك تفكر في الماضي ، فاتركه قليلا لكي تعيش في الحاضر .

— وهل يستطيع الإنسان ان يهرب من ماضيه ؟

— لا ادري ، ولكنك برهان ساطع على ان الإنسان يستطيع

ان يهرب من حاضره ، وانت الذي كنت تقول لي منذ يومين

لا تلتفت الى الوراء، وانظر الى الأمام دائما.

— نعم لان مستقبلك أمامك ، اما انا فمستقبلي تركته خلفي ، وهكذا

حق لك ان تنظر الى الأمام، وحق لي ان انظر الى الخلف.

— الا توجد في هذا الماضي الذي تنتظر اليه دائما، لحظات مبهجة

تستطيع ان تعود اليها، وتستمد منها شيئا ينعش روحك ؟

— طبعا وهل للحياة معنى لولا هذه اللحظات المبهجة التي ينتزعها

الإنسان من قلب اكوام اليوس؟

— هذا كلام جديد اسمعه منك لأول مرة ، فلماذا اغرقتنا في حديث

الحزن والاسى ، وبخلت علينا بهذه اللحظات التي تفرح القلب ؟

— الم أخبرك عن المرأة التي انتشلتها من بين الاموات

لاني لا حظت ان بها رمقا من حياة ؟

كيف لا تكون لحظة مبهجة ان تعيد إنسانا من عالم الاموات الى عالم الاحياء؟ بعد أسبوع واحد من انقاضي لها تزوجتها . كانت امرأة جميلة ، وكانت وحيدة ، تزلزلت أثناء الاعتقال وفقدت طفلها الرضيع . كانت تصغرني باكثر من خمسة عشر عاما ومع ذلك تعلقت بي ، ووجدت ان زوجتي التي ماتت أثناء الوضع تركت طفلة عمرها اذ ذاك سنة اشهر فاعتبرتها هبة ارسلها الله لتعوضها عن فقدان طفلها ، وصارت تتولى الاعتناء بها ، وتقوم بارضاعها . وكان طبيعيا ان اعقد عليها واعيش معها عاما مليئا بلحظات الحب المبهجة داخل جحيم المعتقل . كان اسمها ام الخير ، ماتت بداء الكبد الذي نسميه بوصفير وهكذا لحقت ببقية افراد اسرتي التسعة الذين اكلهم معتقل العقيلة .

قلت مفجوعا وانت تبحث عن خيط امل في النهايات الفاجعة :

— ولكن بقيت الطفلة .

— عندما اختاروني مع من فقدوا عائلاتهم لنكون اول من أطلق سراحهم خرجت من البوابة ، لا أحمل شيئا غير تلك الطفلة ذات العام ونصف بين ذراعي . سرت بها في الصحراء تحت الشمس الحارقة ، لا ابغي شيئا غير الهروب من ذلك المعسكر المشؤم . امشي والتفت خلفي ، خوف ان يكونوا قد تراجعوا عن قرارهم ، وارسلوا من يعيدني الى المعسكر ، لا اصدق انني حقا نجوت . قبل ان اصل العمران لاحظت ان الصغيرة تلهث ، فجلست بها تحت شجرة رتم ، ووضعت راسها في الظل القليل الذي تصنعه الشجرة عليها تسترد انفاسها ، ووضعت قطرات من الماء في فمها من الزمزية التي كانت معي ، إلا أنها ماتت . اغمضت لها عينيها ، وتلوت الشهادتين وقرأت سورة الفاتحة على روحها ، واستعنت بعرف شجرة يابس ، لاحفر لها قبرا ، وبمجرد ان وضعتها في الحفرة وأهلت عليها التراب ، وصل جنود الدورية الإيطالية يمتطون سياراتهم العسكرية ، ويسألونني

عما افعله بكومة التراب التي أمامي
فقلت لهم بانني دفنت طفلي الميتة وهذا قبرها
فعادوا الى سؤالي عما اذا كنت املك تصريحاً بالدفن
كنت لأول مرة اسمع عن مثل هذا التصريح
وشرحت لهم بانني خارج لتوي من معسكر العقيلة
حيث الناس يموتون ، ويدفنون في الصحراء، دون
تصاريح . تأكدوا من اوراق التصريح التي تحمل اسمي
واسم طفلي وامرني كبيرهم باخراج الطفلة من قبرها
والبحث عن مقبرة ادفنها فيها
لان هذه منطقة عسكرية يمنع فيها الدفن
حاولت ان اشرح له كيف اننا في الصحراء
لا نملك مدافن كالتي في المدن ، وارجوه ان يرأف
بهذا الاب الذي أمامه ، والذي فقد آخر واعز اطفاله
لا ادري حتى الان كيف لم اتهالك منهاراً فوق القبر
وكيف وجدت القدرة في ان ارفع التراب الذي أهلته
فوق جثة الصغيرة وكيف حملت تلك الجثة التي يعفر
التراب وجهها وشعرها
ويملاً عينها، ووقفت أحملها ثانية بين ذراعي
وكيف سرت ابحت لها عن قبر في مكان بعيد غير
هذا المكان ، وقد اظلمت الدنيا في وجهي، وانا لا اعرف
اتجاهها اسير فيه او مكانا اذهب اليه ، الا انني مضيت
اسير في الصحراء
أحمل جثة الصغيرة بين ذراعي وأبكي
اسير وأبكي، اسير وأبكي، حتى ادركني الظلام

كنت انت أيضاً قد بدأت تشعر بالتصدع داخلك
نتيجة ما كان يقوله مختار العساس، الذي بدأ صوته يتلون
بلون الموقف الذي عاشه من سبع سنوات مضت
وقد مد ذراعيه أمامه كأنه يعيد مشهد وجود الطفلة بين ذراعيه
واختنق صوته بالنشيج ، وتأسفت لانك من حيث اردته

ان يستعيد لحظاته السعيدة
نداعت احدى اكثر لحظاته حزنا وتعاسة
وفي هذه الدقيقة ، ظهرت السنيورة حورية
كانت قد هبطت السلالم ، ووقفت امام العمارة
تنتظر السائق الذي كان جاهزا بسيارته
فتحرك بها ووقفها امام السنيورة حورية
هبط يفتح لها الباب الخلفي
والتقت في تلك اللحظة عينك بعينيها
فنهضت واتجهت مسرع الخطى لتحياتها
ولم تتردد هذه المرة في اخذ يدها وتقبيلها
كما يفعل الإيطاليون مع نسائهم ، كأنك تعتذر لها
على سلوكك معها ، ولعلها رأت في عينيك اثار دمعة طفرت
منهما وانت تستمع الى احاديث العساس ، فظنت انها دموع
الندم لانيك تأخرت في العودة اليها ، فقالت تؤكد هذا المعنى معاتبة :
— هل كان لابد ان تتأخر كل هذه المدة ؟
لم تقل شيئا . وقفت تشبع نهم عينيك من جمال محياها
— الم تعرف ان المارشال سافر الى روما منذ عشرة أيام؟
لم تقل شيئا . واصلت النظر مشدوها الى حركة شفتيها الجميلتين وهما تصنعان الحروف
والكلمات
— وانه لم يبق من الوقت غير عشرة أيام .
لم تقل شيئا ، فاللحظة انفس واثمن من أي كلام ، بينما نظرت هي
الى ساعتها قائلة :
— لا أريد أن أتأخر عن العرض المسرحي .
جلست في مقعدها خلف السائق وانت مازلت تعلق البصر بها
تبحث عن لون الكركم في وجهها الذي رآه مختار العساس
فلم تر الا وردا وشهدا
— هيا اركب فقد تأخر الوقت .
فاجأتك هذه الدعوة التي لم تكن تتوقعها ، كنت تنتظر
ان تأخذ سيارتها وتذهب الى مواعدها ، مؤجلة اللقاء
بينك وبينها الى الغد ، وتكون انت قد نفدت من حرج

الموقف ، وعدت لتعرف كيف استطاع مختار العساس
ان يجد في ختام رحلته، قبرا يدفن فيه ابنته
لم تجد امامك الا ان تلبي دعوتها ، وتفتح الباب
الامامي ، وتركب بجوار السائق عياد ، وحمدت الله
ان هناك شخصا ثالثا معكما في السيارة ، يجعله
امرا مستحيلا ان تفتح حورية
الموضوع في حضوره . جلست في مقعدك تنتسم عطرها
الذي يبعث الخدر في الجسم ، دون ان تقول شيئا او تسأل
عن المكان الذي ستأخذك اليه ، حتى سمعتها تطلب منك
ان تنظر الى بعض اللوحات الاعلانية الكبيرة التي تزين
ميدان إيطاليا عندما وصلت اليه ، فرأيت لأول مرة منذ
ان جئت الى طرابلس ، إعلانات مكتوبة باللغة
العربية ، في هذه الشوارع والميادين
التي يحتكرها الإيطاليون ، ويجعلون اللوحات المعلقة
على حيطانها تقتصر على اللغة الإيطالية
كانت إعلانات ملونة تحمل صور
الممثلين ، وتشع حروفها العربية القا وبهجة بسبب
المصاييح الكبيرة التي تركزت فوقها
وهي احرف بارزة كتبت بخط جميل ، واللوان زاهية
تحمل اسماء الممثلين، وعناوين المسرحيات
التي تعرضها فرقة اسمها فرقة "رمسيس"
وهي مسرحيات الصحراء ، اولاد الفقراء ، عادة
الكاميليا ، راسبوتين التي ستعرضها الفرقة القادمة
من مصر على مسرح الهامبرا ، بواقع عرضين لكل مسرحية
في اليوم الواحد ، وافهمتك حورية وانتما تغادران السيارة
متجهين الى المسرح ، ان مسرحية الليلة هي "اولاد الفقراء "
وانها مسرحية هائلة بحسب ما قاله لها احد اللذين شاهدوا
عرضها الصباحي ، مؤكدة لك بان الفرقة التي تقدم المسرحية
هي اكبر فرقة تياترو في الشرق فهي فرقة فطیعة، مدمرة
وصاحبها ممثل خطير يتحلى بالنصيب الاكبر مما تسميه

حورية فضاة ورعبا وتدميرا وهولا
كان الحشد الكبير الذي جاء لمشاهدة المسرحية
كله من الليبيين والعرب الموجودين في طرابلس ، وفي حين
احتل الرجال الطابق الأرضي ، فقد خصص الطابق
العلوي للنساء والعائلات
بينهم بعض نساء الافراح الليبيات واليهوديات
وعدد من عائلات ليبية يرتدي نساؤها الفراشية
جلست في الصف الامامي المخصص للمدعوين بجوار حورية
ورأيت عندما ادرت رأسك للخلف ، نورية جالسة مع سيدة
بيتها شريفة وبقية زميلاتها ، فلم تعاود الالتفات لكي تتجنب
حرج الالتقاء بها والحديث معها في حضور حورية
كان الجو داخل الصالة ، واثناء انتظار فتح الستارة ، جوا
احتقاليا تلتقي فيه نخبة المجتمع العربي
ممن ارتفع مستواهم المعيشي
فوق مستوى حياة الضرورة ، فتطلعوا لهذه المتعة الراقية
التي تقدمها الفنون ، والتي لا تعترف بها طرابلس عادة
الا للإيطاليين ، وكان العرب من أهل طرابلس خرجوا الليلة
يتحدون هذا المفهوم ، ويؤكدون للإيطاليين انهم لا يقلون عنهم
رقيا وحبا للفنون ، وفهمت من حورية اثناء انتظار العرض
انها كانت وراء الموافقة لفرقة رمسيس بالمجيء الى ليبيا
لان الرقيب الإيطالي كان خائفا من تأجج المشاعر الوطنية
بسبب هذه المسرحيات العربية، واوصى بحجب الموافقة
الا ان حورية تدخلت عندما علمت بهذا الاجراء ، وردت
على هذا المنطق بسؤال واحد وضعته امام المارشال وهو
ان الفرقة في طريقها الى تونس والجزائر ومراكش . فلماذا
يكون الرقيب الفرنسي اكثر تحضرا وتحررا من الرقيب
الإيطالي؟ وبهذا السؤال الاستفزازي استطاعت ان تبطل قرار
الرقيب وان تجعل المارشال يوافق على تقديم هذه العروض
باعتماد ان إيطاليا ليست اقل حضارة وتسامحا من فرنسا
واضافت :

— قد لا تصدق ان هذه هي اول مرة تتطلق فيها اللغة العربية فوق هذا المسرح .

— شيء جميل ان تجلجل لغة القرآن في هذه القاعة التي لم تعرف الا لغة الرطانات .

— الم تشعر بالفرح والفخر وانت ترى الاحرف العربية تزين جدران طرابلس .

— انا على ثقة من ان اللغة العربية الشريفة ستكون شديدة الامتنان للسيدة التي اعادت اليها اعتبارها وقيمتها بعد ان ظلت غريبة مطرودة من شوارع هذه المدينة .

— انه عيد لأهل هذه البلاد .

— ليت هؤلاء الناس جميعا يعرفون ان وراء هذا العيد سيدة هي انت .

— لا اهمية لذلك . انني سعيدة لان تكون الفرقة هنا والجمهور هنا ، وانا وانت هنا ، هذا هو المهم ليس كذلك ؟

نعم، نعم، انه كذلك حقا وصدقا ، فهذه هي شخصية السنيورة حورية المفعمة بالبهاء والارحية ، التي لا يمكن ان تصنع صخبا حول ما تقدمه للآخرين من عطاء سمح كريم وهناك عطاء اكثر كرما وسخاء وسماحة ينتظرك انت عندما اطفأت الاضواء ، وفتحت الستارة وبدأ العرض فقد وجدت يدها تتسلل الى يدك في الظلام واحتويت انت اليد ذات النعومة المخملية وسرى الخدر اللذيذ في جسمك للحظات قليلة نسيت خلالها كل شيء ، المكان والزمان والمسرح والجمهور، والممثلين ، الا هذه اليد الانثوية البضة بأصابعها الجميلة التي يمثل كل اصبع منها نجمة او جمره ترسل لهما مقدسا يضيء القلب ، ويحرق الجسد بنار النشوة لتسقط كل التحفظات التي لديك عن زواجك من هذه الأنثى ولتسقط كل الاعراف والتقاليد البالية الجامدة التي تريد ان تحرمك من هذه المتعة

وليذهب الى الجحيم كل اولاد الشيخ وبناته، الذين يمكن
ان يمنعوا وصالا يتحقق بينك وبين هذه الحورية
من حور يات النعيم ، او يوقفوا قرانا سعيدا
سوف تفرح له الملائكة في ابراجها السماوية
احضر ابطال العرض الريف المصري بمشاكله ونماجه
وبيوته الى طرابلس ، ووضعوه امامكم فوق خشبة
مسرح الهامبرا، حيث ينقسم المجتمع هناك الى باشاوات
يملكون الأرض والرقاب ، وفلاحين معدمين فقراء
يخدمون هؤلاء الاسياد
وداخل هذه الهوة التي يصنعها التفاوت الطبقي
نشأت قصة الحب المستحيل
موضوع هذه المسرحية ، بين ابن الباشا وفتاة
تنتمي الى طبقة الخدم
وكان لابد للقوانين الظالمة الجائرة التي تحكم
المجتمع ان تنتصر وتحقق انتقامها من مثل هذا الحب
لقد اثمرت العلاقة الغرامية بين ابن الباشا والخادمة
جنينا بدأ يتحرك في بطن العاشقة المسكينة
ولانه من المستحيل ان تترك اسرة الباشا
ابنها يتزوج من هذه الخادمة
فكان لابد درءا للفضيحة من البحث عن ضحية
من أبناء الفلاحين المعدمين ، يرغمونه على الزواج منها
وصكت اذنك جملة كانت تتكرر في الحوار
انشاء رسم المؤامرة والباس الفضيحة
للفتى الفقير هي :
— هذا ما يريده الباشا الكبير .
وتذكرت تسمية مختار العساس للمارشال باليو
بالباشا الكبير ، ولم يكن صعبا ان ترى باليو
في صورة هذا الباشا
الذي يرسم المؤامرات ويصدر الاوامر
فلا يجد الا الطاعة والتسليم بما يقول

وان ترى نفسك في دور هذا الفتى الفقير
الذي يريدون امتحان كرامته وتروجه المرأة
التي قام احد أبناء الباشا بتلويثها وانتهاك إنسانيتها
ويريد ان يبقيا في دور العشيقة ، بعد ان تتزوج الفلاح التعيس
ووجدت نفسك فجأة تشعر برعشة تهز جسمك هذا عذيفا
لا ، لن تكون هذا الفلاح المخدوع ، المقموع
ولن تقف موقفه الدليل الحقيق
احسست بالعثيان
كانت امعاؤك تتحرك بقوة داخل جوفك
وتصل الى حلقك ، وجاء اللعاب الحامض المر يملأ فمك
تركت الصالة مسرعا ، وخرجت تعدو الى الشارع
كي تتخلص من هذا اللعاب
اتجهت الى ركن مظلم ترمي فيه بالقىء الذي يملأ فمك
وحلقك ويكنم على انفاسك
احسست بالارتياح وانت تقف قريبا من دار العرض
تستعيد انفاسك ، وتملأ رئتيك بالهواء شهيقا وزفيرا
اتجهت راجعا الى دار العرض ، ودلفت من الباب الرئيسي
الى حيث السلالم الموصلة الى الطابق العلوي
لكي تستأنف مشاهدة المسرحية
الا انك بعد ان وضعت قدمك فوق اول العتبات توقفت ، واستدرت عائدا
تركت دار العرض وواجهاتها المضيئة ، كما تركت ميدان إيطاليا
وضجيج دكاكينه، وعربائه، وسياراته
ونافورة الماء التي تغسل الجياد الحجرية
وعدت الى الشوارع المعتمة الخاوية
والى فندق الكبران ، وصعدت الى غرفتك
ودون ان تضئ النور ، ارتميت بكامل ملابسك
فوق السرير ، وطفقت تبكي
كنت تعرف ان تلك هي نهاية العلاقة مع حورية
وانك قد لا تراها مرة أخرى
كنت تتمنى ، وانت تلتقي بها منذ ساعات قليلة مضت

بعد أسبوعين من الغياب ، ان تكون قد تراجعت عن فكرة
عقد هذه الصفقة معك ، الا انك وجدتھا اكثر اصرارا وتصميما
وترى ان العشرة أيام القادمة هي المدى الأقصى
الذي يجب ان تتم خلاله الصفقة
ورأت في مجيئك الى بيتها علامة على ان كل شيء بينكما
يمضي وفق الخطة المرسومة
كنت وانت تركب معها السيارة تدرك
ان الأشياء تصل الى خواتيمها
لانه لم يعد هناك مجال للرجاء والمماطلة
ولم يكن ممكنا ان تمضي راكضا في
دنيا الله عاري البدن والروح
لا شيء يستر عريك الا ما نقوله لنفسك من كلام
تبرر به سقوطا لا تبرير له
وتستر به عريا يفضح هذا العري ولا يستره
ولم تكن تحتاج الا لذلك الموقف المسرحي
الذي جسد بلغة الدراما ومفرداتها القوية
وحمولتها العاطفية البالغة التأثير
حالة تشبه حالتك، تجسيدا حيا ، بالمثلين ، والحوار ، والديكور
لتعرف ان العلاقة قد وصلت الى نهايتها
لم يكن ممكنا ان تستمر في لعب دور الفتى الساذج
الذي لا يفهم ما يدبر له وما يدور حوله
او الحائر الذي يحتاج الى بعض الوقت كي يصل الى اليقين
كنت منذ البداية تعرف ان هذه المهمة ليست لك
وانت لست لها ، الا ان ولعك بحورية هو الذي جعلك تم
حبس المماطلة والتسويق الى حده الأقصى
وها قد وصل الحب الى نهايته
وحانت اللحظة التي تخافها وتخشاها
علاقتك بحورية كانت أجمل شيء طرأ على حياتك
منذ ان جئت الى هذا الوجود وما حدث لهذه العلاقة
من تطور اوصلها الى تلك اللحظة الحميمة

التي منحتك فيها نفسها
كانت ابداع هدية وهبتها لك ملائكة النور والفرح
لقد ارادت حورية ان تذيقك طعم تلك الفرايس
لكي لا تتحرر من سحرها ابدا
وها انت مسحورا بها مازال ، مفتونا بجمالها السماوي
تفارقها ، بينما كل خلية في جسمك ، تهتف باسمها
وتتحرق شوقا للالتقاء باريجها المسكر الذي لم تفارقه
الا منذ لحظات مضت ، مدركا انك ستحرم منه مدى الدهر
واصلت بلا روح ولا حماس ، العمل في قسم الشكاوى
الذي بدا واضحا ، وخلال فترة غياب الحاكم العام
ان لا احد من اعضاء ادارته يريد هذا المكتب
او يتحمس لحل مشاكل هؤلاء البؤساء الذين يقصدونه
كنت تعرف ان فكرة انشاء المكتب نبئت في رأس حورية
التي وضعتها في رأس المارشال
واذا كانت قد رأت فيها وسيلة لرفع المعاناة
عن بعض المواطنين فان ذلك لم يكن وحده الهدف
لان الهدف الاول والاساسي لديها كما افهمتك
هو رفعك انت الى المستوى الاعلى الذي يؤهلك
للاقتران بها ، بتدبير موقع وظيفي لك في قصر الحكومة
وها قد تقوضت الان هذه الركيزة الرئيسية
التي شيد فوقها مكتب الشكاوى
ولم يبق الا ان يتقوض المكتب نفسه تبعا لذلك
فانسحابك من صالة المسرح ، لا يعطي الا تفسيراً واحداً
هو انسحابك من البرنامج الذي عرضته عليك ، ورفضك له
الا ان التعبير عن هذا الرفض، جاء تعبيراً، سمجاً، سقيماً
لا يليق استخدامه مع امرأة مثل حورية
المرأة التي لا تعامل الناس جميعاً الا بارقى ما يتيح
السلوك الحضاري، من ذوق، ورقة، وتهذيب
ولذلك رأيت ان نكتب لها رسالة اعتذار
الا ان رسالة نكتبها بالعربية لا تفيد

لان حورية لن تتمكن من قراءتها ، ولن تستطيع
في ذات الوقت، ان تدع احدا يقرأها لها ، خشية افشاء سرها
ربما كان الهاتف هو افضل وسيلة لابلاغها اعتذارك
الا ان الهاتف يحتاج الى قلب شجاع
يستطيع ان يواجه حورية ويصارحها بموقفه
وهو قلب لا تملكه ، لانك مازلت ضعيفا حيالها
لا يأتي ذكرها ، او يمر في خيالك طيفها ، الا روادتك
رغبة حارقة في البكاء
تركت الامور تمضي في روتينها اليومي ، دون ان تفعل شيئا
سوى قراءة سورة الاخلاص الف مرة لتحارب بها غول
"التابعة" الذي يلاحقك ، ويفسد عليك حياتك
وتضاعلت الحشود التي جاءت مع بداية فتح المكتب
بسبب وجود الحاكم العام في اجازة
فهم يريدون شكواهم ان تصل الى المارشال ليبيت فيها
ولم تنشأ انت أيضاً ان تكون اقل ثقة من الجمهور في سيادته
فاهملت النظر في كل ما يأتيك من اوراق
الى حين عودته سالما من إيطاليا
انكفأت على نفسك فلم تتواصل مع احد
ولم تجد لديك رغبة في زيارة من وعدتهم بالزيارة
مثل نورية في سيدي عمران ، او الحاج المهدي واسرته
في بيتهم الجديد ، ولا حتى الذهاب الى وكالة الشوشان
لنسقط اخبار الأهل في اولاد الشيخ
اكتفيت بالمشوار الروتيني الى المكتب
دون ان تطيل البقاء فيه ، واستقبال بعض من يقصدك
من اصحاب الشكاوى في الفندق
والاستماع الى افكار الكبران الخيالية التي لا يستهدف
من ورائها الا تصحيح واصلاح الاوضاع المائلة
في حياة الجنس البشري
واقتراحه القديم الذي يقضي بضرورة انفاذ كنوز اطلنطيس
الذي يمثل هاجسا بالنسبة اليه

ما بفتاً يعود اليه بين الفينة والأخرى
 وقد اغاظه كثيراً ما قوبل به من اهمال
 من قبل السلطات العليا الا ان هذا الاهمال لم يمنعه
 من تقديم اقتراح جديد يراه اكثر عملية
 واعظم جدوى لأهل البلاد
 يريد ان يعرضه على الحاكم العام لكي يبدأ
 في تنفيذه فوراً
 ودون اضاءة مزيد من الوقت
 وهو تعمير الصحراء واعادتها الى سابق عهدها
 عندما كانت حقولا وغابات وثروات حيوانية ومائية
 وأرضا صالحة للزراعة والاستثمار
 ولكي تريح مخك من مواضيع أخرى
 تضغط عليه سألته ضاحكا:
 — وكيف يتحقق ذلك ان شاء الله ؟
 — المسألة بسيطة جدا ، جدا ، جدا ، وما عليك الا تقديمي لسيادة المارشال باليو لاشرح له
 بنفسه كيف يبدأ في تحقيق هذا الحلم الذي يراود قلوب البشر جيلا بعد جيل .
 — احتاج الامر الى اكثر من عشرة الاف سنة لتصبح الصحراء
 صحراء فماذا ستفعل لتعيدها الى سابق عهدها في عشرة أيام؟
 — لن يحتاج الامر الا الى عدد من الات الحفر العملاقة
 التي يصنعها الإيطاليون في معامل ميلانو
 نباشر حفر قنوات من البحر الى عواصم الصحراء
 لاستخدامها شبكة مواصلات بحرية
 هل رأيت؟ سنعيد بها تجارة القوافل بشكل عصري
 حضاري يوفر السرعة ، وبضائع حجم التجارة مئات
 المرات ونربط بها اطراف البلاد ، ومن ناحية ثانية
 فان هذه المياه الكثيرة التي تعبر الصحراء سوف تبدأ
 في تغيير المناخ عندما تمتليء الصحراء بالابخرة التي
 تصنع المطر ، وخلال فترة قصيرة ، سنشهد جميعا
 كيف تصير الصحراء جنة باذن الله ، وانشاء ذلك يمكن
 ان نقيم احواضا بين شعاب البادية لتربية السمك يقضي

على المجاعات التي يعاني منها أهل الصحراء ، وإنشاء
المراعي التي تروي بمياه البحر لتربية مواشيهم .
— تريد ان تنشئ المراعي والحقول بماء البحر .
— ولم لا ، قد لا تعلم انه يوجد غابات في اعماق البحر
اكبر واعظم من كل الغابات التي تسمع عنها
وبها من الأشجار والنباتات والاعشاب ما يفوق
ما هو موجود فوق الأرض ، فهل هذه الغابات تعيش
على مياه الامطار ؟ الا تتغذي هي أيضاً من مياه البحر ؟
فكيف لا نستطيع استنبات مثلها فوق الأرض ؟
— تعرف ان مستوى سطح الأرض يرتفع كثيراً عن مستوى
سطح البحر فما العمل ؟
— وهل هذه مشكلة ؟ مجموعة من طواحين الهواء ، مائة ، ألف
خمس مائة ألف ان شئت ، فهي لا تستهلك وقوداً ، ولا تكلف نقوداً
ترفع الماء الى مستوى احدى الهضاب المطلة على البحر
لينطلق منها بطريقة انسيابية ، فلا ترده الا جبال النيجر ونشاد
المتاخمة للحدود .
هكذا هو الكبران لا يهتم اية تفصيلة من التفاصيل ، ولا يترك
شيئاً لا يقيم له حساباً في هذه المشاريع الوهمية الخيالية التي
يشغل بها فراغ حياته
كان قد صادر منك الحاكي ، لاستخدامه في الفندق
مقابل ان يعفك من دفع اجرة الغرفة لمدة عام
وهو ما يوازي ثمن الحاكي جديداً
صفقة رابحة بالنسبة لك ، خاصة ، وانها تأتيك في مثل هذه
المرحلة القلقة التي تمر بها حياتك المهنية
وهذه الأيام التي لا يبدو فيها شيئاً واضحاً
ولا توحى بالثقة فيما ستحملة لك الايام
فلا اقل من ان تضمن لنفسك منذ الان هذه الغرفة
التي تريحك عاما كاملاً من هم التفكير في تدبير اجرتها
يراك الكبران شارداً ، لا تتابع تفاصيل افكاره المدهشة
التي يعتقد اعتقاداً جازماً ، بانها تؤسس لواقع جديد

سعيد للبشرية جمعاء ، فيقول معاتباً :

— ما اقوله كلام علمي ، ولكن عقول الليبيين لئلسف الشديد

نكره العلم والتفكير العلمي ، بمن فيهم انت

لانتني لا اري حماساً منك لمشروعي الذي سيغير

وجه الحياة فوق الارض .

— ومن ادراك اننا نريد تغيير وجه الحياة فوق الارض

او تحتها .

— انتني لا امزح ، واقول لك جاداً، ان الله خلق الإنسان، وإعطاه

العقل وجعل لهذا العقل ثلاث مناطق في المخ ، منطقة في

الجزء الخلفي من الرأس ، مسئولة عن الابتكار ونتاج

الافكار ، ومنطقة في وسط الرأس مسئولة عن التخطيط

الذي يضع الاسس والخطوات اللازمة لتنفيذ هذه الافكار

ومنطقة في مقدمة الرأس مسئولة عن التنفيذ ومباشرة

الحياة اليومية والعملية ، إلا أن الله أراح الليبيين من

منطقتين عقليتين من هذه المناطق الثلاث

اراحهم من العقل الذي ينتج الافكار

والثاني المعني بالتخطيط

ولم يترك لهؤلاء المساكين، إلا ذلك الجزء الذي يباشر

الامور عند وقوعها ، ولا يقوى على فعل شيء

سوى ردود الافعال ، ولذلك فإن الأمل ضعيف في أن

يصبحوا بشراً كبقية البشر

— الست انت أيضاً احد هؤلاء الليبيين ؟

— إليك مقياس لا يخيب في اختبار ليلية الليبي ، اذا قال لك

فكرة جديدة فتأكد ان في تكوينه ، عنصر اجنبيا ، وانا

لست استثناء من هذه القاعدة ، فأنا انتمي في جذوري

الى عائلة من الارناؤوط .

— انت تهاجم الليبيين لانهم لا يؤمنون بافكارك الخيالية

— رغم احترامي للخيال ، الا ان ما اقوله ليس خيالاً ، وانما

مشاريع مكتملة تنتظر التنفيذ .

وبدا أعضاء شلته يهللون واحدا بعد الآخر . قال الذي جاء قبل الآخرين وسمع جزءا من الحوار :

— لا نريد هذه الافكار، مهما كانت عظيمة ، لانه لن يستفيد من تعمير الصحراء الا الطالبان .

وطالب صديق جاء بعده ، بسماع صوت الحاكي ، فهو وحده الذي يقول كلاما ، أجمل من كل ما نقوله من كلام ثم بادر الى وضع الاسطوانة في الجهاز فانطلق صوت الغناء ينشر جوا مرحا راقصا في المكان ، ويطغى على صوت الكبران ، تاركا مشاريعه معلقة في حلقومه :

— يا صلاة الزين ، يا صلاة الزين

على عزيزة ، يا صلاة الزين

على الامراء ، يا صلاة الزين

ارتفعت اصوات الحاضرين تردد مع الحاكي ، مقاطع الغناء بينما عدت انت الى التهويم في عوالمك الخاصة تمارس لعبة الترقب والتوجس لما ستأتي به الأيام مستقيدا من هذه الميزة التي وهبها الله لكائناته من الليبيين كما يقول الكبران ، عندما اراحهم من عناء التخطيط وابتداع الافكار ، وجعلهم يتصرفون وفق ما تأتي به الاحداث والأيام ، مدركا بطبيعة الحال ان الاحداث لن تمضي في مسارها المألوف وان هناك وقائع جديدة مرشحة للظهور في حياتك عليك ان تهيء نفسك لاستقبالها

ولم تتأخر هذه الوقائع كثيرا ، فبعد أيام قليلة من عودة الحاكم من اجازته، وانشاء وجودك في المكتب تباشر اعداد التقارير عن الحالات التي سترفع اليه وقف امام بابك رجل ضخم الجسم ، يرتدي البذلة العربية الكاملة بالصديري وكاط الملف ، كما يسمونه ، والعباءة البيضاء ، والطاقيّة الحمراء التي يتدلى منها زر الحرير الازرق وفوق العباءة وضع برنسا فاخرا زيتي اللون رغم ان الطقس لم يكن يستدعي وجود البرنس

إلا أنه لزوم الوجاهة والابهة

وفي يده عصا من الخشب البني اللامع لا بد انه الخيزران
ومسبحة من الكهرمان ، وخاتم بفص كبير يلمع في احد أصابع يده
وقد ظهرت له لحية اختلط بياضها بسوادها ، زادته مهابة ووقارا
وقبل ان تقف لاستقباله ، وسؤاله عن الخدمة التي يريدتها منك
انطلق رجل ضئيل الحجم ، مسحوب الوجه ، كالجرد
يرتدي بذلة افرنجية شهباء ، كثيرة التجاعيد ، يسبقه
لدخول المكتب ، قائلا بصوت اشبه بالصراخ:

— الكومندان بشير بيك الغرياني .

دخل الرجل المهيب الى المكتب مختالا ووقف يجيل بصره
في جدرانه الاربعة ويرفعه بضع لحظات الى السقف
دون وجود شيء هناك يستدعي مجردلقاء النظر
ودون ان يلقي التحية ، خاطبك بلهجة تحمل معاني الدونية والازدراء :
— هل انت من يسمونه عثمان الشيخ ؟

لم تدر كيف تجيبه ، فاثرت السكوت . لم يكن اسم الرجل غريبا على مسامعك ، فهو احد
كبار الاعيان ، ممن تربطهم بالادارة الإيطالية
علاقة شديدة الخصوصية
— ما الذي تفعله هنا ؟

لقى في وجهك بهذا السؤال ، الذي كان من حقك انت
ان تتوجه به اليه ، الا انك كتمت غيظك ، واضعا في الاعتبار
فارق السن بينك وبينه

— اعمل هنا في مكتب شكاوى المواطنين

— منذ متى تعمل في هذا المكتب ؟

— منذ شهر وبضعة أيام

— واين كانت الشكاوى، واين كان المواطنون، قيل هذا الشهر ؟

هل ظهروا فجأة من تحت الارض ، ام ان هناك قصرا هو قصري
في الشارع الغربي ، ظل على مر السنين ، يستقبلهم
ويحل مشاكلهم .

ودون أي اثر للانفعال ، وبلهجة هادئة باردة قلت له :

— تعلمون سيادتكم جيدا بانني لم اقم بتعيين نفسي

في هذا المكان ، ولم افتح قصر الحكومة عنوة
وانشيء فيه مكتبا لشكاوى المواطنين ، اديره
لحسابي الخاص ، وان هناك مسئولا في هذا
القصر ، يمكن لمن لا يعجبه الحال ان يتفاهم
معه ، وليس معي انا .

فقال مغضبا :

— لقد تفاهمت معه وانتهى الامر ، سينولى فوزي
الجلوس في هذا المكتب ، واحالة ما يرد من شكاوى
وعرائض لي لاتولى النظر فيها ، لانني ادرى بشئون
الاهالى من الحاكم العام نفسه ، ورأفة بك سابقك تعمل
بالمكتب شرط ان تلتزم بالتعليمات التي يصدرها لك فوزي .
— انني لا اتلقى اوامري منك ولا من تابعك فوزي ، وانما من
المسؤولين في هذا القصر .

كنت تريد ان تطرده من المكتب ، هو والجرد الصغير الذي معه
الا انك تعلم على وجه اليقين ان الرجل مدفوع من جهة ما
لكي يتصرف بهذا الاسلوب ، ويقول هذا الكلام
فهو لا يتكلم من فراغ ، ولاشك ان اية معركة تفتتحها معه
ستخرج منها خاسرا ، فلا ضرورة لاعطائه نصرا رخيصا
تركت له المكتب وذهبت الى رئيس القلم الاداري
تقتحم عليه مكتبه ، وتسأله في لهجة حانقة ان يحميك
من تسلط رجل جاهل ، لا يعرف الأصول ولا يحترم
قرارات الحاكم العام ، ولا يعطي لهذا المكان حرمة
اسمه بشير الغرياني .

خرج الرجل من رواء مكتبه ، يحذف جسمه نحو الشمال
ثم اليمين ، يسأك ان تهدأ وتريح اعصابك
وامسك بيدك يقودك للجلوس على المقعد
ويطلب لك مشروبا باردا :

— لييبا كلها تعرف عصبية بشير بيك ، إلا أنه رجل
ابيض القلب فلا تغضب منه ، واعتبر كلامه لك
كلام اب يخاطب ابنه ، فهو ساخط ثائر، لان الحاكم

العام انشأ مكتبا للشكاوى دون علمه ، وهو الذي كان
 يتولى وبشكل غير رسمي استقبال شكاوى المواطنين
 الليبيين ولكي لا يجعل الموضوع قضية خلافية
 اقترح عليه الحاكم العام ان يزورك ويتفاهم معك
 على كيفية ادارة المكتب تحت اشرافه ، هذا كل شيء
 فاترك الامر معي لمدة يومين فقط ، وسأعرف خلالهما
 كيف ارتب الامور ، بحيث تستمر انت في عملك
 بالمكتب دون تدخل من أحد ، وانتولي انا احالة الشكاوى
 التي تحتاج الى رأي بشير بيك اليه في قصره
 تركت المكتب والشكاوى والبيك والتابع الجرد وقصر الحكومة
 والكاتب الاعرج وخرجت الى الشارع
 يلاحقك الوجه الممسوخ لوحش " التابعة"
 بعينيه الحاقدين الناريتين
 ما حدث ليس معزولا عن سياقه العام
 والوعد الذي اعطاه لك رئيس القلم
 باستمرارك في عمل المكتب
 مجرد تهدة لخطرك ، فالطريق صار مسدودا امامك
 نحو القصر الحكومي، بمنأى ما اضحى مسدودا امامك
 نحو بيت حورية، وما هذا الا بداية الاعصار الذي سيعصف
 بكل ما اسست عليه حياتك في هذه المدينة
 لقد حقق غول " التابعة " انتصاره عليك
 واطبق حصاره حولك
 رغم كل ما قرأته من سورة الاخلاص
 لان غول التابعة لا يعمل وحده
 وانما له جيش من الانصار والمريدين ينتشرون في اصقاع الدنيا ويسدون امامك كل المنافذ
 والطرق
 لم تعد تدري الى اين تتجه، وماذا تفعل بنفسك
 او تتصرف بوقتك، فلم يبق لك الا الغرفة الرطبة
 في فندق الكبران، تعود اليها دون ان تدري ماذا يمكن
 ان تفعل بداخلها، وتتركها فلا تدري ماذا تفعل خارجها

ورأيت بعد مرور يومين من الدوران في الفراغ
ان تذهب الى السنيور كالفي في القلم الاداري
تسأله عما حدث فوجده يطلب مهلة أخرى
ويطمئنك بان مرتبك سيصرف كاملا
كما لو كنت منتظما في العمل
كتبت له ورقة باخذ اجازة طارئة لمدة أسبوع واحد
لكي لا يعتبر الكومندان غيابك امتناعا عن العمل
ويستصدر من الحاكم العام قرارا بطردك
استمر اصحاب الشكاوى يترددون على الفندق بشكاواهم
ولم تجد بدا من استلامها منهم
والإبقاء عليها في غرفتك
دون ان تعبا بقراءتها او اجراء مقابلات مع اصحابها
كما كنت تفعل سابقا ، وبعد يومين انصرفوا جميعا
عنك ، فقد جاء من طرف الكومندان من يبلغهم
بان علاقتك بمكتب الشكاوى قد انتهت
وعندما رآك الكبران تتأخر في مغادرة الفندق صباحا
وتتخذ، عندما تغادره ، اتجاها غير طريق العمل أحيانا
وعرف انك في اجازة من مكتب الشكاوي
تقضيها متسكعا على الشاطيء
ربط بين هذه الاجازة ، وبين مشروع المدخل
السياحي لمدينة طرابلس ، الذي نتحدث عنه الصحف
ويتناقل الناس اخباره ، وبشكل خاص الجزء الواقع
غرب الميناء ، الذي مازال مهملا مهجورا رغم جماله
والذي رآك الكبران اكثر من مرة تتجه اليه
فذهب في يقينه ان الحاكم العام
بما يعرفه عنك من اهتمام وارتباط بهذه المنطقة
عهد اليك اختيار الاماكن التي ستقام عليها المنشآت
السياحية الجديدة ، ولديه فكرة ستجعل من مشروع الشاطيء
السياحي لطرابلس ، اسطورة من اساطير العصر الحديث
وهي انشاء فندق في قلب البحر

والامر كما يقول الكبران ، لا يكلف كثيرا لان
برج ابو ليلة الذي ينتصب فوق هضبة داخل البحر موجود
والجسر الصخري الذي يقود اليه جاهز
من صنع الطبيعة ، كل ما يحتاجه الامر
هو وضع خطة هندسية لتطوير ذلك البناء وتحديثه
واضافة طوابق جديدة فوقه، وتشديد مرافق تابعة له
داخل الماء ، أي بناء مقهى ومنتدي على شكل غواصة
لها نوافذ زجاجية ، حيث يجلس الزبائن بين الاسماك والشعب المرجانية والاحياء المائية
وسيكون لهذا الفندق جاذبية سياحية
اكثر من الريفييرا الإيطالية
قلت ضاحكا مرددا مطلع الاغنية التي سمعتها من الحاكي :
— يبدو انك وقعت تحت تأثير هذا الحاكي وبالذات الاغنية
التي تقول " في البحر لم فتكم في البر فتوني "
— لا ، وانت الصادق ، المقطع الالم هو الذي يقول " بالتبر لم بعتمك بالتبن بعنوني " ،
لان هذا مصير ما اقله لكم من افكار
تساوي ثمنها ذهباً . قل لي بذمتك اليست هذه فكرة عظيمة
لا تحتاج الا الى رجل عظيم مثل باليو لكي ينفذها

رجل طبيب هذا الكبران الذي لم يفقد ثقته فيك ، حتى وهو يراك
مشردا تتسكع قرب برج ابو ليلة ، ومقبرة اليهود المهجورة
هل تنهزم وتترك ميدان المعركة هاربا امام هذا الكومندان
الذي لا تدري من أي ثقب في الارض خرج لك
كما تخرج الثعابين ، ام تذهب وتصارع وتحاول ان تأخذ حقه
وتستعيد موقعك ، حتى وان لم تحقق نتيجة لنفسك
فيكفي ان تكون مصدر قلق وازعاج له
واذا كان المثل اللببي يقول بان الذبابة لا تقتل وانما تنثر
القرف والتقرز ، فمهمتك ان تقوم بدور هذه الذبابة التي
لا تستطيع ان تقتل الكومندان وانما تخلق له من القرف
والازعاج ما يجعله يكره اليوم الذي فكر فيه
ان يقتحم ذلك المكتب هو وجربوعه فوزي

تذكرت بان لديك ارتباطا باقوى مؤسسة في ادارة البلاد
هي الحزب الفاشي ، هذا الحزب الذي استلمت بطاقة عضويته
من الحاكم العام نفسه ، والذي لم تذهب اليه منذ ذلك اليوم
ولم تنتظم في حضور برامجه ، ولم تحصل على شيء
من امتيازاته ، يجب ان تذهب اليه حالا ، وتبحث لديه
عن العون الذي تحتاجه في معركتك مع الكومندان
والتعبير الذي يقول بان من يعضك يذكرك باسنانك
ينطبق على حالتك تماما ، اذ ما الذي فعله الكومندان
ان لم يكن عضا ونشبا لانبايه في لحملك
وما الذي يمثله الحزب الفاشي ان لم يكن اسنانا
قادرة على ان تبادل العض بعض اكثر قوة والما
وما فائدة هذه البطاقة ان لم تأت لعونك
في هذه الأيام العصبية
تهيأت للذهاب الى المقر الرئيسي للحزب ، بان
حلقت شعر رأسك لدى حلاق إيطالي ، حلقة
حديثه ، استخدم فيها اداة لكي الشعر
وتصفيفه حسب الموضة ، وحلقت وجهك
ووضعت فوقه نوعا فاخرا من ماء الكولونيا له
عبير الياسمين ، وارتديت القميص الأسود
والبنطلون الابيض ووضعت في يدك صحيفة
" الكورييري ديلا سيرا " الإيطالية التي تزين صفحتها
الاولى صورة النوتشي
لكي تبدو في صورة العضو الاثيق ، المتابع للاحداث
الذي يشرف به الحزب
ومع الساعة السادسة كنت في المعرض التجاري
حيث مقر الحزب . وجدت انهم اعفوك فعلا من برنامج
التدريب العسكري واللياقة البدنية ، باعتبارك عسكريا
محترفا ، عدا ذلك ، فانت مطالب بمباشرة كل المهام
التي يباشرها بقية الاعضاء ، واهمها حضور
برامج التوعية السياسية

واعمال المناوبة الدورية في المكتب
والحراسات التي لا تزيد عن يوم واحد في الشهر
وكانوا على وشك الدخول لحصة الدرس السياسي
فوجدت نفسك مجبرا على الحضور
حيث دخلت مع حشد كبير من لابسى القمصان السود
الى صالة واسعة ، وجلستم قبالة شاشة كبيرة اعدت
لعرض الافلام ، وادرت بصرك شمالا ويمينا فلاحظت
هذا التناظر الشديد بين القمصان ولابسيها ، اذ ان اغلبهم
ليبيون من ذوي البشرة السمراء
وأحيانا الداكنة الى حد السواد، ممن لا يناسبهم ارتداء
هذا اللون ، وهو ما يؤكد ان مؤسسي الحزب
الفاشي ، لم يكونوا يضعون
في حسابهم ، ان بشرا سمر الوجوه ، سوف يرتدون
قمصانهم التي اعدوها على مقاسهم ومقاس بني جنسهم
من اصحاب الوجوه الحمراء
اطفئت الاضواء ليبقى فقط شعاع الضوء الصادر
عن آلة العرض الموجودة في وسط الصالة، والتي تصدر
ازيزا كريها مزعجا ، وقد سلطت ضوءها على الشاشة
فظهر الدوتشي وهو يقف في شرفة عالية
وامامه حشد جماهيري كبير
يهتف باسمه بشكل هستيري ، قبل ان يبدأ في الفاء خطبته
وقد اختلط صوته بازيز آلة العرض فجاء مشوها ممسوخا
وهو يهدد القوى المعادية للزحف الفاشي
قائلا بان القوة الكاسحة لإيطاليا ستهزم شرادم العصاة
وتجار الرقيق في اثيوبيا ، كما ستساهم في صناعة النصر
على القوات الجمهورية العميلة في اسبانيا
من أجل قيم العمل والنظام والاتحاد في شبه جزيرة ايبيريا
وتطهيرها من البلاشفة والمخربين
واشار الى ليبيا اشارة عابرة ، التي تنعم بالاستقرار والازدهار
بعد الانتصار الكاسح للفاشية على ارضها

استمر الخطاب اكثر من ساعتين، تم خالهما تغيير
خمس بكرات من الاشرطة ، وكان قد اصابك الملل منذ
البكرة الاولى ، وقاومت النوم طوال الوقت خوف ان يلحظ
نومك ، احد الفاشست المتحمسين للدوتشي ويشي بك للادارة
وانت لست بحاجة الى مزيد من التعقيد
وما ان انتهى الخطاب واضيئت انوار الصالة
وبدأ الناس يخرجون حتى وضعت جسمك
بين المنزاحمين على الابواب وخرجت
جئت الى مقر الحزب ، هاربا من احساسك بالضيق والغبن
تبحث لديه عن نجدة ترفع عنك الحصار
فاذا بك لا تزداد الا حصارا وضيقا
ويتوافق مجيئك مع خطاب الدوتشي
لتجد ان الزعيم الإيطالي نفسه ، ينضم الى غيلان التابعة
التي تلاحقك ، ويجثم هو ايضا ، بيدنه العريض المديد
على صدرك حتى يصيبك الاختناق ، ولا تصدق ، عندما ينتهي
العرض وتضاء الصالة ، انك نجوت من كوابيسه الكريهة
فتركض هاربا الى الشارع ، موقنا ان الحزب ليس لديه
ما يقدمه لك غير مزيد من الازلال
خاصة بعد ان عرفت من قراءة احدى الاوراق
ان عدد الاعضاء الليبيين وصل الى عشرة الاف عضو
يزدادون كل يوم، في طول البلاد وعرضها
بحيث لن يمضي عام واحد حتى يصل عددهم الى عشرين الفا
فاي موقع متميز يمكن ان تصل اليه ، او يصل اليك ، وسط
هذا الزحام من اصحاب القمصان السوداء ، والوجوه
الاكثر سوادا ، الطامعين مثلك في الجاه والسلطان ، ولا تدري
لماذا ، وانت تجر معك حصاد الخيبة من هذه الزيارة
لحزب السلطة تذكرت نورية . ماذا لو ذهبت اليها الان؟
لقد تأخر الليل قليلا ، فالساعة توشك على بلوغ العاشرة
الا انك واثق من انها سترحب بك في كل الاوقات
بل ستجد في حضورك ، وانت بهذه الملابس السلطوية

فرصة للتباهي بك امام صاحباتها
خوصت عبر الحوار المظلمة ، حتى وصلت الى بيتها
الحي الصاخب الذي يسهر حتى منتصف الليل
صار صامتا ، مظلمًا ، بعد انتقال بيوت الدعارة الرسمية
الى منطقة المعرض التجاري ، وشوارع دائتي وفرجيل ودانزوي وماتزيني وغيرهم من
شعراء الحب الذين سيضطربون لصحبة
هذه الباقعة من بنات الهوى
كان البيت غارقا في الصمت والظلام
طُرقت الباب فلم يفتح احد ، وطُرقته مرة ثانية وثالثة ورابعة
باكثر قوة والحاح ، دون جدوى
لعل زبونا غاضبا لم يأخذ من حظه ما يرضيه
وشى بنساء هذا البيت الى الشرطة
فجاءت تأخذهن الى السجن بتهمة ممارسة الدعارة
دون ترخيص ، فالاعتراض ليس على المبدأ ولكن
على الاسلوب لان الحكومة لا تحب ان يشتغل الناس
من وراء ظهرها حتى في مجال بيع الجنس
كما لا تحب لمن يجني نقودا ان يستقردها
فلا يدفع لها حصتها ضرائباً ورسومًا
تأبى الظروف هذا المساء الا ان تتأكفك ، حتى سيدة
الافاق الطيبة التي تعودت ان تشتري منها ساعة
للترفيه والتسلية لوصدت بابها دونك ، لم يبق امامك
الا العودة المؤسفة الى الغرفة التي تسبح في العتمة
والرطوبة واملاح البحر
وتذكرت بعد ان مشيت بضع خطوات في اتجاه الفندق
الملهى الشرقي بسوق المشير الذي يبقى ساهرا
حتى ساعة متأخرة من الليل
والذي يمكن ان تجد لدى مطربه وموسيقيه وراقصاته
ما يبدد احساس الكدر والضيق
الا ان هناك مشكلة تواجهك ، هي هذه الملابس
التي ترتديها ، والتي لا تدري ان كان مسموحا بارتدائها

في مثل هذه الاماكن
ومن ناحية أخرى فان الطريق الى الملهي يمر
بمناطق كوشة الصفار وقوس الصرارعي وقد يثير
منظره بهذه الملابس ، المشاعر الوطنية لشباب هذه الاحياء
فيتعرضون لك بالاذى ، ولذلك قررت العدول عن الذهاب
الى الملهي والعودة الى الفندق عبر حارة اليهود التي بدأ
أهلها يقفلون دكاكينهم ، ويأوون الى بيوتهم . تجاوزت
الحارة ، وسلكت سبيلا امنا ، هادئا ، يصعد الى هضبة
باب البحر حيث وقفت هناك ترقب موج البحر
وتستشق انسامه المشبعة برائحة نفاذة لها نكهة رحيق الشيح
تلك النبة التي تطيب بها أهلها في اولاد الشيح ويتبركون
بزيتها ، وكان نصيبك منها وافرا ، في زمن الطفولة
عندما كانت امك تدلك جسمك بها و تطيب بزيتها العلل
التي تصيبك . رائحة لا تجدها الا في هذا الجزء
من البحر ، المحاذي للمدينة القديمة ، ربما لانها منطقة
مرتفعات ، غنية بالاعشاب والنباتات البحرية
والخلجان التي تنبت فيها الأشجار كالادغال
والتي منها جاءت هذه الرائحة الزكية
التي يستقبلها جسمك كله بنشوة بالغة ، لانها تذكره
بنكهة البراري والارياف التي ينتمي اليها
كانت الانسام تضرب وجهك باردة منعشة
وفي الافق لاحت اضواء سفن ترسو بعيدا ، تغطيها غلالة شفافة
من الابخرة التي يصنعها البحر
وفوقها يظهر بدر اكثر شحوبا وشاعرية ، ويعبر شيئا
من شحوبه وشاعريته لخط الافق الذي تحته
بينما كانت الأمواج التي تصطدم بصخور الشاطيء تصنع
صخبا لذيذا وتسهم في صياغة هذه المعزوفة
التي تعزفها كائنات الليل والبحر
اخذت طريقك هابطا الى الشاطيء
حتى وصلت ثل الصخور الذي يواجه برج ابو ليلة

فجلست هناك . امامك البحر ، وفوق رأسك النجوم
ومن حولك الكون ينعم بلحظة سلام وسكينة
لا يجرحها الا صوت الموج عند ارتطامه بالشاطئ
صانعا اقواسا من الماء ، يصلك منها رذاذ خفيف منعش
تضاعلت معارك النهار واحباطاته وتبددت سحب الضيق
التي كانت تملأ صدرك ، واحسست بجو السلام والسكون والامان
الذي حولك، يتسلل الى وجدانك ، فقررت ان تبقى حيث انت
لكي تنعم ولاطول فترة ممكنة ، بهذا الجو الذي ينعش الروح
ويغسل القلب من ادرائه ، ويمنح الإنسان احساسا بالراحة والهناء والاكتفاء ، كانه استوفي
كل احتياجاته في الدنيا
فلا يريد من احد شيئا
بقيت جالسا حتى شعشع ضوء الفجر ، فانطلقت
الى جامع قرجي ، الذي تفضله عن كل اماكن العبادة
الأخرى ، وكان قريبا ، فتوضأت وصليت الفجر
دون انتظار الجماعة كي لا تلتقي باحد
ينظر بازدراء لملايس الحزب الفاشي التي ترتديها
يفسد بهاء الاحاسيس التي تشعر بها
عدت الى غرفتك لتنام ، وقد امتلأت بفكرة انك لا تريد
من الناس شيئا ، ولا يملك احدهم لك ضرا ولا نفعا
ولا تطلب من احدهم خدمة ولا فضلا
فالله وحده واهب الملك
يعطي من يشاء بغير حساب، ويحجب فضله ونعمته عن من يشاء
ورأيت ان الإنسان الوحيد الجدير بان تزوره ، وانت تمر
بهذه التجربة الروحية وما يرافقها من صفاء الرؤية
هو الشيخ البلبال ، لتتعم ببركات رجل صالح ، يتعامل
مع عالم الروح لا مع دنيا المنافع والمطامع
والاغراءات المادية ، التي وقعت اسيرا لها، وركضت
وراء سرابها ، فكنت كالقابض على الريح
الى هذا الشيخ يجب ان تتجه ، ان انت رمت تطهرا
وتوبة وعلاجا لاسقام الروح وخلصا

من اعباء الماضي
وما ان صحوت واغتسلت وتناولت افطارك
من خبز وشاي وجبن
حتى توكلت على الله ، متجها الى بيت الشيخ البلبال
في زنقة شايب العين ، قريبا من ميدان الساعة
هبطت السلالم ، ويممت صوب باب الفندق
فاذا الشيخ البلبال يجتاز العتبة داخلا
ولم تزد على ان قلت لحظة ان رأيته
والدهشة تكاد ان تعقد لسانك لهذه المصادفة الغريبة :

___ كنت في الطريق الى زيارتك يا مولانا .
___ جئت الى هنا ، لاعفك من عناء مشوار لا طائل من ورائه .
___ لماذا تحرمني من عونك يا مولانا؟
___ لانك لن تجد العون لدى احد غيرك انت .
___ الا تتكرم وتتلطف وتجود علي بكلمة انتقع بها ؟
___ كم مضى من الوقت لم تزر والديك ؟ الا تعلم ان رضاها
من رضوان الله؟

اعطاك الكلمة التي طالبتك بان يجود بها عليك
واختفى في حين رجعت انت صاعدا الدرج الى غرفتك
ودون ابطاء . وضعت في شنطة الكتان ما تحتاجه اثناء السفر
الى القرية من اغراض ، وانطلقت الى وكالة الشوشان
تبحث عن سيارة متجهة الى اولاد الشيخ
كانت اخبار الخطوة التي تتمتع بها لدى الحاكم الإيطالي
قد جعلت منك واحدا من اصحاب الجاه والسلطان
في أعين أبناء البلدة

وما ان سمعوا بوصولك حتى توافدوا على بيت والدك
حيث اقامت ، للترحيب بك ، وتهنئتك بما وصلت اليه
ولم يتوان والدك في تأكيد هذه الوجهة فذبح كبشا
على شرف قدومك ، بطعم به هؤلاء الضيوف
وكان خلال الأيام الماضية، قد استثمر هذه السمعة
وصنع لنفسه، بدافع منها، مكانة بين اكابر القرية

حتى أصبح بيته مكانا يقصده هؤلاء الاكابر لمشورته
ومشاركته في تصريف امور البلدة ، والاستعانة به
في توصيل كلمتهم الى الحكومة ، وهو الذي كان قبل ذلك
مجرد رجل بسيط من عامة الناس، يقبع في دكانته يبيع
الفحم وغاز المواقد ، قبل استبدالها بدكانة اكثر وجاهة
تختص ببيع العلك للأطفال والشموع والقناديل لزائري
القبور و لا صلة له باكابر القرية وشيوخها
لا يعرف منهم احدا ، ولا يدرون هم بوجوده في الدنيا
وجاء منذ اللحظة الاولى لوصولك، من يحمل لك
العرائض والشكاوى يريد حلا على يدك
وكنيت تريد ان تشرح لهم ، انه لم يعد لك صلة بالمكتب
الذي يتولى هذه الامور ، لانك تركته لمشرفين آخرين
وعدت عسكريا في جيش الطليان
الا ان والدك منعك من الخروج اليهم
ومصارحتهم بمثل هذا الكلام الذي يراه سابقا لوانه
فانت مازلت لم تترك رسميا مكتب الشكاوى
ولو تركته ، فان هذا لن يلغي صلتك الوثيقة بالحاكم العام
التي يعرفها أهل القرية، ويفخرون بها
وعندما ترفض استلام شكاواهم، فانت بذلك ترفض
خدمتهم ، وتكسر خاطرهم ، وتجعلهم بغضبون
منك ومن اسرتك
ولهذا كان هو الذي يخرج اليهم ، ويستلم منهم
شكاواهم وعرائضهم ، ولا يتردد في وعدهم
بالنتائج السريعة التي سيوافيهم بها ابنه
وما سيبدله من سعي لتحقيق مطالبهم
كما جاء الشيوخ والمدراء برسائلهم ومذكراتهم الرسمية
المرفوعة الى الحاكم العام ، يرجونه فيها ان يشمل قريتهم
بعين الرعاية والرضا ، وان يساعدهم في التغلب
على الفقر والبطالة، بالموافقة على عدد من المشاريع
التي تاخر تنفيذها مثل تعبيد الطريق الموصل

لعاصمة الاقليم ، وبناء المستوصف الجديد، وحفر بئر ارتوازية
جديدة لمياه الشرب ، تتخذ أهل البلاد من شرب المياه الجيرية
الموجودة في البئر القديمة
فاخذها منهم الاب ، مع التأكيد على استعداد ابنه
لاقناع صديقه الحاكم العام ، بتلبية هذه المطالب
فلا خير في صاحب المسؤولية والنفوذ
إذا لم يذهب خيره لأهل بلده قبل الآخرين
عملا بالقاعدة التي تقول ، الأهل أولى بالمعروف
جئت الى اولاد الشيخ هاربا من المدينة
نتشد فيها السكينة والسلام
بعيدا عن الاجواء التي اصابتك بتعب البدن والروح
فاذا بتلك الاجواء تسبقك إليها ، وتقضي على
ما كنت تجده من الفة وعفوية عند لقاءك
مع أهلك وذويك
في هذه البيئة الريفية، القروية، الخالية
من تعقيدات المدينة وعلاقاتها القائمة على المنفعة
وتبادل المصالح ، فاذا بك تجد هذه المصالح تدخل
في اكثر العلاقات حميمية وخصوصية مثل علاقتك
بوالدك الذي سد اذنيه، واقفل قلبه وعقله عن سماع
ما كنت تقوله له ، وتعيد قوله ، بان هذه الاخبار السارية
عن علاقتك بالحاكم العام مجرد شائعات لا أساس لها
وان العمل في مكتب الشكاوى تولاها اناس آخرون
وكل ذلك ليس شيئا سيئا ، لانه لا يغير من حقيقة
انك بخير وعافية، ولك رتبة في الجيش تضمن لك
راتبا يكفي حاجاتك ويفيض منه على بقية الاسرة
فما ضرورة يدعي الإنسان امتلاك ما ليس له ؟
إلا أنه ظل متشبها بهذه الاوهام
التي خلق منها بديلا للواقع، فلم يعد قادرا على مواجهة
الحقيقة ، ذهبت تنقل بعض همومك الى امك، قائلا
لها بلغة بسيطة تناسب مداركها ، كل ما قلته لانيك

مضيفا اليه انك لا تدري كيف تعالج الامر مع والدك
الذي صار الان يقدم الفتاوى لأهل القرية في شئون
الحكم والسياسة ويمني اصحاب الشكاوى
بالاماني الجميلة

وينسب اليك قوة ونفوذا لا أساس لهما في الواقع
فلم ترد عليك الا بالبكاء ، لان كل ما لديها هو الدموع
تعبير بها عن حالات الفرح والحزن
والرفض والاستجابة، والاحتجاج والرضا
والوداع والاستقبال

وعندما سألتها لماذا كل هذه الدموع
قالت بانها دموع الفرح للمكانة العالية التي وصلها
ابنها في الحكومة ، والتي جعلته كبيرا في أعين أهل البلدة
وانك مهما اسرفت في الانتقاص من قيمتك
تواضعا ونكرانا للذات

فان الناس الذين يعرفون قدرك
ورأوا عن قرب ما بلغته من مكانة عالية بين أهل المدينة
لا يستطيعون انكار شهادتهم

فقد جاؤا يبشرون أهل القرية ويهتفون اسرتك
وكان اول المبشرين والمهنتين قريب العائلة المقيم
في المدينة عبد المولى ، الذي يلهج دائما بالثناء عليك
لما اصابه من خير على يديك

وما قدمته من احسان للبؤساء والمساكين في طرابلس
وما بلغته من شأن عظيم هناك
وصداقة مع الحاكم العام
وكلام كثير كان آخره :

— دع الآخرين يحسدونك اذا شاءوا
ولكن لا تحسد انت نفسك ، نفسك .

وهو ما يعني انها لا تصدق كلمة واحدة مما قلته لها
فالحقيقة ليس ما تقوله انت عن نفسك ، وانما ما يروج

من شائعات عنك . وهي تريدك الآن وبعد ما اسديته
من خدمات للاغراب ، ان تلتفت لاختوك ، و تساعدهم
في الحصول على منح وهبات من الحكومة
ومرتبات حتى وهم دون سن العمل والوظيفة
ولم تجد فائدة من تكرار الحديث عن مكانتك المتواضعة
التي لا تسمح بهذا الترف الذي تطلبه
فقد بدا لك ان المنبت المتواضع الفقير لاسرتك
سواء من ناحية الاب او الام
هو الذي ساعد على تعلق افراد العائلة بهذا الوهم
لأنهم ما ان لمحوا كوة في سقف عالم الفقر الذي
يعيشون تحته ، حتى احسوا بان السماء اخيرا
انتهت الى وجودهم
وقررت فتح خزائنها لمنحهم شيئا من حقوقهم
التي حرمتهم منها ، وحجبتها عنهم لدهور طويلة
ولم يكن سهلا اقناعهم ان تلك الكوة لم تكن الا كذبا
وان جدران الفقر والعوز ستظل تحاصرهم
وتطبق على صدورهم دون هوادة ولا هدنة
وان انصاف السماء وعدالتها سوف يتأخران
لبضعة اجيال أخرى
اكتفيت بان قلت لها بان اخوتك من امك او من ابيك
مازالوا صغارا لم يبلغوا سن العمل والوظيفة
وان المساعدة الوحيدة التي يحتاجونها ، ليست في يدك
وانما في يدها هي وابيه وبقية افراد الاسرة باولاد الشيخ
التي يجب الا تمنعهم من الالتحاق بالمدرسة الإيطالية
باعتبار ان التعليم هو افضل ضمانة للمستقبل
وقلت نفس الكلام لابيك عندما جاء هو الآخر
على ذكر اخوتك ومستقبلهم كما فعلت امك
وكأنهما رغم انفصالهما الذي مر عليه عقد ونصف
من السنين يتمتعان بتواصل الافكار وتمائلها
ولم يكن غريبا ان تسمع من ابيك ردا ، يتطابق مع الرد

الذي سمعته من امك وهو :
— لاتنس ان زاوية سيدي السني هو التي جلبت
لك كل هذا الخير .
وهكذا فالتعليم الديني ، ومعاداة التعليم الذي تقدمه
السلطات الإيطالية ، يبقى القناعة الراسخة لدى
هذا الجيل من الالباء والامهات
كنت متلهفا للهروب من هذه الاجواء الخيالية
التي احاطك بها الأهل ، والعودة للاحتماء بغرفتك
في فندق الكبران ، قبل ان يأتي من يعري الاكذوبة
ويكشف للناس حقيقة امرك
الا ان الاسرة الكبيرة التي تضم اسرة ابيك واسرة امك
اتفق رجالها ، على اقامة وليمة
بحضرها كل الأهل ، فرضخت لما طلبوه منك
وجلست بين الاعمام والعمات والاخوال والخالات
تستمع الى منطق الأهل الذين يتحدثون عن زواجك القادم
الذي خططوا له دون علمك ، ووصل الامر الى اختيار العروس
ولم يبق الا كتب الكتاب وتعليه الجواب :
— لابد ان تعرف ان قبيلة المساعيد هي اكبر قبائل القبلة
وشيخها الحاج سعدون ، هو اكبر شيوخ المنطقة واكثرهم
قوة وثروة وعزوة ، والتصاهر مع هذه القبيلة سيضمن
لأهلك في اولاد الشيخ سندا قويا يحتاجون اليه في اوقات
الشدة ، والحاج سعدون يرحب ويتمني ان يجد لابنته شهلة
عريسا مثلك
وقبل ان يكملوا كلامهم ، طلبت الان بالانصراف
لان موعد سفرك قد حان ، لديك مشاغل ومهمات
تمنعك من الزواج الان ، واخذت حقيبتك وغادرت البيت
لم تكن على علم بوجود سيارة في طريقها الى طرابلس
الا انك اردت ترك هذا التجمع العائلي باية وسيلة ، فاندفعت ماشيا
عبر الطريق الرئيسي المؤدي الى المدينة
برجاء مرور اية سيارة شحن تنقلك فوق بضائعها

وجاء بعض شباب العائلة يركضون وراءك
 يرجون عودتك فلم تعرهم انتباها
 مشيت مسافة ميلين او ثلاثة اميال قبل ان تأتي سيارة
 تفتيش عسكرية ، عائدة من احدى نقاط المراقبة الصحراوية
 فاوقفت سائقها واريت بطاقتك العسكرية
 وركبت بجواره عائدا الى طرابلس
 تبحث في ذهنك عن السر وراء نصيحة
 الشيخ البلبال في ان تزور أهلك على وجه السرعة
 هذه الزيارة التي لم يكن لها هدف ولا معنى
 أخبرك الكبران ، وانت تصل ليلا الى الفندق، ان نورية
 ترددت عليك اكثر من مرة خلال اليومين الماضيين
 وانتظرت عودتك هذا المساء ، وعندما تأخرت
 ذهبت بوعد ان ترجع غدا ، ثم اضاف:
 — انها تلح الحاحا شديدا في رؤيتك ، وكان حظنا طيبا
 انها لم تجدك لان ذلك اتاح لنا فرصة ان نستمع
 الى غنائها الجميل .
 — من ؟ نورية مغنية ؟ هل هذا مزاح؟
 — لا تقل انك لا تعرف ذلك ، لانك تعرف ، ولم تشأ ان تقول لنا
 كما تعرف أيضاً ان لها دراية كبيرة بالغناء الشعبي .
 — كل ما اعرفه انها تقيم في بيت " الزمزامات".
 — ربما لانك احضرت لنا الحاكي الذي يقدم الاغاني المحفوظة
 شئت ان تحتكر هذا النوع من الطرب الحي لنفسك .
 — ولكن ما الفائدة ، فما قد وصلتم اليها ، واخشى ما اخشاه
 ان تصادروها كما صادرتم الحاكي .
 — ان لها صوتا مثل الكروان .
 — غناء الكروان في فندق الكبران سيكون إعلانا يجذب الجمهور
 لو قررت ان تقيم لها حفلا فنيا في الفندق .
 ودون ان يعير الكبران اهتماما لاقتراح صاحبه
 واصل حديثه الحماسي عن نورية :
 — ليتك كنت هنا عشية الامس ، فقد اجتذب صوتها البديع كل

زبائن الفندق الذين التّموا حولها ، وهي تغني اغنيّتها
الجديدة عن باليو
ثم صار يدق ايقاع الاغنية على الطاولة التي امامه مرددا مطلعها:
— حبيّتك اعظم حب
ياللي قلبك من ذهب
باليو يا حاكم دولتنا
ياسيد اسياذ حكومتنا
يا رافع في العالى رايتنا
انعيشوا معاك فرح وطرب
حبيّتك اعظم حب
استغربت من اين لنورية ان تعرف باليو
حتى تغني له هذا الغناء ، وتحبه كل هذا الحب
الا اذا كانت اجهزة الاوفرا، قررت ان تتدخل في شغل
الزمزمات وتقرر عليهن هذه الاغاني التي تحض
على حب الحاكم العام
ولكن منذ متى صارت نورية من أهل الطرب
مع ان عمل الاعراس لم يكن غير غطاء للمهنة الأخرى
التي تدر ربحا كثيرا وتحظى باهمية اعظم عبر العصور
باعتبارها اقدم مهنة في التاريخ ، وأكثر هذه المهن رواجاً
اعطاك الكبران مجموعة من الالتماسات والعرائض
كان اصحابها ، ممن لم يعرفوا خبر طردك من مكتب الشكاوى
قد تركوها معه ، فاخذتها معك الى غرفتك
والقيت بها في كيس يمتلئ باوراق استلمتها
من اصحابها قبل سفرك الى اولاد الشيخ
وأخرى جنّت بها من هناك
ونمت فلم تعباً بمغادرة سريرك صباحاً
استمتعت بيوم بطالة لا يتخلله أي جهد
فكرت في القيام بمشوار صغير الى رئيس القلم الاداري
لمعرفة آخر التطورات ، ثم عدلت عنه
انه يعرف عنوانك ، ويستطيع ان يرسل اليك احد السعاة

لو اراد ، فلتنعم اذن بهذه البطالة التي فرضت عليك فرضا
ولتبق ان شئت في سريرك حتى ينقضي النهار
خاصة وان لديك شيئا تنتظره بلهفة
هو مجيء نورية الى غرفتك
ليس فقط لانها قوت جنسي يأتي في وموعده
وانما أيضاً لكي ترضي فضولك لمعرفة سر
هذه التحولات الكبيرة في حياتها ، التي نقلتها
من امرأة تبحث عن رخصة للعمل
في بيوت الدعارة الرسمية ، الى مغنية البلاط الملكي
في طرابلس لصاحبه الملك غير المتوج ايتالو بالبو
لا تدري لماذا يكون للجنس في لحظات التوتر والعصبية
هذا التأثير الشافي الذي يحرر الجسم من توتره
بل اكثر من ذلك بالنسبة لك ، اذ تجد له هذا المذاق الحراق
وهذه النشوة التي تفوق نشوة ممارسة الجنسية
في أيام الامان والاستقرار
انه الكهف السري الذي تلجأ اليه من ملاحقة
غيلان " التابعة " ، وتنهأ فيه بضع لحظات بعيدا عنها
والمرهم الذي تسمح به جراح القلب
فيفلح في تسكين اوجاع هذه الجروح ، ولو لفترة وجيزة
وتحس بان له تأثير حبة الحلوى في الريق المر
عارفا ان الريق سيعود في فمك مرا
بعد ان تمضي لحظات الحلاوة هذه
او هذا ما احسست به عندما جاءت نورية
فاتحا لها ذراعيك
لاحتواء جسدها الفارع ومحاولة طيه طيا وسط
مساحة السرير الصغيرة
وقيل ان تسألها عن أي شيء آخر ، تلقفتها ودخلت
بها الفراش ، فالاولوية مع امرأة مثل نورية ، للجنس
قبل أي شيء آخر
الجنس الذي تمارسه وتستمتع به لوجه الجنس وحده

لا تخالطه هموم ولا اوهام ولا وساوس
تتصل باداء الواجب او هدف الانجاب واستمرار الحياة
الزوجية كما في العلاقات الشرعية
ولا تلونه تلوينات أخرى كما هي العلاقة بين العشاق
الجنس النقي المصفي الذي لا هدف له خارج نفسه
فهو جنس من أجل الجنس بريء ونظيف من اية شائبة
تخالطه من غير عنصره
وكنت مشوقا بعد ان اخذ حيوان الغريزة علفه
ان تسمع منها اسباب ترددتها على الفندق يوما
وراء الآخر
وبهذا الاحاح وهذه المثابرة
وجاء ما قالتة مفاجأة لم تكن تتوقعها ، لانها لم تفعل ذلك
الا بتحريض قوي من زميلاتها وعلى رأسهن شريفة
بدرونة البيت
التي ارسلت لك معها كنزة ثمينة من الصوف
هدية لك ، اخرجتها من لفافتها ، ونشرتها امامك ، بامل
ان تحميك من برد الشتاء ، لقاء ما فعلته معها
ونساء بيتها عندما ضمنت لهن الدفء مدى الحياة
واسديت لهن معروفا سيذكرنه لك طوال العمر
لم تستطع فهم ما تقوله نورية او معرفة الدافع
وراء الهدية ، الا بعد ان شرحت لك
ان العريضة التي قدمتها لك عند اول اشتغالك
بمكتب الشكاوى ، وجدت استجابة سريعة من الحاكم العام
وجاء من طرف اللجنة المكلفة باعادة تسكين أهل ذلك الحي
من قام بمعاينة البيت ، ووجده معلما من المعالم الاثرية
التي تحتاج للصيانة والترميم
فصدر الامر بنقل ساكنيه الى المشاريع الجديدة
بمدينة الحدائق ولان للمارشال بالبو اهتماما خاصا
بالفن وأهله فقد امر بتشجيع هذه الفرقة
من مطربات الاعراس وتخصيص حصة يقدمنها

في الاذاعة العربية المحلية
نعنى بالغناء الشعبي الطرابلسي
وارسل اليهن من كتب الاغاني التي تمجد إيطاليا
والوجود الإيطالي في ليبيا
التي كانت من بينها اغنية في حب بالبو
غنتها لصاحب الفندق وزبائنة تحت الحاحهم
واغان كثيرة غيرها يتدرين على ادائها
وتقديمها في الحصة الاذاعية
وقد اخذن جزءا من ثمن هذه الاغاني مقدما
وسيتفرغن تفرغا كاملا لهذا العمل الذي بدأ يدر
عليهن دخلا كبيرا ، ويتركن الاشتغال بآية مهنة أخرى
هاهو بالبو يرتفع الى مستوى سمعته الدولية
التي جعلت اسمه يتحول الى بابلو تشيبيها له باله
العالم القديم، ابوللو الذي يرعى الفنون والموسيقى
والذي سبق ان عثر على بقايا معبده في المدينة القديمة
فاراد ان يحتفي باتباعه في هذه البلاد التي احبها
ذلك الاله التليد وإعطائها اسمها وجعلها مكانه المفضل
في العالمين ، وفي حين تتخلى عنك ربات الحظ السعيد
ينشطن في استخدامك انت بالذات لتكون قدم خير وسعد
لبشر آخرين مثل نورية وشريفة ورفيقاتهما
وكل نساء الحي العتيق من بائعات الاوقات السعيدة
ويتحقق لشريفة وبناتها ، هذا المكسب الكبير
من خلال ورقة لا معنى لها
كان يمكن ان يكون مصيرها مثل هذه الاوراق
التي تتكوم في ركن الغرفة
والتي ستبقى هناك الى ان يذوب حبرها
ليصبح حلمهن في البيت الجديد حقيقة ، بين يوم وليلة
وفوقه العمل الكريم ، الذي يدر رزقا وفيرا اكثر مما يدره
بيع الاجساد لزبائن المتعة
وتضيء انجم السعد سماءهن

بينما تتطفيء النجوم في سمائك ، واحدة بعد الأخرى
حتى تتحول الى سماء سوداء لا تعرف النور
فالأقدار كما يبدو مغرمة بلعبة التوازنات
وعندما تهبط كفة الميزان في مكان ما
فلا بد ان تعلو كفته الثانية في مكان آخر
فالحمد الله الذي لا يحمده على مكروهه سواه
ولكن من اين للحاكم العام ، هذا الوقت الاضافي
الذي يصرفه ، في الاهتمام بشكوى نساء "الزمزيمات"
ويعتني بالبحث عن يكتب لهن الاغاني
ويستلهم من أجلهن الالحان الشعبية
ويجلب الاجواق الموسيقية التي تعزف لهن هذه الالحان
 ويفتح امامهن باب الاذاعة وخزائنها
ويخصص لهن ، وبهذه السرعة، بيتا في ارقى
احياء المدينة
لابد ان يكون وراء ذلك سببا
وخطر في بالك ان يكون هذا السبب امرأة
احدى نساء البيت رآها بالبو في مكان ما واغوته
ففتح لها مغارة الكنز، الا ان ذلك امر مستبعد
لانك تعرف البيت ونساءه اللاتي لا وجود بينهن لمن تملك
مؤهلات انثوية يمكن ان تستقطب انتباه صياد ماهر للجمال
مثل المارشال بالبو
وما ان اقصيت هذا الدافع ، حتى ظهر امامك الدافع الحقيقي
واضحا جليا ، الى حد انك تعجبت من نفسك
كيف لم تهتد اليه منذ اللحظة الاولى
فقد شاعت في الأيام الاخيرة بعض الاغاني التي يقوم
بتسجيلها فنانون ليبيون مهاجرون، مثل المغني
الشعبي بشير فهمي المقيم في تونس و الذي اثاره
صدور قانون الجنسية
الإيطالية للبيبين ، فأطلق هذا الفنان عددا من الاغاني
الشعبية الهجائية التي تهاجم هذا القانون

وتهاجم الشيخ المفتي الذي اعلن تأييده لهذا القانون، وكانت
آخر هذه الاغاني تلك التي يقول مطلعها :

— مبروك عليكم يا ناس

قاضيكم اصبح بيباص

وحدا حدوه شباب آخرون يسمون انفسهم فرقة أبناء البادية

أطلقت اغنية اكثر عدوانية ، تقول كلماتها

الارض اللي منها المختار

نستنى في يوم الثــــار

ويلك ، ويلك يا استعمار

وبسبب سهولة الحان هذه الاغاني

وملامستها لمشاعر الناس المعادية للاحتلال

وجدت هذه الاغاني القبول والرواج

وصار الناس يرددونها جهارا

بما في ذلك الاطفال اثناء لعبهم في الشارع

مما اثار غضب رجال السلطة في طرابلس

فوضعوا بشير فهمي و كل اغانيه في القائمة السوداء

حتى الاغاني الفكاهية والعاطفية التي لا علاقة بها بالسياسة

واصدر الرقيب الإيطالي قرارا بمعاقبة كل من يغني او يسمع

اغانيه او يقتني او يبيع او يشتري اسطواناته او اسطوانات

أبناء البادية ، وتوافق وصول العريضة التي قدمتها نورية

وصاحباتها الى الحاكم العام ، مع هذه الاجواء الفنية المعادية

للإيطاليين فاراد ان يستخدم مغنيات الاعراس في حملة مضادة

بجندلها الملحنين والمؤلفين لابطال مفعول الاغاني

المعادية واغراق السوق بموجة جديدة

من اغاني الدعاية للإيطاليين ، بما في ذلك اعداد نشيد

خاص بشباب الحزب الفاشي الليبي ، غنّته المجموعة

الغنائية الرجالية

وواضبت الاذاعة المحلية على اذاعته

ياربعا مستطابا

— مبروك الاغنية الجديدة عن صاحب القلب الذهبي .

_____ هذا كلام للإذاعة فقط اما خارج الإذاعة فساغديها لك انت

وسأضع اسمك انت بدلا من بالبو ما رأيك؟

— لا أريد أن ادخل في منافسة مع سيد البلاد

فهنيئاً له بهذا الغناء، كل مافي الامر ان اسم نورية

لا يصلح اسما للشهرة ولا بد من اختيار اسم يليق

بالكوكب الجديد الذي يسطع في سماء الفن .

— طبعاً لانه لا احد في العالم كله يدخل الفن باسمه الحقيقي .

— وما هو هذا الاسم اذى سيعرفك به الجمهور .

— سنغني غناء جماعيا باسم فرقة الفن الطرابلسي .

— وهل هناك اغان أخرى .

— طبعا ما رأيك في هذه الاغنية الحوارية بين رجل إيطالي

و امرأة ليبية يحبان بعضهما :

— نظرة عينك يا طلياني

خلقتی فی عالم ثانی

— سحر عيونك يا ليبيّة

دربانی فی النار الحیة

اليسست اغنية جميلة ؟

— نعم خاصة كلمة دربانى التى سيكون لها ر نينا جميلا

وهي تخرج من فم عاشق إيطالي ، انها اغنية عاطفية،

تخدم في ذات الوقت ، قضية السلام الاجتماعي بين

الليبيين والطلّيان عن طريق الحب .

— وهل هناك احلى من الحب ؟ عموما ، فهو كلام للتسليه .

_____ هناك سياسة وراء هذه التسلية يانورية ، انها اغنية

تصلح للغناء الفردي بين مطرب ومطربة .

— الغناء الجماعي هو ما يريده اصحاب الاذاعة، اتعرف لماذا؟

- لأنه أكثر تعبيراً عن روح الجمهور .
- من فضلك لا تسخر مني ، فانا اعرف انني لست فنانة ولا مطربة ولكنه نصيب من عند الله ، والغناء الجماعي أكثر قدرة على اخفاء حقيقة الاصوات التي تغني ، فهم يعرفون قدراتنا ، ويريدون قالبا مناسباً يقدمون فيه هذه الاغاني ، هذا هو الواقع .
- صدقيني اذا قلت لك انني شديد الفرح لهذه الاخبار السعيدة واشكري لي كل رفيقاتك على هذه الهدية الجميلة .
- هذا لا ينفع ، لابد ان تأتي بنفسك للفائهن ، وحضور الحفل الذي سيقمنه بمناسبة العتبة الجديدة .
- ومتى سيكون هذا الحفل ؟
- انت ضيف الشرف ، وعليك ان تختار اليوم الذي يناسبك .
- اذن فلا حاجة للاستعجال .
- هناك سبب وجيه للاستعجال ، لان الخروف موجود داخل البيت ولا احد يستطيع ان ينام بسبب صياحه المتواصل ليلا ونهارا .
- هل نقول غدا ؟
- نعم غدا ليلا ، ليحلو السهر والغناء ، وسندعو جيراننا الإيطاليين لكي لا يحتج احد منهم على الصخب الذي سنحدثه ولا بأس ، اذا شئت ، من احضار صاحب معك .
- الكبران علي سبيل المثال .
- ولما لا ؟
- انه شديد الاعجاب بغنائك .
- الرجل الليبي مستعد لمديح اية أنثى تغني ، حتى لو كانت بعوضه ، لان الهدف ليس الغناء وانما شيء آخر .
- الم يكن صادقا في اعجابه؟
- نعم كان صادقا ، إلا أنه انتقل سريعا من الاعجاب بجمال الغناء الى الاعجاب بجمال المغنية ، ودعاني صراحة الى قضاء الليل بصحبته وطبعاً رفضت ، لاني ما جئت لهذا الفندق الا من أجلك .
- ياله من رجل نذل .
- ثم ان شكله اربعيني ، وقلت في نفسي لو اعتلاني هذا البرميل

لكتم انفاسي ، الا انك لا تتردد في دعوته اذا اردت ، لان
ما فعله معي هو ما كان سيفعله أي رجل آخر ، فلا تحفل به.

طبعاً كنت ستدعوه ، لآنك لا تريد ان تكون الفحل الوحيد
بين سيدات الطرب الشعبي ، ومركز الاستقطاب
الرجولي لآعين ونظرات هذا العدد من النساء
كما ان حضوره سيضفي كثيراً من روح الدعابة
على اجواء السهرة بما لديه من افكار خيالية
ستزداد استئثاراً وتوقفاً بسبب وجوده
في هذا الوسط النسائي
الا ان التطورات التي جاء بها النهار
حالت دون قيام السهرة الموعودة
فقد جاء في منتصف النهار اثنان من افراد
الشرطة السرية " الاوفرا " الى غرفتك
بطلبان منك الانتقال معهما الى ادارة الامن للتحقيق
كنت قد رأيتهما منذ اول النهار
يرصدان حركاتك ويمشيان وراءك عندما
خرجت مع نورية الى حانوت الحلواني
لنساعدنها في شراء انواع من الحلويات الشرقية لحفل الليلة
وتكثري لها كروسة تقاها الى مدينة الحدائق
ورأيتهما بعد ذلك يتبعانك ، حتى عدت الى الفندق
وتصورت ان هناك محاولة ممن استولوا
على مكتب الشكاوى لمعرفة الاتصالات التي تقوم بها
والمساعي التي تبذلها من أجل رد اعتبارك
ليستطيعوا بالتالي افشالها
فاذا بك تفاجأ بالرجلين يصعدان وراءك الى الغرفة
ويخبرانك بانهما من عناصر " الاوفرا "
قبل ان يباشرا تفتيش الغرفة ، التي لم يكن تفتيشها يكلف
وقتا ولا جهدا لصغر مساحتها وضآلة محتوياتها
اخذا معهما كل ما وجداه في الغرفة من اوراق

وسارا بك الى مقر الشرطة السرية في شارع ميلانو
وامام ضابط التحقيق ، عرفت ان هناك شكوى
مقدمة من الكومندان بشير بيك الغرياني
يتهمك فيها ، بانك استحوذت على اوراق خاصة بالدولة
بما في ذلك رسائل موجهة الى دوائر حكومية
منعتها من الوصول الى هذه الدوائر
كما انك انتحلت شخصية ليست لك
وواصلت الادعاء بانك مسئول حكومي
وقمت باجراء اتصالات مع المواطنين بهذه الصفة المزورة
فابلغته بانك لم تقم بتزوير وانتحال اية صفة
ولم تفعل أي شيء يخالف القانون
لانك فعلا مازلت رسميا الموظف المسئول عن تلك الشكاوى
وان أي اوراق تلقيتها ، او اتصالات اجريتها او اجريت معك
انما تمت على هذا الأساس
فاخرج لك ضابط التحقيق قرارا من درج مكتبه
لم تره الا هذه اللحظة ، ولم يبلغك به احد من قبل ، يحمل
تاريخ أسبوع مضى ، وتوقيع الحاكم العام ، يكلف فيه
الكومندان بشير بيك الغرياني ، بالاشراف على مكتب
شكاوى المواطنين ، ويعهد الى تابعه فوزي
مباشرة العمل اليومي هناك بدلا منك
افهمته انك لم تتلق اية رسالة تبليغ بهذا القرار
إلا أنه لم يجد في هذا الدفاع مبررا يعفيك من المسؤولية
اوينفي عنك التهمة التي تتبناها الاوراق المضبوطة
في غرفتك ، ولذلك امر بحبسك على ذمة التحقيق
لم تجد فيما جرى لك شيئا يدعو الى الدهشة
وبرغم انك لم تتوقع ان يصل الامر الى حد الافتراء
عليك بهذه الصورة المفضوحة
والصاق مثل هذه التهمة الباطلة بك
وسوفك بسببها الى السجن كاي مجرم
الا انك كنت مستعدا لتلقي نوع من العقاب

ولا تجد غرابية فيه ، حتى لو جاء بهذه الصورة
التي تظهر قسوة من خصومك لم تكن تنتظرها
ولم تشعر ، وانت تسمع كلمة السجن ، بذلك الرعب
الذي تصورت انه سيجتاحك عند القائها في وجهك
تقبلت كل شيء بهدوء اعصاب ، ودون ادنى درجة
من الغضب ، او الاحساس بالمرارة والصدمة ، ربما كان
العكس صحيحا

اذ كنت تنتظر الى الجانب الساخر فيما حدث
لان والدك الذي رفض ان يسمع كلامك عندما اردت
ان تقول الحقيقة لاهل القرية ، ومضى يواصل لعبة
خداع الذات ، وخداع الآخرين ، سيعرف الان ، وبعد
ان تصله اخبار سجنك بتهمة الكذب وانتحال شخصية
مزيفة ، خطأ مافعل ، ودعك من امك فتأثيرها لا يصل الى دوائر
ابعد من بيتها مثل والدك

ولو انها هي أيضاً يجب ان نتعض بمثل هذا الدرس
وضعوا في يدك الحديد ، وامروك ان تصعد
الى صندوق السيارة المغلقة السوداء ، المخصصة
لنقل المساجين ، حيث جلس بجوارك شرطي الحراسة
يخفرك الى حيث مضت بكما السيارة حتى بوابة
السجن المركزي ، الذي يسمونه بالاسم
المنطقة التي يوجد بها "بورتا بينيتو"

حيث اقفلوا عليك باب الزنزانة التي لم يكن بها احد سواك
صدمتك على الفور الرائحة التي تشبه رائحة قطعة ميتة
احسست انهم وضعوك داخل علبة صفيح ننتة
واحكموا اغلاقها عليك

هناك كوة في حجم راحة اليد ، معلقة اعلى الجدار
قريبا من السقف ، تعجز عن ادخال أي ضوء او هواء
فتشت بعد ان الفت عيناك العتمة ، علك تجد هذه القطعة الميتة
فلم تجد شيئا . كان واضحا انها رائحة بول ، امتزجت برائح
كريمة أخرى تراكمت على مدى الأزمنة وصنعت هذه العفونة

لم يكن هناك غير حشية من القش وبطانية بالية
كانت عفونة الغرفة قد كتمت على انفاسك
وتحولت من شيء تميزه بحاسة الشم
الى التأثير في حاسة الذوق ، فتشعر بمذاق العفونة
علقما في الحلق وفوق طرف اللسان
تريد ان تتقيأ ، وتحاول فلا تسعفك المعدة باخراج أي شيء
الان فقط بدأت تستوعب حقيقة ما حدث لك
وفهم معنى السجن الذي لم تستطع استيعابه
في بداية القبض عليك
وقابلته بشيء من الاستهزاء لجهلك ببشاعته
الان فقط تدرك حقيقته ، دون ان تستطيع فهم لماذا انت هنا
واي ذنب عظيم جنيته ، واستحق ان يكون عقابه هذه الزنزانة
التي لا تليق الا بقطعة مية ، لا بإنسان حاول قدر جهده
ان يخدم اسيا د البلاد ، ويضع نفسه تحت تصرفهم
فما الذي تراك فعلته للحاكم العام
حتى تسقط هذا السقوط المريع من سحابة الرضا
التي جلست فوقها تغني وتدلدل ساقيك
ظنا منك انك بلغت أقصى مراتب الامان
ثم اذا بالسحابة تذوب وتتلاشى في غمضة عين
وإذا بك تتأرجح في الهواء وتسقط في هذه الحفرة النتنه
تعرف انك رفضت عرضا جاءك من حورية للاقتران بها
وهو عرض كنت دائما تراه اقرب الى الدعابة
منه الى ارتباط جاد وحقيقي تسعى اليه حورية
ليكون بديلا عن علاقة المصير التي ربطتها بالمارشال
والتي تحقق لها ما تريد من اكتفاء
على كل المستويات المادية والمعنوية ، الروحية والجسدية
وتعلم انك تعاملت بشيء من الرعونة
مع الكومندان بشير بيك الغرياني
الا انك لم تتفوه بكلمة واحدة تسيء اليه
حتى على سبيل الرد لما ابداه من استفزاز ومهانة لك

فهل يستحق ما فعلته، ان تجد نفسك مرميا
في هذا السجن وهذه الزنزانة الانفرادية
التي لا بد انها اكثر الزنازين في سجن بورتا بينيتو قذارة وبشاعة
لانك لا تتصور ان تكون هناك زنزانة أخرى
في العالم كله اكثر منها ضيقا وعفونة
لا بد ان هناك اسبابا أخرى لا تعرفها، استوجبت
الحاق هذا النوع من العقاب بك
لان أقصى ما توقعته من عقاب هو العزل من وظيفتك
او تجميد مرتبك، او شيء آخر
غير تليفك التهم والالقاء بك في السجن
تنبهت الى وجود اصوات بشرية قادمة من الزنازين الأخرى
وصرخات اناس يتم تعذيبهم في جزء بعيد من السجن
لان صراخهم يأتي خافتا مكتوما
بدا لك انه يخرج من انفاق تحت ارض السجن
وهناك قرعة سلاح في مكان ما
كانها فرقة اعدام تستعد لاطلاق نيرانها على ضحاياها
ضاعفت هذه الصرخات وقرعة السلاح من الخوف
الذي بدأت تشعر به
حاولت ان تتمشي داخل الغرفة بدلا من الوقوف
ملاصقا للباب متوهما، ان احدا سيفتحه ويدعوك للخروج
رافضا ان تصدق ان هذه الغرفة هي الان مقر اقامتك
بمثل ماكانت غرفتك في فندق الكبران قبل لحظات
لقد اقفل الباب وسدت منافذ الضوء والهواء
وعليك ان تواجه سجنا يعلم الله وحده الى اي امد يطول
الا ان المجال داخل الغرفة لم يكن يتسع
لاكثر من خطوتين في كل اتجاه
ثم تجد نفسك تصطدم بالحائط
وعلى كل حائط من الحيطان الاربعة
نقشت كتابات وخرشيات وخطوط
حاولت من خلال ما تسمح به عتمة المكان تبينها

إلا أنها كانت عصية على القراءة، تحتاج لتركيز وتمعن
بعضها أسماء اناس ، لعلهم كانوا نزلاء هذه الغرفة
سجلوا بها اسماءهم للذكرى
واكثرها كلمات امل ورجاء: " اشتدي ازمة تنفرجي"
" كل من دخل خرج ما بعد الضيق الا الفرج"
" السجن للرجال والابطال "
واحدهم وجد صلة نسب بين هذه الزنزانة ومعتقل العقيلة
فرسم على الحائط مقاطع من قصيدة سيدي رجب بوحويش
" مابي مرض غير دار العقيلة، وحبس القبيلة
وبعد الجبا عن بلاد الوصيلة "
اما الكتابات الأخرى فهي آيات قرآنية
ونداءات للولياء والصالحين، والاستجداء بسيدي عبد السلام الاسمر اوسيدي الهدار اوسيدي
الشعاب اوسيدي الحطاب
اوسيدي المصري، او ينقش تعبيراً مشهوراً يذكر هؤلاء:
"الدعوة في الظالم ياسيدي سالم"
"ياسيدي بو طبل ، ردني كيف قبل"
"تجيني من كيد النساوين ، بجاهك يا ازرق العين "
كلمات كتبها اناس ، مروا بهذه الزنزانة ، يعالجون امراض اليأس
وانهيار الروح ، وهم يعيشون وسط صندوق القذارة هذا
الذي يحط من قيمة الإنسان وينتهك آدميته
ما شد ازرك حقاً ، ان هؤلاء النزلاء الذين خطوا هذه الاسطر
كلهم اناس متعلمون، فوق طبقة اللصوص والمجرمين
الذين لا معرفة لهم بالقراءة والكتابة
وربما كان بعضهم مجاهدا أيام الجهاد
او مناضلا ضد الظلم في الوقت الحاضر
الذي يمثل استمرارا للظلم الذي بدأ مع بداية الاحتلال
منذ ربيع قرن مضى ولن ينتهي الا بانتهائه
اكتشفت وانت تنتقل الى حائط آخر من الحيطان الاربعة
ان بين الخطوط والخربشات شجيرة مرسومة على رقعة
واسعة من الجدار بلون أسود، ثم اكتشفت عندما امعنت النظر

انه ليس سوادا، وانما حمرة قانية
وسرت في جسمك قشعريرة رعب
وقد اتضح لك انه دم تتاثر على الجدار
كان واضحا انها اثار دماء الضحايا
ممن شهدت هذه الزنزانة تعذيبهم ، او قتلهم تحت التعذيب
ها انت هنا، تلتقي وجها لوجه، بلغة الجبروت والطغيان
لغة القوة التي اذا قالت فعلت ، حتى وان كانت مكتوبة بدم السجين
التي تختلف عن لغة الكتابات الأخرى على الحائط
التي كتبها السجين بنفسه مستخدما لغة المسكنة والرجاء
متوسلا بساكني الاضرحة من اولياء الله ، سبيلا للخلاص
هذا هو الوجه الاخر للحاكم الإيطالي الذي لا تعكسه المرايا الكثيرة الموجودة في بيت
عشيقته حورية
جلست فوق حشبة القش ، لا تدري ماذا تفعل بنفسك
اظلمت الكوة الصغيرة اعلى الجدار
واضيئ في دهليز السجن مصباح كهربائي، يتسلل منه الضوء
الى زنزانتك عبر شباك حديدي في بابها
إلا أنه ضوء ضئيل لا يضيء شيئا
اطبق الليل وبدأت الاصوات تهدأ
الا من اثنين يأتي من مكان بعيد
نمت نوما منقطعاً ومضى الوقت دون ان تشعر بعطش
او جوع او حاجة لقضاء الحاجة البشرية
حتى جاء الحارس مع الصبح يذكرك بانقضاء الليل
قادك الى دورة المياه البدائية، واعادك ليعطيك افطارك
كسرة من الخبز، ومقدار ضئيل من الشاي البارد
في كوب نحاسي صغير، ورغم علمك انه لا يعرف شيئا
فقد حاولت انتزاع أية معلومة يمكن ان يضيء عتمة
هذه الظروف الغامضة التي تحيط بك
ويبدو انك سألته اسألة محظورة ، او لم يألف سماعها
فقد التفت خلفه مذعورا ، وهو يدفع بك الى الزنزانة
واقفل عليك الباب بقوة دون ان يقول شيئا

سمعت بعد قليل من انصرافه ، اصوات ابواب تفتح
واقدام تعبر الممر امام زنزانتك
وعرفت فيما تنتهي السيك من كلام انه موعد
خروج السجناء الى الساحة
حسبت ان هناك تعليمات تمنع خروجك للاستراحة
مثلما منعت اختلاطك ببقية النزلاء في عابر السجن
والاحتفاظ بك، طوال الوقت، في زنزانة منفردة
الا ان شرطي الحراسة ما لبث ان جاء يفتح الباب
ويدعوك للخروج مثل بقية المساجين
عرفت اثناء وجودك في الساحة ، ان هذه الزنزانة تخصص
فقط لاول يوم بقضية النزير في السجن
قبل استكمال الفحص الطبي
كاجراء وقائي، صحي، وتقاديا لما حدث في السابق
عندما جاء سجناء يحملون امراضا معدية مثل السل الرئوي
والتهاب الكبد الوبائي نشروها بين زملائهم في العنبر
عندها فقط عرفت السبب في انهم انتزعوا عينة من دمك
قبل ايداعك هذه الزنزانة
غير انك تستطيع بمجرد التطلع الى وجوه هؤلاء السجناء
ان تعرف ان لا احد منهم يخلو من مرض مزمن
يكفي ان ترى عظام وجوههم البارزة
ورقابهم التي لم يبق بها الا الحبال
وأصابعهم التي تشبه أصابع هيكل عظمي
وبشرتهم الصفراء التي تؤكد ان مرض فقر الدم
حقق عدالة التوزيع بينهم جميعا دون ان يستثني احدا
لتدرك ذلك ، اما الرمد الذي يأكل العيون ويستقطب ارتال الذباب
فهو سمة مشتركة بين اغلبية النزلاء
ويبقى سيد الامراض كلها ، الذي جاء بهم جميعا الى هذا المكان
هو الفقر ، اذ انك ما سألت احدا منهم عن سبب وجوده
في السجن ، الا وجدته لصا سرق متجرا، او سرق عذرة
او سطا على شجرة عنب في مزرعة مستوطن إيطالي

كلهم معدمون ، لا يجدون فرقا بين وجودهم في السجن
او في بيوتهم ، لانها ليست افضل من هذه الزنازين
ولا الطعام افضل من هذا الطعام
الذي، رغم مستواه المتدني ، قد لا يجدونه هناك
رأيت بين المساجين من جاء يتفرس في وجهك
وكانه لا يصدق انك انت، ثم يصيح مندهشا:
— هل هذا معقول؟ عثمان الشيخ معنا في السجن؟
كان السجين ، شابا يافعا ، تحسبه في بداية الامر بدينا
بل لعله البدين الوحيد بين هذه الهياكل العظمية
ثم لا تلبث ان تكتشف ان ما به ليس بدانة
وانما بناء جسمي قوي ، اكتسبه بالتدريب والتمرين
كابطال العاب القوى، من مصارعين وملاكمين
وقفت نتأمله قليلا، مستغربا لوجوده بين هؤلاء البشر
القادمين من حضيض الحضيض في الحياة
تركته وواصلت المسير . مشى بجوارك قائلا:
— الم تعرفني ؟
— لا اذكر ، ولكن لا بأس من تذكيري .
مددت يدك تصافح اليد التي مدها اليك
وانت ترى فيه احد المساجين القليلين ممن يمكنك ان تتواصل
معهم دون خوف من انتقال القمل اليك:
— اخشى ان قلت لك ان تغضب عني .
هذا الصوت ليس غريبا عن اذنك ، سبق ان سمعته في مكان ما
نظر اليك بزوايتي عينيه ، فتذكرت في الحال انه سبق
وان التقيت بهذه النظرة في ليلة لن تنساها
انها ذات النظرة التي لمعت تحت اضواء سيارة عابرة
ليلة ان تربص بك ثلاثة من اوغاد المدينة القديمة
اوسعوك ضربا حتى اشرفت على الهلاك
في زنقة القزدارة والحدادين
كدت تأخذ بخناقه ، الا انك تمالكت اعصابك وقلت له حانقا:
— ارجو ان تبعد عني فهذا افضل لك ولي .

— ليس قيل ان تسمع اعتذاري ، لان وجودك في السجن
 مهما كانت التهمة الموجهة اليك، يعني شيئاً واحداً، هو انك واحد منا ولست منهم .

— لا انتظر شهادة براءة منك ولا من احد سواك.

— ارجو ان تسامحني .

— عفا الله عما سلف .

— وجدوني اقوم بتوزيع منشورات اصدرتها
 لجنة الدفاع عن طرابلس وبرقة الموجودة في المهجر
 فقادوني بلا محاكمة الى السجن

وانت ما الذي جاء بك اذا سمحت لي ان اسأل ؟

— انت محظوظ لانك تعرف تهمتك ، اما انا فصدقني لو قلت لك انني لا اعرف تهمتي .

— سأعود فور خروجي من السجن الى مواصلة العمل الوطني، باذن الله فمرحبا بك ان
 رغبت في خدمة الوطن معنا .

— هل استطيع ان اعرف ما عمرك ؟

— واحد وعشرون عاماً ، وعمر المختار الذي مات شهيداً وهو يحارب الظليان، كان
 عمره فوق السبعين فما اهمية العمر ؟

— عمر المختار حارب منذ بداية الغزو، واستشهد منذ اربعة
 اعوام مضت، فكان موته خاتمة الجهاد
 بدأ مع جيش قوامه الشعب كله
 وانتهى بجيش صغير قوامه عدة انفار
 فبأي جيش تخوض انت الحرب ؟

— الناس موجودون، لكنهم بحاجة الى قيادة.

ادركت ان الولد لم يستوعب ما قلته له ، واذا كان بطلاً اسطورياً مثل المختار لم يستطع ان
 يواصل معه الجهاد، الا عدد قليل من هؤلاء الناس الذين طحنتهم حرب طويلة غير
 متكافئة، فكيف اذن مع قيادات على شاكلة هذا الصغير .

— واين هم هؤلاء الناس ؟

— لنبدأ من هذا السجن كل واحد موجود هنا لديه الف سبب لان يحارب الظليان.

— ولماذا لم يحارب اذن؟

— الشعب في حاجة الى تنظيم وقيادات

قلت له ساخراً:

— واين ذهبت انت ؟

وكأنما اخذ كلامك مأخذاً جاداً ، فقد اجاب بسرعة وحماس :

— القيادة السياسية موجودة ، ولكن القيادة العسكرية هي التي تنقصنا .

قلت محاولاً ان ينتهي هذا الحوار العبثي :

— انت الخير والبركة .

— لابد من رجل له خبرة عسكرية ، وهو موجود، بل هو هنا في هذا السجن .

نظرت اليه باستغراب وسخرية قيل ان تتركه وتمضي إلا أنه استوقفك قائلاً :

— لا تستغرب يا سيد عثمان ، انه انت هذا القائد .

لم تستطع ان تمنع نفسك من الضحك .

— ولماذا الضحك؟

— اضحك لانني منذ امد قصير ، كدت الاقي حقيقي على ايديكم باعتباري عميلاً للطلليان .

— وما الغرابة في ذلك ؟ الم يكن سيف الله المسلول سيدنا خالد بن الوليد، قائداً لجيش الكفار ، قيل أيام من توليه قيادة جيش المسلمين ؟ خبرتك في العمل معهم ستكون احدى نقاط القوة التي تساعد في تحقيق النصر عليهم باذن الله .

قررت ان تكون جاداً مع هذا الفتى الموهوس ببطولات الماضي ، فانسته الواقع قلت له محذراً:

— دعك من مثل هذا الكلام الذي سيكون سبباً في هلاكك لو وصل الى اسماع " الاوفرا "

واصرف جهدي للدراسة او الرياضة التي تحبها

فذلك اجدى من هذه الاوهام التي لا علاقة لها بالواقع

اما انا فارجو ان تخرجني من رأسك

لانني مازلت عسكرياً في الجيش الإيطالي

تركته وسرت خلف شرطي الحراسة

الذي جاء يقودك الى غرفة يستخدمها الطبيب الزائر

لفحص المساجين . وضع السماعة على صدرك وظهرك

ونظر بالمجهر الى حلقك، واسمعه عينة من سعالك

واخرجت له لسانك ، وبعد ان انتهى من فحصه اعطى امره

بضمك الى احد العنابر

قبل الذهاب الى العنبر ، فادك الشرطي الى المخزن ، حيث
اعطوك بذلة السجن ، وطلبوا منك ارتدائها وتسليم بذلتك
الى المخزن ، كما اعطوك حشية من القش وبطانية
واناء نحاسيا ، يسميه النزلاء "القاويطة"
وعندما عدت كانت الساحة فارغة
فقد رجع النزلاء الى زنازينهم
كانت الزنزانة التي اختارها لك جندي الحراسة
مكتظة بنزلائها ، تضم تسعة انفار ، بينما هي لا تصلح
لاكثر من اربعة اوخمسة ، ولذلك وقفت عند الباب حائرا
تبحث عن مكان يتسع للحشية التي بحوزتك فلا تجد
اذ لم يبق شبر واحد من ارض الغرفة ليس فوقه حشية
من هذه الحشايا التي تمدد فوقها النزلاء
بعضهم يغمض عينيه مستسلما لاغفاء القيلولة
وبعضهم يحدق في السقف كانه قرر ان ينام
و عيناه مفتوحتان
وبعضهم يسدل ملامحه في بلاهة وينظر اليك ساهما
دون ان يتطوع بابداء كلمة تعينك على الخروج من حيرتك
وكلهم في حالة صمت وسكون كالتماثيل
عدا ايديهم التي تتحرك حركة الية، روتينية، امام اوجهم
تنش عنها ارتال الذباب
ادرت بصرك الى الحارس تستجد به كي ينقلك
الى عنبر او زنزانة أخرى يكون فيها متسع لك
او يعيدك اذا شاء الى الزنزانة الانفرادية
إلا أنه أقفل الباب خلفك ، تاركا اياك تواجه الموقف الصعب
مع نزلاء الزنزانة وحيدا . و بمجرد انسحابه دب النشاط
والفوضى في الغرفة الهادئة
قام الراقدون من مراقدهم ينطون كالقروود
لان سكونهم لم يكن الا تظاهرا كاذبا في حضرة الحارس
وعادوا الى لعب الورق بعد ان قسموا انفسهم الى مجموعتين
يتشاحنون ويشتمون بعضهم بعضا

دون ان يعيروك انتباها
رآك اقدمهم ما تزال واقفا ، تحت ابطك الحشية والبطانية
وفي يدك " القاويطه " الفارغة ، فسألك مستغربا
عما يدعوك للوقوف على هذا النحو
واشار الى الورق قائلا ، انه بإمكانك ان تشارك
في اللعب اذا اردت . أخبرته بانك لا تجيد لعب الورق
فاعاد دعوته لك بالجلوس لان وجودك واقفا امامه
يثير اعصابه ، ويمنعه من التركيز
رمىبت امعة السجن تحت قدميك
وحشرت نفسك بينهم ، تحاول ان تتعلم كيف يلعبون
طالما ان هذه هي الوسيلة المعتمدة لديهم لقتل الوقت
واكتشفت بعد دقائق قليلة، انك لن تستطيع ان تكون
طرفا في هذه اللعبة ، لانهم يقامرون بالسجاير
التي لا تدري كيف يحضرونها داخل السجن
ويستخدمونها بديلا للعملة في شتى معاملاتهم
وطالما انك لا تشرب السجاير ولا تملك كمية منها
فانت غير صالح كشريك في لعب الورق
ولعل بعضهم ، ممن نظر اليك باستهزاء عند دخولك
يراك غير جدير بمشاركتهم الزنزانة، التي تدخلها دون ان
تكون في جيبك علبة سجاير واحدة
وجاء سريعا موعد الغذاء فوضعوا لك في القاويطه
مغرفة من حساء الفاصوليا، ورموا اليك نصف رغيف يابس
ارغمت نفسك على اكلهما ، لكى لا تبقى طوال اليوم تعاني
من الام المعدة الفارغة
ودخلت معركة ضارية مع ارجال الذباب
التي حاولت دون هوادة، ان تشاركك صحن الفاصوليا البارد
ورغم دوشة زملاء الزنزانة ولعبهم وخروجكم في استراحة
المساء الى الساحة وعودتكم منها ومجيء الحارس بمغرفة
حساء أخرى لوجبة العشاء، فقد مضى الوقت بطيئا ، ثقيلًا
وتساءلت ، وانت تجد بين زملاء السجن من له

خمس وست سنوات على هذا الحال
كيف استطاع هؤلاء الناس ان يحتملوا مرور
كل هذه المدة، في هذا المكان، وتحت هذه الشروط
وجاء موعد النوم ، فترحزحت حشايا القش
واقتربت من بعضها البعض مسافة اكثر
لتفسح لك مكانا تفرش فيه حشيتك عند عتبة الباب
وضحكت معهم اثناء الليل، على شاب من النزلاء
له موهبة في تقليد الناس ، اختار ان يكون ضحيته
هذه الليلة احد القضاة المعروفين بتملقهم للإيطاليين
ممن يائثرون بأمرهم حتى في اصدار الاحكام
فيقلده عندما يذهب الى رئيسه الإيطالى
في قضية مواطن بريء يريد منه رئيسه
ان يحكم عليه بالسجن المؤبد
وحيرة القاضي وهو يسال الحاكم عن الحثيات
التي يكتبها للحكم ويكلمه بالإيطالية
مصرا على تطبيق قواعد اللغة العربية فيرفع
مارشال ليصبح مارشاللو
لانه اسم كان وطلبان ليصبحوا طاليانو باعتبارهم
في موقع الفاعل داخل الجملة
ويبدو بعد اصدار الحكم المخزي ، مستعجلا
يريد الذهاب الى الجامع ، شديد الحرص كي لا يفوته
موعد صلاة الجماعة ، لما فيه من اجر وثواب
وانتهى اللعب والسهر داخل الزنزانة
فنمت نوما متواصلا لا تقطعه الا لسعة بقة
تسللت الى جسمك لامتصاص ما تقدر عليه من دمك
فقتلها لتموت شهيدة الواجب وتعود انت الى نومك
توقعت في اليوم التالى ، ان تسمع احدا يستدعيك
من ادارة السجن ، لابلغك بنتيجة التحقيق
في التهم الموجهة اليك ،او تقديمك للمحاكمة
او اجراء استجواب معك ، او أي شيء آخر يعطيك فكرة

عما يدبر لك، فلم يظهر احد سوي اثنين من الحراس
بحملان اخشاب الفلقة وعصاها، وقيل ان تسأل عن السبب
وجدتهما يبدآن معك انت، باعتبارك الاقرب الى الباب
يربطان قدميك الى لوح من خشب
ثم يمسك به احدهما مرفوعا الى اعلى
وقد ارتفعت معه قدمك في مواجهة الحارس الثاني
الذي بيده عصا غليظة يتولى بها ضرب باطن القدم عشر مرات
وهو يحسب الضربات بصوت عال : واحد ، اثنان ، ثلاثة
ومع ازدياد الضربات تتضاءل قدرتك على السيطرة
على الامك وصراخك الذي تحاول كتمانها
لكنك في النهاية لا تستطيع الا ان تصرخ لشدة الالم
وهكذا كان حال بقية الزملاء في الزنزانة الذين جاء دورهم تباعا
في اخذ نصيبهم من الفلقة، وأطلقوا صرخات اعلى من صرخاتك
لان ضربات اليوم تقع فوق اثار ضربات تلقوها في الأيام
الماضية، فكانت اكثر وجعا منك وانت تتلقى
اولى هذه الوجبات التأديبية
وهي عقوبة عرفت انها تقدم في السجن
دون سبب سوى ان هناك نزيلا في عنبر آخر
ارتكب ذنبا ما ، فيتم تذييبه ومعه تذييب كل نزلاء
هذا السجن ، الذين يفوقون الخمسمائة
بدأت شيئا فشيئا تتكشف امامك حقيقة الحياة داخل السجن
الذي تدخله لأول مرة في حياتك ، اذ لم يكن العقاب
في اليوم الثاني " الفلقة " كما بالامس
وانما حرمان الجميع من وجبتي العشاء والغذاء
لان سجيناً آخر ارتكب ذنبا استوجب هذا العقاب
وتسأل عن طبيعة هذه الذنوب والمخالفات
فتجد انها لا تزيد عن كلمة احتج بها احد المساجين
على قسوة او شتيمة احد الحراس
اما لماذا يكون العقاب جماعيا، فلا جواب سوى
انها وسيلة لقهر واذلال الإنسان، الذي اوصلته نجوم نحسه

الى هذا المكان ، ولكن ماشأناك انت
ومجتمع الاجرام والجريمة من سارقي الماعز ولصوص الدكاكين
فانت تعرف كما يعرف الذين امروا بحبسك
انك لست مجرماً، ولم ترتكب جناية صغيرة او كبيرة
تستوجب هذا السجن، فلماذا اذن جاءوا بك الى هنا؟
ووضعوك بين هؤلاء الناس وجعلوك تخضع لهذه المعاملة القاسية المخصصة للمجرمين ؟
والا هسى من ذلك ان اليوم الثاني يمر، ويأتي الثالث والرابع
ولا شيء يحدث بشأناك، مما انبت في رأسك هاجسا
يقول بانك هنا الى امد غير محدود
وان هناك خارج السجن ، من اراد بهذا الالهال المتعمد
وابقائك في السجن دون قضية، ان يدمر اعصابك
ويتلف قواك البدنية والمعنوية
فلا تخرج من هذا المكان الا حطاما
والدليل على هذه النية المبيتة في محاصرتك
وزرع امراض القلق والتوتر والكآبة في نفسك
ان تبقى دون كل السجناء محروما من الزيارة
بيداً موعد الزيارات وينتهي كل يوم ، ويذهب اصحاب
الجنح والجنايات للقاء زائريهم من نساء ورجال
والحديث اليهم من وراء الشباك الحديدي
الا انت . الامر ليس طبيعياً، والقبض عليك لم يحدث
في صحراء الحمادة الحمراء، الخالية من البشر و العمران
وانما في فندق الكبران ، وعلى مرآى من الغادي والرائح
ممن طيروا الخبر لمن يعرفك ولا يعرفك
ولا يعقل الا يكون بين هؤلاء الناس من اراد زيارتك
ولا تفسير لبقائك بلا زيارات طوال الأيام الاربعة الماضية
غير انهم يمنعون وصول الزوار اليك
لكي تكتمل حلقات المؤامرة
التي تهدف الى عزلتك ومحاصرتك ثم القضاء عليك
وتسأل نفسك وتعيد السؤال مرة تلو الأخرى
لماذا وما الذي فعلته ليتفجر ضدك الحقد

بهذه القوة والقسوة والتوحش
في اليوم السابع احضروا سجيناً إيطالياً
ووضعوه في الزنزانة الانفرادية
كان ذلك موضع استغراب النزلاء، لان للإيطاليين سجونهم
الخاصة التي لا يختلطون فيها بالليبيين
اثار الرجل فضولك انت أيضاً، خاصة وانه كان رجلاً انيقاً
تدل قيافته على انتمائه الى مهنة راقية مثل الأطباء والمحامين والمهندسين ، ولذلك قررت
وانت تراه يتمشى بمفرده في الساحة
ان تبادره بالتحية والحديث ، وابدى الرجل ترحيباً بك
عندما قدمت له نفسك بانك المسئول السابق عن مكتب الشكاوى وفوجيء بان يوجد في هذا
السجن من ينتمي مثلك الى شريحة الموظفين وعرفت منه انه صحفي يعارض السياسة
الاستعمارية لبلاده
وانه جاء متسللاً الى طرابلس
لان السلطات الإيطالية لم تشأ ان تمنحه تصريحاً للدخول
لكي لا يكتب منتقداً الاوضاع السائدة في المستعمرة
ولذلك فأنهم عندما اكتشفوا وصوله الى الميناء
دون تصريح ، قبضوا عليه لاعادة ترحيله الى روما
وهو هنا مؤقتاً الى حين توفر وسيلة السفر
سواء عن طريق الجو او البحر
اما سبب حجزه مع الليبيين بدلاً من السجن
المخصص للإيطاليين، فهو خوفهم من ان
تصل افكاره المعادية للسياسة الاستعمارية
الى السجناء الإيطاليين، ومن خلالهم الى جمهور
اعرض من المستوطنين فيؤثر ذلك في روحهم المعنوية
لم تشأ ان تنتقد امامه سياسة بلاده، او تنتقوه بكلمة نقد
واحدة عن الاوضاع الداخلية للبلاد
ورغم الاسئلة التي امطرك بها لم تأت على ذكر
أي شيء عدا محنتك الشخصية
عندما وجدت نفسك مسجوناً بلا ذنب
معبراً عن ثقتك في الحاكم العام الذي لن

يرضى بهذا الظلم اذا عرف به
هذا الصحفي ، مواطن إيطالي، يستطيع ان يختلف
مع حكومته كما يشاء، اما انت فمن تكون
حتى تبدي اعتراضا او احتجاجا على سياسة بلاده
او احتلالها لبلادك ؟ وما الفائدة التي ستجنيها غير تعقيد
وضعك الشخصي ، الذي تسعى لإيجاد حل له
كل ما استطعت قوله، هو ابداء
دهشتك لان هناك إنسانا إيطاليا يخالف الدوتشي
الذي اجمع الشعب على حبه
فاختفت بالتالى اصوات النقد والمعارضة والاحتجاج ضده
— من قال انني اخالف الدوتشي ، عندما اعارض السياسة الاستعمارية ؟ انني لا اقول في
صحيفتي شيئا الا اعادة اقوال الدوتشي نفسه
ولا افعل الا ما كان يفعله عندما قاد المظاهرات
ضد احتلال ليبيا عام 1911 ووقف يعترض طريق الجحافل
المسافرة اليها ، ودخل السجن من أجل هذا الموقف
كان ما قاله شيئا جديدا بالنسبة اليك
لان الليبيين يربطون بين الفاشية وبين انتهاك شروط الهدنة
التي كانت بينهم وبين الحكومة السابقة
ومعاودة احتلال ليبيا بوسائل واساليب اكثر عنفا ووحشية
وعندما اردت ان تسأله مستفسرا عن السبب
الذي اجبر الزعيم على تغيير سياساته ومواقفه
بعد ان وصل الى السلطة، اوقفك قبل ان تكمل السؤال قائلا :
— تلك ليست قضيتي . قضيتي هي ان اجد منفذا اعبر فيه
عن افكاري دون ان اتحول الى لحم مفروم .
شعرت بقلبك ينفتح لهذا الإيطالي النبيل الجريء
الذي فرحت لوجوده وتأسفت لفراقه
عندما اخرجه في صباح اليوم التالي من السجن
إلا أنه وعدك بان يثير قضيتك مع مسؤولي السجن
وسيهدهم بالكتابة عنك
واتخاذك مثالا للقهر الذي يمارسونه ضد اهل البلاد

فسجنك دون محاكمة، وعدم انتداب احد المحامين للدفاع عنك
ومنعك من استقبال الزوار ، والاعتداء عليك بالضرب
وحرمانك من الطعام دون سبب
امور لا تحدث الا في النظم البدائية
لا تلك التي تقول ان لها رسالة حضارية ، مثل الحكومة الإيطالية
واضاف غامزا:

— الدوتشي لا يرضى بهذا الكلام .
لم تتوقع خيرا بعد خروج الصحفي ، لانه هو نفسه ضحية
القهر الذي يحكي عنه ، فكيف لمن لا يستطيع دفع
الاذى عن نفسه ، ان يدفعه عن الآخرين
ولكن ما حدث خيب توقعاتك المغموسة في حنوط
اليأس والقتوط ، فقد تحقق ما وعدك به
وبدأ الحصار الذي ضربوه حولك يتقوض وينهار
بعد يوم واحد من خروجه
وشرع الزوار ينهالون عليك واحدا بعد الآخر
وكان الكبران اول القادمين ، قائلًا بانه حاول ان يزورك
منذ اليوم الاول لوجودك في السجن إلا أنهم ابلغوه
بان الزيارة تقتضي تصريحًا، والتصريح لا يأتي
في نفس اليوم . فعاود المجيء في اليوم الثاني والذي يليه
وهم يماطلون، ويسوفون، حتى كاد ان يصيبه اليأس
ويتوقف عن مراجعتهم إلا أنهم فاجأوه اليوم
بان التصريح جاهز ، فأخذه وظل واقفا
امام باب السجن ينتظر الوقت المحدد للزيارة
وليس هذا حاله وحده، وانما حال اقارب واصدقاء
قالوا لهم نفس الكلام، يوما وراء الآخر
حتى يتسوا من جدوى التردد على السجن
إلا أنه سيبليغ كل من يراه برفع الحظر عن زيارتك
وييدي استعداداه لعمل أي شيء من أجل اطلاق سراحك
والذهاب الى أي شخص مهم في الحكومة ترى
ضرورة الاتصال به للمساعدة ، لان الكبران واثق

من ان هناك خطأ ما فيما حدث لك
وان خبر سجنك لم يصل الى الحاكم العام
والا لتدخل في الحال للافراج عنك
"فهي مكيدة دبرها الكومندان الذي اكلت قلبه الغيرة من نجاحك
وخاف ان يفقد مكانته مع الطليان "
قدمت للكبران الشكر على ما ابداه نحوك من جميل العواطف
فقد اسعدتك زيارته، ورأيت فيها فاتحة خير وانفراج
واقهمته ان الوقت مازال مبكرا على اجراء
الاتصالات مع الشخصيات الكبيرة
لانك تفضل ان يأخذ الشق القضائي طريقه
باعتبارك واثقا من براعتك التي ستظهر
دون عون من احد ، الا انك من باب الاحتياط
سألته ان يضع امتعتك في صندوق من الورق المقوى
ويحتفظ بها في مخازنه، ليستطيع ان ينتفع بتأجير
الغرفة بدلا من وجودها عاطلة بهذا الشكل
فاستكر هذا الكلام ، ورفض الفكرة قبل ان تنتهي من شرحها له
— لا نقل هذا الكلام ، الغرفة ستبقى في انتظارك الى ان تعود
اليها قريبا ان شاء الله
وبعد الكبران جاءت نورية يقودها عبد المولى الشحاذ
جاءت وفي يدها منديل وردي تجفف به دموعها التي تأبى ان تتوقف:
— انها عين واصابتك، ومنذ ان اخذوك من الفندق
وانا اذهب كل صباح الى ضريح سيدي الهدار
واوقد له الشموع ، اطلب عونه على اطلاق سراحك
— والله فيك الخير يا نورية
ثم اجهشت بالبكاء وادارت وجهها الى باب السجن
ورفعت يديها امامها تدعو بصوت تخنقه العبرات:
— يا سيدي ياهدار يا من اختار ان يكون ضريحه
في الهواء الطلق ، فلم يسمح ببناء حيطان حوله
ولا باب يقفل عليه، لكي لا يبقى له غطاء
غير السماء والنجوم، سألتك بجاهك عند الله

ان تعجل بالافراج عن عثمان ولد الشيخ
ثم التفتت تسألك عن اسم والدتك تسهلا لمهمة الولي الصالح في مساعدتك فقلت لها "مريم
الشيخ" فواصلت الدعاء:

—— وابن مريم الشيخ البريء المظلوم ، وتفك كربته قادر يا كريم.

وفهمت منها بعد ان توقفت عن البكاء
انه تم ارجاء الوليمة الى وقت آخر
ورأت في ذلك فرصة لان تكون وليمة اكبر
بعد ان توفر لها وقت اطول للتحضير
وستكون الفرحة هذه المرة فرحتين
فرحة الحصول على البيت
وفرحة خروجك قريبا من السجن
وهي تملك يقينا كاملا بما تقول
لأنها مؤمنة بان سيدي الهدار لن يخذلها
ووثقة أيضا من صدق امرأة من اهل الفلاح والصلاح
تسكن زنقة بو مشماشة، ذهبت اليها لتقرأ لها طالعك
فابلغتها بانك ستحطم القيود وتتطلق وراء الحدود
وتتصر على عدوك، وتتمكن من استرجاع ماضع منك
باذن واحد احد لا يغفل ولاينام
فقلت لها بان كل تنبؤاتها ممتازة ما عدا الانطلاق
وراء الحدود، فهو امر يثير القلق خاصة
اذا كان هذا الانطلاق صوب المجاهل الافريقية
فتولى عبد المولى الشحاذ الاجابة
بان كلام اهل النبوة والعرفان
ليس كلغة الناس العاديين التي تؤخذ بحرفيتها
وانما هي لغة مفاتيح ورموز
والحدود في مثل هذه الحالة، هي حدود الكدر والضيق
والعزلة والظلم التي ستعبرها محققا
في افق الامان والحرية
رأيت فيما قالته نورية وما بذلته من جهد لأجلك
وما سكبته من عبرات حزنا عليك

شهادة لها بنقاء الروح التي لا سيطرة لاحد عليها
اما الجسد فهو ابن عالمه، يتصارع معه، ويخوض
المعارك ضد الظروف القاسية التي تواجهه
فتقهره هذه الظروف او يقهرها
وفقا لقوة وشراسة هذه الظروف، او ضعفها وهشاشتها
الا ان الروح تستطيع مهما كانت الظروف
ان تحتفظ بنقاؤها وقوتها وسموها
عصية على القهر والانكسار
وجاء عبد المولى هذه المرة في صورة جديدة
جاء يرتدي بذلة عربية نظيفة ، ويعتمر طاقية حمراء
مثل كبراء القوم ، ويضع في قدميه صندلا انيقا
وقد ترك الاسمال البالية التي لا يتخلى عنها
الا اثناء سفره الى "اولاد الشيخ"
لانه يستخدم تلك الاسمال لاستدرار العطف ، كما يستخدم وجهه
بملامحه الشعاء وقد ابقاه دون حلاقة، كجزء من
ديكور اليؤس، الذي يراه اكثر الناس يؤسا، فيحمد الله
على ما اعطاه من نعمة مقارنة به :
— ما الذي حدث في الدنيا يا عبد المولى حتى تركت
ما كنت ترتديه من خرق واسمال ؟
— تلك كانت عدة الشغل التي لا بد منها لمن يمتحن الشحادة.
— وهل تريد ان تقول انك تركت هذه المهنة ؟
— الفضل لله ولك انت يا ابن العم فقد وضعت ما اعطيته لي
فوق القروش التي اذخرتها على مدى الاعوام الماضية
واشتريت عربية يد ابيع فيها الخضروات والفواكه
وتدر الخير والبركة .
— هذه معجزة ياسي عبد المولى لان الشحاذ لا يترك
الشحاذة ، حتى لو صار ملكا . الم تسمع عن الفتاة الفقيرة
التي تزوجها ملك السند ، واخذها الى عاصمة ملكه
لتكون سيدة على بلاده ، فكانت تتسلى مبتكرة
من القصر كل مساء لتمارس الشحادة.

— انها مهنة ليست لنا رجال اولاد الشيخ
وكما تعلم فقد كنت اخفي نفسي كالمجرمين
عن أبناء قريتي ، اما الان فان اولادي يستطيعون الافتخار
بان والدهم تاجر جوال . لقد سافرت اول امس الى
هناك للمساعدة في بيع صفقة فاكهة وخضار
لاحد بقالى القرية ، ورجعت بالامس بعد ان
رايت اهلك الذين يبلغونك السلام
ولولا انني أخبرتهم بان الزيارات ممنوعة
لكان جميع الناس قد جاءوا اليك
والدك يقول لاهل القرية بان الرجل الكبير خاف على منصبه منك
— يقصد بشير بيك الغرياني .
— لا يقصده ، وانما يقصد من هو اكبر منه.
— انه نوع من الهذيان بقوله ابي نتيجة احساسه بالصدمة
فلا تأبه له، المهم انني لا اريد لاحد من اولاد الشيخ
ان يزورني في السجن ، فقل لهم بانني سآزورهم هناك
قريبا ان شاء الله، لانني واثق ان سجنى لن يطول.
— سافعل ، هل تريد اية خدمة أخرى من خارج السجن؟
— ليس سوى احضار علبتين من السجائر واخفائهما داخل رغيف او رغيفين من الخبز.
وعدا الزيارات فان ظروفك في السجن ظلت كما هي
ولم يظهر في الافق ما يوحي بان اقدارك تختلف
عن اقدار بقية المساجين ، ونصيبك من العقوبات
بأنئك مثلهم ، بما في ذلك عقوبة الفلقة التي كانت اكثر
هذه العقوبات مهانة وقسوة
ولو ان الحراس بعد ان عرفوا انك عسكري مثلهم
وانك تحمل رتبة شاويش في الجيش ، صاروا يضربونك
باسلوب اكثر رفقا من الاخرين
وجربت ذات مرة ان تختبر كونك اكبر رتبة من الحارس
الذي يتولى الضرب، فقلت له بلهجة أمرة ، بعد ان افلحت
في السيطرة على صرخات الالم :
— كفى ضربا اليوم.

وكانت المفاجأة المذهشة حقاً، انه فعلاً توقف عن الضرب
قبل ان يصل الى نصف الضربات المقررة
وانتقل هو وصاحبه الى النزول الذي يليك
وصرت تكرر اصدار الاوامر قبل بلوغ نصف الجلدات
المقررة وتتولاك الدهشة دائماً وانت تراهما ينفذان
تعليماتك التي صارت جزءاً من روتين
يخضعان له بطريقة لا ارادية
ورغم مهانة الضرب، والحرمان من الخروج الى الساحة أحياناً والحرمان من الطعام الذي
يستطيع البعض تعويضه
بما قد يأتي من طعام عن طريق الزوار
فقد انتعش لديك الامل في الخروج بعد فتح باب الزيارة لك
وصرت ترى يوم الخلاص قريباً ، كما تقول نبوءة المرأة
الصالحة التي زارتها نورية في زنقة بو مشماشة
ستخرج الى عالم جديد غير العالم الذي عرفته
في كل اعوامك السابقة ، هكذا كنت تقول لنفسك
وتعيد ليلة وراء الأخرى، وسط هذا الفراغ الموحش
وأيام السجن المكرورة ، الممرورة، الخاوية
عالم جديد، يقتضي منك ان تضع لنفسك خطة
عن كيف تواجهه، وتسهم في تحديد معالم حياتك فيه
لأنك لن تجد بعد خروجك من السجن، وقتاً كمثل هذا الوقت
الذي يملكه السجناء
عالم جديد، تراه لأول مرة بعيني إنسان عاش تجربة السجن
وعرف ما تعنيه الحياة خارجه
عالم، لن يكون مثل عالم القرية كما عرفته ، اثناء حياتك هناك
عالم قريب من الفطرة ، وثيق الصلة بالطبيعة
يختلف عن مجتمع المدينة وتعقيداته
وهو عالم اتسعت المسافة التي تفصلك عنه وتفصله عنك
منذ ان انتقلت الى المدينة وانضمت الى الجيش
والتحقت بالعمل سائقاً لدى السنيورة حورية واقتربت
من اهل الحكم، وشملتك لفترة قصيرة دائرة الضوء

التي تصنعها السلطة، والتي احسست بها تدفك
ثم يزداد الوهج حتى يصبح لها بحرقك
وقد تقطعت الان، الاسباب بينك وبين هذا العالم أيضاً
وها انت في مواجهة عالم جديد، لم تتضح لك معالمه
ولا تعرف عنه شيئاً سوى انه يختلف عن عوالمك السابقة
وحقيقة انك تخرج من السجن إنساناً يختلف في رؤاه وتفكيره عن الإنسان الذي دخل السجن
واكثر حرية، لانك لم تعد رهينة لجمائل
احد او وساطته او سلطانه، ستعتمد على نفسك
وتصنع بها ما تريده انت، لا ما يريده الذين استخدموك
وتحاول توظيف حصيلتك من الخبرات والمعارف
التي اكتسبتها خلال الفترة الماضية لصالحك
لا لصالح وظيفة، او حكومة، ولا صاحب او صاحبة نعمة
فانت ومنذ اللحظة الاولى لخروجك من هذا السجن
بل وقيل خروجك منه، لن تكون موظفاً لدي اية جهة
سوى جهة واحدة هي انت، وبهذا تجعل السجن الذي ارادوه
قمعاً لك، وقهراً لارادتك، وتحطيماً لمعنوياتك، فعل تحرر وتجدد
وانعتاق من الاغلال التي ربطتك بهم
والظروف التي رهنّت حريتك وارادتك لديهم
عندما جاء وقت الزيارة، بعد أسبوعين من وجودك في السجن، ورأيت مختار العساس
وعياذ الفزاني ومعهما امرأة لم تعرفها لانها احكمت اللحاف حول وجهها، ولم يبق الا البنبوك
الذي لا يكشف شيئاً من ملامحها اندهشت
لانك لم تتوقع مجيئهما، ولم تتصور امكانية ان يصل
خبر سجنك اليهما، بعد ان باعدت بينك وبينهما
ظروف العمل والاقامة
كانت المرأة ذات اللحاف المقفول، هي حواء
التي ما ان عرفت انها هي، حتى صحت بها :
— اكان لابد يا حواء ان تأتي بنفسك الى هنا، ولديك رجلان
يستطيعان حمل التحيّة عنك الى هذا السجن
— وهل تهون العشرة الا على قليل الاصل
— اصيلة دائماً يا حواء

كانت حواء هي التي نقلت الخبر لمختار و عياد
بعد ان سمعت اشارة عابرة من سيدتها عن وجودك في السجن
دون ان تسمع منها شرحا عن دوافع وقصة هذا السجن
واتفقت معهما على زيارتك
اردت تهوين الامر امامهم وهم يسألونك بلهفة
عن السبب وراء محنة السجن
فأخبرتهم بأنه مجرد عراق نشب بينك وبين
الكومندان بشير بيك الغربياني ، ادى الى هذه النتيجة المؤسفة
وان الموضوع في طريقه الى الحل قريبا
وعرفت منهم ان اشياء كثيرة تغيرت في بيت حورية
خلال الشهر الذي مضى
وان هناك عنصرا جديدا دخل على المشهد
الذي كنت تعرفه هائنا آمنا فافسده
اذ توتقت علاقة حورية بواحد من شباب الحزب الفاشي الليبي
عاش طفولته في ملجأ للايتام وخرج منه
لا يعرف له ابا ولا اما الا الحكومة الإيطالية
ولا لغة الا لغة الإيطاليين
وهو الذي عقدت عليه قرانها منذ أسبوعين
تظاهرت بانك لا تعرف شيئا عن خلفيات الموضوع
لان العساس والسائق لا يعرفان شيئا عن هذه الخلفيات
التي كنت طرفا فيها
حواء وحدها كانت شاهدة على ماجرى بينك وبين حورية
باعتبارها اكثر من مجرد الدادة ومديرة شؤون البيت لحورية
انها الاخت والصديقة وكاتمة الاسرار
وهي تعلم بالتأكد انك كنت مرشحا لاداء هذا الدور
الذي اخذه الفتى المعجون من مادة ليبية إيطالية
هناك نقطة واحدة يهمك ان تتأكد منها قبل أي شيء آخر
فرفعت صوتك تسأل بلهجة بلونها الاندهاش :
— والباشا الكبير ، هل استطاع الاستغناء عن حبيبة عمره؟
اجاب عياد الذي بدأ منزعا مما يحدث :

— الحقيقة ان زيارته ازدادت هذه الأيام وما ان يأتي حتى يتسلل الولد المختل هاربا ، فلا يعود حتى يتأكد ان الباشا الكبير قد غادر البيت .

واضاف بشيء من الغضب والمرارة :

— قدمت طلبا للتقاعد من العمل ، لاعيش مع اولادي في مرزق لان الحال لم يعد قابلا للاحتمال .

وجاء تعليق مختار العساس يضيء جانبا لا تعرفه من جوانب العلاقة التي ربطت فجأة بين حورية وهذا الوافد الجديد:

— سي عياد عنده حق . لو كنت مكانه لترك العمل حقا لان الرجل لا يحترم صغيرا ولا كبيرا ، ولا يتكلم الا بلغة الشتائم و الضرب ، حتى السنيورة حورية لم تسلم من ضربه و شتائمه .

— وما الذي يجبر السنيورة حورية على القبول به ؟

— معذور عندما تسأل هذا السؤال ، لانك لا تعرف .

ثم نظر الثلاثة الى بعضهم بعضا وسكتوا وقطعت حواء الصمت قبل ان يطول :

— والله الذي لا اله الا هو ، ما كانت حورية لترضى بالنظر اليه حتى من الشباك ، ولكن المسكينة مجبورة .

ادركت انها متحجرة من ذكر السبب فجازفت انت بالقول:

— مجبورة ؟ لماذا؟ هل بسبب الجنين الذي في بطنها ؟

لم تكن تعلم ان حورية حبلى ، ولم تكن قد لاحظت عليها أي اثر او علامة لهذا الحمل، فهو بالتأكيد مازال في مراحله الاولى ، او لعله ليس كذلك

واستطاعت ان تنجح في اخفاء هذه العلامات الا ان الحاحها الشديد على موضوع الزواج وبهذه السرعة القياسية التي تتشدها

جعلتك ترتاب في ان هناك ما هو اكثر من مجرد الرغبة في زواج، يعطي الغطاء الشرعي والضروري لانجاب الاطفال مستقبلا ، لان اول هؤلاء الاطفال

بدأ فعلا في التخلق والنشوء ، وهو يواصل نموه في رحمها
قبل ان يصل الزوج الذي سيكون ابا شرعيا لهذا الطفل .
ورغم اللحاف الذي يغطي وجهها و يحجب ما يرتسم عليه
من تعبيرات ، الا ان عينها التي ظهرت من كوة الرداء
جحظت حتى صارت في حجم الفئجان:
— وكيف عرفت ؟ هل أخبرتك هي بذلك؟
— وهل هناك في الحمل اسرار ؟ حتى لو اعتبرته سرا
فستظهر العلامات التي تكشف هذا السر .
— لا نقل هذا الكلام ، فאלله يعلم بمدى براءة ونقاء هذه المرأة.
— المهم انها تداركت الامر ، فلا تظهر العلامات
الا وهي في عصمة الزوج .
— اتمنى الا تكون حاقدا عليها لان حورية جوهرة لمن
لا يعرفها يا سي عثمان .
ادركت انها تغمز من طرف خفي
فلم تشأ ان تتحدث معها بما تعرفه امام الرجلين
انتظرت حتى حان موعد انتهاء الزيارة
وقبل ان يغادروا باب الصالة، ناديتها لتستقرد بها قليلا :
— كان ما قلته تلميحا لشيء ما فما هو ؟
— هو انك لم تعرف حورية، ولهذا استهنت بها ورفضت عرضها .
— وهل تعرفين انني في هذا السجن بسببها ؟
— انها بريئة من مثل هذه الاعمال ، فهي ليست
وراء سجنك لانها، ارقى واشرف من ان تفعل ذلك
ولكنها طبعا لم تتدخل لحمايتك، لانك خذلتها وتخليت عنها .
— وهل كان يرضيك ان تزوجها، ثم اركض هاربا من البيت
عندما يأتي ذلك الرجل .
— كان الحال سيختلف ، لانها احبتك انت ، وتريدك انت
وكانت صادقة في ان تبقى مخلصه لك ، وقد وافقت انت
على ان تطوي صفحة الماضي ، وتفتح صفحة جديدة
ثم اخلفت وعدك .
— وهل ظلت مخلصه لزوجها الجديد؟

— لأنه ببساطة ليس زوجا ، وليس رجلا ، وليس اختيارا
من اختياراتها، فقد جاء عارفا لماذا جاء، وسيقبض الثمن
ويرحل ، لأن سيدتي لا تكره احدا في الدنيا كما تكرهه.
— ارجو ان تبلغنيها بحياتي .
— انت الذي تحيرني ، لماذا وافقت وعاهدت ثم تراجعت وهربت ؟
— لان حورية لم تستطع ان تشرح لي ، كيف يمكن ان تقطع
علاقتها بالرجل الذي ينفق عليها ، ويواصل مع ذلك هذا الاتفاق
اليس ذلك مستحيلا؟
— لو انتظرت قليلا كنت ستفهم ، لان حورية كانت ستفتح معك
صفحة جديدة مبنية على الصفاء والثقة والصراحة والحب
وكانت على وشك ان تخبرك كيف ان الرجل سيستمر في الاتفاق
لا بسبب العلاقة التي ستضع لها حدا ، ولكن بسبب ثمة
العلاقة الماضية ، أي هذا الجنين الذي يعرف الرجل الكبير
انه طفله ، وسيواصل الاتفاق عليه وعلى امه ، حتى لو لم

يستطع ان يعطيه اسمه ، هل فهمت ؟

قلت لها وهي تستدير تجاه الباب :

— ابليغها اسفي لاي كدر اكون قد سببته لها .

— لا استطيع ، لاني لم أخبرها ولن أخبرها بامر هذه الزيارة .

لم تكن واثقا من ان الكلام الذي سمعته من حواء

يمكن ان يغير شيئا من الحقائق التي بنيت عليها موقفك

عندما انسحبت من مشروع حورية ، ومن حياتها

بل ربما جاء هذا الكلام ، ليؤكد صحة الظنون والشبهات

ويحيلها الى يقين . لن تشغل بالك بما اصبح ماضيا

فهي صفحة طويلة ، وانتهى زمانها ، ولن يفيدك شيئا

ان تجعل عقلك رهينة لاحداثها الميتة وتواصل الانغماس

في دخانها الذي لن ينفع الا في تعميم الرواية

التي تريدها صافية واضحة فيما سيأتي من أيام لكي

تستطيع ان تعرف جيدا اين تضع قدمك عند دخول

عتبات حياتك الجديدة
طبعاً لم يكن ممكناً ان تكون حورية شخصياً
هي التي امرت بسجنك او حرصت عليه
فهذه تدابير اجرامية تحتاج الى طاقة من الشر
لم تكن تملكها حورية
كل ما في الامر، انها رفعت يدها عنك
وسحبت بردة الحماية والامان التي كان تسد لها فوقك
هذا كل ما فعلته ربة الحسن التي حبتك بحبها
ومنحتك رعايتها، واسكنتك في الدائرة القريبة من قلبها
وعندما اكتشفت انك غير اهل لهذه الرعاية والحماية
ادارت وجهها الى الناحية الأخرى
وتركت لذئاب البراري حرية الركض وراءك وافتراسك
دعك الان مما مضى وما سوف يأتي ، وانظر لراهنك
والواقع الذي تعيشه في هذا السجن
ولتروض نفسك على قبوله كما هو ولتحاول ان تجد
حلاً مع السجائر ، وامتلاك كمية منها
تسهم في تحسين هذه الإقامة حتى تنتهي
خاصة بعد ان عرفت ان السجائر أيضاً هي اداة الرشوة
التي يتعامل بها الحراس ، وبموجبها يرفعون عنك الاذي
ويتساهلون في توقيع العقاب عليك ، ويلبون طلباتك
ويقضون لك داخل السجن بعض المصالح التي
لا يعاقبهم عليها القانون
كان عبد المولى قد جاء حاملاً لك السجائر، داخل رغيف الخبز
صار معك الان سجائر إيطالية فاخرة
تؤمن بها مكاناً لنومك افضل من الاستلقاء عند باب
الزناينة ، وتستطيع ان تشارك في لعب الورق ان شئت
ويمكنك بكمية اكثر منها ان تفرض هيبتك واحترامك
على بقية النزلاء، فالثروة هنا هي السجائر
ومع كل يوم يمر، تكتشف القوة السحرية لهذه اللقائف
الى حد انك اوصيت عبد المولى بان يداوم على إمدادك

بها كل يوم ، ومرت عدة أيام اكتشفت خلالها انه
يمكن للنقود أيضاً ان يكون لها نفس المفعول
وربما اكثر قليلا مع الحراس
الا ان التعامل بها لا يتم صراحة كما هو الحال مع السجائر
بسبب ما تعنيه النقود من معنى واضح للرشوة وشراء الذمم
خاصة اذا وصل الامر الى المحاسبة القانونية والقضاء
حيث يمكن لمن ارتشى بالسجائر ان يجد متكاً قانونياً للنجاة
اكثر ممن كانت تهمته اخذ النقود
وبعد قليل من الفرنكات صارت الفلفة مجرد مداعبة
فوق بطن القدم لها فعل الدغدة
التي تجعلك تضحك بدلا من ان تبكي
كان طيف ثريا يأتيك كثيرا في النوم
و تفكر فيه خلال اغلب ساعات اليقظة
ربما كان السبب هو خروج حورية من حياتك
او خروجك من حياتها، بهذا الشكل الحزين
مما جعل اللجوء الى طيف ثريا، يمثل شيئا من السلوى
كما يتيح لك فرصة الهروب من اجواء السجن البائسة
ووجوهه الكالحة ورواحه الكريهة
تستخدم قوة الحب ، لاستحضار سماحة وجهها
ونفحات عبير العنبر الذي تتعطر به
تحارب بهما كآبة الواقع الذي تعيشه
لم يكن ممكنا ان يعرف الحاج المهدي بسجنك
ولا يرسل بكل افراد اسرته لزيارتك يوما وراء يوم
فهو بالتأكيد لم يعرف ، وانت بوسعك ، اذا اردت ، ان ترسل اليه
عيد المولى بكلمة عن سجنك ، وستجد ثريا امامك في اليوم
التالى مباشرة . انك لا تشاق ان ترى احدا في الدنيا
اكثر من شوقك لرؤية عينيها ، ولكن هل تراه مناسبا
ان تأتي ثريا الى هنا لتراك في هذا الوضع المهين
ليس من الافضل ان تصبر
حتى ترحل هذه السحابة السوداء من فوق رأسك

لتراها في شروط اكثر ملائمة للحب الذي تحمله لها ؟
ضحكت من نفسك وانت تحدثها عن حب منبوح
وامرأة كتبتها الاقدار لرجل سواك
ولكن القلب دائما يعمل بمعزل عن هذه الاعتبارات
انه مشدود لامرأة اسمها ثريا
يستطيع ان يراها عندما يكون خارج السجن متى اراد
وان يستدعي صورتها كلما اشتاق اليها وكفي .
بين الكتابات الكثيرة الموجودة على حيطان الزنزانة
كتابات عاشق مر على هذا السجن ونقش فوق كل جزء
من الجدران الاربعة اشعار الشوق لحبيبته صالحة
التي يطلق عليها في كل قصيدة من قصائده
ربيع القلب ، مع انه كما سيترف في واحد من ابياته
بانه لم ير صالحة في حياته ابدا
فقد احبها من خلال الخاطبة التي رشحتها له كزوجة
وكان سيخطبها ويتزوجها لولا ان السجن حال بينه وبينها
فزوجوها من رجل آخر
وكان هذا هو مصدر الحرقه واللوعة في قصائده
لقد صنع ذلك السجين ربيعا وهميا لقلبه
في اغوار هذا السجن
فكيف لا تحقي انت بربيع قلبك
وهو ربيع حقيقي متجدد مونق خصيب
كان الولد الذي حصل بجداره على لقب مهرج الزنزانة
بسبب ما يقدمه من مشاهد ضاحكة
بصر ليلا على اعادة اغنية شعبية حزينة يسميها النشيد
الوطني لسجن بورتا بينيتو تقول كلماته :
أبكي معاي باللي فيك دموع
أبكي معاي، بدموع الدم
الناس تجلب وتجيّب غم
وانا اهو قاعد في الهم
بجنب سواني الزعزوع

باللي فيك دموع

أبكي معاي

واقترحت عليه من أجل أحداث شيء من التنويع

ان يصنع الحانا يقتبسها من الاغاني المشهورة

للقصائد المنحوتة عن صالحة فوق جدران الزنزانة

والتي صرتم جميعا تحفظونها ، لانه طوال الوقت امام أعينكم

وسيكون جميلا ان ترونها ترتدي ثوب الغناء والتلحين

وكانت سهرة ناجحة ، لانه اختار الحانا خفيفة مرحة

اغرت الجميع بالرقص على ايقاعها

يرافقونه بالتصفيق والضرب الايقاعي على الصحون:

يا صالحة يا ربيع قلبي الغالى

يا واقدة نجوم الفرح في بالى

يا صالحه تعالى لي

يا واقدة نجوم الفرح في ليلي

يا صالحة وما صالحة الا انت

يا صالحة وسط الظلام اشرفت

وسمعت صوت الحب بيناديلي

يا واقدة نجوم الفرح في ليلي

دق الحارس باب الزنزانة غاضبا، مهددا بالعقاب

الذي سيطول كل نزل السجن

ولكن ورقة من خمس فرنكات

تسللت اليه من تحت الباب جعلته يختفي الليل كله

ولا يعود حتى صباح اليوم التالي

قد لا يختلف اسلوب الناس داخل السجن او اخلاقياتهم عن

سلوكيات واخلاقيات الناس خارجه

الا ان النفوس هنا اكثر ضعفا وهشاشة

والارادة اكثر قابلية للانكسار

وما يبدو كبيرا عزيزا خارج اسوار السجن

كالكبرياء والكرامة والصدق والامانة والشرف والنزاهة

يمكن بسهولة ان يتحول لشي لا اهمية له داخل الاسوار
ولهذا صار ممكنا ان تكون للسيجارة كل هذه القوة
وصار ممكنا بالنسبة لك ان ترى فيما رفضته
وانت خارج السجن ، شيئاً لم يكن يحمل من المهانة
ما يستحق الرفض
فماذا لو انك قبلت ما عرضه عليك الكومندان
عندما ارادك تابعا لتابعه فوزي ؟
الم تكن بهذا القبول قد جنبت نفسك الاذى
الذي جاء بعد ذلك؟
فما الذي افادك هذا الرفض الارعن المتهور الذي لا معني له ؟
كنت قد خرجت في موعد الزيارة للقاء عبد المولى
تتلقى منه عبر قضبان الحديد تموينك من السجائر
المخبأة في ارغفة الخبز
عندما جاءك احد ضباط السجن ، يبلغك بوجود زائر
يريد ان يراك الان ، وقفت في مكانك خلف شباك الحديد
ترنو الى باب الصالة الذي يدخل منه الزوار ، متوقعا
ان ترى هذا الزائر الذي تفضل الضابط بالإعلان عنه
وهو لا يزال في الشارع
ولكن الضابط اشار عليك ان تتبعه ، لان الزائر
موجود في مكتب مدير السجن
سألت عبد المولى ان ينتظر ، فربما استطعت
ان تعود اليه قبل انتهاء الوقت المخصص للزيارة
وذهبت لتجده في انتظارك
هو ولا احد غيره
الرجل الذي تشير كل الدلائل انه كان وراء
وجودك في السجن : الكومندان بشير بيك الغرياني
بلحيته التي غلب بياضها على سوادها
ووجهه العريض المائل الى الأحمرار
الذي ينضح بدهن الصحة والعافية
وبذلتة العربية الكاملة، والبرنس الذي احتوى

هذا الهيكل الكبير، وإعطاه مزيدا من المهابة
بلونه الزيتي الجميل
كان جالسا على احد كراسي الصالون في الغرفة
الكبيرة الواسعة، التي بدت لك اكثر اتساعا من
حقيقتها، وسقفها اكثر ارتفاعا، وجدرانها اكثر نظافة
والتماعا وجمالا، بسبب ما تعودت عليه من قبح
وضيق في زنازين السجن
وكان ابهي شي ء في المكتب هو ذلك الشباك
المفتوح على فضاء بديع عامر بخضرة الأشجار
وزرقة الافق الذي تراه الان بعينين
اعيتهما الاجواء الخائفة الكريهة
اراد صاحب المكتب ان يغادره، ليعطي للكومندان
فرصة ان يتكلم معك على انفراد
الا ان اليك طلب من مدير السجن ان يبقى
واشار اليك بيده التي تحمل مسبحة
الكهرمان المضيئة، ويزين احدى أصابعها الخاتم الكبير
ان تجلس، فجلست على الكرسي المقابل تنصت اليه:
— لا تظن يا ولدي اني اردت بك شرا ، او انني سعيت لجلب
الضرر لك ، فالظلم ليس من طبعي ، عملي هو رفع
المظالم عن الناس لا تعريضهم للظلم
وافرح كثيرا عندما اجد شابا من اهل البلاد
يثبت للإيطاليين ان العنصر الليبي
صاحب فطنة وذكاء وانه جدير بالثقة وتحمل المسؤولية
ولذلك
قاطعته بشيء من الحدة :
— ولذلك انا في السجن
— لا تقاطعني ارجوك ، فهذه العصبية الزائدة عن الحد
هي التي ادخلتك السجن ، لانك اخطأت عندما رفضت
الامتنال للتعليمات، ومواصلة العمل في مكتب الشكاوى
كما عرضت عليك . الوظيفة ليست دكانة تملكها

وتحتفظ بها مدى الحياة . انها شأن من شئون الحكومة
وللحكومة حق ان تضعك اليوم في هذا الموقع
وغدا في موقع آخر
دون ان يكون في ذلك ما يوجب الغضب والاحتجاج
لانه قاعدة تسرى على كل من يعمل في الدولة
من الحاكم العام نفسه الى السعاة والفراشين
— من حق الإنسان ان يستقيل .
— انك مازلت صغيرا على مثل هذا الكلام ، تستقيل لتذهب الى اين ؟ وتستقيل لماذا ؟ ثم
انك منخرط في الخدمة العسكرية
وهي لها قواعد وشروط تمنع الاستقالة
قبل انتهاء المدة القانونية .
ثم وقف متكئا على عصاه استعدادا لمغادرة المكتب:
— جئت لاقول لك ان تأخذ حذرك في المرة القادمة
وان تبتعد عن التهور وتلتزم بالتعليمات ولا تكن حرونا
عنيذا ، لان ذلك لن يكون لصالحك، لقد منعت الموضوع
من ان يتطور، وواقفته عند هذا الحد رحمة بك
وباهلك في اولاد الشيخ ، الذين جاءوا الى بيتي يرجون
تدخلي لانقاذك من السجن والمحاكمة
وقبل ان تسأله عن ابنه من اهلك في اولاد الشيخ
ابلغك بلهجة رسمية ، ان هناك قرارا صدر من قائد الاركان
بانهاء ندبك واعادتك لعملك العسكري
وستخرج من هذا المكان فور انتهاء الشكليات
خرجت لتجد عبد المولى مازال بانتظارك امام شباك الحديد
انتهى موعد الزيارات ، إلا أنه احتج لدى شرطة الحراسة
بان حقه في الزيارة اغتصبه السيد مدير السجن
الذي استدعاك لمكتبه ، فضحكوا من هذا المنطق الغريب
وسمحو اليه بالبقاء بضع دقائق بعد الوقت
أخبرته بانك ستعفيه من مهمة جلب السجائر
لانك ستخرج قريبا ، كما ابلغك الكومندان بشير ببيك
بسط ذراعيه امام القضبان كانه يحاول احتضانك

وتهنئتُك بالافراج القريب ، وقال تعليقا على زيارة بشير بيك:

— شكر الله ولعنة الله عليه

— ولماذا تخط الشكر باللعنة ؟

— استحق الشكر لانه جاء ينقل اليك خبر الافراج

واللعنة لانه هو الذي كان وراء سجنك.

لم يفته ان يذكرك قبل انصرافه ، بما يجب عليك عمله

فور خروجك من السجن ، فهناك الحفل المؤجل

الذي ستقيمه نورية وصاحباتها في بيتهم الجديد

والذي يتوقف على اشارة منك

حتى لو اردته مساء اليوم

ثم الرحلة الى اولاد الشيخ وفاء للوعد

الذي قطعته على نفسك بزيارة الاهل حال خروجك من السجن

اردت ان تساله عن ذهاب من اهلك لزيارة الكومندان

الا ان السؤال خطر لك متأخرا، بعد ان اتجه عبد المولى

الى الباب، فكان سهلا ان يتظاهر بانه لم يسمع السؤال

لكي لا يعود ويدخل معك في نقاش حول خطأ

ما حدث او صوابه، لان النتيجة تحققت

وهي صدور الامر بالافراج عنك

ذهب عبد المولى لابلاغ من يجب ابلاغه

بانك في الطريق الى الخروج من السجن

وجاء في اليوم التالي مبكرا يستفسر من ادارة السجن

عن موعد الخروج، وحين موعد الزيارة فوجده

يقف بانتظارك، قلقا، متوتر الاعصاب، لانه لا يرى سببا

لهذه المماحكة، والمطالة ، او سببا يمنعه من اخباره

بساعة خروجك، ليقوم بابلاغ الاهل والاصدقاء

الراغبين في استقبالك على باب السجن

فسألته بالا يفعل ما يفعله بعض الموسرين والتجار

الذي يدخلون السجن ويخرجون منه، فيقيمون بمناسبة

خروجهم احتفالا صاخبا، ويعمدون احيان الى ذبح الخراف

واحضار من يعزف المقرونة ويضرب الطبل

وسط حشود المستقبلين عند بوابة السجن ، فحالك
لا يماثل حال أولئك الناس ، وسجنك لم يكن الا حدثا
عرضيا تريد ان تعامله باهمال وتمحوه من سجل
حياتك، كأنه لم يحدث اصلا ، لا ان تقوم باشهاره والإعلان عنه
وبدلا من الانتظار والسؤال عن ساعة الافراج
فان الافضل له ولك، ان يذهب للاعتاء بعمله
وبيع الخضروات والفواكه التي بحوزته قبل
ان يلحقها الفساد، وسيجدك بعد خروجك
بانتظاره في فندق الكبران
كما سيجدك هناك كل من يريد ان يراك من الاهل
والاصدقاء لانك لا تريد ازعاجهم بالمجيء الى هنا
والتجمهر امام باب بالسجن كما كان يقترح
ذهب عبد المولى متأففا متكدرا ، كأنه يقول اصنع بنفسك
ما تشاء ، لان كل ما اراده هو ان يقوم بالواجب، حسب
الأصول المتعارف عليها بين اولاد البلد
الا ان الذي حدث بعد ذلك جاء مخيبا للامال
متناقضا مع ما ابغاك به الكومندان في حضور مدير السجن
فالافراج الذي انتظرته في اليوم التالي لزيارة الكومندان
لم يتحقق ، ومرت اليوم الثاني دون ان يحدث شيئا
ثم الثالث وهاهو اليوم الرابع قد جاء دون اشارة او عبارة
تفيد بقرب هذا الافراج ، مما جعل عددا ممن ذهبوا
يبحثون عنك في الفندق ، يأتون صحبة الكبران يراجعون
ادارة السجن ، ويسألون عن سبب التأخير
بينهم عبد المولى ، واكثر من قريب من اولاد الشيخ
وكان لابد ان يحدثوا ضجيجا عاليا
لكي ينتبه مدير السجن لوجودهم
فيستدعيك الى مكتبه ، ليقول لك بلغة إيطالية مهذبة
غريبة عن لغة التعامل بين الادارة والمساجين
بانك لم تعد سجيناً ، لان قرار اطلاق سراحك قد صدر فعلا
وانك تستطيع اذا اردت ان ترتدي ملابسك العادية

وتسترد ما لديك في المحفوظات من اغراض شخصية
اخذوها منك كالنقود والساعة وغيرها
وان تستقبل ضيوفك في أي وقت تشاء
وان يأتيك من خارج السجن أي طعام تريد
وان يكون لك حق مغادرة الزنزانة الى الساحة
في أي وقت يناسبك ، ولن يتم تطبيق العقوبات التأديبية عليك
الا انك لن تستطيع مغادرة السجن الان
وقبل ان تسأل بحرقه واستغراب وغضب عن السبب
افادك بان هناك امرا يقضي بالتحاقك بدفعة المجندين
التي ستسافر قريبا الى الحبشة
وانك ستذهب مباشرة من السجن الى السفينة
التي ستغادر طرابلس يوم الخميس القادم
أي بعد اربعة أيام من الآن
لم يكن هناك جدوى من محاولة الحصول على اية
توضيحات منه ، اذ ان كل ما يعنيه ، ويدخل في اختصاصه
هو تنفيذ التعليمات بحزم ودقة
وعندما سألته عن جدوى قضاء هذه الأيام الاربعة
بين جدران هذا السجن بدل ان تعيشها مع اهلك خارجه
احسست بمجرد ان فرغت من قول السؤال
انه سؤال لا معنى له ، لان الهدف من هذا القرار واضح
لا لبس فيه، وهو ان يقطع عليك اية فرصة للهروب
او استجداء العفو ، وتسليمك كالعهدة الى سفينة شحن الجنود
وقبل ان يجيبك اصدر الهاتف فوق مكتبه رنينا عاليا مزعجا
اقتضاه ان يرفع السماعة ويشير اليك بما يفيد انتهاء المقابلة
خرجت من مكتبه ووقفت . انت الان حر داخل السجن
تستطيع ان تقف امام مكتب المدير كما تشاء
او تجلس اذا اردت، تستطيع ان تمشي او تنكبي على الجدار
او تتمدد فوق زليج هذا الرواق ، فانت حر داخل السجن
يمكنك ان تعود الى الزنزانة او لا تعود ، تأكل او لا تأكل
تشرب او لا تشرب ، تتكلم مع نفسك او مع الاخرين

تغني او تمتنع عن الغناء ، تحجل على قدم واحدة

او ترقصة رقصة الغزال في الصحراء

وتفعل ما لا يستطيع أي سجين آخر ان يفعله

لأنك حر داخل السجن

وهضاب الحبشة تلوح الان قرية قرية

انها اقرب اليك من أي مكان آخر في طرابلس

اقرب اليك من السرايا الحمراء ، و زنقة الريح

وجامع الباشا ، وكوشة الصفار ، وسيدي عمران ، وجامع

فرجي، وميدان الساعة ، ومقهى ميراماري

وهي بالتأكيد اقرب اليك من فندق الكبران

الذي جعلته نقطة اللقاء عند خروجك من السجن

لانه لم بعد هناك لقاء تذهب اليه في ذلك الفندق

ولا غرفة هناك تستطيع ان ترنو للنوم فوق سريرها الهزاز

انتهى عالمك اللبي الطرابلسي ، وبزغ عالمك الجديد

في بر الحبشان . هضاب اثيوبيا اقرب كثيرا جدا

من قرية اولاد الشيخ

التي تتوارى الان خلف دخان المعارك التي تنتظرك

في موطنك الجديد

لا احد يستطيع ان يهرب من قدره

وما سطرته الملائكة فوق الجبين لابد ان تراه العين

كما تقول الجدات والامهات فلماذا يكذب الناس على انفسهم

ويخدعونها، ويحاولون الهروب مما لا مهرب منه الا اليه

خرجت لزائريك ، الذين ينتظرون عند الحاجز الحديدي

في صالة الزوار ، وفاجأتهم بان تركت الجانب الذي يقف

فيه المساجين ، وخرجت خلف الحاجز قائلا لهم ما قاله لك

مدير السجن ، من انك إنسان حر طليق داخل السجن

وافهمتهم ان الاوامر صدرت بالا تخرج من السجن

الا الى السفينة الذاهبة الى بلاد الأحباش

لنتحقق بمن بقي على قيد الحياة من أبناء دفعتك

وان موعد السفر يتناسب تماما مع موعد الاعراس

واحتقالات الزفاف فهو يوم الخميس القادم باذن الله
فاجأ الخبر عبد المولى والكبران و مندوبي العائلة ، الذين ظلوا
يحدثون في وجهك غير مصدقين ما تقول
اذ كيف لمن كان يظن انك حقا الرجل الثاني في البلاد
ان يصدق انه يمكن ان يخسف بك الى حضيض المجندين
المبعوثين لملاقاة حتوفهم في حرب الحبشة
نعم انت سجين الان ، او كنت سجيناً ، فهذا يحدث نتيجة
صراع القوة بين ارباب المراكز العالية في السلطة
اما الحبشة التي يأنف من الذهاب اليها حتى أبناء الخدم
ويهربون ويتسللون خارج الحدود لكي لا يقعوا
في مستنقعاتها ، فهي بلا شك موضوع غير البقاء
في السجن لبضعة أيام ، حيث لا قوة ولا مراكز ولا صراع
ولا سلطة ولا دوائر عليا
وانما حضيض الحضيض من اليأس ومهانة الموت
في الاحراش، حيث تبقى الجثث فرائس للنمور
والأسود والضباع . كان الكبران اكثر الموجودين
احساسا بالصدمة ، اذ لم يصدق ان الرجل الذي رآه
اهل المدينة يعمل مرشدا
ودليلا للحاكم العام ، ينتهي به الامر الى هذا المصير
قال محاولا ان يتشبث باية قشة تنجيه من السقوط
في لجة اليأس ، وهو الذي بنى امالا عريضة
على صداقته معك ، وراها طريقا سالكا
آمنا ، يقود مباشرة الى قصر الحكومة
— هل انت واثق ان صديقك الحاكم العام، على علم بما يحدث لك؟
قلت له قبل ان تتسحب عائدا داخل السجن ، للبقاء قليلا مع نفسك:
— قرارات الالتحاق بالحرب مثلها مثل قرارات التأجيل والاعفاء
لا تصدر الا من الحاكم العام .
أيام اربعة تفصلك عن يوم السفر ، تراها اسوا
من خبر ارسالك الى الحرب ، لانه ليس امامك ما تفعله سوى
الانغماس في الهواجس السوداء التي تصاحب التفكير

في المصير الغامض المجهول الذي يسوقونك اليه
الوقت يمر ثقيلًا ، وهكذا كان حالك منذ ان دخلت السجن
الا انك الان ، وبعد ان تحدد مصيرك ، تريد ان تستعجل
الذهاب الى هذا المصير ، مهما كان مخيفًا
فذلك افضل من زمن الانتظار ، الفارغ ، المميت
الذي لا قيمة له ولا معنى
والذي تراه عائقًا دون الوصول الى نقطة الانطلاق نحو المجهول
صار بإمكانك ان تترك الزنزانة مغلقة على قاطنيها
وتخرج الى الساحة للتجول هناك وحيدًا
تطوف بالتمثال البرنزي للبوّة التي ترضع شبليها
الرمز القديم ، للامبراطورية الرومانية ، مصنوعًا من النحاس
ومزروعًا في ساحة السجن ، دون ان ترى معنى لوجوده
في هذا المكان ، رغم انك تستطيع ان ترى في كائناته الثلاثة
شهودًا على ما مر في سجن بورتا بينيتو من احداث او تتحاور معها في غيبة الآخرين ، عليها
تقضي لك باسرارها
واهم هذه الاحداث كان التمرد الذي قام به النزلاء منذ عدة اعوام
اثناء احدى الاستراحات ، واستولوا على سلاح الحراس
فارسلت الحكومة كتيبة من الجيش ترمي بقذائف المدفعية
المتمردين وتقتلهم هم وحراسهم وقيل ان تمثال البوّة نفسه
الذي احتمي به المتمردون استهدفته القنابل وسقطت البوّة
مع شبليها حطامًا فوق الارض ، إلا أنهم اصلحوا ما اصاب تمثالها من
اعطاب وجراح واعادوه الى مكانه
اللبوّة بالتأكيد اصلح شاهد لمعرفة ما اذا كانوا حقًا
قد حفروا حفرة في هذه الساحة لجموع القتلى من المتمردين
وجعلوها قبرًا جماعيًا لهم ، لتأتي انت بعد اعوام من تلك المجزرة
وتمشي وحيدًا فوق جماجم وهاكل اولئك الموتى
لا يرافقتك سوى ظلك ، ولا تنتهي اليك سوى
وقع احذية العساكر وهي تضرب الارض في اروقة الادارة
او فوق سطح السجن وابراج المراقبة
وقد تلاشى البكاء والانبين الذي لا يظهر الا اثناء الليل

والذي سألت عنه كل الناس في السجن
من نزلاء وحراس ، من أجل ان تعرف مصدره
فلم تجد احدا يفيدك بشيء ، فهم مثلك يسمعون ما سمعت
من اثنين وبكاء وصراخ ولا يعرفون مصدره
بعضهم يقول ، على سبيل التخمين ، ان هناك انفاقا تحت الارض مخصصة لسجناء سياسيين
من خصوم الدوتشي
يرسلهم من روما ليلاقوا حتفهم تحت التعذيب في
هذه الانفاق ، لكن لا احد يعرف على وجه اليقين
حقيقة البكاء المكتوم البعيد الحارق ، الذي لا يغيب ليلة واحدة
حتى تألف معه السجناء فلا ينامون الا على ايقاع هذا الاثنين والبكاء هناك نوع اخر من
البكاء او الصراخ ، له هو الآخر توقيته الصباحي
معروف مصدره ، هو الناتج عن حصة الفلقة التي يتلقاها
كل النزلاء في أيام متعددة من الأسبوع
وكننت انت أيضاً شريكا في الجوقة التي تعزف
هذا النشيد الصباحي الحزين
الا ان دورك الان تضاعف فلم تعد شريكا
وانما مجرد مستمع
واللبوة المعدنية السوداء ، التي ارادها الاحتلال
رمزا جديدا للاتباع الروماني فوق هذه الارض
تقف فوق منصتها الرخامية، وسط هذه الساحة
ترضع شبليها ، وترفع رأسها ، تمد بصرها تفتش عن مصيرها
بعيدا عن بني قومها من كائنات الغابة ، غريبة وسط هذه البيئة
التي لا تحمل اية شبه بالبيئة التي تنتمي اليها ، تشعرك
بدرجة من التوحد والاندماع مع غربتها ووحدها وحيرتها
ازاء مصيرها المجهول
"وكل غريب ، للغريب قريب " قلت لها في خاطرك، متأملا هذه الصلة الغريبة بين غربة
المعادن وغربة البشر
حدث اكثر من مرة ان تنأى اليك صوت المؤذن
وانت في الساحة ، في اوقات الظهر ، او العصر ، او المغرب
فقد صرت تخرج للساحة كثيرا ، لمجرد ممارسة هذه الحرية

التي لا يملكها بقية النزلاء
فتتخذ مكانا بجوار التمثال وتتجه صوب القبلة لاداء الصلاة
وقد ليقتط الاذان في ذهنك، روابط وعلاقات وصور ومشاهد
ربطتك بهذه المدينة التي تغادرها يوم الخميس القادم
ولا تدري اذا كنت ستعود اليها ام لا تعود
تفرغ من الصلاة وتتساءل بينك وبين نفسك
اوبينك وبين اللبوة البرونزية ان كان هذا هو الوداع
الاخير لهذه المآذن وهؤلاء البشر وهذا الوطن بمفازاته
الصحراوية الشاسعة ، وولاحته التي تنتثر بقعا خضراء
فوق المتاهة الحمراء من الرمال ، لتتوى عظامك
في احدى الفجوج البعيدة لافريقيا السوداء
هل هذا هو آخر عهدك بهؤلاء الالهل والاصدقاء
الذين صاروا يقدون اليك باعداد كثيرة كل يوم
ويقومون المناحات في قاعة الزوار
فتخرج اليهم وسط القاعة ، وتلتقي بهم دون حواجز
تصافحهم وتتبادل معهم الاحضان والقبلات
لم يكن غريبا ان تبكي امك هذا البكاء الحارق القوي
الذي يهز حيطان السجن
وانما الغريب هو ان ترى والدك
الذي لم تشاهده يبكي قبل الان
يذرف الدموع غزيرة وهو يحيطك بذراعيه ويأخذك الى حضنه
ويعبر عن هذا الفيض من العواطف
وهو الذي كان حريصا في كل المناسبات
على ان يبدو قويا قادرا على حبس دموعه
وكبح مشاعره في اكثر المناسبات حزنا
التي شهدتها مع العائلة في طفولتك وصباك
بما فيها موت اعمام وعمات
هم بالنسبة له اخوة واخوات
ولم تستطع انت أيضا ان تقاوم الرغبة في البكاء
فصرت تذرف دموعا اكثر غزارة من دموعه

وانت تدرك لأول مرة ان لوالدك كل هذه العواطف نحوك
التي لم يكن يظهرها لك

واخرجت امك حجابا قالت ان الفقير عبد الله
اعده خصيصا لك ، وكتب فيه التعويذة التي تسخر
الملائكة لحراستك ، وعلقت الحجاب في عنقك
واوصتك الا تخلعه لا بالليل ولا بالنهار
لم تشأ ان ترد عليها ما جاءت به من قديد
وكعك وسويق ، ممزوج بمسحوق الحلبة
ومعجون بالزيت والتمر

اخذته منها ورجوت بعد خروجها عبد المولى
ان يأخذها ، لانك لن تذهب الى السفينة محملا
بهذه الصرة التي تفوح

منها رائحة الحلبة وشرائح اللحم المقدد
خشية ان يرمي بك قبطانها في البحر
جاءت نورية وصاحباتها ، بمن فيهن شريفة سيدة
البيت البدينة ، التي كانت دائما في استقبالك
جالسة في غرفة السقيفة بالبيت القديم بزينة البهلول
كما هي لم تتغير ، تنهج تعباً ، وتصدر شهيقا
وزفيرا عاليا ، حتى وهي واقفة لا تفعل شيئا
غير نش الذباب وتجفيف العرق
بالمروحة المصنوعة من سعف النخيل

جنن واحضرن معهن
لحم الذبيحة التي كانت تنتظر حفل خروجك
فذهبت اليوم وملأت هبر اللحم المذبوح طنجرتين
تم توزيع كل منهما على الحراس والسجناء
الذين تصادف وجودهم في قاعة الزيارات ، هم وضيوفهم
واخذت بعضا منه لرفاق الزنزانة
وبعكس الزيارات الأخرى ، التي يلونها الحزن
كانت هذه الزيارة الوحيدة المليئة بالمرح والدعابات
وخلقت كميات اللحم المطبوخ ، جوا احتفاليا

شارك فيه الحراس انفسهم
الذين كانوا ينهبون اللحم من بعضهم بعضا
ويطارد بعضهم الآخر ليسترد ما نهب منه
ولم تسمح لنورية ان تفسد هذا الجو بالبكاء
فقد اخرجت منديلها وبدأت اولى شهقاتها
فرجوتها الا تفعل ، لانك تريد ان تحتفظ بصورتها
في ذاكرتك ، وانت تذهب الى الحرب ، باسمه ، جميلة
لا باكية حزينة ، تقصد ملا محها الدموع
وقبل انتهاء الزيارة ، اخذتك السيدة البدينة جانبا
لتشكر لك الصنيع الذي قدمته لها ولنساء بيتها
واحبت ان تعطيك هدية ، ترد بها شيئا من جمالك كما تقول
هدية ، رأت انك ستحتاجها اكثر من أي شيء آخر ، في الايام القادمة المليئة بالاعمال
الحربية ، وهي علبة معدنية من غيرة المسك
رأتك تمسك العلبة حائرا ، لا تعرف شيئا عن استعمالها
ولا تدري لماذا ربطت بينها وبين العمليات الحربية
فافهمتك انها تحتوي مسكا من النوع الاصيل
المستخرج من اكباد الغزالات الذي لا تصمد اية
رائحة مهما كانت كريهة امامه
فهو يزيلها وينشر عبيره الزكي في مكانها
اذ انه ليس من تلك الانواع المقلدة الرخيصة
التي تملأ السوق وانك لن تجد شيئا افضل من
غبار المسك الحقيقي تحارب به رائحة الموت
وعندما رأت ان علامات الحيرة لم تختف من جبينك
رغم الشرح الذي قدمته ، اضافت بان المجاهدين انفسهم
كانوا يستخدمون هذه الغبرة لحفظ كرامة موتاهم
اثناء المعارك ، أي عندما يتعذر نقلهم ودفنهم
فكانوا يدرون غبار المسك عليهم
لتبقى رائحتهم زكية عطرة حتى تبلى عظامهم
وان هذه الغبرة هي اهم عنصر من عناصر الحنوط
الذي يدخل في تطيب الموتى من الاكابر والعظماء

ورغم ما يبعثه حديث الموت من كآبة
وما تثيره الاشياء التي تتصل به من رهبة وتخوف
فقد اخذت منها العلبة باسمها ، شاكرها لها هديتها ، مقدرا لها
شعورها النبيل الذي يدعوها للاهتمام بكرامة الموتى الليبيين
من ضحايا الحرب في الحبشة
وخطر لك عندما عدت الى الزنزانة ، ووجدت علبة المسك في جيبك
ان تجرب مسحوقها في محاربة الرائحة الكريهة
التي لا تزال عالقة بسقوف الزنزانة وجدرانها
وكانت النتيجة مبهرة ، فما ان قبضت باصبعيك على كمية
ضئيلة منها ، ورميت بها في فضاء الغرفة حتى نشرت عرفا طيبا
ازال ما كان يملأ الجو من زئج وعفونة
وعندما جاء الكبران لزيارتك ، ابى ان يأتي دون ان
يحضر معه جهاز الحاكي ، الذي رأى أن واجب الصداقة
يفرض عليه ان يعيده اليك
وحيث انك مسافر الى تلك المجاهل الافريقية الموحشة
فلا بد انك ستحتاج الى جهاز مثل الحاكي
يكون مصدر تسلية ومؤانسة لك
واختار ان يضع فيه اسطوانة تحمل اغنية شعبية
تناسب المقام هي :
"فتنا النخل والديس وتعدينا
لحقنا الندم ياربيتنا ولينا "
وقد أطلق الحاكي يلعلع وسط اجواء السجن
غير عابىء بما يمكن ان يقوله الحراس
إلا أنهم لم يقولوا شيئا ، فقد جاء من كان مناوبا منهم
في الساحة ، ينضم الى الموجودين في قاعة الضيوف
يسمع الاغنية التي تذكره باجواء اخري تركها وراءه
في الارياض التي جاء منها
ورغم جو المرح والتهريج الذي خلقه الكبران
ورفاقه الثلاثة من اعضاء الشلة الذين جاء بهم معه
قائلا بطريقته الفوضوية

بانهم جاءوا لوداعك ظاهريا ، اما الحقيقة فانهم جاءوا
لوداع الحاكي الذي يفارقونه بعيون دامعة
رغم هذا الجو الضاحك، لم تستطع ان تمنع عبراتك
من النزول ، وانت تستمع الى هذه الاغنية الحزينة
وكلماتها الموجهة المؤلمة
ولحنها الشعبي المرزقاوي الذي ينساب صافيا رقيقا
كالغدير ، و التي تصور قسوة الرحيل
توقف تهريج الكبران واصحابه واراد ان يوقف الاغنية
فسألته ان يتركها حتى تنتهي
جففت دموعك بعد انتهاء الاسطوانة
واردت ان تعود الى جو المرح
فقلت للكبران، انك ترد اليه الحاكي
بشرط الا يتركه دائما يردد الاغاني القديمة
التي ردها عشرات المرات، لكي لا يصيبه الضجر
ويتوقف عن العمل ، لان لمثل هذه الالات الناطقة
التي تدخل البهجة على النفوس ، شعور يشبه
شعور البشر ، ولا بد من تزويده بالاغاني
الجديدة التي تنزل السوق ، ليضمن له النشاط والتجدد
وسألته ان يحتفظ به كتذكاري منك
فاذن مرغما لرغبتك، واضعا شرطا لقبول الهدية :
— ساحتفظ به ليس كتذكاري وانما كإمانة تستردها عندما
تعود قريبا ان شاء الله .
— ان شاء الله .
نعم لانه لاشيء في الكون خارج هذه المشيئة الالهية
ولها وحدها حق اتخاذ القرار فيما كنت ستعود او لا تعود
وكانت ثريا التي لا تشبه شيئا غير اسمها
هي آخر من جاء صحبة امها واخيها
حاملة تحية والدها ورسالة شفوية منه ، تقول لك
بالا تستاء من شيء كتبه الله لك
وتحاول ان تسخره لصالحك حتى لو كان سجننا او ذهابنا الى الحرب

لأنه هو القائل " وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم"
اذ ما اكثر ما كانت التجربة القاسية فرصة لاختبار
قوتنا وتعزيز الثقة بانفسنا
دون ان تنسى وانت ذاهب الى الحرب
بان الاعمار بيد الله وانه لا احد في هذه الدنيا
يموت ناقصا عمرا
افرحك حضورها ، واشاع في نفسك شعورا بالطمأنينة والامان
وقفت قبالتها محاولا ان تحتوي ما يفيض به
وجهها من عذوبة وشفافية
وان تستمد من وهج عينيها دفئا لاعماقك المقرورة خوفا
وان تستمد منها ضوءا يزودك بطاقة جديدة تعينك
على تحمل اعباء التجربة المريرة القاسية التي تنتظرك
اعتذرت لامها عن صرة الاطعمة التي تشبه صرة امك
تريدك ان تحملها لصهرها فتحي
متحججا بانهم يرفضون ادخال مثلها الى السفينة
ووعدها بانك ستبحث عن فتحي حتى تلقاه
وترسل من هناك رسالة تبلغهم فيها باحواله واحوالك
مع صورة شمسية لكما على ضفة احد الانهار
تشربان حليب جوز الهند
قلت هذا الكلام لتخفف عن المرأة المسنة
فلقها على صهرها ، وترسم لها صورة أخرى
غير صورة الحرب
ندمت على شيء واحد هو انك لم تنتهز فرصة
خروجك منفردا مع ثريا ، فتأخذها الى احد المصورين الطليان
من أجل صورة تذكارية ، تكون زادا لك في تلك البلاد البعيدة
تمنيت لو استطعت احتضانها
ولان ذلك كان مستحيلا في مثل هذا المكان
وفي حضور امها واخيها
فقد اكتفيت بان امسكت بيدها واستبقيتها في يدك
دون ان تتركها ، مستمتعا بلذة هذا التواصل الحسي

وما ترافقه من متعة روحية تسكب
فطراتها في صدرك بردا وسلاما
احضر لك عبد المولى من غرفتك بالفندق حقبة
احتوت بعض الامتعة التي تحتاجها في السفر
واودع ما تبقى لدى اسرتك ، وجاء في صباح يوم
الخميس ، اثنان من جنود البحرية لأخذك في سيارة
عسكرية الى الميناء ، واصطحباك الى ان تدخل السفينة
و تسليمك لاحد حراسها
ولم يعودا حتى جعلاه يضع توقيعه على الورقة
التي تفيد باستلامك منهما كاية عهدة
كان المشهد مؤثرا وانت تجد هذا العدد الكبير من الاقارب
او الاصدقاء من رجال ونساء ، جاءوا لوداعك
وكان الفضل لعبد المولى في ابلاغهم
بالموعد وتجميعهم على هذا النحو
بمن فيهم الشيخ البلبال الذي وجدته يقف قريبا
من سلم السفينة لحظة وصولك اليها
وفي يده قطعة من جريدة نخيل يغطيها السعف الأخضر
فقاءلت بوجوده بين المودعين ، وتفاعلت بجريدة النخيل
التي تعلق عادة على ابواب البيوت طلبا للفال الحسن
واقبلت تشكره وتحبيه، إلا أنه حاول ان يمازحك بطريقة
اثارت حنقا قليلا عندما رفع قطعة الجريد
وانت تصعد السلم وظل يضربك بها على ساقيك وقدميك
ضربا مؤلما ، لم ينقذك منه الا وصولك اثناء الصعود
الى مستوى اعلى مما تصل اليه جريدته
دون ان تدري ان كان معنى هذه الحركات هو انه يبارك رحيلك
ام تراه يعبر عن غضبه منك ، اذ من تراه يستطيع
ان يعطي تفسيرا لافعال درويش مثل الشيخ البلبال؟
اسعدك كثيرا ان ترى الحاج المهدي قد جاء راكبا الكروسة
وظل جالسا بها يلوح لك بيده مودعا
ولم تكثف نورية هذه المرة بجلب صاحباتها

وانما احضرت اينتها ورده ذات السنوات السبع
وصارت ترفعها فوق رأسها لكي تراها
مع مجموعة نساء لا تعرفهن ، يقفن بجوارها
ويرفعن ايديهن بتحية الوداع ، خمنت انهن من نساء
سيدي عمران ، ممن حصلن على البيوت الجديدة
اثر تلك الزيارة، وراين في ذلك معروفا
اسديته اليهن وجئن يكافئنك بهذا الوداع
بينما وقف حول الكبران اناس لا تعرفهم يلوحون
لك بايديهم ، فتذكرت ما سبق ان قاله عن وجود
اناس من اصحاب الشكاوي
ممن استجابت الحكومة لشكاوهم التي اعطوها لك
وهم يبحثون عنك ليعبروا عن مشاعر العرفان بالجميل
وقريبا من السلم ، وقف والدك مع عدد من أبناء البلدة
ينظرون باستغراب لهؤلاء النسوة الطرابلسيات
اللاثي جئن لوداعك، غير قادرين فيما يبدو على
تفسير او معرفة الرابطة التي يمكن ان تربطك بهن
وحاول والدك ، اثناء مرورك قريبا منه، ان ينقل اليك
دعواته ووصاياه بان تأخذ حذرك وتحافظ
على نفسك ، وتعود لاهلك سالما غانما
ولم تستطع فيما تبقى من زمن الانتظار
على رصيف الميناء
وانت واقف بمحاذاة سور السفينة
وسط عدد من المجندين الذين يلقون نظرتهم الاخيرة
قبل السفر على اهلهم ، الا ان تصرف ذهنك كله
وتتجه ببصرك الى امرأة واحدة في هذا الحشد
استولت على مشاعرك ، ورمت شباكها على قلبك
فاضحى رهينة في قبضتها ، الى درجة احسست معها
بتأنيب الضمير ، لان امك التي تكي بذات
الحرقه واللوعة ، منذ ان جاءت من القرية
لم تستطع ، برغم حبك لها ، ان تستقطب مشاعرك

كما تفعل ثريا بما لها من سحر على روحك
وقوة جذب وسيطرة على عقلك وقلبك وجسدك
وقد احسست بعد فترة من التحديق فيها
وتركيز بصرك عليها، ان الافق كله امتلا بصورتها
الى حد انك لو تركت النظر الى المكان الذي تقف فيه
واتجهت ببصرك الى جهة أخرى من الرصيف
او الى الناحية الثانية من الافق ، لرأيتها هناك
تنظر اليك باسمه ، وترفع يدها ملوحة بتحية الوداع

وكان أجمل ما حدث لك في هذه اللحظات ، ان رأيت مصورا
إيطاليا، يلتقط الصور للمودعين من فوق ظهر السفينة
وعندما عرفت انه مراسل حربي
سيرافكم الى الحبشة، طابت منه
ان يلتقط صورة مقربة لثريا
وستعطيه أي ثمن يطلبه
إلا أنه ابدى استعداده لالتقاط الصورة لثريا بلا ثمن
قائلا بان هذا هو ابسط واجب يقدمه صحفي إيطالي
لجندي ليبي في طريقه الى الحرب في صفوف الجيش
الإيطالي . اسعدتك استجابته السريعة ، الا ان مزاجك
الحزين هذا النهار ، وضعها في مصاف الاستجابة
التي يلقاها عادة المحكوم عليه بالاعدام ، لما يسمونه
الرغبة الاخيرة

لان هذه كانت آخر امنية جاهرت بطلبها من إنسان
قبل ان ترفع السفينة خطافاتها التي تشدها الى قاع البحر
وتفك الحبال التي تربطها باوتاد الرصيف
وتباشر ابحارها الى الشطوط البعيدة
ابتعدت السفينة عن الشاطئ
وشمس الظهيرة تغرق المدينة بفيض من الضياء
فودعا طرابلس القلعة ، والميراماري ، وبرج الساعة
والفندق الكبير ، وسيدي الشعاب، والقباب الذهبية لقصر الحاكم

و مآذن جامع الباشا ، وقرجي ، وين ناجي ، وميزران
الشاطيء ياخذ تكوينا جماليا مبهرًا كلما اوغلت
السفينة في عمق اليم
يتحول الى هلال ضخم ، يحضن زرقة البحر
باخضراره المضيء ، اللامع ، واقواس الحجر واوراق الشجر
التي تصنعها الصورة البعيدة ، لأشجار النخيل
وهي تندمج في اجنحة الابار المحاذية للشاطيء
يتضائل حجم المدينة ، وتتلاشى ابنيته وقصور حكامها
فلا يبقى ظاهرا الا ذؤابات أشجار النخيل ومآذن المساجد
لايد ان تركب البحر لترى طرابلس
على حقيقتها، هكذا كنت تقول لنفسك طوال الوقت
لايد ان تبعد عنها لترى الاقلاق الذي صنعته مأذنة ونخلة
وجناح بئر، وشريط ارض خضراء ، تحف به
سيوف الرمل الحمراء
وكيف يحدد هذا الخط ، بالوانه التي تشبه قوس قزح
هويتها وشخصيتها ، ويقول لحاكمها الإيطالي
افعل ما شاء لك المزاج والفن والجمال ان تفعل
تزويقا وتلونيا لهذه المدينة
من أجل الباسها حلة اجنبية
فانها ستبقى واحة من واحات الصحراء
تحيط بها الارض القاحلة الجرداء ، وكتبان الرمال التي
تتماوج حمرتها المبهجة تحت ابخرة الشمس الحارقة
هذه الرمال التي صنعت ذراعين عملاقين
بحملان الواحة الخضراء ويقدمانها قربانا للبحر
كل شيء يسبح في الضياء الصارخ لشمس الظهيرة
كل شيء يتراءى لك وكأنه ينفك ويتحلل ويسير مبتعدا
عن بعضه البعض . الشاطيء يسير القهقري
متراجعا مبتعدا عن السفينة
والسفينة تسير مبتعدة عن الشاطيء
والبحر الذي تتماوج زرقة وتتحرك مياهه وتتكسر

فوقها أشعة الشمس العمودية ، يسير هو الآخر مبتعدا

عن خط الافق

وترفع بصرك الى السماء ، فتجد سحباً بيضاء

كندف القطن

تلتقي ثم تنفصل عن بعضها البعض

والافكار في رأسك ، عربات تلاحق بعضها بعضا

وتصطدم ببعضها البعض

قبل ان تغيب في السديم الكبير الذي يغلف الكون

ولا تدري لماذا خطر ببالك ، وانت ترى طرابلس

محمولة فوق الذراعين الأحمرين ، العاريين ، المتوهجين

لعملاق الرمال ، مشهد مختار العساس ، وهو يحمل بين

ذراعيه جثة ابنته، وسط البراري

تذكرته وهو يبكي ويسير ، باحثاً وسط مناهة

الصحراء الشاسعة ، القاحلة ، الجرداء ، الحمراء

عن قبر يدفن فيه ابنته

رأيت المدينة تبكي وتسير ، والشاطيء يبكي ويسير

والسفينة تبكي وتسير ، والشمس في قبة الكون ، تبكي

وتسير ، وانت تبكي وتسير

باتجاه مصير غامض مجهول .

انتهى الجزء الثالث من خرائط الروح ويليه

الجزء الرابع